

حليم بركات

المدينة الملوّنة

دار الساقي

حَليم بركات

المدينَة الملوّنَة

الطبعة الورقية الأولى، 2006
الطبعة الإلكترونية، 2011

ISBN-978-614-425-251-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

الجزء الأول: استكشاف المدينة من خلال دمارها: (في الربع الأخير من القرن العشرين وبدايات قرن جديد)

في يوم من ذات الأيام دخل صيادٌ كهفاً من كهوف الجبل ووجد فيه خلية نحل مليئة بالعسل فجمع شيئاً من ذلك العسل في قربة كانت معه ثم حملها على كتفه وأتى بها المدينة ومعه كلب صيد كان عزيزاً عليه، فوقف الصياد على دكان زيات وعرض عليه العسل فاشتراه صاحب الدكان، ثم فتح القربة وأخرج منها العسل لينظره فقطرت من القربة قطرة عسل فاجتمع عليها ذباب فسقط عليه الطير. وكان للزيات قط فوثب على الطير فرأه كلب الصياد فوثب على القط فقتله، فوثب الزيات على كلب الصياد فقتله، فوثب الصياد على الزيات فقتله. وكان للصياد قرية وللزيات قرية فلما سمعوا تلك الأخبار أخذوا أسلحتهم وأقاموا على بعضهم غضبى والتقى الصفان فلم يزل السيف دائراً بينهم إلى ان مات منهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله تعالى

ألف ليلة وليلة (الليلة 582)

1 ـ زمن الولادة الجديدة

حرصت على العودة سنوياً من المهجر إلى بيروت خلال الربع الأخير من القرن العشرين مما اتاح لي التأمل في الدمار الذي أصابها وسعيها لولادة جديدة من رمادها للمرة الثانية بعد الاستقلال. ووجدتني أيضاً، من حيث لا أدري، استعيد ماضيها في منتصف القرن وهو زمن فتوتي فخضتُ أحاديث ممتعة ومثيرة مع نفسي والآخرين، وكثيراً ما تحوّلت هذه الأحاديث إلى نقاشات حامية فقلت لنفسي مرة بعد أن تجولّت وسط الدمار مع حبيبتي رؤى وصديقي عادل كما لو أتكلم مع شخص آخر هو غيري: أنتَ يا نادر الكفروني لا تعرف هل دخلتَ بيروت من بوابة ألف ليلة وليلة أم دخلتَ عالم حكايات ألف ليلة وليلة من بوابة بيروت؟ وأهم من هذا هل أردتَ أن تسجّل سيرة شبابك أنتَ أم سيرتَها هي؟

وفي محاولة يائسة للاجابة على تساؤلي بأنني ربما أحاول من موقع نهاية القرن العشرين، وبفعل تقدّم العمر، أن أتذكر أيام الصبى وأتساءل سرّاً وعلناً هل أصرّ على الاحتفاظ بنشاطي كما تمعن بيروت نفسها باستعادة ازدهارها. وصدف أن كان صباي في منتصف القرن أقرب إلى صباها هي أيضاً. وها أنا ما أن أستكشف بعض أحداث الماضي من خلال علاقاتنا الحميمة حتى تستيقظ ذكرياتي الشخصية والعامة متشابكة، متوهِّجة، غامضة.

عَرِفْتُ جيداً أن بيروت ليست المدينة التي تنام باكراً مع العصافير، وأن ليلها أجمل ما تَعِدُ فيه سكانها في مختلف الفصول فكثيراً ما سهرنا معاً مراراً عديدة كل اسبوع إلى أوقات متأخرة دون احساس بالتعب أو الملل والنعاس. ولتولّعي بها وبفنون الرواية والشعر لم يكن من الغريب أنني حفظت مؤخراً بعض ما قال بها الشعراء فردّدت ُفي أمسيات حافلة مع نزارقباني أن بيروت عشتار وحقل لؤلؤ وميناء عشق وقصيدة وردٍ لم يوجد قبلها وبعدها ومثلها شيء، ومع محمود درويش أنها تفاحة للبحر نأتي إليها كي نأتي إليها، وثم مع أدونيس:

أنها جسدٌ ولبانٌ ومسكٌ

فأرّخْ هذا الزمان باسم هذا المكان.

غير أني نسيتُ، وأنا اتجوّل وسط دمار ساحة البرج، ما حفظتُ من تبجيل لبيروت حين استرجعنا تفاصيل حياتنا فيها. تردّد أنها كانت مركزاً ثقافياً ومالياً في الخمسينات، ولكنه تبيّن لنا أنها في واقع الأمر لم تكن تملك ثقافتها كما لم تملك بنوكها فاصبحتْ وسيطاً وأقامتْ علاقاتْ إنما ليس مع نفسها بل مع غيرها. يؤسفني أنها أرادتْ ان تكون غيرها بالتخلي عما يراه البعض جوهرها، وليس من الغريب أن هناك البعض الآخر الذي يرى أن جوهرها لا جوهر له. وحين واجهتُ الدمار العبثي إثر الحرب الأهلية الثانية بعد الاستقلال، أنهارت داخل نفسي الأساطير التي حيكتْ حول البلد فأقتنعتُ أنه كان يقوم على أسس واهية لم تصمد عندما عصفت بها رياح الأزمات العاتية. وعادتْ بي الذاكرة إلى ان غسان تويني كتب قبل اندلاع هذه الحرب بحوالي سنتين ان حديث الازدهار اللبناني مؤلم ليس فقط للفقراء بل كذلك لمجموعة اللبنانيين فالمليارات المودعة في المصارف تذكّر الشعب بحكاية الحمار المحمّل ذهباً في مشوار طويل. وربما نسيتُ أنني قبل سبع سنوات من اندلاع الحرب كنت قد كتبتُ شخصياً في صحيفة النهار أن «اللبناني مغترب سياسياً في بلاده: يقف في الماء ولا يرتوي وفوقه شجرة لا يطال ثمارها»، وأن لبنان «سيظل مجتمعاً فسيفسائياً... مهدّداً في جذوره» إن لم «يُستبدَل النظام الطائفي بنظام علماني».

وها قد مضى ربع قرن وما تزال آثار الحرب تتفاعل فتعيش معنا وتقتات خبزنا، وكان أن تاقتْ نفسي لاستكشاف بيروت بعد انقطاع طويل فاستأنف علاقتي بأزقتها، أحيائها، أناسها، لهجاتها، لغاتها، رموزها، تصوراتها، أسرارها، طموحاتها القديمة والجديدة، إحباطاتها، روائحها، تعاملها مع البحر والجبل والشجر. إنني مسكون برغبة البحث، بالتنقيب، برؤية الصورة في شموليتها وما وراءها، وكيف تكوّنتْ ولماذا، وما كان فعلُ التاريخ بها هي التي تتغنّى بانجازاتها التاريخية في الوقت الذي ينتشر بينها تيار يُولع بتقليد تفاهات الحضارة الغربية أكثر من الانفتاح على تجاربها الإبداعية. وأكثر ما يؤلم في تصرف هؤلاء أنهم يحدّدون هويتهم بما يستوردون وليس بما ينجزون.

قرأتُ، تمهيداً للتعرف إلى أسباب الدمار وآثاره، أن بيروت كانت مدينة مسوّرة لها ثمانية أبواب تمتد من ساحة البرج إلى باب ادريس ومن باب ابو النصر إلى المرفأ، فبدت منعزلة عن ضواحيها البعيدة. ومن الأساطير التي اعتدنا الافتخار بها أن احد ملوك جبيل تزوّج امرأة تدعى بيروت بنى لها مدينة أسماها باسمها، ثم اهدتها إلى الإله نبتون، إله البحر، الذي جعلته شفيعها. وقيل أيضاً في الأساطير أن شفيعها كان مار جرجس الذي حاول عبثاً أنقاذها من التنين. أما انا فاقول أن التنين ما زال يهدّدها، وانها ولدت نتيجة لعلاقة عشق بين البر والبحر، وصحيح أن ابوابها واسوارها هُدِّمتْ، لكن كل جماعة من جماعاتها العديدة ظلّت تعيش ضمن اسوارها الوهمية وبواباتها الخفية المغلقة.

ولم أستغرب في نقاشاتي مع صديقي عادل أن بيروت تهدّمتْ واعيد بناؤها زمناً بعد زمن، إنما ليس بسبب الزلازل الأرضية فحسب كما يُقال. هناك أيضاً الزلازل الاجتماعية التي لا تذكرها كتب التاريخ المنشغلة بأخبار السلاطين والأمراء لا أخبار الشعب والمجتمع. ومهما كان، فإننا نتعرّف إليها من القول بأن الزلازل كثيراً ما كانت تسبقها وتتبعها أمواجٌ صاخبة ونار. وهذا هو في جوهر ما أختلفتُ حوله في نقاشاتي مع صديقي عادل الذي اتهمته أنه أصبح يفضّل التكيّف باسم العقلانية مع الواقع بدلاً من المواجهة.

ومن أين لي ان اجابه عادل فقد بقي هو في بيروت طيلة الحرب الثانية وعانى من مختلف أوجاعها ومخاوفها. أما أنا فهاجرتُ، على أمل أن يكون رحيلي موقتاً، منذ ربع قرن بعد الجولات الأربع الأولى من الحرب الأهلية في صيف 1975، وعند بدايات دفن الأحلام الكبيرة والصغيرة دونما تمييز. ومن حيث لا أقصد وعلى عكس ما تمنّيتُ وبسبب ظروفي الخاصة طال الغياب في واشنطن ربع قرن تخلّلته زيارات سنوية قصيرة متقطعة إلى بيروت التي تربطني بها علاقة طقوسية بخيوط واهية لامرئية. وهكذا دون توقّع أو تخطيطٍ، تحوّلت الهجرة الموقتة إلى هجرة دائمة فوجدتُ نفسي في المنفى لا أدري هل هو نفيٌ طوعي أو قسري. مهما كان، واظبتُ بودٍ على القيام بزيارات عابرة في زمن الحرب كما في زمن السلم العابر، وخفّف ذلك بعضَ الشيء من آلام المنفى.

وما زال جسدي يقشعر خوفاً حين أتذكّر انني عبرت مرة عند الغروب بسيارة الفولزواغن من رأس بيروت إلى جونيه مروراً بالكورنيش وعين المريسة والزيتونه والنورمنادي والعجمي والمرفأ، وكان ذلك في زمن إنتشار القناصين والقناصات. ولن أنسى أبداً حدثاً آخر لا يقلّ رعباً. ما أن هبطت بنا الطائرة مساء يوم في بيروت واستأجرنا تكسي عبرت بنا منطقة الضاحية إلى منزل أختي في الحَدث حتى بدأت معركة دام فيها تبادل الرصاص طيلة الليل فسألتني رؤى «جئتَ بي إلى بيروت للتخلّص مني يا ملعون؟»، فأجبتها ضاحكاً «هل يُعقل أن أضحّي بنفسي كي أتخلّص منك؟»

ولدى عودتنا مرة من المهجر والخوض في حديث عن سنوات المنفى، قلت لرؤى وعادل أنني أتوق لزيارة حلب ودمشق لأنعم بما أظنه أقرب ما يكون إلى ثقافة عربية أصيلة لكثرة ما تعبتْ نفسي بعد كل هذا الغياب مما يُسمّى حضارة غربية حديثة. إنبهرتُ بها في بداية تعرفي إليها، وما زلتُ أعترف بفضائلها. غير أنني بدأتُ أكتشف تدريجياً أن لها هي أيضاً مشكلاتها وأزماتها وتناقضاتها الداخلية المستعصية عدا أنها تسعى لاقامة امبراطورية للهيمنة على العالم. أما بيروت، مهما كانت أحوالها ومواقفي منها، فانني أجد نفسي أنجذب إلىها انجذاب الفراشة إلى الضوء. هي في ذهني المكان الخاص الذي يلتقي فيه القديم بالجديد ويتفاعلان معاً فتنشأ بينهما علاقة غريبة عجيبة لم أجد بعدُ إسماً مناسباً لها. ومهما قسوتُ في انتقادها، كأن أقول أنها ما تزال مخدوعة بالغرب وتميل إلى تقليده تقليداً أعمى في أزيائه الخارجية، أعترف ان لها فضلاً عليّ وقد نعمتُ فيها بحريات تتشابك حدودها بحدود الفوضى دون خوف عند الضرورة من توجيه الانتقادات إليها وجهاً لوجه. ولأسباب غامضة، أجد نفسي أتجوّل دون تصميم وتخطيط في أحيائها وشوارعها وأزقتها كما لو أُريد أن اكتشف أسرارها الخفية، وكثيراً ما توالدتْ في نفسي فجأة ودون توقّع ذكرياتٌ قديمة ظننتُ أنني نسيتها كلياً فاستقبلتُها بترحاب ودوّنتها في سجّل يومياتي.

ولكنني أعود بعد كلِّ زيارة مهما طالتْ أوقصرتْ إلى المنفى مرة أخرى وقد سيطر عليّ شعور مؤلم فأقول لنفسي قبل غيري، غريبة علاقتي ببيروت ومتناقضة فتتسع المسافات النفسية بيني وبينها في فترات خاصة لدى قدومي إليها وتتلاشى كلياً في فترات أخرى كتلك التي تكون قد طال الغياب عنها. عند الافتراق أشعر انني أحبها أكثر مما تحبني، أو هكذا أظن في تلك اللحظات العابرة التي ابدو فيها أمام مرآة نفسي كما لو أنني ألجأ إلى محاولة فاشلة للتخفيف من أوجا ع داخلية ومن إنتقاداتي كي أسوّغ هجرتي، ثم أعود لأحن إليها بعد أن يطول الغياب وأزداد تعلّقاً بها فأتساءل لماذا أُعاملها بلطفٍ بينما تعاملني بقسوة أم ترى العكس هو الصحيح؟

ومهما انجذبتُ إلى بيروت، لا أنكر انني انفر في عمق اعماقي من بعض تصرفاتها واتجاهاتها السقيمة المزيفة. احب بحرها، وهي

تعاديه. احب الطبيعة، وهي تتعامل معها بشراسة. أولع بالاشجار وهي تقتلعها دون تردّد وتزرع الابنية الاسمنتيّة الشاهقة البشعة مكانها، وأعشق الطيور وهي مولعة بالصيد. ألومها لقسوتها وعدم قدرتها على التجدّد الحقيقي، وألوم نفسي انني ربما اتعامل معها كمحلِّل يركّز على مشكلاتها وأزماتها وليس كصديق يتقبّلها كما هي بلا قيود وشروط. أما أكثر ما أستاء منه في واقع الأمر فهو احساسي بانها تميل للتقليد أكثر من الابداع في علاقتها بالغرب فتنبهر بأزيائه فحسب وترفض الأسس التي اعتمدها في تحقيق انجازاته الكبرى. ثم أن هناك ظاهرة لا أعرف كيف التعامل معها، فيبدو لي أحياناً أن اليمين السياسي اللبناني يتعمد تقليد الغرب، وخاصة فرنسا، كي يبدو مختلفاً في هويته عن بقية المنطقة العربية في محاولة لتسويغ عزلته.

وحين تتضح لي هذه الأمور بكل تعقيداتها وسياقاتها، أشعر ان علاقتي ببيروت ليست على هذا القدر من الغرابة كما أظنّ. أنها علاقة انجذاب ونفور متبادلة تزداد حدة وتعقيداً وقسوة في الأزمات عندما تفلت الأمور من يدها ومن يدي. تفلت من يديّ كطائر فاجأتْه طلقات الصيادين وهو يلهو، أو كعروس البحر التي كنتُ في فتوتي ومطلع شبابي أراها رمزاً لبيروت وأسعى أن أقيمَ علاقة عشق معها فأبحث عنها دون كلل على الشواطيء الرملية والصخرية وكهوفها وفي الأعماق دون خوف من الأمواج الصاخبة. إنما عبثاً بحثتُ عن عروس البحر صباحاً وعند الظهر وبعد الغروب وفي الجزر القريبة والبعيدة، وفي لحظات عابرة ظننتُ انني رأيتها لكنها كانت تختفي لحظة ظهورها فأتساءل: هل أنا ضحية أوهامي أو قراءاتي المبكرة لكتابات جبران الخيالية، أم تُرى هي وهمٌ كمدينة بيروت نفسها؟ ترى أين حدود الوهم وحدود الواقع أم أنه لا حدود بينهما خاصة عند التأمل بواقع بيروت الذي، كالموج، لا يعرف الإستقرار؟

بدأت علاقتي ببيروت في طفولتي المتقدّمة، وأظن انني كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري فأنا لا أعرف متى كان تاريخ ولادتي تماماً كما لا تعرف هي أيضاً تاريخها القديم أو حتى الحديث فتخترع تاريخاً لا علاقة له بالواقع، وترفض أن تخطّط لحاضرها ومستقبلها سوى من قبل الدعاية وفي سبيل مصالح خاصة وآنية. أقبلنا إليها في بدايات زمن نزوح القرويين إلى المدن والتقينا فيها من مختلف الانتماءات كما لو كنا على موعد. مَنْ خطّط لنا ان نلتقي ولأية أهداف؟ ما الذي جذبنا إليها نحن أبناء القرى وبناتها؟ وأية مطامح كانت تدفعنا باتجاهها؟ كيف قبلنا ان نُقتلع من جذورنا في الجبال المشرفة على أودية خضراء تجرى أنهرها بشوق إلى البحر؟ وبعد ان تطول الإقامة في بيروت، لماذا يستمر كلّ هذا التعلق بالقرية والجبل والحنين الدائم الذي لا ينضب؟

وكثيراً ما ضعتُ في متاهات ذكرياتي منذ قرّرتُ، بعد نصف قرن، أن أروي أسرار زمن المراهقة وبدايات النضوج. نقّبتُ عنها مستعيناً بالحديث مع رفاق العمر في ذلك الوقت، والعودة إلى الصحف والكتب والرسائل كتلك التي تبادلتها خاصة مع عادل، ورؤى التي قلت أن شاعراً منحها هذا الإسم، وصَبَا التي تولّعتُ باسمها قبل أن أتولّع بشخصها باعتبار أنها تعني ريحاً تهبُّ من الشرق. واستعنتُ بالتمشي وسط الدمار في شوارع بيروت وأزقتها، وخاصة تلك التي عرفتها معرفة حميمة وفي طليعتها رأس بيروت والبرج ومنطقة باب إدريس. وكما نقّبتُ في دمارها كما لو أبحث عن خفاياها وخفايا نفسي، أجريتُ دون كلل مقابلات مع عدد كبير ممن يعرفون أسرار بيروت.

ثم انني عدْتُ إلى يوميات قديمة فاكتشفت كم نسيتُ من أحداث حياتي وما توصّلنا له من قناعات ومعتقدات، وما المشاعر التي أحسستُ بها كما لو كانت جرحاً في نفسي أو كما لو أصبحتُ مؤرّخ حياتي دون تصميم مني وكبح جماح مخيلتي. هكذا، من موقعي المضطرب واقتراب بدايات التقدّم في العمر، أردتُ ان أروي حكايات أيام فتوتي وشبابي في بيروت قبل أن تتلاشى من ذاكرتي، ولا أدري كيف ستؤثر أحداث حاضري برؤيتي للماضي واستعادة حكايات منتصف القرن العشرين وقد بدأ يندثر ويشرف على الإنتهاء ليبدأ قرن جديد.

مرة أخرى استيقظتْ في نفسي بيروت من ركامها فجأة ودفعة واحدة، وكانت آثار دمارها ما تزال عالقة على شعرها المتدلي على كتفيها مثل شلال في موسم الجفاف. ولم يكن من الغريب، بعد أن شاهدتُ ذلك الدمار ولمسته بأصابعي كما لو كان جرحاً، أن أعود إلى زمن البدايات لأروي من موقعي في نهاية القرن العشرين ووسط دمار بيروت ما شاهدتُ واختبرتُ في الخمسينات. أنظر إلى الماضي من موقع المستقبل، وإلى المستقبل من موقع الماضي. هل المستقبل الذي أعيشه هو ما أردته لنفسي؟ من الفاعل إن لم أكن أنا أو نحن؟ من نحن وما الروابط التي تجمعنا في زمن التفتّت؟ وهل يكون من الضروري ان أتحرّر من المستقبل كما أعمل على التحرّر من الماضي؟ ولكن أي معنى للحاضر الهزيل الذي نعيشه؟

واعترفتُ أول ما إعترفتُ لرؤى ان لدي أفكار ومعتقدات وملاحظات رويتها من موقعي، ولكنني من ناحية أخرى تركتُ الأحداثَ التي

عشتها تستيقظ في الذاكرة تلقائياً فاستدعى كلُّ حدثٍ حدثاً آخر، كما تعمّدتُ بمختلف الوسائل أن أوقظ ذكرياتي عن بيروت من نومها العميق في الوقت الذي تفضّل هذه المدينة الملونة أن تدفن ذاكرتها ربما للأبد. ومهما كان، أدركتُ بمرور الوقت أن ما بيني وبين بيروت ليس وهماً بل لغزاً. كنت صبياً، وكانت هي عروس البحر الصغيرة التي إختفتْ عن ناظري فبدأتُ أبحث عنها دون إنقطاع في قاع البحر وجزره المتناثرة. أما بعد أن شاهدتُ كل ذلك الدمار المروع ولمسته بأصابعي كما لو كان جرحاً طرياً، لم يكن من الغريب أن أعود إلى زمن البدايات.

في الواقع أنني لا أدري هل ما يحدث في نهاية القرن نوعٌ من تقديم العزاء باحتضار بيروت، أم اعدادٌ لمسرح الاحتفاء بولادتها الجديدة. يبكي اللبنانيون مجدهم الغابر، وبيروت جثتهم المنطرحة علي هامش الرصيف، وما يعيشونه هو أقرب إلى الكابوس منه إلى عودة الأحلام بانبعاثها. إن مستقبل بيروت، كما يبدو لي من مشاهداتي ونقاشاتي، مرهون ليس فقط بما يحدث فيها وحولها بل في محيطها الأعم. ومهما كان، لبنان يراهن على السلم. ينشدّ إليه كما كنا ننشدّ للتعاطف والتضامن مع الضحايا في الأفلام دون أن تكن لنا القدرة على التأثير باحداثها. كل ما تمكّنا منه هو الإحساس بما يجري والتمني بقدوم العدالة والحرية. هذا التمني هو الذي نجلس على عرشه المنهار في هذه الأيام الموحشة. وها هو كل شيء غير مستقر، ولا نعرف هل نحن مقبلون على ربيع أم خريف، صيف أم شتاء؟ ومع هذا نتساءل: الأيام الماضية الجميلة، هل تعود؟

من خلال دمارها بعد حرب أهلية طويلة وعبثية وبشعة ومتوحشة استيقظتْ بيروت الخمسينات من نهاية القرن العشرين في نفسي وخلايا جسدي. أقف وسط الدمار كما لو كنت جزءاً منه وأهمس لنفسي، «كانت هناك أحلام باهرة لا أدري ما حدث لها. كيف تبدّدتْ؟ لماذا؟ إلى أين وإلى متى ننتظرها؟»، ثم أتوجّه لحبيبتي رؤى ولصديقي عادل متابعاً حديثاً شغلنا لزمن طويل، «إننا نعيش زمناً اردنا فيه ان ننسى قسوة العالم وتطلّعنا إلى مستقبل حافل. ظننا ان الاستقلال سيكون بوابة مستقبل نصنعه نحن بارادتنا وبلون أمنياتنا، فإذا بنا نعيش سيناريو لم نكتبه ونلعب دوراً لم نبدعه، ومهما كان لا يبدو أننا نجيد تمثيل الدور المطلوب».

لذلك أحرص على تساؤلي كلما تقدّمتْ خطواتي: متى تستيقظ بيروت من رماد الذاكرة، وكيف نقبل ان يسرق منا البحر، ولماذا نكتفي بالشكوى تحت شمس الشرق القاسية، وترى ندرك أن حرباً من نوع آخر تندلع بين أبنيتها التي تسدّ الأفق عن بعضها البعض، وهل بيروت مدينة الماضي أم مدينة المستقبل؟ وبل لماذا نكتفي بالشكوى ونهمل أن نجد أجوبة على أسئلتنا المضنية؟

لم أجب على هذه الأسئلة ولم يحفل بها صديقي عادل وإن جرى نقاش عابر بيني وبين رؤى حول بعض جوانبها بين وقت وآخر، وإتفقنا مع شيء من التحفُّظ من قبلها أن كل ما نعرفه عن بيروت في واقعها الحالي هي إنها مدينة دون حاضر كي يكون لها مستقبل نريده لها. وحين أتوصّل إلى هذا الإستنتاج لا أدري، عندما أتطلع في نهاية القرن العشرين إلى منتصفه، هل كنا نسلك طريقاً نحو القمة أو ننحدر إلى الهاوية؟ ثمّ أنني لست أدري لماذا تمتلكني رغبة جامحة بأستعادة زمن الفتوة وأبناء هذا الجيل يرحلون كما رحلتُ وأصبحتُ منفياً وما يهمني أن قرناً جديداً أشرق لا أعرف إلى أين تنتهي دروبه وما المصير الذي ينتظرنا إن كان في الوطن أم في المنفى.

هنا تقول لي رؤى أنني أبالغ في تشاؤمي، فأعترف أنها على حق في اتهامها لي، غير أنني من ناحية أخرى استند إلى حجج وأدلة منها اننا نواجه المستقبل من موقع مترجرج في زمن النهايات فلا يجوز أن نُخدع بإعلام موجّه وبما يبدو على سطح الأمور. أقول لنفسي أكثر مما أتوجّه لغيري كانت الخمسينات مدخلاً لأحلام بَهَرتْ الناس فعمّ التفاؤل مختلف الطبقات. كغيره، كان عادل متفائلاً فتمسك بالعِلْم على أنه الطريق الأفضل لحل مشكلات العصر شرط أن يمحي المتمردون من أمثالي عن وجه الأرض. أما أنا فكنت حتى في ذلك الوقت أقرب إلى التشاؤم مني إلى التفاؤل بسبب ما شاهدنا من إصرار من قبل أهل الحكم وبعض الحركات السياسية ورجال الدين على التمسك بالنظام الطائفي. ثم إن قلة من العائلات شبه الإقطاعية ما تزال تتوارث التحكّم للأسف الشديد فتغلّبت تقاليد الماضي على أحلام الغد، ولم يكن من الغريب أن أنتمي مع عدد من الطلبة في الجامعة لحركة حزبية نهضوية تحرّرتْ من الوعي التقليدي أياً كان مصدره، وكان عادل في ذلك الوقت رفيقاً وشريكاً في النضال. وربما ما يزال هكذا في عمق أعماقه بقدر ما تسمح ظروفه وأوضاعه.

في وسط الدمار أطللتُ على بيروت في الخمسينات من شرفة نهاية القرن العشرين وبداية قرن جديد فاستيقظت الذكريات من رماد الحاضر كما لو كانت طائر الفينيق. وَهْمٌ، وبل خداع الحديث عن لبنان سابق متسامح ومتعايش. الحرب بدأت قبل أن تبدأ في التعصب

والادعاء والشجع، واستحال البلد الجميل من حيث لا يدري تنيناً مستعداً لالتهام بناته الجميلات واحدة بعد الأخرى. لذلك نسأل هل لبنان ضحية الآخر، أم ضحية نفسه، أم كلاهما معاً؟ في مطلع الخمسينات ولدت طموحات لا حصر لها. بدأ زمن الدولار. ارتفعت الاسعار. اقتحمتْ القرية المدينة، والمدينة القرية. جرى هجوم على الطبيعة كما لو أنها عدو. إلتهم الجشعُ الروحَ. إنْهَارَ كلُ ما هو عام، وكاد كلُ ما هو خصوصي أن يفقد خصوصيته.

ومع هذا عشتُ أيامي بحفاوة كما لو أنها كتاب أقرأه مأخوذاً به. أقرأ دون تعب. ثم تستيقظ أمور نسيتها كلياً، بين أغربها أنني تصفّحتُ صدفة أعداد مجلة «الأديب» في الخمسينات لأتفاجأ أنني نشرتُ فيها قصة قصيرة بعنوان «ثوبها الجميل» لم أعد أذكرها بتاتاً. هل هذا ممكن؟ لا بدّ أنه ممكن ولو لم يحدث الأمر لي بالذات لما صدّقته. قرأتها بنهم وتمتّعتُ بها كما لو كان مؤلفها إنساناً آخر. كيف نسيتُ القصة كلياً وأصبحت غيري وتراءى لي أنني القارئ لا الكاتب؟ إنها حقاً متعة أن أتحوّل إلى كائن آخر وأتعامل مع نفسي كغريب عنها. وقد دفعني هذا الإكتشاف لأن أترك الماضي يستيقظ في داخلي دون رقابة فأتساءل ترى ما العلاقة بيني وبين مخلوقاتي؟ لم أجد جواباً، وإنْ إقتنعتُ أن هناك علاقة حميمة بين المبدع ومخلوقاته، ويجب أن تكون هناك صلة بين الظاهر والخفي وبينهما معاً والأحداث العامة وإن بدتْ أحياناً مستقلة في مظاهرها.

ذكّرتُ نفسي أن علاقتي ببيروت بدأت في طفولتي، وربما في بزوغ بدايات الفتوة فأنا ما زلت أشكّ متى ولدت تماماً رغم ما قمتُ به من مراجعات وتنقيب في دفاتر النفوس في قريتنا. نزحنا عنها لأسباب نجهلها كما تُقتلع الأزهار البرية من جذورها فالتقينا حشوداً من أبناء القرى وبناتها مسلحين بدوافع غامضة. بل ربما تمّ نقلنا إليها، كالفاكهة والخضار ومقتنياتنا القليلة والهزيلة. جئنا نحن من قريتنا الكفرون في بداية خريف عام 1942 أنا واختي ندى وأخي كمال للالتحاق بأمنا بعد ان أمّنت عملاً وملجأ نسكنه في رأس بيروت. ومع أنني ظننتُ أن بيروت مدينة ملوّنة لدى وصولنا إليها بعد الغروب، أحسستُ في الأيام الأولى بضرورة الحذر فهناك، كما سمعتُ دون ان أفهم تماماً ما المقصود، أجواءُ حرب تخيّم على المدينة ومظاهرُ تمرُّدٍ ضد الانتداب الفرنسي. ولهذا كانت قوات الأمن حذرة جداً وقد أوقفونا عدة مرات للتأكد من هويات لم نكن نملكها. وكان علينا بصعوبة ان نحصل على اعاشة من الطحين والسكر والأرز لولا تدخّل شخص ضخم من آل لبّان لم أعد أذكر اسمه الأول. أظنه كان مصطفى اللبان الرقيق القلب على عكس ضخامة جسده. هل هو الإنسان الذي أقصده؟

ليس هذا ما أريد في الواقع ان أتكلم عنه الآن وانا أشرف على الماضي من نافذة مخيلتي ومرتفعات نهاية القرن العشرين وبداية قرن جديد عندما تبيّن لي بحدس غريب أن هناك شبهاً ما بين عثور صياد ألف ليلة وليلة على العسل وبدء ولادة ازدهار لبنان في الخمسينات والأمل بعهد جديد. ولشدة تعلّقي بالناس والأصدقاء والصديقات والأقارب وزياراتي المكثّفة لهم، أكاد أن انسى الغرض الذي جئت من أجله من المنفى الذي لم أتمكّن أن انسجم معه مهما حاولتُ. أتمتع فيه بما يوفّر لي من ضمانات لم يكن من الممكن الحصول عليها في الوطن. وربما لم أعد موجوداً لو اخترتُ البقاء في الوطن خلال الحرب الأهلية التي بدأت بمذبحة بشرية مؤلة في عين الرمانة شاهدها صديقي خالد بأم عينه وبكل تفاصيلها البشعة من شرفة منزله. وكنت قد تابعتُ من بعيد أخبار معارك عشوائية ملأت قلوب الناس بالرعب والحيرة. وما كان عاماً أصبح فجأة خاصاً في ليلة من الليالي حين شاهدتُ في واشنطن على شاشة التلفزيون شاباً يسقط قتيلاً قرب فندق الكمودور عرفتُ تواً أنه صديقي وزميلي في الدراسة رجا فليحان فتعمّق حزني وإحساسي بالمأساة وتحوّل الأمر من حدث عام إلى حزن شخصي.

لم استغرب حيرتي مهما حاولتُ فكّ رموز الواقع، ولكنني كنتُ متيقناً من ان زمن الازدهار الذي تنعّمتْ به بيروت ربما ولّى إلى عهد طويل وقد لا يأتي في المستقبل المنظور. لقد عرفتُ، على ما أعتقد، سرَّ حكاية العسل الذي وجده الصياد في الجبل، وبقي عليّ أن أعرف سرّ ازدهار بيروت منذ مطلع الخمسينات. تراه كان بداية إزدهارحقيقي أم وهماً إخترعناه كبقية الأوهام المتراكمة؟ أسألك يا صديق الفتوة يا جميل بُدَير ما الذي جلبك من الجنوب اللبناني؟ ومهما كان السبب، لعبنا معاً فيما كان يُسمى أزقة الحرامية المتفرعة من شارع الحمراء في تلك الأوقات النادرة عندما كنتَ انتَ تعمل في صالون مجدلاني عند زاوية تقاطع شارعيّ جاندارك والمقدسي وكنتُ انا، لحسن حظي، أذهب إلى المدرسة وأعمل صيفاً أية أشغال يمكن أن أحصل عليها. وكنتُ أود أن أسألك إن كنتَ ما تزال تذكر إسم صاحب المصبغة مقابل مدخل بيت إنطوان وعاطف كرم عند تقاطع جان دارك والمكحول. من الغريب أنني لم أعد اذكر اسمه مع انني عملتُ عنده وما أزال أذكر جيداً حتى الآن ان امرأته الجميلة كبدر الدجى كانت تغار عليه كثيراً من نساء الحي.

ومرّتْ عقود من الزمن فتعمّقت علاقتي بجميل وتحوّلتْ إلى نوع من الأخوة وأصبح من تقاليدي أن أقصد عند كل عودة إلى بيروت صالونه لأقص شعري وأطلع على أخباره العائلية ومصير الأصدقاء. وحدث مؤخراً ما عكّرهذه الطقوس التي أمارسها لدى عودتي من المنفى، فقد قصدت صالون جميل فلم أجده. قيل لي باقتضاب أنه في المستشفى فتوجّهتُ إلى أخيه احمد مقابل بوابة الجامعة الأميركية لأسأل عنه فأخبرني أنه دخل المستشفى بسبب وعكة صحية بسيطة، وكان أن أهملتُ الأمر على أمل أن نلتقي لنتابع حديثنا، واستفهم منه لماذا يتجنّب سميح شاتيلا الكلام معي عن الماضي عندما كانت تجمعنا صداقة عابرة.

أعود اتساءل ألم يكن تعبيراً عن إزدهار بيروت نجاحُ جميل وأناقته وابتسامته وثقته العميقة بنفسه وبأصدقائه ورفاقه واقباله على الحياة باندفاع السهم؟ ولم أتابع البحث عن جواب على أسئلتي، فقد كان ذهني منشغلاً في محاولة فهم أسباب الحرب الأهلية. لقد مضى على اهتمامي بهذا الموضوع وقت طويل وكان من أسباب تردّدي إلى بيروت سنوياً. وفي كل مرة أزورها اتجوّل في شوارعها متفقداً معالم الماضي. زرتها مرة تواً بعد توقف المعارك، وكان الدمار شبحاً يطارد الأحياء. ورافقتني رؤى في تلك الزيارة فتعب قلبها من أحاديث الحروب وكان يهمها الصعود إلى الجبال والتمتّع بآخر ما بقي للبنان من جماله الساطع. ذهبنا إلى الشوف بدءاً من الدامور وصعوداً من البحر إلى رؤوس الجبال الشامخة فظننتُ أنني فهمتُ شيئاً عن شموخ كمال جنبلاط وتواضعه في آن معاً وسرّ نزعته التأملية.

كانت زياراتي المتكرّرة لبيروت في سنوات نهاية القرن تفقدية ومقدمة للغوص في ماضيها، فتجوّلتُ أولاً في الشوارع المتفرعة من شارع جان دارك وبحثتُ عن منازل عائلات كنت أعرفها جيداً. توقفتُ مطولاً في شارع صغير مقابل فندق نابوليون وفندق ميْفلاور الذي كان ينزل به صديقي جبرا ابراهيم جبرا كلما حضر من بغداد فتكرّرتْ لقاءاتنا التي اختزن بعطف الأمومة ذكرياتها في نفسي. وكان هناك سرّ آخر لتوقفي مطولاً في ذلك الزقاق. هناك بالذات كان يقع الملجأ الذي سكناه في السنوات الأولى لنزوحنا من الكفرون إلى بيروت، ولم يعد من أثر له. شقّوا شارعاً ضيقاً هناك اسموه البصرة، ففرحتُ للاسم لأنني بصراحة لم أكن أحب الكثير من اسماء شوارع المدينة بدءاً من شارع جان دارك الذي سكناه واعتبرناه حيّنا الرئيسي. ومراراً عديدة تساءلت بعد أن بدأ يتكوّن لي وعي سياسي لماذا سُمّي شارع رئيسي بهذا الإسم وليس بزنوبية أو مي زياده التي سرني أنها أحبتْ جبران وأحبها دون لقاء؟ كم كنت أتمنى لو سكنا، مثلاً، شارعاً يحمل إسم اسمهان أو أم كلثوم أو رابعة العدوية أو عشتار.

لم تكن تهمني هذه الأمور في المرحلة الأولى من بداية فتوتي. ما همني بالدرجة الأولى في تلك الأيام خجلي من أننا نسكن ملجأ صغيراً معتماً تحت الأرض بعد أن كنا نسكن بيتاً واسعاً بناه أبي بنفسه بمساعدة جمهور غفير من أهل الكفرون المنفتحة على السماء والجبال والأودية. أما الآن وقد مرّ على نزوحنا أكثر من نصف قرن، فانني أشعر برغبة لا أفهمها لتفقّد مكان الملجأ الذي إستأجرته أمي من الحاج عثمان العيتاني وزوجته السيدة فاطمة الطقوش التي أظهرت إهتماماً بنا هي وأولادها وبناتها يسرى وعائشة وسعد الدين ومحي الدين وثم شفيقة التي ربما كانت آخر العنقود الجميل. لم أتمكّن من الدخول إليه عبر شارع المقدسي مقابل المبنى الذي كانت تسكنه كل من عائلة أميوني وعون وكنعان واسد رستم وكرم مشعلاني ولم أعد أعرف أين أرض جميل وهند. وفي هذا المكان إكتشفتُ وانا أسير في شارع المقدسي ان فندق «الماربل تاور» أقيم في الواقع على انقاض بيت المؤرخ اسد رستم فتذكّرت عفاف وليا. ووجدتني أتساءل ما حلّ بعائلة كرم مشعلاني فلم أعد أعرف مصير رتشرد وغيلبرت وإن أدركتُ أن جيمي يدرّس الفلسفة في جامعة واشنطن في مدينة سياتل على الطرف الأخير من العالم. وكان قد بلغني خبر وفاة الدكتور رجا خوري ولا بدّ أن أخيه نقولا كان ما يزال في جامعة برنستون. وتمنّيتُ لو أذكر إسم سيدة كانت تسكن في الطابق الارضيّ فوق ملجأنا هي وإبنتها التي استحليتُ إبتسامتها.

تغيّرتْ المعالم فكان عليّ، كي أجد مدخلاً إلى الملجأ، أن أعود إلى شارع البصرة حيث تأكدت من موقع منزل العيتاني وقرعت الباب فأطلت عائشة وشفيقة مرحبتين وقد تفاجأتا بمشاهدتي بعد إنقطاع طويل. تحدثنا في أمور الدنيا والأخبار الخاصة ففهمتُ أن سعد الدين هاجر منذ سنوات عديدة إلى المانيا واستقرّ فيها ولا يحبّ العودة، وان ابن يُسرى تزوّج أميركية ويعمل مهندساً في ضاحية واشنطن حيث اسكن فطلبتُ رقم هاتفه وأن أولاد طقوش أصبحوا يتنافسون في فتح دكاكين بيع الأزهار. وبتردّد أسأل عن مصير عبد الذي قيل في تلك الأيام أنه كان مصاباً بمرض خطير مما إستدعى عزله في غرفة خاصة لا يخرج منها وكنت أحب غناءه في وحدته ويجب أن يكون قد مات صغيراً بعد أن تركنا الحي وانتقلنا إلى شارع منصور جرداق المتفرع عن شارع السادات.

وجدتني أتابع تجوالي العشوائي لا أدري اين تقودني قدماي. في شارع جاندارك أتوقّف عند منزل أهل رجا بارودي متسائلاً ماذا

حلّ بحديقته الجميلة؟ كذلك أستغربت ما حلّ بمنزل أنيس المقدسي. مَنْ الذي سمح أن يتحول مع حديقته البديعة إلى موقف سيارات؟ هل هو أنت يا نديم أم تراه معالي الوزير سمير الذي يخطر لي بين وقت وآخر أن أسأله هل ما يزال يذكر دكان السنكري «كَلَش» عند مدخل منزلهم وما جرى له؟ ثم ما حلّ بذلك المبنى المجاور حيث كنتُ التقي حبيبة سابقة علّمتني رغم صغرها دروساً في فن العشق وفي أهمية أنسنة البشر بعد أن تحوّلوا إلى آلة باردة؟

في تلك اللحظة خطر لي فجأة، عندما توقفتْ قربي سيارة تكسي مهلهلة تكاد أن تتساقط أجزاؤها، ان أبدأ من قلب العاصمة في زمن فتوتي فانطلقتُ إلى ساحة البرج حيث كان يلتقي الشرق والغرب والجنوب والشمال والقديم والجديد والمركز والأطراف والبر والبحر. هناك كنا نلتقي نحن مَنْ نأتي من فرن الشباك والأشرفية ورأس النبع والبسطا والمصيطبة وزقاق البلاط والقنطاري ورأس بيروت وعين مريسه وجل البحر والمنارة، وكانت عربة الترامو ي أهم وسائل التنقل بين المناره وفرن الشباك، وبين الدورة والبسطا، ويتقاطعان الخطان في ساحة البرج.

هالني في ساحة البرج، إثر إنتهاء الحرب الأهلية الثانية، الدمار الكلي الذي لم يكن يتصوّره العقل، واستولى عليّ صمت شبيه بصمت الشهداء. ما رأيته في زياراتي الأولى لساحة البرج قبل إعادة البناء كان أشلاؤها فأصابني ذهول ما زال يستولي عليّ كلما عدتُ إليها حتى في الأونة الأخيرة. لم يكن الدمار مأساوياً ومروعاً فحسب. صدمني في العمق وضعتُ بين الجمود ورغبتي الجامحة بتفقّد مختلف جوانبه دفعة واحدة. هذا هو المكان الأول الذي هبطنا فيه عند نزوحنا من القرية، وأصبح مركز نشاطاتنا ولقاءاتنا في مطلع الشباب. دور السينما ـ من الكرستال إلى الروكسي والأمبير والماجستيك والدنيا وريفولي ـ كانت هنا ترحّب بالناس مهما كانت أصولهم وأجناسهم ومناظرهم.

وهنا أيضاً كانت المقاهي، من قهوة القزاز والحاوي ووليمز والباريزيانا، وعلى مقربة منها كانت تقع الندوة اللبنانية (رحمك الله يا ميشال أسمر)، وأزقة المتنبي، والسراي التي قيل أن رياض الصلح هدّمها لمصالح خاصة، وفندق كوكب الشرق وحدائق الزهور وشجرات النخيل، وساحة الدباس، ومواقف السيارات إلى عاليه وسوق الغرب وبحمدون وحمانا ورأس المتن وبرمانا والشوير. هنا حاولتُ أن أبحث عن العمود الذي تمسّكت به أختي ندى في محاولة يائسة لمقاومة الذهاب مع مستخدميها للعمل في منزلهم في عاليه. هذا ما أوصتها به أمي التي لم تكن راضية عن ذهابها ولكنه كان عليها أن تُرضي عائلة لها عليها بعض الفضل والتي كثيراً ما ذكّرتها أنها هي التي توسّطت بقبولي في مدرسة الكبوشية تواً لدى وصولنا من القرية.

مرة أخرى هجرنا الوطن بعد جولات الحرب الأولى في صيف عام 1975 مع أننا عدنا إليه بشوق وتفاؤل حال تخرجي من جامعة مشيغان في آن آربور. وكدت أعي ما حدث لنا بعد ما شاهدت في التلفزيون تقريراً عما حلّ لنوع من السمك المولع بالرحيل. صنع لها صيادون ماهرون في فنّ الخداع بركاً جميلة مستديرة الشكل تتوسطها شبه جزر عديدة لتُوهمها أنها ترحل عائدة إلى مواقع ولادتها دون أن تتجاوز مكانها فعلاً. وبقدر ما تسرع الأسماك جماعات جماعات عائدة إلى مواقع ولادتها كان يغيب عنها أنها مهما أسرعتْ فانها تعود في واقع الحال إلى حيث بدأتْ.

وما أن تكرر مشهد دوران الأسماك العبثي حول نفسها دون وصول أو إستقرار حتى قلتُ لنفسي: هكذا اللبنانيون والعرب عامة. إنهم أسماك تتحرّك حول ذاتها دون أن تبرح المكان الذي يُراد لها من قِبَل قوى خفية تتحكّم بحياتها. مَنْ هي القوى التي عيّنت لنا هذا الدور، وهل أعْدَدنا أنفسنا له بكل ترحاب وتجاوباً مع الوصاية على حياتنا؟

لدى إحدى زيارتي الأولى لبيروت إثر توقّف الحرب الأهلية الثانية وجدتُ أن كل ما عرفته وأحببته في السابق أصبح كومة من الدمار، ولم يخفّف من حزني ان ساحة البرج فقدت وهجها بعد ان بدأت تنافسها الاحياء والضواحي بانشاء مقاهيها ومطاعمها ودور السينما والفنادق والمحلات التجارية الخاصة بها. وبقدر ما تخلّتْ عن ساحة البرج فقدت بيروت مركزيتها وانحسرتْ عائدة إلى أحيائها التقليدية. وفقدتْ بيروت محورها أم لم تفقده، لم أصدق ما أراه من دمار عبثي وإن كنت منذ بدء الوعي بنفسي وبالعالم حولي أشك بكل تلك الاساطير التي حيكتْ حول البلد فلم اتوقّع له مستقبلاً هنيئاً كما كانت تظن غالبية الطوائف والعائلات المستفيدة من النظام على حساب غيرها، وكما ما تزال على حالها. لا أستغرب ان هناك من اخترع مثل تلك الأساطير لأغراض نجهلها، ولكنني استغرب كيف صدّقها الكثير من الناس وتعاملوا معها تعاملهم مع الحقائق التاريخية الملموسة.

اعتبرتُ بحدسي ومن خلال مراقباتي ان البلد كيان ٌ يقوم على أسس واهية، وان له سمات، ما لم تتبدّل، سيكون المجتمع مهدداً في

جذوره. واعتبرني الكثير من الأصدقاء متشائماً حين توقّعتُ أنهياره عندما تعصف به الأزمات التي لا يقوى على مواجهتها ولا يعرف كيف يتعامل معها وبأية وسائل. إقتنعتُ أن الميثاق الوطني ميثاق غير وطني. كان تعاقداً بين قادة تقليديين ينشغلون بمكانتهم الإجتماعية ويمّثلون طوائفهم وأحياءهم أكثر مما يجسّدون أحلام الوطن والشعب. ومرّ وقت قبل أن أتوصّل إلى تبني رؤية بديلة، وحين توصّلتُ إلى تلك القناعة قلتُ لنفسي ثم لغيري بشيء من الجرأة والتهوّر: كل ما في الأمر أننا نريد مساواة جميع المواطنين فالوطن للجميع وليس لطائفة أو أكثر على حساب الطوائف الأخرى. تلك هي العلمنة التي نتحدّث عنها ولا نرى رسوخ ديمقراطية حقيقة بدونها.

لا أدري يا صديقي بطرس لماذا وافقتني في إستنتاجي المبدئي بعد حوار طويل ولكنك رفضتَ إعتناق فكرة الدعوة للعلمنة على الأقل تجنّباً لحلول الكارثة. جاءت الكارثة ولم تغادر موقعك حتى الآن. وساءني حتى الغثيان ما رويته لي عما كانت تردّده بعض صفوف المقاتلين أثناء الحرب الأهلية الأخيرة:

أنا عسكري مغوار

بتغدّى بارود ونار

مهما كانوا الاعدا كتار

بعملهم كبّه نيّه

وبعزم العسكرية

أصابني كما أصابك نفور واشمئزاز فلم أستطع أن اتصوّر أن هناك من بلغتْ بهم الوحشية هذا الحدّ من البشاعة. ربما أعادت الحرب بعض الناس إلى غرائزهم الحيوانية الأولى. واتوقّف عند هذا الحدّ، فليس ندب الذات بالأمر السهل في مختلف الأحوال ولا يخلو مجتمع من مثل هذه الشراسة البشعة. وأتفهّم أنني أتذكّر في تلك اللحظة بالذات مقطعاً جميلاً إنسانياً من قصيدة للشاعر الشعبي الرومنطيقي ميشال طراد في بلده لبنان ربما بعد زيارة تفقدية مشابهة لدمار بيروت التي تحار في علاقتها بأهلها:

بِبلَدي

بِبلَدي لبنانْ

ما ضَلّ في وْلا عندليبْ،

وما بَعْرِفِش كيف شكل مات الطيبْ

مات هَـ الانسانْ

وما عِتّ تِسْمَعْ

غَيْر صَوتْ الديبْ.

أسألك، يا ميشال طراد وانا الذي كنت وما أزال أحبّ شعرك وأذكر بفخر أمسياتك الشعرية ولقاءات عابرة في مقهى الحاوي وغيره، ألم نكن نحن الذين قتلنا العندليب قبل ان نبدأ بقتل الإنسان، وهل كان هناك حقاً عندليب وأي نوع من الطير هو؟ هل رأيتَ عندليباً مرة واحدة في حياتك؟ ومَنْ هو الذئب في رأيك؟ اقنعتني فتاة أميركية ان الذئب ليس حيواناً شرساً ومحتالاً كما يصوّره البشر وانه لا يعتدي إلا حين يتعرّض للاعتداء ويجد ان لا مفرّ له من الخطر ومهمات الدفاع عن النفس؟ لا أعرف من الذئب الذي عنيته ومَنْ بدأ الهجوم ضد مَنْ ولأي أسباب وما مصدر الشراسة؟ كل ما أعرفه أن بيروت الخمسينات من القرن العشرين تستيقظ في نفسي وخلايا جسدي من خلال الدمار بعد حرب أهلية طويلة وعبثية، وتنبثق في الذاكرة كما تنبثق الأزهار البرية في صخور أعالي الجبال النائية التي جرّدناها من أشجارها وحوّلناها إلى مقالع حجارة.

إسمح لي أن أخبرك قصة تلك الفتاة الأميركية البريئة التي أغضبتها بشاعة حرب فيتنام فهجرت بلدها مفضِّلة العيش في المنفى وتجوّلتْ في مختلف أنحاء العالم بحثاً عن حضارة بديلة. وانتهي بها المطاف في لبنان حيث تعرّفتْ إلى شاب من عائلة قوية وعاشتْ معه في قريته التي تطلّ على البحر تعزف له، وهي عارية، على قيثارتها ألحاناً إستمدتها روحها من جمال لبنان. وفجأة وجِدَتْ معلقة من غصن شجرة زيتون، وإنتشرت إشاعات أن صديقها قتلها واعترف الجيران أنهم سمعوا صراخ قتال عنيف كان يجري بينهما بعد منتصف الليل. إنما خوفاً من إنتشار الخبر ومما قد يكون له إنعكاساته السلبية على موسم الإصطياف، تمّت لفلفة الموضوع في القرية قبل أن يصل الخبر للصحف، ويبدو إنه لم يكن للفتاة من يطالب بحقوقها.

هناك مآسي يا صديقي لا تُحتمل فنجد أنه من الأنسب حذفها من وعينا ونركّز بدلاً من ذلك على أمور أخرى على أمل ألا نعود إليها. دفعةً واحدة ً، استعدتُ وسط الدمار صور أشجار النخيل في ساحة البرج وابنيتها ومقاهيها ودور السينما وشخصياتها وأحداثها وحكاياتها وأساطيرها وسعيها الدؤوب إلى البحر وتطلّعها إلى الجبال والقمم التي تشرف عليها. تداعتْ إلى ذهني أخبار مقهى القزاز وحكايات ابو عفيف كريدية، ونقاشات مقهى الحاوي، والمعركة التي خضتُها عند مداخل صالة كريستال دفاعاً عن أخي كمال الذي هاجمه عدد من الفتية فانصبغ قميصي الأبيض بالدم وغسلته بنفسي كي لا تراه أمي، ومعارض الكتب القديمة على الأرصفة بين التياترو الكبير والخندق الغميق وبناية العزرية، واسواق الصاغة والخضار في النورية، وعربات الترامواي، والسراي القديمة، وسيارات السرفيس، وباصات طرابلس، وحلويات الصمدي والعريس وجبر، وأجبان إدريس، وكراريس الشعر الشعبي حيث اشتريت أعمال عمر الزعني ويوسف تاج وشحرور الوادي وأمين نخلة وعيسى فرعون الكفروني. وهنا، من محل متري إخوان في سوق الصاغة، اشترينا أنا ورؤى خواتم الزواج. وأذكر أمراً آخر لن أنساه، فقد كنت انزل أحياناً مع امي نهار السبت إلى سوق النورية لشراء مؤونة الاسبوع من خضار لا يمكنها ان تدفع ثمنها في رأس بيروت.

ومن خلال تفقدي الدمار تساءلتُ هل تولد المدن وتموت كبقية الكائنات الحية؟ أعرف جيداً إنه سؤال لا جواب عليه فيكفي أن أسرد ما اختبرته وشاهدته من تجارب غريبة لا يصدّقها العقل، وتبقى قصة حياتي معها سراً. كيف شاهدتها وعشتها منذ تعرّفتُ إليها وجرت بيننا أحاديث ودية وعدائية؟ جذبني في البداية الهدوءُ الذي ما لبث أن تحوّل إلي صخب. وفُتِنْتُ لفترات قليلة بلامبالاتها تجاه الصعوبات والأزمات واندفاعها إلى الأمام. أعجبتني بساطتها حتى أنه لم يكن يهمها كيف تبدو. تبتسم لا لتجذب الانتباه، بل لأن الابتسام يُزهر تلقائياً. إرادت أن تكون هي مهما كانت النتائج.

تلك كانت بعض تحوّلاتها. وقبل ان يمر وقت قصير تغيّرت فجأة الوجوه والأصوات والأزياء، واتخوّف أن بيروت قد تتحوّل إلى مدينة الإدعاءات والتبرّج والطرب والتفنن في التعري والتعامل مع المرأة كموضوع جنسي. بل ربما بيروت حقيقة براجة بصارة تعدك بمستقبل باهر فيما تسلبك في زمن الفوضى محفظتك وقدرتك على التفكير الحرّ. ويؤلمني أكثر ما يؤلمني أنها فقدت أشجارها ومعالمها القديمة دون أن تبكي عليها. ربما هذا هو سرّ بكائي على أهلها المنشغلين بتحصيل أرزاقهم بأية وسيلة ممكنة شرعية كانت أو غير شرعية.

***

لا أستطيع أن أتحرّر من ذكريات بيروت ومشاهد دمار ساحة البرج والمعرض والخندق الغميق والشياح وعين الرمانة في وقت تحوّم حولها أرواح مئة ألف قتيل. إنتهت الحرب تاركة وراءها دماراً وحزناً وأيتاماً وأمكنة مشوّهة، وبقيت جروح عميقة في نفوس الأحياء التعساء. كم سمعتُ قصصاً بشعة أردتُ أن أسجّلها في دفتر يومياتي بقدر ما حاولتُ أن أنساها نهائياً؟ عَلِقَتْ في ذاكرتي قصص بشعة لا تضمحل. قيل لي، واشكر الله أنني لم أشهد منظراً من هذا النوع، إن جماعة من المقاتلين ربطوا يديّ شاب مخطوف إلى سيارة تتجه شمالاً ورجليه إلى سيارة أخرى تتجه جنوباً، وانطلقتا في آن واحداً فتمزّق الجسد إرباً. مشهد يكفي ان نذكره كي نتقيأ.

ولكن هناك مشاهد من نوع آخر قد تخفّف من أحزاننا فالمرؤة لا تموت بين الناس حتى في أتعس الظروف. روى لي أحدهم قصة عائلة خُطف إبنها وعُذِّب وقتل وهو في عزّ شبابه فما كان من اخوته إلا ان خطفوا شاباً من الطائفة المعادية وساقوه إلى منزلهم. هناك تم استجوابه وقرّروا قتله إلا إن أمهم وأخواتهم تدخّلن في سبيل إطلاق سراحه. قالت أمه للأخ الأكبر سناً: الشاب بريء، وله أم ستبكي عليه كما بكيتُ على أخيك. إتركه يا إبني، أرجوك، أبوس رجلك.

لا أدري ما جرى للشاب بعد أن أطلقوا سراحه. ما أعرفه أن كل هذه الأمكنة والمعالم والأشياء تستيقظ في نفسي وخلايا جسدي وأنا اتفقدّ دمار بيروت كمن يتفقدّ جروحه بعد معركة دامية، واتوقع ان تستيقظ - كتدفق مياه الينابيع - أمكنةٌومعالم وأحداث كثيرة غيرها. لديّ شكوك أكثر مما لديّ قناعات راسخة، وهناك ما أعرفه وما لا أعرفه على حقيقته وانا مستعد ان أصحّح نفسي. وحقاً أنني غيّرتُ الكثير من آرائي القديمة واستبدلتُها بأراء أخرى. ما أدركه مما بقي في وعييّ ان بيروت كانت، كالاساطير، وهميةً وحقيقيةً في آن معاً. وقد إختلطتْ في رؤوسنا الأوهام والحقائق فلا نعرف كيف نميّز بينها. وكما تصادم الناسُ من كل قبيلة وطائفة وحي وطبقة، كذلك تصادمتْ الحقائق والأوهام فانهارت وتراكمت على ذاتها وعلى أرصفة الزمن كومة فوق كومة وليس من يجمعها ويحرقها. ما أعرفه جيداً أنه كان للصياد قرية والزيات قرية فلم يزل السيف دائراً بينهم إلى أن مات منهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

في تلك الأيام لجأت لقراءة ألف ليلة وليلة كعادتي في الأزمات، وكان أن أردت روايتي
رحلة سندبادية لاستكشاف بيروت والذات وأسرار العلاقة بينهما.
أنا لستُ هي،
ومن الأكيد أنها ليستْ أنا.
كل منا غموض الآخر
مهما كان المركز الذي أوجّه إليه الضوء.
وحرصتُ أن تفيض الأفكار والمشاعر والصور تلقائياً
وأن يتدفق الكلام صوراً ورموزاً
من أعماق الذاكرة
كتدفّق مياه ينابيع الشيخ حسن
في ظلّ سنديانة قديمة.

وأثارني ما جاء في اسطورة من نوع آخر تقول ان مار جرجس أو الخضر أصبح شفيعَ بيروت، والمنقذ الغريب من مخاطر التنين المُثلّث الرؤوس.

كان له رأس من تراب،
ورأس من ماء،
ورأس من هواء

فتداعى لمخيلتي: ربما قتل مار جرجس رأساً من رؤوسه، وربما لم يقتل أياً منها فقد عاود بعد مدة قصيرة اعتداءاته على الفتيات الجميلات وهدّد المدن متخذاً لنفسه أشكالاً لا تحصى.

في كل هجوم على المدينة، كان يتخذ شكلاً لم نألفه فظنّ البعض أن الخضر ربما تمكّن أن يقتل أحدى أشكاله على الأقل، وتوهّم البعض الآخر أنه قتله إلى الأبد. هل نريد الحقيقة ناصعة؟ لا أعرف مَنْ قتل منْ وكيف بدأ القتال ولأي سبب جوهري كان أو غير جوهري. كثيرون هم الذين تكلّموا عن موت الله، ولم أسمع أحداً يتكلّم عن موت الشيطان الذي كثيراً ما يأخذ أشكال وحوش شرسة منها التنين على ما أظن. على العكس تماماً، لم يمت التنين يا صديقي وكان وما يزال يأخذ اشكالاً جميلة تُغري الناس ببريقها الساطع. ولكن طالما أن هناك شراً فلا بدّ أن نستحضر منقذاً نستجير به. غير ان المعارك تستمر لاسباب نجهلها وقد يغيب عنا مَنْ المنقذ ومَنْ التنين حقاً وأي شكل يتخذه كلُ منهما فتتلاشى في أذهاننا الفواصل بين الخير والشر.

قيل لنا قديماً في كتب التاريخ ان التنين كان يطلع من بحيرة بين اسوار بيروت ونهرها فأصيب سكانها بالرعب وأضطر ملكها ان يقدّم إليه ابنته ثمناً لحرية المدينة. وما أن خرجت ابنته الجميلة من بوابة السور باكية حتى أسرع مار جرجس لانقاذها. وتروي القصص التي تختلط فيها الحقائق التاريخية بالأوهام أن كنيسة أُقيمتْ في ذلك الموقع وعُرفتْ باسمه، ثم تحوّلتْ الكنيسة إلى مسجد للخضر. ترى يعرف أم يجهل رواة هذه الحكايات ان مار جرجس هو الخضر بعينه، والخضر هو مار جرجس؟ وترى أيهما كان الضحية: الخضر أم التنين؟

وتوصّلتُ بعد جهد أن التنين ليس سوى تجسيد لمخاوفنا الداخلية وشرورها، فقلتُ في موعظة، «يا أخوتي وأخواتي، في واقع الأمر إننا من حيث ندري أو لا ندري كثيراً ما نُسقط مخاوفنا الداخلية وآثامنا على وحش شرس إخترعته مخيلتنا الغنية كي لا نعترف أننا نحن بالذات مصدر الخطأ. ومرة أخرى، يقتحم التنين المدينة ويكون عليها أن تقدّم ضحاياها. ما هو التنين؟ هل هو سوى قلق المصير داخل نفوسنا؟

وسمعتُ روايات عديدة عما يرمز إليه الخضر أو مار جرجس. قال أنيس فريحة أن عيده أصبح تاج الأعياد وخاتمة مهرجانات الربيع وعيدَ الصبايا والشباب والتصابي، ومهرجان الفتوة. وروى صديقي المؤرخ حسني حداد، رحمه الله، ان الاحتفال بعيد الخضر هو احتفال بالخصب وبالتحرر من البؤس والهمّ والاقبال على التنعُّم بالحياة. ولا غرابة في الأمر فهو احدى تجليات آمانينا فلا يستطيع التاريخ ان يزيل هالة التقديس التي تحيط بهامتة الجميلة. ظلّ في الأذهان وما يزال بطلاً وسيماً راكباً حصاناً أبيض ينحر بحربته

تنيناً عظيماً جباراً مخيفاً، وبقى قديساً غامضاً يخوض البحار كل سنة في أواخر نيسان فيثير الغيوم الكثيفة ويسوقها إلى أعالي الجبال كي تسقي الخضار والاشجار العطشة، وهو الذي يأتي وسط زخّات مطرٍ هائلة توقّعناه أم لم نتوقّعه ونبتهل إليه في مناسبات عديدة.

ومما رواه حسني حداد بعد أن تعمّق في دراسة الدين الشعبي ان مار جرجس ومار الياس والخضر أسماء ترمز حقاً إلى الشيء ذاته، وهم يشكّلون معاً القديسين البعليين الثلاث كما الآب والإبن والروح القدس، ويرمز كل منهم إلى استمرارية العيش إما عبر حياة لامتناهية أو عبر دورة الحياة والموت، فتكثر الزيارات لمقامات هؤلاء الأولياء والقديسين خاصة في أيام الجفاف. وكما تعلّمتُ ان مار جرجس هو الخضر بعينه، كذلك تعلّمتُ ان كلمة جرجس في اليونانية تعني «فلاح» وان كلمة مار في الأرامية تعني «بعل» أو سيد ورب، وان الخضر في بعض المعتقدات الشعبية هو الاسم المقدس والأكبر وان الانبياء فيض من نوره. ثم ان الحكايات الشعبية العربية القديمة تروي لنا ان الخضر يساوي الفصول ويكلّل الاشجار بالخضرة ويفكّ عقال المطر والانهار وينشر بساط العشب على التلال ويعلّق عباءته الخضراء في المساء ليلوّن السماء بعد غياب الشمس. ويُقال أنه حي لا يموت إلى يوم القيامة، وهناك بين الفلاحين مَن سمعتهم يستنزلون المطر بالدعاء:

يا سيدي خضر الأخضر

اسقي زرعنا الأخضر

يا سيدي يا مار اليا س

اسقي زرعنا اليباس

لُست أدري لماذا لم يعد أولياء البعل الثلاث يحرسون بيروت من تدمير نفسها بنفسها. ما أعرفه أننا نجهل اسطورة الهايدرا المتعددة الرؤوس والتي كلما قَطَعَ البطل المنقذ رأساً من رؤسها نبت مكانه رأسان إضافيان. مراراً خطرت لي هذه الاسطورة، ففكّرت ان بيروت هايدرا حديثة رؤوسها قبائل وطوائف وأحياء وعائلات تتوارث الحكم باسم الديمقراطية كما تتوارث منازلها. وكلما حاول المنقذون حلّ مشكلة من مشاكلها نبتتْ مكانها مشاكل أخرى أكثر تعقيداً. ووسط هذه التعقيدات، يُرْجِع بعض المؤرخين إسم بيروت إلى تسمية بعيدة في الزمن الماضي هي الإلهة «بيروت»، رفيقة ادونيس إله جبيل. وزيادة في الإرباك يقول مؤرخون أخرون ان بيروت تعني شجرة الصنوبر. هذا اسم جميل فانا أحب غابات الصنوبر وفعلاً نشأت بيني وبينها علاقة ودية حتى أنني تخيّلتُ نفسي في بعض الحالات إحدى أشجارها الباسقة فوق تلة تشرف على واد عميق. وقد يكون مناسباً أن نرى بيروت صنوبرة لما نعرفه من ولع في العلاقات بين قلة اللبنانيين والشجر. ومع هذا تسألتُ مراراً لماذا كلّ هذه القسوة في إقتلاعها من جذورها بين فترة وأخرى؟ ترى قتلوا الخضر خطأً وهم يقتلعون أشجار الصنوبر دون أن يدركوا أنها هي التي تجلب المطر حقاً؟

وكما تجولّت في أماكن الدمار كي تولد من رمادها ذكريات الماضي، تابعتُ البحث في أصول إسم بيروت كما في اصول مار جرجس والخضر ومار الياس والتنين والهيدرا فوجدتُ بأن هناك من يقول لنا ان من معانى بيروت أنها «سر»، ورأيُ أخر ان اسمها مستمد من كلمة بئر. تراه سرّ ماذا؟ هل هو سرّ البئر، أم أن البئر هو مستودع الأسرار التي تزداد غموضاً بقدر ما نحاول تفسيرها؟ وآه، ما أكثر الذين يرمون حجارة في الآبار التي شربوا منها ! ويُذكر أيضاً وأيضاً أن من القاب بيروت الكثيرة «لاذقية بيروت».

أحبّ هذه التسمية رغم غموضها أو لهذا السبب بالذات، وأتمنى لو كانت صحيحة لاتخذها دليلاً على وحدة الوطن. إنما لماذا كل هذا التساؤل والإستغراب، فقد سُمّيتْ بيروت مطلع القرن ب «زهرة سورية»؟

وما ان أفكّر بالذين ماتوا وجرحوا في الحرب الآهلية حتى تقتحم مخيلتي اسطورة عذابات تانتلوس مرة أخرى. تبيّنتُ أن اللبناني في الأزمنة الحديثة تحوّل إلى تانتلوس جديد حكمت عليه كبار الآلهة بأن يقف في الماء ولا يرتوي وتتدلّى فوقه شجرة ولا يطال ثمارها الناضجة مهما بدت قريبة المنال. قريب من أهدافه وبعيد عنها أشد البعد. ذلك هو لبنان. يبني ليهدم، ويهدم دون ان يبني فيهاجر. ينجز كثيراً ولكنه مصاب بخيبات أمل كبيرة. يستخدم اناساً يستخدمونه. ينام ليستريح ويقلق فلا ينام، ويهاجر ليتشوق إلى بلدٍ لم يعد يعرفه. ويزدهر ليزيد من ثروة الأغنياء وفقر الفقراء.

وبين أَحَدَث ما سبّب لي ألماً في أعماق نفسي أنني شاهدتُ في أحد الأسواق شحاذاً أصبح يمشي على الأربعة كي يستجلب شفقة المحسنين. ولكنه، رغم الاستعطاف، لم يستفد كثيراً فخطر له أنه كي يعيش ويستدرّ مزيداً من العطف، يكون عليه أن يقلّد الكلب فيعوي

ويهز مؤخرته.

ليس غريباً، إذن، أن دخلتُ في حوار مرير ومستفيض مع ذاتي والآخرين. أقف وسط الدمار كما لو كنتُ جزءاً منه وهو جزء مني، وأهمس لنفسي، «كانت هناك أحلام باهرة ولا أدري ما حدث لها. كيف؟ لماذا؟ إلى أين والى متى وما العمل؟»، فقلتُ، كما لو كان هناك جمهورٌ يُصغي، متابعاً حديثاً شغلنا لزمن طويل: نعيش زمناً اردنا فيه ان ننسى قسوة العالم وظلمه وتطلّعنا بشوق إلى مستقبل زاهر إحتفلنا به قبل قدومه فأصابتنا خيبة أمل لا نعرف كيف التعامل معها.

***

واتذكر، في أجواء التساؤل المرير، أنه كان يجب عليّ الإتصال بصديقي الدكتور أوراسيو منير حداد الذي جاء لأول مرة في حياته إلى بيروت من الأرجنتين، وكنت قد تعرّفتُ إليه منذ ما يزيد على عقد من الزمن أثناء المشاركة بندوات في واشنطن أقامتها منظمات تُعنى بالقضايا العربية. تفاجأت برؤيته صدفة في فندق الشام وفي وقت لم أكن اتوقّعه ابداً فجلسنا نتحدّث في شؤون المنطقة وماذا يمكن أن نفعل في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية.

وحدثني عن أنه جاء إلى لبنان لينشىء في زحله مركز ثقافياً باسم جدته لولو حداد التي لم يعرفها في حياته، واستدرك كما لو أنه بدأ الحديث من حيث لا يريد ليوضح لي بلغة جمعتْ بين الإنكليزية والعربية بلكنة اسبانية أنه ورث هذا الشعور بالذنب عن أبيه.

بحزن، وإنما باختصار كي يظل قادراً على ضبط عواطفه، ذكر ان جده هاجر دون عائلته إلى الارجنتين ثم تبعه أولاده الأربعة واحداً بعد الأخر ولم يعد أحدُ منهم إلى الوطن فعاشت لولو حداد طيلة حياتها في زحلة محرومة من زوجها وأولادها. قال أنه أراد ان يشيّد هذا النادي الثقافي باسمها لأنه يعتقد ان مَنْ لا يعرف ماضيه لا يستطيع ان يصنع مستقبله. وشعرت ان إحساسه بالذنب الذي حمله بالنيابة عن جده وابيه وأعمامه لم يتوقّف ببناء المركز بل ظل يعذّبه لزمن طويل، مما شجّعني على الاعتراف بأننا نادراً ما نقدّر تضحيات المرأة وكفاحها المرير، وأضفتُ:

يوماً ما سأخبرك يا دكتور أوراسيو بعض حكايات كفاح وتضحيات أمي وابنة عمي بهية. للأسف، لا استطيع أحكي قصتهما المتداخلة مثل جذور صفصافة قديمة على حافة النهر. أمي كافحت من أجلنا، وكانت تعتبر نفسها محكوماً عليها بالعذاب في سبيل النهوض بعائلتها بعد موت زوجها باكراً. أما بهية فنزحت وحيدة وأرادت أن تتحرّر من الفقر وتحرّر عائلتها معها. نجحت في المهمة الأولى وفشلتْ في الثانية فاستولى عليها إحساس عميق بالخيبة لم تتغلّب عليه حتى الآن وهي تقترب من حافة قبرها الذي تريده في بيروت واتمناه لها في الكفرون حيث يعرف الناس من هي وماذا تعني. وزاد من إحساسي هذا أن أمي دُفنت في أميركا، ليتني أعرف كأوراسيو منير حداد ماذا أشيّد باسمهما؟ ومما توصّلتُ إليه بعد تجارب كثيرة أنني كي أخبر الناس شيئاً عن نفسي، أرى أن أروي لهم بعض حكايات أمي هي وإبنة عمي بهية كما لو اقف في مختلف الفصول علي ضفة نهر.

وتابعتُ حديثي هذا رغم تخوّفي من أن أفقد سيطرتي على عواطفي. قلت لصديقي أوراسيو هناك أشياء كثيرة يمكنني ان أخبرك عن كفاح أمي وعذاباتها فمعين حكاياتها لا ينضب بتاتاً. وأنت يا عزيزي لست الوحيد الذي تعاني من الشعور بالذنب، وفي سبيل مشاركتك همومك سأخبرك ما لم أجروء على التصريح به لأحد حتى الآن. هل يحقُّ لي أن أحتفظ ببعض أسرارها وأسراري؟ أنا لم أسألك لماذا جدك وأبوك وعمومتك لم يستقدموا جدتك لولو حداد إليهم وتركوها وحيدة، ولماذا لم يعد أي منهم من المهجر ليكحّل عينيه بمنظر وجهها البهي ويجفّف دموع عينيها؟ هذه جوانب من الهجرة التي لم يفكّر بها المعنيون بالحديث عن الازدهار الاقتصادي متجاهلين الهموم الانسانية.

وجدتني أُوقع الدكتور حداد بحيرة، فاستنتجتُ تواً من تعابير وجهه أن هذه قصة يجب أن تكون طويلة وإذا ما بدأها لن تنتهي وستكون محزنة للغاية، فاعتذرت لطرح هذا السؤال عليه وأوضحت مقاصدي: ربما تجرّأتُ أن أطرح عليك هذا السؤال الشخصي لانني أعرف شيئاً عن هذه المآسي. في قريتنا الكفرون على الأقل حالتان من هذا النوع. هاجر الياس ملحم رفقة إلى كوبا تاركاً وراءه زوجته وأبناءه ميخائيل وجبرا وفؤاد وابنته ديانا بعد الحرب العالمية الأولى ولم يعد أبداً فلم يرهم منذ تلك اللحظة وإن أرسل لهم صوراً ومالاً وارسلوا له هم بدورهم صورهم وصوراً لشهاداتهم العليا. وكذلك هاجرالشيخ ديب نصار فلم تره زوجته نسيمة بعد ذلك ولا يتذكر أولاده أنور وجمال وابنتاه نبيهة ووجيهة شكل وجهه. هذه اسماء حقيقية كاسمك يا دكتور حداد، ويؤلمني ان أذكرها علناً في الوقت الذي لم

اصارحهم بها رغم ما بيننا من علاقات وثيقة تعود دون أن نلتقي إلى زمن الطفولة المبكرة.

هذه قصص حقيقية اخاف أن أُقحم نفسي فيها فهي بحر دون شواطىء، ولا أدري ماذا أخبرك عن تفاصيل تجارب بنت عمي. أننا أصدقاء منذ زمن طويل فأصبحتُ مستودع بعض أسرارها كما أصبحتْ هي أيضاً مستودع بعض أسراري. وكانت لنا إختلافاتنا دون أن تؤدي إلى أي خلافات. إحترمتُ معتقداتها الدينية كما إحترمتْ هي آرائي السياسية وأن لم تخفِ تخوفاتها مما قد يحدث لي. كافحتْ في حقل الحياة وحاولت دائماً ان ترفع من شؤون أفراد عائلتها. ولن انسى انني تعلّمتُ من امي وبهية اسرار الكفاح، أنا اليتيم الذي لم يكن لي أب اتعلّم منه أساليب معاركة الزمن. أريد ان أسجّل هذا الاعتراف يا دكتور حداد: انني احترم كفاح المرأة وأريد ان اعتذر عن كل الكتّاب العرب بمن فيهم نفسي لاهمالنا كفاحها المرير، فاكتفينا بتصويرها على الأغلب على أنها موضوع جنسيّ وانها سيدة الكيد والاحتيال. أقول بصراحة ان الرجل حين يقدّم هذه الصورة السلبية عنها إنما يحاول ان يسوّغ، دون تواضع، كل محاولاته المستمرة وبمختلف الاشكال والوسائل لإخضاعها إلى مشيئته الجبارة. كيف نستطيع ان نغفر للجبابرة كل هذه الآلام التي فرضوها على العالم طيلة هذا الزمن؟ من أين نستمدّ كل هذه القوة على التسامح معهم، وبل أن نسير في خطواتهم؟ كيف تمكّنوا ان يقترفوا كل هذه الذنوب دون عقاب؟ ما أوسع قدرتهم على تجاهل ذنوبهم؟ ما أسْمَكَ جلودهم وأصغر ضمائرهم وأحقر معتقداتهم حكاماً كانوا أو طبقات تحتكر ثروات المجتمع؟

هذه مشاعر أثارتها في نفسي تلك اللحظة حكاية لولو حداد حتى اقشعر بدني، ودخلتُ من بوابة أحزانها إلى بوابة أحزان أمي وابنة عمي بهية، أو بالعكس. قلت لحفيدها ان المشروع الذي يقوم به مشروع انساني وانني مستعد للتعاون معه في اي مجال تسمح به مؤهلاتي. قلت انني أحب أمي وبهية كثيراً وأقدّر كفاحهما وأحزن لمآسيهما التي لا تُحتمل ولا أعرف ماذا أُنشيء باسميّهما كما تفعل انت يا دكتور حداد. سأكمل حكاياتهما علّني أجد في نهاية المطاف ضوءاً ينير متاهات حياتي أنا الشديد الفرح بالعالم لكثرة ما أحترمتُ النساء ونعمتُ باحترامهن. ربما أظن ذلك، ولكن علاقتي بروؤى رسّخت من قناعاتي هذه.

***

شعرتُ لوهلة أنني كدت أن أنسى موضوع دمار بيروت، ولكنني أدركتُ في واقع الأمر إن ما أحاوله هو أفساح المجال لاستعادة ماضي بيروت في الخمسينات على أنه مسرح صباي وصباها وقد تداخلت تجربتي، خاصة بتجارب اختي ندى وأخي كمال وأمي مريم التي يناديها الناس «إم نادر» وابنة عمي بهية كما بأدوار من عرفتهم وصادقتهم دونما انفصال. تداخل الماضي في مخيلتي بالحاضر، والحاضر بالماضي حتى لم أعد اميّز أين تبدأ الحدود الفاصلة بينهما وأين تنتهي. وها أنا انتقل بين الماضي والحاضر كما لو أنهما مسرح واحد واتطلع من شرفتيهما إلى مستقبل انتظر قدومه بشوق كما تنتظر بيروت قدوم الخضر، ويتفاعل في ذهني المتخيَّل بالواقعي، والواقعي بالمتخيَّل وتضيع الحدود بينهما.

طالما استيقظت بيروت في نفسي بعد غفوات طويلة كما لو كانت تنام إلى جانبي في فراش واحد. وما أن تراكمت الأحداث وأختلطت الأمور عليّ وتراوحت حياتنا بين العودة إلى نقطة الصفر والوصول إلى طرق مسدودة حتى انطفأت رغبتي بالتفكير في الشأن اللبناني. لم أكن اريد ان افكر بشؤون لا استطيع ان أرسمها بألوان رغباتي المستحيلة، وتوصلّتُ إلى قناعة بمعزل عن قول ناصيف اليازجي ان الوطن ليس وطناً بل بلدَ عشائرٍ متعطشةٍ للثأر وقد عمي بصرها عن رؤية الشأن العام. كل جماعة دخلت خليتها الخاصة بها وأغلقت الابواب والنوافذ على نفسها. لماذا أنشغل بمعركة عبثية بين الطوائف والقبائل على حساب مصالح الأمة؟

تداخل الماضي والحاضر، وأنا انتقّل بينهما كما لو كنت عصفوراً على غصن. وبين غصن وآخر يجتاح الواقع مخيلتي وتُعيد مخيلتي رسم الواقع فتستيقظ بيروت في نفسي بعد غفوة طويلة. ورغماً عن مشيئتي أردتُ ان انسى الوطن الذي سبق أن شبّهته ب«هيدرا» متعدِّدة الرؤوس. قلت ان من مشاكل لبنان أنه ما أن نحاول معالجة مشكلة من مشاكله المستعصية حتى تتولّد عنها، من حيث لا ندري، مشكلات أخرى أكثر صعوبة.

ومع هذا اقتنعتُ منذ زمن طويل بضرورة التغلّب على اليأس مهما تراكمت المشكلات باعتبار ان التاريخ مفتوح على مختلف الاحتمالات وأننا قد نتمكّن يوماً ما من صنع مصيرنا وتحقيق بعض أحلامنا الصغيرة والكبيرة. وما ان أرى ضرورة للتحرّر من التشاؤم وأعود لأحدّق ملياً في واقع الأمر حتى أجد نفسي أسأل: أليستْ بيروت جميع هذه الاحتمالات ونقائضها يا صديقي عادل؟ وهل من

الغريب أنني لا أفهم سرّ تفاؤلك، وإنك أنتَ لا تفهم سرّ تشاؤمي. ربما أنتَ متفائل يا عزيزي لأنك تخاف القلق. وفي هذه الحالة لا خيار لك سوى أن تحتمي بواقعية زائفة تظنها عقلانية.

مراراً كاد أن ينطفيء أملي بامكانية اصلاح المجتمع فحاولت عبثاً الانصراف لشؤوني الخاصة والى تلك المجالات التي استطيع فيها أن أحقّق شيئاً يسيراً. غير أنني لم أكن اشعر باكتفاء ذاتي فاستأنف البحث عن قضية كبرى تستحق الاهتمام والتضحية كالشأن الفلسطيني. وبهذا استعيد شيئاً من بقايا إحساسي بالثقة وأقول أنني لست من النوع الذي يغتال الأمل في نفسه وأردّد مواجهاً ذاتي كما المتشائمين من معارفي والمتفائلين من أمثال عادل، اننا كي نكون واقعيّين لا بد ان نعتبر التاريخ مفتوحاً على كافة الاحتمالات. شيء ما قد يحدث في أي يوم، ويكون علينا أن نعرف كيف نخطّط له ونقتنص الفرص التاريخية نحن الذين ولدنا من رحم الهزيمة. عرفنا في طفولتنا النكبة، وبعد عقدين من الزمن عشنا حرب الخامس من حزيران. لم نفقد ثقتنا بانفسنا، وشكّلت الهزيمة في عرفنا مدخلاً لا للرضوخ بل للمقاومة لرفع الظلم عن كاهلنا واستعادة حقوقنا.

بهذه الروح أقنعتُ نفسي أن أطل على بيروت كما أذكرها في منتصف القرن العشرين من شرفة نهايته ومن خلال دمارها الذي المسه بيديّ وجوارحي. واتذكر بأسف شديد انني فقدت يوميات ورسائل ومقالات كنت احتفظ بها لمثل هذه الأيام ومن خلالها كان يمكن ان اتحدث عن حكايات بيروت في تلك الفترة الإنتقالية الحرجة بدقة وتفصيل وعمق وحيوية أكثر مما استطيع الآن. كان قد حدث في بيروت أثناء غيابي إضطراب كالزلازل التي هدّمتها مراراً في التاريخ القديم والحديث. فقدتُ ما دوّنت في تلك الأيام حين تخوّف اخي كمال ان تقتحم قوات الأمن منزلنا فأحرق كل ما أملك من أوراق وكُتُبٍ مشبوهة. قال لي ان المدخنة سُدّتْ لكثرة ما حرق من أوراق. إذن أية حرية تتكلّم عنها يا صديقي يوسف حين تردّد من منصة عالية شعارات فارغة من أي مضمون اقتبستها من مواعظ شارل مالك وميشال شيحا.

ومهما كان فإنني أتبيّن، بين وقت وآخر، ملامح بيروت في الخمسينات، وهي فترة مرحلية انتقالية، واتساءل هل كانت وعداً بقدوم حداثة متميّزة أم علامة حذرٍ بان وراء المنعطف طريقاً وعرة؟ صوّروا لنا في تلك الأزمنة ان بيروت بوابة المستقبل ليس لنفسها فحسب بل للشرق عامة فاكتشفنا أنها سؤال غامض ومتناقض وبلا أجوبة. من ناحية أخرى، كنت شديد الثقة بانني سأحقق طموحاتي الشخصية رغم الصعوبات وحالة الفقر التي نعاني منها. لم أكن أشك بقدراتي فأبصرتُ ضوءاً في نهاية الطريق وسعيتُ إليه بكل جدية ومسؤولية. أما بالنسبة لمصير المجتمع، فغالباً ما تخوّفتُ من ان تتغلّب تقاليد الماضي على أحلام الغد. كان ذلك دافعاً لخوض صراعات خطيرة. صارعتُ من خلال الكتابة والعمل ضمن حركات وأحزاب نهضوية وعرّضتُ نفسي لاحتمالات السجن وربما القتل، وكنت مع الحداثة، ولكن ليس مع أية حداثة. أزعجتني الطائفية كما أزعجني قطع الاشجار، وهدم المنازل القديمة، والاعتداء على الشواطيء، وتجريد الناس من حقوقهم كما يجرّد القصّابون العظام من اللحم في أزمنة المجاعات.

انتهت الحرب الأهلية الأولى والثانية خلال أربعة عقود من الإستقلال وتعاقبتْ الحكومات دون أن تتبدّل وجرت محاولات لاعادة البناء هنا وهناك، وصمت الناس أو هاجروا ليس فقط للبحث عن عمل بل عن وطن آخر أيضاً. لم اقتنع ورحلتُ عندما لم أجد أجوبة لأسئلة محيِّرة، وما أزال غير مقتنع فأتابع رحيلي وتجوالي في المنفى ووسط الدمار وخارجه بين وقت وآخر. في ساحة البرج والمعرض تبيّن لي ان هناك مشاريع لاعادة البناء. أقول ربما هناك بداية بدءاً من المركز، ولكن ذلك لم يخفّف من مخاوفي ان نستعيد علاقاتنا السابقة بالمكان فنعمل على تجزئته مرة أخرى. هل تستعيد الاحياء اشكالها وتقوم حدودٌ بينها لا يمكن اختراقها؟ هل نشيّد ما يزيد على بيروت شرقية تتطلّع غرباً بحذر وبيروت غربية تتطلّع شرقاً علّها تسمع لغة جديدة؟ هل تزول الحدود أم تعود كما كانت فلا يكون لنا بيروت واحدة بل تكون لنا كما في السابق بيروت السنة، وبيروت الشيعة، وبيروت الأرثوذوكس، وبيروت الموارنة، وبيروت الدروز، وبيروت الأرمن، وبيروتات أخرى ضمن كل منزل وخارجه؟ هل تُفتعل لغة هنا ولغة هناك في محاولة يائسة لترسيخ الاختلاف والتميّز الحضاري كي ينشأ مبرّر للقطيعة؟ هل تتوزّع القوى التقليدية في مناطق المدينة وتدمغها بطابعها وترسم معالم حدودها بلون الدماء التي سُفكت رخيصة؟ لينقذنا الله من هؤلاء وأولائك.

هذا ما تداعى إلى ذهني حين تابعت تجوالي في ساحة البرج، فتراءت لي كما لو في حلم أو كابوس أسوارها وأبوابها وتمثال الشهداء الذي شيّده الفرنسيون عام 1931وكان عبارة عن امرأتين مسلمة ومسيحية تندب كل واحدة ضحاياها فوصفه فؤاد سليمان في تموزياته بانه حجر يابس وصخرة كئيبة وصنم يمثّل ارادتنا المسلوبة فطالب الناس ان يغمضوا عيونهم عنه كي لا ترسخ اسطورة

الطائفية. لقد زال من الوجود ولم نعثر على اثاره فنعبر الطريق إلى مقهى القزاز عند مدخل سوق ابي النصر من ناحية ساحة الشهداء وأكاد أن اسمع أصداء النراجيل وارتطام زهر الطاولات وتعابير الدشش والدبش والدوبارة والدرجي وبيت اليك التي ارفض ان اتعلّمها حتى الآن. بل ألمح، كغشاوة هزيلة، شخصية الحكواتي يجلس على كرسي مرتفع في صدر المكان مرتدياً القنباز والطربوش الذي تتمايل شرابته يميناً يساراً ثم يساراً يميناً وترقص عصاه في الهواء كجسد سامية جمال وتفرقع فوق الطاولات كخطابات بشارة الخوري. وأبحث دون جدوى عن آثار مقهى صاحب المراجل أبو عفيف كريدية الذي كان ملتقى الادباء والشعراء من أمثال الأخطل الصغير وأحمد الصافي النجفي الذي كثيراً ما شاهدته يتجوّل مشرّداً في الشوارع. واستظرف من حكايات زعيم القبضايات أبو عفيف كريدية أنه قال يوماً للجنرال ويغان وأضعاً أصابعه على شنباته التي يجلس عليها النسر دون ان تنعكف، «اعطني طياره لروح لبرلين وجبلك راس هتلر». ولكن في تلك الليلة بالذات خاطبه يونس البحري في إذاعة صوت برلين، «لا تعذّب حالك، نحن سنأتي اليك».

***

وبحثتُ بعد ذلك ودون جدوى عن آثار مقهى «وليامس» الذي كنت ارتاده بين حين وآخر للالتقاء بالكتاب والصحفيين الشباب مقابل كوكب الشرق وفندق أميركا عند زاوية التقاء ساحة البرج بشارع الأمير بشير. وفي الجنوب الشرقي من ساحة البرج حلّ قبل العهد الذي أعرفه ملهى ومطعم باريزيانا محلَّ مسرح زهرة سورية وكنا نجتمع هنا كأولاد مفلسين نصغي للمغنين والمغنيات مجاناً متسلقين شجرات ساحة البرج الصغيرة. ولم تعد من معالمِ لمقهى الحاوي حيث كثيراً ما شاركتُ في نقاشات حامية خاصةً بعد محاضرة مهندس فكرة لبنان الحديث ميشال شيحا في الندوة اللبنانية.

ليس غريباً أن إستيقظتْ بيروت في ذاكرتي من دمارها وتتالتْ صورها القديمة كما لو استعرضها في صندوق الفرجة:

تعال يا حبيبي وشوف، ساحة البرج ع المكشوف.

شوف بيروت مثل ما كانتْ، شوف كيف صارتْ،

وكيف بدها تصير.

هذه بيروت ست العجايب وأم المخالب.

***

دون أمل برجاء قريب تابعنا البحث عن بيروت تحت ركامها. وأشعر شخصياً أنني أتجول مصعوقاً وكمن ضُرب على رأسه في معركة لم يخضها بتاتاً. مراراً عديدة قسوتُ على نفسي بالإصرار، وها أنا أجدني وسط الدمار فأسأل صديقي عادل: لماذا اندثرت أحلامنا كأوراق الخريف حلماً بعد حلم، وبعد أن تعاهدنا على أننا كلما بلغنا قمة سنطمح للوصول إلى قمة أكثر إرتفاعاً، وألا نتوقّف عند أفق بل أن نبحث عن أفق آخر؟ أليس من الجنون أن يكون الإنسان عاقلاً وسط الدمار؟ ولن يخدعني قول الشاعر أدونيس أنها مدينة البدايات. لا أرى بدايات بقدر ما أرى إستمراراً لما مضى مهما تبدّلت الوجوه والأزياء. ما يتبدّل هو الأزياء لا المبتكرات.

ولم ينتظرني صديقي عادل أميوني لأكمل كلامي فأجابني جازماً وبثقته المعهودة بصحة أفكاره: على العكس يا عزيزي، على العكس تماماً وكلياً. من الجنون بأقسى حالاته ألا يكون الإنسان عاقلاً وسط الدمار. الجنون هو الذي أوصلنا للدمار. وحين نتأمل بما وصلنا إليه يكون علينا أن نبحث عن طريق أخرى للخروج من الحالة التي وصلنا إليها، بل وعن أهداف ومهمات أخرى لنبدأ من جديد. كيف وصلنا إلى حيث نحن؟ من صنع كل هذا الدمار؟ لماذا لم نتعلّم من دروس الماضي؟ كيف نخرج من حالة الدمار ونعيد البناء؟ ما الدروس التي يجب أن نتعلّمها؟ هذه أسئلة لا بدّ من الإجابة عليها في أقرب وقت ممكن وباسلوب منهجي. وأنا واثق أننا سنجد الأجوبة المطلوبة.

ونسلك، بعد هذه الخطبة العصماء، شارع الأمير بشير باتجاه التياترو الكبير مروراً ببناية العزرية التي يُقال أنها شُيّدت فوق آثار معبد أبولو وتقابلها، حيث كانت بوابة بيروت الجنوبية، كاتدرائية مار جرجس للموارنة التي دعتنا دليلةٌ لدخولها فاستجبنا دون تردّد. وفيما تشرح لنا بعض الجوانب الهامة، وجدتُ نفسي أستعيد ذكريات قديمة. هنا أقام البطريرك الياس حويك قداساً، بعد ان تمكن الجنرال غورو من القضاء على استقلال الدولة العربية في سورية وعمل على انشاء الكيان اللبناني الكبير، وألقى أمامه كلمة استهلها بقوله، «هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، تعالوا نسرّ ونفرح به»، وتوجّه إليه رئيس أساقفة بيروت المطران أغناطيوس مبارك قائلاً، «بعد

استيلائك على الشام، يا مولاي، جلوتَ عن الشعب غيوم الأوهام... لأن هذا الانتصار أنقذه من كابوس التشوش والقلق... فاسمح لي يا حضرة القائد ان اشكرك باسم الشعب الساذج الذي أنقذته من أغلال الجور والاستبداد وأشكرك أيضاً لاستيلائك على الشام...وأشكرك على لبنان الكبير الذي فتح لك السبيل فصرت سيداً على سورية كلها».

أحزنني مجرد تذكّر هذا الكلام البشع وتمنيتُ لو أنساه واتحرّر منه إلى الأبد، ولكنه لم يكن من الغريب أنه أزعج الوطنيين من مختلف الطوائف وخاصة المسيحيين منهم. جواباً على البطرك والمطران في تلك الأيام اصدر المفتي الشيخ مصطفى نجا بياناً أعلن فيه رفض الانتداب الفرنسي وطالب بالعودة للاتحاد مع سورية بقوله، «قررت الطائفة الإسلامية في بيروت، بالاجماع، احتجاجاتها السابقة على إلحاقها بلبنان... وتؤيد وتكرر طلب الرجوع إلى ما كانت تحفظه لنفسها بشأن الالتحاق بالوحدة السورية على قاعدة اللامركزية في كل وقت وزمان». وارسل في تلك الأيام عمر بك الداعوق برقية باسم مختلف نواب بيروت وطرابلس وصيدا وصور والبقاع إلى عصبة الأمم يحتج فيه، «على ضم الأراضي التي يمثلونها إلى لبنان دون أن يؤخذ رأي أهلها قبل ذلك الضيم، فهم يطلبون ان تؤلف هذه الأراضي دولة مستقلة إدارية مرتبطة باتحاد لامركزي مع لبنان القديم وسورية».

وعلى صعيد شعبي صدرت ردات فعل غاضبة وساخرة على خطب البطرك والمطران، فخاطب شاعر شعبي رياض الصلح مهنئاً أياه بحذائه الجديد الذي إشتراه في ذلك الوقت وهو يضحك لمهارته بالتلاعب في الكلام:

مبارك سباطك يا رياض

بدو شريطه عريضه

ما لم يعرفه ذلك الشاعر الشعبي أن رياض الصلح إشترى حذاءه الجديد تمهيداً لوصوله إلى المنصة وكان بين من رضخوا للأمر الواقع.

تلك كانت ذكريات مزعجة تثيرها الرواية ولا يثيرها التاريخ الرسمي فخرجنا من كتدرائية مار جرجس لندخل كنيسة البشارة للروم الأرثودوكس التي كانت تقع بجوارها مدرسة الحقوق وقبة الحمامات التركية وحمام زهرة سورية وسوق ابو النصر، ومنها سرنا إلى ما أصبح يُعرف بساحة رياض الصلح الذي يمتطي حصاناً لا ينزل عنه ونتأمل السراي الكبرى حيث كنا نقوم بمظاهرات احتجاجية. وبخيبة أمل ننعطف إلى شارع المعرض ونسير بتمهل نحو ساحة العبد ومبنى البرلمان. وكان الصمت مخيِّماً هناك حيث كنا في السابق نسمع اصداء أصوات متنافرة.

وتوقّفنا عند ساعة العبد التي نُصِبَتْ عام 1936فاتخذتها فيما بعد عندما بدأت أكتب قصصاً رمزاً للجمود وتوقّف الزمن. وأردّد لرؤى وعادل ما قاله الشاعر الشعبي الساخر عمر الزعني الذي لم يسلم من السجن في عهد رياض الصلح وبشاره الخوري:

وبآخر ساعة، بعز المجاعة

قاموا الجماعة، نصبوا لنا ساعة

يلعن هالسّاعه، وهديك الساعة

وبأحشر سوق، نصبوا الخازوق

خازوق كبير، وبراسه ساعة.

لا أدري أية مجاعة يتكلّم عنها عمر الزعني، ولكنها ذكّرتني بساحة كانت تتفرع عن شارع المعرض، وهي شبه سوق شعبي كانت تباع فيه وجبات الغذاء للعمال والحمالين باسعار منخفضة. أكلت فيه مرة وجبة كروش، فيما أكل أخي كمال فتة كراعين وقد أشرف علينا التياترو الكبير كحارس ليلي متعب. وأسأل نفسي ايُّ ماضٍ أحنّ إليه بعد كل هذه التجارب؟ باسم الحنين إلى ما يسمّونه زمن الإزدهار، يقال باعادة لبنان الماضي. أليس لبنان الماضي هو سبب أنهيار لبنان الحاضر؟ أليس الأحرى بنا أن نطالب باقامة لبنان على أسس جديدة؟

وأعود لأقول في اليوم التالي وأنا أتابع تجوالي وحيداً، «يا نادر الكفروني، أنتَ لم تتحرّر بعد من مواعظك السقيمة التي لا جدوى منها»، ثم تابعتُ سيري في شارع المعرض نحو سوق أياس والبركة التي تتوسّطه حيث كنا نشرب المرطبات وعلى رأسها تمر هندي ونأكل سحلباً أو مهلبيّة أو رز بحليب. ثم وجدتُ نفسي ابحث عن مطعم العجمي ومقهى الحاج داوود ومقهى البحري إلى الغرب من الميناء وقبر الجندي الفرنسي المجهول أمام فندق نورمندي لأتذكّر أنني شاركت أثناء الثورة الجزائرية في مظاهرة كبرى. وبعد بحث لم

يدمْ طويلاً اكتشفت انني وصلت إلى حاووز الساعاتية حيث وقع بيت الدكتور سدرك حداد الذي كانت تعمل والدتي في عيادته في ساعات فراغها والذي كانت اختى ندى تأتي لزيارتنا برفقته من ميتم عبيه.

هناك لأول مرة اتنبّه لوجود قبة ضريح رغم معرفتي بالمنطقة لزمن طويل. اقترب منه لأتبيّن حروفاً شاحبة فأقرأ أنها زاوية ابن عراق الدمشقي الشافعي الامام الأوزاعي. هل كان من الضروري ان يتمّ كل هذا الدمار كي أكتشف الضريح وأن أعرف ان هناك علاقة بين بغداد ودمشق وبيروت كعلاقة الرئة بالهواء؟ وأحرص أن أسلك الطريق التي كنتُ أسلكها مع إبن بيت لحم والقدس جبرا ابراهيم جبرا حين كان يأتي لبيروت قادماً من بغداد بعد ان تجوّلنا في باب إدريس ودخلنا سوق الطويلة لنشرب فنجان قهوة مع انسي الحاج في صحيفة النهار، ونمرّ بعد الزيارة بمقهى مسعود لعلمي أن محمد الماغوط يجب أن يكون هناك كعادته. أما اليوم، وقد توفي جبرا وإستبدل محمد مقهى مسعود بمقهى فندق الشام قبل أن فرض على نفسه إقامة جبرية في منزله، فتابعتُ طريقي المتعرجة وحيداً إلى رأس بيروت وتوقفتُ في شارع فينيقيا الفاصل بين عين مريسه وميناء الحصن حيث كان دار مجلة شعر لأقول ليوسف الخال الذي توفي أيضاً «سلامات يا إبن قلعة الحصن» وأتخيّله يردّ بشوشاً، «أهلاً بالمعّاز»، وصعدتُ إلى شارع الترامويِ حيث تقع طلعة الداعوق فألوّح بتحية لغادة وبشير، وقرب محطة الديك تذكّرت انيس ويوسف وفايز وتوفيق ومنير وفؤاد وماري صايغ في عين مريسة وخطرت ببالي في الوقت ذاته ليلى بعلبكي التي كانت تسكن تلك المنطقة فسألتها ترى أين أرضك في هذه الأيام وما مصير الكتابة والوعد؟

تابعت تجولي في شوارع رأس بيروت التي تتشابك مثل شرايين القلب وتوقّفتُ مأخوذاً بين وقت وأخر لاسجّل شعارات أقرأها على الحيطان واليافطات وشرفات المنازل ونوافذ سيارات تزدحم على الأرصفة وتعرقل سير المشاة الذين ضاع حقهم بالحياة. وبهذا تجمّعتْ لديّ عدة شعارات أستدلّ من خلالها على مصالح أصحابها.

ثم توقّفتُ في أيام متتالية عند معالم حفرت آثارها في ذاكرتي، منها فرن الطقوش ومكتبة خياط ومطاعم فيصل وانكل سام وأليسار وسقراط ومكتبة رأس بيروت فدخلت في نقاش مع فاديا أنساني أن أسألها عن كتاب كنتُ ابحث عنه. وعند منعطف طلعة الدكتور مصطفى الخالدي، خطر لي أن أزور إبنه سمير الذي تخرّجت معه من الكلية العامة عام 1951 فربما لديه بعض الوقت لنستعيد معاً ماضي بيروت وأسأله فيما إذا كان ما يزال يحتفظ بوثائق تركها والده الذي عاش تجارب المنقطة وعرف الكثير من أسرارها، ومن بينها حِكَم الإسبوع التي كان يعلّقها على لوحة خاصة عند مدخل عيادته في الشارع الذي أصبح يُعرف باسمه. وكانت بعض تلك الحكم تغضب الحكام أحياناً فيطالبون بنزعها، غير أن الشرطة لم تتمكّن من التفاهم معه، وتبقى الحِكَم معلقة مهما كانت الأوامر لأنه «ما في مزح مع الدكتور خالدي».

ولما شكا سميرمن ضيق الوقت توجّهتُ إلى شارع السادات مروراً بمخفر حبيش وانعطفت يميناً عند أول مفرق إلى شارع منصور جرداق الذي عشت فيه وعرفته كما عرفني لسنوات عديدة. قصدتُ روضة الأطفال لجمعية نساء لبنان حيث اقمنا، فتوقّفت مذهولاً امام ورشة عمل كبيرة. كان عليّ ان اضبط عواطفي. تستيقظ الذكريات وتزدحم وتكاد دمعة ان تسقط. أتطلع إلى الشرفة التي كانت تطلّ منها عبلة هناك، وحين أتذكّر عبله تحضر سهى كبدر يطلّ من وراء غيوم بيضاء. اتأمل ما حدث من تحوّلات قبل أن أفقد تمالكي لعواطفي عندما توقفتُ امام المبنى الصغير الذي استأجر فيه الشاعر ادونيس غرفة واحدة عند مجيئه عام 1956من دمشق.

وحتى الآن لست ادري إن كان ادونيس يدري أنه باستئجاره تلك الغرفة جاور اجمل فتاة في الحي قاطبة. إنني اتكلم عن سهى تميم التي كان الشارع ينبهر بها حين تطل من شرفتها بدراً مضيئاً. تزوّجتْ سهى الدكتور نمر طوقان المعروف بمرحه وسرعة خاطره ومنذ ذلك الوقت وأنا اتساءل لماذا يتزوّج الأطباء أجمل النساء مع أنه ليس لديهم الوقت للتمتع بجمالهن؟ وللأسف لم يدم زواجهما طويلاً إذ ما لبث أن توفي الدكتور نمر في حادث سقوط طائرة وكان برفقة اميل البستاني. وأحزن حتى حدود البكاء حين اتذكر مقتل سهى نفسها أثناء الحرب بعد فترة قصيرة من زيارة قمنا بها معها برفقة محمود درويش إلى منزل نديم نعيمة الصيفي في قرنة شهوان بعيداً عن ضجيج العالم ومخاطره وللحديث في شؤون الشعر.

ومضيتُ عائداً إلى شارع السادات.لم تكن وداد أو نبيل على الشرفة كالعادة كي اسلّم عليهما وأسأل عن العائلة وأقول لهما انني تعرّفت صدفة في ولاية فيرمونت إلى ابنه جورج وكم كانت تلك مفاجأة سارة لي، خصوصاً وأنه تزوّج فتاة فلسطينية وبدأ يعمل في خدمة القضية كما فهمت في ذلك اللقاء العابر والذي لم يتكرّر للأسف الشديد. في هذا المبنى بالذات سكن أيضاً صائب سلام وكانت لأمي علاقة بزوجته السيدة تميمه فحدث أن تعرّفتْ أختي ندى إلى مربية أولادهما فنشأت بينهما صداقة. ومن شارع السادات أنعطفتُ

إلى شارع التنوخيين حيث كان دكان ابو طالب الذي تحوّل إلى موقف سيارات. وعلى بعد أمتار قليلة توقّفتُ عند منعطف حيث ما زالت على حالها الشقة التي سكناها بعد ان تقاعدت أمي من خدمة روضة الأطفال. كانت شقتنا المتواضعة هذه تشرف على تقاطع شارع التنوخيين وشارع ادونيس. عند هذا التقاطع، وحيث كان منزل الفتاة المثيرة التي كانت تنام بثيابها الداخلية دون ان تغلق النافذة وتسدل الستارة، أُقيم جامع الحاج عمر يحي شاتيلا. وكنت ما أزال ابتسم عندما وجدت نفسي اتسلق شارع العرداتي بدلاً من أن أنحدر باتجاه الكورنيش والحمام العسكري.

في تلك اللحظة أعود لاؤكّد لنفسي أنه ليس كالتجوّل من وسيلة للتغلب على الحزن، فأتساءل، «يا نادر الكفروني، هل تبحث من خلال الدمار حقاً عن بيروت القديمة التي كنتَ تحبّها أم انت في الواقع تبحث عن وسيلة للتحرّر من دمارك الخاص؟». أتجنّب هذا السؤال المحرج وأتابع تجوالي في شارع الحمرا لاكتشف إن أحد الأزقة المتفرعة عنه حيث كانت تسكن حبيبتي رؤى مقابل فندق بلازا أصبح يُسمّى المهاتما غاندي. ما أعرفه جيداً أن جميع سكان هذا الحي يؤمنون إيماناً مطلقاً باستعمال العنف في حلّ مشكلاتهم.

ومن الأزقة المتفرعة عن شارع الحمرا التي أعرفها جيداً زقاق أصبح يُعرف بشارع نعمة يافت تماماً مقابل الموقع حيث كان معمل ضومط وبساتين الباذنجان والبندورة والخس وتينة أهل سميح شاتيلا التي كنا نتسلّقها أمام مدرسة الست أمينة المقدسي. هناك كان ينتهي شارع المقدسي. بعد كل هذه السنوات الطويلة والمليئة بالاحداث ادخل في شارع نعمة يافث حيث كان يسكن رجا ونبيلة ورمزي واستيلا وليلى جورج، وأهل الكفرون بدءاً من ام عطية زوجة عبود الحداد وأولادها عطية وجبرا وبديعة وحاجة، وام يوسف واولادها يوسف وانيس ووديع الذي انجب المطرب جورج وسوف. إنه حفيد أم يوسف التي جئنا بحراستها من الكفرون إلى بيروت. وفي تجوالي العشوائي هذا بعد عقود من الزمن قيل لي ان قريبي سمير حداد يملك «سناك بار» قرب فندق كومودور، وربما لم يعد هناك غيره في الحي من كل هؤلاء. ودون تردّد اذهب إليه لأفاجئه واتفاجأ به فرحّب بي كما لو هبطتُ من غيمة صيفيّة فلا اخلص من قبضته. نتحدث مطولاً ويُريني صورة قديمة باهتة لجده القبضاي والزجال عبود في زمن الشباب وهو يحمل مسدساً وخنجراً. ويعاودني دون رأفة مشهد موت رجا فليحان في شارع الكمودور برصاص قناص. سقط مثل كوز التين. يا رجا، أخوك جوزف يعيش في ضاحية واشنطن. هرب كما هربتُ أنا. لماذا لم تهرب انت؟ ألا تؤمن بالمثل الذي يقول «الهريبة ثلثا المراجل»؟ ربما كنت تزّوجت وجلبت أولاداً وارسلتهم إلى المدارس وثم إلى الجامعة وطلعوا عباقرة.

آه، نسيت بسبب تداعياتي التي تجتاحني كالموج ان اتحدث عن معمل ضومط للحليب والألبان والأجبان عند تقاطع شارعيّ الحمراء ونعمة يافت. فيه كان يعمل عطيه حداد والياس ويوسف حدو اللذان جاءا من صافيتا إلى بيروت للعمل مع قريبهما نجيب ضومط ابن الاستاذ العلامة جبر ضومط. كان المعمل يشتري الحليب في الثلاثينات من بساتين رأس بيروت من آل شهاب وشاتيلا ب 12 قرشاً للرطل ويبيعونه بِ 20 قرشاً، وكان راتب الياس الشهري 11 ليرة. وهم أول من بدأوا بتعقيم الحليب سنة 1935بعد أن عاد نجيب ضومط من كاليفورنيا حيث تخصّص في هندسة الزراعة (ومن غريب الصدف انني تعرّفت إلى ابنه إميل في سهرة عامرة في واشنطن). في تلك البدايات الأولى، يقول الياس، كان شارع الحمرا يدعى زاروب الحرامية بلغة أهل الحي، ومنه تفرع خندق ديبو المحفوف بالصبيّر والمسكون بالجنّ.

سحرتني حكايات الجن في خندق ديبو، وكنت منشغلاً في كيف أطلق مخيلتي من أسرها عندما وجدتني أسير متمهّلاً في شارع جان دارك الذي ما أن أطأ أرصفته حتى أجد نفسي اتمهّل وادقّق بكل شيء. أُراقب وأتذكر. كل ما هو موجود في الوقت الحاضر كان هناك مكانه شيءٌ أخر أستدلّ عليه من إشارات وملامح باهتة. ويُقال في هذه الأحياء المتشابكة ان أم اسكندر عرمان كانت تتنبأ بما سوف يحدث. تُرى هل كان بإمكانها ان تعرف مصير شارع جان دارك لو عادت إليه في هذه الأيام العصيبة؟ أنه غير كل ما كانت تتصوّره وتتنبأ به. طبعاً هناك آثار بعض ما كانت تعرفه كما يقول مختار الحي ونسمع تردداً لاسماء آل ربيز والمقدسي وبخعازي وطقوش وشماعة وبارودي وشاهين وعرمان وكاتول وغريب وقعوار وصوراتي وبسول وآل معلوف ومنهم فوزي ورشدي والد أمين واستاذتنا فائزة التي قيل أنها كانت تعرف أنطون سعادة وربما كان لديها رسائل منه لم تنشرها كما نشرتها ادفيك شيبوب التي أعتز بمعرفتها، وكان إبنها أحد تلامذتي النجباء في الكلية العامة ولم أعد لأراه منذ تلك الأيام الغابرة وإن توقّفتُ أمام بنايات تحمل إسمه قرب بناية جفينور ومستشفى الجامعة الأميركية وفي جلّ البحر.

وسرني أن ابناء وشباب آل طقوش ما زالوا يتنافسون في كشّ الحمام وفي بيع الأزهار. هذا ما راقبته عن كثب من نافذة مكتب

صديقي حسن ياغي في المركز الثقافي العربي. وما تزال هناك مصبغة الصيداني كما كانت في عهودها القديمة ولكن صديقي منير الذي كان يعمل فيها قتلته رصاصة قناص أيضاً. واختفت مصبغة عجاج المهتار الذي حوّلها مطعماً لم يتردّد عليه سوى قلة من رفاقه في الحزب، ومات حبيب القلب الاسكافي ذوقان الذي كنت أجد زكي ناصيف جالساً عنده على كرسي صغيرة لا تكاد تسعه وهما يتحدثان عن أيام زمان حالكة. وقادتني حشريتي أن انعطف إلى شارع الصوراتي نحو شارع عبد العزيز. هنا سكنتْ بهية لمدة مع أخيها كاسرمقابل منزل قسطنطين زريق، رحمه الله. ومما علق في ذاكرتي عن شارع الصوراتي أنني في زمن الفتوة أعطيت لمدة دروساً خصوصياً لإبن ألبرت بدر في شارع ضيق تفرّع عنه، وعملتُ كذلك في تدريس ابن ادريس في شارع عبد العزيز الذي كنت أظن ان أمه واحدة من ألطف وأجمل نساء العالم. وليس بعيداً من هنا، كان أخي كمال ـ كبقية أولاد الحي ـ يشتري ربطات الدبق من حمزه شاتيلا لاصطياد العصافير. ومما استغربه ان أخي نسي كل هذه الأمور التي أصبّ عليها الماء كي تظلّ تنمو وتتخذ شكل شجرة من نوع ما.

وأكتشف أن قلة ضئيلة من عائلات هذه الأحياء في رأس بيروت نزحتْ عنها متمسكة بقول مأثور، «مَنْ با ع أرضه إنقلع من شروشه». ومَنْ خالفوا هذا القول وباعو أرضهم انقلعوا حقاً من جذورهم، فسمعتُ ان أحد ابناء شاتيلا إنتحر بالفعل لسبب من هذا النوع، وتشتّتَ آل خوري ربما منذ باعوا قطعة الأرض المسوّرة عند زاوية الحمرا وشارع جان دارك والتي كنا نلعب فيها لزمن طويل. وهنا بالذات ومقابل البنك العربي شقة كان يقال في تلك الأيام أنها مصادرة، ولفتتْ نظري يافطة كانت ترتفع فوق نافذتها لتعلن لمن يهتمون بقراءة اليافطات الأكثر من الهم على القلب، «ان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً»، مُصلّى الإمام جعفر الصادق. وعلى ما اذكر ان المُصلّى الجديد كان يقع تماماً فوق الشقة التي كان يسكنها عجاج المهتارالذي أحفظ بيتاً من شعره العامي:

يا الله إنْ كنك الله وعادل حساس

افتحلك طاقة واتجلى وافحاص الناس

وهنا في هذا الحي بالذات، قرب بيوت آل الطقوش وآل عيتاني، حفظتُ أيام دراستي الثانوية حدّوثة كانت تقصّها الجدات على أحفادهن وكثيراً ما أقصّها شخصياً على أطفال العائلة في الزمن الحاضر:

حدّوتَهْ يا حدّوتَهْ،

طلع الشيخ ع تُوْتَهْ.

والتوته بدها فاسْ، والفاس عندْ الحدادْ.

والحدادْ بدو بيضه، والبيضه بالدجاجه،

والدجاجه بدها قَمْحَةْ، والقمحة بالعِلْبَةْ،

والعلبه مسكّره، والمفتاح مع بوصلاح،

وبو صلاح راح يجيب تفاح

واتساءل ترى ذهب بوصلاح ليجلب تفاحاً في غير موسمه؟ لا بد ان تجد بيروت حلاً. وليس صدفة ان أهلها يتذكرون أساطيرها، منها ان عروساً للبحر باسم بيروت كانت ابنة عشتار وأدونيس. أي مصير ينتظرها؟ مصير عشتار وأدونيس أم مصير بوصلاح؟

اقتضى الأمر أن أعود سنوياً من المنفى الطوعي إلى بيروت. وفي كل زيارة كنتُ أجد نفسي استعيد، من خلال التأمل في دمار بيروت، ذكريات طفولتي الثانية وفتوتي. لماذا تستيقظ الذكريات بهذه العفوية من رماد الدمار؟ ومهما حاولتُ الاهتمام بشؤون الحاضر والمستقبل، لم يكن من السهل التحرّر حين أشاء من تداعيات تسكن الروح وتتمدّد جذورها في الجسد؟ ومما عاودني باستمرار ما قاله لي في مطلع شبابي جارنا افتيموس إحتجاجاً على صخبي: يحرق دينك شو روحك أكبر من جسمك.

لم أنسَ هذا الكلام لكثرة ما أعجبني فاقتنعتُ أن ديني احترق من زمان وأن روحي أكبر من جسدي، وثبت لي من خلال ولعي بالكتابة والفنون كيف تطاردني ذكريات الماضي فيما أطارد أحلام المستقبل علّني أصادف «بوصلاح» دون ان أعرفه، خاصة إذا لم يكن يحمل تفاحاً. ومهما كان، أعرف جيداً إن ماضي بيروت يستيقظ من رمادها وألمح في البحر وفوق قمم الجبال مستقبلاً آخر لا استوعب ملامحه كلياً. ولدى كل عودة إلى بيروت، اشعر ان الانقطاع عنها استمر زمناً طويلاً لا يُحتمل؟ وإذا كانت مشكلة بوصلاح ان يجد التفاح في غير مواسمه، فإن مشكلتي في علاقتي ببيروت هي الانقطاع الذي تتخلّله زيارات عابرة لا ترضيني وقد لا ترضيها

لقسوة ما قد أكتب عنها.

باكراً في كل صباح واظبتُ أن اتمشى مع صديقي عادل اميوني على الكورنيش بين الروشة وعين مريسة، ونكمل دورتنا أحياناً بالوصول إلى باب ادريس ومنه نتابع خط الترامواي القديم حتى شارع بلس حيث نتوقف عند فرن طقوش ونشتري مناقيش زعتر. هناك صادفنا في زيارة سابقة مصلِّح الاحذية رفيقنا القديم ذوقان فأصر ان نكون ضيوفه. أما في زيارتي الأخيرة هذه فاكتشفت ان ذوقان توفي بالذبحة القلبية فجمد الدمع في عيني كانحباس المطر عن أرض الخضر. رحمك الله، ويؤسفني ان جسدك إنهار قبل ان تتعب من الشغل في حقل الحياة القاسية على عكس ما جرى لأمي وما يجري حالياً لبهية. أفكّر بهما دائماً، وطبعاً بأخي وأختي وأصدقائي وصديقاتي. أشعر أنني غني بهم في أيام الفرح وأيام الحزن فتستولي عليّ رغبة جموحة في معرفة أسرارهم التي لا تنفصل عن أسرار بيروت، ويبدو لي كأنما هذه الأسرار هي واحدة في جوهرها مهما تعدّدت المظاهر والأشكال والألوان. كل سرّ منها مدخلُ للسر الأكبر. إذن، أليس من الحكمة ان أحتفظ بمصادر الغنى في حياتي؟ هناك دائماً ما يذكّرني بهم: المطر، الريح، الموسيقى، الشعر، الأمواج، الينابيع، الغيم، شروق الشمس من وراء الجبال وغروبها عند أفق البحر.

أفكّر بالبحر دائماً.
أتصوّر ليلاً أنني أنام على فراش متموج من الماء.
أراقبه في الصيف والخريف والشتاء والربيع
وتسحرني أمواجه وألوانه.
أحاوره في الصباح وظهراً وعند الغروب
وأفكّر بعلاقته بالريح.
وكثيراً ما أصغي لموسيقاه
فأغوص في أعماقه للتعرف إلى مخلوقاته العجيبة،
وكان أن تولّعتُ بالبحث عن أصدافه من كل شكل ولون.

ولم يصدف أن عبرتُ منطقة عين مريسه دون أن أفكّر بعماد وعصام شبارو وزهير وعصام روضه وحسان ووليد غندور وزهير سلطاني، وأصغي لحكايات عن أن المنطقة البحرية منها كانت مرسى لقوارب البحارة وصيادي الأسماك فأشعر بالأسف أنني لم أقم معهم علاقات دائمة وأصغي لحكاياتهم مع البحر، واستوضحهم عما يقال من أن المراكب كانت تحمل الحجارة من اللاذقية وطرابلس لبناء منازل فخمة للعائلات الغنية.

تعجبني دروبها التي يقال أيضاً أنها كانت في قديم الزمان مسكونة بالجنّ، وشغلتني قصة خلافاتها مع الجامعة الأميركية بسبب مشاريعها التوسعية والصراع حول ملكية الأراضي التي ورثها سكانها عن أبائهم واجدادهم جيلاً بعد جيل. ولن أنسى كم تردّدنا على مسابح الجمل والنورمندي وعجرم. وأهم من كلما رواه عصام شبارو الذي سجّل تاريخ عين مريسة تحوّل اسم الشهيد خالد عثمان علوان إلى ما يشبه الأسطورة لدى أهل المنطقة في مواجهته الإحتلال الإسرائيلي (1982 ـ 1984)، وكان عمه مصطفى علوان هو أيضاً تحوّل من قبل إلى ما يشبه الأسطورة في مواجهته سلطات الانتداب الفرنسي. ويُقال أن خالد بدأ مطاردة الجنود الاسرائيليين بعد أن شاهد في صحيفة صورة فتاة لبنانية من قرية القليعة تزرع وردة في فوهة بندقية جندي من جنود الإحتلال الإسرائيلي، ومنها قيامه بعملية ناجحة قضتْ على عدد من جنود الاحتلال في شارع الحمرا، إلا إنه أغتيل بعد سنتين من قبل أحد العملاء. وتبع ذلك أن نفّذت رفيقته في الحزب القومي سناء محيدلي عملية استشهادية في 9 نيسان 1985 قبل بلوغها السابعة عشرة فكُتبتْ لها وعنها مئات القصائد من قبل شعراء من مختلف البلدان العربية واطلقتْ عليها تسمية «عروس الجنوب».

وارتسمتْ في مخيلتي منطقة جلّ البحر التي كنا نهبط منها إلى الشواطىء الصخرية حيث كنا نسبح في البرك قبل أن نتجرأ على تحدي الأمواج. وفي هبوطنا إلى الكورنيش وعودتنا منه كنا نسلك درجاً أُغلق أثناء الحرب الأهلية فاضطر الأهالي أن يجدوا منفذاً آخر. ورغم تشاؤمي، هناك ما إستلفتَ نظري في جلّ البحر. إستوقفني منظر نصبة تين بدأت تنموا في حائط أحد المباني. وفجأة تذكرتُ تينة الصخرة في ضهر الكفرون فقلتُ أنها قد تنحني ولكنها ترفض أن تموت. شعبنا شجرة تين، والشعوب التي ترفض أن تموت إنما تمارس حقاً أساسياً من حقوقها الطبيعية.

***

تطاردني مثل هذه الأفكار حتى في الصباح وأنا أتمشى مع حبيبتي رؤى وصديقي عادل على الكورنيش تحقيقاً لما نحلم به في الغربة. كم نحلم أن نتمشى بين المنارة وعجرم، أن نشتري كعكة بسمسم وزعتر، أن تشبع عيوننا التي لا تشبع من التطلع إلى البحر، أن نصغي لموسيقى الأمواج، أن نتحدث مع أصدقاء وصديقات هم أيضاً استيقظوا باكراً وجاءوا يبحثون عن أحلامهم الضائعة. هنا تتسع مساحة ابتساماتهم وتستيقظ طفولتهم التي لم تفارقهم مهما حاولوا قمعها.

توقفنا مراراً عند مقهى ومسبح عجرم وعند فندق سان جورج الذي قصدته مرة في الصبى لزيارة بهية هي وابنة معمر باشا، ومرة للاجتماع بأديب الشيشكلي مع فريق من طلبة الجامعة. كان فندق سان جورج إسطورة، أما غيره من الفنادق فكانت أقرب للحكايات شعبية. كان تجسيداً لبيروت، لأوهامها ومخططاتها، لكوابيسها وأحلامها. وبهذا لم تكن تهمني زيارات ليز تيلر وترتشرد بيرتون، وفطاحل النفط مثل بول غيتي Paul Getty . ما همني موقع الفندق وعلاقته بالبحر، واسمه مما يذكّرني بانه الفارس الغريب الذي يحاول أن يصرع التنين وينقذ المدينه من فجوره، ويقال إن تعطيل فندق سان جورج أصبح رمزاً من رموز أنهيار بيروت وشلل ارادتها.

كم تمشينا على الكورنيش من المنارة باتجاه عجرم والسان جورج والزيتونة إلى باب إدريس؟ وفي تجوالنا بحثت عن مواقع الكيت كات وفندق بسول والنورمندي والنصب الفرنسي لقبر الجندي المجهول. ومراراً توقّفتُ أمام مبنى الستاركو لاستعيد ذكريات صحيفة لسان الحال ولقاءاتنا هناك بجبران الحايك وأدونيس. وكان يوماً أن أكتشفتُ في جولتي الأخيرة بجوار ستاركو شارعاً باسم شاتوبريون فانزعجت رغم إحترامي له وإعجابي به. وتمنّيتُ، لدى مرورنا في شارع كليمنصو الذي وعد البطريرك إلياس الحويك بتوسيع متصرفية جبل لبنان لتشمل ولاية بيروت وبتحويل المتصرفية إلى كيان لبناني، لو نستبدل هذا الاسم باسم المسرح الوطني الذي أسّسته نضال الأشقر. وأكاد أسترسل بالشكوى فأعبّر لعادل ورؤى عن إستيائي من أن مطعم فيصل تحوّل إلى مكدونلند، ومطعم أليسار إلى كينغ برغر، واستولى فندق كونكورد على مكان مقهى ابو زيد العيتاني في أخر خط المنارة. وأصمتُ مستكيناً لإحساسي بأنني أكاد أتضايق من نفسي أكثر من تضايقي من بيروت والمشرفين، كالعقبان، على مصيرها الغامض كأحلام حبيبتي فقد استيقظتُ ذلك اليوم باكراً، أزحتُ الستارة، فتحتُ نوافذي وأبوابي، أطللتُ على الخارج والداخل.

تذكّرتُ لسبب أجهله أنني قلت يوماً لصديقي عادل ونحن نتمشى على الكورنيش صباحاً: أحياناً أجد نفسي أكبت بيروت بخيبة أمل فلا أريد ان أُفكّر بها بسبب أنها غير قادرة على ما يبدو أن تتجاوز نفسها. تعجنها الأحداث المؤلة وتخرج منها أقلّ تماسكاً مما كانت عليه في السابق. ولكنني اراها أحياناً كأنما تعدّ للمستقبل وتضع هي بنفسها أسساً مختلفة لحياة جديدة فيبدو لي أنها في حالة توثب دائم إلى الأمام وفي الظلمة. أحار أيهما هي بيروت الحقيقية؟ لا أدري. ولأنني لا أدري اشعر بالقلق وتضطرب في نفسي اسئلة لا أجوبة لها فتتساقط عن أشجارها كثمرات التفاح عند برهة نضوجها.

وكثيراً ما صرف صديقي عادل النظر عن اسئلتي مكتفياً بالقول ان ما اتحدث عنه مجرد تخيلات وأحلام شبعنا منها واستهلكناها إلى ابعد الحدود الممكنة، أما المطلوب في رأيه فهو العلم والتفكير العلمي لا غير. ويعود الصمت قاسياً بيننا. لماذا أبدأ صباحنا بمثل هذه التساؤلات التي لا أجوبة لها، خصوصاً بعد أن علّمتنا الأحداث عدم جدوى الإنشغال بها لأنه ليس في اليد حيلة؟ إن واقع بيروت لا يختلف عن واقع أية مدينة عربية أخرى. حياتها انتظار دون بحث. لا حلّ. تقتنص العيش من فم الذئب. تنام، تستيقظ، تأكل، تسهر، تطرب، تعمل لتنام وتستيقظ لتأكل وهي في حيرة من وضعها.

ضجرتُ، شكراً لتحفظات رؤى وعادل، من هذه الشكوى المستديمة التي لا فائدة منها. أنفر من اللغة الجاهزة كما لوكانت منتشلة من بطاقات المعايدة التي لا تحمل طابعاً خاصاً. إنها لغة عامة ومجرَّدة حتى تكاد ان تنطبق على أية تجارب وأحاسيس. هل نعيش في صميم الوجود، أم نعيش على الهامش؟ إلا ان صديقي عادل ينصحني مرة أخرى بالتحرّر من مخيلتي والتواضع في تفكيري، فالمهم في الحياة حسب رأيه الاهتمام بالأسئلة الصغرى لا الأسئلة الكبرى باعتبار ان الذين ينشغلون بالأسئلة الكبرى هم عادة من الذين فشلوا في الإجابة على الأسئلة الصغرى.

إلا أنني أنا أيضاً شبعت من هذا الكلام فقاطعته: إسمع يا عادل، يا صديقي. لستُ بحاجة إلى مَنْ يعطيني نصائح بالتواضع.

وهزّ عادل رأسه مستنكراً فلا أجد رغبة في الدفاع عن نفسي وتوضيح ما قصدت وإن كنت على وشك ان أشرح له بأنني تعلّمت الكثير الكثير من أمي الأمية ومن إبنة عمي بهية التي لم تكمل الدراسة الابتدائية. ولكن ما أن أصبحتا بحاجة ان تتعلّما مني حتى

بدأتا واحدة بعد الأخرى بالدخول في شرنقة النهاية دون أمل بولادة جديدة. كان طيف الموت قد بدأ يستولي على حياتهما. قبض عليهما بشبكته، وكالسمك صارعتا خارج الماء، ثم بدأ الاستسلام. انجذبتا نحو الموت بالقوة نفسها التي انجذبتا بها في السابق إلى الحياة وكافحتا بكل ما تملكان من قوة وتصميم.

من خلال تجاربهما انفتحتُ على الاختبارات القاسية، بل على اقسى التجارب، كي أعيد صياغة نفسي. استوحيتُ ذلك وانا طفل في الضيعة عندما كنتُ اراقب كيف كان شهدا الحداد يضع الحديد في النار قبل ان يصنع منه منجلاً أو سكيناً أو فأساً.

و أتذكّر اننا في احدى جولاتنا الصباحية وصلنا مرة إلى منطقة اليونسكو وحي مار الياس التينة. ولسوء فهمي لأصول إسم المكان بحثتُ عن شجرة تين علني أجدها هناك. ولما يئستُ من البحث، سألت عالماً باللغات والشؤون الدينية لماذا أُطلقتْ هذه التسمية على الحي، فشرح لي ان التسمية في الأصل هي مار الياس بتينا والكلمة يونانية PTINA وتعني الطيور. ولكثرة حبي للطيور وما بدا عليّ من اهتمام، روى لي اسطورة من الأساطير الشيقة تقول ان مار الياس لجأ إلى هذه المنطقة حيث كانت الطيور تجلب له الطعام ليأكل.

هنا قلت لنفسي أن طائراً حلّق في أجواء هذا المكان وكان يحمل رسالة جديدة غير أنه تمّ اصطياده وتمنّيتُ أن أعرف أين ضريحه لأضع عله زهرة من زهور الحقول البرية.

ومهما كان شعرتُ بالإطمئنان بعد أن إطلعتُ في تلك الأسطورة على أن مار إيليا لم يمت مرات عديدة من الجوع، فقلتُ لنفسي لا بدّ أن الطيور كانت تجلب له الطعام كلما إحتاج إليه. ترى من كان يمدّه بالماء؟ ولا بدا أن طائراً إكتشف ضريح انطون سعاده والمكان الذي أعدم به.

وكي أضبط عواطفي سألتُ صديقي عادل، «هل الاسطورة علم؟»، فأجابني بحركة من حاجبيه، «لا»، وتابعنا السير دون أن يظهر اهتماماً لماذا طرحتُ عليه ذاك السؤال. ودون يأس أو كلل أتوجّه إليه باستفسار آخر: انتَ درستَ كتب التربية المدنية، فهل صحيح في إعتقادك ان بيروت هي «جوهرة المتوسط» و«عروس الشرق العربي» و«نافذة على الغرب» و«مدينة العلم والإشعاع الفكري» و«أم الشرائع»، وانها اكتسبت اسمها من كثرة آبارها، وهل كانت السراي في الأصل معبداً لعشتار؟

مرة أخرى هزّ عادل رأسه يميناً يساراً دون ان يقول كلمة، ولكنه بعد دقائق توقف أمامي وجهاً لوجه وقال بغضب مكبوت: بيروت هُدّمتْ وأُعيد بناؤها زمناً بعد زمن، وأنت تعرف جيداً أن التربية المدنية ليست علمية، وكذلك مقالاتك الصحفية.

مرة أخرى قلتُ لنفسي تلك هي الحرب الأهلية التي ما تزال محتدمة بين أبنية بيروت بشكل مرئي وغير مرئي وتحت الأرض وفوقها وفي البر والبحر والهواء وعلناً وخفية ولسبب ودون سبب. كل بناية من الابنية المتلاصقة تفرض نفسها بقوة وهمجية على بعضها البعض، وتسدّ نوافذها وتحجب عنها مناظر الجبال والبحر ونسمات الهواء في زمن الحرّ. كلُّ تشمخ فوق الأخرى، تتعالى عليها، تخطف انفاسها، تقبض على عنقها، تعتدي على حرماتها، وتتضافر جميعها في اعتداءاتها على الأرصفة والشوارع والحدائق القليلة المتبقية، وتلتهم الأشجار النادرة، وتزحف إلى البحر مفرغة فيه بقاياها العفنة. وفي عراكها ضد بعضها البعض دون هوادة، تحولّت بيروت إلى ركام مترهل هزيل. ثم ماذا جرى للبحر، ولأحواضه النقية الصافية التي كنا نسبح فيها؟ كلها دون استثناء تحوّلت إلى مستنقعات تنبعث منها روائح كريهة. والحدائق العامة اين أصبحت؟ والمنازل القرميدية كيف أُزيلتْ من الوجود دون اعتراض وأسف؟ وماذا جلبت هذه الحضارة اللعينة للناس من بشاعات وتناقضات؟

وأصمتُ مدركاً أنني عدتُ للشكوى والأنين. لماذا اقف على أطلال نفسي واندبها؟ من أين لي هذه القدرة على مجابهة ذاتي واعترافي بخطاياها؟ أليس الدمار النفسي والروحي أكثر قسوة من الدمار المادي؟ أي مستقبل ينتظرنا؟

هذا ما قلته لنفسي فيما نتمشى أنا وصديقي عادل على كورنيش قرب عين مريسة، فقد شاهدنا صياداً يعرض سمكاً كان ما يزال ينتفض حياً على الرصيف الاسمنتيّ الحار، وهو يرشّ عليها الماء بين حين وأخر ليبقيها على قيد الحياة. أفكّر ما أشد قسوة الانسان، وأصرّح بيني وبين نفسي بانني اراه أحياناً أكثر حيوانية من الحيوان، وأفرح ان صديقي لم يسمع ما قلت في داخلي. حقاً، أقول لنفسي، أنتَ تبالغ كثيراً يا نادر الكفروني. الانتقاد مفيد ولكن ليس بهذه الكثرة والإلحاح. لماذا لا تعوّد نفسك على تقبل المشاهد البشعة عندما تعرف جيداً أنه لا جدوى من الشكوى؟

بوصلاح؟ الهيدرا؟ التنين؟ الخضر؟

وأخرج من عالم الدمار كما خرج أبو العلاء من جحيمه ودانتي من مطهره، ثم اترك ذكريات فتوتي وشبابي تستيقظ من رماد بيروت

كما لو كانت طائر الفينيق أو سمكاً خارج الماء على رصيف حار.

الجزء الثاني: يقظة الذاكرة من رماد الفجيعة: زمن الفتوة في منتصف القرن العشرين

2 ـ جسر بين النهر والبحر

قرّرتْ مريم التي يناديها الناس بأم نادر أن ترحل بعائلتها إلى بيروت بتشجيع من بهية ومخائيل رفقه وغيرهما من أفراد قريتها المقيمين فيها من زمن وسبق أن حققّوا إنجازات يُحسدون عليها. لقد كافحت منذ توفي زوجها قبل ثلاث سنوات عام 1939 ولم يكن لديها مِنْ معيل بين أهله أو أهلها فوصلتْ إلى قناعة بعد تجارب مؤلمة أنها لن تتمكّن ان تؤمّن لاطفالها معيشتهم في القرية وترسلهم إلى المدرسة. أرادتْ لهم ما لم تحصل هي عليه في حياتها، وطالما إعتبرتْ نفسَها منحوسةً، وكان موت أمها أثناء ولادتها الإشارة الأولى والأهم لسوء حظها. وما لبث والدها أن تزوّج وأصبح لها خالة تحكّمت بها وارسلتها للعمل في معمل الحرير، وجاء موت زوجها فجأة وهو في أوج شبابه ليرسّخ في ذهنها صحة قناعتها هذه بمرور الوقت منذ طفولتها وتراكم التجارب القاسية طبقة فوق طبقة.

وقد سبق ان هاجر أخوها الأكبر، وهو الذي كان حصتها وسندها، وطال غيابه دون أن يسمعوا منه إلى أن إنتهى به المطاف في البرازيل حيث تحسّنت أحواله خلال وقت قصير. ولما كتب له والدها ليطلب منه أن يرسل وراء إخته أجابه أنه «هرب من سماء رب البنات ومسؤلياتهن». كانت تلك أيضاً خيبة أمل كبرى لديها ودليلاً آخر على سوء حظها.

تتالت الأحداث في طفولة مريم سنة بطيئة بعد سنة أبطأ إلى أن ماتت زوجة أبيها الثانية التي أنجبت له صبياً وثلاث بنات فتزوّج خلال وقت قصير للمرة الثالثة. وكان أن لجأت إلى خالها رشيد، ولكنها ما أن بلغت سن النضج حتى تمّ زواجها إلى شاب من الكفرون يعمل مكارياً ينقل البضائع بين قرى المنطقة. في الواقع أن مريم لم تفكّر كيف سيكون مصيرها وماذا تتوّقع حين قبل والدها أن يزوّجها إليه. رأته مراراً يزور بيتهم مع أبيه، وبعد أن تمّ عقد خطبتها إليه أصبح يتردّد إلى منزلهم يومياً فوجدته بمرور الوقت جميلاً مرحاً جريئاً محبوباً، وعلمتْ أنه يجيد الغناء ويحب السمر والسهر، وينعم باحترام الناس.

أنجبتْ خلال ما يزيد على عشر سنوات سبعة أطفال توفي أربعة منهم ولم يخفّف من أحزانها سوى قناعتها ان الله يأخذ كما أعطى. إلا أنها لم تكن تتوقّعّ ماحصل لها في نهاية المطاف حين توفي زوجها وكانت تلك هي الإشارة الأسوأ في حياتها الحافلة بالمصائب، ومرّ وقت قبل أن تستوعب هول هذه المصيبة الأخيرة التي حلّت بها فجأة.

عند الغروب في يوم من أيام مطلع صيف عام 1942، أعدّتْ نفسها للسفر إلى بيروت صباح شروق الشمس، وكانت قد فرشتْ جناحيها لتحتضن أفراخها الثلاث نادر وندى وكمال قبل أن تقصد قبرَ زوجها في رأس تلة مار الياس التي تظلّلها أشجار السنديان الضخمة والقديمة والمتشابكة الأغصان وتشرف من علو شاهق، كإله وثني قديم، على أودية الكفرون العميقة إلى الشمال والغرب والجنوب. لامستْ الحجرَ فوق القبر بكفيّها وجبهتها وشفتيها، أشعلتْ بخوراً وشمعةً، شرحتْ له بعد تردّد أنها جاءت تستأذنه قبل ان ترحل إلى بيروت لتجد عملاً شريفاً يؤمّن مستقبل الأولاد بعد ان انسدّت أبواب الرزق أمامها في القرية لأكثر من ثلاث سنوات. ثم طمأنته أنها ستترك نادر وندى وكمال في الضيعة برعاية أهله لأقصر فترة ممكنة على أن تستديعهم حالما تجد عملاً ومسكناً.

وسكتت لبرهة وجيزة ثم قالت: الأولاد فكّروا إنك تركتنا لتروح للجنه، بس أنا فهّمتهم الحقيقة وأنك رحت غصباً عنك. مشتاقين يشوفوا طلّتك يا أبو نادر يا حبيب القلب وضو العين. عم إعمل كل جهدي عوّض عليهم عن غيابك. لو تشوف كمال شو حلو. عم يكبر يا حبيبي. ونادر مسؤول وشاطر في المدرسة، وندى بتساعدني بكل شيء. وبهية ما في متلها بالعالم. أنا مطمئنه من جهتها وبتحّب الأولاد كتير كتير. لا ينشغل بالك. ما في شيء بيعوّض عنكّ يا حبيب قلبي وضو عيني.

وفي هذه المناسبة، عاهدته كعادتها خلال السنوات الثلاث الأخيرة التي عقبتْ موته المفاجيء أنها لن تتزوج بعده، وأنه سبق لها أن رفضت مَنْ طلبوا يدها. وحكت له خبرية جديدة قائلة: من كم يوم زارني الخوري والمختار بصحبة مهاجر غني عاد من أميركا ليستقرّ نهائياً في الوطن وعرض عليّ الزواج منه. دون لفّ ودوران، قلت له بالعربي الفصيح: لو أراد الله ان اتزوّج ما أخذ زوجي مني.

وشعرتْ كما لو ان زوجها تململ في مدفنه بإطمنان وارتياح، فقالت له: أريدك أن تعرف أن لي مهمة واحدة في حياتي والى ان يستدعيني الله لجانبك. سأنذر نفسي لنادر وندى وكمال وأدير بالي علهم وأسهر على تربيّتهم تربية حسنة وأرسلهم إلى المدارس فتفخر بانجازاتهم إن شاء الله. دائماً أحكي لهم قصة كفاحك وموتك المفاجيء في عز شبابك وأذكّرهم كم كنت تحبهم وكيف كنت تجاهد

من أجلهم. نجاحهم نجاحي وسعادتهم سعادتي وبمعونة الله وبركته سوف يكبرون وينجحون في الحياة كما لو كنتَ أنت ما تزال فوق رؤوسهم يا حبيب القلب ونور العين.

أحست مرة أخرى ان زوجها ورفيق عمرها يتحرك بارتياح في قبره، وأرادت ان تخفّف من قلق نفسه عليهم فقالت، «بنت عمك بهية مستعدة لمساعدتي بكل ما احتاج. انت بتعرف بهية أكثر من الجميع وتحترمها وتحبها. وفي بيروت جالية كبيرة من أهل الكفرون والمشتى. نتعاون معاً في السراء والضراء، والرحمة لن تزول من قلوب الناس، وقد يكون الغريب أكثر رحمة من القريب.

وصمتتْ لبرهة، حضنتْ الحجر فوق رأسه، مسحتْ الدمعة العالقة في جفونها، إنحنت لتهمس: سَبَقَتْني لبيروت أم منيف زوجة الياس الديوب مع أولادها، وماشي الحال معهم. وفضة، أم عطية، كمان راحت لبيروت مع أولادها. عبود بقي وحده في الضيعة وكبر في العمر. وأم يوسف وسّوف كمان تركت إلى بيروت لتكون مع أولادها يوسف والياس ووديع، الله يوفقهم. ومخايل رفقه كمان شجّعني روح لبيروت، ولو تشوف زوجته ماري نصر من المنصف شو بنت أوادم. عزمتني كون ضيفة عندهم حتى دبّر حالي. الدنيا قاسية، بس ما بتنقطع من الخير. الله ما بيتخلّى عن عبيده.

وتذكّرتْ أنها يجب ان تعود لتعدّ العشاء لأولادها، وكان ما زال عليها ان تنظّف البيت وتودّع الجيران والأقارب. أحنت رأسها فوق البخور المشتعل وعبأت صدرها برائحته الطيبة، تأملت لهب الشمعة يتأرجح متمايلاً مع هبوب الهواء الطري، لامست الحجر فوق رأس زوجها، وودّعتْه متردّدة وطلبتْ رضاه وترجّتْه مرة أخرى ألا يشغل باله أو يقلق عليهم، فقد شعرت أنها قد لا تتمكّن ان تزوره لزمن طويل.

اجتاحتني في نهاية القرن العشرين ذكريات الماضي. استيقظتْ عفوياً من رماد الفجيعة، وتصوّرتُ انني شاطىء رملي يستقبل أمواج البحر يوماً بعد يوم. أستغربتُ ان فترة غياب أمي في بيروت كانت غامضة في حياتنا حتى أنني لم أعد أذكر شيئاً من أحداثها بينما ما زلت أتذكّر الكثير مما حدث لنا قبل غيابها وبعده. كل ما أعرفه عن هذه الفترة، إن كان من خلال الذاكرة أو من أحاديث سمعتها فيما بعد، أنها تركتنا في الضيعة وذهبت إلى بيروت لتجد عملاً ومسكناً ثم تستدعينا للإلتحاق بها وتهيّء لنا مستقبلاً جديداً. وأظن أنها بذلت جهداً لتفهمنا هذه الأمور على حقيقتها كي لا نشعر أنها غادرتنا كما إختفى أبي فجأة من حياتنا قبل ثلاث سنوات من نزوحها القسري. ويجب أن تكون هذه الفكرة المزعجة قد رسختْ في ذهني على الأغلب عند بدايات النضج.

أذكر جيداً أن أمي أوصتني قبل رحيلها إلى بيروت بوصفي الولد الأكبر ان أدير بالي على اختي ندى وأخي كمال، كما أوصتهما ان يسمعا كلمتي وألا يعذّباني. ولكنني لا أذكر بتاتاً أي شيء آخر مما حدث لنا وكيف عشنا خلال ربما ما يزيد على شهرين دون أن نرى وجهها. ومهما كان، نسيتُ أحداث تلك الفترة ولا أدري كيف تلاشت من ذاكرتي كأنها لم تكن. إنما هناك شيء أذكره بوضوح كلي كأنه حدث لي في هذا اليوم. شيء مخيف لا أحبّ الكلام عنه. كنت وحيداً في البيت. تمددتُ على الفراش وتطلّعت إلى السقف فتفاجأت بما أرى. شاهدتُ حية بيضاء تلتفّ حول نفسها. لم أصدّق ما أرى. حدّقتُ بها، وأظن أنها حدّقتْ بي هي بدورها. خفتُ منها وبدا لي أنها خافتْ مني. أصابني رعبٌ فجمدت في مكاني لا أعرف ماذا أفعل. لم أتمكّن من التحرّك. وفجأة وجدتُ نفسي بعد برهة أنطلق إلى الخارج استنجد بالناس. إلتفّ حولي عدد من الصبية. دخلوا برفقتي البيت بعصيهم وحجارتهم. سألوني أين شاهدتها. بحثتُ عنها متسائلاً أين اختفت؟ حدقوا بوجهي. شعرتُ بالاحراج. ضحكوا مني. وحتى الآن لا اعرف اذا كان ذلك كابوساً ام حدثاً حقيقياً؟

أذكره بوضوح أنه كان مشهداً مرعباً. لا أشكّ ان ما رأيته كان حية حقاً، ولا بدّ أنها خافت مني كما خفتُ منها فهربتْ هي أيضاً.

وبين أكثر ما استغربُه أيضاً كيف كان من الممكن أن نتفهّم حقاً لماذا تركتنا أمي وكيف تقبّلنا شروحها دون بكاء واحتجاج؟ ربما بكينا. لا أذكر. ثم هل اتخذتُ أنا حقاً دور المسؤول عن أختي وأخي بوصفي الولد الأول كما أوصتني أمي؟ هل سمعا كلمتي، ولعبنا معاً وبقية الأولاد كما كانت العادة؟ ترى أعتدنا الخوف، كما ظننتُ، وأقمنا معه صداقة منسية حتى هذه الأيام؟ لا أدري، ولا أعرف إن كان أخي في تلك الفترة بالذات استيقظ مرعوباً في الليل ليكتشف أنه بال تحته في الفراش الذي كان عليّ أن أضعه في الشمس طيلة النهار دون أن يجفّ تماماً. وهذا بين أكثر ما يرفض أن يتذكّره ويتهمني أنني أخترع عنه حكايات ملفّقة حسداً منه بسبب شعبيته بين البنات. ولعله كان على حق، ولكنني أقنعتُ نفسي إنني أنا الذي فضّلتُ من باب الإحساس بالمسؤولية الإنشغال بالدراسة والقراءة والسباحة وتجنّب اللهو مهما بلغت إغراءاته. لقد ربّتني أمي منذ صغري أن أكون مسؤولاً فقمعتُ الكثير من تلك الرغبات التي تستهوي الصبية عادة وأخي كمال مثال حي على ذلك، وأحببتُ ألا أكون ولداً عادياً.

إمّحت أحداث فترة غياب أمي المؤلة في بيروت من ذهني كلياً كما لو دخلنا في ظلمة كثيفة وخرجنا منها فجأة إلى ضوء ساطع، أو

كأننا نمنا كأهل الكهف لزمن لا نعرف مدّته. ما أعرفه أن النوم كان عميقاً. ولم أتوصّل إلى جواب مقنع حتى بعدما بدأنا نعود إلى الكفرون في الصيف للمشاركة في إحتفالات عيد مار الياس أو عيد السيدة ولم تكن الأشياء قد تغيّرت كثيراً عما كانت عليه قبل رحيلنا عنها. ومما عمّق من إحساسي بالإستغراب تندّر الناس بذاكرتي الهائلة، فطالما ردّدتُ أمامهم في مثل هذه المناسبات أنني لا أفهم لماذا نسيتُ أحداث تلك الأيام بينما أذكر الكثير من تفاصيل الزمن السابق لتلك الفترة كموت أبي، وعرس جميل الفرح، وغناء نسيم النبع في مقهى المخاضة، ومواسم قطف الرمان والعنب والتين، وأمسيات تحضير الكشك والبرغل والنوم على السطوح تحت سماء أضاءت شموعَها وسهرت تعرض مفاتنها على الأرض التي تراقبها بشغف، ومراجيح الأعياد، ومشاهدة عملية ولادة إبن عمنا سعيد بتفاصيلها دون اعتراض من النساء المتجمعات حول الداية، ومشاوير نبع الشير ونبع الشيخ حسن وبيت خالتي لطيفه حيث كنت ألعب مع مطانيوس ورئيف وزكي وليلي وصبري، وتسلّق جبل السيدة عند الغروب لمراقبة الشمس تأخذ حماماً قبل النوم، والسباحة في غبّيط الدولاب والجعفورة، والتمشي إلى المشتى لزيارة أخوالي وخالة أمي كلثم التي كانت تطعمني هي وإبنتيها برباره أو خشفة لبناً وملبناً مع الجوز.

وبعد ان سمعتُ همساً أن هناك علاقة بين بهية ومروان الرشيد إبن خال أمي، أضفته إلى قائمة الزيارات الضرورية، خاصة عندما أهبط بعد ذلك إلى مشتى التحتاني لزيارة خالتي نظيرة حيث ألعب مع أولادها وديع ورفيق وجبرا وجرجس وابنتيها روجينه وعايده. ومما علق في ذاكرتي أنني مشيتُ يوماً برفقةإبن عمي فهيم من الكفرون إلى الجويخات لحضور عرس شاب قريب لنا إسمه يوسف. هناك تحرّشتُ بفتاة لم أعرف إسمها، وربما ظننتُ أنها هي التي تحرّشتْ بي فاستجبتُ لاغرائها.

إنما هناك ما هو أقرب للأحلام في حياتي، وبين أكثر ما يتداعى إلى ذهني بوضوح تولُّعي ببهية فأذكر خاصة وجهها الدائم الابتسام وعينيها الرحبتين الساحرتين وشعرها الناعم المتدلي فوق كتفيها مثل أغصان شجر الصفصاف. لا انسى حنوها عليّ واهتمامها بي وجرأتها وهي في مطلع صباها على مبارزة الصبيان في السباحة والغطس في غبيط الشلال بالقفز من علو صخرة شاهقة أو أغصان الدلبة الكبيرة.

لن يغيبَ عن بالي أنها كانت تحتضنني وتطعمني العنب والتين والرمان والجوز والملبن. ولكنها فجأة رحلت من حياتنا إلى بيروت لأسباب غامضة كثرت حولها الحكايات حتى أنني لم أعد أعرف الحقائق من الإشاعات. سمعتُ همساً أنها هربتْ من كثرة عشاقها بعد ان حولّوا حياتها إلى جحيم لم تعد تتحمّله، وتردّد أنها نزحت فجأة إلى لبنان لتعمل راهبة في دير من أديرة الجبل العديدة وتصبح خطيبة للمسيح الذي لم يتزوّج في حياته ولا أدري لماذا يريد بعد كل هذا العمر الطويل ان يخطب هذا العدد الهائل من الفتيات. كانت قد هاجرت قبل أمي وافتقدتها كثيراً. ومهما قيل عن تديُّنها، لم أكن أتصوّر ان بهية يمكن أن تصبح راهبة فهي في مخيلتي التي تعود إلى زمن الطفولة الباكرة فرسٌ برية جموحة لا يمكن ترويضها.

وعلى عكس غموض اختفاء بهية في مخيلتي، اعتبرتُ انني فهمتُ جيداً منذ الصغر لماذا نزحتْ أمي إلى بيروت. وسرّني كلام الناس عن اعجابهم بارادتها الصلبة وتصميمها وطموحها أبعد مما تسمح به ظروفها، وهذا ما قاله عرابي فائق نصار بحضوري لجبرا الحلو ولعبد اللطيف اليونس أثناء معركة انتخابية. وبقدر ما اعجبتُ بما يُقال عن أمي ٬ استاءتُ مما يقال عن بهية النقية في نظري نقاء السماء، وما ان كبرتُ في العمر وبدأت اهتم بشؤون الناس حتى أصبحتُ اتساءل وما أزال حتى الوقت الحاضر لماذا نزحتْ بهية حقاً، مدركاً أن هناك سراً مؤلماً سرتْ حوله بعض الإشاعات في الضيعة. وعبثاً حاولتُ فيما بعد باسلوب مباشر أو غير مباشر أن أفهم منها هي نفسها سرّ نزوحها في مطلع صباها فكانت تبتسم وتهزّ كتفيّها بأنها تفضّل أن تفكّر بالحاضر والمستقبل لا بالماضي. وإكتفتْ مرة أن وصفتْ لي هذا الماضي بالتعاسة دون إشارة إلى ما قصدتْ، وكادت الدموع أن تنفر من عينيها.

وضعتُ يدي على كتفها وقلت: آسف.

ـ لا يهمّك. أنتَ تغار عليّ كما أغار عليك.الناس يحبون الكلام عرفوا أو لم يعرفوا ما حدث، ودائماً يظنون أنهم على حق وأن غيرهم على خطأ. المهم الا يعكّروا صفاء حياتنا. وننهزم أمامهم حين نسمح لهم أن يزعجوا حياتنا.

إبتسمتْ وإبتسمتُ، وغيّرنا الموضوع على أمل أن أعود إليه في وقت أنسب. وكان من أسباب إلحاحي ليس أنها كانت مضطرة للنزوح لسبب جوهري بل أنها، كأمي تماماً، لا تحنّ للعودة إلى الضيعة ولا تشعر بأية رغبة لزيارتها ولم تعد إليها إلا نادراً وعند الضرورات القصوى. وفي ما يتعلّق بتجربة بهية الشخصية، أدرك ان ما اتمنّى معرفته عن ماضيها تريد هي ان تنساه كلياً وإلى الأبد. هذا بحدّ

ذاته تماماً ما شكّل تحدياً في تفكيري ودفعني للبحث في أسباب نزوحها عن الضيعة وعدم رغبتها حتى بزيارتها.

ومهما حاولتُ عدم إثارة الموضوع معها، لم أفقد رغبتي بالتعرف إلى أسرارها القديمة. وهنا لا بدّ أن أعترف أنني حتى الآن لم أجد الإسلوب اللائق لجعلها تصارحني ببعض خفايا حياتها مهما بلغتْ ثقتها بي. قلت لها أكثر من مرة: أريد أن أكتب رواية أصوّر فيها كفاح المرأة في مواجهة التحديات الكبرى، وانتِ مثال رائع لها.

هنا اكتفت بهية بالابتسام وانسحبتْ إلى عالمها الداخلي. وما إعتبرته أنا حافزاً للكلام، رأته هي تهديداً من نوع ما لم أستوعبه. لجأتْ مرة أخرى للصمت مما زاد بدوره من رغبتي بمعرفة جوانب غامضة من حياتها. قلتُ أريد ان أعرف منك شخصياً ظروف نزوحك من الضيعة، ولماذا تخلّيتِ عن الرهبنة وهجرتِ الدير، وما حكايتك مع مروان الرشيد، وكيف واصلتِ الكفاح المرير حتى هذه السنوات المتأخرة من عمرك الحافل بالاحداث؟»

ضحكتْ من أعماق قلبها لبراءتي كما ظننتُ، هدأتْ فجأة، حبكتْ أصابعها ببعضها البعض، عادت للضحك، اقتربتْ منى، حدّقتْ في وجهي، سألتْ، «من كل عقلك؟»، فضحكتُ أنا أيضاً من أعماق قلبي لغبائي، ولكنني تابعتُ مصرّاً: طبعاً من كل عقلي. أنتِ تستخفين بأحداث حياتك وكفاحك كل هذه السنوات الطويلة، وكيف حافظتِ على صفاء روحك، وهدوء وجهك، وسعادتك الداخلية، ومحبتك للناس، كل الناس مهما كانت إنتماءاتهم وتوجهّاتهم.

وكما لو لمستُ وتراً حساساً، سمعتُها تقول: الكثير من الناس أحبوني وقدّروا أتعابي وأنا مديونة لهم طيلة عمري.

ـ هم أيضاً مديونون لكِ. وإيمانك العميق، كيف حافظتِ عليه رغم ما خبرته في علاقتك مع مؤسسات الدين والمشرفين على إدارتها؟

ـ منذ البدء أقمتُ إيماني على محبة المسيح ومريم العذراء.

ـ أعرف أن لحياتك أسس متينة.

ـ أسس متينة لا تتزعزع

ـ والمعجبون كيف إندثروا من حياتك كأن لم يكونوا؟

ـ تساقطوا كاوراق الخريف.

تضحك، تصمت، تعود إلى الضحك، تسألني إن كنت أريد فنجاناً من القهوة وقطعة من الحلوى عملتها بيدها المباركة.

أصمتُ أنا أيضاً، أضحك، أفهم أنها تريدني أن أنسى الموضوع من ألفه إلى يائه فأقول لها متفهماً خصوصية الموضوع: أنا مسرور جداً أنكِ تركتِ الدير وتخلّيتِ عن فكرة الرهبنة. أعرف أنك شديدة الإيمان وأنا متيقّن أن إيمانك ساعدك كثيراً في مواجهة النكبات، وأنتِ تعرفين أنني بعيد عن أمور الدين وأنفر من مؤسساته والمقيمين عليها وأعتصم بالعقل والعلم. وأهم من كل ذلك، كنت أعتقد دائماً أن الدير ليس لك أنتِ المليئة بالحياة والعنفوان. أعرف جيداً أن الدير ما كان بمقدوره ان يسلبك حيويتك وجمال وجهك وابتساماتك العفوية، ولكنه كان من الممكن أن يدجّنك ويفرض عليكِ التنكر لعواطفك.

أنا مسرور جداً،

أبعد من حدود السرور المألوفة،

ان وجهك ما زال متموجاً كالبحر في زمن العواصف

ومتدفقاً كالنهر في زمن المطر.

هذا هو سّرك العظيم في نظري.

صمتتْ لبرهة. ولمحتُ دموعاً تتكوّن في عينيها. قالت فرحة: لم يقل لي أحد مثل هذا الكلام الشعري الجميل من قبل. أنتَ تخاف عليّ رغم ثقتك بقدراتي. أريدكَ أن تعرف أنني سعيدة. لا تقلق عليّ. بنياني الداخلي متماسك لا تُؤثّر به العواصف مهما كانت قوتها. لي جذور عميقة بالإرض كسنديانات مار الياس في الكفرون. أنت تحب هذا الكلام. صحيح؟

ـ طبعاً أحبه.إنه غذاء لروحي.

أبتسم، ثم يكفهرّ وجهي فقد تساءلتُ لماذا أُعذّب نفسي بالتنقيب في حياتها بحثاً عن أسرارها. وعبثاً ألحّ عليها بتسجيل ذكرياتها، وربما تعتبر انني ابالغ بأهمية ما فعلتْ في حياتها تعبيراً عن محبتي لها فقط لا غير، وما أراه تموجاً وتدفقاً في كرمها ربما هو إضطراب وقلق في نفسها تعلّمتْ أن تخفيه عن الناس وحتى عن نفسها هي أيضاً. إنما من حقها أن تحتفظ باسرارها لنفسها،

ومحبتي لها لا تجرّدها من هذا الحق.

تصمتْ عند هذا الحدّ لا تريد أن نتابع هذا الحديث، تتناول محرمة وتمسح دموعاً أخذت تستيقظ في عينيها فيما تقول: تريد الحقيقة يا نادر؟ على عكس ما تقول، أنا فشلت في تحقيق ما أردت، وسأمضي من هذه الحياة حاملة خيبات أملي معي إلى النهاية. لم أكن انتظر كل هذه الآلام. أنا لن اتخلّى عن حبي لله، حتى لو تخلّى عني. أطلب غفرانه دائماً. الله لا يمكن إلا أن يكون عادلاً. هذا هو عزائي الأكبر.

تفاجأت بهذا التصريح الذي ذهبتْ فيه أبعد من أي وقت مضى. لم أجد ما أقول. كدتُ أنهار على نفسي. ودون أن اتمكّن من الكلام، وضعتُ ذراعي حول كتفها بحنو كما كانت تحتضنني في صغري. هي الآن تبكي بينما كنتُ أنا أبتسم وأمتلىء بالثقة بنفسي وبها وبالعالم. ومهما كان لا استطيع أن اتخلّى عن تصميمي. كل ما في الأمر أنني فشلتُ حتى الآن في مهمتي أنا الذي لا أقبل الفشل. وعَرِفتْ كما عرفتُ انني لن استسلم لليأس، بل سأتابع البحث بوسائل مختلفة لشدة إيماني بها.

وخطر لي في الأيام التالية أن ألجأ إلى أعز صديقاتها هدى وسعاد وجميلة استفسرهنّ عما تعرفن عن أسرار حياتها، وخاصة ما يتعلّق بنزوحها إلى بيروت. في الواقع سبق أن حاولتُ، ولمستُ بعض التجاوب مع أنهن بدأن بشيء من التمنّع بحجة إن هذه أسرارها الخاصة ولا بدّ من إحترام حقها بالحرص على الاحتفاظ بها لنفسها إلى الأبد.

إنما لمستُ، من ناحية أخرى، إهتماماً من قبلهنّ بجدوى مشروعي الطموح مما شجّعني على المتابعة خاصة أنني أحسستُ بان سعاد على الأقل قد تتكلم إذا ما توفّرت الاجواء الصحيحة علّها تتخلّى عن تحفظها فتنطلق على سجيتها وتفتح لي قلبها، مستودع الأسرار المثيرة.

***

أثارني تعدّد، وبل تضارب، حكايات أسباب مغادرتها الكفرون في مطلع فتوتها إلى بيروت، وإن بدا كل شيء طبيعياً بالنسبة لها. واستغربتُ في تلك الحالة انني لم أطرق باب إبن عمتي وصديقي رفول الذي هو إبن عمة بهية أيضاً، وكانت تثق به كثيراً ولم يكن في العائلة مَنْ تحبه أكثر منا نحن الإثنين وإن كان هو أكثر اتصالاً بها منذ الصغر بفعل الجوار. لجأتُ إليه وصارحته أنني أريد أن أكتب قصة كفاحها، وتكرّرتْ جلساتنا، فسألته بعد أن استقرّ بنا الحال عن سرّ مغادرة بهية الضيعة ورغبتها أن تصبح راهبة. أجابني بانه لم يفكّر جدياً بالأمر واعتبر ان ما أقدمتْ عليه يجب أن يكون قد تمّ بارادة إلهية مدبّرة. ولكنه أدرك تواً أنه لم يقنعني فأخذ يلوّح برأسه شمالاً ويميناً كانما يحاول ان يكون أكثر جدية. عاد إلى البداية معبّراً عن استغرابه سرّ اهتمامي بهذه المسألة وأخذ يتحدّث باستخفاف عن ظروفها الخاصة مكرّراً أمامي ما هو معروف لديّ ولجميع مَنْ عرفوها عن قريب أو بعيد. وكرّر أنها نشأت في مدرسة الراهبات وتعلّقت بالدين منذ بدايات علاقتها براهبة اتخذتها مثالاً أعلى تقتدي به، وصدف أن هذه الراهبة كان يهمّها ان توجّه بهية بهذا الاتجاه.

سكت رفول لبرهة وقد تغيّرت فجأة ملامح وجهه مما أوحى لي أن لديه سراً يريد ان يحتفظ به لنفسه. قال بتردّد: بهية جذابة، وكانت ككل الفتيات الجميلات موضع يإعجاب الشباب وتنافسهم. وإنما يا إبن خالي كان هناك حقاً ما يخيفها ويقلقها. لا أدري ما هو. أظن أنها كانت تخاف ان تكون ضحية، وهي على حق في تخوّفاتها. عرفتْ جيداً ان الشباب الذين كانت تبادلهم الإعجاب، وأصرّت ان يكونوا متعلمين وذات مكانة اجتماعية، يرغبون في الواقع باصطيادها أكثر مما يرغبون بالزواج منها. لا أريدك ان تسيء فهمي هنا. لا أضع اللوم على عشاقها، ومنهم إبن خال أمك مروان الرشيد. هي لا تتكبّر على أحد، ولكنها لم تكن تريد الزواج لمجرد الزواج وانجاب الأطفال والاعتماد على رجل يؤمّن لها الرزق.

سكتَ رفول ليستعيد أنفاسه، ثم تابع كلامه: على خلاف أفراد عائلتها، كما لو جُبلتْ من طينة أخرى، كانت دائماً طموحة منذ صغرها. مَنْ أرادتهم أرادوها ولكن عائلاتهم لم توافق على طلب يدها لأسباب تتعلّق بأوضاع عائلتها. هذا ما سبّب جرحاً عميقاً في نفسها لم يندمل مهما حاولتْ تجاهله. من ناحية أخرى، هناك مَنْ أحبوها حتى العبادة وألّح أهلهم بطلب يدها وقَبِلَ أهلها بترحاب في بعض الحالات إلا إنها هي أصرّت على الرفض فقد صدف أن كان هؤلاء دون مستوى طموحها. تلك هي مأساتها.

وأعترض على كلامه: لماذا يكون من الضروري أن تتزوّج؟

ـ ما هذا الكلام يا عزيزي؟ هذه سِنّة الطبيعة. حرمت نفسها من الأولاد.

ـ إنها أكثر سعادة من كثير من النساء المتزوجات. المهم السعادة. أليس كذلك؟

ـ هذا شيء لا أتفق معك فيه. لقد خلق الله المرأة لكي تنجب.

ـ تقصد خلقها ليس من أجل نفسها؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنك تراها مجرد وسيلة، لا غاية بحد ذاتها.

ـ أنت وأنا نعرف ما هي مصادر المشكلة. لنعترف بالحقيقية.

ـ ما الحقيقة؟

ـ ولو يا إستاذ. عائلتها هي المشكلة.

ـ كيف؟

ـ تخلُّف أخوتها يا رجل. انت تعرف ما أقصد ولا حاجة للكلام. هذا موضوع حسّاس. مشكلة أهلها ليست مسألة فقر فحسب. المصيبة هي جهل أخوتها. هذا هو السبب الأهم. كانوا دائماً على خلاف فيما بينهم ومع بعضهم البعض لأتفه الأسباب. خلص، يكفي ما قلت، وأنتَ سيّد العارفين.

صبّ قليلاً من القهوة في فنجانه وفنجاني وتابعنا الحديث إلى أن اتفقنا في الرأي ان بهية متدينة حقاً وتُصلّي من عمق أعماق نفسها. ولكنها كانت من ناحية أخرى شديدة الحيوية والجاذبية والرغبة بالتمتع بالحياة وبانها موضع اعجاب الشبيبة بها. رغم كل تمنّعها، كانت تأسرها ابتسامة عذبة فتذوب رقة وتحلّق كفراشة ملونة في حديقة من الزهور النادرة، تغنّي، ترقص، وتحلم بحبيب حقيقي على مستوى طموحاتها. هذا، للأسف الشديد، ما لم يتمّ في حياتها.

بدلاً من ذلك، غادرتْ الضيعة وخرجتْ إلى العالم لتجاهد. وفعلاً، حقّقتْ انجازات باهرة بمقياس أوضاعها. وبمرور الوقت، بدأت تشعر أنها تجني عسلاً إنما ليس لنفسها فحسب، وتعطي دون حساب، وترفض ان تقيم حدوداً تمنعها من إقامة علاقات ودية مع الناس. تلك كانت قناعتي، وكنتُ ارى أنها أوسع أفقاً من ان تضع نفسها في خانة مهما كان نوعها. رأيتها رحبة الأفق، متسامحة، محبة للناس بصرف النظر عن انتماءاتهم. تفترض ان كل انسان طيب وموضع ثقة إلى أن يثبت العكس. وإذا كان هناك ما تنفر منه حقاً فهو ما يحدّ من طموحاتها ويقرّر مصيرها. بهذا المعنى قبلتُ ما قاله رفول من أنها كانت ترغب بالخروج من محيط أهلها. ولكنها عرفتْ حدودها وأدركتْ أنه ليس بامكانها ان تكمل دراستها وتحقّق أحلامها. كان عليها بعد أن تخلّت عن فكرة الرهبنة ان تجد عملاً جيداً تسمح به مؤهلاتها، ووجدت ذلك في مهنة التمريض فأخلصتْ لعملها وللذين تعمل معهم إلى أبعد حدود الإخلاص والإحساس بالمسؤولية. وأهم من كل ذلك، كانت سعيدة في علاقتها بنفسها والكثير من الناس. إحترمتهم وبادلوها الإحترام.

وكان أن مرّ وقتٌ قبل أن فتحتْ لي سعاد قلبها مرة على شاطىء البحر ونحن نشرب القهوة المرة، فانا أعرفها أيضاً منذ طفولتي وكانت تربطها بأمي قرابة وكادت ان تتزوّج أحد أخوالي لو لم تفضّل هي أيضاً أن تأتي إلى بيروت على أن تظلّ في الضيعة. بعد حديث طويل، إعترفتْ بما تعاني منه هي إيضاً، وكان هذا سرّ من أسرار صداقتهما المتينة، من ان زوجها الذي تعرّفتْ إليه في بيروت وتم النصيب بينهما كان يسيء عاملتها، ولكنها تحمّلتْ معاملته لها من أجل الأولاد وحفاظاً على الحياة العائلية.

صمتتْ لبرهة تسترجع الماضي البعيد أو كما لو أنها تتساءل أين تبدأ وأية أحداث تقف عندها وماذا يجوز أو لا يجوز ان تخبرني أياه وأنا المعروف بسرد أقاصيص من حياتي وحياة معارفي بصراحة وأسمّي الأشياء بأسمائها تاركاً الرموز تفيض بمضامينها كمياه ينابيع الجبال. وأدركتْ انني أتطلع إليها متشوقاً أن أسمع ما لديها من أخبار ومتخوفاً في الوقت ذاته من أنها قد تحجب عني أسرارها. وكان أن تغلّبتْ سعاد أخيراً على تردّدها فحدّثتني قائلة:

لنعد إلى البداية. على عكسك أنتَ الذي تحبّ أحياناً أن تبدأ من النهاية وتنتهي بالبداية التي لا نهاية لها. في ساعة من ساعات المصارحة الكلية بيني وبين بهية أخبرتني بنفسها أنها لم تترك الضيعة وهي في الخامسة عشر من عمرها لأن اباها توفي كما يُقال، وارادتْ أمها ان تزوّجها إلى رجل متقدم في السن لا تعرفه من قرية الحويش التي لم تكن تعرف أين موقعها من العالم. هذا أمر وقع حقاً، ولكنها تمكّنت بسهولة ان تقنع والدتها أنها لن تتزوّجه مهما صار وانها تفضّل الموت على الزواج منه. هذا ما حصل، وأنا واثقة مما

أقول. ولكن هناك سبب أهم لماذا تركت الضيعة. السبب الحقيقي الذي تفضّل بهية أن تحتفظ به سراً هو أن إستاذاً متزوجاً في المدرسة أخذ يُسمعها كلاماً لم تحبّه، وكان من عائلة بارزة إعتادت دائماً أن تحصل على ما تريد.

تلك كانت بداية النهاية، أو نهاية البداية فرحلت بهية إلى لبنان بحثاً عن دير تلجأ إليه مزوّدة بتوصية من راهبة تهتم بها. وسكتتْ سعاد ربما لشعورها أنها أفشت سراً إئتمنتها عليه بهية. وكان أن شعرتُ أنا بحزن وغضب شديدين لدى سماع تلك الحكاية لأول مرة ولم يكن بمقدوري ان أسمع مزيداً مما تعرّضتْ له دون ان أفقد تماسكي مهما اقتنعتُ ان بهية ليستْ من النوع الذي يخضع للأمر الواقع، ولا استغرب قصة هربها في أواسط فتوتها مهما كانت الأسباب لتعيش حياة طويلة مليئة بالكفاح المرير.

وقلتُ لسعاد، «صحيح أن بهية كثيراً ما تنطوي على نفسها عند الفشل بالحصول على ما تريد، ولكن حياتها كانت ترتكز إلى دعائم صلبة. بهية متينة داخل نفسها. صامدة مثل شجرة السنديان. لديها مركز ثقل في عالمها الداخلي. ربما هو الإيمان العميق. هذا هو سر الاشراق الدائم في وجهها. ليس هناك ما هو أثمن من أن يرضى الانسان عن نفسه ويثق بقدراته وأخلاقه مهما حدث. أحبت الناس وأخلصت في عملها فتجاوبوا معها وبادلوها المحبة والإخلاص».

وتوقّفتْ سعاد عن الكلام عندما قرأتْ في وجهي وعينيّ إشارات إستفهام، ثم عدّلتْ من لهجتها: حياتها لا تخلو من خيبات الأمل. ما أن أتذكّر ذلك حتى أشعر بالغضب. هي لم تغضبْ. إنطوتْ على جرحها ولم تقل كلمة واحدة. أحبّتْ الناس من كل قلبها، وأحبوها. معظم من عاشرتْهم وتعاملتْ معهم أحبوها وظلوا يحبّونها ويفتدونها بأعز ما عندهم. ماذا يريد الانسان أكثر من هذا؟ لماذا نريد أكثر من ذلك؟ ربما أبالغ، ولكنك تفهم ما أقصد وأعرف انك تشاركني هذا الرأي. بهية بخير، ونحن الذين نحتاج إلى مساعدة.

هنا أكدّتُ على قناعتي بصحة إستنتاجاتها التي ولدّتْ مزيجاً من الحزن والغضب في نفسي. إنما كان عليّ أن أتمالك فشكرتهاُ لثقتها ومشاركتي ملاحظاتها وأحاسيسها. وافترقنا على أن نتابع الحديث، وأكدّ كلّ منا للآخر تقديرنا ومحبتنا لبهية، وأنها تستحق أفضل ما يمكننا ان نقول عنها. أما فيما يتعلّق بي شخصياً فانني أنعم بالإرتياح وقلتُ لنفسي ها هي الصورة بدأت تكتمل في ذهني وإن كانت تفتح في الوقت ذاته نوافذ على أمور جديدة قد لا أعرف كيف التعامل معها. ومما تداعى إلى ذهني أن سعاد ربما تتمنّى لو أنه كان لها مثل إرادة بهية لكانت رفضت الزواج الذي ما أن دخلته حتى إنغلقتّ أبوابه ونوافذه على حياتها وما تزال مغلقة.

***

حضر مروان الرشيد إلى بيروت للبحث مع بهية في مصير علاقتهما، وعرض عليها منذ وصوله القيام بجولات في سيارة أخته إلى مختلف مناطق لبنان فقبلتُ الدعوة دون تردّد. ومما إقترحه أولاً القيام بزيارات لبعلبك وبيت الدين وعدد من الأديرة علّه يتعرّف إلى عالم كادتْ بهية أن تصبح جزئاً منه، ويطلع إلى مزيد من جوانب حياتها الغامضة بما فيها معرفة سرّ تخليها عن الرهبنة.

وما سمعه من بهية في بداية الزيارة لم يكن أكثر من تلميحات زادت من غموض المسألة وإن أشارت في أجواء من الثقة المتبادلة إلى بعض المعلومات المكبوتة التي كانت تفضّل الإحتفاظ بها لنفسها. تحدّثتْ بخشوع عن علاقتها بمريم العذراء ورتّلتْ من أعلى علو سيدة حريصا أنشودة «أم الله» بصوتها الجميل الرقيق، الأمر الذي زاد من حيرته حين اعترفت له إنها إكتشفت وراء مظاهر التقوى والتعبد في الأديرة نظاماً هرمياً تسوده علاقات الغيرة والحسد والقسوة. حكت له أن أول ما فعلته «الريسة» في الدير الأول الذي لجأت إليه ان أصرّتْ على ضرورة تغيير إسمها قائلة لها بحزم: البهاء هو لله والمسيح والروح القدس وحدهم لا شريك لهم به.

اقتنعتْ من ناحية ولم تقتنع سراً من ناحية أخرى. صحيح، في اعتقادها، ان البهاء هو لله غير أن بهاءه يتجلّى في كل مخلوقاته من القمر إلى الشجر ومن البحر إلى البر ومن السماء إلى الأرض ومن الجبال إلى الأودية، وأدركت منذ الوهلة الأولى ان «الريسة» ليستْ من النوع الذي يتقبّل النقاش فصمتتْ. ومنذ تلك المواجهة الأولى، أدركت أنه من المتوقّع منها أن تتعلّم كيف تجيد فنون الصمت والطاعة.

لقد سبق لمروان أن قصد بهية يوماً إلى الدير في محاولة لإقناعها بالإقلاع عن الفكرة. وفي الواقع أنها تركّت الدير بعد أسابيع من زيارته لها ورجائه أن تصبح رفيقة عمره. هذا ما إقتنع به مروان ورسخ في ذهنه على أنه السبب الحقيقي وراء التحوّل في حياة بهية. ولكنها، في واقع الأمر، بدأت تنفر من فكرة الرهبنة بعد ان أصّرت «الريسة» ان تقصّ شَعرها كي لا تبدو جميلة، وان تخفّف من الابتسام والاهتمام بمظهرها، وأن تنظّف عدداً من غرف الدير يومياً سجوداً على ركبتيها.

رفضت بهية أن تصرّح له بهذه الحقائق المذلّة وبما حدث حقاً. قالتْ أن ما همّها بالدرجة الأولى أنها استعادت حريتها، ولم ترد أن

تقول أكثر من ذلك. وأثناء زيارتهما لسيدة حريصا، إستغنمتْ الفرصة للتأكيد على بعض قناعاتها الدينية كقولها أن العذراء «ملكة جميع القديسين والقديسات» وأن «مجد لبنان قد أعطي لها»، ولكنها ظلت ضمنياً تتذكّر قسوة الراهبات وتنافسهن وحسدهن لبعضهن البعض. ولم تذكر شيئاً عن أنها تخلّتْ عن الرهبنة بعد ان رفضتْ رفضاً باتاً محاولات متكررة لاجبارها على القيام باعمال لا تحبها.

تجنّبتْ التطلع إليه، وتجنّبْ التطلع إليها. ولم يمنع ذلك متابعة التجوّل لتفقّد مزارات العذراء. وقصدا في الأيام التالية مزار سيدة المنطرة التي يرتفع تمثالها فوق تلة تشرف على درب السين وقرية مغدوشة وسهول صيدا والبحر. هنا سردتْ لهما راهبة متقدِّمة في العمر حكاية قديمة تقول ان الشيخ حسين الشيعيّ المذهب أحرق في تلك الأيام الغابرة مزاراً للسيدة العذراء من الخشب في قرية درب السين فمرض ابنه الأول ومات، وفي اليوم التالي مرض ابنه الثاني ومات، وعندما مرض ابنه الثالث والأخير، اسرع إلى درب السين وأعاد بناء المزار بالحجر، فشفي ابنه حالاً.

وتخوّفت بهية ان يسخر مروان مما سمع، فاستغربت أنه طلب القيام بزيارة مزيد من الأديرة في الأيام التالية. وكان أن زارا سيدة التلة في دير القمر حيث طرب مروان لسماع مزيد من المرويات التي أصبحتْ موضع تندُّر بالنسبة له حال الابتعاد عن المكان. وبين أطرف ما قيل لهما في الحديث عن سيّدة التلة أن أحداً لا يستطيع ان يكذب في حضور العذراء، وانه لكثرة ما يزورها الدروز، أصبحت تُعرف بين أهل المنطقة بـ«عذراء الدروز». ومما سمعا من روايات ان احد شيوخ آل نكد لم يكن يذهب إلى المعركة دون ان يصلّي لها ويطلب بركتها.

وكان من الغريب ان سمعا حكاية مشابهة لدى زيارة مزار سيدة النجاة في بكفيا حيث، فقد روتْ لهما راهبة متقدمة في العمر ان جماعة من الدروز هاجمت بكفيا عام 1860 واحرقتْ عدداً من قرى المتن حتى حجب الدخانُ السماء عن الأرض. وتمكّن الدروز في تلك المعارك أن ينتصروا في كل مكان ولم يواجهوا أية مقاومة فعلية. ولكن السيدة العذراء كانت هناك لتقف لهم بالمرصاد وتظهر عجائبها وقوتها إلى أن إعترف الدروز انفسهم، حسب ما أكّدت الراهبة، بانهم عندما وصلوا إلى المكان رأوا بضوء القمر على جانب الجبل جمهرةً من المحاربين وسمعوا اطلاق الرصاص من مختلف الاتجاهات، ولكن في واقع الأمر لم يحصل اي شيء من ذلك. كانت سيدة النجاة هي التي ملأت قلوبهم بالخوف، فتوهّموا فيما رأوا وما سمعوا، وبهذا عاد أهل بكفيا إلى مواقعهم. ثم جاء، حسب تلك الحكاية، يوسف بك كرم من الشمال مع جنوده ليتأكد أن كل شيء على ما يرام.

ثم قاما في نهاية المطاف بزيارة خاطفة لمزار سيدة اللويزة الذي شُيّد من قبل رهبان حلب الذين كان من علمائهم جرمانوس فرحات. ولدى تجوّلهما في أرجائه، دقّق مروان بصورة سيدة اللويزة ليكتشف أنها تطأ رأس ابليس تحت قدميها مما يوحي للمؤمنات

والمؤمنين أنه ليس لابليس امام العذراء اية قوة. هنا أيضاً حُكي ان خلافاً حاداً نشأ بين الحلبيين الذين قطنوا في دير سيدة اللويزة والبلديين الذين سكنوا مار قزحيا ربما بسبب أنه كان في هذا الدير صورة للويس الخامس عشر لاهتمامه بحماية الأديرة من الاتراك، ولكن بمرور الوقت وكثرة إحراق الشموع والبخور اشتعلت النار بهذه الصورة وليس من المعروف كيف ومَنْ أحرقها.

لم تمّر برهة، منذ وصلت أم نادر إلى بيروت قبل حوالي شهرين، دون أن تفكّر بأطفالها في الضيعة. تابعت أخبارهم وتلّقت تطمينات أن كل شيء على ما يرام وقد يصلون في أي وقت، ولكن من أين لقلب الأم أن يرتاح. وزاد من قلقها أنها لم تجد بيروت بالسهولة التي توقّعتها وصوّروها لها. وكثيراً ما أحستْ بشبه ضياع لا تعرف إلى أين تقودها خطواتها، وماذا كانت ستفعل لولا وجود بهية وأهل الضيعة المنتشرين في رأس بيروت، ولن تنسى جميل الكثير منهم فقد بذلوا كل ما في وسعهم للتخفيف من الصدمات التي تلقّتها.

صحيح أن بهية كانت سنداً لها في كل ما إحتاجتْ إليه، ولكنها كانت مشغولة نهاراً وليلاً تعمل ممرضة في مستشفى الدكتور عطية، ولم تكن أم نادر تريد أن ترخي عليها كل أثقالها. وهذا ما حدث، فما أن تذهب بهية إلى المستشفى عند الصباح، حتى كانت أم نادر تخرج لتتجوّل في شوارع رأس بيروت بحثاً عن عمل وإن لم تكن تعرف تماماً ما العمل الذي تبحث عنه. وصدف أن كانت يوماً تسير في شارع جان دارك الذي لم تتمكّن من حفظ إسمه عندما لحق بها ولد من عمر إبنها نادر ليقول لها متلعثماً أن أمه تريد أن تتكلّم معها، وأشار إليها حيث تقف أمام مدخل بيتهم في الطابق الثاني. ويبدو ان تلك السيدة راقبتها أكثر من مرة تسير ذهاباً إياباً فصدق حدسها أنها تبحث عن عمل. وما أن تسلّقت أم نادر الدرج نحوها ووقفت أمامها متهيبة حتى سألتها اذا كان لديها الوقت لمساعدتها في تنظيف بيتها، فقبلت دون شروط، وكانت تلك بداية علاقة جيدة.

بواسطة تلك السيدة تعرّفتْ أم نادر إلى عدد من العائلات حتى أنه لم يعد لها الوقت أن تحكّ رأسها لكثرة الشغل من تنظيف وغسيل

وجلي وطبخ وعجن. ويتراكم الطلبات عليها أصبحتْ تترك غرفة بهية صباحاً قبل طلوع الشمس ولا تعود إليها قبل غيابها. ولاحظتْ مرة محلّ خياطة للسيدات فدخلت لتسأل صاحبته اذا كانت بحاجة إلى ها فهي تجيد الخياطة منذ طفولتها وكانت في الضيعة تملك مكنة سنجر اشتراها لها زوجها قبل وفاته من طرابلس، وشرحت كذلك أنها تجيد الشغل بالسنارة وحياكة أزهار لمناديل النساء. وتفاجأت ان السيدة المشرفة على المحل جرّبتها ورحبّتْ بها على أن تبدأ العمل معها لساعات عند الحاجة.

وثبت لها أن الله يرعى خطواتها بحسنة أطفالها ففكّرتْ ان تتابع بحثها عن غرفة تأويها على الأقل موقتاً مع أولادها الذين طال غيابهم. وكادت أن تيأس بسبب غلاء الغرف المعروضة للإجار، غير أن سيدة من معارفها أنقذتها مرة أخرى عندما دلّتها إلى غرفة يملكها الحاج عثمان العيتاني في زقاق يتفرع عن شارع جان دارك على مقربة من تقاطعه مع شارع المقدسي.

قصدت المكان فاستقبلتها أم سعد الدين، زوجة الحاج عثمان، التي صدف أن كانت تجلس على مصطبة امام بيتها. سألتها بحياء إذا كان عندهم غرفة للإيجار وشرحت أنها أرملة فقدت زوجها منذ ثلاث سنوات وجاءت من قرية في سوريا لتعتاش في بيروت ولها ثلاث أطفال، صبيّان احدهما دون العاشرة والأخر دون السادسة تتوسطهما بنت في الثامنة من عمرها. وتفاجأت ان أم سعد الدين حضنتها بعطف نسويّ وقالت لها بصوتها الرفيع، «شوفي يا إختي أنا من بيت الطقوش وزوجي من بيت العيتاني ونحن وأهل المنطقة عائلة واحدة. عندي غرفة صغيرة تحت الأرض إن شاء الله تناسبك. للأسف ما عندي غيرها. خلّيني فرجيك إياها، وعلى كل الإيجار لا نختلف عليه حسب قدرتك على الدفع».

سرّها ترحيب المرأة بها فمشت معها باتجاه الغرفة التي أشارت إليها لتكتشف أنها في الواقع مستودع للحطب تحت الأرض وأقرب ما يكون إلى الملجأ منه إلى غرفة تسكنها هي وأطفالها الثلاث. وصدمهتا عتمة المكان ورائحة العطن وتخوّفت كيف سيكون وقعه في نفوس أولادها الذين اعتادوا المجالات الواسعة في القرية ولم تكن الحقول الفسيحة تسعهم. ولكنه لم يكن لها من خيار بعد أن تبيّن لها ان الغرف المعروضة للإيجار في تلك المنطقة فوق ما تستطيع ان تدفع، ولا بدّ أن تتحسّن أحوالها في المستقبل القريب فتبحث عن مكان أفضل.

وكما لو أدركت أم سعد الدين ما يجول في فكر المرأة، عرّفتها إلى إبنتيها يُسرى وعائشة وإبنها سعد الدين، ثم أخبرتها ان زوجها يملك دكاناً قرب باب إدريس وانه ذهب للحج تلك السنة وأصبح الناس ينادونه الحاج عثمان، ثم قالت ما لم تكن تتوقّعه أم نادر:

يا أختي، ديننا الاسلام يعلّمنا الرحمة والعطف على الأرامل والأيتام. ونحن هنا في رأس بيروت لا فرق بين مسلم ومسيحي. كلنا أولاد الله ولا فضل لانسان على إنسان سوى بالتقوى، ولا نحكم على الناس إلا من خلال أفعالهم، كل إنسان على دينه ألله يعينه، فلا يكون لك فكر أبداً من هذه الناحية واللي بيصير عليك بيصير علينا.

استأنست أم نادر بأن أم سعد الدين فتحت لها قلبها بهذه السرعة وعرّفتها بعائلتها، ولكن ذلك لن يخفّف من قلقها إن الملجأ لا بدّ أن يسبّب لها مشكلة مع أولادها، ولبرهة لم تعرف ما تفعل فقد شعرت إنها في وضع لا يسمح لها بالتردّد. وقبلتْ بالأمر الواقع مضطرة على الأقل موقتاً، وشكرت ربّها ان أهلها لم يعودوا على قيد الحياة ليروا ما حلّ بها ويبكوا على حالها. أبوها كان تاجر قمح من بيت الحلال في المشتى وهو أصلاً من مدينة حمص وأمها نجيبه من بيت الحلو، وفي الحرب العالمية الأولى وأيام المجاعة كان يُقال «نيال اللي يصير فأر ويعدّي بيت بو زكي» لكثرة ما كان يملك من القمح. ولكن الماضي مضى، وحلّها تعرف أنها منحوسة وما في اليد حيلة.

وكان على أم نادر ان تشتغل مدة قبل ان تتمكّن من شراء حصيرة ومساند ينام عليها أولادها عندما يصلون من الضيعة.

***

هذا هو الملجأ الذي وصلنا إليه في مطلع أيلول من عام 1942، فأحسستُ بانقباض لا أدري متى تحرّرتُ منه كما لو دخلتُ مغارة معتمة تحت جوف الأرض بعد رحلة متعبة بين كفرون وبيروت. لم نجد مكاناً في سيارة جميل القطريب ذلك الصباح الباكر، فمشينا مع أم يوسف إلى صافيتا حيث نقلتنا حافلة كبيرة إلى طرابلس وأنزلتنا في باب التبانة المزدحم بالناس والطنابر وعربات بيع الخضار، ومن هناك انتقلنا في حنطور إلى ساحة التل حيث امتطينا بعد فترة من الإنتظار حافلة كبيره إلى بيروت. وكان من حسن حظي انني جلست في مقعد قرب نافذة الحافلة إلى اليمين فغرقتُ في تأملاتي ومراقبة البحر.

سحرتني أمواجه واتساعاته وألوانه وصخوره الشاهقة، ولم أكن بحاجة إلى وقت طويل لأدرك بمزيج غريب من القلق والافتتان انني

مقبل إلى عالم آخر يعدني بحلول بداية جديدة غامضة ومثيرة لم أستوعبها في ذلك الحين فعايشتها وعايشتني لزمن بعيد.

ولدى وصولنا بعد غروب الشمس إلى ساحة البرج، قادتنا أم يوسف إلى محطة الترامواي حيث إنتظرنا بعض الوقت وكان علينا ـ كما أوصتنا ـ ان نظل قربها ونمسك بأيدي بعضنا البعض دائماً. قالت، موجهة الكلام لي بالدرجة الأولى، اننا ننتظر ترام المنارة الذي يأخذنا إلى رأس بيروت ويجب ان ننزل عند بوابة الجامعة الأميركية. وكان من تعليماتها ان هناك زحمة من البشر، فيكون علينا حين يصل الترامواي ان نقفز إلى داخله معاً وبسرعة.

وما كادت تُنهي تعليماتها حتى أقبل الترامواي فعلاً، فأمسكتْ بأيدينا وسط الإزدحام وتدافع الناس وقذفتْ بنا إلى داخل إحدى العربتين نحن والصِرَر العديدة التي نحملها فقلتُ لنفسي أن يوسف أسعد الوسوف بطل رفع الجرن في الضيعة هو من صلب هذه المرأة الجبارة. ورغم هذه الثقة، على ما أذكر، ظل يستولى علينا احساس بالرهبة والدهشة حتى بعد أن إبتسمتْ أم يوسف بارتياح وعاد الإشراق إلى وجهها الجميل. جلسنا على مقعدين متقابلين هي وأخي من جانب وأنا وإختى في الجانب المقابل. وبارتياح تبادلنا الإبتسام فشعرتُ في تلك البرهة أكثر من أي وقت في السابق بانني مسؤول عن مصير أخوتي كما أنا مسؤول عن مصيري. وكما لو أن أم يوسف أدركتْ ما يجول في ذهني إذ تطلّعتْ إليّ بارتياح وإطمئنان وربتّت على ركبتي كما لو تقول عفاك يا شاطر. أن أكون شاطراً كان الدرس الأول الذي تعلّمته بسرعة كي أعيش في بيروت.

وانشغلتُ عن قلقي تجاه مسؤولياتي الجديدة بمراقبة مصابيح الترام ونوافذه المطلية باللون الأزرق، وقد بدأ صراع خفي بين العتمة والضوء، فكان أن حسبتُ بيروت في تلك الدقائق مدينة ملوَّنة. كان ممتعاً أن أراقب منازل المدينة ومحلاتها التجارية من وراء نوافذ الترام المطلية بهذا اللون الباهر في خفوته وبرودته بعد يوم ساخن. ولم تتغير هذه الصورة الأولى في ذهني مع انني تجوّلت في المدينة صباح اليوم التالي لأكتشف بشيء من الخيبة أنها تعرّت من ألوانها ولبست ثوباً شاحباً. هذه هي الصورة التي ظلّت عالقة في ذهني حتى اليوم رغم افتتاني بلون البحر وتموجاته.

هبطنا من الترامواي عند بوابة الجامعة الأميركية، وانعطفنا بعد خطوات قليلة إلى شارع جان دارك ومنه إلى شارع الحمراء لنتوجّه نحو معمل ضومط ومنه إلى الحي الذي كانت تسكنه أم يوسف وأم عطية على بعد خطوات قليلة مما أصبح يعرف فيما بعد بفندق الكومودور. هناك وجدنا أمي تنتظرنا بلهفة فطال العناق وتكرّرت القبل، وكانتْ تحتضن وجوهنا بكفيها وتبعدنا قليلاً إلى الوراء لتتأملها، غير مُصدِّقة أننا عدنا إليها وعادت إلينا، في محاولة للتأكد من حصول أي تغيير قد يكون قد حدث لنا منذ شاهدتنا لأخر مرة قبل شهرين من الزمن. ولم تشبع من رؤيتنا كما لم نشبع من رؤيتها فكانت تعود بين برهة وأخرى لتضمّنا إلى جسدها الهزيل الدافىء.

طبعاً كنتُ مسروراً بمشاهدة أمي بعد غياب طويل وبهية التي حضرت فيما بعد خصيصاً للمشاركة في لقائنا وبديعة رفيقة الطفولة في الضيعة. ولكن هناك شيء ما خفّف من سروري، بل جعلني أشعر بالانقباض وبشيء من خيبة الأمل. لم أدرك ما السبب تماماً، ولكنه لم يعجبني أن عائلة حداد التي تملك منازل ودور واسعة في الكفرون يمكن ان تسكن كلها في غرفة واحدة مستطيلة ضيقة مثل تلك التي ضمّتنا وفاض بعضنا عنها إلى الخارج. وفهمت في تلك اللحظة لماذا يرفض عبود الحداد، وهو زوج فضة أم عطية وشيخ آخر قبضايات الكفرون، ان يترك الضيعة مفضّلاً أن يسكن فيها وحيداً على ان يكون مع عائلته في بيروت.

وتعمّقتْ خيبة أملي إلى حد البكاء، بل انصدمتُ، بعد ان حملتنا أمي إلى الملجأ الذي استأجرتْه. بقسوة لا أنساها، قلت لأمي مهدِّداً أنني أريد أن أرجع إلى الكفرون. لم تغضب، بل ضمّتْني إلى صدرها وشرحتْ لي بحنان أن هذا ملجأ موقّت وستنقلنا إلى مكان أفضل قريباً. وخجلتُ من نفسي دون أن أتحرّر من الصدمة التي تلقيّتها ولم أكن أدرك لماذا تركنا بيتنا الفسيح فوق تلة تشرف على أودية خضراء لنعيش في هذا المكان الضيق والمعتم تحت الأرض. وظللتُ إلى زمن لا أريد أن يعرف أحدٌ أين نسكن.

عشت لوقتٍ غير قصير في أجواء تلك الصدمة التي لم اتحرّر منها حتى الوقت الحاضر بعد ستين سنة وانا اسكن منزلاً فخماً في ضاحية غنية من ضواحي واشنطن، وأظن أن هذا ما شعرتْ به أيضاً أختي ندى قبل أن تنتقل العدوى إلى أخي كمال، وتكوّن عندي إحساسُ دائم بالغربة والمنفى بعد ان أُقتلعتُ، كشتلة رمان مزهرة، من تراب الكفرون فحملتُ جذوري على كتفيّ أبحث عن تربة جديدة أزرع فيها نفسي لتنمو لي أغصان جديدة وأزهار مُشعّة وثمرات يانعة. ما صدمني في ذلك اليوم لن أنساه ولا أدري كيف أتحرّر من آثاره المدمِّرة كيفما تغيّرتْ الظروف والأحوال، فما أن وجدنا أنفسنا فيه ذلك اليوم ووجهاً لوجه لم يكن تربة جيدة ونافذة أطلّ منها على مستقبل حافل بالغرائب والعجائب. إنطفأ، داخل نفسي، ضوءٌ كان ينير عتمة طريقي فتمسّكت كالغريق بجذور خفية في تراب صدري

وسقيتها دموعي. جرى ذلك بصمت داخلي ولكنني، للآمانة، ما لبثتُ أن أدركت أن الله قد عوّض علينا مقابل حرماننا من رحابة طبيعة الكفرون بلقاء أمنا التي كانت تبتسم كما لو أضاءتْ وجهها شموعاً لتنير الطريق أمامنا.

في صباح يوم الأحد الأول لقدومنا إلى بيروت حَضَرَ صديقي جان ديوب ليرحّب بنا فانقشعتْ غيومي الداكنة بعد ان قمنا بجولة استكشافية لمعالم المدينة التي أصبح يعرفها جيداً كما أعْرف أنا الكفرون حيث خضنا معاً الانهر والسواقي وأكلنا ما طاب من ثمار الجنائن، وشربنا من رؤوس ينابيع تتفجّر من صخور شاهقة، وتسلّقنا الجبال والتلال. قادني جان إلى شارع الحمرا، المسيّج بالصبير وتتفرعُ عنه بساتين البندورة والباذنجان والكوسا والخيار، باتجاه دكان أبو طالب ليعرّفني ببيتهم الذي لم يكن يزيد على غرفة واحدة مع توابعها إنما ضمن حقل واسع يقع في نهاية زقاق صغير يتفرع عن شارع السادات ويسكنها مع أمه وأخوته منيف وناصر ومنير وأختيه أليس وجوليات.

وفيما نسير معاً عند تقاطع الحمراء والسادات، أضاء وجهَ جان منظرٌ ما لم استوعبه للوهلة الأولى فطلب اليّ أن اتبعه بسرعة لمشاهدة صندوق الفرجة. وركضتُ وراءه إلى حيث تجمهر عددٌ من الفتيان ينتظرون دورهم بالجلوس على مقعد خشبي طويل ومراقبة الصور التي يعرضها رجل متقدّم في العمر يلبس قبعة غريبة وقميصاً مزركشاً ويغنّي بصوت مرتفع:

شوف تفرّج آه يا سلامْ

شوف أحوالك بالتمامْ

شوف قدامك عجايب

شوف قدامك غرايب

شوف الأميرة بنت السلطان

شوف عنتر أبو الفوارس،

بالحديد غاطس.

شوف الحلوة عبله

ليتها عيونها ما تبلى

وشفافها رق الفنجان

وصدرها يا حقل الرمان

وكانت العبارة الأخيرة من إختراعي مما عوّض عن أننا لم نكن نحمل فلوساً، فتوقفنا هناك لفترة نستمع إلى الغناء دون رؤية عبلة أو عنتر ولا غرائب الأميرة بنت السلطان. وتابعنا سيرنا فقد كنتُ بشوق لرؤية البحر، واستجاب صديقي لمطلبي دون تردّد فهبطنا إليه في الدرج الذي يفصل بين الجامعة الأميركية والمدرسة الاستعدادية متناسياً ان أمي طلبت مني ألا نتأخر. هالني منظر البحر وإمتداداته فتسارعتُ أركض بمختلف الاتجاهات كما لو أريد ان اتعرف إلى أسراره كلّها دفعة واحدة. وظلّ هذا شأن البحر في حياتي، فقد استولى على مخيلتي تدفق الأمواج وارتطامها بالصخور موجة بعد موجة وجابهتها دون خوف أنا الذي لا أذكر متى في طفولتي أصبحت أجيد السباحة في النهر كما تجيدها الأسماك.

تبرّكنا بالماء، داعبنا الأمواج وداعبتنا، تحدّثنا إلى صيادي الأسماك، وتمشينا على الكورنيش بين المنارة وعين مريسه برغبة التعرف إلى كل شيء خلال وقت قصير ودفعة واحدة.

ثم تسلّقنا تلة باتجاه الروشة التي ما أن اطللتُ عليها حتى جمدتُ في مكاني أتأملها دون حراك لوقت طويل كما لو كان صخرة الشير قبل أن نهتدي إلى طريق متعرجة أوصلتنا إلى صخور تجمهر فوقها عدد من الشباب يتبارون في القفز إلى البحر من مرتفعات شاهقة. لقد إقتنعت منذ الوهلة الأولى أن البحر هو أجمل ما في بيروت، وزاد من روعته الجبال والتلال المشرفة عليه من مرتفعات تكاد ان تلامس السماء. وشعرتُ انني يجب ان أكرّر زياراتي للروشه مع أختي وأخي بدءاً من اليوم أو الغد صباحاً، وأذا ما صبرنا أياماً قليلة على صدمة الملجأ الذي قد نضطر للسكن فيه إلى زمن غير قصير ربما نتمكّن من إقامة علاقة جيدة مع عالمنا الجديد. ولكن مهما كان، سيكون لدينا البحر وأظن انني أعشقه كما كنت أعشق النهر في الكفرون.

هذا ما قلته لنفسي سراً منذ اللحظات الأولى وتساءلت ما المغنطيس الذي جذبنا إلى بيروت، وكيف تمّ إقتلاعنا من جذورنا؟ هل هربنا

من شبح الفقر بعد موت أبي لنسكن ملجأً تحت الأرض مثل قبره ونحن أحياء؟ وماذا نتوقّع حين يموت المعيل فنصبح عالة؟ ومهما كان، حلّ جلُّ البحر في بيروت محلَّ جلِّ الرمان في الكفرون. إنما لم يكن من السهل أن اتخلّص من أحاسيسي بالمعنى الغامض لانتقالي من القرية إلى المدينة وانا في هذا العمر. ما يبدو لي واضحاً أنني اقتلعتُ نفسي من تربة الكفرون التي أعرفها جيداً وزرعتها في تربة مدينة بيروت التي أجهلها. ثم ان المسافة بينهما بعيدة، ولكنها لا تُقارن بمصادر قلقي وأحاسيسي الجديدة بالفروقات الشاسعة في المعيشة والبيئة والناس.

ودون توقّع شعرتُ بالذنب، وبل أغضبتني أسئلتي واستنتاجاتي هذه، عندما خطر لي فجأة أنه كان من واجبي، بدلاً من الشكوى، أن أقدّر جهاد أمي وأتعابها وأثق بقدرتها على الخروج بنا من الحالة التي نحن فيها وأفكّر كيف يمكن أن أكون عوناً لها في تجاوز الصعوبات.

***

3 ـ زمن اليتـم

ما كادت العائلة تجتمع في بيروت حتى تشتّتْ مرة ثانية خلال أسابيع قليلة. ويبدو أنني كبتُ تلك الفترة من حياتي فلجأتُ إلى إستعمال وسائل عدة في محاولة يائسة لاستكشاف هذا الجانب الغامض منها. عمدتُ بالدرجة الأولى لتنشيط ذاكرتي فعقدتُ جلسات مطوّلة مع رفاق تلك الأيام. ثمّ بحثتُ بين مقتنياتي القديمة عن وثائق شملتْ رسائل وصور باهتة، ومسودات نصوص أدبية، وتقارير عما حدث لصديق قديم مات في سجن بلد عربي كان طالباً نبيهاً معنا في ميتم دانيال واميلي أوليفر في رأس المتن. ثم عثرتُ صدفة بين أوراقي القديمة على مسودة رسالة كتبتها لفتاة أميركية إسمها باتريشا غرين أحدّثها فيها عن مدرستنا ورأس المتن ولبنان إستجابة لطلبها.

لم أكتفِ بالاطلاع على هذه الوثائق، فقد عملتُ على خلق أجواء تساعد علي استفاقة ذاكرتي من نومها العميق بالتردّد في زيارات متقطعة إلى رأس المتن وتكلّمت مع عدد ممن عرفتهم في ذلك الزمن من آل هاني وصالحة ونويهض وغرز الدين ومكارم وحريز. ثم لجأت إلى كتابات إبن رأس المتن أنيس فريحه فقرأت كتبه حضارة في طريق الزوال، وملامح وأساطير من الأدب السامي، وإسمع يا رضا. ومن خلال قراءتها وجدتُ نفسي أدخل في نقاش معه في غيابه، خاصة وأ ننى عرفته جيداً عندما كنتُ طالباً وثم حين أصبحتُ زميلاً له في الجامعة الأميركية في بيروت، ومن خلال الحديث مؤخراً مع إبنه الدكتور رضا في مدينتيّ واشنطن وبولتيمور، فاستيقظتْ في نفسي ذكرياتٌ كنت قد نسيتها كلياً، واستدعتْ الذكرياتُ ذكرياتٍ أخرى كأن شيئاً منها لم يندثر بفعل تراكم الأحداث خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمن. وكانت للفصول والمواسم والأعياد والمناسبات أهمية خاصة في استعادة الماضي، فكادت ذاكرتي أن تستحيل كتاباً أقرأه دون ملل. وبل كدتُ أفرح وأحزن لدى قراءة كتاباتي كما لو كنتُ حقاً غريباً عنها وعن نفسي بالذات.

إنقضت أيام، ثمّ تلتها أشهر وسنوات وعقود فكانت لكل منها أحداثها الخاصة التي أخذتْ تتنافس أين تجد مكاناً لائقاً لها في نسيج ذاكرتي. سألتُ نفسي مراراً، كما سألتُ أمي قبل ان تفقد ذاكرتها، ولجأتُ إلى أختي وأخي أستفسرهما عن تلك الأيام الغابرة مما ولّد في نفسي صورة عامة ذات معالم باهتة. ولم يكن لي سوى أن أربط بين أجزاء تلك الصورة علهاّ تطفو فوق ماء الذاكرة. أسأل نفسي هل للذاكرة ماء؟ وعبثاً أتوصّل إلى جواب مقنع تساؤلات غامضة؟ من الواضح إذن إن ما أقدّمه ليس سوى رؤية غائمة لزمن مضطرب.

ما أبصرتُه، كما لو في حلم أو كابوس، بعد تنقيب شاق ومتواصل لزمن طويل، انني ما كدتُ أبدأ في أقامة علاقة ودية مع البحر كما لو أغَسْل نفسي من سقم المدينة وأبحث عن قنديل علاء الدين تحت الماء، حتى وجدتُني ـ بعد وسائط ومشاورات بين أمي وإبن خالها مروان وبهية ومدام شهلا ـ التحق بميتم دانيال وإميلي أوليفر في قرية رأس المتن التي لم أسمع بها من قبل، ولم أكن أدري هل تمّ ذلك بارادتي أو دون ارادتي. وإذا كان لي ما يمكن أن أستنتجه فهو أن العيش في الملجأ، ولو إلى وقت قصير، علّمني أن أملك قدرة كبيرة على التكيّف مهما كانت الصعاب التي تعترضني. ومع هذا، كثيراً ما أنزعجتُ أنني لم أستطع تحقيق موازنة بين ضرورات التكيّف مع الواقع من ناحية ومحافظتي على حريتي واستقلاليتي من ناحية أخرى.

بعد أيام من وصولنا إلى بيروت، وقبل الإلتحاق بمدرسة رأس المتن، دخلتُ بتوصية من الست عزيزه مدرسة الكبوشية في شارع الحمراء في الزاوية المقابلة لما أصبح يُعرف في ما بعد بالهورس شو على أنه المكان المفضّل للقاءات المثقفين والمثقفات، ولم يدم بقائي في مدرسة الكبوشية سوى شهرين أوثلاثة أشهر. لم أعد أذكر تماماً إلا انني تعلّمتُ بعض الكلمات الفرنسية وفضّلتُ لعبة كرة القدم مع سميح شاتيلا على المشاركة في الصلوات الإجبارية في ساعات مبكرة من كل صباح. وكثيراً ما تغيّبتُ أنا وسميح الذي أصبح فيما بعد نجم فريق النجمة في كرة القدم وحارس المرمى الأول في لبنان لزمن طويل. ومما أذكره بوضوح انني رافقتُه في أكثر من مناسبة إلى بيتهم وسط بساتين تتفرّع عن شارع الصيداني وقريبة من حيث أصبح يقع صالون صديقي جميل. هناك علّمني سميح كيف أسوق الطنبر الذي كنت أشاهده أمام منزلهم، وما تزال صورة ذلك المشهد راسخة في ذكرتي.

انتهت تلك المرحلة بالسرعة التي بدأتها في خريف عام 1942 ولم أعد أذكر من أحداثها سوى أجوائها العامة فغابتْ عني كلياً ظروف إنتقالي فجأة من مدرسة الكبوشية الكاثوليكية في شارع الحمراء إلى مدرسة دانيال واميلي أوليفر في رأس المتن التابعة لجمعية

الأصدقاء أو الكويكرز مما جعلها شقيقة لمدرسة برمانا العليا وإن كانت إحداهما من نصيب أبناء وبنات العائلات البارزة في لبنان وسوريا والأخرى من نصيب الأيتام من أمثالي بالدرجة الأولى. قلت لباتريشا غرين في رسالتي إليها بتاريخ 2 نيسان/إبريل 1949 أنه كان هناك تسعة أساتذة في مدرستنا «جميعهم عرب في الصميم»، وحوالي ستين طالباً داخلياً منهم أيتام من فلسطين فقدوا أفراداً من عائلاتهم في معارك 47/48 مع الصهاينة وخمسين طالباً خارجياً من قرية رأس المتن والقري المجاورة لها، وتألّفتْ مراحل التعليم من تسعة صفوف، وكنا ندرس ثلاث لغات هي العربية والانكليزية والفرنسية.

ومهما كان، تكيّفتُ مع المكان واستفدتُ من الفرص المتاحة لي وواظبتُ علي الدراسة، ولكنني لم أتغلّب على مشاعر الأسى للانفصال عن العائلة، فأُحسستُ برهبة إقتلاعي مرة أخرى من جذوري البرية التي ما أن بدأتْ تألف حياة المدينة وتولع بالبحرحتى كان عليّ أن أرحل عائداً باتجاه قرية جبلية ذكّرتني منذ اللحظة الأولى في الكثير من مظاهر حياتها بالكفرون مما حبّبها إليّ وساعد في تكيُّفي وتغلّبي على الصعاب التي واجهتها لحوالي سبع سنوات. وفي الوقت الذي تمّ إنتقالي إلى رأس المتن أو بعده بفترة قصيرة، لم نعد ندري، التحقتْ أختي ندى هي أيضاً بميتم ليّا بركات في قرية عبيه المشرفة على وادي نهر الدامور. أما أخي كمال فبقى مع أمي في بيروت لمدة سنة أو سنتين قبل أن ينضمّ هو أيضاً إلى ميتم رأس المتن.

وكان من الصعب في محاولة تنشيط ذاكرتي أن اقنع أخي وبعض رفاقي بفائدة رغبتي بالعودة إلي الماضي والكتابة عنه مما يقتضي البوح بأسرار نفضّل عادة الإحتفاظ بها لأنفسنا، وربما تُسِيء دون قصد لي ولغيري إذا ما صرّحتُ بها علناً. وفعلاً فكّرتُ كثيراً بهذه المسألة خاصة بعد أن عدتُ ألحّ على أخي كمال أن يتذكّر معي أحداث الماضي وأصرّ على الرفض القاطع في وقت أصبحنا فيه ننعم بانجازات تمكّنا من تحقيقها رغم كل المعوّقات وبعد كفاح مرير لزمن طويل. وعلى العكس، كتبت لي أختي ندى رسالة استرجعتْ فيها أحداثاً غابرة بصراحة لا تقلّ عن صراحتي فتعرّفتُ إلى جوانب عديدة من حياتها في تلك الأيام التي كنتُ أجهلها كلياً. ورغم ان أخي أظهر اهتماماً بقراءة ما كتبته ندى، إلا أنه صمت لبرهة ثم قال. ما رأيك ان نلعب طاولة؟

وأجبته بهدوء: تريد أن نلعب طاولة فليكن، ولكنني أريد أن أوضح لك المسألة كما أراها. من ناحيتي، أهتم بالماضي من موقع الحاضر، وأنظر إليهما معاً من زاوية إهتمامي بالمستقبل. كتبتُ في السابق عن طفولتي في الكفرون من موقع الكهولة وأنا في واشنطن وفي زمن كنت أعاني فيه أزمة حادة بسبب ما حدث لأمي قبل وفاتها، وإريد الآن أن أكتب عن فتوتي، فتوتنا، من موقع الدمار الذي نشهده في نهاية القرن العشرين وأنا أقترب من الشيخوخة وما زلت في المنفى على عكس ما اتمنى. بعد ان عشتُ في المهجر زمناً طويلاً، أصبح الماضي وطني. أما ما يعنيني منه بالدرجة الأولى فهو كيف تمرّدنا عليه. التمرّد هو وطني أيضاً. وبيروت لا بدّ يهمك كيف كانتْ وأين أصبحتْ وما المصير.

ودون أن يظهر إهتماماً بما أقول أعدّ أخي كمال الطاولة لجولة طاحنة، فتابعتُ كلامي: أخوك نادر بدأ يقترب من السبعين، فأَحَبَ ان تتفجرّ ذكرياته من داخل نفسه كما تتفجّر مياه الينابيع من الصخر، ورجائي أن تتدفّق كشلال يأخذني في طريقه حيث شاء. أريد لها أن أن تأخذ حريتها التامة دون شروط وضوابط من أي نوع كان.

أصمتُ لوهلة كي أضبط عواطفي، وأحاول أن اتذكّر أحداث تلك الفترة كما لو توالدتْ في نفسي أشواقُ السندباد للسفر وخوض البحار واكتشاف الجزر القريبة والبعيدة حتى قيل لي مزّقْ أشرعتك وتسلّقْ طرقاً ضيقة وعرة الي رأس المتن. أنت، لصغرك بقيت مع أمك. ندى وأنا ذهب كلٌ منا في طريق وإفترقنا دون أن ندري. هي ذهبتْ إلى ميتم ليّا بركات في عبيه. قالتْ ندى أنها لم ترنا لمدة خمس سنوات. أستغرب هذا ولا أكاد أصدّقه. هل يَعْقَل أنها غابتْ عنا حقاً خمس سنوات دون أن نذكر كم افتقدناها في ذلك الوقت؟ لا أصدّق. لازم تكون غلطانة. لا يمكن. ما رأيك؟

ويجيب أخي كمال: لا أذكر أي شيء. ليذهب الماضي إلى الجحيم. لماذا تريد ان تفتح هذه الجروح القديمة؟ نشكر الله اننا نجحنا نجاحاً باهراً. ونحن بألف خير وعلاقتنا وثيقة ومتينة وعندنا أولاد وأحفاد أغلى من الدنيا كلها. خلّصنا يا نادر من الماضي. النهاية تقترب فلماذا نعذّب روحنا بذكريات عقيمة. لنتمتّع بما تبقى لنا. إنها مسألة سنوات وتنتهي مسرحية العمر. إلعبْ، إلعبْ لشوف.

ونخوض معركة طاولة الزهر. يغلبني، ولكنني أرفض أن أعترف أنه لاعب ماهر. أقول له أن زهره عظيم وزهري عاطل. وكي يحرجني يقول لي إذا كنتُ لا أعرف كيف أواجه الحقيقة في لعبة الطاولة كيف سيمكنني أن أسجّل حقيقة ما حدث في الماضي؟ أجيب أن ما يهمّني ليس الموضوعية بحد ذاتها، بل المعاني الذاتية.

ـ شو الموضوعية؟ وشو المعاني الذاتية؟

ـ شو بدك بهالقصة طالما لا يهمّك سوى التمتّع بانجازاتك؟

***

إكتشفتُ في رأس المتن متعة الدراسة والقراءة، ربما لاحساسي أنني كنتُ مثقلاً بمسؤوليات أكبر من عمري وحجمي وقدراتي حتى تصوّرتُ كما لو أن أغصاني تنحني إلى الأرض ويكاد بعضها ان ينقصف بفعل أثقال أثمارها. وتساءلتُ مراراً في فترات الطمأنينة: ترى اعتدتُ منذ ذلك الوقت التأمل في حياتي فأصبحتُ أسير مُنْحَنيَ الرأس كما لو انني أتفحص ببرودة وهدوء اضطراب عالمي الداخلي؟ وإذا كان ذلك صحيحاً، أفليس من الغريب أن إهتديتُ منذ بدايات الوعي الأولى إلى إقامة صداقة مع القلق فرافقته ورافقني وأقمنا معاً حلفاً على ألا نفترق مهما حدث؟ وربما استنتجتُ، باكراً في تلك المرحلة على ما أذكر، أن القلق هو مصدر البحث والتأمل والتجديد في شؤون الحياة والكون.

وأكثر ما أعيه من ذلك الزمن البعيد، وحين أعود إلى البيت أثناء الفرص المدرسية أن امي كانت تستيقظ قبل الفجر وتعدّ لنا الفطور ونحن نيام ثم تغادر قبل ان تطلع الشمس إلى عملها. ولم تكن تستريح يوم السبت والاحد. هي أيضاً لم يعد لها وقت للصلاة والراحة. فقط قبل النوم تردّد عبارة من هنا وعبارة من هناك كما لو تقطتف أزهاراً برية في حقل واسع. ومرة أخرى أنبّه نفسي إلى أنها هي وبهية تصليّان للعذراء ونادراً ما سمعتهما تصليّان إلى الله ربما خوفاً منه لقسوته وتجاهله ما يحدث في العالم من كوارث.

ومهما كانت العلاقة بين الله والشمس في تفكير إمي، فأكثر ما همني أنها كانت ترى الأبواب تنفتح أمامها. وكنتُ أنا أرى الأبواب نصف منفتحة أو نصف منغلقة في كل طريق سلكتُها. ومن هذا أنني فكّرت أحياناً بالبحث عن عمل بدلاً من متابعة دروسي كي أساعد أمي المرهقة بأعمالها، ولكنها كانت تريدني ان انصرف إلى دروسي وأعدّ نفسي لمواجهة مستقبل غامض يصعب الاطمئنان إليه. ولم يكن من الغريب في هذه الحالة أن وجدت نفسي استسلم لمخيلتي فارحل بعيداً عن المألوف والطمأنينة إلى المجهول والغريب وقلق المصير في أرض لا اعرفها. وتصوّرتُ نفسي شجرة فغرستها في تربة بيروت بعد رحيلٍ مضنٍ بين عالمي السابق الذي اتوق إليه والعالم الذي بدأت أنتمي إليه.

لا أذكر كيف تمّتْ رحلتي الأولى من رأس بيروت إلى رأس المتن في خريف عام 1942، وأقدّر انني مضيتُ إلى كراج في زقاق متفرع عن ساحة الدباس حيث ركبتُ باص يقودها رجل من آل مكارم يناديه الركاب ب«أبو شفيق». المهم أنني اطمأنيتُ إليه بعد أن رحّب بي وأجلسني في مقعد أمامي قرب النافذة. وما أن استقرّيتُ في مقعدي حتى انتابني شعور بأنني قادم على رحلة أخرى في المجهول وكان عليّ أن أسلّم ذاتي إلى قدر ما فغرقتُ في مقعدي وداخل نفسي متجاهلاً جموع الناس. فكّرتُ إنه رحيل آخر خلال وقت قصير، وأقسى ما فيه انني أرحل وحيداً ليس لأجتمع بأمي هذه المرة بل لأفترق عنها هي وأختي وأخي وعن كل مَنْ أعرفهم. أذهب إلى ميتم، والكلمة بحد ذاتها مخيفة، فوعيتُ في تلك اللحظة جانباً آخر من معنى موت أبي. ترى يرافقني موته إلى الأبد؟ هل صنع موتُ أبي مستقبلي نهائياً ولم تعد حياتي ملك يدي؟ متى اتمكّن من التحرّر من شبح الموت؟ لن أنشغل بموضوع اليتم، وحياة اليتم، لو أستطيع. ليس هو نهاية الأشياء. هناك أحلام وطموحات تستحق الكفاح، واليتيم ليس مَنْ فقد أهله بل الذي فقد الأمل بحياة جديدة.

سرّني أن توصّلتُ إلى هذه النتيجة وانفرج وجهي وتعمّق إحساسي بالأمل حين تحرّكت الباص ببطء بعد إنتظار طويل. عبرت مستديرة حول ساحة الدباس لتسلك طريق الشام باتجاه فرن الشباك الذي كان آخر المعالم التي عرفتها قبل تلك اللحظة. عند هذا الحدّ سلّمتُ نفسي لمصير مجهول، فكان ان انشغلتُ بتتبع مشاهد الطريق التي نسلكها وأسماء القرى التي نمرّ فيها. تسسلّقنا الجبل باتجاه عاليه ومنها إلى بحمدون حيث انحدرنا في طريق ضيقة لنعبر قرى القُريّة وقبّاع والشبانية، وأحسستُ بعد ان إقتربنا من حمانا وفالوغا وبْمريم وقرنايل كما لو أنني أعود إلى ما تعني لي الكفرون: شموخ الجبال، انعطافات التلال، عمق الوديان، صلابة الصخور، تمايل الأشجار، عذوبة الهواء، تفرّد القرى. وبمرور الوقت أصبح لقرى أرصون، بزبدين، القصيبة، قرنايل، فالوغا، بمريم، وصليما مكانٌ لا يمحي من ذاكرتي جنباً إلى جنب مع قرى المشتى والعيون والجويخات ومرمريتا وحب نمرا وعين الجرن وبدادا والدوير والمّلوعه في جوار الكفرون.

ورغم احساسي بالعودة إلى أجواء قريتي، ادركت أنني بدأت أفقد بيروت لوهلة لا أدري كم تتطول ولن يكون بامكاني أن ألجأ للبحر

أبحث فيه عن نفسي الضائعة وارى فيه خلاصي واتعامل معه كما لو كان رفيقي وعروس البحر التي عبثاً حاولتُ البحث عنها في يقظتي ونومي، وكم نعمتُ بألوانه وتموجاته واتساعاته وجعلتُه منزلي الروحي فتمنيتُ بين وقت وآخر لو كنت سمكة صغيرة. وها أنا أعود للبر والجبال الشامخة التي لا يقطنها سوى الخائفين على أنفسهم.

وما أن عبَرَتْ بنا الباص حمانا حتى عادت تتوجّه غرباً تطارد الشمس في طريق ضيقة متعرجة فوق سلسلة من المرتفعات والمنخفضات في جبل مستطيل يرتدي أشجار الصنوبر كما لو كانت عباءة ويشرف هو أيضاً إلى الشمال والجنوب على واديين عميقين بانحدار شبه عمودي، أحدهما وادي حمانا إلى الجنوب حيث تبدو صوفر وبحمدون، والآخر وادي بيت مري برمانا بعبدات إلى الشمال. وأحتار أين أتطلع وماذا أتأمل وانا اتوجّه غرباً إلى رأس المتن في طريق ساحر يفرض عليك ان تراقب كل مكان كي لا تفقد منظراً لم تألفه من قبل. ويتمْ كل شيء تلقائياً.

وصلنا قبل الغروب إلى وسط رأس المتن حيث توقّفتْ الباص ودعاني أبو شفيق للنزول مشيراً باصبعه إلى ما أسماه السراي. قلتُ أريد المدرسة فضحك وشرح لي أن المدرسة هي السراي، والسراي هي المدرسة. إختلط الأمر عليّ فتلّبكتُ كعادتي حين أُواجه بما لم أكن أتوقّعه، فشرح لي أحد الذين هبطوا معي من الباص أن مبنى المدرسة كان في الأصل سراي فاحتفظ أهل القرية بهذه التسمية. ومهما كان قصده، غمرني إحساس بأنني إنتقلتُ فجأة دون أن أدري من ملجأ ضيق تحت الأرض إلى قلعة على رأس تلة تشرف على كل ما حولها وتشمخ كقصر تاريخي.

وتبيّن لي في الأيام التالية بوضوح ما معنى أن تكون مباني المدرسة في الأصل سراي حكومية ضخمة تعود إلى زمن العثمانيين. تتربّع فوق تلة تشرف على كل ما حولها ولمسافات بعيدة، وبشموخ تواجه القادمين إليها من الطريق الرئيسي. ويزيد من جمال المبنى الكبير المؤلف من ثلاثة طوابق قناطر باهرة تجمع بين الضخامة والنعومة يعلوها في الوسط برج يؤكد بشكل نادر على جبروتها. وتتصل بهذا المبنى إلى الشرق الشمالي غرف التدريس ومكتبة عامة تعلوها قاعات منامة الطلبة في الطابق الثالث، وعمارات صغيرة شبه مستقلة في الشمال الغربي يسكنها رئيس المدرسة مع عائلته وعدد من الاساتذة والإداريين، وتتوسط المكان ساحة داخلية ذات أشجار باسقة ونافورة ماء تستجلب النظر.

في هذا المكان شبه الألهي على رأس تلة في وسط رأس المتن وجدت نفسي فجأة محاطاً بعدد من الطلبة بينهم مَنْ يكبرني ومَّن يصغرني، وأما غالبيتهم فكانت تتألّف ممن هم أقرب إلى جيل يحار بين الطفولة والفتوة. أخذوني بترحاب كأنني أصبحت تواً واحداً منهم إلى الاستاذ بطرس خوري المشرف على شؤون الطلبة فرحّب بي وشرح لي الترتيبات المتوقّعة وعرفّني إلى صاحب المدرسة ورئيسها دانيال أوليفر الذي كان في طريقه إلى تناول الشاي هو وزوجته الست إميلي كما يُشار إليها وأختها مس رايت وعدد من الاساتذة الشباب الذين صدف مرورهم قربنا في تلك اللحظات القليلة المفعمة بالحياة والترقُّب وكانت الشمس قد بدأت تدخل سرير البحر وتلتحف غيوماً ملوّنة لتنام باطمئنان على أن تبدأ حياة جديدة في اليوم التالي.

***

ذلك هو المكان النادر الذي عشتُ فيه بين خريف 1942 وبدايات صيف 1949معزولاً عن إضطرابات العالم، ولم أكن أغادره سوى في الأعياد والفرص الصيفية حين كنت أنزل إلى بيروت فأعيد علاقات الود مع عائلتي والبحر وقلة من الأصدقاء والأقارب، وابحث عن عمل منذ الأيام الأولى لوصولي. إشتغلتُ أثناء فرص الصيف المتتالية لدى محلات البقالة ومصبغة في شارع مصطفى خالدي مقابل منزل أنطوان وعاطف كرم، كما عملتُ بوصفي من أصول فلاحيّة «جنيناتي» في بعبدات عند عائلة المرحوم أمير المنابر فيليكس فارس، فكان أن قرأت الكثير من مؤلفاته وخطبه وخاصة ترجمته لكتاب نيتشه «هكذا تكلّم زرادشت»، وعلمتُ من سيرته أنه ولد في صليما 1882 لأب صحفي وأم فرنسية وتوفي 1939، وهو العام الذي توفي فيه والدي، وسرّني أن إكتشفتُ في ملفاته المهملة رسالة كتبها إليه جبران خليل جبران ذكر فيها أنه يود العودة إلى الوطن لأنه «لا بدّ من التخلص من هذه المَدَنيّة السائرة على دواليب ومعانقة تلك المَدَنيّة المستسلمة لنور الشمس»، وكان لفيليكس فارس وزوجته أوجيني ولدان هما على ما أذكر حبيب وأديب وإبنة واحدة إسمها سلوى قضيتُ معهم وقتاً ممتعاً في بعبدات المقابلة لرأس المتن وأفهمتهم أهمية والدهم. وتوّجتُ أشغالي في تلك الأيام بالعمل مساعد نجار في بناء قصر اليونسكو.

وبعد كل صيف كنت أعود متشوّقاً إلى مدرستي التي اندمجتُ في عائلتها الكبيرة منذ وصولي إليها، وأحببت طبيعة قرية رأس المتن وشعبها الأبي، وإن كانت باردة جداً في الشتاء ومعرّضة للرياح من مختلف الاتجاهات. وكثيراً ما أحببت الاختلاط بالطلبة «الخارجيين» من أهل الضيعة وتعرّفتُ، وبل يجب أن أقول صادقتُ، طلبة من آل مكارم وصالحة ونويهض وغرزالدين وحريز وهاني وفريحة وغيرهم. وطبعاً كانت علاقتي على أعمقها مع الطلاب «الداخليين» فقد جمعتنا، عدا اليتم، مختلف جوانب الحياة ومشاكلها ليلاً نهاراً. عرفتُ جيداً وصادقتُ ـ وما أزال أذكر حتى اليوم رغم مرور ما يزيد على نصف قرن ـ ميشال فرنسيس من قرية المنصف في منطقة جبيل وفؤاد وعقل قربان من قطنا ومارون صفير من ريفون كسروان وسمير وجورج زغبي من أشرفية بيروت والذي كان يجيد بشكل خاص إداء أغاني محمد عبد الوهاب ويتحمّس للحزب القومي. كذلك ما أزال أذكر وأتمنى أن أعرف مصير سليم الطبل وجورج سماره وجورج معلولي وجوزيف وسمير نهرا من حمانا والرسام الشهير حليم جرداق وأخيه طوني وإميل هلال وفايز سلوان من صغبين اللذين رعاهما بالعناية الفائقة إبن ضيعتهم مدير إدارة شؤون الطلبة الاستاذ بطرس خوري، وسليم وعبدو قرداحي من الشبانية وغيرهم ممن قد تستيقظ أسماؤهم فجأة حين أسترجع أحداث المدرسة ونوادرها. وكثيراً ما أحزنني أنني نسيت أسماء بعض من عرفتهم جيداً في ذلك الزمن وأحار كيف تبخّرتْ كلياً أو جزئياً من ذاكرتي. ولا أستغرب ان تستيقظ فجأة من حيث لا أدري. واشتقت مؤخراً إلى نجيب غرزالدين فقصدته في رأس المتن لاكتشف أنه توفي قبل عشر سنوات فاستغرب أفراد عائلته أنني لم أتمكّن من السيطرة على مشاعري.

وكان لنا أيضاً اساتذة عاش أغلبهم داخل المدرسة وما زلت أذكر منهم مدير التدريس الاستاذ بطرس رعد (والد إميل وشارل رعد)، وإميل خوري الذي هجر التعليم ليمارس الصحافة للشؤون الداخلية في صحيفة النهار، وجميل يازجي من مرمريتا الذي لم أعد أعرف أين أرضه، ونبيه خوري من عكار (أخ منير خوري الذي أصبح أحد اساتذتي في الجامعة الأميركية بعد عقد من الزمن)، وألبير الزعني إستاذ اللغة والأدب العربي وكان أول من شجّعني على الكتابة، وبديع نويهض الذي لاحظتُ أنه كان يخفي زرّ الزوبعة خلف ياقته، وغيرهم ممن غارت أسماؤهم في رمال الذاكرة.

وهناك ما لن انساه ويطيب لي الكلام حوله، ولكنه ليس من اللائق الإعلان عنه حتى بعد مرور الوقت ومهما نفرتُ من الرقابة خاصة في الكتابة الفنية. وأتساءل أحياناً لماذا أذكر بعض الأمور وأنسى بعضها الآخر وما الفوارق بينها؟ مما أذكره جيداً أن غرفة السفرة كانت قاعة كبيرة منفردة عن بقية مباني المدرسة وتطل على الطريق العام وأهم من كل ذلك على بيت واحدة من أجمل فتيات الضيعة المجايلة وإسمها إقبال. لا ضرر من ذكر إسمها الحقيقي بعد مرور هذا الزمن الطويل ولا أعرف إذا ما كانت على قيد الحياة وهل تزوّجت وكم جلبت من البنين والبنات وهل سيطلّع أحد منهم على ما أكتب هنا فيفرح أو تثور حميته لورود اسمها في هذا الكتاب. لذلك أقول أنها كانت جميلة وفاضلة ومهذبة وكل ما في الأمر أنها تجذب النظر، ويبدو لنا أنها كانت تحب أن تصغي من بعيد لغناء سمير الزغبي الذي أحس أنها تتذوّق أغاني محمد عبد الوهاب.

وأذكر أننا كنا نشرف عند المقلب الأخر من المدرسة، أي باتجاه صنين، على منزل فتاة أخرى لا تقل جمالاً عن إقبال، وكان إسمها يمنى. لا تسألني كيف عرفنا إسمها ولماذا أصرّح بالإسم الحقيقي بدلاً من أن أخترع تسمية وهمية، فهل يُخفى القمر وهل هناك مَنْ لا يحبّ مراقبته عندما يطل من وراء صنين جلياً ساطعاً ساحراً ويلقي أضواءه على التلال والأودية فيهدأ العالم ويصمت الكون وتصغي الأشجار والقلوب وتتقارب الوجوه؟ وهنا أجرأ على القول أنني التقيتُ بعد زمن طويل شاباً من رأس المتن في لندن فسألته لكونه من عائلة نويهض إن كان يعرفها فأجابني دون إنفعال بإنها أمه. بل سألني لماذا أسأل فقلتُ أنها كانت صبية جميلة تتفتّح على الحياة كوردة وكان بيتها تحت السراي قرب درب القمر كما قد يقول الكاتب فؤاد سليمان.

ضحك وابتسمتُ بارتياح عندما قال لي أنه سيخبرها أنني سألتُ عنها. أعجبتني فيه ثقته بنفسه وبأمه. كان هذا قبل أن يصبح أصولياً، كما قيل لي، ولا أعرف إن كان ذلك الخبر صحيحاً أم مجرد إشاعة أو تهمة. ومهما كان أحترمه وأتمنى لو تلتقي طرقنا مرة أخرى لنتبادل الأراء في هذا الزمن المضطرب، وإن كنت أفضّل الإلتقاء بامه برفقة زوجها وأولادها وأصارحهم أننا كنا نجدها جميلة كشمس تشرق في الصباح بعد ليلة باردة فيغمرنا الدفء، وكم بدّد قمرها من ظلمةٍ في تلك الأيام الصعبة المضنية؟

وجرى حدثٌ آخر في رأس المتن في بدايات الفتوة ترك أثراً كبيراً في حياتي ليس في بدايته بل بعد أن أكملتُ دراستي الأعدادية والثانوية ودخلت الجامعة حين بدأت أهتم بالسياسة والقضايا العامة. حتى الوقت الحاضر ما زال يقشعر بدني حين أذكر تلك الأمسيات عندما كان يصطفّ عدد غفير من شباب رأس المتن ويسيرون في الطريق

الرئيسي يتقدّمهم بطل الشباب هاني الهاني يحمل علماً كبيراً يقال أنه ليس هناك من يستطيع حمله غيره. كانوا يسيرون عند الغروب كجنود يستعدون للقتال، وأذكر رهبة ما كان ينادي به المدرّب في هدوء تلك الأمسيات. بصوت يهدر كعاصفة كان يصرخ من مكان عميق في صدره وتجيبه الأصوات نقية:

يا ابناء الحياة لمن الحياة؟

ـ لنا

ـ ولمن نحيا؟

ـ لسوريا؟

لم أعرف في ذلك الوقت ما القصد ومَنْ الجماعة وماذا يريدون وما خطورة ما يفعلون. ما أحسستُ به أن إقشعّر بدني لهول ما رأيتُ وسمعتُ من ضجيج في صمت تلك الأمسيات.

هزّني النداء ولفت نظري تعبير «أبناء الحياة» فكتبتُ في اليوم التالي قطعة إنشاء

لاستاذ اللغة العربية بهذا العنوان حمّلتها مشاعري وأفكاري الخاصة. واتسعت معرفتي قليلاً يوماً بعد يوم منذ ذلك الوقت، خاصة وأنه حدث تكتلان داخل صفوف الطلبة أثناء الكفاح من أجل الاستقلال. كان ما أن تنتهي الدراسة قبل الغروب حتى يتجمهر فريق صغير من الطلبة الشيوعيين وفريق كبير من الطلبة القوميين ويتنافسان في تأدية استعراضات شبه عسكرية متأثرين بما شاهدوا من مسيرة شباب رأس المتن الأشاوس. غير أن شيئاً ما لم نألفه بدأ يُحدث إضطراباً. صدف عصر يوم ان هاجم الفريقان بعضهما البعض ولم يكن واضحاً هل إخترعنا لعبة نتنافس من خلالها بدافع التأكيد على ذاتيتنا المهدَّدة أو أننا بدأنا نعدّ أنفسنا لخوض معارك حقيقية.

وفي اليوم التالي جمعنا الرئيس أوليفر وأفهمنا بكلام مختصر مفيد، وكان الغضب ينبعث من عينيه وشاربيه الكثيفين، ان النشاطات السياسية ممنوعة بتاتاً وان أي طالب يخرج عن هذه القاعدة سيطرد حالاً من المدرسة. وكان أن انصرفنا إلى دروسنا وإتمام أعمالنا اليومية فعاد الهدوء يخيّم في أجواء المدرسة إلى زمن طويل. ولم يكتفِ الرئيس بهذا التهديد الذي لم يكن لدينا شك بأنه قصد أن ينفّذه عند حصول أي شغب، بل بدأ سلسلة من المواعظ الدينية دعا إليها متكلمين حتى من بيروت. وحدث أمر هام بعد أسابيع قليلة عكّر الأجواء مرة أخرى حين صعد الرئيس أوليفر إلى المنبر في قاعة المحاضرات ومسح شاربيه الكبيرين وأنفه مراراً بمحرمة كبيرة كان يضعها عادة بشكل بارز في الجيب الأعلى من معطفه. قال، بعد ان حدّق بنا في مختلف الاتجاهات، إنه سيسرد علينا قصة هامة موضحاً ان القصص معينٌ كبير لفهم واقع الحياة وأنها الوسيلة الأفضل لتفهّم الرسالة التي يريد ان يوجّهها الينا ذلك الصباح.

توقّف عن الكلام لبرهة مما زاد من تشوقنا، ثم قال. تقول حكاية ما خلاصته أن الشيطان أراد يوماً ان ينشر بذور الكذب في العالم فوضعها في كيس حمله على ظهره وبدأ يوزّعه على شعوب العالم كلها. رمى الشيطان قليلاً من بذور الكذب في تربة أوروبا، إنما في فرنسا وإلمانيا أكثر منه في بريطانيا العظمى، وقليلاً في تربة أميركا الشمالية وأكثر من ذلك في كل من أميركا اللاتينية وإفريقيا وآسيا. وهكذا وزّع ربع كل ما في كيسه من بذور الكذب على سائر هذه القارات، ولم يبقَ أمامه سوى البلدان العربية فقرّر أن يفرغ فيها كل ما في كيسه، أي ثلاثة الأربا ع المتبقّية.

لم نستوعب تماماً الرسالة التي أراد توجيهها إلينا، وإن أحسسنا بخطورتها فحدث صمتٌ لم يستغرق طويلاً، فنهض الاستاذ نبيه الخوري فجأة وإقترب بحزم من المنبر ليواجه الرئيس ويعترض على كلامه، الأمر الذي لم يحدث قبل ذلك في تاريخ المدرسة. قال بصوت مرتجف وغاضب: إسمح لي يا مستر أوليفر أن أوضح لك أمراً هاماً فاتك الإنتباه إليه على ما يبدو من كلامك الذي يسيء الينا كعرب، وكان الأفضل ألا تتدخل في السياسة في الوقت الذي تمنعها على الطلبة والاساتذة.

الى هنا صمت لبرهة، جال بنظره حول التلامذة والأساتذة، ثم واجه الرئيس قائلاً بهدوء وبرودة أعصاب: ربما وزّع الشيطان علي الشعوب كل إلى هنا صمت لبرهة، جال بنظره حول التلامذة والأساتذة، ثم واجه الرئيس قائلاً بهدوء أعصاب: ربما وزّع الشيطان على الشعوب حسب نصيبها من القدرة على الكذب وممارسته، ولعلّه خصّص العرب بثلاث اربا ع ما وزّعه على سائر البشر، ولكنه فاتك أن تدرك حقيقة ما يجري في هذه المنطقة التي عانت وما تزال تعاني من الكذب الإنكليزي بشكل خاص. لمعلوماتك، أريد أن أضع النقاط على الحروف يا مستر أوليفر. الأمر الذي لم تنتبه إليه أن العرب لم يعرفوا كيف يستثمرون بذور الكذب التي وزعها الشيطان عليهم إلى

أن جاء الإنكليز إلى هذه البلدان المنكوبة وعلّموا شعوبها فنون غرسها واستعمالها في الوقت المناسب.

حدث جمود لبرهة، ثم صفقّ البعض فجأة، فما كان من الرئيس أوليفر أن هبط درجات المنبر وخرج مسرعاً غاضباً. عاد الجمود، وبهدوء بدأ الطلبة والاساتذة يتوجّهون إلى صفوفهم دون أي تعليق وإن توقّعوا أن الأمر لن ينتهي عند هذا الحدّ. وتتابعت الدروس والأعمال دون أية إشارة إلى ما حدث أو ما قد يحدث كما لو أننا تحوّلنا جميعاً إلى ساعة تسجّل مرور الوقت بانتظار مفاجأة لا نعرف مدى خطورتها.

هكذا عَلِقَتْ في ذهني أحداثٌ ونشاطات ذكرت بعض تفاصيلها كما لو كانت أشباحاً تطاردني في ليل معتم، وأفكّر بتلك الفترة قبل ما يزيد على نصف قرن مستغرباً كم نسيتُ من أسماء وصداقات حميمة في وقتها الغابر. بل أستغرب أحياناً أنني أذكر بعض الأمور وأ نسى بعضها الآخر. وأصابني ذهول أن قرأت مؤخراً في تقرير أمنستي انترنشيونل أن أحد رفاق الميتم في مدرسة رأس المتن تم القبض عليه في بلد عربي وأودع دون محاكمة زنزانة انفرادية مظلمة حيث مات بعد حوالي عقدين من الزمن، وكان متزوجاً وله أربعة أولاد. وحين تم الكشف عنه من قبل فريق إلماني، تبيّن أنه عُذب في السجن في المرحلة الأولى وفقد نظره وعانى من عطل في كليته ودماغه وأصيب بالشلل وانخفض وزنه إلى أربعين كيلو غراماً، وكان يغيب عن الوعي بين وقت وآخر، وتحوّل إلي كائن نباتي. وظلّ يعاني من عذابه حين مات في زنزانته، غير أن جسده لم يُسلّم لأهله. وحين عرفته في الأبعينيات في مدرسة رأس المتن، ولم يصدف أن رأيته منذ ذلك الوقت، أشهد أنه كان بين أكثر الطلاب حيوية وذكاء ومرحاً وجاذبية وثقة بنفسه. ترى ماذا جرى له؟

هذه ذكريات محزنة كان من الأفضل لو نسيتها، وإن لم أنسها فكان من غير اللائق ان أشير لبعضها بشكل معين فانا لا أعرف حقائق الأمور. من ناحية أخرى، كانت هناك ذكريات ممتعة لا تسيء إلى أحد كنتُ أتمنى لو اكتفي بسرد أحداثها. ولكنني لم أكن أريد ان أقدّم صورة مجتزأة ومثالية للواقع. إنما كي اتحرّر من زنزانة أحزاني، أرى أن اتوقّف عند ذكريات ممتعة، منها أنه كان لرئيس المدرسة سائق شاب من البسطه في بيروت إسمه محمود علّمنا لعبة كرة القدم على أصولها. ألّف منّا فريقين وبرز من خلال المباريات لاعبون مهرة إكتسبوا شعبية واسعة. واعتز أنني لعبتُ شخصياً دور حارس المرمى وحرصت أن أستفيد من مهارات سميح شاتيلا فتحرّرت من أي خوف على ما قد يحدث لجسدي واطلقت سراحه في تلك الأيام الغابرة على سجيته. وهذا تماماً ما أحاوله دون جهد في سرد أقاصيصي محزنة كانت أم ممتعة.

ومما أذكره جيداً ان محمود، سائق الرئيس، لم يكن يهتم بمباريات كرة القدم فحسب، بل كان أيضاً ينقل الينا أخبار ما يجري في العالم خارج المدرسة. هو الذي حمل إلينا صحفاً من بيروت وحرّضنا سراً أن ندق جرس المدرسة احتفاء بيوم الجلاء في 31 كانون الأول 1946، كما علّمنا بعض أغاني عمر الزعني التي كانت تعبّر عن خيبة أمل الشعب بالحكومة الوطنية بزعامة بشاره الخوري ورياض الصلح بعد أن ثبتَ فسادها وتخاذلها فأصبحنا نقيم حفلات صاخبة ونقوم بشبه مظاهرات صغيرة نغنّي فيها:

كلنا بالظاهر إخوان
وبالباطن أشكال ألوان
ناس إنكليز ناس طليان
ناس اتراك ناس ألمان
مالنا غايه وقرار
ريشه وطايره بالهوا

وفي ساعات المرح، كما في مناسبات أخرى، كان يقودنا إميل هلال وجورج معلولي بالغناء فشكّلنا جوقة تردّد معهما في مسيرات شبه عسكرية:

بدنا وبدنا وما بدنا
ومش عارفين شو بدنا
بدنا وبدنا وما بدنا
وما طلع شي بيدنا
بس اللي ما فينا عليه

بدنا منه وتفو عليه

ويرتفع الضحك خاصة عندما يغني محمود بعد أن يتأكد من غياب أي رقيب من إداريين أو غيرهم:

يوم طربوش يوم برنيطه

يوم زمور يوم ترمبيطه

يوم منمشي مع عيطه

يوم منشدّ مع شيطه

بس اللي ما فينا عليه

بدنا منه وتفو عليه

كانت تلك أوقات ممتعة وبريئة حقاً ولعلها تركت بعض آثارها في نشأتي السياسية، ومع هذا لم أشعر بتحوّل حقيقي في حياتي كما شعرت حين إكتشفتُ بنفسي جبران خليل جبران في المرحلة المتوسطة بعد أن قرأت له «أغنية المطر» في كتاب القراءة «المشوّق». وجدتها مختلفة في لغتها وصورها وموضوعاتها ورموزها عن أي نصّ آخر قرأته في حياتي حتى ذلك الوقت. كتب جبران منشداً بلسان المطر، «أنا خيوط فضيّة تطرحني الآلهة من الأعالي فتأخذني الطبيعة وتنمّق بي الأودية. أنا لآلىء جميلة... فسرقتني ابنة الصباح ورصّعت بي الحقول. أنا أبكي فتبتسم الطلول، وأتضع فترتفع الأزهار».

كانت تلك لغة لم نألفها من قبل فوجدتني أعود إلى قراءة أغنية المطر وما أزال أذكر حتى هذا العمر الطويل كم إستوقفني قوله الفريد بإسم المطر كما لو أرسله البعل إلى نفوس تتفتّت من العطش لزمن طويل، «الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف أَنْهَمِلُ فأبرّد غليل هذا وأشفي علة تلك... أنا تنهدة البحر، أنا دمعة السماء، أنا إبتسامة الحقل». وكان أن قلتُ في كتابة موضوع إنشائيّ قدّمته للإستاذ الزعني أن تلك الصورة هي خلاصة الشعر، فأعطاني الإستاذ علامة 95 وطلب مني أن أقرأها أمام بقية الطلبة في الصف. وكان لهذا الحدث تأثيرٌ كبير في توجهاتي فيما بعد فاعتبرته بداية عشق لا ينتهي بيني وبين الكتابة.

إنغمستُ بعدئذ في قراءة جبران فأحببتُ بشكل خاص أغنية الموج حيث يقول، «كم رقصتُ حول بنات البحر عندما كنّ يطلعن من الأعماق ويجلسن على الصخور ليتفرّجن على النجوم»، وأغنية السعادة التي تحدّثنا عن علاقتها بحبيبها قائلة «حبيبي.. يروم وصالي في صرح المجد الذي بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضّة وأنا لا أوافيه إلا في بيت البساطة الذي بنته الآلهة على ضفة جدول العواطف». وأعجبني أيضاً بشكل خاص ما كتبه جبران حول الشاعر فقال عنه أنه «بلبل يتنقّل على أغصان الكلام»، وأنه «غريب في هذا العالم» وليس في الوجود مَنْ يعرف كلمة من لغة نفسه، ويرى مدينة الماضي على أنها «هياكل أديان أقامها اليقين ثمّ هدمها الشك». وقلت فيما بعد ذلك هو أدونيس الماضي والآتي.

هذا قليل من كثير إستوقفني عند بلوغي الخامسة عشر من عمري. وربما حدث في ذلك الوقت أن قرأت أيضاً قصيدة الطلاسم لإيليا فتحوّل الشك في نفسي من موضوع سلبيّ إلى موضوع إيجابي أطللتُ من نافذته على أفق جديد. ثمّ استوقفني كثيراً قول جبران في يوم مولده في الخامسة والعشرين من عمره أن السكينة وضعته «بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك» فترنّمت نفسه «بأغاني مدّه وجزره» وخطّه الزمان «كلمة مبهمة، ملتبسة المعاني»، وحين فتح قلبه للسعادة وجد «مرآتها وسريرها وملابسها» ولكنه لم يجدها هي فعاش «بلا أمل، ولا رجاء، ولا إنتظار» في عالم «ليس لبدئه إبتداء ولا لنهايته نهاية»، وأدرك في صميم أعماقه أنه ليس «بسنبلة من القمح في سهول سوريا» فنُكِب بنفسه وببلاده التي لم تكن في ظنه «سوى جزء من نكبة العالم»، وأوجعه أن أهله لم يموتوا متمردين «فانقرضوا مستسلمين».

منذ قرأت جبران لم تعد دروسي، خاصة الأدب، واجباً بل متعة بالدرجة الأولى. ومهما شعرت بضعفي وفقري، إلا انني تحرّرتُ من الخوف بعد أن قرأت لجبران الأرواح المتمردة والعواصف ويوحنا الكافر ومرتا البانية والأجنحة المتكسرة فحلّ في حياتي زمن التمرد مكان زمن الصمت والولاء والانطواء على الذات ولم يفارقني اليوم، وهذا بين أجمل ما أعْتز به هو وحرصي ان أُفيد المجتمع أكثر من استفادتي منه لمصالحي الخاصة، وان أعطيه من نفسي أكثر مما أخذ منه. وهذا ما اسميته التضحية.

ومع أن الكثير من ذكريات تلك المرحلة غرق في بحر النسيان بمرور الوقت وتكاثر الأحداث، إلا انني لسبب ما لا أزال أذكر بوضوح ان إمرأة أميركية زارت المدرسة لفترة برفقة فتياتها الثلاث اللواتي أحدثن فتنة وشغفاً بين الطلبة. ولم يكن من الغريب أن تنافسنا في

كسب مودتهن، وخاصة الطلبة من الجيل الأكثر فتوة، وتطفّل بعضنا الأصغر سناً على التقرّب منهن مع الاحتفاظ بمسافة تسمح بالانسحاب عند تحسّس الخطر، وكنت بين الفريق الأخير هذا. وتحدّثتُ مع إحداهنَّ عن ولعي بجبران فسرني أن اكتشفُ أنها مولعة بكتاب النبي، ولكننا للأسف الشديد لم نتابع الحديث فقد غادرن في اليوم التالي وعاد الهدوء يفرض فراغاً وحسرة في النفس على فرصة نادرة انتهتْ دون عودة.

بل حدثت عودة من نوع خاص ربيع 1949 قبل شهرين من تخرجي من المرحلة المتوسطة والإعداد لتكملة دراستي الثانوية في المدرسة الاستعدادية أو الكلية العامة المتصلة بالجامعة الأميركية. تلك هي الفترة التي سلّمني فيها مستر أوليفر رسالة من فتاة أميركية تطلب المراسلة مع أحد طلبة مدرستنا للإطلاع على شؤونها والتعرف إلى بعض جوانب الحياة العامة في لبنان. وأشير هنا إلى أنني تلقّيتُ جواباً سريعاً على رسالتي الأولى، وكان أن استمرتْ المراسلة بيننا إلى أن تطوّرتْ مع الوقت لتشمل تلميحات عاطفية من قبلي فلم أعد أسمع منها مما جعلني ألوم نفسي لضعفها وتهاونها. ولعل هذا ما يفسّر لي سبب نزوعي للوم نفسي كلما فشلت علاقتي بالجنس الآخر وعدم تناسي هذا الحدث بالذات.

ومهما كان لا أزال اتساءل لماذا أذكر ذلك الحدث العابر بينما نسيتُ أحداثاً تفوقها أهمية؟ ولم يزعجني أنني لم أتوصّل إلى جواب حتى الآن. وما ان رحلت المرأة الأميركية مع بناتها حتى عدنا للتركيز على لعبة كرة القدم ومتابعة دروسنا وأشغالنا اليومية. وحدث أننا بدأنا نقترب من العيد الكبير فأصغيتُ بشغف لاميل هلال يرتّل:

اليوم عُلِّقَ على خشبة

الذي عَلّقَ الأرضَ على المياه

...نسجد لآلامك ايها المسيح

فارنا قيامتك المجيدة

***

كان أخي كمال يفوقني ولعاً بالمغامرات وجرأة في إقتحام المخاطر والتعامل مع الناس، وخاصة الفتيات، وجهاً لوجه لا عن طريق كتابة الرسائل. وصدف يوماً في الصيف لدى عودتي إلى بيروت أنه كان يهبط من الترامواي مقابل مخفر حبيش حين صطدمته شاحنة جيش فرنسي ورمته إلى الرصيف دون أن تتوقّف. لم أعد أدري ما حدث تماماً بعد أن نقلوه إلى مستشفى الجامعة الأميركية حيث تمّ تضميد جراحه. ما أذكره أنه حصل توتر مع إدارة الإستقبال في المستشفى التي رفضت إدخاله قبل دفع كمية من المال لم نكن نملكها. نصحنا أحد المسؤولين، وكانت أمي قد وصلت مولولة في تلك اللحظة، أن نأخذه إلى مستشفى اوتيل ديو فنقلناه إليه دون تردّد بالترامواي. وحرصتْ أمي على تقديم شكرها لربها أنه حفظ لها إبنها الصغير الذي لم يعرف بعد من الدنيا خيرها من شرّها.

بقي إسبوعاً كاملاً في المستشفى تحت الرقابة. في ذلك الوقت كنت أوزّع وقتي بين عملي وزيارته أنا وأختي وأمي وبهية. وفي تلك الأثناء ساءني بشكل خاص خبرٌ صارحتني به أمي في المساء قبل النوم. ذكرتْ لي بتردّد أنها تعرّفتْ إلى سيدة في شارع المكحول طلبتْ منها أن تخصّص لها يوماً كل إسبوعين لتنظيف منزلهم. وقبلت أمي العرض فواظبتْ في تأدية خدماتها إلى أن سألتها يوماً بعد أن أكملت عملها إن كانت عثرت صدفة في زيارتها السابقة على فلوس أضاعها زوجها المتقدّم في العمر وكان يضعها عادة على طاولته. نفت الأمر باستياء، ومضتْ مصمّمة ألا يروا وجهها بعد تلك اللحظة. وبعد يومين حضرت مدام مطر إلى الملجأ عند المساء لتقدّم إعتذارها فقد وجد زوجها الفلوس في خزانته. وقبلتْ أمي الاعتذار غير أنها أصرّت ألا تستمر في التعامل مع تلك العائلة.

ترك هذا الحدث في نفسي ألماً لم أنسه طيلة حياتي، ولحظتُ في تلك الأيام انني عدتُ خاصة لقراءة الأرواح المتمردة والعواصف ويوحنا الكافر ومرتا البانية لجبران، مما عمّق من إحساسي بالنفور من أهل السلطة والثراء والدين. ويبدو أن الجرح إستقرّ عميقاً في نفسي رغم كل محاولات التسامح كما إكتشفتُ من خلال إهتمامي المتزايد بمواضيع الفروقات الطبقية.

وبمرور الوقت رأيتُ زيفاً في الواقع حولي في مختلف المجالات، فنفرتُ منه إلى أن أدركتُ أنني أتجنّبه أحياناً بدلاً من مجابهته. كان ملجأي البحر والقراءة والتذكّر والتفكير بصنع المستقبل، مستقبلي الشخصي مقروناً بمستقبل المجتمع والإنسان. وما أن نشأ لي إحساس بانتماءاتي وإهتماماتي حتى نشأت الخلافات والحزبيات والنزاعات. كانت لي خلافات، لا شك، إنما ظلّتْ لي علاقاتي الودية

مع الكثير ممن اختلفتُ معهم في الرؤية والرأي. وأعترف أنني فشلتُ في بعض الحالات ومنها ما رسب في ذهني حتى الوقت الحاضر. وفي طليعتها ما يتعلّق، مثلا ، بعدم معرفتي كيف التعامل مع أخي كمال بسبب الإختلاف في توجهاتنا ومزاجياتنا. بقدر ما كنت مولعاً بالدراسة والقراءة والقضايا العامة، كان هو، على العكس، يفضّل اللهو واللعب والغناء، وهذا ما أكسبه شعبية خاصة في رأس بيروت كما في ميتم رأس المتن.

منذ مجيئنا إلى بيروت تبيّن ان أخي كمال كان يحب المعاشرة والمرح بقدر ما كنتُ أنا أحب الوحدة والقيام بواجباتي، وكانت تستهضمه العائلات التي تعرّفنا إليها وتستعذب غناءه العتابا والدلعونة وأم الزلف. بل نشأت له شعبية بين البنات بشكل خاص مما سبّب له مشاكل لم نكن بحاجة إليها بعد أن قَبِلَته الست أمينة الخوري مقدسي تلميذاً في مدرستها الشهيرة مجاناً، وربما كانت أفضل مدرسة إبتدائية خاصة في ذلك الوقت. وللأسف الشديد أن هذه الفرصة لم تدم أكثر من أشهر قليلة إذ طُرد من المدرسة لسبب لم نتأكّد منه، ولم يفهمه هو في حينه فتناساه ولم يعد يتذكّره أو بالأحرى يريد أن يذكره كغيره من أحداث زمن التعتير. إنما ما ظلّ عالقاً في ذهني أن سرتْ في ذلك الوقت إشاعات متناقضة عن أنه تحشّر بطالبة في صفّه، وروى البعض الأخر أنه ضربها عندما أصرّت عليه أن يغنّي لها، وبل قيل أيضاً أنه غضب عندما سخرت منه فشدّ شعرها الطويل ورماها إلى الأرض.

بقي السرّ غامضاً لديّ حتى الزمن الحاضر حين إعترف كمال لأول مرة في سهرة عائلية صاخبة، بحضور زوجته وأولاده وفي حالة من المرح، أن الست أمينه طردته لأنه شكّل فريقاً من البنات والصبيان اتفقوا أن يمثّلوا دور الزوج والزوجة فتقاسموا أدوار الوظائف المنزلية، وتطوّرت المسرحية إلى تمثيل دور النوم معاً، وكان هذا هو الخبر الذي وصل مبالغاً به إلى الست أمينة فاتخذتْ الإجراءات السريعة قبل أن يعرف أهل الطلبة حقيقة ما يحدث في المدرسة.

هنا أعترف أنا أيضاً أن ازمة علاقتي باخي ربما بدأتْ بسبب شعبيته بين البنات وغيرتي منه على ما أظن. يطيب لأخي أن يسمع هذا الكلام، وفي الواقع أنني تفاجأت بتصريحي بعد هذا الزمن الطويل وأمام عدد كبير من أفراد العائلة بمن فيهم زوجتي. كانت حقاً برهة عابرة من برهات محاسبة الذات ويجب أن تكون قد اقتضتْ مني جرأة نادرة حتى التهوّر فقد كنت أعتبر في السابق ان مشكلتي معه نشأت لأنه لم يكن يسمع كلمتي كما أوصتنا أمي.

وحين لامني فيما بعد انني سبب عدم متابعته الدراسه بحجة أن تعاملي معه تراوح بين الإهمال والقسوة، أنكرتُ ذلك وإن إعترفتُ أن علاقتي به في الطفولة كانت علاقة أبوة أكثر منها علاقة أخوة. ويبدو أنه أدرك بحدسه انني أشعر بالذنب لعدم معرفتي كيف التعامل معه فاستفاد في فرص مناسبة من توجيه هذه التهمة لي في حضوري وليس في غيابي. وغالباً ما أَسْتَخِفُّ بكلامه وأعتبره نوعاً من المزاح فلا أجيبه على تهمته الخطيرة، ولكنني أجد نفسي أحياناً ميّالاً لمجابهته فأنكر ما ينسبه إليّ وأتهمه بدوري أنه غير قادر على الإعتراف بأخطائه وطيشه فيلومني بدل أن يلوم نفسه. وأضيف إمعاناً برشّ الملح على الجرح أنه يستطيع ان يتهمني بما شاء إذا كان ذلك يريحه نفسياً. عند هذا الحد الموجع، أُريح يدي على كتفه ويريح يده على كتفي أو أقبّل خده ويقبّل خدي ويشرب كأسي أو أشرب كأسه.

هنا خطر لي أن هناك أكثر من حلقة مفقودة في تذكّري للأحداث وأنني أتصرّف كطائر يتنقّل من غصن إلى غصن لا لسبب سوى حب التنقّل، وأفكّر بيني وبين نفسي أنه بعد ان طُرد كمال من مدرسة الست أمينة، أقنعتُ مستر أوليفر أن يقبله هو أيضاً في الميتم. وكان فرحي عظيماً أنه وافق دون تحفظ في الوقت الذي لم أكن أتوقّع قبوله فأنضم أخي إلى مدرستي في رأس المتن. وزاد من فرحي أنه حصل في السنة الأولى على علامات جيدة فاستبشرتُ خيراً، ولكنه ما لبث أن عاد إلى تقاليده القديمة فرسب في السنة الثانية واستلم إنذاراً بأنه سيُطرد من المدرسة إن لم يتحسّن. ولم يتحسّن مفضّلاً اللهو والإنشغال بالنشاطات الحزبية وبتأليف فرقة غنائية فتدنّت علاماته بقدر ما ارتفعتْ أسهم شعبيته بين الطلبة. وفي نهاية السنة طُرد من المدرسة التي لم يكن يحبها على أي حال فسرّ أنه سيعود إلى بيروت نهائياً.

وعدنا معاً في بداية الصيف فبحثتُ أنا عن عمل كعادتي، بينما شرد هو في شوارع بيروت وتولّع بحضور أفلام سينمائية. وكان أن عِدْتُ مرة إلى البيت من الشغل فوجدته عند زاوية زقاق يتفرّع عن شارع جان دارك «يطقّ حنكاً» مع بنت الجيران. تجاهلته متابعاً طريقي، ولما عاد إلى البيت بعد الغروب، ولم تكن أمي قد عادت من شغلها ، «أطعمته قتلة» لم يكن يتوقّعها ولم أتوقّع أنا أيضاً ان تكون بتلك القسوة. خرج من البيت غاضباً وأختفى عن الانظار وطال غيابه فقلت لنفسي يجب ان أجده وأعيده قبل ان تحضر أمي. بحثت عنه

في الأماكن التي يتردّد عليها وكرّرت محاولاتي دون جدوى إلى أن خطر لي أنه يجب أن يكون مختبئاً في أحد مداخل الأبنية المجاورة بحيث يستطيع أن يراقبني، فجرّبتُ حظي إلى أن وجدته نائماً في أسفل درج بناية أسد رستم. وكي لا أوقظه حملته على ظهري وعدت إلى البيت، فما أن وصلتُ حتى قفز عن ظهري ضاحكاً وساخراً مني. خدعني بانه كان يتظاهر بالنوم ولم يكن لديّ ما أفعله سوى ان شاركته الضحك والسخرية من نفسي مستغرباً أن هذا الطفل الصغير يستطيع أن يلعب بي «شكر بكر» رغم إدعائي معرفة طبائع الناس.

تكرّرت حكايات أخي كمال ذلك الصيف، ومما لا أزال أذكره جيداً حتى الوقت الحاضر ان جارة متقدمة في السن كانت تسكن مع زوجها العجوز قرب بيت جابر في زقاق تحوّل بعد سنوات إلى شارع يتفرّع عن الحمراء ويؤدي إلى الخروبة ومستشفى خالدي، ويجب أن يكون البيت قريباً من الموقع الذي أقيم فيه فندق نابوليون. ويؤسفني أن زالت معالم ذلك الزقاق الأولى وكثيراً ما أحاول إسترجاعها بالتمشي هناك كلما سنحت لي الفرصة. ومهما تكرّرت محاولات الإستكشاف ما تزال هناك في نهاية القرن معالم تعود للزمن الماضي. وبتتبّعها اهتديتُ مؤخراً إلى البيت المتواضع القديم الذي كانت تسكنه عائلة أبو جان، صياد السمك المشهور، وأتساءل ما مصير إبنته إيلين.

وكادت هذه التداعيات أن تنسيني أن تلك المرأة المتقدمة بالسن التي كان منزلها يقابل منزل عائلة جابر اعتادتْ ان تطلب من أخي كمال ان يقطف لها ثمرات تينة كبيرة أمام بيتها لقاء أكواز قليلة ترسلها معه للعائلة. ولم يكن من الغريب أن تولّع بهذه المهمة فكان يتسلّق شجرة التين في لمحة خاطفة مزوَّداً بسلة صغيرة ومعقيلة تجتذب الأغصان الطرية البعيدة. ولم يزعج المرأة أنه كان يأخذ وقته أكثر من اللازم إلى أن لاحظتْ أنه كان يلتهم أفضل الثمرات بدلاً من أن يضعها في السلة. طبعاً، تضايقتْ من ذلك فنادته مراراً قائلة له أن صوته جميل وطلبت منه أن يغنّي فيما يقطف الثمر. ويبدو أنه فهم مقصدها فقال أن صوته مبحوح وتابع مهمته متجاهلاً طلبها. عندئذ، وقد تأكّدت أنه لن يستجب لطلبها، أصرّتْ عليه أن يهبط حالاً ليترك بعض الثمرات الناضجة حتى اليوم التالي.

واقترب موسم افتتاح المدارس تلك السنة فبدأتُ أعدّ نفسي لمتابعة دراستي في الكلية العامة أو القسم الاستعدادي من الجامعة الأميركية، وفرحنا بشكل خاص أن مدير مدرسة السيدة في شارع المكحول قبل دخول أخي كمال مجاناً بواسطة قوية. وعملاً بوصية أمي صرفتُ معه بعض الوقت ونصحته ان يكفّ عن الولدنة وأن يجتهد في دروسه فهذه فرصته الأخيرة وإلا ستضطرّ أمي ان تبعثه للشغل ليتعلم مهنة يعتاش منها في المستقبل. ويبدو ان نصائحي وتهديدات أمي فشلت فقد طردته الادارة لكثرة تغيّبه عن المدرسة.

تلك كانت القشّة التي قصفتْ ظهر البعير، فصمّمتْ أمي أنها ستخسر إبنها ما لم تجد له مهنة يتعلّمها ويعتاش منها في المستقبل. وصدف ان جان إبن أم منيف هو أيضاً ترك المدرسة وبدأ يعمل مساعد خياط في خان أنطون بك قرب سوق الجوخ وشارع الطويلة فأرسلته معه للعمل عند روبير دميانوس. وكان من الغريب أن أخي واظب على عمله

بدءاً من الصباح الباكر حتى المساء. ومما إكتشفه في الأيام الأولى ان معلمه عضو نشيط في الحزب القومي على خلاف أخيه رامز الذي كان ينتمي للحزب الشيوعي ويتهم معلميّ الخياطة باستخدام الأطفال بدلاً من تعليمهم أصول المهنة.

في تلك الأيام وجد أخي في جارنا عبد الطقوش صديقاً دون أن يراه في الواقع وجهاً لوجه بسب وجود حائط مرتفع يفصل بين الملجأ الذي كنا ما نزال نسكنه والغرفة التي كان يعيش فيها عبد منفرداً لا يغادرها لأنه كان، كما تردّد في الحي، مصاباً بمرض السل. لم يعرف كمال عن هذا المرض سوى أنه خطير، ولم يهمّه الأمر فكل ما كان يحبه كالتعلّق بالترامواي كان الناس يسمّونه خطيراً. بل أصبح يُقبل على الخطورة دون مهابة. ولأنه سمع كلاماً عن خطورة الحزب القومي قرر الانضمام إليه وتعلّم في السنة الأولى من معلمه مبادىء الحزب القومي كما تعلّم فن الخياطة.

وزاد من تعلّقه بصداقة عبد الطقوش أنه هو أيضاً كان يجيد الغناء فجرت بينهما من بعيد شبه مباراة في فن الغناء. وكان أن غنّى عبد يوماً:

يا اوتوموبيل يا جميل ما أحلاك

من ورا صاحبك انا راكباك

فأحب كمال الأغنية كثيراً وأخذ يرافقه وكاد الصوتان يلتحمان في صوت وإداء واحد. وبعد فترة إستراحة طلب عبد من كمال أن يغني شيئاً مما يحب فارتفع صوته ببيت من العتابا:

طِلْعَتْ شمسنا من الشرق حمراي

يا راس رموحنا من الدم حمراي

وتِسوي من الموالي ألف حمراي

ومية محجّله وخضرة دياب

وأجابه عبد بأغنية أخرى كرّر لازمتها مراراً:

يا ماريا يا مسوسحة القبطان والبحرية

فردّ عليه كمال عند أول فرصة:

أوف يا بو الزلف، عيني يا موليا

لاطلع لراس الجبل وإشرف على الوادي

وبقول يا مرحبا نسّم هوا بلادي

ويا ربي يطوف النهر

وْيعَمْعَم الوادي

لعمل زنودي جسر

وبْقطِّعك ليَّ

وبمرور الوقت، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر، تعلّما أغاني بعضهما البعض وتبادلا الأدوار حتى أصبح بمقدور كل منهما أن يقلّد صديقه وينتحل شخصيته. ثم يضحكان دون أن يلتقيا وجهاً لوجه.

خطر لي انني ركّزت اهتمامي على بعض الرفاق من جيلي أو ممن يكبرونني وأهملت البعض الأخر. قلتُ كان يجب أن أهتم بصديقي روكز شمالي الذي كان يعاني كثيراً من قسوة الشتاء البارد لقلة التدفئة في الصفوف وغرف النوم، وما اذكره عنه بشكل خاص ان قدميه كانا يتورّمان في فصل الشتاء بحيث لا يعد قادراً على إستعمال حذائه، وكان يؤلمني أن أسمع صراخه المتتالي في ممرات الصفوف لشدة الوجع الذي يعاني منه.

وزاد من معاناة البرد أن إدارة المدرسة فرضت علينا تقاليد صارمة إقتضت ان ننهض من النوم في الساعة الخامسة صباحاً ونغتسل بالماء البارد باعتباره تدبيراً صحياً كما كان يتردّد على لسان المستر أوليفر الذي قيل أنه هو نفسه إعتاد النهوض قبل الجميع ليستحمّ بالاستلقاء في حوض يملأه له زميلنا نجيب غرزالدين بالماء البارد. ومما كان يصرّ عليه مستر أوليفر أن ننام بالبيجامات دون ثيابنا الداخلية، وكثيراً ما كان يتفقّدنا للتأكد من هذا الأمر بعد الساعة التاسعة ليلاً، وهي موعد نومنا. كانت هذه مواعيد صارمة لا حياد عنها كمواعيد الصفوف والدراسة والعمل حتى أصبح الإحساس بالوقت جزءاً من طقوس حياتنا، الأمر الذي ما يزال يلازمني حتى اليوم.

ومما عمّق من صداقتنا أننا نزلنا إلى بيروت معاً عند انتهاء السنة الدراسية فأعطاني عنوان منزل أهله في الأشرفية، ملحاً أن أزوره بين وقت وآخر. وفعلاً زرته بعد أيام لأتفاجأ بوجود أبيه وأمه فصُعِقتُ أنه لم يكن يتيماً كما كان يدعّي في المدرسة وهذا شرط من شروط قبوله. ولحظ إندهاشي فأخذني جانباً ليخبرني أن والده عاطل عن العمل ويعاني من أمراض خطيرة تهدّد حياته بسبب إدمانه على شرب العرق منذ شبابه الباكر، وزاد من سوء وضعه الصحي أن الأطباء وأفراد العائلة فشلوا في إقناعه بالتوقف عن الشرب.

وحين تعرّفتُ إليه كان قد عاش مرحاً لسنوات عديدة أكثر بكثير مما توّقع له الطبيب لظنه أنه كان يستخف بالحياة وقواعدها. هذا ما فهمته مما أخبرني روكز عندما دعاني لقضاء نهاية الإسبوع معهم حيث يصطافون في قرية ريفون. هناك قضيتُ يومين بين أسعد أيام حياتي إذ أعادتني إلى مرح الطفولة في الكفرون وأفصحتُ عن سروري لتشابه إسميّ القريتين كما لو كان الإسم والمُسمّى شيء واحد. ومما علق في ذاكرتي من تلك الرحلة صورة شجرة جوز ضخمة عند مدخل منزلهم تشبه إلى حدّ بعيد شجرة جوز قرب منزل خالتي نظيرة في قرية مشتى التحتاني.

أمضيت نهاية الإسبوع تلك كما لو كانت لحظة قصيرة من الزمن، فاقترحتُ على روكز في برهة إستولت علينا روح المغامرة أن نستيقظ باكراً صباح اليوم التالي ونعبر مشياً على الأقدام الوادي السحيق الذي يفصل بين ريفون وضهور الشوير على القمة المقابلة، فقد خطر لي ان سكان القريتين لا بدّ ـ لعدم وجود طريق سالكة بينهما ـ أنهم تخيّلوا أنفسهم يعبرون إلى بعضهما البعض فوق جسر

الغطيطة الكثيفة التي كثيراً ما تجتاح أودية المنطقة الساحرة محمولة على أجنحة هواء البحر. لهذا، كما أظنّ، رحّب روكز بالفكرة فنهضنا باكراً قبل شروق الشمس من وراء جبل صنين وغادرنا ريفون بعد أن زوّدتنا أمه بعروس لبنة طازجة.

هبطنا إلى الوادي الجنوبي الذي تشرف عليه ريفون قفزاً من جلّ إلى آخر وتتبّعنا بين وقت وآخر دروباً شبه سالكة يستعملها الرعاة والفلاحون للوصول إلى أملاكهم النائية إلى أن وصلنا إلى مجرى نهر جاف عبرناه إلى الجانب الأخر حيث صادفنا فجأة رجلاً استغرب وجودنا في تلك المنطقة المنعزلة فحدّثناه باقتضاب عن مغامرتنا وفهمنا منه أنه يعمل مشرفاً على أملاك الدير دون أن يحدّد لنا إسمه، وقد لفت نظرنا بشكل خاص مستودع لمحاصيل من مختلف الخضار والفاكهة. وأصّر أن يقدّم لنا بعض التفاح والعنب فطال الحديث بيننا في أمور الحياة وعلاقته بالدير الذي تبيّن لنا أنه يملك مساحات شاسعة من الحقول تبرّع بها أصحابها جيلاً بعد آخر في أزمنة المصائب علّ الله يجنّبهم الأمراض ويكفل لهم مكاناً في جنته الأبدية.

وبدا لنا أن الرجل كان مستوحداً رغم كثرة أعماله لأنه كان يصرّ على بقائنا إلا أن ضيق الوقت فرض علينا أن نتابع رحلتنا فسلكنا ممراً ضيقاً على جانب تلة منخفضة حتى وجدنا أنفسنا نشرف على مجموعة قليلة من المنازل المتواضعة التي تحتضن الصخور والأشجار فقال روكز عندما أشرفنا على ملتقى واديين، على ما ظن، اننا في ضيعة «بوميزان». هناك، فجأة، هبت رياحُ مصحوبة بغيوم كثيفة مظلمة وبدا أن المطر قد يتساقط بغزارة في أي برهة.

ركضنا باتجاه أقرب منزل وقرعنا الباب بقوة فسمعنا صوت إمرأة تنادي بشيء من الجزع زوجها الذي يعمل في حقل قريب تستدعيه إلى البيت حالاً. وانتظرنا بتخوّف من هبوب العاصفة في أي برهة دون أن تفتح لنا الباب بانتظار زوجها، ولحسن حظنا أنه لم يتأخر في قدومه فرحّب بنا، وما أن دخلنا المنزل حتى إنقصفت شجرة الزنزلخت عند مدخله، تماماً حيث كنا نقف قبل دقيقة. وكما فعل المشرف على أملاك الدير من قبل، إستقبلنا الرجل وإمرأته بحفاوة وقدمّا لنا الفاكهة دون تساؤل مَنْ نحن ومن أين جئنا وإلى أين ننطلق؟

انتظرنا بعض الوقت إلى أن عبرتْ الغيوم الكثيفة المكان وتوقّف المطر فجأة كما بدأ فشكرنا المرأة ورجلها، وعدنا نتسلق الجبل باتجاه زغرين، وشرين، وعين التفاحة والصرفد ومنها أكملنا التسلق إلى تلة يقع عليها عرزال أنطون سعاده بحيث يواجه جبل صنين ويشرف على البحر. لم يفصح لي روكز عن مشاعره لوجوده في هذا المكان، ولكنني شعرتُ شخصياً برهبة استولت على نفسي فقد صدف أن صدرت في ذلك الحين مذكّرة توقيف بحق سعاده بعد عودته من المنفى عندما جرت له استقبالات شعبية فاجأت الحكومة بضخامتها وتنظيمها.

وتناسينا الموضوع لنتحدث مطولاً بأمور أخرى عابرة ذكّرتني بصديق مشترك في الميتم لا أستطيع أن أذكر إسمه. كنا قد لحظنا قبل أشهر من مغادرة رأس المتن أن صديقنا يزداد بمرور الوقت إكتئاباً وإنطواء على ذاته حتى أنه أصبح يتجنّبنا بقدر ما يستطيع. لم يرد روكز أن يحرجه أكثر مما يجب فتركه وشأنه، أما أنا فكنت أحاول دائماً أن أخلق له المجال ليتكلّم معي علّه يخبرني ماذا يزعجه إلى هذا الحدّ.

أخبرته الكثير عن نفسي وأهلي وولعي بجبران وأشواقي حتى الجنون إلى البحر الذي حلّ محلّ النهر في حياتي بعد أن نزحنا من الكفرون إلى بيروت. وأدركت أن حديثي هذا معه قد ترك أثراً في نفسه فبدأ يتغلّب تدريجياً على صمته وإنزوائه داخل نفسه. وبل إعترف لي أنه يريد أن يهرب من الميتم وحلّفني ألا أذكر هذا لأحد. سألته: لماذا؟

قال: لم أعد أتحمّل.

سألت: ما المشكلة؟

أجاب بتردّد: لا أستطيع أن أخبرك.

- لماذا؟

- سرّ عليّ أن احتفظ به لنفسي.

رأيتُ الخوف في وجهه، فاقتنعتُ أن أتركه وشأنه. وبقي يتعذّب داخل نفسه، فلم أتمكّن إلا أن سألته يوماً: صارحني ما المشكلة؟ أريد أن اساعدك. أنتَ صديقي ومثل أخي.

قال: حلّ عني.

وإختفى في اليوم التالي. بحثنا عنه في كل مكان دون جدوى إلى أن أعاده ناطور الضيعة إلى المدرسة قائلاً أنه كان يحاول الهرب

فضبطه في الحقول قرب قرناضة. وتوقّعنا أن يعاقبه الرئيس، إلا أنه أخذه بدلاً من ذلك إلى مستودع الثياب المستعملة التي تُرسل عادة حسنةً من أميركا، وأعطاه رزمة منها.

ومع هذا لم يستعد صديقنا مرحه السابق، فعدتُ أُلّح عليه أن يخبرني لماذا يريد أن يهرب، وتفاجأت أنه قال لي دون تردّد وبشيء من الغضب: بسبب الرئيس.

سألتُ مستغرباً: بسبب الرئيس؟ حسبت أنك فخور بالعمل في مكتبه. مَنْ لا يتمّنى أن يعمل في مكتبه؟ هذا فخر كبير.

وقال بنفور: حلّ عني. لا أريدك أن تفتح الموضوع. خلص. حلّ. مثل الدبق.

وذكّرني حديثنا من حيث لا أدري بإشاعات كانت قد انتشرت لوقت حول إنحرافات الرئيس الجنسية، ولكنها توقّفت ولم يعد أحد يردّدها بعد ان ألقي موعظة قال فيها ان بعض الظن إثم. وقيل أن أعداء الانكليز هم الذين عملوا على نشر هذه الإشاعات ضد الرئيس لأسباب سياسية، وكان من المعروف عنه أنه صديق للجنرال سبيرز.

ومرة ثانية، حاول صديقنا الهرب بعد أيام. وبعد إسبوع من إختفائه، وفي وقت كان الجميع خلاله قد اقتنعوا أن محاولة الهرب نجحت أخيراً، أعاده عمّه أو خاله لم أعد أذكر إلى المدرسة وسلّمه إلى الرئيس طالباً منه ان يقبّل يده ويعتذر فامتثل ولم يعد يريد أن يتكلّم معي سوى بشكل عابر منذ ذلك الوقت.

عدتُ بعد غياب طويل إلى قرية رأس المتن عند نهاية القرن في محاولة لاستعادة ذكرياتي عنها في بدايات فتوتي. وخطر لي ان أخاطب أنيس فريحة وربما أدخل في نقاش معه من خلال إعادة قراءة كتابه النادر «القرية اللبنانية: حضارة في طريق الزوال»، خاصة أنه يقترب من الموت.

قلتُ له في سري: أخبرك أنني عدتُ إلى قراءة كتابك هذا لأضع نفسي في أجواء قريتك رأس المتن، وقد أصبحت قريتي الثانية أيضاً، علّني استعيد بعض ذكرياتي من خلال ما سردتَ لنا من حكايات ونوادر. أظن أنني أعرف ما معنى أنك ولدتَ في رأس المتن وسرّني أنك أحببتَ مدرستك الأولى في السراي، وهي مدرستي، التي تقول أنها كانت قديماً للأمراء اللمعين اللذين ما أن دالت دولتهم حتى ابتاعها أحد شيوخ الدروز، وبعد ذلك اشترتها إرسالية «الفرندز» لتنشيء فيها مدرسة ومركزاً لها، وهي التي أنشأت مدرسة برمانا العالية ومدرسة «الفرندز» في رام الله. وسرّني أن أقرأ سائر مؤلفاتك وأخاطبك في الوقت ذاته.

توقّفتُ ملياً حول ما قلته في كتابك «قبل أن أنسى» عن رئيس المدرسة دانيال أوليفر الذي كان يشير إليه أهل القرية بالخواجه، وسرّني أن اطلع على معلومات لم أكن اعرفها كقولك أنه كان اسكوتلندياً لا يُعرف الكثير عن نشأته الأولى سوى أن إمرأة اعدّته للعمل التبشيري وأرسلته إلى مراكش حيث عانى الكثير من البلاء والشقاء فرحل إلى بيروت ومنها إلى برمانا. لا أفهم عن أي بلاء وشقاء تتكلّم، وإن أتفق معك أنه كان رجلاً مهيباً يفرض شخصيته. وتذكر أنه كان أوتقراطياً عنيفاً، حتى أنه ذات صباح بارد دخل القاعة العامة وبيده سوط مصنوع من ذنب الفيل، وبعد الصلاة نادى بأسماء ثلاثة من كبار الطلبة وضربهم ضرباً مبرحاً جعل الاخرين يرتجفون خوفاً من غضبه. وهذه قصة كانت تروى عنه جيلاً بعد جيل من قبل الطلبة، ومسرحية يعيد تمثيلها كي لا يتلاشى الخوف من القلوب الضعيفة. لم يكن لديه سوط حين كنت أنا طالباً في المدرسة بين 1942 ـ 49، ولكنني أتفق معك يا معلم أنيس ان المستر أوليفر كان فعلاً رجلاً صارماً ويتصرّف كما لوكان ملكاً غير متوّج في القرية وجوارها. وهذا ما جعلني أميل إلى تصديق ما سمعت عنه، فالرجل لم يكن يخشى احداً. ثم أن الناس يخافون الفتن ويفضّلون الصمت ويطلبون من الله تعالى السترة والعفو. لذلك لا أستغرب أنك لم تقل شيئاً حول هذا الأمر.

أتساءل هل سمعتَ مثل هذه الإشاعات وتجنّبتَ الخوض في أوحالها؟ لنغيّر الموضوع الآن. أعجبني قولك ان الرابية التي تقع عليها مدرستنا في وسط رأس المتن هي من أجمل روابي لبنان، ويبدو انك حزنتَ كما حزنتُ عندما أُغلقتْ المدرسة واشتراها نجيب صالحة الذي كان قد تعلّم فيها يتيماً كما تعلّمتُ، ثم احتلها مسلحون أثناء الحرب الأهلية الثانية، ولدى انسحابهم منها نسفوا بالديناميت الجزء الأثري التاريخي المتبقي من زمن الأمراء. أعرف ان الأمر عزّ عليك يا إستاذ أنيس كما عزّ علينا نحن الذين تعلّمنا فيها ولعبنا في باحاتها وندرك أهميتها، وأصارحك أنني لم أكن ممن رنّموا ترانيمها الدينية كما فعلت أنتَ وهذا حق من حقوقك. إنما لا أوافق ان نزعة التخريب والتدمير نزعة عربية. في مجتمعنا، ككل مجتمع، صراع بين نزعة التخريب والبناء، وتتغير طبيعة الصراع بتغير الأحوال والعلاقات.

وعزّ عليّ جداً ما سمعته من رضا أنك اضطررت عن يأس لبيع منزل العائلة في رأس المتن الذي كنتَ تظن انك ستقضي فيه أيامك الأخيرة وأنت الذي كثيراً ما ردّدتَ مثلاً محلياً يقول، «البيت أول مقتنى وآخر مبيع». ويؤسفني أن شحّ نظرك وخفّ سمعك، ولكنني من ناحية أخرى شعرتُ بالاعتزاز أن أم رضا كانت تصرّ أن تتجوّل بك في شوارع جان دارك والحمرا وعبد العزيز والمقدسي، وتُدخلك الجامعة لتجلس تحت الخروبة القديمة وتصغي لأصوات الموج. مثلك أحب رأس بيروت ورأس المتن والإصغاء لهدير الأمواج. كذلك تخوّفتَ لمصير حضارة القرى المهدّدة بالزوال. وإنني من خلال دمار المدرسة استعيد الزمن القديم كما لو أعيشه الآن من جديد وهذا ما أقوم به في زمن إستكشاف بيروت.

إن ولعك باسماء القرى والاساطير والأمثال وقريتك بالذات هو ولعي أيضاً. قرأت لك «حضارة في طريق الزوال» و«إسمع يا رضا». حزنتُ انك تكّلمتَ عن قريتك رأس المتن دون ان تحفل كثيراً بتسميتها في أغلبية أجزاء الكتاب. تسميها في الأغلب القرية اللبنانية. اريد ان أقول لك انني اكتشفتُ تشابهاً كبيراً بينها وبين قرية الكفرون في سوريا. ومما يثير تساؤلاتي أننا لأسباب لا أفهمها جيداً تقبّلنا تقسيم الأمة كيانات متنازعة بعد أن خلقتْ الأنظمة والطبقات الحاكمة أجواءً تسوّغ الإختلاف وتعمّق الفجوات فتحوّل الشعب إلى شعوب تظن أنها تنتمي لحضارات غير حضارتها وتخرج من فلكها لتدور في أفلاك أخرى. بصراحة، انا لست ممن يولعون بهذه الحدود والهويات المفتعلة المتناحرة وأنفر منها فأراها زيفاً في الوعي، وجروحاً في جسد الوطن، وسبباً أساسياً في إستمرار التخلّف ومعايشة الضعف والظلم والاستباحة فلا نستطيع الدفا ع عن حقوقنا. تُرى هل يغيب عنك أن هذا سراً من أسرار هلاكنا؟

أعود للقول انك تجنّبتَ في غالبية حديثك عن قريتك تسمية رأس المتن باسمها الواقعي وقدّمتها بإسمها المجرد على صينية من الورق بوصفها قرية لبنانية ولم تشر إليها بإسمها الجميل والحقيقي سوى في صفحتين على ما أذكر. صحيح أن هناك اشياء كثيرة مشتركة بين القرى، وأشرتُ شخصياً إلى ان هناك تشابهاً كبيراً بين رأس المتن والكفرون، ولكن لكل قرية اسمها وخصائصها ونكهتها الفريدة، وترغب هي ان تناديها باسمها فهي ليستْ أية إمرأة بل حبيبة قبل كل شيء. وكما تعرف جيداً لا شك عندي أن الأم ليس أمرأة فحسب ككل أم أخرى. كل كائن هو كائن آخر، ولكنه بحاجة لأن يكون كائناً متفرّدًا في الوقت ذاته. ومن غريب الصدف انك في حديثك عن قريتك تتحدّث عن شخص حقيقي اسمه مخول، وأنا باستقلال عنك تحدّثتُ في رواياتي عن شخص إسمه أيضاً مخول في قرية الكفرون. كان هناك حقاً رجل في الكفرون يُعرف بهذا الاسم، فلم أغيّر اسمه أو اتجنّبه.

تقول لإبنك، «اسمع يا رضا... انت ساكن الآن في رأس بيروت. وقديماً كان رأس بيروت جميلاً فشنّعه الناس. وكان هادئاً وادعاً لطيفاً فأفسد رونقه الناس، ولكنك ستتذكره رغم شناعته ورغم قبحه ورغم فساده. هو بيتك الأول». هذا تماماً ما أشعر به مع فارق بسيط هو أن رأس بيروت بيتي أو بالأحرى ملجأي الثاني. وهناك، من غير أهلها، كما قال لي رضا مَنْ شنّعوا إسم رأس المتن حين قتلوا عشرات من أهلها خلال الحرب الأهلية الثانية لمجرد أنهم ينتمون لطائفة أخرى. لا شك عزّ عليك كثيراً وعزّ على مختلف عائلاتها، ولكن مهما كان هي قريتك التي عشتها وأحببتها وتحنّ إليها في موتك كما في حياتك، لا شكّ عندي.

الموت كان بين أقدم ما ذكَرْتَه عن رأس المتن، ولم تتمكّن حتى اللحظة الأخيرة أن تنساه. كيف يمكن أن ننسى بكاء الأم لدى سماع خبر موت زوجها أو إبنها؟ تقول انك في طفولتك لم ترَ ميتاً مسجىً على فراشه. هذا ما رأيته أناُ في طفولتي الباكرة في الكفرون. كان ولداً يزيدني سنتين في العمر وكنت أعرفه جيداً، واسمه رفعت ابن ميغال الذي أراه شخصية طريفة. ما تزال صورته راسخة في ذهني وهو مسجىّ على فراش الموت وقد كتّفوه حتى في موته.

والبحر الذي «له أول وليس له آخر» لا يمكن أن ننساه مهما اضمحلّتْ الذاكرة، وسنظل نغنّي إليه: «يا بحر هدّي الموج، فيك حبابنا». وكما انك تحتفظ بأسماء بونجم وبو سليمان وبو علي يوسف في قريتك رأس المتن، فأنا أيضاً أطرب وأعتزلدى سماع أسماء جميلة تسكن ذاكرتي ومنها بو صفا وبوسمعان وبومنيف وبو وليد وبوعلي حيدر وبو نديم وبو نصري وبو عزيز وبو طنوس العدلا وبو فهيم في الكفرون. وتقول ان الاعياد في زمنك السابق كانت أكثر بهجة ولذة مما عليه في زمن ابنك رضا لان كل يوم في زمنه هو عيد ولأن جيله لم يذق الحرمان كما ذاقه جيلك. هذا تماماً ما قاله لي ابو صفا في ضيعتي. وكان العيد في زمنك زلابية وعوّمات، وهذا ما كان عليه ايضاً في قريتنا.

العيد في زمن آبائنا وأجدادنا كان ترقباً وانتظاراً،

أما في زمننا فعيدٌ يتلو عيداً دون فسحة من الزمن،

وما أن نجد فسحة ضيقة حتى نملأها بعيد آخر

فأصبح لكل فرد عيده الخاص.

ثم خلقنا أعياداً للمناسبات من كل نوع.

للقرى أعيادها قديماً وحديثاً، بما فيها رأس المتن والكفرون حيث تسجد الاشجار لله، ونكرّر أسماء نجهل أصولها كمار جريس والخضر والبعل وأدونيس وتموز ومار الياس والبسترينة التي هي كما أوضحتَ أنتَ اسم آلهة قديمة قبل المسيحية. وأتمنى مع الوقت أن يصبح لنا عيد إنانة وجلقامش فيعلو شأن الحب والبحث عن معنى في زمن الموت الذي يتحوّل مع الوقت من موت فردي إلى موت جماعي، ومن موت يُفرض علينا إلى موت نختاره نحن بارادتنا لنأكدّ على حقنا بالحياة. وكما في الأمس القريب والبعيد، تحتفل القرى بقدوم الربيع على أنه عيد القيامة وانتصار الحياة على الموت كما أنشد الشاعر العظيم بدر شاكر السياب في جيكور وسط غابات النخيل عند شط العرب في جنوب العراق وخليل حاوي في الشوير وغسان كنفاني الذي حلم أن يحلم بالموت في قرية فلسطينية تولد من رحم موتها كما مئات القرى المندثرة دون رجاء.

وفي نهاية المطاف، استوقفني في كتابك حديثُك عن عيد مار جريس. حقاً أنه تاج الأعياد وخاتمة مهرجانات الربيع. اتفق معك أنه يوم الاقبال على التنعم بالحياة،

واحتفال بالتحرّر من البؤس والهمّ.

وربما أهم من كل ذلك في نظري

انه عيد الصبايا والشباب والصبا والتصابي،

وانه مهرجان الفتوة.

وأخشى معك ان يزيل التاريخ هالة التقديس التي تحيط بهامته.

واضح أنك تحب أن يظلّ مار جريس بطلاً وسيماً

ممتطياً حصاناً ابيض

ويطعن تنيناً عظيماً مخيفاً.

وتحب ان يظلّ مار جريس قديساً غامضاً

يخوض البحار كل سنة في أواخر نيسان

فيثير الغيوم الكثيفة ويسوقها إلى أعالي الجبال

ويأتي وسط زخة مطر.

هذا ما كانه البعل كما أظن.

وطالما نتحدث عن الآلهة، أخبرك أنه سرّني جداً حديثك عن محلة اسمها بدونس في المقلب الجنوبي من رأس المتن المشرفة على وادي حمانا والتي تشرح أن معناها بيت أدونيس حيث كان له خلوة يأوي إليها ليتمتع بجمال الوادي. وتقول أن هناك محلة أخرى اسمها القاموعة التي يسكنها الهصهيص وهو، كما تتفضّل، غول له حوافر الخيل ورأس الأسد وجسم البقر، ويخطف الأولاد. فما هي العلاقة، ترى، بين محلة بدونس ومحلة القاموعة التي يسكنها الغول؟ وما علاقتهما معاً بالمقلب الجنوبي حيث تقع مزرعة دار صيّا الذي تقول أنه اسم آرامي أصيل قديم؟ وبين ما همّني في حديثك الشيّق أنه أوحى لي بأن الهصهيص قد يكون إسماً آخر للتنين وأن مار جريس ربما يكون أحد تجليات أدونيس، خاصة وأن هذا الوادي بالذات هو كما تقول الحكايات الشعبية مقرّ التنين الذي ما يزال يهدّد بيروت بين وقت وآخر.

وهمّني أيضاً وأيضاً قولك أن التلة التي تقع عليها رأس المتن ومدرسة السراي «قمة من قمم الله في هذا الجبل المقدس»، وأن الله أراد ان تكون هذه القمة «شبه جزيرة معزولة عن الناس، وفي منأى عن صخب الحياة. سحرها في عزلتها»، وأنه يحدّ شبه الجزيرة ـ اي ضيعة راس المتن ـ شمالاً «واد عميق مهيب يُعرف بوادي الجعماني. أستغرب هذا الإسم كما إستغربتَه، ولكن لنقبل ما يقبله أهل القرية صحيحاً كان أو خطأً، فهم يعتقدون أنهم وفدوا إلى هذه القمة من اليمن السعيد حيث عاش أجدادهم من بني جعمان.

لنعد إلى قرية رأس المتن. يبدو أننا تهنا في دروب متشعبة في وقت شحّ به النظر وخفّ السمع. تقول ان العتابا موسيقى رأس المتن

وان المعنّى نغم الجبال، وأن الأمثال دليل السلوك فأحببتُ منها في هذه القرية الساحرة بشكل خاص: فلاح مكفي سلطان مخفي، واضربْ سيفاً بتتأمّر (اي تصبح أميراً)، واطعمْ خبزاً بتتمشيخ (اي تصبح شيخاً). وتشرح لنا، يا معلم أنيس، ان الناس في تقاليد الدروز يُصنّفون إلى جاهل وجويد. والجاهل هو مَنْ يسلك طريق الحاجات الجسدية فيأكل ما شاء ويشرب ما شاء ويحب التمتع بالحياة. أما الجويد فهو على العكس مَنْ يسلك طريق القداسة الروحية التي توصل إلى السماء فيكون عفيف اللسان لا يشتم ولا يغتاب ولا يسرف في القول ولا يظن السوء فيردّد في حديثه «ما بحط بذمتي»، و«يعلم الله». وهو لا يأكل ويشرب إلا حلالاً وما كسبته يده من خيرات الأرض، ولباسه بعيد عن الترف الذي يراه حراماً.

لنغيّر الموضوع قليلاً ولننظر إلي وجه الجهل. أعجبني بشكل خاص كلامك عن المَنْشَر الذي تُعرّفه بأنه نوع من المباراة في السباب والشتائم وهو ما نزال نجيده، فنقول نشر عرضه على صنوبر بيروت، وفي الكفرون نشر عرضه على رأس الجبل. في كل ضيعة وقرية وبلدة عربية تتطاير الشتائم تماماً كما وصفتَ ما تمّ بين إمرأتين في رأس

المتن. صعدت إحداهما إلى سطح بيتها لتنشر عرض جارتها قائلة: «تفو على صباحك يا لعينة، يا قفا السرماية»، فأجابتها الأخرى، «تفو على شرفك يا فاجرة، يا ساقطة، يا عاهرة، يا قفا المداس»، وتكيل لها الأولى بنفس المكيال، «يلعن أصلك وفصلك، كل عمركم سراقيّن حرامية بتبيعوا شرفكم ببصلة».

وليس غريباً تبادل الشتائم من فوق السطوح أو أي مكان مرتفع كي يسمع الجميع. بدلاً من السطوح وصنوبر بيروت، أصبح العرب مؤخراً يتبادلون الشتائم عبر الفضائيات بعد أن تبادلوها لمدة في الإذاعات والصحف والمجلات. ولعلك تذكر أن المقاتلين في الحرب الأهلية اللبنانية الأخيرة كانوا يطلقون الشتائم كالرصاص أو أكثر. والقصد لم يكن التغلّب على الآخر بل مجرد فشة خلق وكفى الله المؤمنين راحة البال وطيب الاقامة وسط الدمار.

هكذا ينتهي بنا المطاف. ترى ينتهي المطاف؟ هل هناك بداية ونهاية؟ بدأتْ حياتك وحياتي في ضيعة ولكنها قد لا تنتهي حيث بدأت. أنتَ وأنا نعتقد أنه ليس أجمل من نهاية الضيعة. أردت أنت أن تنعم نفسك بالراحة التي لا تجدها في المدينة فقلت لإبنك رضا أن نفسك سئمتْ المدينة وعافتْ مدنيّتها، وأنها تتوق إلى الراحة في قرية طفولتك.

ولكن روحك لم تعد لتستقرّ في القرية. بُعْتَ منزلك فيها في زمن اليأس. وأنا لم يكن لي منزل وأرض في قريتي فاشتريت أرضاً وما أزال أحلم بالعودة، وأخاف ألا أعود فأموت في الغربة كما ماتت أمي. ترى أحلامنا مجرد سراب نطارده إلى أن نفقد القدرة على المطاردة والتذكّر؟

ولمجرد التشاور أخبرك أنه كان لدي صديق في مدرسة رأس المتن يمشي في نومه، وصدف أن رأيته في ليلة مقمرة يمشي في نومه على حافة شرفة مرتفعة. راقبته، دون أن أجرأ على الكلام والتحرك، يتسلّق الشرفة، يمشى على حافتها محاولاً ان يوازن نفسه، فحبستُ أنفاسي خوفاً عليه من السقوط. واستنتجتُ، ربما لأول مرة في حياتي، أننا أكثر جرأة في النوم منا في اليقظة.

وقرأت يا إستاذ أنيس كتابك «ملاحم وأساطير من الأدب السامي» فنمتْ لمخيلتي أجنحة حلّقتْ بي أفقاً بعد آخر في مناخ من الغموض المبهم في حياتنا. تمتّعتُ به دون أن أبحث عن إيضاحات واستفسارات ضحلة. رأيتُ مع جلقامش تخوماً لم أعرفها من قبل واخترقتُ ظلمات تخفي أسرارها حتى عن نفسها فأضناني التعب.

وكان أن خلعتْ الحقائق رداءها،

كما في قديم الزمان،

وكشفتْ عن صدرها فأغوتني كما تغوي امرأة صبياً،

ودخلتْ كلماتها إلى قلبي فاكتسبتُ قوة لا مثيل لها،

ورأيتُ أحلاماً لم أفهمها.

مراراً حلّقتُ فوق الغابات

فأطلق الصيادون عليّ نيران بنادقهم،

وكان أن قلتُ لنفسي أنني سقطتُ في ساحة القتال

دون أن أرهب الموت،

ثم حلمتُ أن هبّتْ عواصف وأرعدتْ السماء وتكاثفتْ الغيوم

فانهمر المطر إلى أن اشرقتْ الشمس

ونبتتْ وردةٌ وحيدة في حقل من الرماد.

وتمنّيتُ لو نظرتْ عشتار إليّ

علهّا تعجب بي كما أعجبتُ بها فتمنحني ثمارها

قبل نضوجها.

غير أن الحياة التي ننشدها نادراً ما نجدها. ولستُ مقتنعاً أن ثلثيْ جلقامش إله وثلثه الباقي إنسان، وإلا كيف ألقي الرعب في قلوب الناس ولم يترك إبناً لأمه وأبيه أو فتاتاً لحبيبها، ولماذا قيل أن الآلهة قدّرتْ للناس الموت واستأثرتْ هي بالحياة فخاف الانسان الموت وراح يجوب القفار دون علامات للطريق السويّ بحثاً عن الخلود؟ وهكذا وجدتني أكتب في دفتري وأنا أسمع أخباراً عن معارك وحروب تتوالد كالهيدرا كلما هوى رأسٌ من رؤوسها:

قد يأتي ظلامٌ دامسٌ،

ولكن لا بدّ أن تُشرق الشمس

وكثيراً، بل دائماً، ما يفتك الموت بالبشر دون حساب

إنما هناك ولادة مقابلَ كلّ موت

وليس من الضروري أن نحصل على الحياة الخالدة،

فالمهم أن ننجز ما يدوم لأجيال تأتي بعدنا

جيلاً بعد جيل

وهناك في عرفي ثالوث مقدس: البحر، والمطر، والأرض.

من الأمواج كانت الجبال،

ومن الانهر الأودية

ومن المطر نباتات الأرض

وما الانسان سوى نبتة

من نباتات الأرض حين تعانق السماء.

ستنتصر يا بعل ويكون لك سلطانك

حين تُرسل السحبَ إلى السماء

ويهبط المطر إلى الأرض في حينه.

من أجل هذا كان البعل،

فتفرّد عن سائر الآلهة،

وهو الذي حطّم رأس التنين

وقتل الهيدرا ذات الرؤوس السبع.

ما أعظم رياحك وأمطارك

هكذا إنقضت الأيام، والأشهر،

ثم تلتها سنون وعقود،

وبل قرون من الزمن قرناً بعد قرن

وأنت مصدر السحب التي ترسل أمطارها

رسالة حبّ للأرض

لينعم الانسان بالحياة الأبدية.

هل من حياة أبدية؟
ترى ما جواب جلقامش
بعد أن طال بحثه عن سر الخلود
والفناء؟
ما أجمل الرحيل
في سبيل اكتشاف الذات !

***

ما أن هطل المطر رسالةً حب من السحب إلى الأرض حتى تدفقّتْ الذكريات تلقائياً من عالم خفيّ داخل نفسي. منها ما كان غامضاً كتلك الزيارة غير المتوقّعة التي قام بها عمي كريم إلى رأس المتن. كنا ننتظر قدوم الباص من بيروت كعادتنا عند الغروب حين شاهدته يهبط منها فاضطربتُ لعلّه يحمل لي خبراً سيئاً يتعلّق بأهلي. جمدتُ في مكاني للوهلة الأولى مستغرباً قدومه، ثم إندفعتُ فجأة إليه وإندفع اليّ وعانقني وعانقته، ولاحظ تواً أنني إضطربتُ وبدا عليّ الخوف فطمأنني أن كل شيء على ما يرام وأنه حضر فقط ليراني ويطلع على أحوالي. لم أطمئن كلياً، ولكن كان لا بد أن أعبّر عن فرحي بقدومه فعرّفته إلى المدرسة وعدد من الطلبة والأساتذة والاداريين.

يجب أن يكون عمي كريم قد لاحظ إرتباكي بمسألة إقامته تلك الليلة، فأفهمني أن السيد حمود مكارم رحّب به في بيته على أن يعود معه في اليوم التالي إلى بيروت. بل إستغربتُ كيف نسيتُ أن عمي سيد مَنْ يعرف كيف يدبّر شؤونه ويجد حلاً من تحت الأرض لأية مشكلة تعترضه. وكثيراً ما سمعته يفتخر بأنه إبن أبيه الذي تمكّن أن يصبح مختاراً لحارة زُريق في الكفرون مع أنه كان أمياً لا يعرف كيف يوقّع إسمه، وأنه هو شخصياً كان بين أوائل أولاد الضيعة الذين جاءوا إلي بيروت بحثاً عن عمل وهو دون الرابعة عشر من عمره. حتى الآن لا أصدّق قوله أنه قطع المسافة بين الكفرون والدبوسة عند الحدود السورية اللبنانية مشياً على أقدامه، وثم ركب من الدبوسة إلى طرابلس في طنبر فوق كومة من التبن، ونام في خان المنية قبل أن يتابع رحلته في اليوم التالي إلى بيروت.

أما كيف دبّر شؤونه في بيروت فتلك حكاية طريفة طالما رواها بتفنن ووجهه يطفح بالثقة العارمة، ومفادها أن جدي أوصاه أن يقصد حال وصوله بيروت إبناء حنا حداد الذي بدأ مشروع معمل الحرير في المشتى حيث تعرّف إليه وعمل معه لوقت طويل، وأصله من عيدمون في عكار، ووالدته من بيت اليازجي من مرمريتا. ومن المعلومات الأخرى التي زوّده بها جدي أن حنا حداد عنده ثلاثة أولاد هم يوسف وهو طبيب صحة، وجورج وهو حكيم إسنان، وبشور وهو محام لامع وكان متزوجاً لسيدة من عائلة تابت اسمها الست هنريات.

عمل عمي كريم بنصيحة جدي حرفياً فكان أول ما فعله لدى وصوله إلى بيروت أن قصد منزل الدكتور جورج حداد قرب ساحة الدباس وسوق النجارين حيث تباع توابيت دفن الموتى. لم يجده هناك وقيل له أنه في عيادته فتوجّه إلى باب إدريس وتمكّن أن يهتدي إلى المكان دون صعوبة. وما أن شاهده الدكتور جورج حتى عرفه وسأله: انت إبن سليم؟ مش هيك؟

ـ أنا كريم إبن سليم، ما غيره.

أجابه بثقة وطلب منه دون مقدمات أن يدبّر له عملاً، فما كان من الدكتور جورج إلا أن إتصل حالاً بمطانيوس الشمالي، صاحب مطعم عند باب إدريس، وشرح له القصة فطلب أن يرسله إليه. وقصده تواً في تلك اللحظة، فما كان من مطانيوس الشمالي إلا أن وعده خيراً وطلب منه ان يستبدل الشروال الذي يلبسه ببنطلون. وهذا ما فعله دون تردّد قبل البدء بالعمل مع الحلونجيه في المطعم. وعند هذا الحد من روايته، كان عمي يضيف أنه أكثر في تلك الأيام من إلتهام «الكرواسون» منذ الإسبوع الأول فإزداد وزنه وأضطر أن يشتري بنطلوناً آخر. وكان معلمه يعطيه ست ليرات في الشهر. ولم ينسَ في مثل هذه المناسبات أن يخبرنا أيضاً ما شاهده من غارات جوية ضد الديغوليين والانكليز على الكازخانا عندما كان ينام على السطح ويراقب الطائرات تتابع غاراتها إلى أن انتصر ديغول.

ولا أنسى ان انتشرتْ إشاعة يوماً عن أن عمي كريم أخذ فتاة من قرطبا مشواراً إلى الرملة البيضاء، وهناك هاجمه عدد من ال«زعران» ارادوا انتزاعها منه، فلما واجههم ضربوه وقيل أن وجهه ظلّ متورّماً لأيام عديدة. وبقدر ما نفى عمي هذه الإشاعة جملة وتفصيلاً، إتسعت انتشاراً حتى وصلت إلى الضيعة مما سبّب له بعض الإحراج. أما ما سبّب له إحراجاً كبيراً فكان خوفه أن يصل

الخبر إلى بهية، فقصدها إلى الصنائع وجلس ساعات خارج المستوصف الذي كانت تعمل فيه بعد ان عادت من حلب مع معمر باشي، وتعوّدت على حياة الفخفخة. وحين سنحت له الفرصة للكلام معها بصراحة عن أنه ما يزال يحبها وأن والده مستعد للحضور إلى بيروت ليطلب له يدها، اكتفت بالابتسام وقالت: انت ابن عمي اللزم ومثل أخي.

لم يقتنع بهذه الحجة فتابع مسعاه لظنه أنها ترفضه لأنها تطمح بالزواج من شاب ذات مكانته اجتماعية مرموقة مثل مروان الرشيد الذي كان يجمع بين العلم والوظيفة العالية والانتساب إلى عائلة بارزة. وكما خاف عليها عمي كريم عندما نزحت إلى بيروت، أصبح يخاف عليها من عشيقها الجديد الذي سمع أنه كان يزورها في ساقية الجنزير. ومراراً أراد أن يحذرها منه وينبّهها إلى أن أمه التي يعرفها جيداً إمرأة قوية و«شايفه حالها أكثر من اللازم» ولن تسمح لإبنها الوحيد بالزواج منها.

طبعاً هذه أمور أصبح عمي يفضّل عدم الخوض فيها، وإذا ما سألته عنها، كان يعرف كيف يغيّر موضوع الحديث. من ذلك أنه حدث أن سألته مرة إن كان يتابع مشكلة علاقة بهية بمروان الرشيد، فتجاهل سؤالي متابعاً حديثاً كنا قد بدأناه عن زيارته الأخيرة للضيعة فقال أنه زار مقبرة مار الياس ويفكّر بضرورة بناء قبر يليق بعائلتنا. ولمعرفته باهتماماتي تحدّث عن تنافس العائلات في ضخامة قبورها، وردّد بيتاً من الزجل ينسبه الناس لعبود حداد:

يا بلوطة مار الياس يا ما طويتِ ناس وناس.

وأكدّت إن هذا البيت من الشعر الشعبي لا يقلّ أهمية عن بيت الشعر المشهور للمعري:

خفّفْ الوطأ فاديم الأرض ليس سوى من هذه الأجساد وربما لأننا كنا نتحدّث عن الموت، فاتحني عمي بمسألة كانت تشغل باله حين وضع ذراعه حول كتفي وقال لي وقد لمحت حيرة في عينيه أنني صرت شاباً وأصبح من الضروري ان اتحمّل مسؤلياتي تجاه العائلة.

وصمتَ لبرهة فقلتُ لنفسي لا بدّ أن هناك خبراً سيئاً جاء من أجله إلى رأس المتن

ولا يعرف كيف يصارحني به. هنا خفتُ حقاً وبدأتُ أعدّ نفسي لمواجهة حقيقة مرة علّني أملك من الجرأة والقدرة على تمالك أعصابي فقلتُ: عمي شو القصة؟

ـ أية قصة؟

ـ خبّرني الحقيقة.

ـ شو عم تحكي؟

ـ شو جابك لراس المتن؟

هنا أدرك خطورة الأمر فقال دون تردّد: شوف يا نادر أنت صرت يخزي العين شب، ولازم كون صريح معك. أمك يا إبن خيي مريضة من شهر. معها وجع ظهر آليم لا يحتمل.

ـ شو صار؟

سألته مضطرباً فعاد يضع كفّه على كتفي قائلاً: لا تخف. أخذتها لعند الحكيم وفحصها، وقال عندها «ديسك»، ووصف لها مشدّ وحبوب ضد الوجع ونصحها بالاستراحة والنوم على ظهرها. شوف يا عمي، ما حدا في العيلة تعلّم، ونشكر ألله ماشي حالنا. أنا بعتقد إنك لازم تترك المدرسة وتفتّش عن شغل. لازم تريّح أمك. تعبتْ كتير في حياتها، وصار وقت ترتاح. عملِتْ واجباتها، وصار وقت تعمل واجباتك. إنت الإبن البكر في العائلة. وإذا طوّل الوجع معها، لازم نجيب إختك من المدرسة لتهتم فيها.

صعقني الخبر ولم أجد ما أقوله وإن عرفتُ جيداً ماذا يجب أن أفعل. ذهبت تواً إلى رئيس المدرسة وشرحت له ما حدث لأمي وبلّغته أنني ساترك المدرسة لأبحث عن شغل فرفض رفضاً باتاً. قال لي انني طالب جيد ويجب أن أكمل دراستي وأعطاني فرصة إسبوع أزور فيها أمي، وطمأنني أن الدسك أمر عادي وانها ستصحّ قريباً وتستأنف شغلها دون مشاكل.

وشعرت لبرهة عابرة بالذنب أنني كدت أصدّق ما سمعت من إشاعات مغرضة عنه، ولكن وضع أمي هو الذي أخذ يشغل فكري ويستولي على أحاسيسي وقد بدا لي أنني ساكون مضطراً أن أسلك طريقاً أخرى في حياتي. حلمتُ حتى ذلك الوقت أن أكمل دراستي الثانوية والجامعية إذا ما سمحت الظروف وأن أصبح كاتباً مرموقاً، وها انا أخاف أن تتبخّر أحلامي فجأة وربما لن يبقى منها سوى طعم الملح. وغضبتُ أنني انشغل بشؤوني الخاصة.

كان الطقس ماطراً وبارداً في صباح اليوم التالي عندما إندفعتُ نحو الباص وجلستُ قرب عمي في المقعد الأمامي، وتعمّد أبو شفيق

أن يطمئنني داعياً لأمي بالشفاء العاجل بإذن الله وأخبرني على مسمع بقية الركاب قصصاً عن أشخاص من أقاربه ومعارفه أصابهم الدسك وتمكّنوا بالراحة والمسكنات من التغلّب عليه وإستئناف حياتهم العادية. لم يكن لي شكٌّ بصحة ما قال، ولكنني لم أتخلّص من إضطرابي وشعرت أن الباص بطيء جداً إلى أن وصلنا إلى كراج المتن قرب ساحة الدباس فتركني عمي قائلاً أنه تأخّر عن عمله وتوجّهتُ أنا إلى محطة الترامواي في ساحة البرج. وخلال وقت قصير هبطتُ عند محطة بوابة الجامعة الأميركية الرئيسية وكان المطر يهطل غزيراً فركضت إلى شارع جاندارك، وفي برهة وجيزة وجدت نفسي أعانق أمي.

تفاجأتْ بقدومي وأرادتْ دون مقدمات ان تعرف لماذا تركتُ المدرسة فادركتُ حالاً أنها لم تكن تعرف شيئاً عن مشروع عمي كريم. قلت لها بحزم أنني قلق على وضعها الصحي فقرّرتُ أن أترك المدرسة لأبحث عن عمل أعيل فيه العائلة وأريدها أن تخفّف من أتعابها من الآن فصاعداً. ولم يفتني أن أقول لها أنها جاهدتْ طويلاً من أجلنا وجاء وقتي لردّ الجميل لها.

هنا أومأت لي أن أقترب منها فانحنيتُ وقبّلت يدها فيما تقبّل جبهتي. سألتني ما العمل الذي يمكن أن أقوم به، فشرحتُ لها أنني أحب صناعة النجارة وانني قرأت الكثير عنها في مجلة تصدر باللغة الانكليزية واستطيع خلال وقت قصير أن يكون لي محلي الخاص الفريد من نوعه. ولم أعد أذكر كيف وبأية لغة فسّرتُ لها أن مهنة النجارة صناعة وفنّ في الوقت ذاته وأنني أستطيع أن أبدع فيها كما في الكتابة.

وتبيّن لي أنها فهمتْ قصدي. ضحكتْ، إنما ليس باستهزاء، وطمأنتني أن صحتها بتحسن مستمر وأنها وفرّت بعض المال وليست مضطرة للعودة إلى العمل في الوقت الحاضر، وذكرت أن بهية تزورها دائماً ووعدتْ أن تقدّم لها كل ما تحتاج إليه.

دعيتُ لها بالصحة والعافية وقلتُ أنني مصمّم مهما كان الأمر على البحث عن عمل وسيكون بامكاني أن أتدبر شؤوني مثل بقية الشباب من جيلي فأنا لست أفضل من ألوف الصبية الذين يعملون ويجاهدون في خدمة عائلاتهم. وبل ذكرتُ لها أسماء عدد من هؤلاء الذين تعرفهم جيداً.

حافظتْ على هدوئها، ليس لأنها خافت أن تقوم بأية حركة قد تسبّب لها وجعاً في ظهرها، بل لأنها حرصتْ أن تُفهمني أموراً غابت عن بالي. قالت أنها لم تعرف أن عمي ذهب إلى المدرسة ولا توافق على ما فعل، وشرحتْ لي أن الست وداد سبق أن نصحتها هي أيضاً ان تسحبني من المدرسة كي أعيل العائلة فرفضتْ النصيحة، وأكملتْ ما معناه، كما فهمتُ منها، ان الفقراء تعلّموا ألا يحلموا أحلاماً كبيرة ولكنها على عكس ذلك ستضحي بكل شيء كي أتمسّك بطموحاتي. وزيادة في توضيح مقاصدها أفهمتني بصريح العبارة وبحزم أنها لا تريد لأولادها ان يتعذّبوا كما تعذّبتْ هي وكما تعذّب زوجها من قبل.

صمتتْ. طال صمتها. وبهدوء طلبتْ أن أصغي لها جيداً. أصغيتُ. قالت لي، «إسمع يا نادر. خليْك عاقل متل عادتك. بدي ياك ترجع للمدرسة»، فأجبتُها، «لازم فتّش عن شغل. صار وقت ترتاحي.»

مرة ثانية صمتتْ لبرهة قصيرة، تحركّتْ في فراشها، وقالت: إرجع للمدرسة يا إبني. إسمع كلمتي متل ما بقلك.

قلتُ: مش ممكن. ما بدي ترجعي للشغل. خلص. إشتغلتِ كفايه وصار لازم ترتاحي وبحزم سألتني: يعني ما بدك تسمع كلمتي؟

- كلمتك على راسي
- وشو ناطر؟
- خلّيني فكّر بالموضوع.
- بدي أياك ترجع اليوم للمدرسة. حضّر حالك قبل ما تطلع البوسطه لراس المتن.
- اليوم مش ممكن.
- ليش مش ممكن؟ أنا بعرف مواعيد البوسطه.

هنا نهضتْ من فراشها لتودّعني. لم أتحرّك من مكاني. رأيتها تمشي بهدوء خارج الملجأ ولم أكن أدري ما تريد أن تفعل. وقفتْ تحت المطر وأفهمتني بصريح العبارة أنها لن تدخل الا إذا عدت إلى المدرسة. لم أتحرّك من مكاني ولم تتحرّك من مكانها. رجوتها أن تدخل. لم تدخل إلى أن وعدتها بالعودة. هيّئت لي عروس لبنة مع زعتر وزوّدتني بالشنكليش وعلبة حلويات قبل أن أمضي عائداً إلى المدرسة.

خرجتُ تحت المطر الغزير، ركبتُ الترامواي إلى ساحة الدباس وكراج المتن فشاهدني العم أبو شفيق كما لو كان ينتظرني بلهفة. جلست دون كلام في مقعد خلفي وتركتُ دموعي تنهمر بصمت، ولم تكن الغيوم داخل نفسي أقل كثافة منها في الخارج.

اسمي ندى وأنا إمرأة مطلّقة تخليّتُ عن زوجي بعد أن كبر أولادنا الثلاث وأسّسوا عائلاتهم، ولي أخ أكبر مني إسمه نادر وأخ ثانٍ هو أصغرنا سناً إسمه كمال، وتوفّيت امي منذ سنوات قليلة وما تزال جزءاً من وجودنا. وكانت حنونة مثل الندى مع الأزهار. أبي مات قبل أن أعرفه وكان له عندنا صورة شمسية واحدة لا غير انتزعناها من هويته وأردنا تكبيرها وتعليقها على الحائط مقابل مدخل البيت، ولكنها ضاعت لا أدري كيف ولم نعد نعثر عليها أبداً. أخي نادر ما زال يحتفظ له بصورة له داخل نفسه ويصفه لنا كما لو كان ما يزال حاضراً أمامنا، أما أنا وكمال فلم نعد نذكر كيف كان شكله.

منذ مدة أخبرني أخي نادر أنه يكتب رواية مستمدة من تجارب العائلة في بيروت بعد أن نزحنا إليها من قرية الكفرون في سوريا وطلب لي ان أحكي له أهم ما أذكره من تجربتي الخاصة. أنا لا أعرف أن أكتب مثل أخي، ولكنه ألّح عليّ وطلب ان أكتب بلغتي الخاصة كما أشعر ودون رقابة كل ما يخطر في بالي عن تلك الأيام. وأنا مسرورة في الواقع أنه طلب مني أن أقوم بهذه المهمة فانا أتقدّم في العمر وتفرّق أولادي كلاً في بلد، وأصبحتُ أعيش وحدي مع ذكريات الماضي التي تبكيني وتفرحني في الوقت ذاته. لا أحتاج للمال بقدر ما أحتاج للانشغال بعمل ما كي أتغلّب على وحدتي وهمومي وقلقي على أولادي. أخي نادر لا يريدني أن أقلق على أولادي كما لو كان الأمر بيدي. لو كان له أولاد لما طلب مني هذا الطلب. ومن ناحية أخرى يريدني أن أسجّل ذكرياتي عن الماضي. في الواقع أنني لا أريد أن أفكّر بالماضي وأتفق مع أخي كمال أنه لا فائدة من العودة إليه، وها هونادر يلحّ عليْ فاستجبتُ لطلبه بعد تردّد دام بعض الوقت. لا أستطيع أن أرفض له هذا الطلب. ولكن مَنْ أنا كي أكتب؟ ليتني تعلّمتُ مثل أخي. هو إنسان سعيد لأنه يكتب. ربما تحرّرني الكتابة من قلقي.

لا أذكر اية سنة تركنا الكفرون، وكم كان عمري حقاً، ومتى وصلنا إلى بيروت. كل ما أذكره في تلك الفترة أنني وجدت نفسي لأول مرة مع أمي وأخي نادر وأخي كمال، واننا نمنا لأيام من وصولنا عند بيت الست عزيزه وكان عندها بنتان وأربعة أولاد صبيان. حمّمتنا أمي وفرشت لنا على الأرض قرب المطبخ، وبعدها انتقلنا إلى قبو تحت الأرض. أخي يذكر أننا نمنا أول ما وصلنا في القبو. لا أعتقد. ولا أذكر كم من شهر عشنا مع امي قبل ان نذهب إلى الميتم. هل كان عمري 7 أو 8 سنوات أو 9 سنوات؟ لا ادري. أذكر ان أمي اخذتني يومها إلى بيت الست ماري سكر في أسفل شارع جان دارك حيث تطلّ شقتها على الجامعة الأميركية، وكان منظر الجامعة والبحر جميلاً جداً. قالتْ لي ماري سكّر أنها دبّرت لي قبولاً في ميتم ليا بركات في قرية عبيه، وهي قرية جميلة.

ومما أذكره جيداً أن الست ماري، وانا اتذكر اسمها حتى الوقت الحاضر لان أمي ظلت تجلب سيرتها بعد ما كبرنا. أرادتني أن أنظّف لها غرفة نومها قبل ان أمضي إلى المدرسة، فادخلتني إليها وأغلقت الباب. ولما بدأتُ أمسح تحت سريرها وجدت مصاري فراطه ـ نصاص وأرباع وعشرات وخمسات، وكانت أول مرة امسك مصاري بهذه الكثرة بيدي. فتحت الباب واعدتها إليها. قالت لي عفاك يا شاطره. تعالي نصلّي قبل ما تتركي للمدرسة. طلبتْ مني أن أغمّض عيني. وبعد الصلاة، ودّعت أمي وذهبت مع الدكتور سدرك حداد وزوجته إلى عبيه دون ان اراك يا أخي نادر أو أرى أخي كمال، ولا أذكر اذا كنتم قد تركتم في الوقت ذاته أو قبلي أو بعدي إلى الميتم في رأس المتن.

أخبرونا في المدرسة قصة ليّا بركات التي أسستّ الميتم. كانت بنت يتيمة مثلنا في عبيه، وصدف أن سيدة أميركية زارت المنطقة وشاهدت هذه البنت الصغيرة تحمل

جرة ماء على رأسها وسألت الناس عنها فتبنّتها وأخذتها معها إلى اميركا. ولما كبرت ليا بركات وتعلّمتْ، جمعتْ مصاري ورجعتْ إلى عبيه وفتحتْ الميتم في نفس العمارة التي بدأت فيها الجامعة الأميركية قبل ان يتم ّنقلها إلى بيروت. وكان شكل الميتم عبارة عن غرف عديدة في صف واحد فوق تلة ساحرة تشرف من علو شاهق على وادٍ عميق يا الله ما أجمله وحولها أشجار كثيرة وكبيرة وباسقة. بالمناسبة لا أعرف ما معنى باسقة، ولكن للكلمة إيقاع جميل. وكان يتبع هذا المبنى الخاص بالميتم بيت أهل طبيب الاسنان سدرك حداد الذي كان يسكن مع عائلته في بيروت مقابل حاووز الساعاتية، وكانت أمي تعمل عندهم في البيت والعيادة، وكم حزنتْ لما انتحر ابنهم يا حرام. لا أعرف لماذا انتحر. كان في بداية شبابه، وأذكر أنني خفت أنا وأمي على أمه لكثرة ما بكت وولولت عليه. اه، نسيت أن أسأل أخي نادر لماذا ينتحر الإنسان فهو متخصّص بعلم النفس الاجتماعي؟ لماذا إنتحر؟ لا أفهم. كان أهله أغنياء ووفرّوا له كل ما يريد من نِعَم الأرض وخيراتها. ونحن تمسّكنا بالحياة رغم أنها حرمتنا من كل شيء. لا، لم تحرمنا أمي من المحبة.

كان الدكتور سدرك حداد يأتي إلى عبيه مع عائلته في سيارتهم الخاصة كل نهاية اسبوع لزيارة ابيه وأمه. وحسب ما أذكر ان أهله

كانوا يطلبون مني عادة ان اذهب إلى بيتهم كل نهار سبت لأعجن لهم واساعدهم في دقّ الكبة، وكانت أمه تجلس على بعد مترين تعلّمني ماذا يجب ان أعمل. كنت اتعب كثيراً من دقّ اللحمة في الجرن. كان جرناً كبيراً لا يمكن زحزحته. ولما كنت أعود للميتم، كانت المعلمة تسألني «شو طعموك يا بنتي؟» فاقول لها، «مجدرة أو بيضة مسلوقة». وتسألني ما طعموك كبة؟ اقول لا، لأنني حقاً لا ذكر أنهم أطعموني أية مرة كبة نية أو مشوية أو مقلية. وكانت رائحتها تظل في أنفي حتى أعود إلى الميتم.

أعود لأسألُ نفسي لماذا يريدني أخي أن أتذكرّ هذه الأمور المؤلمة: العجين ودق الكبة لبيت اهل الدكتور سدرك حداد كل يوم سبت. أيام تتذكر ولا تنعاد. يا أخي نادر، يمكن كمال على حق. لماذا نريد أن نتذكّر كل هذه المآسي؟ أنا أعتقد أنه ليس هناك ما هو أصعب من الفقر. سجن لا جدران له يمنع على الإنسان الحياة. كيف يولد الإنسان ويعيش ويموت في سجن الفقر؟ لا أعرف. وأنا مؤمنة لا أستطيع، على عكس أخي، أن أسأل الله لماذا كل هذا الفقر في العالم وهل كان من الضروري أن يطرد آدم وحواء من الجنة؟ أمي تقول يجب أن نحترم مشيئة الله مهما كانت. صح، لا شك، فيجب أن يكون له سببه الذي لا نفهمه نحن البشر. أنا أقول أن الطاعة سيدة القيم. أخي نادر يقول ان التمرد هو سيد القيم. وأحياناً سمعته يقول أن الإبداع هو سيد القيم. وأخبرني مرة وأنا أحدّثه عن قلقي على أولادي ربما السعادة هي سيدة القيم. ولكن أين موقع القناعة عند البشر؟ لا يبدو أن أحداً يقنع بما لديه.

اذكر يا أخي انني كتبت لك مرة رسالة إلى عنوانك في رأس المتن أعايدك بعيد الميلاد. أخذتُ عنوانك من الدكتور سدرك حداد، وانت جاوبتني على الرسالة وضمن الرسالة وجدتُ ورقة كتبتَ عليها عيد ميلاد سعيد في أحرف انكليزية كبيرة ملونة أحمر وأخضر، ففرحتُ بها كثيراً كثيراً وصرت أفرجيها للبنات. وبالمناسبة كنا حوالي 15 بنت في الميتم، وقالت لي إحدى رفيقاتي يا الله شو بيكتب حلو أخوك نادر. وباستلام رسالتك يا أخي شعرتُ أنني غصن في شجرة باسقة. مرة ثانية أسألك ما معنى باسقة؟

لماذا لا تجيبني؟ المهم أعجبتني رسالتك وإحتفظتُ بها طول الوقت إلى ان تركت الميتم وعدت إلى البيت مع أمي، ولا أذكر بعد ذلك ما حصل. أعتقد أنني عدت إلى بيروت لأكون مع أمي لما صار ظهرها يوجعها. لا أعرف أية سنة حدث ذلك. قالوا لي أمك مريضة لا تقدر تخدم نفسها، وأظن كان لي خمس سنوات في الميتم دون ان اراكم وأرى أمي. وبعودتي شعرت أنني لست غصناً مقطوعاً من شجرة ذابلة. إنني غصن في شجرة خضراء. لي أم وأخوة وعمات وخالات وأقرباء. إنني غصن في شجرة، وشجرتي جزء من غابة. ما أجمل أن نكون جزء من غابة!

رجعتُ عند أمي، وكان أخي كمال بدأ يشتغل عند خياط هو وجان ديوب، وأنتَ يا أخي نادر كنت بعدك في ميتم رأس المتن. وبعد ان استعادت أمي صحتها، قلت لها أحب ان أرجع إلى المدرسة مع صديقتي جوليات ديوب. كانت جوليات تذهب إلى مدرسة البنات الأميركية في زقاق البلاط على ما أظن. لا أعرف من دبّر لها واسطة للدخول في هذه المدرسة مجاناً. يمكن تكون الست أمينة المقدسي. ولم تجد أمي واسطة فقالت لي: لا اقدر ادفع مصاري للمدرسة. أقساطها غالية أكثر من قدرتي. أحسن تتعلمي الخياطة يا بنتي. الخياطة صنعة كويسة، ولما تكبري وتتزوجي تخيطي في بيتك وتربي أولادك، وهيك صار. تعبتْ روحي من الخياطة يا أخي، ولكنها مهنتي، والمهنة مصير للإنسان.

كان قد أصبح عمري في ذلك الوقت 13 سنة عندما تعرّفنا إلى امرأة درزية عندها محل خياطه داخل بيتها في راس شارع السادات. عرضت عليها أمي ان تعلّمني مهنة الخياطة فطلبت من أمي مصاري فوق طاقتها. قالت أمي لا استطيع ان ادفع هذا المبلغ، واشترطت الخياطة أن اشتغل في تنظيف البيت على أن تعلّمني، وكان بدها منا ستين ليرة فقط لا غير. تعلّمت عندها، وبعدها صرت اشتغل في محل خياطة في سوق الطويلة مع ناديا التي تزوّجت إبن مخلوطة. نسيت إسمه الأول ويمكن بعد دقيقة اتذكّره لأن إسمه على راس لساني. لازم تكون انت تتذكّر إسمه، وأكيد أخي كمال يذكره جيداً فقد عمل معه مدة ثم فتح محل خياطه جنبه تماماً في نفس البناية في شارع سوق الطويلة. آه، تذكّرت. إسمه حنا مخلوطة. أول ما تعرّفنا إليه كنا نضحك من إسمه الأخير. هل تذكر؟

وأذكر أن نوعية حياتنا تغيّرتْ للأفضل بعد ان انتقلنا إلى روضة جمعية نساء لبنان وسكنا فيها. في ذلك الوقت اشتغلتُ مدة في تربية اولاد هلن تبشراني التي كانت تسكن في شارع منصور جرداق في شقة تحت شقة عائلة قربان، وكانت هذه السيدة متزوجة من رجل أميركي يعمل للتابلين، وكان قد طلّق زوجته الأولى لأنها حبلتْ من غيره فتمكّن ان يحصل على ولديه ويجلبهم معه إلى بيروت واسمهما رتشرد ومارجي. كم أتمنى لو أعرف اين هما في أميركا. لا أعرف ماذا حدث لهما وأين أرضهما في هذا العالم الواسع؟ كذلك إشتغلت لمدة بالعناية بأولاد رجا سعيد حماده في بعقلين. كيف يتبدّل الزمن؟ قالوا لي أنه صار وزير في الحكومة اللبنانية هو أو أبوه، لا أعرف.

وأخبرك يا أخي نادر انني سمعت مرة أمي تقول للجيران انك عندما كنت تشتغل في بقالة السيد جميل قرب طلعة الداعوق، كنت تعطيها ما تتلقّاه من أجور فتعطيك ربع ليرة كل نهار نفقة للتنقل بالتراموي. وعرفتْ فيما بعد انك كنت توفّر هذه الأرباع كي تشتري بها كتب المدرسة في مطلع الخريف. ولا أدري إن كنت أخبرتك من قبل ان جارنا كرم مشعلاني ناداني يوماً من أيام الأعياد وأنا أمر أمام بيتهم واعطاني 25 ليرة طلب مني ان أعطيها لأمي عند مرضها بوجع الظهر دون أن أخبرها مَنْ أرسل إليها المال. حلّفني ألا أقول لأحد. هذه أول مرة أفشي هذا السر الذي بقي في ذاكرتي كل هذه السنوات. هل تعرف شيئاً عما حدث لعائلة المشعلاني؟

واذكر اننا لما إنتقلنا إلى مدرسة روضة جمعية نساء لبنان، كانت أمي مبسوطة للغاية لأنها ما عادت مضطرة تخدم ماري سكر ومدام شهلا ولا بيت قربان وبيت أشقر وبيت سدرك حداد. هل تذكر يا أخي أن أمي إشتغلتْ أيضاً عند بيت صائب سلام عندما كانوا يسكنون في شارع السادات فوق بيت الأشقر. نسيت إسم زوجته. يمكن الست تمام أو تميمة، لم أعد أذكر. وأنا كنت مسرورة لنفسي ولأمي لأنها يا أخي كما تعرف جيداً دفعت من نفسها وصحتها وكرامتها كثيراً لقاء واسطة إرسالنا أنت وأنا إلى المدرسة. تعبتْ كثيراً، وجاهدتْ جهاد الأبطال، ومهما قمتُ بواجباتي تجاهها بعد ما كبرتْ قبل وفاتها لا أشعر انني وفّيتها حقها. وأعرف جيداً أن هذا هو شعورك أنت يا أخي نادر وشعور أخي كمال. أحبتنا دون حدود ومهما فعلنا لا يمكن ان نردّ لها سوى جزء صغير من فضلها الكبير علينا. وما أزال اعتل همّها في مماتها كما في حياتها. أنكرتْ ذاتها كي نصبح بشراً. يا ليتني أستطيع محبة أولادي كما أحبتنا هي.

هناك قصة أعتقد أنك ستحبّها كثيراً. مما اتذكره كما لو يحدث في هذه الأيام أن امي اشترت مرة ثلاث دجاجات وصرنا نربّيها وانت كنت تركت رأس المتن وبدأت تدرس في الاستعدادية وصرت تسكن معنا في البيت في الروضة. وكانت أمي لما تبيض الدجاجة تقول هذه لنادر لانه يدرس ويتعب والبيضة الثانية لكمال، وتقول لي نحن انا وانتِ نسوان ناكل شيء تاني. أعرف أنك ضد التمييز وهذا يؤلم نفسك، ولكن لا أريدك أن تظنّ يا أخي انني كنت أزعل عندما كانت أمي تفضّلك أنتَ وأخي عليّ وعلى نفسها. كان التمييز بين الصبي والبنت شيء عادي في تلك الأيام وهو ما يزال قائماً في الواقع حتى الآن مثل نظام الكون وطلوع الشمس وغيابها وأيام الصحو وأيام المطر وأيام الفرح وأيام الحزن. ومرة ذبحتْ أمي دجاجة من الدجاجات الثلاث بمناسبة العيد، ورفضتَ انتَ يا أخي نادر أن تأكل منها لانك أطلقتَ عليها أسماً لم أعد أذكره. قِلْتَ لأمي حرام ما لي قلب آكل من لحمها.

أما أنا وأخي كمال فأكلنا حصتنا وحصتك. لا أعرف ماذا أكلتَ أنت ذلك اليوم.

أخي نادر، لا شك يصعب عليك ما أكتب عن الماضي كما أنه يصعب عليّ جداً جداً ولا ارى الآن حروف كلماتي من كثرة الدموع التي تنزل من عينيّ في هذه اللحظة. ولكن، الحمد لله دائماً، تربّينا تربية جيدة وطلعنا أولاد صالحين ومحبين واحسن حالة ممن عرفناهم وكانت أحوالهم شبيهة بأحوالنا. انا كنت مبسوطة كثير لما اجتمعت فيك واخي كمال بعد فراق طويل. وكنت دائماً أُرتّب ثيابكم واكويها لانك أصبحت تذهب إلى الجامعة، وأذكر جيداً أنك كنت تستيقظ باكراً كل يوم وتتمرّن فيما كنت أنا أحضّر لك ماء لتستحم وتذهب إلى الجامعة، وبعدها كنت اساعد امي في تنظيف المدرسة والإنتباه لأولاد الروضة، وأحياناً كانت عمتي دلال تأتي وتساعدنا عندما كانت تشتغل في مدرسة الأهلية عند مدام قرطاس.

قلت في كلامي «تستحم» لأنك ذكرت أمامي مرة أن كاتب مصري لا أعرف اسمه انتقد جبران لانه استعمل كلمة تحمّم بدلاً من إستحم. ولا أدري لماذا استعملتُ هنا كلمة «تستحم» بدل من كلمة «تتحمّم» التي هي كلمة أقرب إلى القلب وأجمل والنتيجة واحدة في نهاية الأمر. المهم الإنسان يتحمّم ويكون نظيفاً. أعرف ماذا سيكون جوابك: قواعد القواميس دائماً تفرض نفسها على قواعد القلب.

وأذكر مرة يا أخي نادر انك انت وأخي كمال صرتوا تتغالبوا وصارت أمي تصرخ عليكم، وما تركتوا بعضكم البعض حتى نزل دم من منخار اخي كمال. خفت انا وصرت ابكي، وتعجبت أنكم عدتم للعب معاً قرب غرفتنا كأن لم تحدث معركة دموية بينكم قبل دقائق قليلة. وأعرف بماذا تريد أن تذكرني الآن. أتذكّر جيداً ان أخي كمال، كي يتمكّن من التغلب عليك، تعلّم المصارعة، وأصبح يجيد لقطة المقصّ، وأصبح عندما يلقطك مقصّاً، ما كان يتركك حتى تصرخ من الوجع وتطلب العفو. يمكن العلم وحده لا يكفي، والإنسان بحاجة للقوة. شوف أميركا كيف مسيطرة على العالم بالقوة. لا يهمها أن تحبّها الشعوب. تريد بلدان العالم أن تطيعها وترضخ لإرادتها وتسلّمها مواردها. ويل للضعفاء من الأقوياء. الحقيقة لا وجود لها في هذه الدنيا. الحقيقة هي ما يراها الأقوياء. ليس هناك ما هو أقسى من الظلم يا أخي. ولكن كيف نحارب الأقوياء؟ أنا مؤمنة، على خلاف منك، ولكنني لا أكتفي بانتظار عدالة في عالم آخر. نريد عدالة هنا. أعرف هذا ما تريده وأوافق أنه ليس من حرية حقيقية في مجتمع غير عادل. ما يسمّونها حرية في أميركا هي حرية الأقوياء. عشت في

أميركا أكثر من ثلاثين سنة ولم أشاهد طيلة هذه المدة إنساناً واحداً من سكانها الأصليين. ماذا جرى لهم يا أخي؟ دفنوهم أحياء؟

ولا أنسى أبداً حادث السيارة الذي تعرّض له اخي كمال، وكيف اخذناه إلى مستشفى أوتيل ديه، لان مستشفى الجامعة الأميركية ما قبل معالجته من دون مصاري. بقي مدة في المستشفى وبعد أن خرج كنت أرافقه أنا لعند الدكتور لكي يغيّر له ضمادات الجرح. أخي يكفي الآن. أكيد امي كانت سعيدة جداً عندما عدنا وعشنا معها من جديد. ومرّة اشتريتَ أنتَ قماش حلو وقلت لي يا إختي خيّطي فسطان لأمك. وفاجأناها به فأحبته وبكتْ من الفرح وطلبتْ لنا التوفيق.

وأتصوّرك يا أخي نادر وأنت تضحك عندما تقرأ هذه الكلمات: هل تذكر يوم ذهبتَ إلى مدرسة الاستعدادية مستعجلاً ولبست فردتيّ كلسات مختلفتين واحدة بيضاء وواحدة سوداء، وكيف اكتشفت ذلك عندما ذهبت لحصة الرياضة؟ وأريد أن أخبرك أنني ما أزال أذكر جيداً كيف إشتغلت أنت وصديقك فاروق أبو الذهب مع العمال في حفر أقنية لمدّ كبلات التلفون الأُتومتيكي في الجامعة. وكنت فخوراً بعلاقتك الجيدة مع العمال. وأذكر جيداً اننا كنا نموت من الضحك حين تخبرنا كيف كنت تتناول الغذاء مع عامل ارمني أظن اسمه جوزيف كان يفضّل أكل الحمص والفول والبصل والفجل على أي طعام آخر.

وهل يمكن يا أخي كمال ان ننسى قصة رفيقتي في ميتم عبيه تريز عقيقي؟ لا تغيب عن بالي رغم مرور السنوات. كانت يتيمة الأم التي لم يدم على موتها سوى أشهر قليلة عندما تزوّج أبوها إمرأة جديدة لم تحبّها منذ البداية فارسلوها إلى ميتم ليّا بركات في عبيه. كانت أقرب التلميذات اليّ. أحببتها وأحبتني، وهي الوحيدة التي أخذت عنواني عندما تركت الميتم وافترقنا. كانت فتاة جميلة جداً. أعتقد أنك إندهشت بجمالها عندما جاءت يوماً إلى بيتنا هرباً من ابيها الذي ضربها لأنها رفضت أن تتزوّج رجلاً صديقاً له وفي عمره. وأذكر انك قلت لي يوماً أنك لا تفهم كيف يمكن لفتاة بذلك الجمال ان تتعرض لمثل تلك العذابات.

ولكن من منا لم يختبر آلاماً كآلامها يا أخي؟ لا بدّ أنك تتذكر، وقد أخبرتك ذلك مراراً، عندما أرادتني الست عزيزة أن أذهب صيفاً مع عائلة أخيها في عاليه للعناية باطفالهم. وأمي لم تكن تريدني ان أذهب ولكنها لم تتمكّن ان تمانع علناً. علّمتني أمي عندما وصلنا إلى ساحة البرج ان أتمسك بعمود التلفون وأبكي كي لا أفترق عنها وربما يتدخّل بعض الناس. عملتُ بنصيحتها. قاومتُ كثيراً ولكنهم جرّوني أخيراً إلى قلب السيارة وأخذوني معهم غصباً عني. لم ينفع بكائي وبكاء أمي. هذا هو نظام الكون. وبعد أيام تفاجأتُ أن أمي وصلت إلى عاليه وطلبت إستعادتي. ولمجيئها إلى عاليه قصة غريبة أظن أنك تعرفها. أخذت الترامواي من المنارة إلى فرن الشباك ومشت من هناك إلى عاليه لأنه لم يكن معها إجرة سيارة ذهاباً إياباً. ومانعتْ زوجة أخ الست عزيزة إعادتي مع أمي فبكيت وبكت أمي دون جدوى، ولكن ملامح وجهها تغيّرتْ فجأة. فاض بالغضب فانتشلتني بالقوة وأعادتني معها إلى بيروت. لا تدري كم كنتُ سعيدة عندما عدت إلى البيت ووجدتُ نفسي بينكم مرة ثانية.

أخي نادر، لا استطيع أن أخبرك أكثر مما أخبرتك. أرى غيمة في فضاء واسع، وأنها ستمطر لا شك دموعاً في أية لحظة. ها قد بدأتُ أتأثر باسلوبك في الكتابة.

***

هزّتني رواية أختي للتجارب التي مرّت فيها في تلك الأيام العصيبة، ومرّ وقت قبل أن أتمكّن من الاتصال بها خوفاً من أن أفقد قدرتي على تمالك أعصابي والسيطرة على عواطفي. بدلاً من ذلك وجدتني أكتب إلها لأُخبرها أن رسالتها، «تركتْ أثراً عميقاً في نفسي فضحكتُ مراراً حيث كان يجب أن أبكي، وبكيتُ حيث كان يجب أن أضحك. لا تسأليني كيف؟ لا أدري. تقولين أنك تحسدينني على أنني أجيد الكتابة ولا تجيدينها. إسمعي يا إختي يا ندى. حقيقة، تمنّيتُ بعد قراءة رسالتك لو أعرف كيف أكتب مثلك ببساطة. ربما أكثرتُ من العلم حتى أنني لم أعد أعرف لغة الحياة. لغة الكتابة لم تعد لغة الناس. بين الكتاب العرب والناس فجوات عميقة وواسعة، للأسف الشديد، وأخطر من هذا أننا لا نعرف كيف نتجاوز هذه المشكلة. أنتِ، في رسالتك، تجاوزتِ الفجوات. هذا إنجاز لم أتمكن منه.

«لستُ أسايرك فيما أقول ولكن لا أريد أن أتوقّف عند هذا الأمر. بين ما لفتَ نظري أن لديك قناعة بأن معرفتنا بمآسي الآخرين تخفّف من إحساسنا بمآساتنا شخصياً فنعايشها كغيرها من أمور الدنيا. هذا صحيح، وإن كنتُ أخاف أن نتعلّم الصبرَ على أوضاعنا لمجرد الإعتقاد أن المآسي أمر طبيعي. لبهية وعمي كريم، من ناحية أخرى، قناعة أن الإنسان لا يجوز أن يقارن نفسه بمن هم دونه، بل بمن يتقدّمون عليه إذا ما أراد أن تكون له طموحات يسعى لتحقيقها. لا أدري ما العلاقة بين قناعتك وقناعة بهية. إنما أرى من المهم أن

نغيّر الواقع بدل أن نستسلم إليه. المجابهة هي ما أقول به. أ نني أعرف ثمن المجابهة وكم تجرّ على الضعفاء من ويلات. آه، ما أغلى ثمن الحرية!»

توقّفتُ عن متابعة الرسالة فلم يكن من الواضح لي هل أنصحها كيف تسرد الأحداث التي عاشتها، فاتصلت بها هاتفياً. عبّرتُ عن إعجابي بما كتبته بلغتها الخاصة وأضفتُ أنني كنتُ أتمنى حقيقة لو أخبرتني مزيداً عن صديقتها تريز عقيقي، وأسفتُ أنها لم تخبرني شيئاً عن قصتها مع صديقتها ملكه التي كانت تعمل خادمة في منزل عائلة نعرفها في شارع السادات، وقد لفت نظري هذا التناقض بين إسمها ومهنتها في الحياة فأسأل أختي مازحاً: ملكه وصانعة؟ كيف؟

نضحك ثم ندرك أننا يجب أن نحزن. ولا أظن أن أختي ندى تذكر ما أريد أن أنساه أنا نفسي وأصمتُ عنه كما يصمت أخي عن الماضي. وألمحتُ إلى ما أنا وما أطمح إليه في هذه الحياة التي لا أسميّها الدنيا كما يسمّها الناس بتأثير من الديانات السماوية. وأخبرتها أيضاً في معرض الحديث كيف تجرأتُ مرة على مصارحة واعظ ديني بهذا الأمر فسألني، «وأنت كيف تسمّي الحياة؟»، فأجبته دون أن أفكّر بالعواقب التي لم أكن أدرك حجمها، «أسمّيها الحياة العليا فهي بداية المطاف ونهايته وليس لنا غيرها واستغرب أننا نستخفّ بها إلى هذا الحدّ». هنا قال لي الواعظ أنني أناقض نفسي بنفسي مذكّراً آياي بما كتبتُ في مناسبة أخرى عن أنني ولدتُ بعد كل موت.

وأوضحتْ أختي بانها فاتها ان تخبرني في رسالتها أموراً هامة أخرى وليس لها الوقت والقدرة على تسجيلها بشكل يرضيها ويرضيني. ذكرتْ أنها كانت من وقت إلى أخر تحلم بانها عادت فتاة صغيرة ووجدت نفسها في منزل لا تعرفه، وتكرّر الحلم نفسه مرات عديدة ولم تعرف معناه إلى أن عادتْ إلى الكفرون قبل سنتين وزارت صديقتها ناهية محفوظ في منزلها لتكتشف أنه المنزل عينه الذي كانت تحلم به، ولم تفهم كيف تطابق الحلم مع الواقع أو الواقع مع الحلم.

ثم ذكّرتني أنها حين كانت تشتغل في قسم الخياطة عند متجر جيكبسون في توليدو أوهايو، كانت لها زميلة تعتقد بالتقمُّص فكانت تتمنّى ان تولد في الحياة القادمة في عائلة غنية وتتعلّم مهنة غير مهنة الخياطة. وأمتدّ الحديث حول التقمّص فحكتْ العاملات في الخياطة الواحدة بعد الأخرى ماذا تريد لنفسها في حياة قادمة. قالت أختي ندى أنها تمنّتْ ان تتقمّص زهرة تنبت كل ربيع. ويبدو أن أمنيتها هذه أغضبتْ إحدى زميلاتها لسبب لم تفهمه، وكان ذلك أثناء حرب أميركا ضد العراق، إذ قالت لها، «أما انا فاتمنّي ان يكون لي كلب في الحياة القادمة وأخذه مشاوير ليبول على زهرتك».

صعقتْ ندى لهذه العدائية التي لم يكن من مبرّر لها حسب علمها حتى أنها لم تعرف بماذا تجيب زميلتها ووجدتْ نفسها تتجاهل الأمر لبرهة. وبل أزعجها حتى الزمن الحالي أنها سكتت عن هذه الإهانة. قلت لأختي ندى، مقاطعاً كلامها عندما أخبرتني بما حدث، كان يجب ان تقولي لها، «لا تنسي ان لكل زهرة اشواكها». وأجابتني بكلام أحزنني جداً فلم أنسه أبداً، «يا أخي كسروا شوكنا منذ صغرنا».

احترتُ ماذا أقول لها ولكنني لم أكن قادراً على قبول الأمر الواقع، وأدركتْ هي ما يجول في نفسي فقالت، «لم أستطع أن أهبط إلى مستواها. أحياناً لا أستطيع أن أفهم كل هذه العدائية عند بعض الناس هنا في هذا البلد. يستغربون أننا جئنا من الخارج ونجحنا أكثر مما نجحوا فيستاؤن منا».

هنا تذكّرتُ الشتائم التي وردت في كتاب أنيس فريحه فوعدتُ أختي آن ازوّدها بلائحة منها علّها تريد أن تستعملها في معاركها مع زميلتها في المستقبل.

وشعرتْ ندى أنها يجب أن تغيّرالموضوع فعادتْ إلى زمن بيروت القديم لتقول لي: أذكر يا أخي انني كنت مرة أمشي معك على الكورنيش، قرب الروشة، فسألْتني فجأة اذا كان لدي ورقة تريد أن تسجّل عليها فكرة خطرتْ لك في تلك البرهة وخفتَ أن تنساها ولم يكن معي ورقة للأسف فأخذتَ تبحث على جانب الطريق حتى وجدتَ قطعة كرتون صغيرة. أذكر انك انتشلتها من بين الغبار وكتبتَ عليها بخط كوفي، «هل دمعة في عين مثل نقطة ماء في ابريق؟». أظن هذا ما كتبته يا أخي وما أزال أذكر هذه العبارة بكل وضوح، فقلت لك، «ليتني كنت ورقة في يدك يا أخي تكتب عليها إحدى خواطرك فيصبح لحياتي معنى».

هل تذكر يا أخي هذا الحديث؟

لم أذكر ذلك بتاتاً ولكنني لم أستغرب أن يصدر عني مثل هذ الكلام في تلك الأيام. ثم كان بعد هذه المكالمة مع أختي ندى أن أخي

كمال قرأ رسالة اختي، وشاركته فحوى حديثي معها هاتفياً فتأثر جداً، وواجهني بعد صمت، «قلت لك كانت حياة تعتير ما بحب اتذكرها ولا بحب تكتب عنها، وإذا كتبت أرجوك لا تفرجيني عليها، مفهوم؟ لا أدري ماذا تحاول أن تفعل».

في تلك اللحظة رأيت وجهي شاطئاً فسيحاً ينتظر أن تجتاحه أمواج البحر في يوم عاصف، فأجبتُ أخي كمال: وأنا أيضاً لا أدري ماذا أحاول أن أفعل يا حبيب القلب. إنما أريد أن أسمعك مطلع قصيدة أيليا أبو ماضي المشهورة «لا أدري»:

جِئْتُ، لا أعلم من أينَ، ولكنّي أتيتُ

وَلَقَدْ أبصرتُ قُدّامي طريقاً فَمَشَيْتُ

وسَأبقى ماشياً إن شِئتُ هذا أَمْ أَبَيْتُ

وكان أن سمعتُ أخي كمال ينشد هذا المقطع بصوته الجميل وهو ما يزال مأخوذاً بأجواء الحلم الذي أَبْصَرتْه أختي ندى.

4 ـ بدايات الصبوة والخيبة

تجاوزتُ الخامسةَ عشر من عمري وبدأتُ أحلق ذقني عندما أنهيتُ بتفوُّق المرحلة المتوسطة في مدرسة رأس المتن وتمّ قبولي في الكلية الثانوية العامة أو «الاستعدادية» كما يشار إليها عادة. دخلتها في بداية فصل الخريف من عام 1949 فاجتاحتني موجة من السعادة ووجدتني أخاطب نفسي، «عبرتَ يا نادر منعطفاً هاماً في تاريخ حياتك باتجاه الحلم الذي تسعى لتحقيقه. إنها فرصة العمر التي لا تتوفّر للفقراء من أمثالك، فهيِّىء نفسك لمستقبل حافل بالوعود، وتوقّع أن يكون الطريق طويلاً وصعباً وقاسياً».

جرى ذلك في عهد رئيس الجهورية بشاره الخوري الذي كان يلبس برنيطة فرنجية ورئيس الوزراء رياض الصلح الذي كان يلبس طربوشاً عثمانياً، ولم أكن أحبّ أياً منهما. وشهدتْ تلك السنة أحداثاً سيئة منها القبض على عمر الزعني وتم سجنه 42 يوماً بسبب قصيدته الساخرة «جدّدلو ولا تفزع»، وتوقيع اتفاقية الهدنة مع إسرائيل من قبل مصر في 24/2/49 ولبنان في 23/3/49 والأردن في 3/4/49، واعدام انطون سعاده في 8 تموز، وتردّد في الصحف أن رياض الصلح أجرى إجتماعات سرية مع قيادات صهيونية. وحدث في سوريه إنقلاب حسني الزعيم في 30 آذار الذي لم يدم طويلاً فقد تمّ انقلاب عليه بزعامة سامي الحناوي.

بحثتُ في طوايا وعيي وضبابية الأشياء عن ذكريات زمن الفتوة ولماذا الإحساس بالخيبة طالما ما يزال المستقبل في بداياته الأولى. لاتركُها تستيقظ من عمق الأعماق حسبما تشأ. وتفاجأتُ أنها إستجابت لمشيئتي، فتصوّرتُ لولعي بجبران كما لو ان روحه تقمّصت جسدي فعلاً وكنتُ قد إنتهيت من اعادة قراءة مقالته عن الشاعر البعلبكي. وسجّلتُ خاطرةً أنني ولدتُ يوم موته فتساءلتُ ضمنياً هل أنا هو؟ وقلّتُ لنفسي أن دوري لن يقتصرّ على تدوين ما تمليه الذاكرة. أنا سيدها كما هي سيدتي.

ثم كان بعد ذلك بوقت قصير أن ظننتُ وانا أقرأ الف ليلة وليلة أنني ظل للسندباد البحري فبحثتُ داخل نفسي عن الجزر النائية في بحار الكون ومحيطاته وتأملتُ في مخلوقاتها من كل صنف وصخورها ومغاورها وأشجارها وأعشابها وأزهارها وتموجات شواطئها وتقاليد شعوبها، وخاصة ما يتصل منها بعلاقات الحب. عند ذلك قلتُ ربما بدأتُ أجد نفسي وأعرفها على حقيقتها فسجّلتُ تأملاتي بخطوط بارزة في الرمل والزمن.

وبقي أمامي أن أتعلّم كيف أسرد تجارب حياتي كما انصهرتْ بتجارب الآخرين ممن عرفتهم عن قرب ومن الداخل ونشأتْ بيننا علاقات وثيقة. ولن انتكّر لانتماءاتي العديدة والمتناقضة فقد خرجتُ من الخانات ودخلتُ في رحابة عالم المخلوقات الظاهر والخفي كما تتداخل أمواج البحر في إندفاعها نحو الشاطىء. سأروي حكايات الآخرين كما أروي حكايات حياتي واتناول الشؤون العامة والخاصة. أغرق في التفاصيل التي شاهدتها والتي لم أشاهدها. أضع رسماً. أبتعد عنه وأنظر إليه من زوايا مختلفة كما لو كنت رساماً من أمثال أصدقائي حليم جرداق وميشال بصبوص وكمال بلاطه ومنى السعودي وفاتح المدرس وضياء عزاوي ومروان قصاب باشي، ومنها ما هو بعيد وما هو قريب كما لوكنت مهندساً يتأمل في رسم منزل يشيّده لحبيبته، ويبقى هو المسؤول في نهاية الأمر كيف تلتقي الشخصيات والأحداث والمشاعر والنقاشات الفكرية وتتضافر معاً في نسيج واحد من العلاقات.

هل أفشي كل أسراري وأسرار شخصياتي للعالم للذين أعرفهم والذين لا أعرفهم؟ المهم أنه لا بدّ من لعبة فنية نادرة وفريدة. ألقي ضوءاً شاحباً وأترك المكان غامضاً. لقد أصبحتُ مولعاً بالغموض ليس خوفاً من الاعتراف، بل لسبب فني لا ينفصل عن ولعي بان أسرد للناس قصصاً من تجارب الحياة مرها وحلوها. وسأحاول أن أجمع بين شخصيات متخيّلة أطلق عليها أسمائي وشخصيات معروفة قد أحتفظ باسمائها الحقيقة على أن اتحمّل مختلف النتائج. كل شخص يعمل في القضايا العامة هو موضوع عام، ويكون من مهمات الكاتب ان ينزع الأقنعة ويتأمل في الخفايا.

***

فجأة حدث تحوّلٌ كبير ونوعيّ في حياتنا. لا أشير بهذا إلى دخولي مدرسة الاستعدادية ولا حتى إلى جمع شمل العائلة ـ أمي واختي وأخي وأنا ـ بعد زمن من التشتّت المؤلم منذ نزوحنا الإضطراري من الكفرون إلى بيروت قبل سبع سنوات. ما أشير إليه هو أن

أمي حصلت على وظيفة كان من جرائها أن إنتقلنا من الملجأ المعتم في العالم السفلي من قاع المدينة إلى فيلا فخمة يحيط بها سور تغمره شجيرات الياسمين في شارع منصور جرداق المتفرع عن شارع السادات، وهو حي من أجمل أحياء راس بيروت. كيف تمّ لنا ذلك؟ لم يكن بالإمكان أن نحلم بهذه النعمة التي هبطت علينا دون أن نسعى إليها. حقاً كان ذلك تحوّل نوعي، وإذا كان لي أن أشبّهه بأي حدث آخر، فإنني أقول دون تردّد بأنه كان قفزة في الهواء من جحيم إلى جنة كما تصوّر المعري ودون أن نعبر مطهر دانتي قبل الوصول للفردوس المنتظر.

لا أبالغ كثيراً في وصف ما حدث لنا، ولا أريد ان أترك إنطباعاً بحدوث عجيبة من عجائب الزمن. هذا ما تصوّرناه لدى دخول المكان، وإن كبتنا غبطتنا بعض الشيء كي لا نُصاب بالعين أو يقال أننا لم نكن نستحقّ ما حصلنا عليه. في واقع الأمر أننا إنتقلنا إلى مسكن صغير ملحق بالفيلة داخل السور، وكان للحدث علاقة بانتهاء الحرب العالمية الثانية مما تسبّب بهجرة جالية إلمانية إنجيلية تملك كنيسة ملحقة بتلك الفيلا التي تربّعتْ وسط حديقة من الاشجار الباسقة ضمن سور من الياسمين. وصدف في ذلك الوقت حسب علمي ان تمّ ترتيب خاص مع جمعية نساء لبنان التي ترأسها السيدة الجليلة حنينة طرشا أن تقيم روضة للأطفال في تلك الفيلا المهجورة. ولما كانت الروضة بحاجة إلى إمرأة تُعنى بالإشراف على الفيلا والسهر على شؤون الأطفال، تم ترشيح والدتي من قبل بعض الناشطات داخل جمعية نساء لبنان ممن عرفن ما لديها من مؤهلات وأخلاق وإخلاص وتاريخ من الكفاح المرير والحرص على تعليم أولادها كي ينشأوا نشأة صالحة.

وما أن أجرتْ السيدة طرشا مقابلة مع أمي وتعرّفتْ الينا حتى عرضت عليها الوظيفة وشرحتْ لها كل ما يتعلّق بواجباتها وحقوقها وراتبها الشهري فقبلت أمي العرض دون ان تتمكّن من إخفاء سرورها العظيم، خاصة عند تسلّمها مفاتيح الفيلا مما سمح لنا ليس فقط باستعمال المسكن الملحق بها، بل أيضاً بالإستفادة من مختلف تسهيلاتها بما فيها الكنيسة الملاصقة لها. وإخترتُ أنا أن أسكن بمفردي عُلّيّة الكنيسة بحيث اتمكن من التركيز على الدراسة والكتابة دون إي إزعاج، ومع العلم انني لم أمارس فيها أي نوع من الصلوات. أما أختي وأخي فكانا يذهبان منذ الصباح الباكر لعملهما، هو إلى محل للخياطة في خان فخري بيك عند نهاية سوق الطويلة قرب مطعم العجمي ومبنى صحيفة النهار في ذلك الوقت، وهي إلى محل خياطة للسيدات في الطابق السفلي من بناية قديمة عند التقاء شارع السادات وشارع ليون بالقرب من كلية البنات.

استقرّتْ حياة العائلة وبَقِيَ على كل منا أن يتدبّر شؤونه الخاصة. كان ما يزال عليّ أن أركّز إهتمامي على الدراسة والعمل، فتعمدّتُ شخصياً تجنّب اللهو ومختلف وسائل التسلية التي يمارسها أبناء جيلي. واحببت أكثر ما أحببت، خارج نطاق إهتماماتي الثقافية، السباحة وتسلّق الجبال والمشاركة في مباريات سباق المسافات الطويلة مستعيضاً بها عن ولعي أثناء طفولتي وعند تردّدي إلى الكفرون باقتناء «نقيّفة» لاصطياد العصافير، هذه الهواية التي تخلّيت عنها دون أسف عندما أدركت أنني أَصَبْتُ عن طريق الخطأ عصفورة لم أكن أدرك أن لها أفراخاً تنتظر قدومها، إلا أن قارئاً لمؤلفاتي في الزمن الحاضر، وهو من رفاق الطفولة في القرية أرسل لي كلاماً ذكّرني فيه بانني في كتاباتي ما زلتُ اجيد استعمال «النقيفة» فأجبته بأنه على حقّ وأعتبرتُ ملاحظته ذكية ودقيقة جداً واعتذرتُ منه أنني لم أكن أقصد والده لذاته في الانتقادات المبطّنة التي وجهّتها إليه وباسمه الحقيقي في إحدى رواياتي.

وفي الواقع أنه لم يكن ما أردته لنفسي جديداً في حياتي، فقد صمّمتٌ أن أكون مسؤولاً حتى في زمن طفولتي حين بدأتْ تستولي عليّ مشاعرُ غريبة، منها أنني كثيراً ما تصوّرتُ أبي يتعذّب في موته ويشعر بالذنب لكثرة ما يقلق على مصيرنا بعد أن هَجَرَنا في زمن السوء ونحن في أقصى أحوال العجز وتركنا نتدبّر شؤوننا بدونه في عالم كان يعرف الكثير من قسوته وشراسته. وبفعل مثل هذه التداعيات التي كانت تجتاحني بين وقت وآخر، إقتنعتُ أنه لم يكن مسؤولاً عن موته وأن من واجباتي أن أُطمئنه وأخفّف من معاناته وإحساسه بالذنب بالتعهُّد له أنني سأكون ولداً صالحاً ومسؤولاً. قلت له مراراً، خاصة قبل النوم، ألاّ يقلق علينا ووعدته ان أكون مجتهداً كي أخفّف أعباء الحمل الثقيل على أمي وأُدير بالي على اختي وأخي علّني أعوّض عن غيابه بقدر ما استطيع.

ظننتُ في طفولتي وفتوتي الأولى أن أبي كان يسمع مخاطبتي أياه، وحلمتُ مرة أنني ما أن حدّثته عما أفعل حتى بدا لي أنه ارتاح قليلاً فانحنى وقبّل جبهتي وعبّر عن رضاه عني وإعتزازه بيَ. وحرصتُ أن يعرف ما حقّقناه من إنجازات كي أخفّف من قلقه علينا. ومع ذلك ظللتُ أشعر بين حين وآخر أنه ما يزال يحمل همومنا في قلبه ولن يكون بإمكاني أن أحرّره كلياً من هذا العبء مهما فعلتُ.

وفي غيابه لم يكن لي رجل أتخذه نموذجاً لحياتي مهما تأثّرت بما سمعتُ عنه عند زياراتي الصيفية إلى الكفرون من أخبار طيبة

تتعلّق خاصة بشجاعته وجهاده والإحترام المتبادل بينه وبين من عرفوه جيداً إن كان داخل العائلة أو خارجها. ومع أنني سمعتُ المثل الشعبي الذي يقول أن «العم يعمّ بعد الأب والأم»، إلا أنني لم أتأثر بأعمامي الأربع لإحساسي بأن شخصياتهم كانت شديدة التنوّع إلى حدّ التناقض وإلغاء بعضهم البعض. بحثتُ عن أبي دون ان أجده. وجاءت تصوّراتي عنه واهية وضبابية، وحين أتكلم عنه أحاول جاهداً أن اضبط مخيلتي فكثيراً ما كنتُ أخترعه أكثر مما أتصوّر شخصيته كما كانت على حقيقتها. استفدتُ من كلام الناس حوله، وكان كلام الناس هو الذي أيقظ في نفسي صوراً غامضة عنه. وفي غياب أبي وتناقضات أعمامي تأثرتُ أكثر ما تأثرتُ بأمي، بثباتها وحزنها العميق وحبها الذي لا حدود له، وتضحياتها، وانصبابها على العمل، وتحرّرها من أمنياتها ورغباتها الخاصة. لم تعش لنفسها. بل أنكرتْ ذاتها وعاشت لنا. تعلّمتُ منها أهمية الإنتصار على الذات، فنشأتُ قنوعاً فيما أريد إمتلاكه كما كنت خجولاً إلى حد أنني بدأت أتهم نفسي بعدم الجرأة والثقة بالذات والقدرة على الاقتحام قبل التأكد من كل خطوة، وأخترتُ من موقع أخلاقي أن أحاول بكل جهد سلوك طريق الاحتجاج على الخطأ بدلاً من سبيل الولاء للأقوياء مهما كان السبب.

لا أذكر أنني تمارضتُ أو خلقتُ أعذاراً لنيل إهتمام أمي. كان عليّ أن أكون جدياً في معظم الاحيان وفي مختلف مراحل حياتي، ومع هذا لم أكن، على ما أظنّ، يابساً نزقاً متبرماً. كان وجهي، وما يزال حتى هذه الآيام، يرتاح أكثر ما يرتاح للابتسام. ما أن اعبس أو أحزن، حتى أتذكر أنني يجب أن أبتسم. كنت أمزح، وأحبّ، وأستغرب، وأعطي من القليل الذي أملك. وعندما أربح صداقة لا أخسرها. لا أخدع وقد أنخدع. لا أقسو على الآخرين وإن كنت أقسو على نفسي، ولا أسمح لأحد ان يكون قاسياً معي. ولم أكن أتعمّد أن أكون ذلك. أظن ان مشاعر الخجل واللطف والميل للابتسام مهما كانت الصعاب تأتي عفوياً وتلقائياً إلى وجهي كما تنجذب الأمواج إلى الشواطىء الرملية. إن وجهي شاطىء ينتظر أمواج البحر.

تلك هي بعض تصوّراتي لذاتي، وأتمنى أن تكون صحيحة إلى حدّ ما على الأقل فانا لا أُكثر من التطلع بالمرآة ولا يهمني عادة كيف يبدو شكلي الخارجي. واكتشفتُ باكراً أنني لن أحظي بمحبة الناس دون أن أحبهم واحترمهم مهما كانت إنتماءاتهم.

غير أن هناك أموراً ما تزال تزعجني منها إحساس أمي بالقهر، ولم تكن تريد في مواجهة الصعاب التي إعترضتها أن تعتمد على اخوتها أو أعمامي الذين كانوا هم بحاجة إلى من يعتمدون عليه. ومما ردّدته لي بشكل خاص أنها هربت وهي صغيرة من الإزدحام في بيت أبيها بعد وفاة أمها وبسبب حكم الخالة كما تقول إلى بيت خالها رشيد الذي كانت تعتز به وتتحدّث عن حنوه عليها في طفولتها. ومما رَسَخَ في ذهني من خلال زيارات قليلة في زمن الطفولة المبكرة شجرةُ الدلب الكبيرة أمام منزلهم وقنطرة ندخل منها إلى فناء البيت الذي تتوسّطه نافورة ماء وتحيط به غرف عديدة في طابقين أو أكثر.

ولا أدري متى بدأتُ اتساءل أننا كنا نزورهم، ولا أذكر أنهم زارونا مرة واحدة. أقول هذا ليس من موقع الاحتجاج فأنا لم أكن أفكّر بهذه المسألة في طفولتي سوى أنها أمر عادي، ولكنني بعد أن كبرتُ في العمر بدأتُ أسأل دون أن أصل إلى جواب لماذا لم يهتمّ خال أمي الذي كانتْ تحبه كثيراً بزيارتنا، ولا أذكر حتى أنه حضر دفن أبي. وربما لم أتمكّن من تكوين رأي حول هذه المسألة لأن أمي أصبحتْ بعد وفاة أبي تحرص ألا توجّه أي إنتقاد أو عتب لإخوتها وأخواتها وخالها في الوقت الذي تشكو أحياناً من تقصير جدي بالقيام بواجباته تجاهنا، وحقاً نشأتُ على الخوف منه أكثر من الحنين لرؤيته.

واطلعتُ حديثاً على رسم شجرة عائلة آل الرشيد الذي وضعه مروان بعناية خاصة وبعد بحث وتدقيق لزمن طويل. ومما لفت نظري بعد التأمل مراراً برسم شجرة العائلة أن مروان مثّل الذكور مع تسمية أولادهم من الأجيال الجديدة بفروع الشجرة وأغصانها بينما مثّل النساء بأوراق صغيرة دون ذكر أولادهن. ودقّقتُ النظر إلى أن وجدتُ إشارة إلى إسم والدة أمي ولا من إشارة إلى إسمها هي. واستنتجت أن أمي لم تنعم حتى أن تكون ورقة لا تلبث ان تتساقط من شجرة العائلة نهائياً وتبقى أسماء الرجال جذوعاً وأغصاناً شامخة. وفي مختلف الظروف حافظتُ على إحترامي لمروان لظرفه وطموحه.

وما يعنيني في الأمر أن بعض أحلام فتوّتي وشبابي كانت مضيئة ونشأتْ لديّ رغبةٌ جامحة بالحرية فلم اتقرّب من أصحاب السلطة والأقوياء. ولم يكن لدي شك أنني استطيع أن أنجح في تحقيق رغباتي دون التقرّب من الأقوياء المتفوّقين كما ينصحني عمي كريم. وصحيح أنني رأيتُ العالم متناقضاً عجيباً غريباً وأردتُ أن افهمه بكل تعقيداته، إلا أنني بذلت جهداً لتحقيق سعادتي بالاعتماد على مصادري الذاتية. وبالإضافة للتركيز على الدراسة، تولّعتُ بالموسيقى بالإضافة إلى السباحة والركض وتسلّق الجبال بعد ان بدأتُ أُصغي لبرنامج كلاسيكي كان يقدّمه رشدي معلوف في الإذاعة اللبنانية.

تمّ هذا بعد أن دخلتُ في مطلع خريف 1949صفّ السنة الثانية ثانوية في القسم الانكليزي من المدرسة الاستعدادية، وكان التحدي كبيراً فركّزتُ اهتمامي عليه بكل طاقاتي وما لدي من الوقت. وبمروره، إزددتُ ثقة بنفسي وشعرتُ بالإطمئنان أنني على قدر المسؤولية خاصة عندما استلمتُ في تشرين الثاني من تلك السنة تقريراً بعلاماتي وقعّها المدير ليزلي ليفيت Leslie W. Leavitt ، معلّقاً عليها بقوله، «بداية جيدة في مدرسة جديدة». وأظهرتُ مزيداً من التحسن في بقية الفصل الأول وطيلة الفصل الثاني إذ جاء تصنيفي في الفرقة الأولى بين خمس فرق، اي كنت بين أفضل عشرين بالمئة من الطلبة مما أهّلني لاجتياز امتحان للترقي إلى صف السنة الرابعة بدلاً من السنة الثالثة. وهذا ما حدث إذ تمكّنتُ من إنهاء دراستي الثانوية خلال سنتين بدلاً من ثلاثة فتخرّجتُ من الاستعدادية في منتصف عام 1951 وتمّ قبولي في الجامعة الأميركية والحصول على منحة دراسية.

وأستبق هنا الأمور لأقول انني اخترتُ دخول كلية الآداب والفنون رغم تفوقي في العلوم ولا أزال أذكر ولعي بالجيومتري الذي حاولت استعمال فرضياته في مجالاتٍ خارج مجالاته العادية. ومن تلك الاستعمالات أنني حاولتُ أن أطبقّ فرضيات السيلوجيزم في الجيمومتري للخروج بتعميمات حول المجتمع والعلاقات الانسانية والدين، ومنها ـ كردّة فعل لكثر ما فرضتْ علينا الارساليات الدينية من مواعظ توراتية وانجيلية ـ ما كان يتعلّق حتى بمسألة مفهومها لله وطبيعة وجوده. وأتمنى لو أتذكر بعد كل هذه السنوات كيف نجحتُ بالتوصّل إلى صحة نظريتي مستغنياً عن إعلان موته كما فعل المفكر الالماني نيتشه.

كانت تلك إحدى ميولي في زمن الفتوة فما أن مرّ حتى تعلّمتُ عن قناعة أو بفعل الخوف ألا أتدخل بتاتاً في مثل هذه النقاشات التي لا يمكن الخروج منها بأجوبة مقنعة، وأنصرفتُ بدلاً منها إلى ما يمكن إثباته علمياً في واقع الحياة. بل، تبّدلتْ طبيعة النقاشات بعد أن إنقسمنا اثناء سنوات الدراسة في الاستعدادية إلى فريقين، فريق انتمى إلى النادي العربي وأنا منه، وفريق إلى النادي الانكليزي، ولم يكن من حوار حقيقي بين الفريقين. وتشعّبتْ الانتماءات عندما بدأنا نخوض في الأمور السياسية فتمحورت الخلافات بين حركة القوميين العرب، والحزب السوري القومي الاجتماعي، وتيارات ضئيلة أخرى، وكانت غالبية الطلبة محايدة أو مناصرة لفئة دون أخرى. في هذا الوقت بالذات بدأتُ أهتم بمطالعات للنظريات السياسية المختلفة مما فتح أمامي باب المنهج الواقعي وحرّرني إلى حدّ ما من رومنطيقية جبران وإن ظللتُ أحبه وأدافع عنه وأعترف بتأثيراته الجمة خاصة في مجالات التمرد والتحرّر من الموروثات والسلطات الاجتماعية إن كانت عائلية أو دينية.

وكان أن عاد في تلك الأيام قائدُ من المنفى فاحدث عاصفة لدى وصوله إلى مطار بيروت. قال لجماهير غفيرة أقبلتْ من مختلف مناطق سوريه لاستقباله، «إن فيكم قوة لو فعلت لغيّرت مجرى التاريخ»، «وحق التقدم هو حق الصراع»، فاصدرت السلطة مذكرة توقيف بحقه، وما أن مرّت سنتان على قدومه حتى تم إعدامه في 8 تموز 1949 بعد محاكمة صورية في المحكمة العسكرية، ونفذ الحكم بتسعة من اعضاء الحزب حسب الانتماء الطائفي في عهد بشاره الخوري الذي يلبس برنيطة فرنجية ورياض الصلح الذي يلبس طربوشاً عثمانياً. وما أن انتشر الخبر حتى بكاه آلاف الناس بمن فيهم أخي كمال فحاولتُ أن أخفّف من أوجاعه، وكتب غسان تويني إفتتاحية بعنوان، «سعاده، المجرم الشهيد»، تساءل فيها هل أُعْدِم أم قُتِل وهل ما جرى محاكمة أم مؤامرة؟ وقال كمال جنبلاط، «تألّبتْ عليه عناصر الرجعية والطائفية والمصلحية وهو رجل عرف عنه أنه رجل عقيدة ومؤسس مدرسة فكرية كبيرة وباعث نهضة في أنحاء الشرق قد يندر لها مثيل».

قال سعاده، وهو في طريق عودته للوطن، لزوجته التي ولدت في الارجنتين أن استقباله في بيروت سيكون عظيماً، إلا «أن الموقف السياسي دقيق»، واستنتج ان الجيش اللبناني ضعيف لا يمكنه السيطرة على الموقف في حالة حرب أو ثورة، وقد افترض ان الشعب على استعداد للقيام بحركة ثورية نتيجة لنكبة فلسطين و«لان النفوس في قلق». ولدى عودته، إلتفتَ إلى زوجته قائلاً، «هنا وطننا وهنا حياتنا»، وكان من الممكن أن يضيف «وهنا موتنا»، فقد عرف جيداً، «ان آلاماً عظيمة... تنتظر كل ذي نَفْس كبيرة». وليس غريبا ما حدث، فالأنظمة التقليدية تخاف على نفسها أكثر مما تعنى بمصير الوطن والأمة.

ولم يتوقّف أخي كمال عن البكاء لدي سماع الخبر فشعرتُ أنه ربما كان أكثر دراية مني بهذه الأمور.

كما تنبتُ فجأة الأعشاب والأزهار البرية في الربيع بعد سقوط مطر خفيف، تزامنَ تلقائياً في حياتي الوعي السياسي مع يقظة الجسد فاستسلمتُ لأحلام الحب الأولى وعرفتُ على ما أظنّ أنه ليس من السهل التمييز بين الواقع والوهم فبدأتُ في مرحلة بين الطفولة والفتوة أحلم بعدد من الفتيات لن أذكر أسماءهن، وما حدث في علاقاتنا كان أقرب إلى البراءة. دخلتُ في يوم من الأيام منزل صديقة

بعد غروب الشمس فتفاجأتُ بوجودها وحدها هناك. جَمَدَتْ في مكانها لبرهة لا تعرف ما تفعل، وتبادر لي في تلك البرهة المحرجة أن أنسحب، ولكن ما أن أدرتُ ظهري حتى جمدتُ في مكاني كما لو إنغرستْ قدماي في الأرض. إعتراني صمتٌ مخيف زاد من رهبة المفاجأة. ألتفتُ إليها مندهشاً. لم أقل شيئاً. إلتفتتْ إليّ. لم تقل شيئاً. إقتربتُ منها. إقتربتْ مني. لَمَسَتْ وجهي. لمستُ وجهها. مضيتُ في سبيلي، ولحسن الحظ لم يرَنا أحد، ولا أريد أن أفكّر ماذا كان من الممكن أن يحدث لو تمّ إكتشافنا في ذلك الوضع.

كدتُ أنسى بفعل الخوف لقاءنا المحرج، ولكنني أحمل في لاوعي أثراً خفياً منه. لن أذكر إسمها بعد كل هذه السنوات. ولكن ما أهمية الأسماء إذا ما تعارفت الوجوه؟ ورغم هذا، كثيراً ما خطر في بالي ماذا لو شاهدنا أبوها أو أخوها أو إبن عمها في تلك اللحظة الحرجة؟ يقشعرّ بدني حين أطرح هذا السؤال على نفسي. ربما تصوّرتُ ما حدث فذهبتُ ضحية ملاك الإغراء الذي يقف على كتفي الأيسر. ومهما كانتْ الحقيقة، فاللقاء كان عابراً لم يتكرّر. لماذا إذن إستمر خوفي عليها؟ هل خافت عليَّ؟ ورغم الخوف نشأ بيننا طقس تبادل النظرات دون كلام، هي من نافذتها وأنا من نافذة مقابلة، وأرسلنا في الهواء قُبَلاً ما همّ إن وصلت أو لم تصل.

ولم يكن ما حدث لي فيما بعد حلماً. إنني متأكد من ذلك. إجتمعنا مساء يوم صيفي جميل في منزل صديقي حبيب الذي استضافني في قريته النائية لأعطيه دروساً خاصة في اللغة العربية، وكنا في تلك السهرة العامرة عدداً من الفتيات والفتيان. استمعنا إلى موسيقى ناعمة ورقصنا إلى ساعة متأخرة، وكنا على وشك أن نفترق عندما إقترحتْ إحداهن أن نلعب «الغميضة» فانقسمنا إلى فريقين، فريق يختبيء وفريق يبحث عن المخبأ. إختبأتُ تحت سرير في إحدى غرف النوم، وتفاجأتُ ان لحقتني إحداهن وانبطحتْ قربي. مرة أخرى تحوّل الإكتشاف المفعم بالمتعة والتخوّف إلى مواجهة حرجة. دون تردّد وبجرأة نادرة تسلّلتْ يدي إلى صدرها. في تلك اللحظة بالذات، قبل أن أكتشف مخبأها السريّ، إكتشف الفريق الأخر مخبأنا فخرجنا وافترقنا تلك الليلة.

حَضَرَتْ صباح اليوم التالي إلى منزل صديقي، ودعتني لمرافقتها إلى الكرم لنقطف التين والعنب. رافقتها دون تردّد. سلكنا طريقاً وعرة تحمل هي سلة وأحمل أنا سلة أخرى إلى أن بلغنا المكان. تسلّقتْ الدالية طالبة أن اتلقّى عناقيد العنب التي ترميها إليّ من فوق. إمتثلتُ لتعليماتها بارتياح وترقّب، وما أن تطلعتُ إليها من أسفل حتى رأيتها تقف على غصن وقد فتحت ساقيها ولم تكن تلبس ما يحجب كنزها. أصابني ذهول فخجلتُ متذكّراً قول عنتر المأثور، «أغضّ الطرف ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأوها»، غير أنني فضّلتُ أن أقتدي في هذه الحالة بالزير بدلاً من عنتر، وأحسستُ بطائر أبي نواس يقف علي كتفي ويهمس في أذنيّ كلاماً آخر أكثر عذوبة فرفعتُ نظري إلى فوق وحدّقتُ منتشياً وإن تخوّفتُ فجأة سقوط المطر حين تلبّدتْ الغيوم في السماء.

في تلك الليلة حلمتُ أنني أضاجع صديقتي في غرفة لا سقف لها منفتحة على سماء صافية واسعة أضاءها قمر كامل الاستدارة. جرّدتها ببطء من ثيابها قطعة قطعة، وتجوّلتْ أصابعي في حديقة جسدها: لامستُ بحذر أزهاراً عند تفتحها، وتظاهرتُ أنني أقطف دون تمنّع إحدى رمانتيّها، وثم تسلّقتُ جذعها وأغصانها. هبطتُ إلى أوديتها وأرتفعتُ إلى أعاليها، شممتُ عطر شعرها، رقدتُ عند نبعها، ثم إختبأتُ في غابتها عندما سمعتُ صوتاً صارخاً في البرية.

تلك هي علاقتي بالجنس الآخر في ذلك الزمان من مطلع فتوتي، مما ذكّرني بانني تجنّبتُ التولّع بفتاة بعينها مكتفياً بتشغيل مخيلتي في البحث عن حوريات البحر، خاصة بعد أن قالت لي «بصاره براجه» أن ملاك الخير يقف على كتفي الأيمن فيما يقف ملاك الإغراء على كتفي الأيسر. راقني تشخيصها وكان أن استهضمتُ ملاك الاغراء الذي تخيلتُه فتاة جميلة نما لها جناحان ملونان، ولم أعبأ بملاك الخير أكثر من اللزوم، فقد وجدته متزمتاً لا يرحم.

وذكّرتني حكايات ملاك الخير وملاك الإغراء بحضوري أثناء عرض لخيال الظل فتولّدتْ في مخيلتي على أثره حكايات حول قمر الزمان ونجمة المكان، وأقمتُ بينهما علاقات حبّ رومنطيقية. وربما هذا ما حبّب لي الحكايات الشعبية التي لم أرها مجرّدَ خرافات وأوهام، بل تعبيراً عميقاً عن نوازع الحياة وصراع الإنسان في علاقته بالواقع. اعتبرتها، وما أزال، واقعية وحقيقية، وخاصة منذ أقمتُ صداقة وزمالة حميمة مع سيدة السرد شهرزاد. وأصبحتُ بالتالي أختبر مشاعر عديدة لا أسماء لها، وعبثاً أحاول ان اجد كلمات تصفها بمختلف أبعادها وكثافاتها وغموضها الجميل.

وفي زمن يقظة الجسد هذه، إزددتُ تولعاً بالبحر. وجدتُه صاعقاً في اتساعاته وتموجاته وتقلّباته وألوانه، مرناً في علاقته بالهواء فخضته وتفاعلتُ معه بعفوية، ولعبتُ وأياه كما لو كان صديقة. أصغيتُ إلى موسيقاه فذهلتُ به، وكتبتُ إليه في دفتر مذكراتي كلاماً غامضاً:

تعلّمتُ لغةَ الماء باكراً في طفولتي

بدءاً من لغة الينابيع والسواقي والأنهر

وكان أن تولّعتُ في بيروت بلغة البحر

النهر والبحر

البحر والنهر

لغتان أحببتُهما ومزجتُ بينهما

كما يمزج الرسام ألوانه

وكما لو أمارس لغةَ الشجر والريح

أو الضوء والظلال معاً

وكثيراً ما تصوّرتُ علاقةَ عشقٍ بين النهر والبحر

الأنهر جميعها تسعى إلى البحر

الذي يملك بدوره قدرةً هائلة على العشق

في كل برهة،

في زمن الهدوء كما في زمن الصخب.

دام ولعي بالبحر في مختلف المواسم فنشأت بيننا صداقة أبدية. أخوضه يومياً منذ بدايات الشهر الرابع من كل سنة وحتى نهاية الشهر العاشر، أغوص في قرارته وأبحث عن أسراره الداخلية، أشرف عليه وأتأمله، أتعرّض لأمواجه وأبحث عن جزره، أحبه لذاته كما لألوانه وتموجاته كرقص السماح في دمشق القديمة قدم الأرض والسماء. ودونما دهشة، تصوّرتُ مراراً أنني تحوّلتُ إلى سمكة وسبحتُ كما تسبح، ولكنني فجأة تخوّفتُ ان تلتقطني صنارة صياد. هنا تساءلتُ هل أستطيع أن أتصوّر عروس البحر دون أن أتصوّر التنين يطاردها ويطاردني فأبتهل مثل جميع الضعفاء متى يُقبل الفارس الغريب على حصانه لينقذنا من موت أكيد؟ كلاهما أصبحا رمزاً ومجازاً في حياتي المضطربة، وتصوّرت بيروت تصعد من البحر كشجرة متشابكة الأغصان فناديتها من الأعماق:

مولَعٌ بالوانك، مأخوذٌ بتموجاتك

مسحورٌ باسرار أعماقك ومخلوقاتك

من كل شكل

من كل لون

وبتمايل نباتاتك تحت الماء.

عايشتُ أسماكاً لا أعرف أسماءها،

ولي علاقة عابرة مع التوتيا والاخطبوط والحنكليس

ومضيئاتك الملونة التي تجذب الجسد وتخيفه معاً

وجزرك التي تسكنها عرائسك

المد يعقبه جزرٌ

والجزر يعقبه مدٌّ

ومهما كانت مخاوفي،

أسعى اليك مدفوعاً بجوعي الداخلي

وعطشي الذي لا يُروى

بدءاً من تعلّقي بالينابيع والنهر والبحر والرياح في ليالي الشتاء نشأ ولعي بالكلمات كما بالجبال والأودية. ظننتُ أنني إكتشفتُ علاقةً خاصة بين الماء والكلام فلم يكن من الغريب أنني أحببتُ البحر والكتابة معاً، وأصبح التموُّج والتدفُّق يشكّلان بعض عناصر هذه العلاقة. وعندما تولّعتُ بالموسيقي الكلاسيكية، بحثتُ عن أصولها في هطول المطر وإندفاع أمواج البحر وعصف الريح وتدفّق الكلمات.

اقتنعتُ أن البحر موسيقى وكذلك الكتابة فنشأتْ علاقةٌ بين لغتي ولغة الأمواج، بين موسيقى الكتابة وموسيقى البحر.

ولدى ممارسة السباحة في البحر، إعتدتُ أن أترك لجسدي حرية التصرف حتى أنني اراه امتداداً لطبيعة الاشياء وجزءاً منها، وربما لذلك تحوّلتْ حياتي إلى طقوس ساحرة أخلصتُ لها كما لم أخلص لإمرأة. في الكفرون أحببتُ النهر وتماهيتُ معه. أما في علاقتي بالبحر، فأحببتُ مخلوقاته وتركتُ، كالسمك، جسدي يمارس طقوس المد والجزر. ارفض ان أدجّنه ولا أتوقّع منه أي انضباط مصطنع، وأستغرب كم يعاني الناس من شدة التأزم في علاقتهم باجسادهم. يلجمونها، يخافون عليها ومنها، يقبضون عليها من الداخل ويخنقون نزواتها قبل أن تولد. يخافون عليها من التعرض للهواء والمطر والشمس والريح بانتظار الظلام. اريد لجسدي ان يتجاوب مع الريح والانغام والماء. تلك هي السباحة حين يأخذ الجسد شكل الماء.

أحببتُ الموسيقى إضافة إلى البحر، واعتدتُ ان أتابع برنامج رشدي معلوف في الإذاعة اللبنانية حول الموسيقى الكلاسيكية، وربما في ذلك الوقت بالذات حضرت فيلماً سينمائياً حول حياة شوبان فأكتشفتُ من خلال عزفه علاقة خفية ين الموسيقى والمطر والريح وإيقاعات الأمواج حين تتلاطم بالصخور. من الأمواج نفذتُ إلى عالم الموسيقى، ومن أبواب الموسيقى دخلت عالم الموج.

في البدء، زاولنا السباحة نحن مجموعة من الأصدقاء في أمكنة مختلفة بين الرملة البيضاء وخليج الروشة وعين مريسة وعجرم، وأقمنا صداقات مع صخور اعتبرناها جُزُراً فأطلقنا عليها تسميات خاصة، ولم نخف ان يمحو البحر الكلمات التي نخطّها ببراعة في الرمل. وكانت لنا حيث مقهى شاتيلا علاقة حميمة بالصخور وما يتوسطها من برك هادئة إلى أن استولى سبورتنغ كلوب على جزء منها.

عند الكورنيش حيث كانت تنتهي الطريق الفاصلة بين مدرسة الاستعدادية والجامعة الأميركية كان لنا صخورٌ وبركٌ خاصة منحناها أنفسنا ومنحتنا نفسها دون أجر. هناك كنا نسبح، مجموعة من الأولاد الأشقياء. لنا فيها ذكريات وحكايات، فلا أستطيع بعد إنقضاء السنين والأيام أن أمرّ قربها دون أن اتوقّف عندها واستعيد الماضي السحيق في القدم، ولا يفهم صديقي عادل اميوني لماذا أصرّ على تقاليد بالية خاصة حيث قضى التلوث على نقاء الماء الذي عرفناه في زمن طفولتنا. وكي أضع حداً لتعليقات عادل الساخرة، أخبرته واحدة من حكاياتي مع البحر.

قلت له إسمع يا صديقي عادل. انت تعرف كما أعرف أنني لم أعد أحبّ إصطياد الطيور والأسماك، وأكره أكثر ما أكره إصطيادها خاصة بواسطة تفجير الـ«ديناميت».

هذه جريمةٌ لا تُغتفر، تخلُّفٌ، بَلادةٌ في الذهن، فقرٌ في الروح، وتوحشُ حتى الشراسة.

ولن يمنعني إعجابي الكبير بكتاب المؤرخ عصام شبارو من توجيه العتب إليه للتغني بشخص اعتبره نموذجاً للقبضاي البيروتي وحوّله إلى ما يشبه الاسطورة بسبب مواجهته الانتداب الفرنسي الذي ضايقه بلقمة عيشه عن طريق تفجير أصابع الديناميت في البحر وهو أمر مخالف للقانون، ولم يكّف عن تفجيرها رغم التحذيرات المتكررة. اية بطولة هذه أنه هاجم الانتداب الفرنسي دفاعاً عن حقه باصطياد الأسماك بقتلها هي وأطفالها بهذه الوسيلة البشعة؟ أين وجه الوطنية في هذا التصرف؟ وبل أية رجولة هذه في أنه كان يراقب أية امرأة تسير وحدها في الشارع؟ وكيف يكون الفرنسي أكثر حرصاً منا على جمال بحرنا؟

هنا أعترف أن الصياد الماهر خليل، وهو من صافيتا أصلاً وزوج لوحيدة الكفرونية، دعاني مرة لمرافقته بعد ظهر يوم حار للصيد. فتنني بحكاياته فذهبنا معاً إلى صخور الكورنيش التي تدخل عميقاً في البحر حيث يقع في هذه الأيام نادي فندق ريفيرا. زوّدني بقصبة وسنارة وطعم، وقال «جرّب حظك». تردّدتُ لبرهة متخوفاً، ولكنني من ناحية أخرى لم أكن أريد أن ابدو متلكئاً، فأنزعتُ بنطلوني وقميصي وكنت قد إرتديتُ لباس السباحة تحسباً لهذه اللحظة، ورافقت خليل إلى صخرة متقدّمة داخل البحر. وتلبية لارشاداته رميتُ صنارتي أبعد ما أستطيع وجلستُ انتظر مفاجأة مثيرة، ولم يدم انتظاري طويلاً، كما كنتُ أتوقّع، حتى أحسستُ بالقصبة تهتزّ بعنف فرحتُ أجذبها ثم أرخيها كما درّبني خليل قبل دقائق. وطبعاً كنتُ قد راقبتُ ما يفعل الصيادون عادة في مثل هذه الظروف.

زادت الدهشةُ التي أظهرها خليل من إحساسي بالمفاجأة فقلتُ لنفسي أنني لا بدّ التقطتُ صيداً هاماً كما يُحكى في قصص ألف ليلة وليلة، خاصة بعد أن شاهدته يضع قصبته جانباً ويسرع لمساعدتي فوقفتُ جانباً أراقبه بشغف. وسرني أنه أراد، بعد برهة من الصراع بينه وبين الطريدة، أن أنعم بانتشالها بنفسي فأعاد لي القصبة ورحتُ مرة أخرى أساجلها وتساجلني إلى أن تمكّنتُ من انتشالها من الماء. في تلك اللحظة اندفع خليل نحوي محذراً أنها «حنكليس»، ورأيتُ أنها تشبه أفعى فسلّمتُه القصبة بكل طيبة خاطر وابتعدتُ إلى مكان آمن. وهالني من ذلك الموقع أنه أخذ يضرب سمكة الحنكليس على الصخر مراراً إلى أن همدتْ واستسلمت لمصيرها

المحتوم فاجتاحني أمام هذا المشهد شعورٌ لم أتوقّعه بالهزيمة فيما كان خليل يهنّئني لحظي العظيم جداً جداً ولم أجد في تلك اللحظة دافعاً لمتابعة الصيد. قلتُ لنفسي أنني وصلتُ إلى القمة دفعة واحدة وكل ما أفعله سيكون منذ الآن دون الذروة التي بلغتُها في ذلك اليوم. وجلستُ، وكان خليل قد غادر المكان، أراقب البحر منتظراً غياب الشمس بعد أن إكتشفتُ ضياع قميصي وبنطلوني. لا بدّ ان ولداً سرقها. ما شغلني حقاً احساسي بالخجل كيف أعود إلى المنزل دون حشمة بلباس البحر. بل تخوّفتُ ماذا يقول الناس مع أن المسافة قصيرة لا تتجاوز أكثر من كليومترواحد، وليس عليّ سوى ان اتسلّق زقاقاً متعرجاً في جلّ البحر إلى مخفر حبيش وشارع منصور جرداق.

لم أجروء على هذه المغامرة خوفاً من أن أخدش الحياء العام واستجلب النظر والتعليقات. لهذا لم يكن لي من خيار سوى أن انتظر غروب الشمس التي كانت ما تزال تسطع عالياً عند الأفق.

***

ما زالت تربطني بعمي كريم علاقات عجيبة غريبة وكثيراً ما تساءلت حول سرّ مشاعري المتناقضة تجاهه. يجذبني إليه ذكاؤه الفطري الحاد ومرحه وسخريته البارعة ومروءته في الأزمات عندما يمكن الركون إليه فنجده جاهزاً أبداً للقيام بواجباته. من ناحية أخرى، كنت أتمنّى لو أنه أقلّ عصبية في معتقداته ووصولية في تحقيق مآربه الشخصية بلباقة نادرة ودون أن يرّف له جفن.

وكنت أكتفي عادة بالإبتسام حين يحاول أن يعلّمني، من موقع شبه أبوي، دروساً في أمور الحياة يستمدها من تجاربه الخاصة في أغلب الأحيان. قال لي اليوم وقد جاء يهنئني بإتمام دراستي في رأس المتن وقبولي في الكلية العامة: إسمع يا نادر، أنا عمك ومحل ابيك وتهمني مصلحتك. أنا مسرور جداً أنهم قبلوك طالباً في القسم الاستعدادي من الجامعة الأميركية. قليلة الاستعدادية؟ يا ما في أهل بيتمنوا لأولادهم هالفرصة ! تريد نصيحتي؟ انت طموح وهذا ما يعجبني فيك وفي حبيبتنا العزيزة بهية. لنا طموحاتنا أنت وهي وأنا. نريد أن نحسّن حالتنا، أن نخرج من دائرة الفقر.

ولما لاحظ أنني أصغي إليه بتشوق، وقد أدركتُ أنه جاء لغرض آخر يتعلّق ببهية، توقّف عن الكلام كأنما يريد أن يؤكّد على أهمية الرسالة التي جاء من أجلها، وأصلح جلسته وانحنى قليلاً إلى الأمام قبل أن يكمل كلامه الأشبه ما يكون بآراء رفول: أنا وأنتَ والجميع يعرفون أن بهية تعطف على أخوتها وأولادهم وتضحّي بكل ما تملك من أجلهم وتهتم بشؤونهم أكثر مما تهتم بنفسها ومصلحتها. تعطيهم من مالها ونفسها دون حساب حتى أصبحوا يعتمدون عليها كلياً. ليتهم يقدّرون أتعابها عليهم. مصيبتهم ليس في فقرهم بل في جهلهم، في خلافاتهم مع بعضهم البعض دون سبب.

وحافظتُ على إبتسامتي مسايرة له، فتابع كلامه: لا أفهم كيف طلعت بهية من بيئتهم مثل وردة على مزبلة. تعب لساني من كثرة نصحتها. لا تسمع مني. خلص. قطعت الأمل. أخاف عليها من نكسة جديدة. بعلمك بدها تصير راهبه راحت تعلّقتْ بمروان الرشيد. عم يضحك عليها ما في شكّ عندي.

لم أتفاجأ بهذا الإنتقال السريع في حديثه من الكلام عن عائلتها إلى فتح سيرة مروان. هذا في الواقع ما جاء من أجله، وكان يتوقّع مني جواباً، ولكنني لم أكن أريد أن أخوض في هذا الموضوع فقلت باختصار: يحبها وتحبه.

وأعترض على كلامي قائلاً: بهية تعرف، وأنتَ تعرف، ان مروان الرشيد ما راح يتزوّجها. أهله شايفين حالهم قد الدنيا كلها. العالم ما بيساعهم. بهية مش من طينتهم. أهله شيء وأهلها شيء تاني. القصة ما بدها منجِّم. النتيجة معروفة. بدها مساعدة. إنت شو عم تعمل؟ فاتحها بالموضوع. تحترم رأيك، ولازم تحكي معها بصراحة. تذكّر شو عم قلك.

لم أصارحه بما أفكّر، على الأقل في ذلك الوقت. أعرف جيداً أن السبب الذي جعلها تهرب من الضيعة ومن أهلها هو نفسه الذي جعلها تهرب من الدير أيضاً، وأنا واثق أنها لن تعود إليه بتاتاً مهما تعرّضت لخيبات أمل كما لن تعود إلى الضيعة مهما ساءتْ ظروف حياتها. لقد اعتادت خيبات الأمل وتستطيع أن تتعامل معها مهما كانت قاسية. إن إيمانها العميق يساعدها في التغلب على المصاعب مهما بلغتْ. هذا هو سرّ رجائها كما هو سرّ رجاء أمي وليس من الغريب أن أثق كل الثقة بقدرتيهما على الكفاح مهما إشتدت عواصف الأزمات. لها وظيفتها، وليست بحاجة أن تتكّل على أي مخلوق. على العكس، غيرها يتكّل عليها.

مرة أخرى إقترب مني وحدّق بوجهي قائلاً: علمك على راسي وعيني. تحب المدرسة والكتب والكتابة. ممتاز. الحياة شيء والكتابة

شيء آخر. أنت أول شخص في العائلة يحب العلم. كمّل سيرك في هذه الطريق. مستقبلك امامك. لازم تبتعد عن الأحزاب وتهتم بشؤونك الخاصة. مصلحتك فوق كل مصلحة. خلص مثاليات لا يطلع منها شيء. مشغول بقضايا التحرير والفقراء مثل ما بهية مشغولة بإخوتها. نصحيتي لك: إهتمْ بنفسك. وعاشر الأغنياء لا تعاشر الفقراء. الأغنياء تستفيد منهم، تتعلّم من سرّ نجاحهم. الفقراء بيجرّوك معهم لتحت. والأحزاب ما بيطلع منها شيء غير الضرر. إسمع مني إبعد عنها أحسن لك.

تراجع إلى الوراء، ثم تقدّم متابعاً حديثه وقد تعمّد أن يغيّر لهجته، وبل الموضوع: شوف يا نادر يا إبن أخي يا حبيب قلبي. أنا عندي ثقة كبيرة فيك. راح تكون نجم العائلة، والفضل لأمك بدون شك. المدرسة مهمة، ولكن أهم منها تجارب الحياة. أنا للأسف الشديد ما تمكّنت أدخل المدرسة بعد المرحلة الابتدائية في الضيعة. المهم تعلّمت من تجارب الحياة. اللي مرّ عليّ ما مرّ على إنسان في الدنيا كلها. من طفولتي وأنا أباطح الحياة وهي تباطحني. بغلبها ما بتغلبني. معركة دائمة لا أول لها ولا نهاية. الفرص قليلة ولازم نعرف كيف نستفيد من كل فرصة. العالم يسير بسرعة مثل الترام بدون محطات. كيف فينا نتعامل مع هيك عالم مجنون؟ أنا شخصياً مولّع بالأمثال الشعبية. هي خلاصة تجارب الحياة من بدء البشرية ولازم نأخذها قواعد ثابتة في حياتنا اليومية. شو بتقول الأمثال الشعبية؟ إسمع يا نادر يا حبيب قلبي شو بتقول. إسمع: عاشرْ الغني بتغتني وعاشرْ الفقير بتفتقر، والدنيا صيت غنى لا صيت فقر، واللي معه باره بيسوى باره، والدنيا مع الواقف.

صمتَ، مرّ بكفّه على رأسه كما لو يحاول أن يتذكّر أمراً غاب عن باله، ثم أدرك فجأة ما افتقده لبرهة وجيزة، فتابع كلامه: أنت يا ابن أخي بدك تحارب الأغنياء والأقوياء بسيف الفقراء والضعفاء. أنا بعرف النتيجه. ما في نتيجه. الفقير إذا ركب على الجمل بيعضه الكلب. لا تنسى قصة صاحبك الأعمى من عمار الحصن. عم تستغرب كيف بيسرق الأولاد الزعران الفلوس اللي بيتصدّق فيها الناس عليه. أنا أعرفه جيداً. سمعته يعزف الكمنجا عند نزلة المنارة ليعتاش من تبرعات المحسنين. حقيقة لاعب ماهر. لو أهله أغنياء كان صار نجم لامع في الإذاعة. لأنه فقير، الأولاد الزعران بينتظروا فرصة ليسرقوا أتعابه، وهو مأخوذ بالعزف. أنت مأخوذ بالعزف، وناسي علبة الفلوس.

وأحسَّ عند هذا الحدّ أنني أحاول مقاطعته فلم يفسح لي المجال قائلاً ببرودة: أعْرف تماماً ما تفكّر به. الأولاد الزعران تجنّبهم. ما بيكفي إنك ما تخلّي حدا يسرقك. لازم تعمل علاقات مع النافذين في المدرسة. مع الاساتذة، مع المدير، مع أولاد الاغنياء وتتعرّف من خلالهم إلى أهلهم وشوف كيف فيك تستفيد منهم. مفهوم؟ أنا صار لي عشر سنين في بيروت. جمعت مصاري وعم إبعت لأهلي في الضيعة. كيف وصلتْ لهالمواصيل؟ صاحبتْ إبن الحداد، ونشكر الله مشي الحال. ما في أهم من الواسطة. لازم يكون عندك وسيط. قليلة مدرسة الاستعدادية؟ طلابها أولاد الوجهاء العرب. تعرّفْ عليهم، عاشرْهم، صاحبْهم، إستفيد منهم. فرصة من العمر لا تضيّعها. هذه نصيحتي لك يا إبن أخي، يا حبيب قلبي يا نادر.

هنا صمت عمي كريم وطال صمته، فحدّقت بعينيه كما حدّق بعيني، ثم بادرني بكلام صريح متخلياً عن لعبة اللف والدوران التي يجيدها في أوقاتها المناسبة: إسمحْ لي إتكلّم معك بصراحة. أمك تحاول أن تجمع بين إبن خالها مروان الرشيد وبهية، وأنت بدورك تحبّذ الفكرة وبهية تستودعك أسرارها. لا تنكر عنيّ. السؤال هل تفضّل يا نادر إبن خال أمك مروان على عمك كريم؟

شعرت بالإحراج حقاً ولم أكن أرغب أن يضعني عمي في هذا الموقع الصعب. ما أعرفه جيداً أن مروان يُحبّ بهية، وبهية تُحبّ مروان وهو حقاً كان السبب وراء تخليها عن فكرة الرهبنة التي لم أكن أحبّذها أنا أيضاً. لم أكن السبب في تغيير رأيها. السبب الحقيقي هو عشقها لمروان، وقد تمّ ذلك قبل أن تدّخل أمي على الخط. كل ما في الأمر أن مروان الرشيد تعرّف إلى بهية من زمان وأنبهر بها منذ اللحظة الأولى، وأحس أنها انبهرت به هي أيضاً، ولم يكن بحاجة لتدخُّل أمي. وكان قد أصّرعندما عاود الاتصال بها في بيروت أن يوصلها بنفسه إلى الدير ويخطّط بدهائه لاقناعها بالتخلي عن الرهبنة.

عبثاً أحاول أن أقنع عمي كريم أن العلاقة بين مروان وبهية نمت ببطء مثل زهور الوزال بعد شتاء بارد طويل. ثم ان أمي وأنا نعرف جيداً أن علاقتهما لم تنشأ بالسهولة التي يظنها عمي كريم. حقاً أن هناك مشكلة صعبة جداً في علاقة بهية بمروان لأسباب طبقية. بقدر ما يحبّ عمي معاشرة الأغنياء، كان أهل مروان يتعالون عن التعامل مع الفلاحين الفقراء إلا في حالة استخدامهم في العناية بأملاكهم الواسعة. بهية أيضاً تحبّ معاشرة من هم أعلى مكانة منها وإن كانت متواضعة في علاقتها بمختلف الناس.

عند هذا خطر لي أن إذكّر عمي بفلسفته، وكنت على وشك أن أقول له أن بهية تفضّل ان تتزوّج شاباً غنياً ومتعلماً على أن تتزوّج فقيراً ولو كان إبن عمها، ولكنني كبت الفكرة تجنباً لإثارة غضبه إذ يظنّ انني أسخر من نصائحه. بدلاً من ذلك قلتُ له: أفضّل لبهية ما

تفضّل لنفسها، وهي تحبّ مروان، ولكنها تتخوّف من موقف أمه. لذلك قد لا تتفاجأ كثيراً إذا ما وصلت علاقتهما إلى طريق مسدودة، فمروان نفسه شديد التعلّق بعائلته.

ومع أن أم مروان تعرف جيداً أنها مجرد ورقة زائلة في شجرة العائلة إلا أنها تدافع عن سمعتها بكل قوتها ولا تستطيع ان تتصوّر كيف يمكن ان يتزوّج إبنها الوحيد فتاة من عائلة فقيرة ومتدنية في مكانتها الإجتماعية رغم إعترافها أن بهية جميلة وذكية ومحبّة. ولم يعد يخفى على أحد أنها تخطّط لزواج مروان من إحدى بنات أخيها في البرازيل.

بعد أن علم عمي بهذه التطورات أخذ حالاً فرصة من عمله وذهب إلى الضيعة ليقنع والده ان يأتي معه إلى بيروت كي يطلب له يد بهية في محاولة يائسة أخيرة. وفعلاً عاد معه جدي دون تردّد فهو ليس من النوع الذي يمكن أن يُرفض له طلب. هذا تماماً ما فعله عندما إجتمع ببهية. دون مقدمات قال لها: يا بنت أخي يا بهية، أنا عمك وقاصدك من الضيعة لأطلب يدك لكريم وما بدي إرجع سلتي فاضية.

لم تتوقّع طلبه، على الأقل بتلك السرعة، ولكنها لم تتفاجأ أيضاً فهي تعرف أن هذه هي طريقته في الكلام وهذا ما أعتاد عليه. ودون أن تظهر حيرة أرادت أن تجيبه بالاسلوب نفسه فقالت: يا عمي كلامك على راسي وعيني، بس كريم مثل أخي، وأنا نذرت نفسي للمسيح ولا خطيب لي سواه.

وتراجع جدي إلى الوراء متفاجئاً ثم إقترب منها وقال بحزم وبصوت مرتفع سمعناه نحن في غرفة مجاورة: نحن في العائلة ما عندنا إمرأة لا تسمع كلامنا. الله خلق المرأة للزواج والانجاب، وعندي إبني كريم بعد الله. وشو المسيح ناقصه بنات؟ يكفيه آلاف الراهبات. هو بالحياة ما فكّر بالخطبة، وبعد موته كترت الطلبات عليه.

لم تجد بهية ما تقول فاكتفت بابتسامة مصطنعة وبدا في وجهها ضيق يقبض عليها من الداخل، ومرّت الثواني بطيئة وبحرج شديد فادرك جدي أنه لم يعد لها ما تقول وكان صمتها المنقبض جواباً مفحماً. شربنا القهوة بصمت، وبدا واضحاً ان جدي يشعر بالإهانة، وكان أن وقف فجأة كالرمح وأشار بغضب إلى كريم بمغادرة المكان حالاً.

***

فرحت بهية أن مروان اتصل بها لدى عودته إلى بيروت ووجدتْ نفسها تستعيد ذكريات الماضي القريب والبعيد في علاقتها به. أحبته في البدء واطمأنت أنه يحبها هو أيضاً ولكن وضعه لم يكن مستقراً كما أنها هي كانت ما تزال في حيرة من أمرها فكثيراً ماحذّرها الناس أنه شاب «نسونجي» لم يوفّر أية إمرأة جميلة من إغراءاته. لذلك حرصت، على الأقل علناً، الا تفسح له المجال للانفراد بها. ولم تتردّد من ان تصطحب نادر في بعض مشاويرهما حمايةً لها منه ومن كلام الناس. كما أنها أرادت في مختلف مراحل علاقتهما أن تثق به وتعزّز من اعتقادها أنه يحبها حقاً، خاصة وإنها ليست من نوع اللواتي يستسلمن للاغراءات فهي تعرف ما تريد وكيف تتصرّف.

وكان أن قبلت في زيارة سابقة له لبيروت دعوته لتناول الغذاء معه في فوار انطلياس حيث استعادا ذكريات المشاوير إلى ينابيع الشير والشيخ حسن وعين الدلبة وعين عروس. وبل تجرأ بعد أن شرب كأساً من العرق أن يلامس يدها فسحبتها متابعة حديثهما العادي. ولكنه قاطعها قائلاً: بهية. أنت تعرفين جيداً أنني تولّعتُ بك منذ أيام الصبى عندما كنتُ أراقبك من بعيد وأنت في طريقك إلى معمل الحرير في مشتى التحتاني. كنتُ أتمنى لو أتحوّل إلى خيوط الحرير التي تغزلينها بأصابعك الجميلة. وأصبحتُ أتردّد على حيّكم وعلى نبع الشير وبساتين النهر علني ألمحك.

ساد بينهما صمت مفعم بموسيقى تصدر من أوتار القلب، وأغمضتْ عينيها لتنعم بألحان تجتاحها مثل أصوات تدفّق مياه الينابيع بين الصخور في أودية سحيقة فحلّقتْ روحها فوق جبال مرتفعة. وتمنّتْ لو تتسلّل يده إلى يدها مرة ثانية، ولحظ هو تردّدها وحيرتها فقال لها: إريدك أن تتخلي نهائياً عن فكرة الرهبنة، فأنا أحبك وأحترمك وأريدك رفيقة عمري حالما تسمح الظروف. ماذا تقولين يا بهية؟

وأجابته دون تردّد: أنا أيضاً أحبك وأحترمك واتمنى إذا ما سمحت الظروف ان تكون رفيق عمري إلى الأبد. ومع هذا كنت قد نذرت نفسي للمسيح ولا بدّ لي من التفكير بالأمر ملياً. أريد أن أصلّي له سجوداً على ركبتيّ وأتضرع إليه وأطلب السماح منه. أعْطِني فرصة.

ـ فرصة وحبة مسك. أريدك أن تكوني مقتنعة مئة بالمئة كما أنا مقتنع مئة بالمئة. ستسمعين عني كلاماً كثيراً، ولكن أريدك أن تعرفي أنني لم أشعر في السابق تجاه أية إمرأة ما أشعر به تجاهك. أريدك رفيقة عمري.

تفاجأتْ هي كما تفاجأ مروان أيضاً بتصريحه الذي لم يكن خطّط له حقاً. صدر عنه عفوياً في تلك اللحظة فكبت عواطفه وقال: أنا أمامي سنوات قبل أن تستقر حالتي، وأتمنى نهائياً أن تقتلعي فكرة الرهبنة من رأسك. يمكنني إذا أردتِ أن أبحث عن عمل هنا في بيروت. وانا في الواقع مسرور أنك تمارسين التمريض فهذه مهنة لا تقلّ إنسانية.

وفي الوقت الذي اقتنع أنها ستتخلّى عن فكرة الرهبنة من أجله، كانت هي تفكّر أنها ما كانت تتخلى عن التزامها بأن تكون خطيبة للمسيح لو لم تكتشف حقيقة ما يجري في الأديرة من الداخل. ومهما كان لم تصدّق ما صرّح به. فجأة ينفتح أفق آخر أمامها، وتشاهد طريقاً بديلاً ويكون عليها ان تختار بين وعد بفردوس في الحياة الثانية ووعد بحياة هنئية مع رفيق تبادله الحب والاحترام في هذا العالم المضطرب الذي كثيراً ما عانت فيه من خيبات الأمل.

وتسمح لنفسها ان تلامس يده ثم تقول: لا ضرورة للتسرع. أنا بعد لم أفكّر بالأمر ملياً. أريد من العذراء ان ترضى عني وأن يبارك المسيح حبي، ويكون عليكَ أنتَ أيضاً أن تتأكّد أنني حقاً المرأة الصالحة لك. وطبعاً لا بدّ أن تستشير أهلك. أنا شخصياً لا أشعر أنني بحاجة أن آخذ موافقة أحد في عائلتي.

ويجيبها دون أن يرفع يده عن يدها: لا حاجة لاستشارة أهلي.

ـ لا، لا. يجب ان تستشسر أهلك وتحصل على مباركتهما. فكّر كيف تقنعهما.

قالت معترضة، ووقفتْ معلنة حلول موعد عودتها. ودون إعتراض مشى معها صامتاً نحو السيارة وانطلق لا يحيد نظره عن الطريق الضيق. وتعمّق الصمت حتى بدأ يخافه فوجد نفسه يغنّي لها قصيدة من شعر ميشال طراد:

بْغنيّة الليل، عَ زنود القمر نامي،

والصّبح ناطورك

راح بسهر العمر، راح بتنوص ايامي

مع رجفة سريرك

شو بتعمل الراهبي بقلبا وشهواتا؟

لا تلومها يا دير.

تأثرت بغنائه حتى كادت ان تقترب من شفير البكاء. قاومتْ مشاعرها ورتّلت له بصوت يفوق صوته عذوبة:

إني أنا عبدكِ يا والدة الإله

أكتب لكِ رايات الغلبة

وأقدّم لكِ الشكر يا منقذة من الشدائد

لكن بما أن لك العزة التي لا تحارب

إعتقيني من صنوف النوائب

حتى أصرخ لك افرحي يا عروساً لا عروس لها

ظن مروان أنه فهم ما وراء ترنيمتها هذه. لعلها أرادت أن تُفهمه أنها ما تزال حائرة أو ما زالتْ تشك باخلاصه وخضوعه لرأى أهله. ولم يجد ما يقوله في هذا المجال معترفاً أمام نفسه ألا يضغط عليها فيعطيها المجال الكافي لتختار من تلقاء نفسها، فغيّر الموضوع متسائلاً وقد بدا عليه الانفعال: ماذا حدث مع الدكتور مصطفى خالد؟

ـ يريدني أن أعمل معه ممرضة في بيروت أولاً وقد ننتقل إلى جده في المستقبل.

ـ وماذا تقولين؟

ـ يجب أن أفكّر بالأمر.

ـ ما المانع؟

ـ المسألة صعبة.

ـ لا شك.

ـ هذا ما يشغل بالي، ولا أعرف أي درب أختار.

ـ كل شيء ولا الرهبنة

ـ هذا رأيك؟

ـ أكيد مئة بالمئة.

ـ سأترك لنفسي المجال للتفكير حسب تطور الأمور

ـ موقف حكيم

قال مستأنساً بكلامها، وقد فهم ما تلمح إليه.

تفاجأنا في تلك الأيام بقدوم عمي سبع إلى بيروت، فمن المعروف عنه أنه يكره مغادرة الضيعة وينفر من المدن وسكانها. دخلا هو وزوجته بدره مبنى الروضة وكان الأطفال في فرصة خارج الصفوف يلعبون في الحديقة فما أن وقع نظرهم عليه في زيه القروي حتى تجمهروا حوله يتفرجون عليه كما لو حضر من المريخ. استجلب نظرهم بشكل خاص سرواله الأسود الفضفاض وكوفيته وعقاله وحدة تقاسيم وجهه، ولكنهم انفضوا فجأة من حوله خوفاً عندما فنجر عينية ومدّ ذراعيه إلى أقصاهما موجهاً كلامه إلى أم نادر حين أبصرها تقبل نحوه مرحبة، «إيه، إنتِ أكبر من هيك بكتير، بكتير. لازم نحن نجي نزورك ونشوف خاطرك».

وشعرت أم نادر بالحرج أمام المعلمات والأطفال، فما كان من زوجته بدره إلا ان تدخّلتْ قائلة، «ويلي أنا يا سبع ! ما شايف وضعها لإم نادر؟ شغل ليل نهار. قول ألله يكون بعونها. جايي إنت تزيد من همومها. يكفيها تعب وعذاب». وقادتهما أمي إلى غرفتها طالبة أن يستريحا قليلاً حتى تنتهي من عمل كانت تقوم به في تلك الساعة. ولما تأخرت في العودة لحق بها يستفهم أين نادر وكمال وندى بشكل خاص لأنه لم يرها منذ وقت طويل. وما أن فهم أنها ستتأخر في الشغل حتى أصرّ أن يستدلّ إلى مكان عملها، وإنطلق بمفرده يبحث عن محل الخياطة في شارع السادات إلى أن وجده بشيء من الصعوبة.

هبط السلم وقرع الباب مراراً إلى أن فتحت له سيدة ضخمة تلبس حجاباً أبيض على رأسها. وكادت ان تغلق الباب بوجهه قبل أن يشرح لها أنه عم ندى التي ما أن رأته حتى تابعت عملها وقالت لمعلمتها إنها لا تعرف هذا الرجل ولم تره في حياتها من قبل. لم يصدّق ما سمعت إذناه، فانحنى وفتح ذراعيه قائلاً، «ندى، يا عين عمك. أنا عمك سبع. ولو يا عين عمك ما عرفتيني؟»

حوّلتْ ندى نظرها عنه دون أن تجيبه، وقالت لمعلمتها مرة ثانية أنها لا تعرفه، وعادت تجلس وراء مكنة الخياطة متجاهلة كلياً. صعق ولم يجد ما يقول فصرفته المرأة وأغلقتْ الباب. ظل لدقائق يقف في مكانه لا يدري ما يفعل وتمنّى لو أن الأرض إنشقّت وابتلعته في تلك اللحظة، ثم انصاع مُنكّساً رأسه كمن حكم عليه بالشنق. وببطء عاد إلى الروضة ودخل الغرفة الجانبية ليجد زوجته وأم نادر تشربان القهوة، فانهارت دموعه الغزيرة. ومرّ وقت قبل أن يتمكّن من الكلام عما جرى له.

عبثاً حاولتا التخفيف من وقع الصدمة عليه. قالت له زوجته ان ندى ربما لم تعرفه حقاً فهي لم تره منذ تركتْ الضيعة وهي صغيرة. وتمنى لو كان هذا كلام صحيحاً، ولكنه لم يقتنع. هنا حاولت أم نادر أن تخفّف هي بدورها من هول الصدمة فأوضحتْ أن بيروت ليست كفرون فالناس فيها لا تعرف بعضها البعض. ثم أنها هي شخصياً أعطتْ صاحبة محل الخياطة تعليمات تمنع ندى من الكلام مع الغرباء.

لم تخفّف هذه الأعذار من وطأة خيبة أمله. ظل مقتنعاً أن ندى خجلت به وانكرته ببرودة أعصاب نادرة فلم تعد تسعه الدنيا إلى أن عدتُ من المدرسة وأصررتُ بعد أن اطلعتُ على ما حدث أن يذهب معي مشواراً إلى البحر وصخرة الروشة. ومرّ وقتُ قبل أن يستجيب للدعوة فامسكته وخرجنا معاً. أخذته إلى المنارة، وأطعمته سحلباً في مقهى شاتيلا، وراقبتُ معه مباراة كرة القدم في ملعب النجمة قبل أن أتوجّه به إلى الروشة حيث أخذتُ معه صورة تذكارية وهبطنا رغم إرادته فوق الصخور إلى البحر لأعرّفه بالمغارة التي كنتُ أقصدها دائماً للقراءة والكتابة.

وتعمّدتُ أن أظهر براعتي الفائقة في السباحة فنزعتُ ثيابي وقفزت إلى البحر من مكان مرتفع متحدياً الأمواج الصاخبة. ولما بدا لي أن عمي تخوف عليّ من الغرق، حاولتُ الإقتراب من صخرة بقصد التمسّك بها للصعود من البحر، ولكن الموج كان يقذفني إلى الداخل مرة أخرى. قمتُ بعدة محاولات دون جدوى، وحرصتُ على ألا أظهر تخوفاً كي لا أزيد من إضطرابه.

وفي محاولة للتظاهر بالمحافظة على جرأتي، رحتُ ألّوح له ضاحكاً كما لو أنني أتمتّع بتلك اللعبة الخطرة إلى ان أعددتُ نفسي لركوب موجة قوية رفعتني إلى مستوى الصخرة. خرجت من الماء منتشياً، وسرّني أن عمي اطمأن عليّ، وبقدر ما ظهر عليه الإطمئنان

بقدر ما تظاهرتُ بان ما حدث كان أمراً عادياً للغاية. عند هذا الحد بين الجد واللعب، طلب العودة إلى البيت فتعمّدتُ سلوك طريق آخر مروراً بزقاق التنوخين ودكان أبو طالب وشارع الحمرا وعرّفته إلى الحي الذي تسكنه عائلات كفرونية. وبهذا ضمنتُ أن تكون الروضة قد فرغت من الأطفال والمعلمات وبانت في أهدأ أوقاتها، وتكون ندى قد عادتْ من عملها.

تُروى عن عمي سبع، وهو الذي يلي أبي في العمر، حكايات عديدة حول خلافاته مع الناس فيقال دائماً أنه رجل «مشكلجي». يفتعل مجابهات لأتفه الأسباب وهو في حالة الوعي، أما عندما يشرب العرق حتى السكر فكثيراً ما كان يفتعل معركة مع نفسه: يبكي ويلطم وجهه، وقيل أنه كسر مرةً إبريقاً من الفخار على رأسه. ولا يعرف أحد لماذا يحوّل عدائيته تجاه نفسه في هذه الحالة وإن عُرِف عنه كمكاري القسوة في معاملة بغله، ولم يسبق له أن إشترى بغلاً مهما كان صغيراً دون أن يتحوّل عنده لكثرة الضرب إلى «شموس» يلبط أي شخص يقترب منه. ومن المعروف ان عمي دخل بتأثير من المحامي دانيال نعمة في الحزب الشيوعي، وكان أن قُبض عليه مع عدد من رفاقه وسجن وعُذّب، وما أن خرج من السجن حتى أصبح أكثر قسوة في تعامله مع بغله والجيران فتساءل البعض في الضيعة ترى من هو أكثر «شموسية» سبع أو بغله؟

لم نفتح هذا الموضوع في سهرتنا تلك. قضينا أمسية جميلة مليئة بالضحك وكان كمال قد عاد باكراً لحسن الحظ، وتجاهلنا جميعاً قصة عمي سبع مع ندى ذلك اليوم. بل أنها تعمّدتْ الجلوس قربه وأطعمها هو بيده كما تُطعم عصفورةٌ فراخَها. وسألتُ في استراحتنا بعد تناول العشاء ما أخبار الكفرون الأخيرة فقال عمي، «كالعادة لا شيء، أعراس، ولادات، وعوّضنا بسلامتك مات بربر وعيسى وتمينة». ولكن زوجة عمي بدره عرفتْ ما أقصد بسؤالي، فاخبرتنا آخر حكايات أم عدنان وأبوعدنان إلى أن شبعنا من الضحك.

مما روته عن ابو عدنان من حكايات أنه لشدة تدينه وتأثره بالتوراة كان يضرب زوجته كلما أغضبته لسبب ما على كاحلها مستوحياً اسلوب معاقبتها من قصة الخلق والحية والطرد من الفردوس فكانت تصرخ بألم بالغ إلى أن يتداركها الجيران. وربما كان أبو عدنان، الشخص الوحيد في الضيعة الذي يفضّل قراءة التوراة والاناجيل على سيرة الزير أبو زيد الهلالي، فلم يكن من الغريب أنه استوحى عملية تأديب زوجته بهذا الإسلوب الصاعق عملاً بما جاء في الأساطير الدينية عن حواء وآدم فاعتبر النساء مسؤولات حتى الوقت الحاضر والى نهاية العالم عن خطيئة الانسان الأولى، فحلّت اللعنة بالبشرية إلى أبد الآبدين. لقد إعتبر أبو عدنان ان إم عدنان هي حواء نفسها وهو آدم بذاته لكثرة مصائبه في هذا الزمن اللعين.

حدث أخيراً ان ابنه عدنان، وكان قد أصبح شاباً يافعاً، حضر إلى البيت صدفة من مدينة طرابلس ليجد والده يضرب أمه وهي مستلقية تحته تأن من الوجع وقد وضع كفه على فمها كي لا يسمع الجيران صراخها. وما كان من عدنان أمام هذا المشهد المريع في تلك اللحظة الحرجة إلا ان دفع والده بقدمه ومسكه من شعره إلى أن تمكّن من ضبطه. وقيل أن عدنان ظلّ يضرب والده إلى أن تدخّلت أمه قائلة، «دخيلك يا إبني، اتركه بلا ما تفضحنا أمام الناس». ولم يتركه عدنان بل استمر بضربه، وكان ما هو أخطر من ذلك فقد عمد إلى تمزيق توراته وأناجيله إرباً إرباً وأشعلها بالنار أمام عينيه إلى أن تحوّلت إلى رماد.

عند هذا الحد، وكانت أمه قد همدت وجلس أبوه في الزاوية مكوماً على نفسه، خرج عدنان من البيت وترك الضيعة متوجهاً إلى طرابلس بعد أن أقسم بالله العظيم أنه لن يعود نهائياً. هذا ما قاله لأمه بعد أن فشل باقناعها بالذهاب معه. قبّلتْ رأسه وباركته وبكت بعد ذهابه، وانتابها منذ ذلك الوقت مخاوف تطاردها في ليلها ونهارها من أن يغضب الله على إبنها إلى الأبد بسبب إحراقه التوراة والاناجيل، وربما لن تحلّ عنه اللعنة مهما استغفر الله، فهذا أمر لا يمكن ولا يجوز أن يحدث، وهي لا تعرف إنساناً آخر قام بمثل هذا العمل الشنيع.

لم يتمكّن أبو عدنان أن ينسى تلك الإهانة التي تعرّض لها على يد إبنه، وأصبح كلُّ ما يهمّه أن يذهب إلى الحقول منذ الصباح ولا يعود حتى المساء فينام دون عشاء رغم إلحاح أم عدنان ورجائها. ولم يستوعب لزمن تصرُّف إبنه، وأقسم أمام الله العليّ العظيم ألا يغفر له طيلة حياته. ولكنه فيما كان يزور مغارة مار الياس ذات يوم من أيام الخريف اكتشف جمجمة، فتذكّر فجأة ما فعل هو أيضاً في شبابه مع ابيه حتى بعد موته. حدث ذلك عندما فتحوا قبر أبيه ليدفنوا زوجته قربه وكان يراقب المشهد صامتاً. غير أن غضباً شديداً إجتاحه فجأة من الداخل فقد تذكّر قسوة أبيه عليه، ولم يجد نفسه إلا وهو يقبض على جمجمته ويتأملها بازدراء لبرهة ثم يرمي بها بكل ما يملك من عزم باتجاه صخرة فإنكسرت وتناثرت بعض أجزائها قبل ان تستقر في مكان منخفض مظلم شديد الرطوبة.

وما أن تذكّر أبو عدنان هذا الحدث الفظيع حتى أدرك أنه هو أيضاً أساء إلى ابيه في صباه، وتبادر له أن تصرّف إبنه معه كان

تماماً كتصرّفه هو مع أبيه. وتخوّف بعد تلك اللحظة أن تحلّ اللعنة في العائلة جيلاً بعد جيل. عند هذا قصد في اليوم التالي طرابلس وبحث عن إبنه إلى أن وجده فقبّله واعتذر منه ووعده ألا يتعرّض بعد الآن لأمه مهما حدث. وبل ذهب معه إلى السوق واشترى لها هدية ثمينة.

وإختتم عمي كريم السهرة بآخر ما سمعه من حكايات الضيعة. قال أنه أصبح لابراهيم عشيقة يسهر معها كل ليلة على رأس الجبل. وهناك حكي أنها حبلت منه وهي في شهرها التاسع.

هكذا توالدت في جلسة ذلك المساء عن كل حكاية حكاياتُ أخرى أكثر طرافة وحلّ بنا التعب بعد نهار طويل حافل بالمفاجاءات.

فهمتُ من عمي سبع قبل مغادرته أنه جلب زوجته إلي بيروت لإجراء فحوصات طبية لها وطمأنني أن لا خوف عليها. وانصرفتُ عن الموضوع فقد ذكّرني وجوده معنا في بيروت بما كانت تقوله أمي عن أن أبي كثيراً ما كان يضطر للانجرار إلى خوض معارك بدأها عمي سبع لأسباب واهية. هنا ولأول مرة أربط بين علاقتي مع أخي كمال وعلاقة أبي باخيه فتذكّرتُ أنني كنت منذ سنوات قليلة أسير معه عند الغروب في شارع منصور جرداق في طريقنا إلى المنارة، ولما وصلنا قرب منزل سهى تميم وكانت تقف على الشرفة تتأمل المارة في الشارع، صدف مرور ملاكم بدأ يكتسب شهرة واسعة في لبنان. ولا أدري بماذا علّق كمال عليه فأومأ له الملاكم ان يقترب منه، وما أن استجاب حتى مسكه من إذنه وشدها بقسوة محذّراً، «مرة ثانية انتبه شو بتقول. سمعت يا ولد؟»

لم أمتلك غضبي فاقتربتُ من الملاكم وقلتُ بصوت مرتفع كي تسمعني سهى وبقية الجيران، «ما بتخجل على طولك وعرضك تضرب ولد صغير؟». قال الملاكم، «حلّ من وجهي إنتَ كمان أحلا ما كسّر لك راسك». وبدل ان ابتعد عنه تقدّمت خطوة باتجاهه وأجبته بجرأة لا أدري من أين أتيتُ بها، «حلّ إنتَ، ما بتخجل على حالك». واستغربتُ أنه انسحب من المجابهة مشيراً لي بظاهر كفه أن أنصرف، كما لو كنت حقاً بعوضة. في تلك البرهة رفعتُ نظري إلى سهى فوق الشرفة فوجدتها تبتسم بارتياح، وإن إعتبرتُ فيما بعد أنني كنت حقاً متهوراً أكثر من اللزوم.

وربما كان التهوّر من خصالي كما بدا لي خلال مواجهة أخرى لم يكن لأخي كمال علاقة مباشرة بها. هبطتُ صباحَ يومٍ شارع السادات وانعطفتُ يميناً إلى شارع بلس قاصداً محطة الترامواي. في تلك اللحظة إقترب مني ولدُ مجايل لي ومن حجمي وكنتُ قد رأيته مراراً في الحي من قبل دون أن نتكلّم. تطلّع اليّ من فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق وفاجأني بقوله، «إنتَ ما بتعرف من أنا. أنا ريس الحي هنا. سمعت؟».

شعرت بحدسي أن ذلك الصبي الأرعن يعتبرني غريباً ويتعمّد إذلالي وإذا ما سكتُ وتجنبتُ المواجة سيُسيطر على حياتي إلى الأبد. ولهذا كان عليّ، كي أحافظ على كرامتي، إن ألقّنه درساً لا ينساه. دون تردّد استدعيتُ كل ما في داخلي من طاقة وفاجأتُ نفسي كما فاجأتُ خصمي بالانقضاض عليه دون أن أتفوّه بأية كلمة. وقبل أن يدرك كنت قد قبضتُ عليه بشكل منعه من التحرّك ورفعته ثم هويت به إلى الأرض بقدر ما أملك من قدرة مهدّداً أياه بقبضة يدي المتشنجة. ولم أتسلّق الترامواي عندما وصل إلى المحطة كي لا يُظنّ أنني إنسحبتُ من المعركة. على العكس، إنتظرتُ إلى أن انسحب خصمي متوجهاً إلى بيته في أسفل شارع السادات.

ويبدو أنني توصّلتُ إلى إحساس منذ ذلك الوقت وربما حتى الآن بان تلك المواجهة تركتْ أثراً هاماً في نفسي من حيث أنها حدّدت نوعية علاقاتي بالأقوياء أفراداً كانوا أو مؤسسات وأنظمة. لقد اقتنعتُ منذ تلك التجربة بضرورة المجابهة بصرف النظر عن تكافوء القوة، فليس هناك ما هو أسوأ من الرضوخ.

وبالفعل، لم يمّر وقتٌ طويل بعد هذا الحادث حتى وجدتُ نفسي أخوض مجابهة أخرى فرضتْ نفسها عليّ. ذهبتُ يوماً مع أخي كمال لحضور فيلم طرزان في سينما الكرستال عند مدخل سوق النورية. ولما كانت القاعة مليئة بالحضور وغالبيتهم من الصبية، أجلسونا على المسرح قرب الشاشة مع جمهرة من الأولاد. ولدى خروجنا من

القاعة بعد إنتهاء العرض، يجب أن يكون أخي قد دعس دون قصد على قدم أحد الأولاد فدفعه هذا عنه وبدأت معركة قصيرة، إلا أننا وجدنا من الانسب أن نلجأ للهرب بعد أن إكتشفنا أن الولد كان بصحبة جمهرة من رفاقه. ولسوء الحظ، تمكّنوا من القبض على أخي وأخذوا بضربه قبل أن نتمكّن من الاختفاء في زحمة الجماهير عند التقاء ساحة البرج ومدخل كريستال إلى سوق النورية. وما أن رأيت الدم ينزف من أنفه حتى اندفعت أفصل بينهم وبينه مسنداً ظهري إلى حائط كي لا يتمكّنوا من مهاجمتيي سوى من الأمام. دافعتُ عنه وعني، وحقاً شعرتُ أنه نَمَتْ لي عدة أيدي وعدة أرجل وقد استعملتها كلها في الوقت ذاته إلى أن تدخّل بعض الحضور.

وكان قميصي الأبيض قد تلطّخ بالدم الذي سال من أنف أخي فتوجّهنا حالاً إلى أول محطة تراموي باتجاه المنارة لنعود إلى البيت ونغسل القميص لإزالة آثار المعركة قبل أن تكتشف أمي ما حدث. ولكنها إكتشفتْ الحقيقة فلقّنتنا درساً يجب أن يكون أخي كمال نسيه بعد وقت قصير عندما خاض أيضاً معركة مع ولد آخر لأسباب لم يصرّح بها حين كان يسبح بمفرده في مسبح عين مريسة. هنا أيضاً فرّق بينهما الناس، ولكن الولد غدره من الخلف وضربه بإبريق الفخار على رأسه فسقط مغشياً عليه. ولخطورة الأمر دعا صاحب مسبح عين مريسة مختار العيتاني رجال الإسعاف والشرطة من مخفر حبيش فحضروا وأجروا التحقيقات الأولية وقبضوا على المعتدي. وتفجأنا بعد أيام أن حضر إلى بيتنا الاستاذ جورج أشقر وقدّم لأمي مئتي ليرة من أهل الولد لقاء ما أسماه إسقاط الحق الشخصي. وقبلتْ أمي العرض رغم ممانعتي، ربما خجلاً من الخواجة جورج، الأمر الذي أزعجها كثيراً فيما بعد عندما أبلغنا الطبيب أن تلك الضربة إلتي تلقّاها أخي على رأسه قد تترك أثراً دائماً.

وحتى الآن لا أعرف ما المصلحة التي جعلت الواعظ جورج الأشقر أن يتوسّط لحماية المعتدي، وهو الذي سبق أن ألقى علينا موعظة دينية في ميتم دانيال أوليفر في رأس المتن؟ ويجب أن يكون قد مرّ وقت طويل قبل أن أدرك أن الوعي الطبقي يبدأ عند الأغنياء لانشغالهم الكلي بمصالحهم فقد عرفت من كتاب عين مريسه للدكتور عصام شبارو ان والد ذلك الفتى الذي ضرب إخي هو إبن احد قبضايات المنطقة ومن عائلاتها البارزة.

ظلّت بهية تلك الليلة في حيرة من أمرها، فنادتْ الله والعذراء والمسيح سجوداً ومن أعماق قلبها مستعينة بكتاب الصلوات وما ولدّ في نفسها من تداعيات نبتتْ في تربة حياتها:

إرحمني يا الله وساعدني أن أكتشف طريق الخلاص،
لأني عليك توكّلت،
واليك لجأت،
نجّني يا ربُّ من الأشرار.
هناك حروبٌ تملأ الأرضَ، وضيقٌ عنه لا نرضى،
غدونا كلُّنا مَرْضَى،
وليس فينا سواك مَن يُداوينا وينقذنا من الهلاك.
تشفّعي فينا يا عذراء
وعين الرجاء،
وتحنّني علينا نحن الذين نعيش في ظلّ حمايتك.
وبميلادكَ أيها المسيح صارت الكلمة جسداً.
من أجلك تركتُ كلَّ شيءٍ وتبعتكَ، وأخترتُكَ لي عوناً.
نظرتُ في عينيك وعرفتُ ما في قلبك يا مرفأ التائهين.
أنتَ سراجي في عتمة الدرب،
وسفينتي ومرفأي،
وحبة القمح التي زرعتها في قلبي،
والماء الذي يروي عطشي.
إجعل حياتي ملكاً لديك.
إنني جائعة وانت خبز حياتي.
علّمني حبك أيها المسيح.
إملأ قلبي حباً حيث البغض ومغفرةً حيث الإساءة،
وإيماناً حيث الشك، ورجاءً حيث اليأس،
ونوراً حيث الظلمة، وفرحاً حيث الكآبة.

إجعلني غصناً في شجرتك التي تظلّل الكون،
وزهرة في حقلك.
أنتَ نَغَمُ حياتي وحبي الأول والأخير.
مثل عطش الصحراء هكذا عطش نفسي إليك،
وليس لي سواك أنتَ يا وجه السماء.
إليك أمشي على أجفاني يا ضوء عينيّ وشمس حياتي.
وأريدك أن تعرف أن قلبك مسكني
ووطني الأبدي.

وكان أن نامتْ بهية تلك الليلة هانئة، وأبصرتْ أحلاماً جميلة منها أن مروان طلب يدها، فاتصلت به لتكتشف أنه كان ينتظرها بشوق إنما لم تجده مرتاحاً كلياً فتبادر لها أن حدثاً ما يجب ان يكون قد عكّر صفاءه ويريد إخفاءه عنها. ولم يطل الوقت حتى سمعتْ من أنيسة ان أمه جاءت بزيارة مفاجئة من الضيعة. وكان من الصعب أن تراها أو لا تراها، خاصة وأن الدكتور خالد مصطفى حدّد لها موعداً للنظر في العرض الذي سيقدّمه لها للعمل معه في جدة.

ومن حيث لم تتوقّع بدأتْ تشعر أنها على وشك أن تفقد قدرتها على ضبط أعصابها، فوجدتْ من الأنسب أن تنهي المكالمة. أخيراً حدث لها ما كانت تتخوّف منه. في أية لحظة كان يمكنها أن تغضب أو تبكي. فهمت الواقع على حقيقته. لا بدّ أن أم مروان حضرتْ خصيصاً من الضيعة لبيروت لتضع حداً للعلاقة بينهما. ومع أنها لا تشك بحب مروان، إلا أنه لا يستطيع في النهاية على ما يبدو أن يقاوم إرادة أمه. كان يجب ان تعرف هذا من قبل فلا تسمح لنفسها أن تصل إلى هذه المواصيل التي تمسّ بكرامتها، ويكفيها ما تعاني من أوجا ع.

وما أن إعتذرت عن متابعة المكالمة وأغلقتْ الهاتف حتى عاد واتصل بها ليعلمها بقدومه ليوصلها إلى عيادة الدكتورخالد. قالت: لا حاجة، أرجوك.

ـ لا يمكن. أريد أن أوصلك، وأوضح لك الأمور بصراحة

118

ـ أية أمور؟
ـ أعرف ما يجول برأسك
ـ وأنا أعرف ما يجري.
ـ خلّنا نحكي برواق

واقبل بسرعة لم تتوقّعها. ساد بينهما صمت إلى أن فكّر ملياً ان يصارحها بما حدث حقاً. قال بتردّد: بهية، تعرفين أنني أحبك وأريدك ان تكوني رفيقة لحياتي. ليس من قوة تفصلنا ولا بدّ ان نثق ببعضنا البعض ونصبر على المكروه. وضعي الحاضر لا يسمح لي بالزواج. كما تعلمين، فقدت وظيفتي وهناك مَنْ يريدون أن يلصقوا تهمة الأهمال بي ولي أعداء ومنافسون أقوياء. أمي حضرت خصيصاً من الضيعة تحمل لي رسالة من خالي في البرازيل يطلبني فيها ان أهاجر للعمل معه. هذه فرصة عمر لا يمكن أن أتخلّى عنها. سأهاجر، وما أن تستقر أحوالي حتى أعود ونتزوّج حسب ما تسمح الظروف ونكون على اتصال دائم في هذه الاثناء.

مرة أخرى تشعر أنها تسقط ضحية براءتها، فتقول لمروان بحزم: لا أريد غير ما تريد لنفسك. واضح أنك قرّرت السفر. اتمنى لك النجاح وراحة البال. هذا أهم ما في الحياة. وأنا أحبك كما تحبني، ولكن منْ يعرف كيف ستكون ظروفك في البرازيل. لا أريدك أن تلتزم بي. إفعل ما تراه مناسباً لك. لا تقلق عليّ بتاتاً. تعلّمتُ ألا أتوقّع كثيراً من الحياة، فأنا اثق كل الثقة ان الله يرعاني ويسهر على مصلحتي ويحبني كما أحبه. والمسيح يسكن قلبي فلا تخيفني العواصف. والعذراء تحرسني من كل أذى. أنا لم أُخلق لأفرض نفسي على أحد ولا أريد أن أسبّب أي إزعاج لأي إنسان. أريدك أن تطمئن من هذه الناحية. أعتقد أن الدكتور خالد مصطفى يريدني أن أعمل معه من كل قلبه وباخلاص، وأنا سأخلص له وأعمل بكل جهد. لديّ شعور أنه إنسان طيب. لا شك عندي، وثقتي به عميقة.

لم يستغرب مروان ما صدر عنها، فقال: أنت تثقين به، لأنك تثقين بنفسك وقدراتك ومواهبك وإخلاصك في العمل. واتمنى أن تثقي بي

أيضاً. صحيح أن خالي رجل أعمال ناجح وأحواله جيدة جداً، ولكنني لا أطمع بالمال. إنها فرصة لبناء حياتنا معاً.

- هيهات أن نلتقي.

- بهية أنت متشائمة بهذا الخصوص. سنلتقي رغم البعد.

- مروان، تأخّرت عن موعدي. يجب أن أذهب الآن.

أوصلها بسيارته إلى تقاطع شارعيّ الحمرا وعبد العزيز لتمشي باتجاه عيادة الدكتور خالد مصطفى، وسألها إذا كانت تريده أن ينتظرها فاكتفتْ بالقول، «سلّم على الماما»، وأسرعت في سيرها ثم تباطأت دون أن تنظر إلى الوراء.

***

نبّهني وجود عمي سبع في بيروت للتناقضات الظاهرة والخفية بين المدينة والقرية فاستدعتْ حكايات الضيعة إلى ذهني الكثير من أحداث المدينة التي تفتح أبوابها في وجهي من ناحية وتغلق نوافذها من ناحية أخرى، وتبيّن لي أنه لم يصدف أن حقّقتُ إنجازاً هاماً دون أن أخسر بعض ما يحدّد هويتي ويُثبّتُ مواقعي غير المستقرة في خريطة العلاقات. وما أن تكوّن لي هذا الوعي حتى بدأت أفهم بوضوح لماذا أزداد إحساساً بالغربة عن المكان مهما انتميتُ ونبتتْ لي فيه جذور جديدة.

وإمعاناً مني في خوض هذه المسألة وجدتُ نفسي انصرف للتأمل في أمور أخرى لا تقلّ إلحاحاً فقلت لجسدي صباح الخير لدى يقظته الأولى وتابعتُ القراءة التي كثيراً ما تبدّد ظلمة الطريق. في هذه المرحلة ازداد ولعي بالقضايا التي تشغل الفكر وتصنع المصير وتحرّر الإنسان من هيمنة السلطة بكافة أشكالها وألوانها، وبالبحر أخوضه سعياً وراء جزره البعيدة واللامرئية وعرائسه التي لا تنقطع عن إنشاد إغاني الإغراء في هذه المدينة الملونة التي تجتذبني مهما ملكتُ من القدرة على المقاومة.

ولمجرد التسلية والتندر في النادي العربي وجدتني من حيث لا أدري أذهب بمفردي إلى فاطمة في أحد الأحياء اللشعبية لمعرفة أي مستقبل ينتظرني وعلّها تخبرني ما إسم الفتاة التي أحبها حقاً وما الذي يربطني بالزمن والمكان وأية علاقة تقوم بينهما وكيف يكون الانتماء كما التحرّر من قيودهما وهل استطيع بقدراتي الذاتية أن استنبط نهجاً مختلفاً لحياتي. ورغم فراغ جيبي، قرأتْ لي فاطمة صفحة رملٍ وفنجان قهوةٍ ولامستْ برأفة عروق راحتيّ لتخبرني أن طريقي طويلة ومتعرجة ومتدرجة صعوداً هبوطاً ولكنها في نهاية المطاف ستؤدي إلى بوابة منزل عند حافة نهر تسكنه فتاة تحب العصافير والناس وتصغي للموسيقى وتأكل نباتات الأرض وتصرّ أن يكون لها رأي في أمور الدنيا والآخرة. وعندما حان موعد الانصراف، ختمتْ كلامها قائلة لي أنني ساتمكّن أن أرسم خطوطاً في الرمل والزمن ولن تقوى أمواج البحر على إزالتها.

ولما علم عادل بزيارتي إلى السيدة فاطمة نصحني بإستطلاع معالم مستقبلي من وجهة نظر أخرى، فقصدت أم إسكندر عرمان. وكان أن مارستْ طقوساً لم أكن على علم بها وتنبأتْ لي بما سوف يحدث من أزمات تعكّر صفاء الحياة في بيروت ولدى الكثير من الناس، وسيكون لهذه الأحداث آثارها الدائمة في تفكيري. قالت ان تنيناً مجنّحاً سيخرج من مغارة عند التقاء النهر بالبحر وينفث من جوفه ناراً يحرق الأخضر واليابس، ويشترط ان يلتهم أجساد فتيات بعمر الورود ويسلب المدينة حليّها وجواهرها ويهدّدها بتدمير بساتينها ويقضي على مزارعها وتجاراتها المزدهرة، وسيمرّ وقت طويل قبل أن يأتي فارس شجاع ينقذ المدينة من شروره. وربما يتمّ قتل الفارس في طريقه لمجابهة التنين. ليس من إشارات متى يحدث ذلك، وعلى الأغلب أن يفاجئنا التنين حين لا نتوقّعه بتاتاً. سيكون كل فرد منا منشغلاً بذاته ومأخوذاً برفاهيته. كما هناك مواسم للنعمة، هناك أيضاً مواسم التنين أيضاً، وهي قادمة لا محالة، وحين يحضر لن نعرف كيف حضر ولماذا ومن أين وهل هو غريب عنا أم واحدٌ منا وجزءٌ من نسيج حياتنا وتجسيدٌ لمطامعنا وجشعنا وغرورنا. وحين يغيب التنين تاركاً وراءه دماراً لا يصدّق لن نغيّر شيئاً من تقاليدنا ونظرتنا لأنفسنا وغيرنا، وننسى أن التنين قد يعود مرة أخرى ليهدم ما بنيناه على قواعد واهية.

هذا بعض ما نطقتْ به أم إسكندر عرمان، وتصرّفتْ كما لو تعرف عني شخصياً أكثر مما أعرفُ أنا. ثم إلتفتتْ إليّ كما لو لم أكن حاضراً وحدّقتْ ملياً في عينيّ ثم قالتْ: أنت إنسان ناعم ومهذّب وذكي وسيكون لك مستقبل باهر في مجال ما لا أعرفه. إلا أن صعوبات عديدة ستعترضك وتمتحنك، ومهما كانت الصعوبات فانك ستكون على مستوى الامتحان وتخرج منه أكثر قدرة وثقة بنفسك ومجتمعك.

قلت شكراً ومضيتُ. لم يشغلنى حقاً ما قالتْ، بل تابعتُ التفكير بانتمائى إلى المدينة وعاهدتُ نفسي ألا أنسى جذوري بتاتاً فهي مصدر نموي وبها يتكوّن لشجرة حياتي أغصان وأوراق وأزهار وثمار وظلال أينما توجّهتُ، وبما أُعِدَّ لي من رايات وشعارات وحدود وأنظمة وثقافات وإنتماءات يحقّ لي أن أتمسك بها بقدر ما يحقّ لي أن اتجاوزها بضوء قناعاتي الخاصة. ثم قلت لنفسي صامتاً أن للتجاوز ثمنه يا نادر الكفروني، لا شك في ذلك، فهل أنتَ مستعد أن تدفع الثمن مهما بلغ؟

ثم وجدتُ نفسي في زمن الصبوة الأولى أكرّر أنني إزددتُ حباً بالموسيقى وأصبحتُ أرى ان لها علاقة بالطيران والسباحة وهبوط المطر وهبوب الريح وتحرك الأمواج. وقرأتُ في ساعات الفراغ شيئاً عن أغاني الطيور، وحكايات عن ولع الحيتان بالموسيقى. أحسستُ أنها موهبة ذات أصول في الجسد والدماغ وحدس الانسان والمخلوقات وخاصة طيور السماء وحيتان البحر وأغصان الشجر فوق قمم الجبال العالية. بل قلت ان للموسيقى أصول في أوراق شجر الحور كما عرفتها في أودية الكفرون وكما في تحرّك الأعشاب وسنابل القمح. ثم قرأت دراسة ممتعة عن اكتشاف آلات موسيقية تعود لزمن بعيد تكوّن الحضارات. وقيل أن للطيور أغنياتهم منذ ملايين الأعوام وانها، كالإنسان، تؤلّف ألحاناً وتنويعات إيقاعية تعبيراً عن مشاعرها ورغباتها.

أعود إلى البحر بدءاً من الأماكن التي يتداخل فيها البحر. اتردّد إلى أماكن يدخل فيها البرّ بالبحر مثل رأس بيروت وطبرجا والشقعة وقرية وجه الحجر ودير النورية. ثم قصدتُ أماكن أخرى حيث يدخل البحر في البر مثل خليج جونة، أو حيث يتداخلان فيتداعى إلى ذهني أن صخرة الروشة إمرأة تفتح رجليها للبحر شامخة برأسها دون حياء ودون أن يرشقها الناس بالحجارة فتبني حمامةٌ عشاً في شَعْرها.

وألمس عشقاً بين البحر والنهر لدى زيارة إستكشافية لنهر الدامور. ضبطتُ النهر من حيث لا يدري يخشّ في البحر دون حياء وأنا أراقبه من على سطح كنيسة، وظننتُ أن الزبد ليس سوى أثر من آثار النشوة. والتقطتُ له صورة في هذا الوضع لم أزل أحتفظ بها. ومثل الأنهر سعيتُ إلى البحر استقبل هواءه بصدر مفتوح. ما أجمل أن يَفْتَحَ صدري نوافذَه لهواء البحر. إفتحي يا صديقتي قميصك لعواصف قلبي وتصوّري نفسكِ بحراً كي أتصوّر نفسي نهراً، أو ليكن العكس إذا طاب لك.

أسبح في بحر لا حدود له.
شاسع، عميق، رحب، متحرِّك، حي،
مليء بالمخلوقات العجيبة من كل لون وشكل
وبجزر تتلاقى وتفترق.

121

وحين أفكّر بالمدّ والجزر،
أسأل ما علاقة البحر بالشمس والقمر،
وهل أصدف حصاناً للبحر كالذي إمتطاه الخضر؟
أركب الموج حصاناً،
وأجعل من ذراعيّ مجاذيف،
وأتصوّر الموج تلالَ البحر وأوديته.

ليس من الممكن أن أُقيمَ معبداً للبحر. هو المعبد بذاته، والعبادة وموضوعها، والقداسة بعينها. أنزع حذائي وثيابي لأدخل البحر كما أدخل معبداً. يقال أن نبتون هو إله البحر. لا إله للبحر خارج ذاته، البحر إله ذاته. يعشق الشمس، ويراقص الريح، ويتأرجح على حبال القمر. لذلك كان ولعي بالموج واقتحامه فتصوّرت يوماً انني ماء، وفي أيام أخرى انني طائر، أو شجرة فوق جبل. ووسط الموج أبحث بلهفة عن أسماء لمشاعري ولأشكال الرياح.

أتذكّر أن أسماء الآلهة التي عبدها سكان بيروت القدماء اقترنت بالبحر، وتقول اسطورة ان عروساً للبحر باسم بيروت كانت ابنة عشتار وأدونيس. ثم بحثتُ عن قنديل علاء الدين تحت الماء كما لو كان أفقاً، ورأيت في حلم جميل أنني كي أكون مبدعاً لا بد من استكشاف الأعماق وأن أكون نهراً يسعى للبحر.

وكان بمرور الوقت أن تحوّلتْ دائرة اهتماماتي إلى آفاق كحبيبة تبتعد كلما اقتربت منها. وتمنيتُ أن أتكلّم وأكتب كما يتدفق شلالٌ

في زمن المطر. وقبل أن يمرّ الأربعون على وفاة بدره، سمعتُ أن عمي سبع الذي بلغ الستين من عمره تزوّج فتاة في الثامنة عشر من عمرها. ولم أصدْق أيضاً أن بهية رحلت أخيراً إلى جده لتعمل مع الدكتور خالد مصطفى، ولم تودّع أحداً.

قلتُ مرة أخرى أنها ستبدأ حياة جديدة.

5 ـ زمن الانتماء

عبرتُ في مطلع الشباب مرحلة قاسية من الصراع العبثي بين عقلي ورغباتي فتجنّبتُ اللهو منصرفاً لدراستي والعمل في تأمين معيشتي وممارسة السباحة ومباريات ألعاب القوى. وزاولت إضافة إلى كل ذلك هواية الكتابة التي أدركت من خلالها معنى صراعي الحقيقي مع نفسي كما مع المجتمع والأنظمة. وكان أن اعتبرتُ نفسي انساناً سعيداً، وأن بين أهم مصادر سعادتي العلاقة الحميمة التي اكتشفتها بين الكتابة والبحر والموسيقى.

ولم يفتني أن أحذّر نفسي من ميول للإنزواء الذاتي فتولّعتُ تدريجياً بالمشاركة في نشاطات ثقافية وسياسية. في الواقع أنني لستُ متأكداً متى بدأتُ أفكّر جدياً بالتحرّر من انشغالاتي الذاتية فأهجر صَدَفتي التي أحملها على ظهري وأحتمي بها من مخاطر الحياة. على الأغلب أنني وجدت نفسي أخرج دون تردّد إلى العالم الرحب للبحث في معنى الحياة وما الهوية التي أتخذها لنفسي وما القضايا التي تستحق الإهتمام فانخرط في حركة تسعى لتغيير الواقع بفعل النكبة الفلسطينية وما رافقها من أحداث في بيروت وأنا في السنتين الأخيرتين من دراستي الثانوية في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات.

في تلك الأيام، أدرك عددٌ منا نحن الطلبة وبل الناس عامة إلى حدّ ما ان الحكام الوطنيين حلّوا محلّ الانتداب الفرنسي لا ليغيّروا الأوضاع والنظام بل لتعزيز مصالحهم الشخصية على حساب الشعب والمجتمع. وما أن أدركتُ كغيري أن العائلات البارزة التي تحمل القاب بيك وشيخ وأمير من مختلف الطوائف ظلّت تحتكر السلطة بعد نيل الاستقلال وتستولي على الوطن والشعب حتى قلتُ لنفسي: إسمعْ يا نادر، كفاك إنشغالاً بمن أنتَ وحان الوقت لأن تنشغل بقضايا المجتمع. لقد بلغتَ تلك اللحظات من العمر عندما يكون عليك أن تخوض معارك الحياة وتنفتح على التجارب الانسانية في حلوها ومرّها فتختبر علاقة كينونية صاخبة كما لو تصغي لسينفونية الحياة في صراعها مع العدم. تلك هي اللحظات التي تشعر فيها إنك تقترب من الإحساس بالسمو الجمالي والاخلاقي والتحرّر من عالم الكابوس لتدخل مناخات الحلم. دون ذلك لن يكون لمؤلفاتك أية أهمية.

يأتي يوم، وهو قريبٌ، يكون عليك فيه أن تصبح فارساً لا عالة على المجتمع فتستوحي المنقذين في تاريخ الصراع البشري. لا يكفي أن تنقذ نفسك، فهناك أيضاً مهمات إنقاذ الأمة من تنين يهدّدها في صميم وجودها. في كل حضارة تنين تجب محاربته، ولم يكن كافياً أن تبني بيروت سوراً حول نفسها يحميها منه دون أن تدرك إن المغاور والبرك والمسالك والكهوف والانهر التي يسكنها تمتد عميقاً تحت الأرض. إننا نعيش في زمن أصبح فيه كلُّ منا معرّضاً للخطر من الداخل والخارج، ولكل مجتمع حكاياته معه، وكم من أمة بحثتْ عبثاً عن فارس ينقذها من تنين غار في أعماق النفس البشرية واتخذ منها مغارته. مَنْ سيّد بيروت؟ التنين أم الفارس المنقذ؟ من أين يقبل الفارس المنقذ الغريب؟

ليس من أجوبة واضحة ومحدّدة. كل ما في الأمر إن هناك حكايات غامضة. تقول حكاية ان التنين طلع من البحر، وحكاية أنه أتى من بابل، وحكاية أنه من النيل، وحكاية أنه فلاح بسيط يولد من رحم الأرض، وحكاية تصوّره يندفع من الصحراء عطشاً، وحكاية تتحدّث عن مهاجر بريء لا طموح له سوى أن يكون مصلحاً. إنها حكايات لا نعرف ألغازها. ولذلك احتجنا نحن البشر دائماً إلى حماية الآلهة. المهم كيف نصرع التنين يا نادر؟ إخرج إلى الحياة من صدفتك وخضْ معارك الحياة دون خوف.

تلك هي بعض المسائل التي شغلتْ نادر في مطلع شبابه وقد بدأ يقرأ ويبحث ويتساءل ويناقش ويتأمل في شؤون الحياة. كان ذلك، كما يذكر جيداً، في السنة الثالثة من العهد الثاني لبشارة الخوري، وكثيراً ما راقب في الصحف وكتب التربية الوطنية صوراً رسمية له مع غيره من الزعماء السياسيين من أمثال رياض الصلح وكميل شمعون وحبيب ابو شهلا ومجيد ارسلان يلبسون التكسيدو في المناسبات الوطنية مثل الكراكيز في مسرحية عبثية مقتبسة من تراث أهل الحل والربط في أزمنة مظلمة.

تأملنا نحن الصبية في المدرسة الاستعدادية هذه الصور بكثير من الحشرية والاستغراب، واستوقفتنا خاصة صورة أمام السراي في ساحة البرج لوزير خارجية لبنان سليم تقلا ووزير خارجية سورية جميل مردم والرئس سعدالله الجابري ورياض الصلح يلبسون الطربوش والتكسيدو معاً فلم ندري من أين جاءت هذه المخلوقات العجيبة. أما أكثر ما أثار الضحك في صفوفنا فكانت صورة تعود لعام

1936 في باريس ظهر فيها سعدالله الجابري وهو يلبس برنيطة انكليزية بينما لبس هاشم الاتاسي ورياض الصلح برنيطة فرنسية. وأعجبنا في هذا المجال تعليق بأن حكامنا يريدون ان يظهروا اوروبين في الوقت الذي يكافحون علناً من أجل الاستقلال. وحذّر البعض أثناء نقاشات محتدمة من أن أبناء العائلات البارزة من مختلف الطوائف يتنافسون للوصول إلى السلطة، وها قد بدأ زمن إستبداد آخر يحلّ محلّ الإستبداد السابق.

تلك كانت بعض المشاعر التي بدأت تترسّخ في النفوس بعدما غادر آخر جندي فرنسي أرض لبنان، فلاحظ أحدنُا في حلقة ثقافية ـ كما لو إكتشف آثار السندباد في جزيرة نائية ـ ان رياض الصلح ظلّ يلبس يوماً الطربوش ويوماً البرنيطة حسب المناسبات والحضور والأجواء، فلم يكن من الغريب ان يوافق على تكريس النظام الطائفي في الوقت الذي يظهر خارجياً أنه يعمل على تغييره من موقع عروبي. قال في البيان الوزاري خريف عام 1943 للحصول على الثقة: «من أسس الاصلاح التي تقتضيها مصلحة لبنان العليا معالجة الطائفية والقضاء على مساوئها فان هذه القاعدة تقيّد التقدم الوطني من جهة وتشوّه سمعة لبنان من جهة أخرى فضلاً عن أنها تسمّم روح العلاقات بين الجماعات الروحية المتعددة التي يتألف منها الشعب اللبناني... ان الساعة التي يمكن فيها الغاء الطائفية هي ساعة يقظة وطنية شاملة مباركة في تاريخ لبنان. وسنسعى لكي تكون هذه الساعة قريبة باذن الله...».

أصبح واضحاً أن تلك الساعة لن تأتي بتاتاً، ولم يكن هناك مَنْ يتوقّعها ويعمل من أجلها حقاً، فكل ما يقال ما هو سوى كلام عابر في مواسم الاحتفالات الوطنية للاستمرار في الحكم والتحكّم. طبعاً، كان البيان مجرد وعود للحصول على الثقة، فلم تتمّ أية محاولة ولو شكلية لتغيير النظام الطائفي. على العكس، واظبت الحكومات اللبنانية المتعاقبة بكل ما لديها من الوسائل وبقصد ودون قصد على ترسيخ الطائفية في مختلف المجالات. أدخلوها إلى النفوس لدى الأجيال القادمة من أبواب ونوافذ الكتب المدرسية كما من خلال الوظائف الحكومية والخدمات الاجتماعية وتوزيع الحقائب. وإذا كان من درس تعلّمه الناس فهو ألا يثقوا بالوعود فنشأت بينهم وبين الحكام فجوة عميقة واسعة لم يرغب أحد بتجاوزها سوى أصحاب المصالح.

لم يتردّد رياض الصلح، هو الذي لقّبته الأنظمة ببطل الاستقلال، أن يصف علانية بريطانيا والولايات المتحدة ب «الدول المجاهدة في سبيل حرية الشعوب»، وأوضح على عينك يا تاجر ان حكومته لن تقبل بتوسيع حقوق المرأة السياسية برغم تعاطفها مع روح الاقدام والشجاعة التي تظهرها سيدات لبنان المطالبة بهذه الحقوق. وحسب ما أخبرنا إستاذ التربية الوطنية، اشتهر عن رياض الصلح المعروف بميوله العربية قوله عام 1928«انني لبناني إنفصالي». على عكس ذلك قال جبران التويني، والد غسان، في العام ذاته، «نحن طلاب حرية واستقلال ولا نرضي عن عروبتنا بديلاً، وإذا كان في لبنان من يقول أنه لاتيني أو إغريقي أو فينيقي فليذهب باحثاً في المتاحف عن أولئك الجدود المزعومين».

لقد تبيّن أن في كل بلد عربي مَنْ يبحثون عن مثل هذه المتاحف وإن تغيّرتْ الأسماء والشعائر. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن نكتشف أن وراء تسمية هؤلاء الحكام بأبطال الاستقلال محاولة بائسة للتمويه والتضليل، فلم يكن من الغريب أن تتراكم الهزائم العربية. ومن هنا ان أرسل البطل عبد القادر الحسيني مذكرة من القسطل في 6/4/1948إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية قال فيها، «إني أحمّلكم المسؤولية بعد أن تركتم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح»

وتوصّل الطلبة من خلال مثل هذه النقاشات في صفّ التربية المدنية ومنتدياتهم إلى أن أهل السلطة كثيراً ما حاولوا تغطية عجزهم فأشبعونا إفتخاراً بان لبنان أسهم بتأسيس منظمة الأمم المتحدة وبأن الميثاق الوطني الطائفي تجربة تلاقى حولها مسيحيون منفتحون على العروبة مع بشاره الخوري ومسلمون مقتنعون بلبنان الوطن والدولة المستقلة مع رياض الصلح، وحذّرونا في الكتب المدرسية من شأن أي توجّه عقائدي يجنح بالتجربة خارج مسارها الحقيقي ويهدّدها بالأخطار كي يكون لبنان في منأى مريح عن الصراعات. وفسّر البعض ومنهم أحد اساتذتنا والكثير من الطلبة أن مثل هذا الكلام الذي يُنسب لميشال شيحا يتضمّن تهديداً للاحزاب العقائدية، كما تبيّن بمرور الوقت ان الميثاق الوطني لا علاقة له بالشعب الذي لم يشارك في صنعه بتاتاً بل فرض عليه من فوق.

جاء اتفاقاً نخبوياً بين أهل السلطة لمصلحتهم الخاصة وعلى حساب الوطن، وربط بعض الطلبة بين هذه الوعود الكاذبة بقدوم ساعة اليقظة وبين توقف ساعة العبد أمام البرلمان، فلم يكن من الغريب ان يستعينوا أثناء المظاهرات بكلام عمر الزعني بصوته الساخر الصاخب كهدير الأمواج:

في كل ضيعه قديسه

فيها جامع وكنيسه

بدنا مين يخلّصنا

من هالحاله التعيسه

بالظاهر كلنا إخوان

بالباطن أشكال وألوان

منتظاهر بحب الأوطان

تحت ستار الدسيسه

وكان أن اندفع المتظاهرون صوب الشرطة واشتبكوا معهم في معارك صاخبة نشرت الصحف صورها في صباح اليوم التالي. جاءتني التحذيرات من كل اتجاه. أ رادني عمي كريم أن ابتعد عن الاحزاب السياسية وذهبتْ بهية أبعد من ذلك فذكّرتني بمخاطرها وبأن أمي ضحّت بحياتها كي أكمل دراستي فلا يجوز أن أهدّم مستقبلي بيديّ وأخيّب آمالها التي رعتها بكفاحها وعطفها على حساب راحتها وصحتها. وأحسستُ أنها وضعت يدها على الجرح حين قالت ان بقية الطلبة من أصحابي ينتمون إلى عائلات ذات نفوذ تستطيع أن تتوسّط لهم إذا ما وجدوا أنفسهم في ورطة، أما أنا فليس لدي أية واسطة ولن أجد من يساعدني في الأزمات.

لم أكن بحاجة إلى مزيد من الكلام لاقتنع برأيها فانصرفتُ لشؤوني الدراسية لمدة وعكفتُ على متابعة قراءة أعمال جبران فأحببت منها بشكل خاص العواصف والأرواح المتمردة فعدتُ أتساءل هل انا روح ثائرة أم جناح منكسر، وما العمل، ومتى أخرج من صدفتي وأنضم إلى حركة تعمل على تغيير الواقع الهزيل الذي نعيشه ونتكيّف معه كالأنعاج المدجّنة؟

سبق أن إنضمّ أخي كمال إلى الحزب السوري القومي فتصوّرت ما سيحدث لأمي إذا وقعنا معاً في مشكلة على هذا المستوى من الخطورة. ستنهار كل تضحياتها من أجلنا أمام عينيها، وستضطر أن تلجأ إلى واسطة ويكون عليها ان تقدّ م خدماتها مقابل التوسّط لصالح ولديها المتهورين. هنا بالذات، عاودني الإحساس المرير بالذنب والمهانة وظل هذا الشعور يطاردني حتى الزمن الحاضر عندما استعيد تلك الذكريات.

رأيتُ أخي يبكي حين سمع بنبأ اعدام أنطون سعادة في الثامن من تموز عام 1949 بعد تسليمه من قبل حسني الزعيم إلى السلطات اللبنانية، وهالني بعد زمن أنني لم أحاول التخفيف من حزنه في البداية. فقط بعد ان استمر في البكاء انحنيتُ عليه وقبّلتُ جبهته وخديه، ووجدتُ نفسي أبكي معه فمسح دموعي ومسحت دموعه التي لم تنضب تلك الساعة. وتمنيتُ لو أنني تعرّفت إلى أنطون سعادة الذي رأيته في بدايات طفولتي محمولاً على الأكتاف حين زار الكفرون مع وفد كبير عام 1936وربما كان أبي بين مَنْ حملوه. ثم رأيته مرة أخرى وهو يسير في شارع «بلس» عند نزلة مصطفى الخالدي.

إنفردتُ بنفسي صامتاً تلك الليلة فعاودتني ذكريات المشاهد التي رأيتها عند الغروب في قرية رأس المتن: صفوفٌ متراصة من الشباب يسيرون بعزم يتقدّمهم هاني الهاني حاملاً علم الزوبعة الحمراء، ونداءٌ يجلجل، «يا أبنا الحياة، لمن الحياة؟» فتجاوبتْ مرة أخرى في ذاكرتي أصداء الأصوات معاً ودفعة واحدة، «لنا». وحسبتُ أن الصدى تلاشى من نفسي فانا حتى ذلك الوقت كنت أحمل في نفسي وعياً طبقياً أكثر مما أحمل وعياً قومياً مع أنني لم أكن قد قرأت ماركس في ذلك الوقت. كانت تهمّني بالدرجة الأولى فكرة تحرّر الفقراء من الظلم والاستغلال وقد نشأ هذا الوعي الطبقي عندي قبل الوعي القومي إلى أن بدأتُ فيما بعد أدرك تدريجياً ما بينهما من علاقة وثيقة، فاقتنعت وما أزال أن القهر القومي والقهر الطبقي وجهان لحقيقة واحدة. وأذكر أن احساسي بالفروقات الطبقية بدأ يترسّخ في وعيي بعد النزوح من الكفرون إلى بيروت. في هذه المدينة الملونة إختبرت لأول مرة معانى عملية التسخير مقابل أية خدمة، ومفهوم الحسنة لا مفهوم العدالة، وعدم تقدير المواهب والمساهمة في تنميتها في خدمة المجتمع.

ولم أكن أراقب تلك الفروقات الإجتماعية من الخارج أو عن بعد. عشتها بكل تفاصيلها فيما اتابع دروسي منذ الطفولة، وأكثر ما كان يقلقني أنني قد أضطر إلى عدم متابعة دراستي ما لم أحصل على منح مدرسية. ولم أكن أنا الوحيد بين اخوتي الذي أشتغل منذ الطفولة، ولن أنسى أن أخي كمال ترك المدرسة وأصبح يعمل ساعات طويلة عند خياط من الصباح الباكر حتى ساعات متأخرة في الليل. ولم يكن وضع أختى أفضل من ذلك بكثير. ثم أنني كنت أعرف عدداً من شباب الكفرون يزاولون أعمالاً يدوية في بيروت، بينهم منْ عملوا في محطات البنزين وتغيير الزيت والتشحيم وكانوا يعملون ستة أيام في الاسبوع من الفجر إلى النجر برواتب متدنية جداً

بحجة أنهم يتلّقون «بخشيش» من الزبائن، بينهم عمي الأصغر فهد.

أيقظ كلّ ذلك في نفسي منذ الطفولة إحساساً عميقاً بالظلم والاستغلال الذي يتعرض له الفقراء. وأصبح يزعجني أن عمي الأصغر فهد الذي لا يكبرني سوى سنوات قليلة إعتاد على العمل المتواصل من الفجر حتى المساء في كراج أبو اللمع في وادي أبو جميل. كان، على عكس ما يوحي به إسمه، مسكيناً لا يطالب بحقوقه وراضياً بعيشه الهزيل وأقرب ما يكون إلى النعجة. قَبِلَ لزمن طويل راتباً متدنياً وسوء المعاملة ورضخ للأوامر. لست أدري من أين كان له كل تلك القدرة على الصبر والتحمّل والرضوخ والقناعة، على عكس جدي ووالدي الذين كانا يجيدان القتال وعمي كريم الذي كان حقاً يعرف ليس فقط حقوقه ويستفيد من الفرص ويفضل معاشرة الأغنياء لا الفقراء، بل أيضاً من أين تُؤكل الكتف. ولم تكن العلاقة جيدة بين كريم وفهد لسبب أجهله.

ثم أنني شخصياً كنت في موقعي المترجرج أتجنّب إقامة صداقات عميقة سوى مع عدد قليل من معارفي الطلبة في المدرسة الاستعدادية وفضّلت أن تقتصر علاقاتنا على الشؤون الدراسية والنقاش حول المواضيع العامة على عكس ما كنت عليه في مدرسة رأس المتن. طبعاً كنت حريصاً على الإنصراف عنهم لدروسي واتجنّب سبل اللهو. كان هذا هو السبب الواعي لتجنبي الصداقات، ولكنه كانت هناك أسباب لا أعيها تماماً وإن خطرت لي بين وقت وآخر في بعض اللحظات العابرة فاعترفتُ بيني وبين نفسي أنني أتجنّب في الواقع الصداقات الحميمة لأن غالبية الطلبة العظمى في مدرسة الاستعدادية كانت تنتمي لعائلات غنية، ولم أكن استطيع أن أتصرف كما يتصرفون دون حساب. وأذكر هنا أنني قرأت مرة مقابلة مع طالبة في مجلة الصياد ذكرت فيها أن «خرجيتها» الإسبوعية كانت تبلغ خمس ليرات لبناية فاستعظمتُ الأمر ولم أصدّق ما قرأت.

ومع هذا كانت لي صداقات بين تلامذة صفي في المدرسة الإستعدادية لن أنسها طيلة حياتي رغم تشتّتنا بعد التخرّج دون لقاء في مختلف أصقاع العالم. تابعتُ مع فاروق أبو الذهب الدراسة في الجامعة الأميركية واشتغلنا معاً عمالاً يدويين في حفر أقنية لمدّ كابلات التلفون الآلي، وهو الآن طبيب نفسي في ولاية مينيسوتا. وعرفت أن صديقي نبيل خوري توفي بالسكتة القلبية كما أخبرني إبنه الذي جاء يكمل دراسته في الولايات المتحدة، كما وردتني أخبار وفاة كل من سامي أبو الجبين وألبرت ديفيديان ومروان بحيري ونديم خلف ومحمود الشيخ الذي سكن فسيح جنان مشيغن وأصبح إسمه موريس شيك، وإنتحر الطبيب العبقري نقولا صعب في عزّ شبابه.

ولم أعد أعرف أين أرض ومصير كل من رأفت وهبه ونزيه بساط وانطوان بعقليني وعادل بربير وعمر عدره وأسامه عانوتي ورمزي جورج وعادل قائدبيه وسمير خياط والفؤادين نصر ونويصر. ثم هناك من أدفع أي ثمن لمعرفة أين أرضهم في هذا العالم الواسع الذي أصبح يشار إليه بأنه قرية صغيرة. أين أنت يا نزيه شبؤون وكم اريدك أن تعرف أنك لن تمحي من ذاكرتي مهما طال الزمن فليس من شخصية تشبه شخصيتك وليس من لغة تقترب من لغتك؟ وأنت يا صبوح حيدر لن أنساك أبداً فما أزال أذكر جيداً قسوتك التي أعرف أنك لم تقصدها حين سمعتك تقول لعدد من القوميين باستهتار «ذهب زعيمكم أنطون سعاده رخيصاً» ولم أكن أعرف في ذلك الوقت هل كنتَ تتمّني الموت لشاره الخوري أم رياض الصلح أو لمزيد من الرفاق؟

ولي شوق خاص لمعرفة مصير صفا جانودي وفيصل خضره وأتمنى من كل قلبي أن يجمعنا الزمن قبل أن نغادر هذا العالم المضطرب واستطيع أن أتصوّر مدى خيبات الأمل الكبرى التي إجتاحتنا كما لو كنا حُصِيّاً صغيرة جرفها طوفان مخيف إلى قاع البحر ولم تنعم بالإستقرار والهدوء وراحة البال. ترى ما مصيرنا بعد كل هذا الدمار الذي حدث في صلب أحلامنا الجميلة التي تبدّدت مثل قطرات الندى؟ ولا أدري كم هي الأعباء التي يحملها يوسف شبل دون أن تتلاشى إبتساماته النادرة مهما صعبت الأحوال. وكم أنا سعيد أن الزمن سمح لي بالإجتماع بك يا صديقي سمير الخالدي ومن خيبات أملي أنه لم يتمّ جَمْعُ الحِكَم التي كان أبوك مصطفى يعلّقها إسبوعياً عند مدخل عيادته. وأين أرضك أيها الصديق مارسل صوايا؟ هل نلتقي دون أن نلتقي؟

وكان لي في تلك الأيام البائسة عالمي الآخر خارج المدرسة فكنت أعاشر على الأغلب من هم من خلفيتي المتواضعة، وإن لم يكن بالامكان التعامل معهم على قدم المساواة إذ كانوا ينظرون اليّ كمثقف أبعدته الثقافة عن الناس شاء أم أبى ومهما كانت خلفيتي. وكان أن جمعتُ مرة في قاعة كنيسة المدرسة عدداً من شباب الضيعة بينهم يوسف أسعد وسوف بطل رفع الجرن في الكفرون وربما أخوه وديع والد جورج وسوف الذي أصبح مطرباً شعبياً، و«فقعتهم» خطاباً تحريضياً باللغة الفصيحة. وقفت على منبر وراء الكرسي بينما كانوا هم جلوساً مثل الطلبة في مدرسة إبتدائية. وأدركتُ بعد أن فات الزمن أنه كان من الأفضل لو جلسنا في دائرة وإشتركنا معاً في حديث عفوي فتبادلنا الأراء وتعرّفنا إلى مشاعر بعضنا البعض ومشكلاتنا ومواقفنا من القضايا العامة وما الدور الذي يمكن أن يلعبه

كل منا بدلاً من أن أفقعهم خطاباً تحريضياً بلغة فصيحة متعالية.

كانت النكبة الفلسطينية مدخلاً لتعمّق وعيي بالعلاقة الوثيقة بين القهر الطبقي والقهر القومي وبالفوارق بينهما في الوقت ذاته. أدركت دون جهد مدى قسوة التشرد الفلسطيني على جميع الفلسطينيين دون استثناء يُذكر، إلا أنني عرفتُ أيضاً وجيداً في أوقات صفاء الذهن ان عائلات فلسطينية معروفة وجدت نفسها تقطن رأس بيروت وتستأنف حياتها السابقة وتؤسس لنفسها موقعاً ومكانة مرموقة فبرزت في رأس بيروت، ولا أعرف بين معارفي مَنْ لا يعرف أفراداً من عائلات الخالدي وطوقان وصنبر وشبل وحداد وكاتول ونويصر وصايغ وعزام وصيقلي وقعوار وحشمه وأبو الجبين وجدع وكنفاني وجرار ودجاني وفضلي وعفيفي وعلمي والسلطي وبولس وبرامكي وحنانيا. تعرّفت وصادقت وأحببت أفراداً من هذه العائلات، وأعجبت بانجازاتهم على صعيد شخصي ووطني وانساني وأفخر أن حياتي تقاطعت مع حياتهم بشكل أو آخر لزمن طويل، وإلى الزمن الحالي في بعض الحالات.

غير أنه من ناحية ثانية كانت هناك عائلات فلسطينية عديدة لا نعرف أسماءها ووجوهها من الفلاحين والفقراء والمعدمين الذين قُذفوا دون رحمة في مخيمات موحلة ليجدوا أنفسهم، لا لسبب يتعلّق بهم، يعيشون دون محاسبة إلهية في جحيم معرضين للبطالة والتعاسة والجوع والإهانة والتمييز والموت اليومي. دخلوا جحيمهم قبل موتهم، ولم يكن دخولهم موقتاً ومروراً عابراً فنادراً ما سيتمكّنون جيلاً بعد جيل من الخروج منه سالمين إلى العالم الرحب. قُذفوا في جحيم المخيمات ليس لانهم ارتكبوا ذنوباً أو أي سبب آخر سوى أنهم ضعفاء لا يملكون وسائل الدفاع عن حقوقهم. شُرّدوا لأنهم هم ما هم فادركوا في قرارة نفوسهم ان الابرياء قد يجدون انفسهم في الجحيم دون سبب ومحاسبة ولظروف قاهرة لا علاقة لها بالعدالة أو الرحمة. لأول مرة فهموا أن الجحيم ليس مصير الخطاة والكفرة وفاعلي السوء فحسب. هم أيضاً، لفقرهم وضعفهم، فقدوا السيطرة على مصيرهم واصبحوا عرضة لذئاب العالم الشرهة. وإذا ما رفضوا واحتجوا وتمردوا يوماً ما بعد أن فقدوا الرجاء بتسوية مشاكلهم سيكون العقاب بحقهم أشدّ وأدهى. ومع أنني تعرّفتُ إلى بعضهم وعلّمتُ قلة من الأميين بينهم القراءة والكتابة ودَرَستُ أحوالهم وكتبتُ عنهم منذ ذلك الحين فمنحتني جمعية أصدقاء الكتاب جائزة فلسطين، إلا إن ما فعلتُ قليلاً ما أسهم في تغيير الواقع الذي يعانون منه، فكان أن أدركت حتى في مراحل الشباب الأولى أهمية العمل من ضمن حركة تولد كالنرجس والصاعقة من داخل معاناتهم.

تعرّفت، في الاستعدادية والجامعة الأميركية التي دخلتها خريف عام 1951، إلى طلبة من زملائي ينشطون داخل حركة القوميين العرب فأعجبت ببعضهم ونمت بيننا صداقات مستمرة. ورسخت في ذهني صورة جورج حبش حين لمحته لأول مرة يتكلم مع وديع حداد وأحمد الخطيب مسنداً يده إلى جذع شجرة قرب البوابة الطبية. وكان الياس حداد، والد وديع، إستاذي في الاستعدادية وأصبحتُ فيما بعد زميلاً له في مدرسة برمانا العالية وكنت معجباً بطرافته ووطنيته والحكايات التي كان يرويها لنا بسخرية وألمٍ في آن معاً. وكثيراً ما راقبتُ باعجاب شديد إبنته وديعة تدرّب الطلبة في الرقص الشعبي بحيوية نادرة وبمهارة فنية فائقة وثم زاد من إعجابي بها أنها تزوّجت زميلي وصديقي مروان جرار وأسّسا فرقة الأنوار مع وديع الصافي وزكي ناصيف.

وعرفتُ في الاستعدادية والجامعة الدمشقي الرائع ثابت مهايني الذي كان نجماً رياضياً لامعاً ومكافحاً صلباً في حركة القوميين العرب، وصدف أن دعاني مؤخراً للغذاء في مبنى التجارة العالمية في نيويورك عندما كان مسؤولاً عن الغرفة التجارية العربية، طبعاً بزمن قبل 11 أيلول/سبتمبر. ثم إطلعت على قصة طرد منصور أرملي في السنة الأخيرة في كلية الطب من الجامعة الأميركية بتهمة ميوله للشيوعية فقال عنه منير شماعة أنه من أذكى الشبان وصاحب منطق مقنع، وقد ضحى بالكثير إذ دخل السجن في بيروت وتأخر سنة في كلية الطب التي تخرج منها بامتياز عالٍ ليصبح طبيباً ماهراً في واشنطن كثيراً ما إحتجتُ لمساعدته. وتساءلتُ، بعد أن عالجني مرات عديدة، ما الفروقات بين الذين يتعاطون بالأشياء مقابل الذين يتعاطون بشؤون الإنسان، ولماذا الأطباء بشكل خاص يميلون للاحساس بالفجيعة بالمقارنة مع مزاولي المهن الأخرى ويبحثون عن علاج فتتوحّد في نفوسهم وعقولهم النظرية والممارسة في تشابك لا إنفصال فيه؟وأرى إنهم يعرفون جيداً متى يصفون المسكّنات ومتى يجب إجراء عمليات جراحية.

استجلب نظري لدى دخولي الجامعة الأميركية أن حركة القوميين العرب كانت طليعية في تنظيم المظاهرات، ولن أنسى الطالبة الجريئة آسماء الموقّع التي شهدتُها تتسلّق البوابة الطبية بعد أن أغلقتها قوات الأمن كي تمنع مظاهرات الطلبة خارج حرم الجامعة، وكان أن اتخذت السلطات اللبنانية قراراً بمنع المظاهرات وعمدت قوات الأمن لتطويق الحرم، فما كان من الطلبة إلا أن حطّموا البوابة الحديدية الكبرى وجرفوا رجال الأمن في طريقهم كما لو كانوا طوفاناً لا يُردّ. وفي أعقاب هذه المظاهرات اتخذت إدارة الجامعة

الأميركية قرارات بفصل عدد من الطلبة ووجّهت إنذاراتْ بطرد البعض الآخر فتمّ توزيع بيان احتجاجي على الصحف وقّعه أحمد الخطيب ووديع حداد وثابت مهايني وحامد الجبوري وسعدون حماده وعاطف دانيال. وكان معظم هؤلاء ينشطون قبل ذلك داخل العروة الوثقى باشراف الدكتور قسطنطين زريق، وقد وضع لها سعيد عقل نشيداً اشتهر بمطلعه:

للنسور ولنا الملعبُ

والجناحان الخضيبان بنور العلى والعرب

مقابل هذا، رسختْ في أذهاننا أنه كان لتأسيس إسرائيل تأثيره داخل لبنان في إثارة النعرات الطائفية، فما أن نال لبنان إستقلاله عام 1946 حتى وجّه ممثل البطريرك الماروني في الولايات المتحدة مذكرة إلى الأمم المتحدة طالب فيها بتأسيس وطن قومي مسيحي في لبنان، وفي 5 آب 1947 اقترح المطران اغناطيوس مبارك على اللجنة الدولية المختصة بفلسطين جعل لبنان، شأن فلسطين، دولة مسيحية. ورأى البعض ان هذا الاقتراح جاء استجابة لمخططات الزعامة الصهيونية إذ قال ديفيد بن غوريون قبل أشهر ـ كما قد كتب في مذكراته في 21 أيار 1947 ـ في معرض الحديث عن لبنان، «إن التفوّق الإسلامي في هذا البلد مصطنع ومن السهل تصفيته. ولا بدّ من تأسيس دولة مسيحية في لبنان، ويمكننا أن نتوقّع معاهدة تحالف مع دولة من هذا النوع... وبعد ذلك تسقط سوريا. وإذا تجرّأت مصر وشنّت الحرب علينا سنقصف بور سعيد والاسكندرية والقاهرة، وبذلك ننهي الحرب ونثأر لأجدادنا من الفراعنة والاشوريين والكلدانيين».

ومما رسخ في أذهاننا أيضاً حصول نقاشات حامية في صف التاريخ والتربية الوطنية والنوادي الثقافية حول قرار المندوب السامي غورو بالانتقام إثر معركة ميسلون بقيادة يوسف العظمة في 24 تموز 1920 التي لقي فيها جميعهم مصرعهم فزحف على رأس قوات الاحتلال الفرنسية إلى دمشق ودخلها في 25 تموز، وكان بين أول ما فعله أن توجّه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين، وقال «ها قد عدنا يا صلاح الدين». هذا هو غورو الذي ظهر صبيحة الأول من أيلول 1920 في بزة ناصعة بيضاء على مدرج قصر الصنوبر في بيروت وإلى يمينه البطريرك الماروني إلياس الحويك وإلى يساره مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا.

ومهما كانت حقيقة الأمر، فقد احتدم النقاش مرة أخرى عندما أُعيد تداول عبارة البابا ليو العاشر في مطلع القرن السادس عشر بأن الموارنة «ورود بين الأشواك»، ومن المؤسف ان فئة من أعمدة المؤسسة المارونية صدّقت ما سمعت. هنا إعترض أحد الطلبة منبّهاً أنه لا فائدة من استعادة هذه الذكريات الأليمة فمَنْ يتكلم عن مشكلات لبنان كمن يمشي في حقل من الألغام مهما دعا للوحدة بين اللبنانين والتضامن اللبناني. وسأله أحدهم بحدة، «هل تكون وحدة حقيقة مع الذين يصرّون على مقولات الورود والشوك، وكيف يمكن التغلُّب على الخلل وغياب التوازن في صميم بنية متعددة العصبيات؟»

وذكّرنا البعض بان جريدة البشير نشرت في 19تشرين الثاني1943خبراً بخط كبير، «الجماهير تحمل الجنرال كاترو في بكركي وتهتف عالياً للصداقة الفرنسية اللبناية». تجاه هذا الإرث، كثيراً ما ردّدنا أناشيد وطنية منها «نحن الشباب لنا الغد ومجده المخلّد»، و«حماة الديار عليكم سلام أبت أن تذل النفوس الكرام»، و«بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان»، و«موطني موطني الجلال والجمال السناء والهناء في رُبَاكْ... هل أراك في عُلاكْ؟»

ورغم هذه الخلفية، لم يكن من الغريب أن شاهدتُ شخصياً في مطلع فتوتي مظاهرات ضد الاستقلال تزعّمها أنصار إميل إده الذي قيل أنه «خاف من الاستقلال على الاستقلال»، وإعتبر أن لبنان «بلد صغير ومتعدد، كثير النوافذ ومتشابك الأبواب. ودائماً في حاجة إلى قوة تحمينا من الخارج وتحمينا من أنفسنا». وكان أن اعتبر مؤرخ مشهور كان إستاذي في الاستعدادية ان لبنان تمثال من البرونز يقف على قدمين من الطين، وروى لنا قصة سليم علي سلام الذي درس في الكلية البطركية للروم الكاثوليك قرب منزل عائلته في المصيطبة، كما درستْ اخواته في الكلية البريطانية السورية وبعث أولاده إلى الكلية البروتستنتية السورية التي اصبحت تعرف بالجامعة الأميركية في بيروت. وكان له عدد كبير من الأصدقاء المسيحيين فطلب من كاتب ماروني أن يدرّس أبناءه وبناته اللغة العربية.

وعندما انعقد مؤتمر 1913 في باريس، اكتشف سليم سلام ان بعض أصدقائه المسيحيين كانوا يسعون في المؤتمر لهدف آخر هو فصل بيروت وجبل لبنان عن جسمه بانشاء دولة لبنانية في عهدة فرنسا فكتب في مذكراته أنه عاتب اصدقاءه الذين لم يقدّموا له أجوبة صريحة. وفي النهاية، حقّق اصدقاؤه هدفهم عندما دخلت القوات الفرنسية بيروت في تشرين 1918 للتخلص من الحكومة العربية في المدينة، واكتشف أولاده الصغار وهم يراقبون دخول القوات الفرنسية ان استاذهم الذي كان يدرّسهم اللغة العربية كان يلوّح بالعلم

الفرنسي. وهكذا، كما تردّد، قضى سليم علي سلام سنوات حياته كمواطن مرغم في دولة لبنان الكبير تحت الانتداب الفرنسي.

ومهما كان، وجد اتباع فكرة لبنان المنعزل المتميّز أنهم بحاجة إلى اسطورة تسوّغ طموحاتهم السياسية ووجدوها بالفكرة الفينيقية، هذه القصة التي ساهم في اختراعها متخرجون من الكلية المارونية في روما حيث تعلّموا أنهم زهور في حقل من الشوك، واهتم بها الأب لامونس Lammens بالتركيز على المدن الساحلية كمدن فينيقية. وهذا ما ركّزعليه ميشال شيحا، كلداني مسيحي من العراق، متمرس في البنوك ورسول للمركنتالية، وقد تمكّن أن يصبح سكرتيراً للجنة التي صاغت دستور الجمهورية اللبنانية.

تعرّفتُ إلى جوانب من هذه المعتقدات والحقائق من خلا ل قراءاتي ومعاشرتي لعدد من زملائي الطلبة ممن شربوها منذ طفولتهم مع حليب إمهاتهم. وبين مَنْ ناقشتهم بهذه القضايا الراهب بولص أنطون، وهذا إسم مكتسب أُطلق عليه لدى دخوله الدير فتبنّاه إلى حدّ أنه كان يرفض أن أناديه باسمه الذي إعتدنا عليه منذ طفولته الأولى حتى مطلع فتوته عندما حضر إلى لبنان. قدم في صباه من سوريه ليدرس في أحد الأديرة اللبنانية فتبنّى الكثير من هذه المعتقدات. وأصبح بمرور الوقت ينظر إلى سوريا كلياً من موقع لبناني كما يقول هو، أما أنا فكنت أعتبر أنه ينطلق من هوية مارونية ضيقة إقترنت في ذهنه بهوية لبنانية أكثر ضيقاً حتى أصبح يرفض زيارة سوريا حيث يقطن أهله.

وصدف أن جاء مع الراهب بولص أنطون شاب آخر من سورية ومن طائفته إختار نهجاً مختلفاً. احتفظ باسمه الحقيقي، حامد جبر، ورأى وجهاً بديلاً لواقع لبنان. شعر بقلق عميق حين تساءل حول مستقبل لبنان في خريطته الطائفية، وما أن تمّعن بما قرأ حتى أبصر موتاً ودماراً وتوقّع نزاعات لا جدوى منها. إضطربتْ نفسه بين الحلم والكابوس، وتراءتْ له جنيتان متساويتان في القوة تتحكّمان بالبلد فلا تغلب إحداهما الأخرى وقيل أنهما صنعتا لبنان الحديث: جنيةٌ تتمثل فيها قوى قليلة من مختلف الطوائف أرادته أن يصبح بلداً جميلاً، حكيماً، مهذباً، ذكياً، منفتحاً، محباً، عادلاً، منصفاً، متسائلاً، ديمقراطياً، متسامحاً، تعدّدياً. وجنيةٌ نقيضةٌ فضّلتْ له أن يصبح شرهاً لا يشبع، متعصباً، مغروراً، متعالياً، مستبداً برأيه.

لم يُزعج صديقي حامد جبر ان تقوم كيانات مختلفة. ما أزعجه حقاً أن يعلن لبنان تميّزه عن بقية المنطقة وأن تكون لكل طائفة حقوق خاصة بها دون غيرها فتتصرف كقبيلة. وبقدر ما تابع دراسته متخصصاً بالفلسفة، بقدر ما رأى معضلة لا حلّ لها. ومع هذا ظل يبحث عن مخرج والقى محاضرات بالعربية والفرنسية مشدّداً على ان الهوية اللبنانية تخضع للصيرورة التاريخية لأننا لا نرثها من الماضي بل نعيد صياغتها في الحاضر والمستقبل فتنشأ له رسالة لا تتحقّق إلا بالعمل المشترك بين المسلمين والمسحيين.

وتساءلت في لقاءاتنا أين موقع الطبقات في نظريته وما دور الذين تحرّروا من هويتهم الدينية مؤكدين على هويتهم الوطنية من موقع علماني حر. تلك هي المشكلة التي لم يكن يستوعبها كلياً في مناقشاتنا الفكرية داخل الجامعة وفي المقاهي والتمشي معاً على شاطىء البحر. وهكذا ظلّ حامد يردّد عبارات تخلط بين الوقائع الحسية والمثاليات المستمدة من النصوص التي كان يفسّرها خارج سياقها التاريخي والاجتماعي كأن يقول لي ان الدعوة المسيحية هي دعوة إلى الحرية، أو حين يحاول جاهداً أن يبين لي ان الميثاق الوطني التزم فيه المسيحي بألا يطلب حماية أجنبية والمسلم بألا يدعو للانضمام إلى بلد عربي فرفض بذلك الغرب والشرق معاً.

ورغم أن كلاً منا تعمّد ضبط أعصابه في نقاشاتنا الحادة، توتّر الجو يوماً بيننا حين اتهمته بتبسيط الأمور في كلامه عن المسيحيين والمسلمين بصيغة الفرد كأنما هناك إجماع داخل كل طائفة، فذكّرني بالميثاق الوطني بين بشارة الخوري ورياض الصلح. واغتاظ صديقي حامد حين قلتُ له إن هذا الكلام مجرد اتفاق بين زعماء قد يطيح بهم الشعب في أي وقت فهو إتفاق من فوق وليس من تحت. وافترقنا على شيء من التراضي حين اعترف بان المسيحية قد تكون مبرّر الوجود اللبناني في الأصل، ويجب أن يكون ذلك مما سبّب قلقاً لدى المسلمين. أقول إننا افترقنا على شيء من التراضي، ولكنني لم أجد فائدة في أن أصحّحه بقولي أن الخلاف الحقيقي هو بين مَنْ يقولون بالفكرة الدينية التي تميّز بين المواطنين على أساس طائفي ومَنْ يقولون بالفكرة الوطنية التي لا تميّز بين المواطنين بصرف النظر عن انتماءاتهم مهما كانت. تلك هي الحداثة بعينها، ودون ذلك سيظل الانفجار محتملاً حين تنشأ أزمات إجتماعية وإقتصادية تنعكس على الحياة سياسية.

***

أصابني ذهول حين إطلعتُ على يوميات صديقي عادل الأميوني الذي أرادني أن أقرأها بعد أن أخبرته عن النقاش الذي تمّ بيني

وبين حامد وطلب مني أن أعطيه رأيي لأنه، كما قال هو بنفسه، أصبح يعاني من إضطراب لا يقوى على تحمّله منذ بدأ يعيد النظر ببعض معتقداته السابقة. أحسستُ أنه يستنجد بي فقرأت يومياته ذلك المساء بتمعن وتوقّفتُ خاصة عند نقاط أردتُ أن أثيرها معه في الأيام المقبلة. استوقفني وصفه لمغادرته الكوره لمتابعة دراسته الثانوية تمهيداً لدخول الجامعة. كتب في مفكرته أن فراق أهله وأصحابه ترك أثراً مؤلماً في نفسه، وذكر أن مغادرة عائلته كانت صعبة على غير ما توقّع، ولم يعرف هل هي فاتحة عسرٍ أو يسر كما يقول، غير أنه صمّم ان يجعلها فاتحة يسر وعاهد نفسه تماماً كجندي يدخل المعركة لتحقيق سعادة بلاده، وأنه سيكون غير ما كان عليه في السنوات الماضية. وزاد من انزعاجه أنه ترك أهلاً ورفاقاً لا تزال روحه متصلة بأرواحهم، ولكنه صمّم أن يترك للمستقبل أن يواجهه بمجهوله الذي سينتصر عليه بالعزم الأكبر والإرادة القوية.

وتابع يقول في يومياته بإسلوبه الخاص أنه مع هذا أخذ يشعر في الأيام التالية بالصراع القوي في نفسه بين عوامل عديدة بالنسبة لمعضلاته المدرسية وتزايد إضطرابه خصوصاً أنه لم يكن هناك صديق يساعده في التغلّب عليها فقد عجز عن حلّها بنفسه، وفي هذا رأيتُ تلميحاً لماذا أرادني أن أقرأ يومياته. وجد على الرغم منه وثقته بعزيمته أنه في أزمة نفسية خانقة، وتيقّن من هذا الأمر حين أفاق ذات صباح ليجد جسده مبللاً بالعرق وظن أنه سيتقيء. وما كاد ينهض من الفراش حتى أحس برأسه يدور وبرجليه تخوران به وكاد أن يسقط فاسرع إلى النافذة يستنشق هواءً بارداً وقال لنفسه أنه لم يكن يتوقّع أن تقلقه مشكلة ترتيب برامجه الدراسية إلى هذا الحدّ هو الواثق من قدراته بالتغلب على الصعوبات مهما كانت. ومع هذا ظلّت مشكلته تُقلقه فكلما فتح باباً لحلّها وجده ينغلق بوجهه وكاد يقطع الأمل في الوصول إلى حلّ فأحس أنه أصبح من حيث لا يدري كالغريق المتعلق بخشبة تطفو على صفحة المياه. وزاد من قلق عادل إحساسه بان أهله سيتألمون بدورهم لأجله إذا عرفوا ما يتعرّض له من صعوبات فيصبح في هذه الحالة بالفعل مصدر شقائهم عوضاً من أن يكون مصدراً لسعادتهم.

كتب في يومياته أنه لا يدري ما يبيّتُ له القدر. وشجّع نفسه بقوله بصوت داخلي كاد أن يسمعه أنه والغد على موعد فإلى الغد يا عادل اميوني. وخلال كل هذا الوقت كان يشعر بظمأ وحاجة شديدة إلى عائلته، ولكنه لم يكن يطيق هذا الإحساس الذي بلغ به درجة قصوى من الحزن والتأثر فودّ لو أن أهله يتركونه وشأنه كي يبدأ بالاعتماد على نفسه ويشعر بكيان خاص مستقل قوي يمكّنه من مجابهة المصاعب والتغلّب عليها بمفرده. ولكنه أدرك من ناحية ثانية أنه واقعياً لا يستطيع أن يحقّق ما يريد لنفسه بنفسه، ولا هُمْ يودّون ولا يتمكّنون إن قبلوا إطلاق سراحه من أسر عاطفتهم، وحزن لهذه الحالة التي لم يجد حلاً لها.

وإستلفتَ نظري في يومياته بشكل خاص أيضاً قوله أنه عندما عاد إلى الفراش مساء ذلك اليوم وتأمل بما مرّ به من صعوبات تحقّق فعلاً ان الإعتماد على الذات هو أساس النجاح ولسوء حظه أنه لم يتكلّم حتى الآن كيف يعتمد على نفسه، وتوصّل إلى أن هذه هي مشكلته الكبرى في الوقت الذي يعاكسه القدر بكل قواه كأنما بينهما ثأر يعود لزمن بعيد فلا يذكر السبب وراء كل هذا العداء الرهيب. وكان عليه أن يواجه هذا الواقع الأليم الذي لا يبدو من سبيل إلى غيره، وهذه قضية موت أو حياة بالنسبة إليه ويكون عليه أن يبذل أقصى جهوده للتحرّر من إتكاليته. واستنتج أنه إلى أن يتمكّن من هذا سيظل يعاني دون إستقرار من الحزن والاضطراب، ولا يدري إلى متى يستمرّ ذلك. ما يعرفه في الوقت الحاضر أنه لا يفهم كيف تنغلق في وجهه كل تلك الأبواب التي لم يكن ينتظر أن تُغلق بوجهه بهذه القسوة والغلاظة لأسباب عديدة لا يفهمها كلياً. وكان عليه أن يخضع لجميع تعليمات إدارة المدرسة بكل تفاصيلها وحرفيتها والتي لا يعرف مبرّراتها.

ووجد عند هذا الحدّ أن من غرائب الصدف التي بهرته أنه إستلم رسالة في اليوم التالي بالذات من والده جلبها إليه صديق قدم من أميون، وعرف ما تتضمّنه قبل أن يفتحها. قال له والده في رسالته هذه، كما لو عرف بحدسه ما يعاني منه إبنه النجيب، «كن براحة بال ولا يكن لك هم لما يصادفك في حياتك أبداً». ووجد عادل نفسه يتساءل ما هذه المحبة الفياضة التي تغمره وما هذه الغيرة عليه والمحبة التي تختلج في صدر والده؟ إن والده لا يخاف على نفسه بقدر ما يخاف عليه هو فقال مواجهاً ذاته في المرآة، «ألا تباً لي هل استحق هذا العطف؟». ومع هذا شعر بمحبة وحنو وإخلاص لوالده كما يشعر نحوه وأكثر بكثير ولكن ماذا يمكن أن يقدّم له غير قلقه وآلامه في سبيل النجاح الذي يطمح إليه بكل جوارحه وما يملك من قدرات؟ إنه يعلم جيداً أن سعادة والده وكل سعادته هي نجاحه، ولذلك هو مصمّم على العمل المُجدّ والمثابر في سبيل تحقيق هذا النجاح. وقال لنفسه كما كتب في يومياته بخط أحمر وكوفي، «إن الصعاب ما كانت لتزيده إلا قوة وصلابة ولنا من المستقبل عبرة وشاهد».

في هذا الوقت، ووسط أزماته، تابع في الصحف الخطابات السياسية الرسمية المتداولة فخاب أمله. لم تعجبه مواقف الحكام العرب، فوجد نفسه يكتب في دفتره بخطوط حمراء مزخرفة، «إليك يا سعادة نرتفع بقلوبنا وأرواحنا في مثل هذا الوقت.. إليك يا مَنْ علّمتنا كيف يكون العطاء الحق في سبيل عزّ سورية ومجدها... إليك يا زعيمي الخالد نتوجّه بكل ما فينا من قوى كي نزيد إيماننا وقوتنا وقابليتنا في الصراع والبناء.. النصر أمرٌ محتّمٌ يا زعيمي ولا غصة في القلب سوى غصة الرجاء الخائب والأمل المستحيل إن لو تكن بيننا يا زعيمي. إننا قد تعاهدنا في الحياة على تحقيق مطلب خطير يساوي وجودنا، وإننا عن هذا لن نحيد ولو تراكمت جثثنا على طريق الحياة كي تطأوها الأجيال القادمة سلماً نحو المجد والخلود. ألا طوبى لمن يتمكّن من طرح جثته درجة في سلم المجد.. مجد الأمة ورقيها وخلودها».

بهذه العزيمة التي نمت فجأة من صميم قلقه كتب عادل تلك الكلمات في دفتره، ولكنه وجد نفسه في اليوم التالي يكتب، «كل شيء هامد وجامد. لا شيء يبعث على السرور أو الانشراح. نفسي مطبقة على ضيم، وأخاف أن أتأثر بهذا المحيط الفاسد حولي وليس مَنْ يعرف قيمة الصداقة. أشعر أنني في طريقي إلى الاختناق. مشكلتي الكبرى أنني لا أقع على صديق مخلص. الدنيا تمطر وأنا جالس بين الصنوبر. المطر جميل. إنه عطاء الحياة الكريمة لأرض يابسة».

ومما إستوقفني أن عادل كتب عصر السبت في الثامن من تشرين الثاني عام 1952، وكانت قد بدأت تتعمّق الصداقة بيننا، ان أيزنهور فاز برئاسة الولايات المتحدة الأميركانية فتساءل، «فمن يدري ماذا سيأتي به هذا الرجل؟ قد يجعل من العالم ساحة قتال... ويمكنه ولا شك إسعاد العالم. يقولون ان هذا الرجل يميل إلى إرضاء الشعوب الضعيفة، ولكن هل يكون عمله هذا كعمل الجّزار الذي يسمّن النعجة؟ إن الاعتماد على أي مصدر غير الذات لا يمكن أن يوصل إلى غاية كريمة.. وبلادنا هذه البلاد القوية في إمكانياتها لا يجديها نفعاً إعتمادها على أي مصدر سوى سواعدها وأدمغتها هي بالذات. هل أنا أحارب بالنظارات؟ العقل هو مصدر السعادة.. ألا تباركتَ يا الله يا من وهبتنا العقل. به انتصرتُ على عواطفي في حبي الأول والأخير وأنا في السادسة عشر من عمري... عندما كنت أبلل وسادتي بدموعي في الليل في حين أن الحبيبة لم يكن لها أي علم أو خبر بالأمر، وأذكر كيف جرّبتُ أن أصارحها بما أشعر تجاهها وكيف فشلت محاولاتي الواحدة بعد الأخرى. ولكن كان يلذ لي ذلك الحب ولا أزال أشعر بتوق إلي تلك الأيام. ثم أن هناك حَدَثاً هاماً تمّ في حياتي في ذلك الوقت، وهذا الحدث العظيم كان اعتناقي العقيدة السورية القومية الاجتماعية وقد وجدتُ الحقيقة في هذه العقيدة وأخذتُ على نفسي العمل لها إذ لا يمكنني أن أعرف الحق وألا أن أكون من أبنائه. لقد غيّرتْ العقيدة السورية القومية الاجتماعية وجه حياتي إذ علّمتني شيئاً جديداً لم أتعلّمه في البيت جيداً وهو عمل العقل. بهذه الروح أستقبلُ العام العشرين من عمري فسأحاول أن أجعله أخصبَ تربةٍ لأخصب نفس ليعطي أحسن إنتاج. ولن أخاف المصائب أنا المؤمن بالقول الخالد، «ليس عاراً أن نُنْكَب ولكن العار هو أن تحوّلنا النكبات من رجال أقوياء إلى رجال ضعفاء».

ما أن إنتهيتُ من قراءة يوميات عادل حتى قصدته وشكرته لثقته بي ومشاركتي أفكاره وأحاسيسه. وأجابني أنه لا يريد أن يلقي أحمال قلقه على كتفي وكلانا مشغول دائماً في الدرس والعمل، ولا يدري هل أستطيع أن اساعده في حلّ مشكلاته أم لا أنا الذي لا أقلّ عنه معاناة. في الواقع أن عادل لم يكن في تلك البرهة مستعداً للبحث في مشكلاته الخاصة ووجد من الأنسب أن يبشرني بعقيدة الحزب ويدعوني للانضمام إلى صفوفه التي ينعتها دائماً بأنها متراصة. بل فاجأني بقوله أنه قرأ مقالتي التي ربحت بها جائزة، وأنه توصّل من خلال قراءتها إلى أنني قومي إجتماعي بحدسي ودون أن أدري. وكي لا أشجّعه على مطاردتي لم أذكر له أنني مؤمن بضرورة التغيير ولا يكون التغيير حقيقياً إن لم نعمل من خلال حركات إجتماعية وسياسية.

وأعطاني دون تعليق محاضرات سعادة العشر وكتابيه نشوء الأمم والصراع الفكري في الأدب السوري لأقرأها على أن نتناقشها معاً. وقرأتها جميعاً بتمعن وإهتمام خلال شهر من الزمن، فشعرت حقاً رغم تحفظي أنني أهبط إلى أرض الواقع من عالم جبران الخيالي الذي كثيراً ما حلّقتُ فيه مستسلماً لعذوبة كلماته وصوره ورموزه وسلكت دروبه في حدائق القلب. أما في قراءاتي لسعادة فوجدت نفسي أقرأ لغة سياسية جديدة. وربما لأنني مولع بالأدب أكثر مما أنا مولع بالسياسة، سحرني كتاب الصراع الفكري، وكان البوابة التي تومىء لي بالدخول في حركة قد تغيّر حياتي فتخوّفتُ وانكمشتُ على نفسي ثم عدتُ إلى قراءة جبران الذي يصفه صديقي عادل بانه خيالي ورومنطيقي يتكلم عن أمور لا علاقة لها بالواقع وقضايا التغيير، وينصحني أن اتحرّر منه وأدرّب نفسي على العقلانية العلمية قبل أن أحتج على كلامه بأنني لا أعرف من هو أكثر التصاقاً بالواقع من جبران مستشهداً بتمرده على المؤسسات الدينية

والتقاليد العائلية البالية والاقطاعية والأنظمة السياسية القائمة، وقلتُ له هو الذي بدأ الكلام عن أبناء الحياة.

لم يكن عادل يريد الدخول في تلك المناقشة في ذلك اللقاء، بل إقترح أن أرافقه في اليوم التالي إلى دير القمر للمشاركة في مسيرة إسقاط بشاره الخوري التي حملتْ على ما أذكر شعار «جاء بهم الأجنبي فليذهب بهم الشعب»، وقامت بها الجبهة الاشتراكية الوطنية التي ترأسها كمال جنبلاط وكميل شمعون واميل البستاني وغسان تويني ممثلاً للحزب القومي. كنت قد بدأت أولع بدعوة غسان للحرية والحوار بديلاً للخطابة المألوفة، وكنت قد اطلعتُ على خلافه مع أنطون سعادة بسبب التضييق على الحرية الفكرية ضمن الحزب غير أنه عاد وأدى القسم الحزبي في السجن. وأردتُ ان أعرف لماذا اعدم سعاده وكيف يمكن أن يتمّ ذلك في مجتمع يدعي الديمقراطية؟

وراعني أنني سمعتُ سياسياً من أعدائه يقول أنه كان يجب أن يتمّ إعدامه في الشوير ليتعلّم حزبه وغيره من الأحزاب درساً يبعدهم عن الراديكالية، وأوضح بوقاحة إن اعدامه لم يكن يهدف فقط للقضاء على عقيدته بشخصه فحسب بل لإعطاء غيره درساً لن ينسى. بل هالني خاصة ولوقت طويل أن تكون للإنسان كل هذه القدرة على الحقارة والشراسة. ووجدتني أقارن بين ذلك السياسي الحقير وبين معبودي في الغناء الشعبي يوسف تاج الذي أكبرتُ فيه أنه إحتج على إعدام أنطون سعادة بمنع الإذاعة اللبنانية من بث أغانيه منذ تلك الساعة.

وذهبتُ في اليوم التالي مع عادل ورفاقه ومناصريهم إلى دير القمر للمشاركة في ثورة الاحتجاج واسقاط بشاره الخوري. ولدى وصولنا بحافلة مليئة بطلبة الجامعة وجدنا أنه تم حشد شعبي كبير شارك فيه الحزب القومي باعداد ضخمة قيل أنها بلغتْ عشرة آلاف نفر. وكان أن سقط بشارة الخوري أمام العاصفة الشعبية كورقة خريف ليحلّ محله شمعون الذي لُقِّبَ في ذلك الحين، ب«فتى العروبة الأغر».

هنا أخبرني عادل تفاصيلاً لم أكن قد سمعتها من قبل عن أحداث معارك الاستقلال ومنها أنه لما حاولت وحدات من الجيش الفرنسي إقتحام قرية بشامون في 15 و16 تشرين الثاني عام1943، دارت معارك طاحنة استشهد فيه عضو الحزب السوري القومي سعيد فخر الدين من عين عنوب الذي حاول تسلق الدبابة المتقدمة فكان شهيد الاستقلال الوحيد. وكان الجيش الفرنسي قبل ذلك قد طوّق مجلس الشعب لمنع النواب من الاجتماع وتمّ أيضاً اعتقال عبد الحميد كرامي فساقوه بلا طقمه وحذاءه ووجبة اسنانه الاصطناعية وبقي خمسة أيام في سجن راشيا فلم يذق أثناءها طعاماً غير ماء البندورة والعنب.

والغريب أنني، وأنا أفكّر بتلك الاحداث بعد أكثر من نصف قرن، حلمت بأن كل حزب معارض إختار رمزاً صغيراً هو عبارة عن حذاء صنع من البلاستيك لدعوة الشعب للمشاركة في مسيرة التخلص من بشاره خوري. وبعد مرور نصف قرن تيقّنتُ أن وثيقة الاستقلال لم تتمّ في الواقع بالتفاهم بين الشعب اللبناني، بل بين النخبة والعائلات الحاكمة، وأهل الحلّ والعقد، وأصحاب الألقاب الرفيعة من بكوات وشيوخ وأفندية. مرة أخرى غطّتْ الطائفية على الطبقيّة واختلطت الأمور على الشعب مما جعل رياض الصلح يساوم على العروبة في الوقت الذي يعلنها عقيدة له ولأتباعه، وترسّخت صورة لبنان في عهد بشاره الخوري على أنه أرخبيل من الطوائف ومملكة لزعامات متخلِّفة.

في تلك الأيام التي تمرّ بسرعة يوماً بعد يوم وإسبوعاً بعد إسبوع وشهراً بعد شهر ذكّرتني تلك الأحداث باعدام انطون سعادة صباح 8 تموز 1949 ولم يكن يلبس قبعة أو طربوشاً. وما أن مرّ وقت قصير حتى حدث انقلاب سامي الحناوي فتمّ إعدام حسني الزعيم مع رئيس حكومته محسن البرازي الذي قال له الضابط فضل الله ابو منصور «خذها من يد سعادة»، وإغتال عضوٌ في الحزب رياض الصلح في 16 تموز 1951. هذا ما تعلّمته بكل تفاصيله من أعضاء الحزب، وكان بين ما تناقلته وسائل الإعلام في ذلك الوقت المضطرب ان جرى صراع سياسي بين الاحزاب السياسية في سوريا ادى إلى اختراق الجيش وتحويله عن مهماته ليخوض المعارك السياسية والتناحر على السلطة. وربما كان بين أهم أحداث تلك الأيام الغابرة قيام ثورة 23 يوليو عام 1952 لتبدأ عهداً جديداً في الحياة السياسية العربية.

إنبهر نادر في تلك الأيام بظاهرة عبدالله الحاج الذي نجح في الانتخاب النيابية بسبب توجّهه إلى الشعب والتكلّم باسمه وبلغته الصريحة. أقام الأرض وأقعدها في مجلس النواب، ووجد الشعب متعة في الإصغاء إلى خطبه السياسية. لم ينشغل بتفاصيل برامج الحكومة بل ناقش الأسس التي يقوم عليها النظام السياسي اللبناني. قال في تعليقه على بيان وزارة سامي الصلح في الشهر الثاني من عام 1952 ان الجبهة الاشتراكية الوطنية المعارضة تطالب بفصل الدين عن الدولة مشيراً إلى اضراب رجال القانون القائم احتجاجاً

على سلطات رجال الدين الذين استفادوا من فساد الوضع، وثنّي على كلامه في التعليق على البيان الوزاري رفيقه في المعارضة غسان التويني الذي قال أن «من أقدس الحريات حرية المعتقد. من أجل حرية المعتقد هذه نؤمن بفصل الدين عن الدولة.. وبدون هذا الفصل لا يمكن ان تتحقّق الوحدة الاجتماعية التامة بين ابناء هذه الأمة، على اختلاف ايماناتهم الدينية».

ولم يكن من الغريب ان أغضب هذا الكلام أهل النظام فردّ حميد فرنجية عليهما بقوله، «نحن نطالب بازالة الطائفية من النفوس قبل إلغائها من النصوص... لنكن واقعيين ونرى بعين الواقع ولا تستهوينا الفكرات الجديدة... يجب ان نحافظ على ما لدينا». هنا أجابه أنور الخطيب، «انني اوافق الاستاذ فرنجية على أنه يجب إزالة الطائفية من النفوس... ولكن الذي يزيل الطائفية من النفوس هي القوانين». ولم يعجب هذا الكلام مارون كنعان الذي إعتبر أن المعارضة تجاوزت حدودها وتطاولت على الميثاق الوطني والمادة 95 في الدستور التي تنصّ على أنه، «بصورة موقتة والتماساً للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة دون ان يؤول ذلك إلى الأضرار بمصالح الدولة» فردّ مهدّداً، «الطائفية مؤسسة منذ عام 1860 وكيان لبنان مرتكز على الطائفية ونحن لا نتنازل عنها... لذلك ارجو عدم الخوض في هذا الموضوع خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه».

وكان أن نسي المجلس النيابي الموضوع موقتاً بفعل تراكم الأحداث، وما هو موقت في ثقافة البلد السياسية يعني أنه مؤبّد وما هو مؤبَد يعني أن لا جدوى من البحث فيه، وزاد من البلبلة ان عبدالله الحاج وغسان التوني إقترحا قبل نهاية تلك السنة اعطاء المرأة حقوق الانتخابات إسوة بالرجال، فثارت ثائرة الرجولة من مختلف الطوائف والطبقات ومات الأقتراح لدى ولادته المبكرة.

هذه أمور كانت قد بدأت تهمّ عادل وكثيراً ما تكلّم عنها بانفعال مع صديقه نادر الذي كان ما يزال يوزّع إهتماماته بين الأدب والسياسة ويصرف الكثير من الوقت في قراءة فؤاد سليمان في درب القمر وكان رحيله باكراً ومأساوياً، وسعيد تقي الدين في غابة الكافور وبقية أعماله الساخرة، وطه حسين في الأيام وفي الشعر الجاهلي الذي أثار فيه بشجاعة مسألة الشك واليقين ليتراجع عن هذا المبدأ بعد حوالي عشر سنوات في كتاب مستقبل الثقافة. وفي كل ذلك وغيره أراد نادر أن يوازن بين الكتابة التخيلية والكتابة السياسية الواقعية. وأقترح عليه صديق أن يقرأ كتاب من هنا نبدأ لخالد محمد خالد الذي أثار ضجة كبرى بعد ان ضبطت الحكومة الكتاب وأقامت دعوة ضد المؤلف أمام القضاء بتهمة الخروج عن الدين وترويج الشيوعية وتحريض الفقراء على الرأسماليين وتهجمه على نزعة استغلال الدين بهدف صرف الشعب عن حقوقه في الحياة واحاطة المظالم الاجتماعية باسوار شاهقة من الأكاذيب والخرافات تؤيدها الحكومة وتعزّز سلطانها.

أثارتني هذه القضايا، ولكن لا بدّ أن أعترف لنفسي قبل غيري أنني من ناحية أخرى كنت متردّداً في الإقبال على الإهتمام بالسياسة بسبب تطاحن الحزبيات وما شاهدته من معارك سقيمة لا جدوى منها في محيط عفنٍ. ولهذا تابعتُ قراءة جلنار لميشال طراد الذي جذبتني إليه بقايا رومنطيقية تعبّر عن رغبة بالعزلة والاحتماء من مواجهة المشكلات اليومية. وكنت في الوقت ذاته انفر من كثرة استعماله مفردات القمر والنجوم والزهور الورود والفل والسوسن والنرجس والياسيمين والبنفسج والزنبق والعناب والبيلسان والقمر والنبيذ وفساطين الفتيات والحرير الليلكي والعيون الخضر والأغاني والمخمل والعطر والندى والفراشات. ومن تناقضاتي أيضاً أنني لم أكن أحب الاستظهار، ولكنني وجدت نفسي أحفظ غيباً مقطعاً من شعره ما زلت أردّده في السهرات العامرة:

يا حلوتي، كواز النبيد،
هـَ العاصِفَرْ الِملوك،
الِمشعشعا بالعيد،
... مش، يا ترا
من العنب المدعوك،
عَ المعصرا،
بضوّ القمر من تحت إجريكي؟

لم تكن الرومنطيقية ملجأ نادر الوحيد على الأقل في بعض الحالات، فهناك نشاطات سياسية أصبح يهتمّ بها هو والعديد من الطلبة بشكل جدي أحياناً، وبكثر من السخرية والهزء من ناحية أخرى. وبين من اتبعوا المسلك الأخير زميل لنا من مدينة حمص إسمه مطيع على ما أذكر، فمن طريف أو مهازل ما فعل في تلك الأيام أنه بدأ يعقد جلسات خاصة في شقته في شارع الحمراء في مناسبات

الأعياد السياسية محاولاً أن يقلب الأمور رأساً على عقب. أعلن أن لبيروت مجانينها أكثر مما لمدينة حمص وأراد أن يتعرّف إلى أرائهم بالقضايا العامة، فخطر له أن يدعو في مناسبات مختلفة واحداً منهم يطلب إليه أن يقترح حلولاً لمشاكل الأمة ويجيب على أسئلة الحضور.

لهذا لم أتردّد بتلبية دعوته مع عدد من الطلاب والطالبات إلى شقته في عيد الاستقلال للقاء مع السيد حنا النونو الذي يجهل الناس إسمه الحقيقي فاشتهر باللقب الذي إطلق عليه لأنه إعتاد التجول في شوارع بيروت دون إنقطاع وهو يحمل «نونية» يبول فيها عند الحاجة وكان يسرق ملابس الموتى من المدافن ويرتديها أو يحاول بيعها مما ساعده على العيش.

وعندما دخلت شقة مطيع وجدتُ أنها كانت قد امتلأت بالحضور، وكان حنا النونو قد جلس وراء طاولة صغيرة وضع عليها «نونيته» التي لا تفارقه. في تلك البرهة كان مطيع يقدّمه على إنه حجة عصره في رؤية المستقبل السياسي في لبنان والمنطقة وطلب إليه أن يحدّث جمهوره عن مصير البلد. وما أن انتهى من تقديمه حتى اعتذر حنا النونو أنه مضطر أن يذهب إلى الحمام كي يبول. ضجّت القاعة بالضحك فيما إختفي وراء الستارة، فما كان من طالبة أعرفها في دائرة علم النفس أن وقفت محتجة على إساءة استعمال إنسان مصاب بأمراض نفسية وعقلية لمجرد التندر، وانسحبت من الشقة بغضب دافعة الباب وراءها بقوة.

عمّ المكان هدوء فانسحب عدد أخر من الطلبة، وكدتُ أتضامن معهم فقد تنبّهتُ إلى خطورة وعدم لياقة ما قد يحدث من هذه الزاوية الانسانية ولكنني فضّلت البقاء تلبية لحشرية الكاتب والباحث التي كثيراً ما تستولي عليّ، وخاصة أن مطيع وقف ليدافع عن مثل هذا النشاط وشرح بان القصد ليس التندر والهزل كما يبدو في ظاهر الأمر بل التعرف إلى أراء مجانين بيروت في شؤون البلد باعتبار أن لهم أفكارهم الخاصة وحق التعبير عنها كغيرهم من المواطنين وأن لديه مشروع كامل لدعوة عدد منهم في المستقبل القريب حسب المناسبات والظروف، وأضاف أن أراء المجانين السياسية قد تكون أكثر عمقاً من أراء الكثير من أعضاء مجلس النواب.

وهنا، أعاد مطيع ما سبق أن شرحه مراراً في السابق فقال: مرة أخرى أقول أنه لم يعد في البلد مَنْ يجرأ على قول الحقيقة سوى المجانين الذين لا مصلحة لهم بالكذب ولا يهمهم مسايرة أحد مهما علا شأنه.

في هذا الوقت عاد حنا النونو من الحمام وقد بدا عليه الانشراح وجلس إلى الطاولة بتأدب وقال بشيء من الجدية، «أنا ديمقراطي لا أحبّ الخطابات. أقول باختصار أن هذا البلد لا مستقبل له. كل شيء ماشي بالمقلوب. الحقيقة ضايعة، والقوي بقوته، والسرقة على عينك يا تاجر. شو بدكم تعرفوا؟ إسألوا ولا تطوّلوا السؤال. مليح؟»

وتواً تدفّقت الأسئلة من قبل الحضور. وقف أحدهم ليسأل: إستاذ حنا، ما رأيك باللبنانيين؟».

أصلح حنا النونو جلسته وأجاب: بناديق.

- والطائفية، ما رأيك فيها؟

- سرطان.فالج لا تعالج

- والاستقلال

- مهزلة

- والحكام؟

- عكاريت اولاد عكاريت.

- والمستقبل؟

- صورة معتمه عن الحاضر.

- والنساء؟

- على راسي وعيني.

- والعرب؟

- نكته رزيله

- وبيروت؟

- بصّارة برّاجة محتاله إختْ ش...

- وصباح شو رأيك فيها؟
- شقفه ملعّبه
- والست لورا؟
- مقطّعة موصلة.
- وأم كلثوم؟
- كربوجه، بس أفضل ما أنجبته مصر. إمرأة عظيمه وعلى راسي وعيني.
- وبشاره الخوري؟
- أبو كرش ما بيشبع.
- شو طموحك؟
- شخ

عند هذا الحد وقف حنا النونو واعتذر أنه مضطر أن يذهب إلى الحمام مرة ثانية فانفضت الجلسة على أمل اللقاء بمجنون آخر في المستقبل القريب وعندما تستدعي الظروف.

خرج نادر حزيناً وقصد البحر ليتجوّل على الكورنيش حيث اجتاحته لسبب يجهله ذكريات ومخاوف متناقضة حتى وجد نفسه يعيد النظر بفكرة الانضمام إلي الحزب ليس بسبب تطاحن الحزبيات ولا حتى لتخوّفه من مخاطر الخوض في السياسة على حياته ومستقبله وإنعكاساتها على مصير العائلة وهي ما تزال تكافح للخروج من هوة فقرها وحرمانها، بل لإحساسه بأن الأمور أكثر تعقيداً مما يظن. ووجد نفسه يقصد صديقه عادل ويعترف له بمخاوفه وبل بضعفه أمام هذا التحدي. وطال النقاش بينهما فاعترف أن غضبه على نفسه يزداد بقدر ما يمعن في الإطلاع على جوانب حياة سعاده وفكره، وخاصة بعد أن قرأ خطابه لدى عودته من المهجر. وبقدر ما أعجب به بقدر ما قاوم رغبة الدخول في الحزب، فهذا باب ما أن يدخله حتى يجد نفسه على الأغلب في دهليز لا يدري إلى أين ينتهي به المطاف. ولهذا قرّر على الأقل موقتاً أن يواظب على ولعه بحكايات النهر والبحر.

وتطلّع لوقت في مرآة داخل نفسه وتساءل ربما لأول مرة: ترى أعاني من أزمة في معرفتي لهويتي؟ حقاً من أنا؟ ما موقعي في شبكة العلاقات وما أهدافي لنفسي والمجتمع وكيف أحققها، ومن أين جئت وإلى أين أذهب؟ ماذا يحدث لي حين أنضّم إلى حزب أو حركة؟ هل أتخلّى عن حريتي وارضخ لمشيئة فوق مشيئتي؟ هل أبحث عن خلاصي الفردي فيما أظن أنني أناضل من أجل اقامة مجتمع جديد وفي سبيل خلاص الأمة؟

وكانت هذه الأسئلة مقدمة لنقاشات طويلة مع أصدقائه إلى أن إقتنع بقول عادل أنه كان عليه أن ينشغل ليس بسؤال من أنا بل بسؤال من نحن. وخلال تلك السنوات الثلاث من التفكير بأمور الحياة والمقارنة بين الاتجاهات السياسية صارح نادر صديقه عادل بأنه يرى حركة القوميين العرب ردة فعل سليمة للنكبة الفلسطينية وعبّر عن إعجابه بنضالها وتصميم أفرادها على الكفاح مهما كان الثمن. ولكنه ما أن صرّح بذلك حتى استدرك بأن الحركة تكافح من أجل التحرير دون أن تُعنى حتى ذلك الوقت بتقديم رؤية فلسفية لاقامة حياة جديدة كما فعل الحزب السوري القومي من خلال فكر أنطون سعادة، وعلى الرغم من اعتمادها كتاب معنى النكبة لقسطنطين زريق. وجد في ذلك الوقت أن لغتها السياسية كانت ما تزال قديمة رغم حياتها الكفاحية فلم تتوصّل بعد إلى شحن العروبة بمفاهيم خلاقة، كما لم تعجبه تأكيدات بعض أفرادها أن الحضارات السابقة للحضارة العربية الاسلامية انقرضتْ.

لم يكن يهمّ عادل، على عكس نادر الذي نفر من العمل السياسي بحد ذاته، أن يخوض في الخلافات النظرية، كما يقول، وكاد همه في العمل العام أن يقتصر على نشاطه ضمن الحزب للتحضير لما أسماه الثورة البيضاء. كان يناصر مع فريق من رفاقه غسان تويني الذي مثّل الحزب في الجبهة الاشتراكية الوطنية التي بدأت تعدّ لانتخابات نيابية طاحنة ضد الرئيس بشاره الخوري، أو «أبو كرش» كما قال حنا النونو، وأصبح يُعرف شعبياً بهذا اللقب خاصة بعد أن إنتشرت أخبار فضيحة مرتبطة بزوجته لورا التي يُقال أنها سافرت إلى باريس وفي حقيبتها مئة ألف دولار وكسب أخوه سليم ثروة كبرى من تهريب المخدرات، والذي تمكّن من تجزئة الدوائر الانتخابية ورفع عدد مجلس النواب من 55 إلى 77 في محاولة لتفتيت قوى المعارضة. وكان واضحاً للشعب أن بشاره الخوري أصبح رئيساً للجمهورية عام 1943 بدعم من الانكليز بينما كان إميل إده فرنسي للغرض نفسه. وكان أن تعمّق التوتر والاستقطاب الشعبي بعد 16

تموز 1951 عندما أغتيل رئيس الوزراء رياض الصلح في طريقه إلى المطار بعد زيارة إلى عمان تردّد سراً أنه قام بها تلبية لدعوة الملك عبد الله، فانتشر خبر زار الأردن للاجتماع بقائد صهيوني، وكان القوميون يطاردونه منذ إعدام أنطون سعادة، وجرت قبل ذلك محاولة فاشلة لاغتياله من قبل توفيق رفيع حمدان قرب حديقة الصنائع في 9 آذار 1950.

واتسعت فجوة الاستقطاب بين الدستوريين والمعارضة فدعت قيادات الجبهة الاشتراكية الوطنية للتجمع في دير القمر في 17 آب 1952 تمهيداً للإطاحة ببشاره الخوري في ثورة بيضاء، وأصر عادل على نادر أن يرافقه في حشد من السيارات والحافلات تنقل القوميين وأنصارهم إلى مكان التجمع. هناك وجد نادر نفسه لأول مرة وسط حشود شعبية أشبه ما تكون ببحر متموج لا شواطىء له. ولم يقتصر الكلام على إسقاط «أبو كرش»، بل قيل كلامٌ لم يسمعه من قبل علناً وبهذه القوة والصراحة حول ضرورة التخلص من النظام الطائفي وإحتكار الموارنة لمنصب رئيس الجمهورية وهم لا يمثلون أكثر من خُمْس سكان لبنان. بل قيل أن رئيس الجمهورية يجب أن يُنتخب من قبل الشعب بدلاً من مجلس النواب فيتحرّر اللبنانيون من نظام يدور على نفسه في حلقة مفرغة ينتخب فيها النواب رئيس الجمهورية الذي يزوّر بدوره الانتخابات ليجلب أنصاره عنوة عن الشعب إلى المجلس.

هناك في مهرجان دير القمر، وعن قرب، شاهد نادر وعادل قادة الجبهة الاشتراكية الوطنية يتقدمهم كمال جنبلاط وكميل شمعون وغسان تويني وإميل البستاني وعبدالله الحاج وأنور الخطيب الذين تجمّعوا حول شعار «لاشرعية الولاية الثانية» وبقصد تصفية حسابات قديمة مع بشاره الخوري. وكانت طلائع الزحف، كما وصفتها صحيفة النهار في اليوم التالي، تؤلّف «حومة كأنها الزوابع وطليعة الأعاصير وكأنها مواكب الفرسان، أطلتْ من بعيد صفوفاً رائعة تتقدمها لافتات تزينها أقوال خالدة خلود هذه الأمة وفي طليعة هذه المواكب مشى غسان تويني وعبدالله قبرصي وحسن الطويل حماده والأمير زيد الأطرش الذي حضر من حوران». وسط هذه الحشود المتدفقة من الناس إقشعر بدن نادر الكفروني وشعر أنه جزء من قوة كبرى تستطيع أن تحقّق شيئاً هاماً فبدأ يدرك أن صديقه عادل قد يكون على حق حين نصحه بالخروج من عالم مخيلته المجنّحة ليشارك في صنع التاريخ على أرض الواقع.

التقيتُ صديقي عادل وقصدنا معاً أحد المقاهي الشعبية في الكورنيش. بدا عليه أنه يريد مناقشتي فيما يجري من تحوّل في معتقداتي نتيجة للأجواء المضطربة التي نعيشها ولم يعد بالإمكان الاستمرار في تجاهلها. وما أن جلسنا في زاوية هادئة حتى فاجأني عادل بهجوم صاعق. قال لي بهدوء وإنما بحزم: إسمع جيداً يا عزيزي نادر. لأيام وأنا أريد أن أحذرك بصراحة من نفسك، من مزاجيتك يا عبقري، من غضبك الشديد، وخاصة من الاسترسال في مخيلتك المجنّحة. ستكون ضحية مخيلتك يوماً ما لا شك عندي. ستكون ضحية عواطفك ومعتقداتك الفردية الهزيلة. ولن تعرف متى يأتي ذلك اليوم. لن تكون مستعداً له. ستواجهك فجأة ومن حيث لا تدري طريقٌ مسدودة. أفكارك الفردية لن توصلك إلى اي مكان غير خرابك. ستدمّر نفسك بنفسك. لن تكون ضحية أعدائك، بل ضحية نفسك. أنت محاصر بغضبك وعنفك أيها الثوري كلاماً وتنظيراً. أحذرك من عبقريتك كما من كبريائك الخفية تحت ستار التواضع. تواضع يا رجل حقاً، يا صديقي، يا حبيبي يا نادر. بقدر ما ترتفع عن أرض الواقع بمخيلتك المجنّحة، يكون سقوطك رهيباً وسريعاً ومميتاً. هذا هو المصير الذي أتوقّعه لك بحزن شديد يا عزيزي ما لم تتحرّر من فرديتك. أنصحك بكل إخلاص ومحبة أن تخرج من حصنك الأمين وتنضوي في حركة شعبية ثورية همّها تغيير الواقع والتاريخ. كُنْ جزءاً من المسيرة لا من المصفقين على جانبيّ الطريق.

وفي محاولة مسرحية تكاد أن تكون مفتعلة، تابع عادل كلامه مؤكّداً على ضرورة حشد الجماهير على أساس معرفة الواقع والتمسّك بالعِلم والعِلم فقط، وانحنى ليلتقط حجراً مرّ به ذهاباً إياباً أمام ناظريّ قائلاً: هذا حجر، لا يجوز أن ترى شيئاً فيه سوى أنه حجر. وهذا البحر أمامنا لا تقل البحر يتحرّك. هناك ما يحرّكه. غرضي أن أعرف لماذا يتحرّك. لا تهمني حركته بحدّ ذاتها. ولا تكلّمني عن الأحلام الكبرى بمعزل عن المشاركة الشعبية، بل عما يمكن تحقيقه بالإمكانات المتوفرة لدينا. قلةٌ نحن ولكننا خميرة المجتمع والمستقبل الذي سنصنعه بكفاحنا وموتنا. لا تحدّثني عن الحلم والواقع والفجوة بينهما. لا تحدثني عن النظريات والكتابة والكتب.

حدّثْني عن الواقع كما هو دون أحكام مسبقة. علينا ان نصف الواقع بدقة كلية. دع عنك الكلام المجرّد عن العدالة والحرية. لا تقل البحر جميل. قل لي كيف نستغله في تحقيق أهدافنا؟ كيف نسيطر عليه ونستفيد منه؟ كلمني عن فوائد الاشياء. كيف نحل مشاكل الناس؟ لا تقل لي ان نستعيد ما خسرناه، قل لي كيف نحقّق انتصارات حيث تمكن الانتصارات. ابحث عن المرأة التي تناسبك، لا المرأة التي تظن أنك تحبها. لا تحدثني عن الجمال بل عما يجب أن نفعل وكيف نلعب دورنا في الحياة كي نطوّع الحياة لرغباتنا ورؤيتنا. صحيح أننا حركة تملك رؤية ويجب أن نرتفع إلى مستوى هذه الرؤية. أعرف ما تريد أن تقول لي. تريد أن تسألني لماذا أنتمي لحركة

سياسية طالما لا أستطيع ضمنها ممارسة حريتي في صياغة الأحلام الكبرى وكيفية تحقيقها قبل فوات الأوان. أعرف أن لسعاده أحلامه، وأن الكثير من رفاقنا يعيشون في الأوهام، ولكنني شخصياً أعمل ضمن هذه الحركة على تحقيق ما يمكن تحقيقه، ولا استطيع أن أحقّق ما أريد سوى بالعمل الشعبي، وإذا أردت، الجماهيري. نعم العمل الجماهيري. تعلّمنا نحن المثقفين أن نخاف الجماهير. بدون مشاركتها نكون كمَنْ يقرأ التاريخ لا كمَنْ يصنعه. هل تريد أن تقرأ التاريخ أم تريد أن تشارك في صنعه؟

أزعجتني لهجة عادل الوعظية ومبالغاته وتبسيطاته لمهمات العِلم فقلتُ له:

استغرب كلامك، وخاصة أنك تبشرّني بالانضمام إلى الحزب في سبيل قضية تساوي وجودنا. إسمح لي ان أحذّرك بدوري إنني اتمسك بحريتي الفردية واستقلاليتي إلى النهاية. لا أرضى أن يفكّر أحد بالنيابة عني ولن أتخلّى عن معتقداتي قبل أن أقتنع كلياً. حتى في تلك الحالة لن أتخلّى عن حريتي. لستُ، كما تظنّ، فردياً أعيش في ذاتي ولذاتي، ولكنني لا أرى حلاً لي أو للمجتمع بالذوبان في حزب أو الانصهار الكلي في الجماعة. أرفض أن أسلّم مشيئتي للآخر. يجب أن أظل سيّدَ حياتي. لا أسلّم، لا أخضع، لا أتبع، لا أمتثل، لا أغمض عينيّ، لا أغلق أذنيّ، لا ألجم لساني، لا أساير، لا أصمتُ. لا بد أن يكون لي رأي وقناعة خارج الحزب أو داخله. هناك سياسيون بعدد رمال الشاطىء. قلة منهم تحكم على الأمور بانصاف وتحكي لغة الحق والحقيقة. لذلك أشعر أن هناك ضرورة قصوى لقول الحقيقة متحرراً من إنتماءاتي الحزبية. سأحتفظ دوماً بحق ممارسة النقد.

وتوقّفت عن الكلام لبرهة عجبتُ أنه لم يقتنصها فتابعتُ كلامي: ومع هذا أريدك أن تعرف أنني أصغي واتعاون حين أقتنع. لا تتعب نفسك. هذا مجتمع كل فريق فيه يعتبر نفسه على حق كلياً ويتسلّح بالمطلقات. هناك محاضرات لا نقاش، وقنبلة موقوتة في أسس البيت اللبناني إسمها الطائفية. ولها أسم آخر هو العشائرية. إنهما إسمان لحقيقة واحدة، وهي حقيقة مؤلمة. أنا متحرّر من إنتماءاتي. لا أوافق على الرأي السائد بين جماعتي مهما كانت. كثيرون هم الذين يقولون إلى أن تنتهي العشائرية سنظل مع عشيرتنا رغم إختلافنا معها في الرأي. ليس هذا موقفي. وحين أخالف قبيلتي الرأي، تقول لي قبيلتي: إسمع جيداً جيداً. الجماعة التي تنتمي إليها بفعل الولادة هي لباسك، فهل يعقل ان تخرج إلى العالم عارياً؟ أريد يا صديقي عادل أن أخرج إلى العالم عارياً كي أكون نفسي.

وفي قرارة نفسي لم أكن أريد عادل أن يظن أنني أرفض الإنتماء. قلت له إنني أقرأ أنطون سعادة وأعطيه المجال كغيره للتأثير في تكوّن وعيي السياسي أنا الذي توصّلت لقناعة بان العقل البشري نادراً ما إهتم بمعاناة الضعفاء الذين لا صوت لهم. وحتى الآن لم أقرأ ماركس جيداً. ولأنني أعرف أن عادل لم يقرأه أيضاً، صرفتُ النظر عن الموضوع وسألته هنا بجدية لماذا دخل هو نفسه في الحزب؟

تفاجأ بسؤالي. صمتَ لبرهة. ثم قال أنه في الاجتماعات الحزبية التي حضرها، كتلك الاجتماعات التي تعقد في مسكن صديقنا أكرم دندشي في جل البحر في هذه الأيام، كان يسمع كلاماً يستعذبه عن «المناقبية» الجديدة. وفهم ان المناقبية الجديدة ليست ان يكون الشخص «عاقلاً» و«آدمياً» و«إمتثالياً» بالمعني التقليدي، فالمناقبية الجديدة ترفض الانصياع وتدعو للمسؤولية الفردية في إطار الحرية والواجب والنظام والقوة للعمل على تغيير التاريخ والواقع وصنع مجتمع جديد وإنسان جديد يحمل أخلاقاً جديدة. إنها مناقبية الفعل والمشاركة لا مناقبية الإمتثال. وبهذا اكتشف، على حدّ تعبيره، شيئاً جديداً لم يسمعه من قبل في البيت أو المدرسة أو أي مكان آخر فجذبه الحزب كالمغنطيس وإنتمى إليه طوعاً.

في هذه الأجواء دخلتُ الحزب في السنة الثالثة بعد أعدام سعاده. تابعت قراءة أعماله بنهم وأستوقفني بشكل خاص قوله، «إن فيكم قوة لو فعلت لغيّرت مجرى التاريخ»، و«إن لم تكونوا أحراراً من أمة حرة فحريات العالم عار عليكم»، و«ان آلاماً عظيمة، آلاماً لم يسبق لها مثيل تنتظر كل ذي نفس كبيرة فينا».

لم يكن عادل اميوني هو الوحيد الذي حاول إدخالي الحزب. من أجل هذه الغاية، وجدتُ نفسي محاطاً أيضاً بأنيس صايغ وأسعد مقدم وهشام أبو ظهر والياس مخلوف وميشال معلولي وجمي مشعلاني، ومن ثم راشد وأديب بشور وأنطوان بعقليني وإيليا حريق وبهيج حلبي وغيرهم عدد كبير. وسرني أن صادق جلال العظم انضم للحزب. وكان من الطريف أن أنيس صايغ اختار أن يقف إلى جانب سعادة في خلافه مع أخيه فايز، وأطرف من هذا أن أسعد مقدم كان يواظب على التنقل بالتراموي بين رأس بيروت وفرن الشباك ذهاباً إياباً ليبشر بمبادىء الحزب سائق الترام أبو الشنب خليل جريديني الذي كان يتميّز بشاربيه الطويلين وبترفيهه عن الركاب، ويقال أنه نجح في إدخاله الحزب. وكانت تربطني بأسعد علاقة حميمة، ومن ذكرياتي المحببة عنه أنه كثيراً ما يدعي أنه يصرف الوقت بنشاطه الحزبي على حساب دروسه. بل لم يكن يدرس فيأخذ المواد التي أخذها أنا كي ادرس وأشرح له، هو والمرحوم هشام أبوظهر،

الدروس يومياً في المساء. وكان أسعد يصاب أحياناً بالنعاس فيما أشرح له الدرس فارشّه بالماء البارد إلى أن يستيقظ غاضباً ويستعيد وعيه.

وأخذنا معاً مرة مادة حول النظريات السياسية، وحدث قبل الامتحان أن شرحتُ لأسعد مقدم وهشام أبوظهر نظريات التعاقد، وبين أهمها نظرية طومس هوبز ونظرية جان لوك. وصدف أن جاء في الامتحان النهائي سؤالٌ يطلب منا المقارنة بين النظريتين، فكان من غرائب الأمور أن اسعد نال أعلى علامة لانه إستعان بنظرية مفكر ثالث إخترعه من مخيلته الجامحة وأسماه على ما أظن جورج طمبسون ليضحد كلاً من النظريتين السابقتين، فتمكّن بهذا ان يعقّد الاستاذ الذي تعجّب ان أسعد يجب أن يكون قد إطلع على أعمال مفكّر لم يذكره حتى الكتاب الذي كنا نعتمده فاعطاه علامة مرتفعة. أما هشام أبو ظهر فأخذ علامة منخفضة لأنه خلط بين الفيلسوفين فنسب نظرية هوبز إلى لوك ونظرية هذا إلى ذاك. ومع هذا يجب أن أذكر أن شطارة أسعد هذه لم تسعفه في جميع الأحوال.

وتعمّقتْ صداقتي باسعد فتعرّف إلى افراد عائلتي كما تعرّفتُ إلى افراد عائلته. وكانت والدته في طرابلس تعدّ أفضل وانعم وأطيب ورق عنب أعرفه وترسل له الزوادة الإسبوعية إلى بيروت بواسطة شركة سفريات الاحدب فيدعو جميع الرفاق إلى العشاء في غرفته التي استأجرها مع الياس مخلوف قرب مستشفى خالدي ومقابل بيت مي ربيز التي كنا نفتخر بصداقتها. وأطلق أسعد غرفتة هذه لقب «بيت الأمة»، فلم يكن من الغريب أن يلتهم الرفاق في يوم واحد الزوادة الإسبوعية التي كانت ترسلها إم أسعد من طرابلس، وكان عليه بعد ذلك أن يتدبّر شؤونه المعيشية طيلة الإسبوع بطريقة ما.

وبقدر ما قرأتُ أنطون سعادة وتعرّفتُ إلى مواقفه، شعرت بانجذاب لشخصيته كما لكتاباته وقدرته على الجمع بين الفكر والعمل وبين مختلف الطوائف والقبائل وغيرها من الانتماءات الموروثة. وجدت أن له لغته الخاصة ورؤيته المستقبلية، ورأيت فيه قائداً جذاباً جمع بين الصراع الفكري والصراع السياسي والصراع الاجتماعي فدعا إلى حصول تجديد في النظرة إلى الحياة بقصد إحداث ثورة روحية - مادية واجتماعية سياسية.

فلم يكن غريباً أن قتله أهل النظام العفن وتنازعوا جسده. لقد قُتل الفارس الغريب في بداية المعركة وهوى عن حصانه كصاعقة؟

أعجبني بشكل خاص أنه حلّل السياسة في سياقها الاجتماعي ولم يفصل بينها وبين الفلسفة والفن والعلم. نظر إلى الفنون على أنها لغة النفس الانسانية وقال بالاتصال الوثيق بين الشعور والفكر والعمل. تحدّث عن ضرورة الإستفادة المتبادلة بين الأدب والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والفكر الذي يجب ان يلازم الشعور ولم يكتفِ ان يكون الفن مرآة للواقع، فتوصّل إلي أن «الفنان المبدع والفيلسوف هما اللذان لهما القدرة على الانفلات من الزمان والمكان وتخطيط حياة جديدة ورسم مثل عليا بديعة لأمة باسرها».

نظر إلى المبدع على أنه مَنْ يستكشف المستقبل. وأعجبني أنه رفض أدب الكتب ودعا إلى أدب الحياة، ولكنني تردّدت أمام قوله ان الأدب الصحيح يجب ان يكون الواسطة المثلى لنقل الفكر والشعور الجديدين الصادرين عن النظرة الجديدة إلى الشعب والمجتمع ورفع الأمة إلى مستوى النظرة الجديدة. تمنيتُ لو لم يستعمل كلمة «واسطة» واكتفى بان الفن هو لغة النفس الانسانية وتوقها إلى التجدّد، وإن اتفقتُ معه بان الأدب يجب ان يكون منارة وليس مجرد مرآة، وعلى ان غرض الفنون الراقية هو ان تحمل النفس على تأملات فكرية وثورات روحية.

لم أكن أدري ما سيكون موقف الحزب من قناعتي بتفرّد الكاتب واستقلاليته، وتخوّفتُ ان يحاول فرض اتجاه محدّد على كتاباتي وان يمنع ما لا يقبل به. لم أكن استسيغ الأدب الحزبي، وأتمسك بالصدق والتلقائية وحرية الاكتشاف والإيحاء، وانفر من الوعظ والارشاد. هذا ما سأصرّ عليه ويكون على الحزب أن يتفهمني ويتقبلني كما يكون عليّ أن أتفهمه وأتقبله. وبقدر ما يتنفّس المبدع هواء الحرية بملء رئتيه، كذلك يكافح مدركاً أن التغييرالشامل لا يحصل دون العمل من ضمن حركة إجتماعية ذات رؤية مستقبلية.

ولم أرد استباق الأمور، كما حذّرني صديقي عادل، فقبلتُ أن تشكّل النظرية موضوعات نقاشية، وخصوصاً وأنني كنت قد إطلعتُ باعجاب كبيرعلى تعليق أنطون سعادة بان السنفونية الخامسة لبيتهوفن تمثل انتصار الحياة على العدم وتغلّب قوة النفس ومحبة الجمال وبهجة الحياة على عوامل اليأس والانسحاق. تلك هي طريق الحياة التي لا يسلكها إلا الأحرار الأقوياء وسط ظلمة الحوادث والقضايا التي تكتنف النفس. رأى ان يكون العمل في الأساس استجلاء الغوامض وكشف الحجب عن الحقائق، وفي ذلك كان مصدر الشعور العميق بالسعادة الداخلية فلنضع نصب أعيننا فكرة الانتصار على الصعوبات وتحقيق المثل العليا التي ننشدها معاً وليكن إيماننا قوياً بانتصار الحياة الجديدة. وقلت لنفسي أن سعاده يجب أن يكون قد فكّر بذلك مطولاً ومحمولاً على أجنحة الأحلام بلغة

عربية سليمة وجميلة على أنها لغتنا القومية ومجال ابداعاتنا في مختلف الحقول.

بعزم دخلتُ الحزب وأدى لي القسم الحزبي أنيس صايغ بحضور عدد من الرفاق فكان عليّ أن أخوض معركة الخلاص معتبراً أن المنقذ قد لا يربح المعركة تواً، وربما يكون ضعيفاً ولكنه يقاوم ويكافح ويكتسب قوة من خلال كفاحه. وظننتُ بمرور الوقت أنني بدأتُ إكتشف علاقة الجزء بالجزء والأجزاء بالكل وعلاقة الكل بأجزائه فأصبحتُ كما لو أبحث عن قنديل علاء الدين تحت الماء في بحر هائج لا شواطىء له، وتحوّلتْ دائرة اهتماماتي إلى أفق يبتعد كلما اقتربت منه. أما أكثر ما حرصتُ عليه فهو ان أخفي سرّ انتمائي للحزب عن أمي كي لا تضطرب وتخاف على المصير التي ضحّت بحياتها من أجله فتخيّلتها تسألني ماذا يحدث لنا إذا ما قبضوا عليك؟ بل كدتُ أسمعها تقول، «أقتل نفسي إذا إعتقلوك. هل تريدني أن أقتل نفسي؟»

دخلت الصراع من خلال حركة اجتماعية ـ سياسية رغم علمي بخطورة العمل الحزبي فاقشعر بدني في وحدتي وشعرت لأول مرة أنني أحمل في داخلي سراً، وأقنعتُ نفسي أن مواجهة الخطر حافز وبه أتجاوز ذاتي المتعبة بأثقالها. قلت لنفسي إنني ساكتشفها من خلال التعرُّض للخطر، وأنتصر على ضعفي وانانيتي. وأثارتْ مخيلتي فكرة أن أهب ذاتي لقضية تساوي وجودي وتفاجأتُ أنني أتكلم عن نعمة الموت والشهادة في سبيل القضية مع صديقتي رؤى. قلت لها، كما لو أدعوها للانضمام إلى الحزب، إن الانخراط في حركة سياسية من هذا النوع تجربة هائلة نكتشف من خلالها الكثير من غرائب الحياة ونبحث في اسرارها ومعانى الوجود وننشغل بالقضايا العامة لا مجرد القضايا الخاصة. وأهم ما فيها أنها حركة تغيير وتحرّر من انتماءات تقليدية بدأتُ أنفر منها واتطلع إلى أفق جديد.

وهالني أن أضيف أن الموت أرحم من الحياة الهزيلة وذكرتُ أن بين من ولدوا من موتهم أدونيس وجلقامش وأوزيروس والقمر والمسيح. لذلك وبكل طواعية نختار التعرض للخطر لأننا نكافح من أجل خلاص المجتمع ومستقبل الانسانية.

وسحرتني شخصية سعاده من خلال كتاباته وإطلاعي على مختلف جوانب حياته. إعتبرتُ أنه جسّد حلماً جديداً، ورأيته انساناً جميلاً، أنيقاً، مهذّباً، هادئاً، محباً، مشرقاً، بريئاً، متحرّراً، رائداً، مجابهاً، صادقاً. ولأنه كان يجسّد رؤية جديدة للحياة، كان لا بدّ من القضاء عليه من قبل أهل النظام القائم علي التقاليد. أعدموه بعد سنتين على عودته من المنفى في 8 تموز بعد محاكمة صورية في المحكمة العسكرية ونفذ به الاعدام خلال 24 ساعة من القبض عليه.

وظهرت صحيفة النهار في اليوم التالي السبت 9 تموز 1949 تحمل عنواناً رئيسياً يقول، «أنطون سعاده يطلب مشاهدة الرصاص يخترق صدره وهو طليق اليدين»، ويتهم الحكومات بأنها «تآمرتْ عليّ وعلى حزبي وإني أنظر إليها بازدراء َ، وكتب غسان تويني إفتتاحية بعنوان «سعاده المجرم الشهيد» فقبضت شرطة الجيش عليه تواً وقضى في السجن شهرين كاملين من أصل عقوبة ثلاثة أشهر. ونُفذّتْ عقوبة الإعدام بستة متهمين منهم شاب فلسطيني من آل جدع دون سن الرشد من أجل حصول توازن طائفي.

وبمرور الوقت وجدت نفسي بين رفاق ورفيقات من مختلف الطوائف، وأصبح كل بيت من بيوتنا هو بيت الأمة. وتعلّمت أيضاً ان الكيانات العربية الصغيرة لا تستطيع في أوضاعها الحالية إلا ان تكون ضعيفة وتابعة وملحقة بقوة خارجية تسعى للسيطرة علي المنطقة. إذن لا بدّ من الكفاح في سبيل إقامة الوحدة وتحرير فلسطين. وأزعجني إلى جانب استبدادية الأنظمة السياسية والإجتماعية ان الشعب غارق في هامشيته ومنشغل بطموحاته وشؤونه اليومية. هذا ما اكتشفته فتوزّعت مشاعري بين الأمل والخيبة. ثم قرأت مستقبل لبنان في خريطته الطائفية، وما أن أعدت قراءة الخريطة مراراً حتى أبصرت موتاً ودماراً وأصابني حزن جديد وخفت أن ما أكتب عنه قد يكون مرثاة أكثر ما هو احتفاء بالمستقبل.

بل خطر لي أن شبّهتُ دخولي الحزب بدخول يونان جوف الحوت عندما قرأتُ ما قاله كارل يونغ من أن هذه الاسطورة ترمز لعبور الشمس من الغروب إلى الفجر. هكذا كانت معارك الفارس الغريب مع التنين وانتصار الذات على الموت. وظننتُ لوهلة أنني أحببت البعل ونبتون وآلهة الريح والبحر والحب، وتعلّمتُ من الإله هرمز الذي تقول الأساطير أنه رسول بين الألهة، وإله الحكمة والدهاء والبلاغة، ورسول يهدي الارواح الضائعة، فقلتُ لنفسي إنني أعيش معضلات عصري وتساءلتُ متى أعرف حدودي وكيف اتجاوزها واتحمّل النتائج بمفردي؟ وكي أفهم نفسي إعتدتُ أن أسرع لتسجيل أحلامي حالما أستيقظ خوفاً من أن أنساها في زحمة الأفكار والأحاسيس التي تجتاحني في نومي كما في يقظتي، وباسرع مما أتوقّع. حقاً أنني أذكر قليلاً جداً مما أحلم، وما أذكره ما هو سوى جزء من حلم طويل.

ومهما كانت أحلام الفتوة جامحة، إقتنعتُ أن الكتاب العظيم هو الذي يحرّض مخيلتي على التحليق في أجواء فسيحة، ونشأتْ لديّ رغبة جامحة بالحرية. لم اتقرّب من أصحاب السلطة والأغنياء. على العكس، كنت انفر منهم. في هذا المجال وجدتُ نفسي وحيداً مستوحداً، وصلباً في صلب شخصيتي. اقتنعتُ بطموحاتي فلم يكن لي شك انني قد لا انجح، وأختبرتُ مشاعر عديدة لا أسماء لها وعبثاً حاولتُ ان اجد كلمات تصفها بمختلف ابعادها. وصلّيتُ أنا الذي لا يصلّي لإله الحكمة والبلاغة كي يهدي الارواح الضائعة علّها تجد السبيل إلى ما تريد لنفسها ولغيرها. هل يولد شيء من لا شيء؟ وأبحث عن أسماء لمشاعري وظواهر الحياة التي تظل بلا أسماء، وتعصى عليها. وزاد من إرباكي انني تصوّرتُ يوماً انني ماء، وفي أيام أخرى انني طائر أو شجرة مستوحدة فوق قمة جبل يعشق الغيوم.

عند هذا ذهبتُ إلى البحر وراقبتُ تموجاته واتساعاته وآلوانه إلى أن إمتلكني حزن صامت وهبطتْ دمعة واحدة إلى وجهي وفمي فشربتُها وشعرتُ بملحها يدخل أعماقي التي لا تعرف الإطمئنان مهما إتضحت الطريق.

6 ـ رياح الوقت

فجأة، كما لو كان الحَدَثُ سحابةَ صيف عابرة، تمّ زواج أختي ندى إلى شاب إسمه مجدي من مواليد حيفا يعمل مع شركة التابلين في محطة بدنا. وما أن غادرتنا إلى الصحراء بعد أشهر قليلة حتى إستولت الهموم على أمي منذ تلك اللحظة الحاسمة وفقدت رغبتها بالكلام سوى عند الضرورة. ولم أكن انا بحاجة لمعرفة ماذا يجول في فكرها فقد أدركتُ بحدسي وفي قرارة نفسي أنها بدأت تلوم نفسها للتسرّع في الموافقة على زواج إبنتها الوحيدة ولا تدري ما سيكون مصيرها ومتى تراها ثانية. هكذا اجتاح الفراغ حياتنا وملأ أقصى أبعادها.

وانفطر قلبي حزناً حين سمعتُها يوماً، دون أن تدري، تغنيّ في وحشتها بصوت منخفض أبياتاً من الشعر العامي على وزن للهعَ الشومالك ع الشومالي لله، ولم يصدف أن ردّدتها في حضوري منذ زمن بعيد في الأيام والليالي التي عقبتْ وفاة أبي:

يا ويلْ، يا ويلْ، يا ويل حالـي

اخذوا حبي ورحلـوا شمالـي

رحلوا لبعيد، لبعيد راحـوا

كيف بدي طير وجنـاح ما لـي

قلتُ لنفسي هذا بين أجمل ما سمعتُ من شعر، وأصبح من همومي منذ تلك اللحظة أن أخفّف من اَحزانها فبحثتُ في البداية عن فرصة مناسبة لأقول لها بعد أن تلقّيتُ عرضاً للتعليم في مدرسة ثانوية فيما أتابع دراستي الجامعية، «جاهدتِ طويلاً من أجلنا، وحان الوقت أن نكافئكِ على اتعابك وكفاحك كل هذا الزمن الطويل. ومهما فعلنا من أجلك منذ الآن فصاعداً، لن نتمكّن أبداً أن نفيك سوى جزء صغير مما قدّمته لنا. نريدك أن تنعمي بالراحة. كفاكِ تعباً. أوصَلْتِنا إلى المرفأ الأمين».

ثم بدأ يستولى عليّ إحساس عميق بالذنب بعد رحيل أختي ندى، وعبثاً حاولتُ التخفيف من وقعه في نفسي. أدركتُ أنني كنت مأخوذاً كلياً باهتماماتي الخاصة والعامة مهملاً واجباتي تجاهها. أهملتُ أخي كمال وكدتُ أن أحذف أختي ندى من خريطة اهتماماتي هي التي أحبتني حتى العبادة. لم يخطر ببالي حتى أن أسألها لماذا رفضتْ مَنْ طلبوا يدها في السابق وكان بينهم ثلاث عائلات من الضيعة، وما الذي جعلها تقبل الزواج خلال وقت قصير من شاب لم تعرفه جيداً لمجرد، كما أظنّ، أنه بدا لها عصرياً في شكله وأزيائه ويتكلّم الانكليزية بطلاقة ويعرف تعابير جاهزة باللغات الإيطالية والفرنسية والألمانية تعلّمها حين كان يخدم في الجيش الإنكليزي في مطلع فتوته خلال الحرب العالمية الثانية في شمال إفريقيا ويفخر أنه شارك في معركة العَلَمين وعَبَرَ مع الجيوش المنتصرة إلى إيطاليا.

تمكّن مجدي أن يبهر أختي ولم تمانع أمي، أما أنا فلم أتدخّل. وفي الواقع أنه مرّ وقتٌ على زواجهما قبل أن أكوّن عنه إنطباعاً. أخذتُ أشعر تدريجياً أنه يعاني من عقدة الإدعاء في محاولة لتغطية شعوره بالنقص، وكنت في ذلك الوقت مولعاً بقراءة فرويد. ولكنني تخلّيتُ عن موقفي وقبلته كما هو لمجرد أن أختي أُعجبتْ به ورغبتْ بالزواج منه دون تردّد حين طلب يدها. حدث كل ذلك بسرعة عندما كنت أستعدّ للامتحانات النهائية وللتخرج وتقديم طلبات للتعليم في المدارس الثانوية. وصدف ان مات توماس مان في تلك الأيام فطلبتْ مني مجلة ثقافية ان اكتب لها مقالة عنه، وقد أعجبني في رواياته تركيزه على غربة الكاتب ومهمة المبدع والإبداع في المجتمع الحديث، وإثارة الكثير من القضايا الفكرية التي بدأنا نهتمّ بها في تلك الأيام.

قلت، في محاولة فاشلة للتخفيف من حدة شعوري بالذنب، أن أختي تدرك كم نحبها فلم تُظهر أي عتب لاهمالي أياها، ولم تمانع ان أمي لم تكن تعاملها بنفس المقاييس التي تُعاملنا بها أنا وكمال. على العكس، تفهّمتْ أوضاع العائلة واعتادتْ أن تتقبّل هذه الفوارق في التعامل معها بالمقارنة معنا نحن الصبيان كما لو كان تصرفنا جزءاً طبيعياً من نظام الكون وقوانينه المقدسة. بل تعلّمتْ من المواعظ الدينية التي تلقّتها في المدرسة أن تقبل بعفوية هذه الفروقات على أنها جزء من نظام الكون المدبَّر نهائياً من قبل الله سبحانه وتعالى، فاقتنعتْ ان هناك فروقات طبيعية بين الرجل والمرأة كما هناك ليلٌ ونهار، وبرٌ وبحر، وشمسٌ وكواكب، وصحوٌ ومطر، وفرحٌ وحزن.

لا أذكر أن إختي طلبتْ رأيي بشؤونها الخاصة أو انني أبديتُ إهتماماً بها من تلقاء نفسي. بل، وهذا أسوأ ما في الأمر، لم يكن يخطر لي بتاتاً انني أهملتها سوى بعد أن رحلتْ عنا هكذا فجأة، فشعرتُ بالفراغ الكبير الذي أحدثه غيابها في حياتنا، خاصة حين لاحظتُ ما أصاب أمي من حزن عميق. في هذا الوقت كان كمال يذهب إلى العمل باكراً في الصباح ويعود متأخراً في الليل، ووجدتُ نفسي وحيداً مع أمي، وكانتْ قد توقّفتْ عن العمل خارج المدرسة فبدأنا، هي وأنا، نتبادل بعض الحديث في أمور الدنيا.

تحدّثنا مطولاً عن بهية وكيف تلقّتْ انتشار خبر زواج مروان إلى إبنة خاله في البرازيل. كان أن ألغت فرصتها وعادت إلى جده فلم نتمكّن من الوقوف إلى جانبها والتخفيف من خيبة أملها. وربما لم يهمّها، كما أظن، إن كانت المسؤولية تقع على عاتق أمه التي خطّطتْ لهذا المشروع ورضخ لمشيئتها بحكم أوضاعه الصعبة، أم أنها إكتشفته على حقيقته كما حذّرها الكثيرون من أنه «نسونجي لا يوفّر أية إمراءة من شره». وأتصوّر أنها لامت نفسها داخلياً وتحمّلتْ مسؤولية تصرّفها كل هذا الزمن. ومهما كان، لا بدّ أنها احتفظت بآلامها لنفسها ولجأت كعادتها للهرب من واقعها الأليم. ومهما كان ستعرف كيف تتعامل مع هذه الأزمة وتخرج منها سليمة كعادتها. إن لها أيمانها العميق بالعدالة الإلهية.

ولكي أطمئن عليها حقاً قلتُ أن بهية تعرف شيئاً جوهرياً من خلال تجربة العمل الطويل وهي طفلة في مصنع الحرير في المشتى. لسنوات منذ طفولتها عملت بحلّ الشرانق على الأنوال، فتساءلتْ كثيراً في حديثي مع أمي ما الذي يجعل دودة القز تحيك خيوطها حول نفسها لحماية ذاتها بانتظار ولادة جديدة؟ ترى مصائب حياتها هي التي تدفعها للهرب من واقعها كما لو تحيك خيوطها حول نفسها؟ وإلى متى تختار العزلة والهرب من واقعها؟

تلك هي توقّعاتي رغم أنني لم أكن أعرف الكثير عن معاناتها الداخلية وتعلّمتُ أن اتجنّب محادثتها في هذه الأمور. المهم أنها سعيدة ومطمئنة ومقتنعة بما أنجزته. تحبّ الناس ويحبونها. هذا ما تسعى إليه، وليس من الغريب أن يُشرق وجهها دائماً كما تطلّ الشمس من وراء جبل صنين في أيام الربيع. لا أدري كيف تفصل بهذه السهولة بين عالمها الداخلي وعالمها الظاهر.

هذا ما لم تتعلّمه أمي جيداً من تجربة بهية فلم تتمكّن من إخفاء حزنها لزواج ندى ورحيلها إلى الصحراء بسرعة لم تتوقّعها. وما أن غادرت حتى عاودتها بقسوة ذكريات أليمة من الماضي البعيد والقريب. فاجأتها مرة تبكي عندما عدتُ مساء يوم من الجامعة. سألتها مضطرباً لماذا تبكي؟ غيّرت الموضوع وملامح وجهها، وأخذت تسألني كيف أستطيع أن أجمع بين التدريس ومتابعة دراستي وما هو تصوّري لمستقبلي. أجبتها مطمئناً وكما لو أنني عرفتُ ما تريد حقاً من خلال تساؤلاتها ولماذا غيّرت الموضوع. وفيما أفكر أنها تفتقد إختي وينشغل بالها عليها، قلتُ لها أن طموحي أن أكون كاتباً جيداً وضحكتُ من نفسي حين تلفّظتُ بتلك الكلمة الكبيرة خوفاً من أن أبدو مغروراً.

وما أن إنحنيتُ هنا لأقبّل يدها حتى وجدتُ نفسي أشهق بالبكاء دون توقّع ولم اتمكن من الكلام سوى بصوت مترجرج ومخنوق، ولا ادري كيف شرحتُ لها أنني سأتابع دراساتي إلى أن أحصل على دكتوره في علم الإجتماع مما يعدّني للتعليم الجامعي فاتمكّن من تأمين معيشتنا ويكون لي الوقت الكافي للكتابة. وقلت لنفسي الكتابة والبحر هما ما ألجأ إليهما في زمن الحزن كما تلجأ أمي للغناء وبهية للايمان. وسألتني أمي ماذا سأكتب ولماذا ولمن؟ هنا ذكرت لها ربما لأول مرة أنني أكتب رواية وشرحتُ لها ما أقصد بالرواية عندما استفسرتْ فاستغربتْ انني اتحدث عن حكايات بسيطة من حياة الناس وتجاربهم اليومية، ولم أكن في تلك الأيام أفكّر بكتابة قصة حياتها وكفاحها في المستقبل هي وبهية كما لم يكتب أي كاتب عربي آخر عن كفاح المرأة حين تجد نفسها في مصيبة كبرى ويكون عليها أن تواجه مصيرها بنفسها دون الاتكال على أحد.

وسررتُ بشكل خاص أنها لم تقل لي أن الكتابة لا تطعم خبزاً كما يقول لي المتعلمون الذين يسألونني لماذا لا أدرس هندسة أو طباً أو صيدلة أو إقتصاداً وانا المتفوق في العلوم كما أنا متفوق بالحقول الانسانية. وما أن ردّدتُ مرة ثانية أنني فعلاً أريد أن أكتبَ قصة حياتها حتى أجابتني دون إكتراث، «يقطع هيك قصة، شو فيها غير التعتير؟ شفلك يا إبني قصة فيها فرح. تكفينا عتمة القلب».

إستغربت تعبيرها «عتمة القلب» كما لو كانت قرأت رواية «قلب العتمة» لجوزيف كونراد فضحكت من أعماق قلبي، ثم هدأتُ عندما خطر لي أن كونراد هو الذي يجب أن يكون إستفاد من تعبير شعبي وليست أمي هي التي إستفادت من أدب النخبة. وأوضحتُ لها وكأنني داخلَ صف الفلسفة في الجامعة أن الفرح شيء عظيم واعتبر نفسي إنساناً سعيداً لأن لي أماً عظيمة مثلها. أظن أنها فهمتْ ما أقصد ولكنها تجاهلتْ الأمر، فتابعتُ حديثي وشرحتُ لها ما إكتشفته في حياتها، وهي أنني لاحظت أنها تحب أكثر ما تحب من

القصص تلك التي إعتدتُ مؤخراً أن أحكيها لها في أوقات الفراغ، وهي في أغلبها من الحكايات التي تصوّر الانسان وسط أزمات ليس من صنعه، ويكون عليه ان يواجهها ويخرج منها سليماً وقوياً.

طبعاً لم استعمل هذه اللغة في كلامي معها، بل حاولتُ إن أقنعها وإوضح ما إريد بلغتها هي وبتقديم أمثلة حسية من الواقع الذي تعرفه جيداً. أخبرتها انني أتأثر في كتاباتي ربما، ودون وعي مني، بسرد الحكايات التي أقصّها عليها، وأنني كثيراً ما حاولتُ أن أعرف ماذا يسترعي إهتمامها وما يهمها من شؤون العالم. ومن خلال ردات فعلها، إكتشفتُ أنها تحب تلك الحكايات التي تتشابه مع تجاربها في الحياة، وخاصة تلك التي يواجه الانسان فيها أزمات حادة ليس من صنعه ويكافح للتغلب عليها والخروج منها سالماً وقوياً. في تلك الليلة كتبتُ في يومياتي قبل النوم ما قلته في اجتماع حزبي، «أريد أن أنشغل بشؤون الناس، تلك هي مهنتي ومهمتي».

لقد تيقّنتُ من هواجس أمي هذه حين أخبرتها قصة سقوط طائرة في الصحراء لم ينجوا من ركابها سوى ثلاثة رجال وجدوا أنفسهم فجأة دون طعامٍ وماءٍ وظلٍ يحتمون به وسط محيط شاسع من الرمال التي تتقاذفها الرياح الحارة فتستحيل أشكالاً من الأودية والتلال والسهول التي ما أن تتكوّن بشكل ما حتى تعيد تشكّلها من جديد دون استقرار. هذا كل ما تذكّرته من تلك القصة التي قرأتها قبل مدة في مجلة «المختار» الواسعة الانتشار في حينه. طبعاً، إستعملتُ مخيلتي في وصف ما جرى فتصوّرتُ ان الرجال الثلاث هم أيضاً رمال تقاذفتها رياح الوقت في كل اتجاه ودون اتجاه فحسدوا الذين ماتوا ولم يدروا لماذا اختار لهم الله هذا المصير البشع واراد ان يمتحنهم بكل هذه القسوة.

وقلت لنفسي فيما أصف أحداث القصة لأمي أن ركاب الطائرة الثلاث تخوّفوا، لا بدّ، أن يأتي موتهم بطيئاً وموجعاً، وربما فكّروا أن يقتلوا بعضهم البعض ولكنهم لم يجدوا بينهم من يتخذ المبادرة الأولى. على الأغلب أنهم قرّروا الصمود لعل قافلة ما تمرّ بهم أو تبحث عنهم طائرةٌ ترمي لهم بالزاد والماء ريثما تتمكّن من إنقاذهم بطريقة ما. طال انتظارهم قبل غروب الشمس وراء أفق شديد الإحمرار، وبدأوا ينعمون بجمال النجوم والقمر وبرودة الطقس وعذوبة الهواء فناموا بهدوء لشدة تعبهم وجوعهم وعطشهم، وحلموا بالمطر والموائد والينابيع والنساء، وقصّوا إلى بعضهم البعض عند الصباح ما ابصروه في نومهم، وما أن بدأتْ ترتفع الشمس حتى ظهرت عند الأفق قافلة لوّحوا لها بقمصانهم فشاهدوا فرساً تسابق الريح نحوهم مصحوبة بعاصفة من الغبار، وبهذا توصّلوا إلى أن الله اختار لهم مصيراً آخر دون أن يعرفوا لماذا العقاب ولماذا الرحمة. وهذا ما ذكّرني بقول أمي المأثور، «الله يجرّب خائفينه»، فأسألها، «لماذا يريد أن يجرّب خائفينه؟» فتجيبني، «لا تكفر يا إبني!»

هزّت القصة أركان إمي من الداخل كما لو وجدتْ فيها مصيرها منذ أن قُذف بها إلى الوجود. وطلبتْ في الأيام التالية أن أحكي لها قصصاً أخرى بعد عودتي من الجامعة في المساء فأصبحتُ اتوقّع ذلك وأفكّر أية حكاية ارويها لها لتتغلّب على وحشتها.

ومراراً خطر لي أنني لم أكن أسرد لها حكاياتي هذه كي أُبعد عني شبح موتي كما فعلت شهرزاد، بل لأنني كنتُ انعم بمتعة السرد التي لا تفوقها متعة أخرى.

عدتُ أفكّر أن أم نادر جاهدت جهاد الأبطال وما تزال، واصبحتْ تفرح ان أقصّ عليها حكايات مما قرأتُ في الكتب وتتمنّى لو كانت تعرف القراءة. رويتُ لها في أمسياتنا معاً خلال زمن الفراغ قصة الرجل العجوز والبحر لهمنوي، واللؤلؤة وعناقيد الغضب لشتانبيك، وقصة مطاردة موبي دك، وسيرة بني هلال والزير أبو ليلى المهلهل، وحكايات من الف ليلة وليلة، وغيرها.

وأخبرتني هي قصة البقرة الصفراء التي نسيتُ تفاصيلها، وكم تمنيتُ لو سجّلتْ أحداثها ومضامينها وكيف كانت تسردها باسلوبها الذي جعلني أظن أن الشخصيات التي تتكلّم عنها هي هي بنفسها لا غيرها. لهذا حين لم أجد قصة طريفة اخبرها أياها كنت أخترع قصصاً من عندي، وأفرحني كثيراً إهتمامها بمعرفة مصير الشخصيات ممن سردتُ عليها حكايات حياتهم، فهي أيضاً وجدتْ نفسها بوفاة زوجها مقذوفةً في صحراء شاسعة، وكان عليها ان تكافح دون معين وتنتظر النجدة من قبل قافلة لم تظهر في الإفق في أصعب الأوقات، وإذا ما ظهرت عند حدودها البعيدة كانت تختفي بلمح البصر رغم ما ردّدته من صلوات. لذلك كانت حين تستمع للحكايات التي أرويها لها تقلق على مصير شخصياتها كما لو كانت هي التي وقعت في صحراء شاسعة فأصبح من واجبي أن أصبح فارساً ينقذها من الخطر الذي يهدّد حياتها.

وكما كانت أمي تحب أن أسرد لها قصصاً قرأتها في الكتب والمجلات باللغة العربية واللغة الإنكليزية، كنت أنا أيضاً مولعاً بالإستماع إلى حكاياتها الخرافية التي تناقلها الناس شفهياً جيلاً بعد جيل. أذكر في تلك البرهة أن أمي كانت منذ طفولتي تخبرنا

بدورها حكايات ساحرة عن شخصيات تلبس قبوع الإخفاء لتفعل ما تشاء دون رقابة أو كي تتدخّل في حياة الناس وتتطلع على أسرارهم فعدتُ بين وقت وآخر إلى مثل هذه القصص في ألف ليلة وليلة وغيرها من الحكايات الشعبية. بل خطر لي، وكانت هذه مفاجأة سارة، أن أستوحي قبوعة الإخفاء للحديث عن تنين فشل أي فارس في إقتحام مخبأه لينقذ الشعب من شروره، فاهتدى شخص عادي إلى فكرة إرتداء قبوعة الإختفاء في مهاجمته وهو مطمئن داخل مغارته السريّة.

حكتْ لنا أمي في أيام الطفولة أنه كان ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، كان أن ساحرة حوّلت مرة فتاة صغيرة إلى غزالة، ومرة أخرى إلى سمكة ملونة أهدتها لجارية دخلت على السلطان وقدّمتها إليه كي يعطيها ما يغنيها، وجعلتْ من إمرأة بقرة صفراء، ومن ولد عجلاً أهدته إلى ملك الروم. ولن أنسي أن هذه الساحرة جعلتْ مدينةً بحراً والناسَ سمكاً، وردّدتْ كلاماً يُفهم وكلاماً لا يُفهم عن طائر رخّ حمل صبية ذات عقل وجمال باهر وحطّها على جبل وأراد أن يتزوّجها رغم إرادتها غير أنها تمكّنتْ بما تملك من قدرة على السحر أن تنقذ نفسها وتعود سالمة إلى أهلها.

ومما روت لي أمي في زمن الطفولة أن فتاة إسمها نزهة الزمان تنكّرت بثوب فارس وخاضت قتالاً لم يتمكّن أحد من التفوق عليها فردعتْ الأقوياء من التحكّم بحياة الضعفاء. وكانت نزهة الزمان إذا ما رأيتها ظننتَ أن القمر طلع من الأفق، غير أنها كانت لا تحب الرجال ولا تشتهي الزواج لتنصرف إلى القتال فاشتهرتْ بقوتها وشاع في البلاد ذكرها. ومما روته لي أم نادر وأحتفظتُ به في ذاكرتي حكاية تقول أن الأشجار والحجار كانت تتكلّم في قديم الزمان وكانت لغتها فريدة عن غيرها. وإن نسيتُ فلن أنسى حكاية تقول أن ثلاث فتيات جميلات تحوّلن إلى ثلاث حمامات لتحلّقن في الفضاء الرحب بحثاً عن بحيرة نائية أو نهر منعزل كي تسبحن عاريات كما خلقهن الله.

في الواقع انني لم أكن بحاجة لأن أكتشف أن أمي كانت تحب الحكايات قبل أن أبدأ الكتابة بزمان طويل. ما إكتشفته كان أهم من كل ذلك عندما علقّتْ على قصة الشيخ والبحر لهمنوي قائلة بالعودة إلى حياتنا: اننا لا نملك زورقاً ولا وسائل الصيد كالتي إمتلكها ولم نطمح أن نصطاد سمكة كبيرة تثير شهية الحيتان الكبيرة. أردنا يا إبني أن نعيش فحسب وكل ما أردته في الحياة أن تتعلّموا كي ندافع عن أنفسنا حين تطاردنا الحيتان كما تطارد أميركا الشعوب الضعيفة.

لست متأكداً أن أمي فهمت مختلف تفاصيل حكاياتي وإن وعتْ بحدسها أسرارها الخفية، ولكنها لا بدّ إحست بحرارة كلماتي كما تبيّن لي واضحاً من خلال تحوّلات ملامح وجهها وتعابيرها عن عواطفها. وهذا ما شجّعني أن أكتب حكايات الناس وتجاربي الشخصية كما خبرتها حقيقة دون رقابة فوجدتُ نفسي أذهب إلى دفتري وأسجلّ في يومياتي أحداثاً عشتها وقضايا خضّتُها كما أخوض الأمواج في زمن العواصف.

كانت السباحة متعتي الأولى منذ بدأتُها في أنهر الكفرون في الطفولة الباكرة حتى أنني لا أذكر المرحلة السابقة لها كما لو كنتُ سمكة ولدتْ في الماء، وبدأتُ في بيروت منذ بدايات الفتوة أتعامل مع البحر كما لوكان فتاة أعشقها. ولم يكن أجمل من مشاوير الكورنيش عند الغروب أو عند طلوع الشمس سوى التمشي حافياً حيث تلتقي الأمواج بالرمال على شواطىء مهجورة فأخوضها وأهرب منها في لَعِبٍ لا ينتهي وبحثٍ عن الأصداف والحجارة الملساء ذات الأشكال الغريبة التي ما أزال أحتفظ ببعضها في عمر متأخر. وفَتَنَتْني حتى هذه اللحظة علاقة السندباد بالبحر والجزر البعيدة فاعود باستمرار إلى قراءة حكايات ألف ليلة وليلة كما يعود المؤمنون إلى كتبهم الدينية واستشهد بنصوصها وتصوّراتها كما يستشهدون. وسرّني بشكل خاص أنها لم تفرض على أية معتقدات صارمة.

بل عشقت أيضاً في زمن الدراسة الجامعية البحث في أسرار إله البحر نبتون كما روتها الأساطير الرومانية. قالتْ احداها أنه إبن ساترن وريا وأخ لجوبتر وبلوتو وتمثّل في مخيلتي راكباً عربة تجرّها خيول البحر ويحمل رمحاً مثلّث الرؤوس، والموازي لإله آخر للبحر والأحصنة هو بوزيدون في الأساطير اليونانية. وحين كنتُ أسبح في زمن الفتوة كثيراً ما بحثتُ أكثر ما بحثتُ عن عرائس البحر يهجرن أصدافهن في مغاور الصخور ويصعدن إلى أعالي أشجار الجزر ليراقبن السفن الضائعة، وكم جذبتني إليهن أغانيهن الساحرة فاستسلمتُ لمخيلتي تأخذني حيث شاءت فكان أن قدّمتُ الإله يم على غيره ورافقتُ الأنهر التي تتدفّق إليه حباً وولعاً. وأسفتُ فيما بعد أنني لم أسمع في تلك الأيام بملحمة جلقامش التي تمّ اكتشافها في نينوى بين النهرين وتعود إلى الف سنة قبل الياذة هوميروس، واعترف النقاد في الغرب أنها أولى رحلات اكتشاف الذات وربما تكون أهم من اي عمل أدبي كُتِبَ بعدها.

وكان هناك مكانٌ واسعٌ في حياتي لإله الريح وخاصة حين يُحْدِثُ أمواجاً وصواعق فكانت تلجأ عرائس البحر هرباً منه إلى كوخي

في جزيرة نائية تحدّث عنها السندباد وسرد حكايات مخلوقاتها العجيبة فقدّمتُ لهنّ مشروبات الهناء أعددتها بنفسي بعناية فائقة. ولكثرة ما فتنتني عرائس البحر لم أعرف مَنْ أختار منهن حتى التقيتُ صديقتي رؤى. وخارج البحر كثيراً ما أصغيت لسنفونية «البحر» ل ديبسي بعد ان استمعت إلى رشدي معلوف يقدّمها في الإذاعة اللبنانية، وقرأت بنهم قصائد سان جان بيرس البحرية. ومثل إهاب في رواية موبي ديك ما أن أغادر البحر حتى أقول لنفسي حان موعد العودة إليه لا لاقتل مخلوقاته المتكبّرة بل لأقيم صداقات حميمة معها وانقذ أندروميدا من التنين بأفضل ما فعل بيرسيوس.

لا تسمّني إسماعيل أو إهاباً أو يونان الذي ابتلعه الحوت لظنه أنه إذا ما أغضب الله أغضب نفسه وهو نادراً ما أحبّ البحر لذاته، وإذا أصررتَ على تسميتي بغير إسمي سمّني كويكيغ الذي عرف كما تقول رواية موبي دِك لماذا كان البحر مقدساً في البدايات الأولى أو السندباد الذي إشتاقت نفسه دائماً لمشاهدة غرائب العوالم البعيدة حيث ليس مَنْ يفرض عليه معتقداته. إنني أفضّل، إذا ما أصررتَ، أن تسمّيني كويكيغ ذاك المتوحش الذي إسترشد بعلامات قلبه الطيب، وركب نعشه عندما أحسّ باقتراب موته تاركاً تيارات البحر تأخذه حيث شاءت دون قلقٍ من أن تقتات العقبان قلبه إلى الأبد كما حدث لبروميثيوس.

وإنني ما زلتُ أفضّل أن أبحث عن قنديل علاء الدين تحت الماء لأستضيء به في ظلمة الأعماق لا لأحقّق رغبات جامحة نتعطّش إليها دون فائدة، وإذا ما إقتربتُ بعد كفاح طويل ومرير من النهاية تمدّدتُ في زورق يتوجّه بإرادته الخاصة نحو أرخبيل النجوم التي إعتبرها كويكيغ جزراً وراء الآفاق المرئية واللامرئية. وأقصى ما طمحتُ إليه أن أصادف عروسة من عرائس البحر أقرأ لها كتاب جسدها وتقرأ لي كتاب جسدي.

ثم تشابك البحر والموسيقى والشعر في مخيلتي، فواظبتُ على الصعود إلى سطح مكتبة الجامعة حين انتهي من الدراسة في ساعات متأخرة من الليل وأجلس طويلاً وهادئاً في الظلمة أصغي لموسيقى الأمواج. وكان لأوقات هبوب الرياح وقع خاص في نفسي، كما لأوقات السكون، فتعلّمتُ وما زلت أحاول التعمُّق في معرفة لغة الريح والموج والمطر وحفيف أوراق الشجر.

وخطر لي مراراً أن أكتب حكاياتي مع البحر حتى انني استغرقتُ مرة في التفكير وأنا أسبح فلم أنتبه أن تياراً كان قد التقطني وحملني إلى جزيرة عند الأفق حيث انتشلتني عروس البحر وخبّأتني في عبّها.

ولم أكن أزاول السباحة في مكان واحد، وإن بدأت في منطقة الكورنيش بين مسبح الجامعة الأميركية والصخور التي إستولى عليها فندق الرفيرا فاصبحتْ شواطئها ملكاً للأغنياء دون غيرهم، وثم إمتدتْ الملكية إلى مناطق شوران والروشة والرملة البيضاء. وأفهم كيف قبل الناس أن يستولي العسكر على شوران ويقيمون حواجز وأسواراً مشرَّطة وحرساً مسلحاً، فقد إعتاد الناس، لزمن طويل كهمومهم، المَنْعَ والهيمنة على حياتهم كما إعتادوا شروق الشمس وغروبها. ثم أخذتُ بتقدم العمر أتردّد على شواطىء عديدة بين مدينة طرابلس في الشمال ومدينة صور في الجنوب، وفضّلتُ منها أماكن مهجورة. ولم يمنعني هذا أن أتقبّل مسابح عجرم وعين مريسة وغيرها في ذلك الزمان باعتبار أنها كانت قديمة وشعبية وقد اكتسبتْ لسبب ما شهرة خاصة، ولكن ما أن بدأتْ تنتشر نوادي السباحة الخاصة بالنخبة كالحمام العسكري والسبورتن كلوب وتحيط نفسها بحواجز تمنع التسلُّل إليها حتى بدأتُ أشعر أن القوى المتسلطة سرقتْ البحر من الشعب واحتكرته لاعضائها من نخبة البلد وأعيانها دون غيرهم.

في تلك الحالة وغيرها لم يكن البحر جسرَ خلاص كما قال صديقي جبرا إبراهيم جبرا فيما بعد حين أصبح يتردّد إلى بيروت من بغداد، بل كان معركة شرسة كما صوّر لنا ميلفيل في روايته موبي دِك. ولا أشكّ أنه كان بيننا من أحب البحر لذاته فاختلفنا عن الكابتن إهاب الذي كان مدفوعاً بروح الانتقام من الحوت الأبيض موبي دِك. كان، كما بدا لي للوهلة الأولى، مسكوناً بالكره والجنون والرغبة بالهيمنة، وكنا مأخوذين بعري البحر فخضناه بحثاً عنه وبدافع اقتناص السعادة والتعلُّم ان الحياة، مثله، شديدة التقلُّب لا تعرف الإستقرار والإطمئنان. القلق مصيرنا، والاختيار حقٌ ومسؤولية، والتجاوز لعبةٌ ساحرة. هذا ما أدركه جلقامش والسندباد قبل نشوء الفلسفة الوجودية التي بدأنا نولع بها في تلك الأيام، وما نسعى إليه وبه نبحث عن التحرّر من وحشة القلب الإنساني وفراغ الروح في عالم مضطرب. وقد غمر الماء العالم قبل أن يصنع الله مخلوقاته. أقصده خاصة في زمن الازمات فلم يكن من الغريب أن لجأتُ إليه يوم هاجرتْ رؤى بدلاً من أن أذهب إلى المرفأ لتوديعها. أصغيتُ لامواجه على الجانب الآخر ودخلتُ معه في حوار صامت. تلك كانت بين أسعد الأزمنة، وبل أشقاها أيضاً.

نسيت الكثير من التفاصيل في علاقتي بالبحر، غير أنني لن أنسى غَرَقِ باخرة الشمبليون في خريف عام 1953، وأتذكّر هذا

الحَدَث خاصة وبالدرجة الأولى بسبب قصة بطولة رضوان ابراهيم بلطجي الذي كان يعمل أباً عن جد مرشداً للمراكب الشراعية. وأظن أنني أذكر قصة الغرق بشكل خاص لتجربة مررتُ بها في علاقتي مع عائلة البلطجي التي أحتفظ لها في نفسي بمحبة خاصة وكم تمنيتُ أن تُتاح لي الفرصة لاعتذر من والد هاني لذنب إرتكبته بحقه. بين ما أذكره بوضوح حتى هذه الساعة بعد عقود من الزمن الذي لا يضيع كما يظن الكثيرون أن نظرتي للأمور تغيّرت جذرياً على ما أظنّ بعد أن دخلت الحزب، ولم يكن التغيير كلّه إيجابياً. ولكنني لم أندم بتاتاً أنني عبرتُ تلك التجربة الغنية فأنا من ناحية أخرى لا أنكر فضله عليّ وصداقة الرفاق التي لا تنقطع أوتارها مهما بعدت المسافات وتغيّرت المعتقدات. أذكر بوضوح أيضاً أنني ما أن إنضممتُ إلى صفوف الحزب حتى وجدتُ حاجة ماسة ألا أفقد قدرتي على التساؤل مهما إقتضت مهمات العمل المشترك وأهمية وحدة الصف والإنضباط. أظن أنني رفضتُ الإمتثال الأعمى لارادة غير إرادتي، وأحببت الحرية بقدْر ما قدّرتُ أهمية الواجب والنظام وضرورة العمل من ضمن حركة اجتماعية سياسية إذا ما أردنا تغيير الأوضاع السائدة وتجاوز الواقع. وهذه معاناة ليس من الممكن تجاوزها مهما كانت الحركة التي قد ننتمي إليها.

لم أفتعل الأحداث لأختبر مدى قدرتي على الموازنة الخلاقة بين ضرورات الامتثال والمساءلة. تركتها تأتي في أوقاتها وظروفها فاكتشفتُ تلقائياً في مناسبة محدّدة مدى قدرتي على التمرّد حين كنا نسير يوماً في صفوف نظامية متراصة في ساحة ضهور الشوير وصدف أن سألني الرفيق فاروق خرطبيل إلى أين المسير فاجبته لا أعرف. فجأة تنبّهتُ لمعنى ما قلتُ فانسحبتُ من الصفوف ومشيتُ وحيداً باتجاه العرزال. وفي مناسبة أخرى، زرتُ عميداً للحزب في مكتبه، وكانت تربطني به صداقة متينة، فتفاجأت أنه إستقبلني بجفاء ظاهر عندما سلّمتُ عليه وجلستُ في المقعد المقابل. لم أعرف سبب تضايقه إلا عندما انتهت المقابلة بسرعة غير عادية فصافحته مودعاً وتوجّهتُ إلى الباب فناداني ليسألني لماذا اتجاهل تقاليد الحزب؟ واستغرب انني لم أفهم ماذا قصد بسؤاله، فشرح لي بحدة أنه على الرفيق أن يأخذ التحية الرسمية عند الدخول على العميد والانصراف من حضرته مهما بلغت الصداقة بينهما فالنظام هو النظام. قلت لستُ عسكرياً وليس الحزب ثكنة عسكرية وانصرفتُ بعد فترة من الجمود في مكاني لا أصدّق ما يحدث.

وهذا تماماً ما حدث لي مرة على الحدود اللبنانية ـ السورية التي لا أعترف بها في طريقي لزيارة قريتي الكفرون. استدعاني شرطي من الباص قائلاً على مسمع بقية الركاب أن الضابط يريد أن يراني فتوجّهتُ إلى مكتبه قلقاً. ولما وجدته منشغلاً بالحديث مع مساعده، جلست على المقعد المقابل له بانتظار دوري. ومرّ وقت قبل أن يسألني الضابط إلى أين أقصد وما الغرض من زيارتي، فاجبته انني أقيم مع أهلي في بيروت واقصد قريتي الكفرون. هنا لحظتُ غضباً في وجهه وسمعته يوبّخني بقلة التهذيب لانني اتكلّم مع ضابط وانا جالس على المقعد وأمرني بالوقوف. وقفت، إنما ليس امتثالاً لأوامره، بل لأطلب منه استعادة هويتي موضحاً انني في هذه الحالة أفضّل قطع زيارتي والعودة إلى بيروت مع أنني لم أقدّر في تلك البرهة الحرجة معنى حرماني من جذوري. هنا، ودون أن يعيد إليّ بطاقة هويتي، أخذ يتأمل بي من تحت إلى فوق ومن فوق إلى تحت، ثم انفجر ضاحكاً وقال، «ما عرفتني؟ أنا المقدّم محمود من بيت الشيخ علي في الكفرون». وكان بيننا عناق وحديث طويل في عودتنا معاً إلى الضيعة.

في هذه الأحوال، تمنّيتُ لو كان العميد يمارس لعبة المزاح معي كما فعل المقدّم محمود. كان، على العكس، جاداً في تصرّفه، واقتنعتُ أنني تعلمّت درساً في التهذيب دون ان اساوم على حريتي. ومرّت أحداثٌ وتجاربُ أخرى وجدتُ نفسي بعدها أكثر حرصاً على مناقشة معتقداتي الحزبية الجديدة، وحدث ذلك خاصة بعد ان درستُ في السنة الجامعية الثانية مادة في الأنثروبولوجيا حول الشعوب البدائية، وبين ما أذكره بان آمال رسام كانت طالبة معنا في ذلك الصف. تعلّمتُ في تلك المادة أننا يجب أن نميّز بوضوح بين منهج التفكير المطلق ومنهج التفكير النسبي في دراستنا للحضارات الأخرى إذا ما أردنا أن نفهمها على حقيقتها باعتبار أن لكل مجتمع حضارته الخاصة به التي يكون من واجبنا التعرّف إليها ليس من منظور الحضارة التي ننتمي إليها، بل من منظورها هي وبانفتاح ذهني تام. اقتنعتُ بعد نقاش دام وقتاً أن القيم الإجتماعية نسبية لا مطلقة، وبدأت أحاول تفهُّم قيم الشعوب الأخرى من منظورها هي مجرداً من كل معتقدات مسبقة فأحاول أن أدرسها بانفتاح نفسي وعقلي كما هي لا كما نريد لها بل كما تريد لنفسها. هذا ما حاولته منذ تلك الأيام، ولكنني أعترف في الوقت ذاته أنه ليس من السهل التحرّر من رواسب ماضينا والقواعد التي ننطلق منها.

لم أسمع بمفاهيم النسبية والمطلقة قبل ما تعلّمته في تلك المادة في السنة الثالثة من دراستي الجامعية وإن صدف أن إشتركتُ في حديث مع خليل حاوي حول اختلاف مفاهيم الجمال من حضارة إلى أخرى، وكي اتفهم مداليلها بالنسبة لتجربتي الحزبية لجأت إلى البحر وتركت جسدي وعقلي يستسلمان لتموجاته وتياراته. في تلك اللحظات عرفتُ ماذا سأقول في مداخلة أُعدّها للمشاركة في لقاء

حزبي في منزل هاني بلطجي قرب المنارة. تساءلت حول الواقع الأليم الذي يعيشه مجتمعنا، وتوصّلتُ إلى اننا منغلقون على أنفسنا داخل دوائر النظريات المطلقة المستمدة من مفاهيم القداسة لا مفاهيم الفكر النقدي، ومن الماضي لا من الحاضر والمستقبل، ومن الذاكرة لا من العقل.

وفاجأتُ نفسي أقول للحضور بجرأة لم أتوقّعها في تلك اللحظة ودون أن أفكّر ملياً بتداعياتها، «ان من مشاكلنا كحزب أننا قدّسنا أنطون سعادة وأفكاره فجرّدناه من إنسانيته وأصبحنا نكرّر أقواله كما يكرّر المؤمنون اقوال أنبيائهم دون تمعن فندخل سجون الكلمات والعبارات خارج سياقها التاريخي ونغلق نوافذها لا نجرأ أن نخرج من أسرها ولا يمرّ وقت طويل قبل ان تضمحل قدراتنا الإبداعية ونصبح رهينة الذاكرة فنتكلّم لغتها لا لغة العقل».

ساد صمتٌ وسمعتُ والد هاني المتقدم بالعمر يردّد «استغفر الله من الشيطان الرجيم»، فأدركتُ أنني لم أقدّر خطورة ما أقول وأصابني إرتباك تجاه كيفية التعامل مع الوضع الذي وجدتُ نفسي فيه من حيث لا أدري. توقّعتُ ترحيباً بما ظننته فكراً جديداً باعتبار أننا حركة تقدمية تقول بالتجديد لا بالتقليد، فما كان مني إلا أن اعتذرت موضحاً أنني لم أقصد الإساءة لمشاعر الناس الدينية والسياسية وكل ما في الأمر انني أسعى للتجدّد وانفتح على الحضارات وأنفر من الجمود ولا أبحث عن معركة مع أحد.

هنا توقّفتُ عن الكلام أغالب حيرتي وعواطف متناقضة داخل نفسي مما سبّب إرتباكاً سيطر على الحضور جميعاً، ولكنني لم أرد أن تنتهي الأمور عند هذا الحدّ فقلتُ مستعيداً ثقتي بنفسي، «هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فأنني أُصرّ على حق الاختلاف في الرأي. ربما لم أُعبّر عن أفكاري بالصيغة اللائقة، إنما أرفض كل أشكال فرض الإمتثال». هنا تدخّل والد هاني قائلاً انني ضيف كريم في بيته وطلب أن أتابع خطابي فأضطربتُ لبرهة لا أعرف هل اتابع أم اتوقّف عن الكلام، ولم تطل حيرتي إذ شكرته على لفتته الكريمة التي قدّرتها كثيراً وقلت: أرى الآن أن أفتح باب النقاش بدلاً من متابعة مداخلتي فليس القصد تغليب فكرة على أخرى بل التوصُّل إلى فهم أعمق وأدق لواقع الحضارات والأمم في علاقتها ببعضها البعض.

لم يناقشني الرفاق في أفكاري كما توقّعتُ فخيّم صمتٌ مخيف، ثم إنفضتْ الجلسة وخرج كلٌ منا إلى قواعده سالماً بعد أن إعتذرتُ مرة ثانية من الحاج أبو هاني وودّعته بحرارة كما إستقبلني. وفي الطريق عاتبني أحد الرفاق بانني لم احترم مشاعر الحاج في منزله، ولكنني شعرتُ ضمنياً أن ما أزعج الرفيق حقاً أنه خاف أن يسبّب الاختلاف في الرأي بلبلة وخللاً في نظام الأشياء. ولا أدري إذا كنتُ قد تمكّنتُ من كسر حدة المجابهة ولكنني ظللتُ على علاقة جيدة مع صديقي هاني الذي حاول مراراً وكلما التقينا في صحيفة «النهار» أن يخفّف عني إحساسي بالذنب أنني سبّبتُ أزمة في منزله.

وصدف أن تعمّق لديّ هذا الإحساس في ذلك الوقت بسبب حادث غرق الشمبليون. في يوم ليس كغيره من الأيام، أظلمتْ الدنيا فجأة وهبّت عواصف وتساقط مطر غزير وارتفعت أمواج البحر إلى ما فوق حائط الكورنيش وانقصفتْ أغصان الأشجار فبدت كأم فقدتْ أطفالها. في تلك الظروف خرجنا، صديقيّ راشد وعادل وأنا، نراقب ما حدث. كان راشد يحمل كاميرا جديدة، وقد بدأ يُولع بفن التصوير، وتخوّفنا عليه حين إقترب من الأمواج كي يتخذ لها صورة من داخلها. لم يحفل بتحذيراتنا بل إزداد تهوّراً فسكتنا وراقبناه بجزع من بعيد دون ان ندري أن حدثاً آخر بدأ يزلزل المدينة قاطبة وخرج منه رضوان ابراهيم البلطجي بطلاً منقطع النظير.

ملأت صورُه الصحف وأصبح حديث الناس. قيل أنه في الخمسين من عمره ومن مواليد محلة الزيتونة التي تحوّلت إلى مركز للمقاهي والمطاعم والفنادق والنوادي الليلية في بيروت، وأن أصل عائلته من مدينة صيدا حيث كان جدّه مرشداً للمراكب الشراعية وانتقلت هذه الوظيفة في العائلة من الجد إلى الأبناء والأحفاد في بيروت وطرابلس. وبمرور الوقت، عرفوا أعماق البحر وتياراته ومخاطره كما لم يعرفها أحد من قبل، وأرشدوا السفن إلى مرافئها ببراعة منقطعة النظير.

وسط ارتفاع الأمواج كالجبال الشاهقة ظنّ قبطان الشمبيليون ان ضوء المطار هو ضوء المنارة فجنحتْ الباخرة إلى شاطىء الأوزاعي وتعرّض ركابها للغرق لو لم يجدوا من ينقذهم. كان رضوان البلطجي المنقذ، فما أن سمع الخبر حتى ركب زورقه مع ابن عمه رزق الله وتوجّه إلى حيث تشرف الشمبليون على الغرق وباشر عملية إنقاذ الركاب بعد أن فشلت مختلف المحاولات السابقة فقيل له أنه ليس من الممكن الاقتراب من السفينة المهدّدة بالغرق هي وجميع ركابها، فعمل حساباته ودرس تحركات الأمواج واقترب، حين اشتدت كثافة الظلام وكانت أنباء الطقس تقول ان النوء سيزداد سوءاً، إلى محاذاتها من حيث تمكّن إنقاذ حوالي تسعين راكباً من غرق أكيد. وكان 66 راكباً آخرين قد فقدوا حياتهم بعد أن ألقوا أنفسهم بالبحر في محاولة يائسة للنجاة من موت أكيد. وفي اليوم التالي حضرت

أفواج المتفرجين من آهالي بيروت ليكتشفوا ان الشمبيليون إنشطرت إلى شطرين.

تلك كانت أخبار البلطجي مع البحر وأخباري مع القيم النسبية والمطلقة والقداسة التي تسبّبتْ بعاصفة هوجاء اجتاحتْ مخيلتي ولم تبرحها لزمن طويل. وفي محاولة للتغلّب على إرتباكي، اقنعتُ نفسي من خلال تجربةالبلطجي في انقاذ ركاب السفينة ان الهدوء ما هو سوى مشروع عاصفة قد تجتاح العالم المنفتح دائماً على مختلف الاحتمالات. هكذا جُنّ البحر في ذلك اليوم المشؤوم حين رفعته زوبعة إلى الأعالي وهبطتْ بي إلى أعماق نفسي حيث ارقد هادئاً بانتظار حصول عجيبة، أنا الذي لا يؤمن بالعجائب. قلتُ لنفسي أن الكون يتضع أمام عواصف البحر، وها إننا بحاجة إلى عجيبة عندما يكون البحر هادئاً كما عندما يكون مضطرباً. ولم يكن من الغريب حين تنتشر حمّى البطولات ان تكثر الإدعاءات من قبل السياسيين كما بين المجانين الأبرياء ومن هؤلاء مجنون من منطقة صبرا لقّب بالشختورة لأنه بدأ يضع على صدره وساماً قيل أن اباه ناله باستحقاق لمساهمته في انقاذ بعض ركاب الشامبليون في شختورته.

إنها واحدة من العواصف التي اجتاحتْ المنطقة ومنها ما كان من صنع الطبيعة في عهد الرئيس كميل شمعون الذي كان مندوب الانكليز في السابق ثم بدأ يتحوّل إلى مندوب لأميركا وممثل أمين لرجال الأعمال والشركات وأخذ يلعب ورقة الطائفية بمهارة فائقة ولم يكن يلبس طربوشاً أو قبعة بل فضّل أن يكون شعاره ركوب سيارة روزرايس. ومهما كان، أثارت تلك العواصف وغيرها جدلاً ومواجهات أدّت أخيراً لاقرار حق الاقتراع والترشيح للمرأة وشاركت النساء في الانتخابات لأول مرة فكانت بداية جديدة وإن حاول البعض التقليل من أهميتها بالقول أن المرأة تنتخب مَنْ يريده زوجها أو أبوها إو أخوها. في ذلك الوقت نشرت مجلة الآداب التي ظهرت تلك السنة في العدد 11 مقالة لرشيقة العمري بعنوان، «لا قضية للمرأة العربية».

وسرني تلك السنة أن أقرأ في العدد 6 من الآداب قصيدة لجبرا إبراهيم جبرا أرسلها من جامعة هارفرد. كانت قصيدة إفتتاحية للعدد، وعنوانها «هكذا تمرّ بنا الأعوام، وكتبت بمناسبة مرور خمسة أعوام على منتصف أيار 1948 الذي وقعت فيه نكبة فلسطين». وكان أن توقفتُ لدى قراءتها عند مطلعها:

أيتها الأرض الخضراء، أزهارها
كالنقوش على أثواب النساء.

وإستوقفني فيها قوله:

ونحن نخترع أخبار عشقنا وملذاتنا
...ولكن ما كدنا نفرّق بين الحلم والوعي حتى
رأينا البيوت تُنسف فوق رؤوسنا

في ذلك الوقت العصيب من تلك السنة، دعا مطيع إلى شقته الشختوره وطلب منه التعليق على تطورات الأحداث وتوضيح موقفه من السياسيين. قدّمه مشيداً ببطولاته وأهمية الوسام الذي لا يفارق صدره ليلاً نهاراً، وأوضح مطيع أن الشختوره لا يريد أن يلقي موعظة، بل يفضّل أن يجيب باختصار على أية أسئلة يطرحها الحضور عليه سياسية كانت أم غير سياسية. وما أن أنتهى مطيع من تقديم ضيفه حتى إرتفعت الأيدي طالبة الكلام. سأله أحدهم عن رأيه بشمعون، فأجاب الشختوره: إبن حرام بيسرق الكحلة من العين.

- وبيار الجميل؟
- طويل بلا غلة.
- وهنري فرعون، شو رأيك فيه؟
- مين هيدا؟
- ولو ما بتعرف هنري فرعون؟
- يا سيدي في ناس بتاكل دجاج وناس بتوقع بالسياج

وبعد ضحك متواصل لم يكن بإمكان مطيع ضبطه إلا بعد عدة محاولات، سأله أحد الحضور عن رأيه بالأمير مجيد أرسلان فأجاب: بيقوص بالبعكوره وشواربه بيغط عليها النسر.

- وطيب كمال جنبلاط شو رأيك فيه؟
- إجا يكحّلها عماها

ـ وشو كمان؟

ـ بيعمل من الحبة قبة. ويوم بعيش الحالة اللبنانية، ويوم الحالة العربية. وبين التنين ضاع البسين

ـ وصائب سلام؟

ـ من هالمسرب ما في مهرب

ـ وسامي الصلح؟

ـ من قلة الرجال سمّينا الديك أبوعلي

ـ ورشيد كرامي؟

ـ من غير دف بيرقص على إسطوانه مكسوره. عَ قبال يتزوّج. ناطر ريمون إده.

***

وهمّني من أحداث تلك الأيام إنتخاب العقيد الشيشكلي رئيساً للجمهورية السورية في العاشر من تموز وحضوره إلى بيروت فاجتمع مع وفد منا نحن الطلبة القوميين في فندق السان جورج، وموت ستالين مما سبّب حزناً عميقاً في صفوف الشيوعيين خاصة في أواسط الروم الارثوذوكس منهم. وفي ليلة من ليالي منتصف تشرين الأول من تلك السنة تسلّل أريال شارون على رأس فرقته العسكرية رقم 101 إلى قرية قبية ليهدّم 42 منزلاً ويقتل 69 مدنياً دُفنوا أحياء تحت ركاماتها بينهم عدد كبير من النساء والأطفال. وكان أن جرت مظاهرات صاخبة في بيروت ومدن عربية أخرى متهمة الرجل بالإرهاب.

ثم تواصلت الأضطرابات على أشدها على مختلف الاصعدة الشخصية والعامة في عام 1954، ومما عَلِق في ذهني أن الحكومة منعتْ إطلاق الرصاص في الأعياد وارسلت رجال الشرطة لمراقبة الهجمة التي اعتاد المصلون أثناءها اطلاق النار ابتهاجاً بقيامة المسيح من بين الأموات. وما أن بلغت الساعة منتصف الليل حتى قرع الخوري خَلَف باب كنيسة السيدة في شارع المكحول بقوة وتكراراً دون ان يسمع إطلاق النار فردّد عدة مرات «المسيح قام» إلى ان فهم المصلون مقصده فلعلع الرصاص بكثافة من مختلف الاتجاهات دون ان يتدخل رجال الشرطة الذين فضلّوا على ما يبدو تجاهل الأمر.

لم تمرّ جميع الاحتفاءات الدينية بخير، للأسف الشديد. جرى في خريف تلك السنة حريقٌ كبير في بيروت أثناء احتفالات المولد النبوي في 9/11/1954، وحصلت كارثة مؤلة بسبب مظاهرات اعدتها المنظمات في حرج بيروت فاندلعت ألسنة النار على المشاعل ووقع هرج ومرج ومات كثيرون اختناقاً وأصابت البعض حروق بليغة نقلوا بسببها إلى المستشفيات. ومما تناقلته الصحف التى أصبحتُ أواظب على قراءتها أن حادث الحريق هذا لم تعرف بيروت مثيلاً له في تاريخها الحديث وأنه جرى اطلاق النار في الهواء بكثافة منقطعة النظير مما سبّب رعباً شعبياً زاد من حدّته انتشار إشاعات تقول همساً أن «الفتنة نائمة والاصابع تحاول ايقاظها».

لذلك وجد أعضاء مجلس النواب أنه من المناسب الوقوف ثلاث دقائق صمت حداداً على أرواح الضحايا في محاولة لتهدئة الخواطر.

في تلك الأيام المؤلة قال كمال جنبلاط محذراً، «هذه البلاد لا يمكنها ان تعيش فى أساس ديمقراطي وطائفي معاً فلا يمكن بالتالي ان نقول للناس انكم اخوان أمام القانون وان هناك تمييزاً بينهم في الواقع». وأذكر أن هذا الكلام أعجبني بحد ذاته وخارج سياقه الطائفي، وخطر لي بوضوح لأول مرة وكما لو إكتشفتُ أمراً على أقصى ما يكون من الأهمية هو ان موضوع الديمقراطية يجب أن يثار بحرية تامة داخل الحزب فلا نكتفي بمناقشة موضوعات تحديد الهوية القومية وسبل تحقيق وحدة الأمة المبعثرة.

وبدأت أدرك سر تبعثر المجتمع وتمزقه عندما لم ترق لبيار الجميل الدعوة لإصلاح النظام السياسي الطائفي في تلك الأيام فحذر، ربما رداً على جنبلاط، أن لبنان ليس من العروبة لأن له شخصيته القومية «الصافية المجردة من أي نعت آخر يلصق بها أو يضاف إليها» ونبّه المطالبين بالإصلاحات بقوله أن جماعته «مستعدة للتعاون مع الشيطان عند الإقتضاء» مما يتيح «للأجنبي أن يدخل من الأبواب والنوافذ، وقد يستتبع دخوله ما يألم له لبنان نفسه والبلدان العربية جميعها». وعندما قرأتُ هذا الكلام تذكّرتُ ما قاله الشختوره بأنه طويل بلا غلة.

ومما علق في ذهني أيضاً من أحداث عام 1954 أن جرت مظاهرات كبرى ضد حلف بغداد فوقعتْ اشتباكات كبيرة في الشوارع المحيطة بالجامعة الأميركية، وشهدتُ شخصياً استشهاد زميلنا الطالب حسان أبو اسماعيل الذي جرى له تشييع كبير، وسقط 25

جريحاً أصيب أحدهم بالشلل التام بسب رصاصة خرقت عموده الفقري، وتمّ اعتقال أكثر من مئة طالب وطالبة، وفصلت الجامعة الأميركية عدداً منهم. في هذا الوقت أصدر جمال عبد الناصر توجيهات للجامعات المصرية باستقبال هؤلاء، وفعلاً التحق معظم الطلبة المفصولين بجامعات مصر.

اما في الشام فسقط حكم أديب الشيشكلي الذي قدّم استقالته وتوجّه إلى بيروت حيث طلب حق اللجوء السياسي، وأذاع البلاغ الأول النقيب مصطفى حمدون من انصار اكرم الحوراني من إذاعة حلب، وأُعيد عدنان المالكي إلى الجيش فقيل أنه كان يُحسب على المقدم عبد الحميد السراج. ومرة أخرى ثبت أن العسكر لم يشكّلوا بديلاً للعهود الماضيةوكانوا هم أيضاً معنيون بالحكم لا بالتحرير والدفاع عن الوطن وقضايا التغيير.

على صعيد آخر، تحمسنا كثيراً منذ عام 1954 لفكرة تأسيس جمعية كل مواطن خفير التي أطلق عليها سعيد تقي الدين هذه التسمية ووضع أسسها وسهر على كتابة منشوراتها وقدّم أحاديث إسبوعية عنها في الإذاعة اللبنانية وعقد مؤتمرات ومقابلات صحفية. وكان دوماً يختتم برنامجه الإذاعي ببيت من الشعر لأدونيس:

ما في دمي غير نداء الكفاح

ما في شراييني غير اليقين

كان ذلك بيتاً من قصيدة نشرتها الآداب في العدد 11من تلك السنة بعنوان، «الإنسان»، تبدأ:

أبحث عن نفسيَ في قوّةٍ

من موطني تنبع

تقول لي أن أهدمَ الدنيا

تقول لي أن أبني الدنيا

تقول أنت الخالق المبدع.

أسعدني جداً انني تعرّفتُ إلى سعيد تقي الدين الذي حبّب لي كتابة القصة واكتشفت انسانيته التي تفيض طيبة وكرماً فكان من القلائل الذين يجمعون في شخصهم بين الروعة في كتاباته الساخرة وسلوكه في الحياة العامة. واتاحت لي لقاءاتي به أن اطلعتُ على جوانب هامة من حياته المتميزة من خلال سعيه الدؤب للتعاون مع شبكة واسعة من الحركات الوطنية والتقدمية حرصاً منه على أهمية القيام بنشاطات شعبية مشتركة، وتعاون في هذا السبيل مع الدكتور بشاره دهان ووفيق الطيبي وعبد الوهاب الرفاعي وتوفيق عساف وهاني بلطجي. ومن حيث لا يدري وضع سعيد نفسه وغيره في واجهة الخطر كما اكتشف بنفسه مع مرور الوقت، فأعلن إن «لبنان بلد الخرافات والأوهام والاساطير... والزعبرة».

لم يكن سعيد يقصد السخرية لذاتها. أرادنا أن نلمس الجروح القاسية من خلال نشاطات لجنة كل مواطن خفير. إكتشف أن مديرة إحدى مدارس البنات الكبرى في بيروت كانت صهيونية وفشل في زحزحتها لأن معاونتها قريبة مسؤول كبير في الدولة، وأنه شنّ مرة حملة على صهيوني في مدرسة انكليزية فراحت سيدة وجيهة على علاقة مع تلك المدرسة ترسل له التهديدات والشتائم. ومع أنه نجح بطرد هذا الصهيوني إلا أن هذا تمكّن أن يشغل وظيفة أفضل في الجامعة اليسوعية، وظلّت زوجته تشغل وظيفة عالية في شركة الكهرباء والمياه.

ثمّ بدأ سعيد يكتشف أنه مغامر يفلح البحر، وتخوّف أنه تسبّب لامباشرة بموت سمير مسلّم الذي كشف له أسماء ومخططات عصابة تعمل لحساب إسرائيل ترأسها إمرأة جنوبية. كتب سعيد مقالة صحفية في أجواء من السرية اعترف فيها أن الفتى سمير مسلّم كان يعمل في وكالة الإغاثة حيث تعرّف إلى سيدة عشقته ليكتشف من خلال علاقته بها أنها جاسوسة إسرائيلية فزوّد اللجنة باخبارها. ولم تمر سوى أيام قليلة حتى جاء من رمى به في مستشفي الجامعة الأميركية مسموماً، فكتب سعيد مقالة بدأها بقوله ان من يقرأ تلك السطور قد ينتهي إلى الاعتقاد خطأً أو صواباً بان سمير مسلّم قتل وانه هو القاتل مسوّغاً الأمر بقوله أن الهدف الكبير يخلق «وحشية» في التفكير، فلا بدّ في الصراع من ضحايا باعتبار أن الكفاح يعني القتال والقتال يعني الموت. وإذا كان الانسان مستعداً لان يضحّي بنفسه فقد يضحّي بغيره أيضاً. وكانت تلك معضلة لم يجد لها حلاً.

وبل لم ندرك هل كتب سعيد قصة أم وصف حدثاً تاريخياً.

وكان ان تخرّجتُ منتصف الخمسينات من الجامعة الأميركية في بيروت بشهادة ب. ع. في علم الاجتماع، وتمّ قبولي استاذاً في مدرسة برمانا العالية، وحدث فيضان نهر ابو علي في طرابلس بعد مطر غزير في منتصف كانون الأول فاقتلع الأشجار وجرف البيوت وبلغ عدد ضحاياه مئتي شخص قضوا حتفهم في ظلمة الليل كما اكتشف الناس عند الصباح، مما أوحى لي كتابة مجموع قصصية حول الحرية والطوفان.

وكان قد تمّ، للأسف الجديد، إغتيال عدنان المالكي يوم الجمعة في 22 نيسان عام 1955وأُتهم بقتله رقيب في الجيش السوري هوعضو في الحزب القومي يدعى يونس عبد الرحيم مما تسبّب بتدمير الحزب في دمشق وربما عطّل نهوضه من كبوته لزمن طويل إن لم يكن نهائياً. كان قد احتدم الصراع السياسي بين حزب البعث والحزب الشيوعي والحزب السوري القومي ودخلوا في تنافس حاد للهيمنة على الجيش عندما عمل المالكي لتسريح المقدم غسان جديد فصدر قرار بهذا الشأن في الرابع من نيسان. ومما رواه عصام المحايري ان مجلس عمد الحزب المنعقد في ذلك الوقت في منزل زوجة انطون سعادة اصيب بالدهشة لدى سماع خبر إغتيال المالكي. ومن القصص المجهولة قصة رواها غسان تويني بعد زمن طويل، وهي أنه ذهب بسيارته كنائب في مجلس النواب اللبناني قادها بنفسه إلى داخل الأراضي السورية لاخراج رئيس الحزب جورج عبد المسيح وادخاله خلسة إلى لبنان. وأوضح تويني أن ما لم يدركه عبد المسيح هو أنه جاء به إلى لبنان لتجري محاكمته حزبياً. وأدى كل ذلك إلى قيام محكمة حزبية شكّلها الحزب السوري القومي في لبنان قضت بعد جلسات سرية إلى ادانة عبد المسيح بجريمة الإغتيال. وتُركتْ أرملة انطون سعادة جوليات المير لمصيرها فاعتقلت وبقيت في السجن ثماني سنوات مع مرض عضال فتك بها ببطء رويداً رويداً.

حدث ما كان منتظراً في مثل هذه الظروف وتم القبض على الكثيرين من قيادات الحزب وأعضائه، ومرّ وقت قبل أن يبدو أنه إنقسم على نفسه بين مسوِّغ ومتّهِم وباحث عن حقيقة ما جرى. وحالاً تعززت هواجس عصام المحايري ان رئيس الحزب جورج عبد المسيح وعميد الدفاع اسكندر شاوي قد يكونا وراء الاغتيال وقرّر الا يهرب مع الهاربين من قيادات الحزب إلى لبنان مصراً على براءته وبراءة الحزب من هذا العمل الجنوني. كان المحايري أول قومي ينتخب نائباً في البرلمان السوري في خريف 1949، وأعلن حالاً ان خبر اغتيال المالكي وقع عليه كالصاعقة فغرق في حزن عميق وانتابه شعور من الأسى فقد كانت تربطه بعدنان المالكي وعائلته وأهله واخوته علاقة ودّ واحترام متبادل. وشعر بالغضب لفداحة الخبر سياسياً وإنسانياً وللخسارة التي بدت تلوح له بوضوح فعاد إلى بيته حيث حضرت الشرطة العسكرية بعد ان اتصلت به هاتفياً لاعتقاله وادخاله إلى سجن المزة الشهير. هنا نصحته أمه تكراراً ان يهرب ولكنه استمر على موقفه وسلّم نفسه ظاناً أنه سيتم التحقيق معه لمدة 24 ساعة ويطلق سراحه، ولكن اليوم الواحد امتد لتسع سنوات في ظلام السجن.

ومعه اعتقلت الشعبة الثانية برئاسة المقدم عبد الحميد السراج مئات من أعضاء الحزب. وخلال المحاكمة قدّم المحايري مرافعة وصلت إلى 110 صفحات حاول فيها أن يثبت براءة الحزب. وتمّ في السجن لقاء بين عصام محايري ورياض المالكي، أخ عدنان، وكانت تجمعهما صداقة قديمة. في هذا اللقاء العاصف حدث ما لم يتوقّعه المحايري فقد تفاجأ ان صديقه رياض اتهمه بالمشاركة بقتل اخيه وطلب منه ان يعترف وهدّده بذبح جميع عائلته ولن يبقى منها أحد حياً. غير أن رياض المالكي غيّر رأيه فيما بعد كما يبدو من كتاب نشره بعنوان «ذكريات على درب الكفاح والهزيمة» حيث توصّل إلى ان «هناك مؤامرة خارجية ـ داخلية طالت عدنان المالكي والحزب القومي سوية».

قتل من قتل وسجن من سجن وتشرّد من تشرّد، وبين هؤلاء كانت عائلة الشيخ ابراهيم عبد الرحيم الذي تشرّد مع أولاده ومنهم صديقي الكاتب والشاعر ياسين. وما انطبع في ذهني من ذكريات تلك الأيام أن الشيخ ابراهيم فاجأني يوماً بزيارة إلى منزلنا في بيروت وبدا محطّماً كشجرة انكسرت أغصانها وبقي في ذاكرتي من حديثه الطويل قوله لي بحزن عميق فاض دموعاً أن أولاده هم الجنة وهم النار، وخطر لي أنه طرد من الجنة وربما لم يعد له من بقعة من العالم يعيش فيها بقية عمره سوى الجحيم.

لم أكتسب صداقة الشيخ إبراهيم وإبنه ياسين فحسب، بل تعرّفت عن قرب إلى رفاق بارزين كنت قد سمعتُ بهم من قبل، ومنهم ضباط من أمثال غسان جديد ومحمود نعمه ومعين عرنوق، واساتذة وكتاب وصحفيين من أمثال رامز ورجا يازجي ونذير العظمة وعلاء حريب. وأظن أن رجا هو أول من أخبرني بان أدونيس أُدخل سجن المزة في أثناء قيامه بخدمة العلم. كانت شهرته قد سبقته إلى بيروت وتجاوزت نطاق الحزب وأصبحنا نتداول كتاباته التي قرأت بعضها بتمعن قبل التعرف إليه وشعرت بإحساس غامض أن هناك علاقة بين

شعره والطفولة. تلك فكرة خطرت لي في الزمن الأول واستغرب أنني لم أحاول ان أطورها في نقاشاتنا اليومية إن كان في الجامعة أو ندوات مجلة شعر. وأشفقتُ على شعره كما عليه حين أخبرني رجا ما سمع عن ظروف اعتقاله وهو يخدم العلم عند جسر بنات يعقوب الذي كان يصل بين سوريه وفلسطين.

وقبل أن يقع هذا الحدث المفجع كنا في بيروت قد ناقشنا مراراً قصة حصول أدونيس على جائزة نادي العروة الوثقى في مسابقة موضوعها «اليتيم» فاستدعي إلى بيروت لإستلام الجائزة وإلقاء قصديته في حفل خاص إقيم في الجامعة الأميركية. وتفاجأ رئيس جمعية العروة الوثقى محمد يوسف نجم الذي كان تلميذاً في ذلك الوقت حين اكتشف ان أدونيس عضو في الحزب السوري القومي فحاول منعه من إلقاء قصيدته التي نالت الجائزة اذا أصر على إبقاء شارة الزوبعة على صدره، إلا أن تدخل الاستاذ قسطنطين زريق حسم الأمر وانتهت المشكلة بخير فالقي القصيدة وبقيت الزوبعة.

هكذا ضاق أفق العلاقات، ويجب أن تكون هذه المشكلة على جانب كبير من الخطورة من حيث تأثيرها في وعينا فلم أنسَ حدثاً عابراً تعلّمتُ منه الكثير في مجال تجاوز هذا الواقع الذي لم نتحرّر منه كلياً حتى الوقت الحاضر. في تلك الأيام الغابرة كنا نتنافس في الإنضمام إلى جمعيات معترف بها من قبل الجامعة وننشط من خلالها بالعمل السياسي. وكان ان أُنتخبتُ في هذه الأجواء رئيساً لتحرير مجلة الانعاش، لسان حال رابطة الانعاش القومي في الجامعة الأميركية، بدعم من الرفاق وبلعبة سياسية بارعة مهّد لها رفيقنا خالد قطمة. وبدأ الحدث الذي أشير إليه بالعدد الأول الذي حرّرته، وربما لأهميته لم يعد لدي سواه من أعداد تلك المجلة. بدأته في الشهر الرابع من عام 1955 بقول مأثور أو رفة جناح لسعيد تقي الدين تقول، «الحياة قبلة لا تكسبها إلا فيما أنت تهبها». ربما اخترت هذا القول لأنني كنت أظن أنني عاشق في تلك الأيام، وهذا ما لا أريد الكلام عنه الآن ولكن المقصود هو العطاء. ونشرتُ في هذا العدد افتتاحية وقصة لي، وقطعة أدبية لصديقتي رؤى التي كانت على وشك الهجرة لأميركا، وقصيدة بعنوان «حديث جائع» لادونيس، وترجمة بالانكليزية لقصيدة كتبها فؤاد سليمان.

وما أن صدر هذا العدد حتى نشرت صحيفة الطلبة «أوتلوك» رسالة من أحد الناشطين البارزين في حركة القوميين العرب ينتقد هيمنة اللون الواحد في مجلة الانعاش القومي. وحقاً أدركتُ فداحة الخطأ الذي إرتكبته، وصدف أن التقيت بصاحب رسالة الاحتجاج وهو عراقي فاستوقفته وقلت له، «أشكرك على رسالتك. أنت على حق وأعترف انني أخطأت بتغليب صوت على بقية الأصوات، وأعدك أن أصحح الخطأ واتمنى ان تكتب لنا مقالة أنشرها في العدد القادم». لم يصدّق ما سمع. نظر إليّ بإزدراء، هزّ رأسه، ومضى دون أن يتفوّه بكلمة. وشعرتُ بحزن عميق لم اتمكّن من التغلّب عليه حتى اليوم بعد مرور نصف قرن على وقوعه.

كتبتُ افتتاحة العدد بعنوان، «إنما نمارس الحياة»، ونشرتُ للمعشوقة قطعة أَسْمَتْها «هجرة إلى أرض جديدة» بسبب التفكك وغياب الفرص ومن أجل أن يكون للمرأة دور في معركة الحياة. أي عشق قصدتُ وما السراب الذي أشير إليه في زمن كانت حياتنا تتواصل وسط الفراغ سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، ويوماً بعد يوم؟ المهم أنني أردت، على ما يبدو، أن أطلق طائر الحب من قفص صدري بعد أن استمعتُ إلى الدكتور زكن شخاشيري يحاضر حول مضار الكبت الجنسي الذي لا بدّ ان تظهر آثاره السلبية بشكل أو آخر. قلتُ لماذا احتفظتُ بمسافاتي وأهملتُ العلاقات؟ ولما قرأتُ ما كتبه فرويد عن الوعي واللاوعي، بدأت أتساءل هل اتجنّب معاشرة الفتيات بسبب الخجل أو عدم الثقة بالنفس أو التخوف من الإلتزامات العديدة التي تقتضيها هذه العلاقات. لم أتوصّل إلى أجوبة مقنعة لتساؤلاتي.

وكان أن تنكّرتُ لعلاقة عابرة مع طالبة تعرّفت إليها في الجامعة. كانت تنتمي لعائلة غنية وابنة مبشر معروف يملك كنيسة كمن يملك دكاناً وكان معروفاً بقسوته وتزمته وطغيانه. اتفقنا أن نذهب معاً إلى السينما فلم تتفارق أيدينا في ظلمة المكان، وأخذتني لدى انتهاء الفيلم إلى مكان سري مجاور لكنيسة أبيها فتداعى لي أن الشيطان دخل في صراع مع ملاك وتمكّن من التغلّب عليه، وقلت لها بصوت منخفض «صدرك مرج إبن عامر وسيشهد معركة حامية أكون فيها الفارس والضحية» فصدرت عنها ضحكة عالية مما إضطرني ان أغلق فمها بفمي وألتفّ حولها كدالية.

كانت علاقة عابرة لم تتكرّر، وعدتُ أحلم بأجمل فتيات ضيعتي تجنباً لاقامة علاقات واقعية، واستأنفت علاقاتي البريئة مع زميلاتي في الدراسة. كانت إحداهن مخطوبة لرجل أعمال معروف، وثانية تجيد الغناء والرقص، وثالثة مولعة بالفلسفة الوجودية. نلتقي في الانكل سام أو الوست هول أو مسبح الجامعة ونتناقش في أمور فكرية مجردة ثم ننصرف كلاً في طريقه. أعجبت بإحداهن دون أن تعرف،

وبادلتني أخرى الإعجاب دون مصارحة فحدّثتها عن نظريات ماكس فيبر وحدثتني عن نظريات إميل دركهيم، وتجنبنا أن نقرأ معاً دي إيش لورنس أو هنري ميللر.

واحتفلتُ بذكرى لقائي رؤى التي كان التغزل بإسمها مدخلاً بعد لقاءات مرحة للتغزل بالوجه والعينين والقوام والمواهب والصفاء. قلت لها يوماً ونحن نراقب البحر لتكن علاقتنا كتلك العلاقة بين الأمواج والشاطىء فاكتفتْ بالإبتسام. التقينا لأول مرة في قريتها وكان لها أخ يجايلني وصديقة تبحث عن عريس ثري لأن لها طموحات تريد تحقيقها باسرع وقت ممكن. وكان أن صعدنا مساء ذلك اليوم الحافل بالأحداث العفوية إلى قمة جبل الخضر نراقب البدر في سماء صافية كوجهها وزجاج الحلاج الذي ردّدتُ على مسمعها مقطعاً يعجبني من شعره:

رقّ الزجاج وراقتْ الخمرُ

فتشابها فتشاكل الأمرُ

فكأنما خمرٌ ولا قدحُ

وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

وقلتُ مضيفاً بلغتي وبصوت منخفض كي لا يسمعني أخوها المنشغل بصديقته: لا أعرف هل أنتِ الخمرُ أم القدح أم القمرُ؟ وغداً عندما تسافرين ستزداد حيرتي.

وأجابتني: يبدو أنكَ نسيتَ العلاقة بين الموج والشاطىء

- كيف أنسى. لكل يوم خياراته المجنّحة

- وحيرته

لم نجد ما نضيفه، وبعد تردّد إمتدتْ يدي إلى يدها فتشابكا وتشاكل الأمر فكانما يدها يدي ويدي يدها. وتجاهلتُ كل أمر آخر متخلياً عن اعتباراتي بأن هناك سياجاً حولها وهي بستان فسيح، ولم أعد أرى في قطف ثمراتها إختلاساً. وفي اليوم الذي هاجرتْ به إلى أميركا، لم أذهب إلى المرفأ لتوديعها. فضّلتُ اللجوء إلى البحر والتعرّض لامواجه عند انعطاف الشاطىء الصخري قرب المنارة بحيث استطيع مراقبة سفينتها من بعيد. وسرّني أن مصوراً مرّ من هناك صدفة فوجد من المناسب أن يلتقط لي صورة استقبل فيها الموج كما لو كان وجهها. قلت في نفسي هل أستعيض عنها بالبحث عن عرائس البحر الساحرات؟

وطلبتْ رؤى مني قبل سفرها أن أكتب لها كلمة وداع في دفتر مذكّراتها كبقية صديقاتها وأصدقائها فاستجبتُ لطلبها متجرئاً أن أفصح عن بعض عواطفي نحوها ربما أكثر من أية مرة في السابق، بما فيها حتى ليلة السهر مع القمر في قمة جبل الخضر في قريتها، وإن حاولتُ الإختباء وراء أقنعة ال«نحن» بدلاً من ال«أنا»:

«ستذكّرني بك دائماً أمواجُ البحرْ

وأيام الفرح والحزن ورائحة العطرْ.

غداً تسألني عنك دروبٌ

وتلةٌ تلتفّ بغيمة،

كغدكِ وراء الأمواج.

نحن، حين تغيبين، قيثارة بلا وترْ

يا طائراً مرّ في الأفقِ البعيد وعَبَرْ

حَبكَ الجفنَ بالجفنِ يستبقي ليالي القمرْ

كلون الأحلام الضائعة ترحلين

تُرى تعودين

لإنسان حزين

ضاعت شجرة عمره في الضباب؟

هل تذكرين؟

وما مصير دفترك

وحقول الكلمات؟»

إغتنم عمي كريم قدوم بهية إلى بيروت لقضاء عطلتها السنوية فدعانا لحضور حفلة خطبته إلى فتاة إسمها بسمة من أصل حمويّ تنتمي لعائلة كبيرة قطنت حي المزرعة لعقود من الزمن وعُرِف عنها شدة ولائها لكميل شمعون. وفي هذه المناسبة أمضينا سهرة ممتعة في منزله قبل عقد الخطبة الرسمي في نهاية الإسبوع التالي.

وكانت بهية في ذلك اليوم قد تعمّدت أن تحدثني عن إنشغال بالها منذ عرفتْ بأنني انتميتُ للحزب، وأنها ما أن تأكدت من هذا الأمر لدى وصولها إلى بيروت حتى قررتْ أن تزور قبل كل شيء الراهب حامد جبر في دير مار انطونيوس قزحيا في وادي قاديشا لتصلي معه كي يحفظني الله من أي مكروه. وتابعتْ حديثها عن زيارتها تلك دون أن تفسح لي المجال للتعليق على ذلك فأخذتْ تصف بحرارة مشاعرها عندما وجدتْ نفسها في وادي قاديشا الساحر بعد غياب طويل. هناك، كما أسهبتْ في الحديث وأنا صامت، أحسّتْ أنها انتقلت إلى مكان من غير هذا العالم فسبّحتْ الله ودخلت معه في حديث عميق ونعمتْ بوجوده معها فتمنّتْ لو تبقي في حضوره مدى الحياة.

وحدّثتني عن أن الراهب حامد أصبح يقضي معظم وقته بالصلاة للانسانية المعذبة في الأرض والمثقلة بالهموم بصرف النظر عن إنتماءاتها الدينية أو العرقية أو القومية ومهما كانت اتجاهاتها الفكرية. وبلّغتني تحياته وأخبرني أنه يصلي كل يوم لأجل أبناء مختلف الطوائف ويطلب منهم متضرعاً منكسر القلب ان يتعايشوا مع بعضهم البعض بسلام ومحبة وأخوة وان ترتفع النفوس إلى مستوى تحديات العيش في مجتمع متعدِّد الطوائف والانتماءات كما في الهلال الخصيب وأن يلهمهم الله قدرة التسامح للتصرف بحكمة والدخول في حوار دائم في سبيل الاقناع والأخذ والعطاء. ورأى بعد تفكير عميق خطأ الاستقواء بالقوى الخارجية والاستعانة بها فيي الأزمات بدلاً من سلوك طريق التفاهم الداخلي.

وهنا التفتتْ بهية إليّ وألقتْ ذراعها برأفة حول كتفي وهي تقول أنها ما أن تكلّمتْ مع الراهب حامد عن مسألة انضمامي إلى الحزب حتى صلّى لي برجاء وطلب بحرارة وخشوع أن يحميني الله من أي خطر قد أتعرض إليه، وتفاجأتْ عندما أتمّ الصلاة أن أعلن لها من كل قلبه أن لنادر الحق كلّ الحق"ان يفكّر بحرية وينشط سياسياً في سبيل تغيير الواقع السيء. إستغربتْ كلامه، ولكنها شعرت بشيء من الإطمئنان عندما أوضح وهي في طريقها لمغادرة المكان أنه يكون من المفيد ان تقنعني بالحرص والاحتياط، وأوصاها مرة ثانية ان تبلّغني تحياته وإحترامه متمنياً اللقاء بي والتواصل بيننا فنحن «من عظام الرقبة».

لم أفهم ماقصد تماماً ولكنني سمعتُ في كلماته، كما روتها لي بهية، سقسقة مياه الينابيع والأنهر في الكفرون وتعمّدتُ أن أصرف النظر عن هذه المسألة، وفضّلت أن أغيّر الموضوع فأخبرتها أنني سرقتُ في طفولتي من بيت جدي كتاب سيرة الزير سالم أبو ليلى المهلهل وجلبته معي من الضيعة إلى بيروت، وهو في طبعة قديمة كان جدي على ما أذكر جيداً يقرأ لنا منها حكايات وقصصاً وقصائد، فصحّحني عمي كريم أن جدي كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة وإنما كانت له ذاكرة غريبة فحفظ الكثير من حكايات ألف ليلة وليلة والزير أبو ليلي المهلهل وكان يسرد حكاياتها ويغنّي قصائدها في ليالي الشتاء متظاهراً أنه يقرأها هو الذي لم يكن يعرف «الألف من العصا»، كما كانت تقول لي أمي.

كنت أنا الذي استوليتُ علي الكتاب وجلبته معي من الضيعة لاكتشف أن أمي كانت تحنّ لسماع حكايات الزير أبو ليلي المهلهل التي كان يسردها خالها أيضاً في حضورها ويغنّي قصائدها في ليالي الشتاء الباردة التي تأتي باكراً وتتأخر في نومها. وكلما قرأت لها بعض حكايات الزير، الأمر الذي بدأتُ أولعُ به شخصياً، كنت أكتشف أنها ما تزال تذكر بعض أحداثها وشخصياتها وقصائدها فتغنّي بعضها بصوتها الجميل. ولأنني مولع أيضاً بصوتها كما هي مولعة بالحكايات كنت أحرص في ساعات السهر المتأخرة أن أقرأ لها بعض حكايات سيرة الزير سالم، الأسد المغوار والصنديد الجبار وزينة الأكوان وجوهرة ذاك الزمان والذي يعود من معاركه وكأنه إرجوان مما سال عليه من دماء الفرسان، وما جرى له في تلك الأيام الغابرة من حوادث ووقائع مع ملوك التابعة.

وحين أذكّر أمي، التي كثيراً ما أناديها «أم نادر»، أن إسم والد الزير كان ربيعة وعمه مرة وهما من أمراء العربان وكانت منازلهم في أطراف بلاد الشام، تسبقني هي للقول أنه كان للزير أخ هو كليب الأسد الكرار وأولاد عم منهم جساس وإبنة عم إسمها الجليلة. وتضيف أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والآوان في بلاد اليمن ملك عظيم الشانْ صاحب جند وأعوانْ وأبطال وفرسانْ يقال له

الملك حسانْ ويُكنّى بالتبّع اليماني وكان شديد البأس طويل القامة عريض الهامة لا يعرف الحلال من الحرام.

وما أن وصلتُ في سردي إلى هذا الحد من الكلام، حتى غنّت أمي:

يقول التبّع الملك اليمانـي

ملكت الأرض والسبع البحارِ

أيا مـرة فارسل لي الجليلة

بلا إهمال من بين السـراري

واحضَرْ يا ملك مـرة لعنـدي

واخضعْ لي بذل وانكسـاري

وادخل عالجليلة وسط قصري

واتمتـع بها واطفي لنـاري

وإن لم تمتثل قولـي وامـري

تراني جئتكم مثل الضـواري

فلما سمع كليب هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام، وما كان منه إلا أن بدأ يفكّر بحيلة في هذا الشان.

إلى هنا إنفتحت شهية بهية على الحياة وماضي السهرات حول الموقد في أيام المطر والرياح فأرادتْ أن تدخلنا في مناخ آخر من مناخات حزازير شعبية كانت تسمعها وهي في مطلع فتوتها. ووجّهتْ حزيرة إليَ قائلة: إن غَمّضتْ عينيك بتشوفو، وإن فتحتْ عينيك بيختفي. شو هو؟

تشّعبتْ بيننا الأراء دون أن نتوصل إلى جواب صحيح، وعندما سلّمنا لها الأمر أخبرتنا أنه، «الحلم».

وتتالت الحزازير، غير أنه استولى علينا حقاً إحساس بالتعب دون ملل فتثاءبت بهية لنعلن ان السهرة طالت، فقالت أم نادر، «الله يسترنا شو بدو يصير. من زمان ما ضحكنا كل هذا الضحك. شكراً لزيارتك يا بهية يا حبيبتي».

ـ شكراً يا إمرأة عمي. أنا أسعد أيامي يوم أكون بينكم.

في تلك اللحظة، تذكّرت حزورة فاستوقفتهم قائلاً:

بنت قدّام الكنيسه،

بتصلي وهـي تلبيسـي،

فوق الإرض مفروشه،

وشَعْرَاتها منكوشه.

شو هـي؟».

وما كان من بهية أن قالت، «السنديانه»، فاجبتها أنها هـي بعينها سنديانة الضيعة.

***

أقول بين النوم واليقظة أن بهية لؤلؤة العائلة، ويتبادر إلى ذهني أنني كنت دائماً أحبّ أن أروي لها ولأمي قصة الؤلؤة لجان شتاينبك فيما اعمل على ترجمتها إلى العربية. فكّرتُ أن أمي سترى حياتها فيها، وستتمكّن بهية من خلالها أن تسترجع الأحداث التي اختبرتها وتتأمل بها علّها ترى مَخْرَجاً من الشرنقة التي بدأت تحيكها حول نفسها.

وربما تساءلت قبل أن أغرق في النوم ترى هل أحداث حياتي هـي التي حبّبتْ إليّ العمل على ترجمة حكاية اللؤلؤة؟ هل رأيتُ فيها الكفرون وبيروت كما رأيتُ أمي وبهية وعموتي وأخي وإختي وأنا بالذات؟ ماذا تقول قصة اللؤلؤة؟ سألتني بهية فأجبتها: إستيقظ كينو من النوم قبل أن يضمحل الظلام وكانت النجوم ما تزال مضيئة فايقظ زوجته جوانا وطفله كويوتيتو للذهاب إلى البحر بحثاً عن اللؤلؤة الكبيرة التي لا مثيل لها. غنّى حكايات البحر عندما يغضب وعندما يهدأ، وللنور والظلام، وللشمس والقمر. وبحث لزمن عن محار البحر علّه يجد اللؤلؤة الكبيرة، وصدف أن وجدها دون أن يصدّق وعاد بها هو وعائلته إلى المدينة. ولأول مرة اكتشف أن للمدينة جهازاً عصبياً

ورأساً وكتفين وقدمين فقد إنتشر الخبر كانتشار النار بالهشيم وتردّد أن كينو تمكّن أخيراً أن يجد اللؤلؤة الكبيرة التي حكت عنها الأساطير لزمن بعيد.

وما أن إنتشر الخبر حتى أقبل إلى منزله للتهنئة الخوري ورئيس البلدية وإستاذ المدرسة والطبيب الذي عالج إبنه مجاناً عندما عقصته عقربة سامة. واهتم عددٌ كبير آخر بكينو. سألوه ماذا سيفعل وقد أصبح غنياً؟ أجاب أنه يريد أن يرسل إبنه إلى المدرسة كي يفتح الكتب ويطلع على أسرارها، وسيعرف إبني الكتابة وسيكتب، وسنتحرّر لأننا بدأنا نعرف من خلاله شيئاً عن معنى الانسان والحياة.

قال أهل المدينة أنهم شهدوا إحدى عجائب الدنيا وسيبدأ تاريخ آخر باكتشاف لؤلؤة كينو، فتوجّه إليه الخوري بقوله، «وجدتَ كنزاً عظيماً، وأرجوا أن تشكر الله على هذه النعمة التي وهبك أياها». وقال له الطبيب أنه جاء ليكشف عن إبنه وينبّهه إن سم العقرب قد يترك أثراً دائماً.

وفي اليوم التالي، ذهب كينو إلى مركز المدينة بصحبة جميع سكانها فقد أصبح معروفاً للجميع. رافقه صيادو الأسماك وباعة الخضار والراهبات والشحاذون وحشود من الأولاد. وتساءلوا ماذا يمكن أن يفعلوا لو كانوا هم الذين وجدوا اللؤلؤة؟ قال رجل أنه لو وجدها لقدّمها للحبر الأعظم في الفاتيكان لإقامة قداديس عن أرواح جميع أفراد عائلته الذين ماتوا والذين سيموتون. وقال شخص آخر أنه كان سيوزّعها على الفقراء. وتعدّدتْ الإجابات، غير أن ما بقي في الأذهان هو شعور الناس بالتخوّف إنه سيكون من العار أن تدمّر اللؤلؤة حياة كينو.

واتفق تجار الجواهر في السوق على عدم إظهار رغبة بشراء اللؤلؤة سوى بأسعار زهيدة مخيّبة للأمل. وفضّل كينو في هذه الحالة أن يحتفظ بها، غير أنه بدأ يشعر أنه مطارد ومهدّد من قبل ذئاب وعقبان بشرية، فقالتْ له زوجته جوانا، «كينو يا زوجي العزيز. هذه اللؤلؤة شر، فلنعيدها إلى البحر»، ولكنه أجابها محتداً، «لا. سأحتفظ بها. إنها من حظنا ولن يسلبنا أحد من ثروتنا. أنا رجل وأعرف كيف أدافع عن حقوقي. ولن يخدعنا أحد". حضّري نفسك لنذهب معاً إلى العاصمة».

لم تقتنع فاقتربتْ منه وترجّته بقولها، «كينو، يا عزيزي، إنني خائفة. قد تتحوّل إلى قاتل باسم الدفاع عن حقك بهذه اللؤلؤة. إنها شر. لنرمها في البحر». ولم يستجب لطلبها، فخطفتها من يده وركضتْ بها باتجاه البحر. لحق بها غاضباً، وإنتزع اللؤلؤة من يدها وهي على وشك أن تقذفها إلى الأمواج. صفع وجهها، ولبطها في جنبها، ورماها إلى الأرض فبدت كخروف أمام جزار ورأت في وجهه قاتلاً وهو يقول، «أنا رجل».

ففهمت من هذا أنه نصف مجنون ونصف إله.

وفعلا قتل كينو في الأيام التالية رجلاً ظنه يطارده لينتزع منه اللؤلؤة الكبيرة التي أصبحتْ روحه وإذا ما خسرها خسر كيانه. وما حدث بعد ذلك أن إمتلكه إحساس بانه مطارد وأن هناك مَنْ يتعقّبون آثاره أينما ذهب، وفكّر أن يقتني بندقية، وتشابكت موسيقى اللؤلوة بموسيقى الشر.

هكذا، وبهذا الإيجاز، سردتُ لأمي وبهية حكاية اللؤلؤة لجون شتاينبك التي واظبتُ على ترجمتها إلى اللغة العربية، وعندما سألاني عن مصيرها، قلت أن حياة العائلة أصبحتْ جحيماً إلى أن إقتنع كينو بان يرافق زوجته إلى البحر حيث قذفها بكل ما لديه من قوة إلى قاع الموج وتحوّلتْ موسيقاها إلى وشوشة ما لبثتْ أن إضمحلتْ.

يجب أن أكون قد نمت ساعات قليلة تلك الليلة، وحين استيقظتُ صباح اليوم التالي جاء أحدهم من الصحراء وسلّمني يداً بيد رسالة من أختى ندى فكدت أطير من الفرح وبحثتُ عن مكان منفرد أقرأ فيه بتشوّق ما كتبتْ لنا عن أخبارها:

أخي، يا صديق قلبي، أريدك أن تقرأ هذه الرسالة بنفسك فقط ولا تخبر أمي بما أحدثك به عما جرى لنا منذ تركنا بيروت في شهر تشرين الماضي، وأريد أن أتكلّم معك بصراحة فليس هناك غيرك ممن أستطيع أن أفتح له قلبي وأصارحه بمشكلاتي. وما سأخبرك أياه لا أعتقد أن أمي تستطيع أن تتحمّله. يكفي أن تقول لها أننا وصلنا بخير وكل شيء على ما يرام. وتدبر الأمر بالنسبة لأخي كمال الذي ما يزال بريئاً لنحدثه في هذه القضايا. المهم أن تقرأ هذه الرسالة وتحتفظ بها سراً.

غادرنا بيروت، كما تعرف، إلى الشام حيث قضينا ليلة. وفي الصباح الباكر جهّز مجدي السيارة للسفر إلى محطة بدنا التابعة للتابلين في السعودية. ملأها بالبنزين وأخذ تنكة إضافية لبعد المسافة قبل الوصول إلى محطة طُريف وهي أولى محطات التابلين. ولم

نأخذ معنا من الطعام سوى كيلو موز وقربة ماء كتلك التي يستعملها الصيادون في البراري. قال مجدي أن الرحلة تستغرق تسع ساعات للوصول إلى محطة التابلين الأولى فننام هناك ونتابع سيرنا في اليوم التالي إلى المحطة التي يعمل فيها وإسمها بدنه التي تبعد حوالي أربع أو خمس ساعات اضافية. لا تؤاخذني يا أخي على هذه الرسالة المضطربة.

ولكن الأمور، للأسف، لم تتمّ كما في الحسبان بعد دخولنا الصحراء حيث لا يوجد طريق معروفة ولم نكن نحمل خريطة أو معلومات دقيقة. إعتمد مجدي على خبرته والمعلومات الضئيلة التي نصحه بها أحد السائقين الذي إعتادوا السفر بين محطات التابلين. وما أن عبرنا الحدود الأردنية وتوغّلنا في الصحراء حتى بدأ مجدي يتبع آثار عجلات السيارات وقد عيّن الكيلومتراج لمعرفة المسافة التي علينا أن نسلكها. توقّع ان يسير حوالي ثلاث مئة ميل للوصول إلى المحطة الأولى. وعبرنا ما يزيد على هذه المسافة دون أن نصل إليها أو نتبين أثراً لعجلات السيارات.

عرفنا عند ذلك أننا ضعنا، وكان الطقس حاراً جداً وأنا حامل في الشهر الرابع، ونوافذ السيارة منفتحة والغبار كثيف حتى أنه إنجبل على وجهينا بالعرق راسماً خطوطاً وأشكالاً. وبان لنا أخيراً مرتفعٌ صغير بدا لي كشجرة عارية حزينة فتوقفنا عندها علنا نرى سيارة أو قافلة جمال أو صيادين. وتجوّلنا حول السيارة فاكتشفتُ بقايا خبز وفليفلة خضراء لم تسوّد بذورها بعد مما بعث الأمل في قلوبنا. قلنا لا بدّ أن هذه منطقة يعبرها السائقون. ولا أذكر انني أحسستُ بالجوع بتاتاً. إنما كنا نشرب القليل من الماء لنبلّل شفاهنا. إنتظرنا ما يزيد على ساعة فلم يلح لنا طيف أو نسمع صوتاً. شعرت برهبة السكينة فرحت أنشد تراتيل دينية تذكّرتها فجأة من زمن طفولتي في المدرسة، وصلّيتُ من أعماق قلبي كي أتغلّب على الخوف وأطرد القلق. وألتهيتُ عن مصيبتنا بالتأمل بجمال الصحراء: بالرمل الأبيض الجميل، والأودية والتلال الرملية ونباتات نادرة تتمسّك بالحياة وسط الجفاف. وفكّرتُ بالموت والحياة وسط هبوب الريح والغبار فحسبتُ روحي ستفارق جسدي، وتذكّرتُ ما قلتَ لي يوماً على أنه لا قيمة للروح دون جسد كما لا قيمة للجسد دون روح وحين ينتهي أحدهما ينتهي الآخر.

ولأنني حامل قلت يا ألله ربما لا أستحق الرحمة، ولكنني أحمل طفلاً في أحشائي ولا أشك أنك ستساعدنا، وإذا بدا عليّ شيء من الشك بك في أي وقت في السابق فارجوك من كل قلبي وبأسف شديد أن تغفر لي أنا الضعيفة. وصحيح أنني لم أعترض على أخي حين فقد إيمانه فهو طيب القلب ومحب ومنصف في علاقاته مع جميع الناس مهما كانت إنتماءاتهم وينفر من العصبيات.

ولجأت للعذراء متمنية لو كنتُ أملك بخوراً وشمعاً وصلّيتُ لها من أعماق قلبي حتى شعرتُ أنها هناك معي:

يا مريمُ البكُر فقتِ الشمسَ والقمرَ

وكلَّ نجمٍ بأفلاك السماء سرى

وكانت الشمس قد بدأت تميل للغروب. هنا قال لي مجدي، ببرودة لم أصدّقها، إذا لم نجد طريقنا سوف أقطع لك شراين يدك وثم شراين يدي فنموت. هذا أفضل من أن تأكلنا الوحوش الضارية. قلت له خلِّ قلبك كبيراً بالأمل وإيمانك بالله فلا تيأس. قلبي يحدّثني أننا سنجد الطريق. وبعد دقائق شاهد مجدي غباراً مقبلاً من بعيد وضوءاً فصرخ هذه سيارة. وتوجّهنا إلى سيارتنا لننطلق صوب هدفنا لنجد أن أحدى العجلات قد نفّستْ، ولكن رغم هذا قادها مجدي حتى اقتربنا من السيارة الأخرى. خرجنا من سيارتنا وأخذنا نلّوح فاقبلت نحونا واكتشفنا فيها ثلاثة رجال في طريقهم إلى الشام. أخبرناهم بمشكلتنا، فقالوا لنا إننا على بعد 75 ميلاً من المحطة الأولى وأنه ليس من طريق فيكون علينا أن نتجّه يميناً يميناً. ساعدونا في تغيير عجلة السيارة وأعطونا بنزيناً ثم ودّعونا فتابعنا السير بالاتكال على الله العلي العظيم.

وما أن سرنا حوالي خمسين ميلاً حتى بدا لنا ضوء ساطع، فقال مجدي إنه علامة لمطار المحطة. وسرنا باتجاه الضوء دون أن نقترب منه. بل أحسسنا بعد وهلة أنه يبتعد بدل أن يقترب فاقتنعنا أن ما رأيناه لم يكن سوى نجمة وتأكدنا أننا ضعنا مرة ثانية. أوقفنا السيارة وأغلقنا الأبواب والنوافذ، وفكّر مجدي كيف يمكن أن ندافع عن أنفسنا إذا ما هاجمنا حيوان بري. قلت له معي مقص خياطة، فاستقرينا في مقاعدنا إلى أن غلبنا النوم. وما أن استيقظنا في الصباح حتى بدا لنا خزان ماء فعرف وجدي أننا اقتربنا من المحطة. فقط في تلك اللحظة أدركتُ أن للصحراء جمالها الخاص. قلت سبحان الخالق كم خلق وأبدع. إن مجده لعظيم.

صعقتني رسالة أختي، ووجدتُ نفسي اتهم مجدي بالغرور والتهور. وشغلني كيف احجب الخبر عن أمي، وشكرتُ الله أنها لا تعرف القراءة فاستطيع أن استنبط لها رسالة مفرحة. وهذا ما فعلته، فقبّلتني فرحةً بوصولهما بالسلامة ثم إعترفتْ لي أنها لم تكن على

بعضها منذ أخبرتُها قصة الذين سقطتْ بهم الطائرة في الصحراء، وكانت طيلة الوقت قلقة مما قد يحدث لندى ومجدي فقدّمتْ نذراً لمار الياس أن يُوصلهما بخير.

وقلت لنفسي أن لأمي حاسة سادسة لم تورثني أياها، للأسف الشديد.

7 ـ زمن بين الفتوة والشباب

يوماً بعد يوم،

شهراً بعد شهر،

سنة بعد سنة،

تواصلتْ حياتنا وسط أزمات غير مرتقبة هنا وهناك وفي مختلف المجالات، وتبيّن لي جلياً أنني عبرتُ مرحلة الفتوة إلى مرحلة الشباب فخضتُ نقاشات فكرية حامية في زمن إزدهار النشاط الثقافي والسياسي وتوتّر الصراع الفكري مع الذات والآخر. وزاد من حدة النقاش المتواصل أن بعض البلدان العربية كانت ما تزال ترضخ لهيمنة خارجية بين أكثرها مأساوية الإستعمار الكولونيالي في فلسطين والجزائر حيث إحتدمت معركة التحرير بأقسى أشكالها.

أما على صعيد العائلة فقد بدأنا حياة جديدة حقاً إثر تخرّجي من الجامعة وتوزّع نشاطاتي بين العمل الصحافي والتعليم في مدرسة برمانا ومواصلة دراساتي العليا في الجامعة الأميركية للحصول على شهادة الماجستير في علم الاجتماع. واستقرّتْ حياة أختي في الصحراء، وبهية في جده حيث جمعت شبه ثروة أغدقت جزءاً على اخوتها على أمل ان يكمل أولادهم دراستهم، وعاد أخي كمال من الخدمة العسكرية الإجبارية في سوريا لمدة سنة ونصف السنة ليستأنف عمله كمعلم خياطة في سوق الطويلة.

وارتحتُ نوعاً ما ان هذه النشاطات حرّرتني من التوتّر في علاقتي مع الفتيات مكتفياً بتبادل الرسائل مع صديقتي رؤى. وأكتشفتُ منذ اللحظة الأولى لانتقالنا إلى شقة متواضعة تقع في نزلة أبو طالب عند تقاطع شارعيّ الحمراء والسادات أن هناك فتاتين جميلتين في الحي، تقضي إحداهما وقتاً طويلاً على شرفة في الطابق الخامس، وتنام الثانية في غرفتها شبه عارية ودون غطاء وستارة في مبنى من طابقين أُطلّ عليه من نافذتي باتجاه البحر، وكان لها فخذان مثيران كماء الورد.

بد ت هذه المرحلة الجديدة من حياتنا إثر نيلي شهادة بكلوريوس من الجامعة الأميركية وقّعها قسطنطين زريق الذي أصبح فجأة رئيساً للجامعة بالوكالة بعد أن توفي الرئيس بنروز بالسكتة القلبية تلك السنة، وحزنا لموته رغم انتشار إشاعات عن أنه كان يعمل في السي آي إي قبل قدومه من ايران إلى لبنان، وعلّق أحد إساتذة التاريخ أنه كان بين من خططوا للتخلص من مصدق في ايران وأن رئاسته أنْهَتْ عهود العائلات الأميركية التي جاءت إلى المنطقة كارساليات إنجيلية استوطنت بيروت ومدناً أخرى لمدة طويلة وجيلاً بعد جيل فنشأ لدى بعض أفرادها نوعٌ من التفهّم للواقع العربي، وبقدوم بنروز أصبحت الجامعة تخضع مباشرة لتدخّل الدولة الأميركية. لذلك كان لتوقيع قسطنطين زريق شهاداتنا أهمية رمزية خاصة، فقد تداول البعض اسم شارل مالك على أمل أن يصبح رئيساً للجامعة.

لا أدري لماذا لم أشعر بالبهجة، كما يجب وما هو متوقَّع، يوم حفلة تخرجي التي حضرتها أمي وأختي ندى وأخي كمال وبهية التي صدف ان أخذت فرصتها الصيفية من عملها في جدة. وقَدِمَ لتهنئتي بنيل الشهادة الكثير من الأصدقاء وجميع أفراد العائلة في بيروت، وأهدتني بهية ساعة أوميغا يدوية مذهّبة، فلما عبّرتُ عن إمتناني مستكثراً قيمتها قالتْ لي أنت الوحيد في العائلة الذي دخل الجامعة وتخرّج منها بتفوق فرفعت رأسنا عالياً ومهما قدّمنا لك هو دون ما تستحق أيها الغالي على قلوبنا جميعاً. وإحتضنتني بمحبة فاطلقتْ أمي زلغوطة وفاضت عينا أختي بالدموع. ومع هذا كان حقاً يوماً حافلاً في حياتنا العائلية.

في الواقع أنني لم أفهم لماذا لم أكن حقاً مبتهجاً وفخوراً كبقية أفراد العائلة والمعارف بنيل شهادة البكلوريس. إستغربتُ انني لم اشارك كالأخرين في أجواء الإبتهاج والإحتفاء بالإنجاز الذي حقّقته رغم الصعوباب والعراقيل. بل أردتُ أن أعرف لماذا شعرتُ في تلك المناسبة بالوحشة والإكتئاب والامبالاة بما أنجزتُ حتى الآن. قلتُ ربما كان ذلك بسبب إحساس الجميع حولي بأنني حقّقتُ إنجازاً كبيراً ولم أشاطرهم هذا الإحساس بالإنبهار كما لو أنني وصلتُ إلى نهاية المطاف. لقد أحسستُ عميقاً في قرارة نفسي أن تلك المناسبة لم تكن تتويجاً لما أنجزتُ، بل بداية طموحاتي المستقبلية، وكنتُ شعورياً كمن يقف على شاطىء محيط شاسع ينتظر سفينة تقلع به لإكتشاف جزر نائية كتلك التي بحث عنها السندباد دون كلل.

وفعلاً تمشّيت وحيداً في اليوم التالي على شاطيء مهجور للتحرّر من مشاعر الوحشة فاستعدتُ، إلى حدّ ما، علاقتي الودية مع

نفسي وقررتُ جازماً متابعة دراستي العليا فيما أعمل بالتدريس والصحافة وافتح حياتي على عوالم أخرى حرمتُ نفسي منها بشكل صارم. وتذكّرتُ من حيث لا أدري التهمة التي وُجّهتْ لي من أن روحي أكبر من جسمي. منذ ذلك الوقت، بدأتُ أفكّر بالعلاقة بين الجسد والروح وتوصّلتُ إلى أن كلاً منهما إنعكاس لحيوية الآخر ولا إنفصال بينهما فما أن يموت احدهما حتى ينتهي الآخر. وما كان إلا أن بدأتُ أواجه نفسي وجهاً لوجه بإعجاب وقسوة في الوقت ذاته، وأردتُ أن أكون متواضعاً كي لا أصاب بالغرور حتى أن صديقي عادل اميوني قال لي يوماً بالانكليزية Do not belittle yourself ، ولم أفهم ما الذي جعله يظنّ أنني أستصغر نفسي فيما أحاول الجمع بين الروح والجسد والتواضع مع الثقة بالنفس. هل هذه مهمة مستحيلة؟

فكّرتُ بما قال لبرهة، ثم سألته: عادل، هل تعتقد حقاً أنني أستصغر نفسي؟

ـ أكيد في بعض الحالات على الأقل.

ـ أية حالات تقصد؟

ـ الإرتباك في علاقتك بالبنات، مثلاً

تردّدتُ لبرهة ثم قلتُ: لا أدري، إنما كل شيء ياتي في زمنه كمواسم الزيتون والتين. ومهما كان، استطيع أن أعترف الآن أنني غير متأكد من الحدود الفاصلة بين الغرور واستصغار الذات والتواضع، هل تعرف الحدود الفاصلة بينها؟

ـ أعرفها في حالتك. لست متأكداً أنني أعرفها في حالتي الشخصية.

قال عادل ذلك ضاحكاً، فشاركته الضحك من أعماق قلبي، وتبع ذلك صمت وجدتُ نفسي خلاله أحاول تشخيص ذاتي كما شخّصني صديقي وإن كنتُ ما أزال أستغرب نصيحة البعض بأن أتخلّى عن الانشغال بالقضايا الكبرى دون جدوى وأهتم بدلاً من ذلك بأموري الخاصة، وكثيراً ما قيل لي أن الإعتدال هو سيّد الأحكام. واستعيد نصيحة قدّمَها الدكتور زكن شخاشيري في محاضرات ألقاها في الندوة اللبنانية وقاعة الوست هول في الجامعة محذّراً الشباب من سلبيات كبت الطاقات الجنسية. وربطتُ بين كلامه ونظرية فرويد حول سلبيات قمع الحضارة الأوروبية للرغبات الانسانية.

ومهما كان، لا انكر انني اعاني من الارتباك في التعامل مع الفتيات طبيعياً. تساءلت مراراً لماذا أرتبك في الحديث معهن ويستولي عليّ الشعور بالخجل عندما تُظهر فتاةٌ ما إهتماماً بي وأضطرب لا أعرف كيف أضبط تحرّك يديّ فتتنقّلان بعصبية بين جيوبي وأنفي وشعري، ويحار نظري أين يستقرّ: في عينيها أم فمها أم شعرها أم صدرها أم الأرض؟ وفي مثل تلك اللقاءات المحرجة كانت تنتقل عدوى حيرتي أحياناً إلى الفتاة نفسها فتتردّد لا تعرف ماذا تفعل كي تخفّف من إرتباكي. وعبثاً أعاهد نفسي أن اتعلّم من تجاربي الفاشلة. وحين تحضر المرة الثانية أكتشف أنني لم أتعلّم كثيراً وما تزال أمامي طريق طويلة. وقلتُ لأكن تلقائياً معهن، وليس من الضروري أن أنشغل بماذا يجب أن أقول أو لا أقول. لتأخذ الأمور مجراها الطبيعي.

ومرة أخرى ألجأ لحجة واهية فاردّد ليس لديّ الوقت لمثل هذه المغامرات على حساب مسؤولياتي وهوياتي المفضلة. ولكن ما أن أتحجّج بذلك حتى أعود لأتذكّر من ناحية أخرى أن للجسد حاجاته ولا بدّ لطاقاتي أن تجد منفذاً وإلا إنفجرت في وجهي وكنتُ أنا الضحية في الدرجة الأولى. هنا أعود لأقول إنني أمتّع نفسي بالقراءة والإصغاء للموسيقى والكتابة والسباحة، فلماذا أستبق الأمور وأنشغل بمسألة علاقتي بالفتيات خاصة وأنني في مطلع الشباب والمستقبل ما يزال أمامي، وكل شيء يحدث في موسمه؟

وإذا ما فشلتُ باقناع نفسي بكل هذه الحجج الواهية، إذكّرها ان معاشرة الفتيات تقود إلى الحب، والحب إلى فقدان القدرة على التحكّم بعواطفي وعاجلاً أم آجلاً أجد نفسي ملزماً بطلب يد الفتاة من أهلها فأدخل مبكراً ودون أن أعلم ومن حيث لا أدري في دهليز الزواج الذي لا مخرج منه، ويأتي الأولاد وتكثر المسؤوليات وتتبدّد طموحاتي ومواهبي فأعيش كبقية المخلوقات منشغلاً بالإنجاب والعيش ضمن نطاق ضيق ودون غاية كبرى. وعدتُ، إرضاءاً لنوازعي، إلى قراءة فرويد واساطير هندية تتحدّث باسهاب عن الصراع بين الرغبة وإرادة التحكّم بها .

قرأت كاماسوترا وفهمتُ ان كلمة سوترا تعني كتاب مرجعي وكلمة كاما تعني الرغبة، واستنتج أن الكتاب الأول يتناول تحقيق الرغبات، والكتاب الثاني الإخلاص الكلي ودون شرط للآله والتوحّد بها. ومن هنا، كما قيل، الصراع بين الرغبات الجنسية من ناحية والرغبات الروحانية من ناحية أخرى، فقلت لنفسي أن الصراع بالنسبة لي كان حتى الآن بين العقل والجسد رغم قناعتي مبدئياً بهما معاً فلا أريد لأي منهما أن يلغي الآخر، وإن أعطيتُ العقل أولوية حالياً بسبب ظروفي الخاصة على أن أتطلع إلى يوم مناسب أتمكّن

فيه من الموازنة بينهما.

قلتُ لنفسي عبثاً الحصول على السعادة العظمى التي أرى أنها أقرب للوهم منها للحقيقة، وما أريده حالياً هو أن أنشغل بشؤون هذا العالم فحسب، فالتاريخ ليس سوى تفاعل بين الحقائق والأوهام. ربما لذلك تصوّرت أن فتاة رائعة تمشّت معي على شاطىء البحر وجرى بيننا حوار طويل دون أن أسألها عن إسمها وأن تسألني هي عن إسمي، وكان أن نامت على زندي في خيمة على سطح منزل تحت النجوم والقمر في سماء صافية، وغازلتها في عرزال فوق شجرة كثيفة، وسبحتُ مراراً مع عرائس البحر في جزيرة نائية لم يكتشفها السندباد فعزفتْ إحداهن لي على قيثارتها وهي عارية. وخضتُ البحر بحثاً عن لؤلؤة اقدّمها لصديقتي دون ان تفهم ان هديتي مقدمة لطلب يدها.

لم تقلّل أحلامي من مسؤولياتي. تابعتُ مخططاتي ودراستي العليا مادة بعد مادة حسب ما تسمح الظروف، وركّزت إهتمامي على التعمّق في النظريات الاجتماعية والثقافية فوجدتُ نفسي مفتوناً بفرويد وفيبر وباريتو وسوروكن وهيغل وماركس وسارتر وكامي وكركيكارد وهيدغر، وكتبتُ رواية نالت جائزة وعدداً من القصص القصيرة في المجلات والصحف، وأخذت ألعب بالكلام كما لو كان كرة واتعامل مع الكتابة كما أمارس السباحة في بحر مضطرب. ثم أجريتُ مقابلات صحفية معمّقة مع عدد من المفكرين والمبدعين فنشأت بيني وبين بعضهم صداقة لم تنقطع، وحرصتُ أن أكون قريباً من طلبتي الثانويين في مدرسة برمانا العليا فكانت لي بينهم شعبية خاصة بعد أن نشطتُ معهم في ترتيب سلسلة من المحاضرات والنقاشات الثقافية شاركتْ فيها أسماء لامعة مثل نزار قباني وبدوي الجبل وجبرا إبراهيم جبرا وأدونيس ويوسف الخال وخليل حاوي وتوفيق صايغ وأنسي الحاج وبدر شاكر السياب ومحمد الماغوط وغيرهم.

ثم عيّنتُ لطلبتي قراءة نصوص من الأدب الحديث لمناقشتها في الصف، وكان منها مناظرة بين طه حسين ورئيف خوري أقرّ فيها الأول علناً ان زعامة الأدب انتقلت من القاهرة إلى بيروت وصرّح الأخير بدوره «إن كل لبناني مطالب...ان تجري مصر في دمه». وقرأنا لأدونيس قصيدة «قالت الأرض»، ولبدر شاكر السياب قصيدة بعنوان «يوم الطغاة الأخير» التي جاء فيها إشارات إلى «غد الثائرين القريبْ»، وبشّرنا بقوله الطموح:

لنا الكوكب الطالع، وصبحُ الغدِ الساطع

ومقابل ذلك قرأنا لنازك الملائكة قصيدة مرثية لبغداد الجديدة بعد الطوفان، قالتْ فيها:

وجاء الخراب ومدّد رجليه في أرضنا

وأبصر كيف تنوح البيوت على بعضها

وكانت لبعض الطلبة يقينياتهم المطلقة، فقرأنا في الصف قصيدة الطلاسم لإيليا أبو ماضي، وطلبتُ من كل طالب وطالبة اختيار المقطع المفضّل له أو لها والقاءه أمام الاخرين. وتفاجأت أن سألني أحد الطلبة ما هو المقطع المفضّل لدي، فاجبتُ دون تردّد:

أنا لا أَذكرُ شيئاً من حياتي الماضيه

أنا لا أعرفُ شيئاً من حياتي الآتيه ليَ ذاتٌ غير أني لستُ أدري مَاهِيه فَمَتَى تَعرفُ ذاتي كُنه ذاتي؟

لستُ أدري !

في تلك الأجواء تعمّق إحساسي بالوقت وأردت أن أعرف سر الزمن وما علاقتي بالماضي والحاضر والمستقبل وكيف أحرّر كلاً منها من الآخر، وماذا يجب ان أفعل كل يوم عند طلوع الشمس، وبعد الظهر حين ينام الكثيرون خاصة في الصيف، وفي أوقات الغروب والمساء. وكثيراً ما وجدتني أتساءل ماذا يحدث إذا لم احقّق ما أريد فاقول لنفسي إنني لا اريد أن يفلت الوقت مني ويضيع في شقوق الأرض أو يتبخّر في الهواء في يوم حار. اصبح الوقت أثمن ما أملك. أ قلق إذا فقدتُ موعداً وأفكّر كيف يمكن أن أملأ الفرا غ. كل دقيقة لا أملأها ضجرٌ. ومع هذا كنتُ احس رغم طيلة الوقت انني لم احقّق قدر ما أردت وما كان بإمكاني إنجازه.

وأقمت علاقة وثيقة مع اللغة العربية هي أشبه ما تكون بتلك العلاقة التي أقمتها مع الفتيات حيناً ومع البحر حيناً آخر، إنما أعترف أنني لم أكن مولعاً بالقواميس والقواعد. وكان أن فتنتني اللغة فكتبت في دفتر يومياتي:

أصبحتْ شواطىءُ اللغة العربية شواطىءَ روحي.

ولما أدركتُ أنها امرأة اعشقها،

أردت أن أعربها لإعرف من الفاعل ومن المفعول به،
وأعرّيها من حجبها الخارجية والداخلية
لاتمتع بنشوة اكتشاف أسرارها الخفية،
وقلت ما لا يقال.

وهذا ما جعلني أدخل مرة أخرى في صراع مع نفسي من حيث أنني لم أنجح بعد في أن أجمع بين الرغبة والفكر، فعدتُ أقرأ نظرية العقل عند فرويد وهيغل، وقارنتها باحباطات الحضارة العربية. وآمنتُ كما يؤمن العديدون في جميع أرجاء الأرض أن من حقّ الانسان أن يصارع كي ينال حقوقه ويشارك في صنع مصيره، وتدارستُ مسائل الفكر المطلق والفكر النسبي، واليقين والشك، والتسليم والمجابهة، والقوة والضعف، ومركزية السلطة وغيابها، والوضوح والغموض، والحرية والعدالة، والأنا والآخر، والإمتثال والتمرد، والاستقرار والتغيير، والعلاقات بين الإنتماءات المختلفة. وبقدر ما خضت في مناقشة هذه المسائل، حرصتُ دون مساومة على القيام بمهمات البناء لا تهديم الجسور بين مختلف الاتجاهات من خلال علاقات شخصية تقوم على الثقة المتبادلة بانسانية الآخر، وكنت أخوض نقاشات مع نفسي كما مع الآخرين، وهي بين أصعبها، وواظبتُ على متابعة المحاضرات والندوات التي تعقد في بيروت.

تعمّقت علاقتي بادونيس منذ وصوله إلى بيروت عندما بدا لي وجهه جلداً على عظم ولن أنسى عروق جبهته البارزة فرافقته في زيارة إلى أنسي الحاج في النهار وساعدتُ في البحث معه عن شقة بانتظار خالدة التي كانت ما تزال تخدم مدّتها في السجن. ولم يمرّ وقتٌ طويل قبل أن أكتشف بحدسي البريء أن مصيره أن يصبح سيد الشعر واللغة العربية في هذا العصر. ولم يكن قدومه إلى بيروت صدفة وحالة خاصة، فما أن مرت الأشهر والسنوات القليلة حتى أقبل أيضاً محمد الماغوط وبدر شاكر السياب، وكثرتْ لقاءاتنا في أوقات الفراغ بين مقهى أو مطعم وآخر إمتداداً من وليامس في ساحة البرج إلى الحاج داود عند شاطيء بيروت قرب الميناء والعجمي في مبنى النهار، ومسعود في باب إدريس، وفيصل وانكل سام مقابل مدخل الجامعة الأميركية الرئيسي، والروضة والدولتشي فيتا والغلاييني في منطقة الروشة.

ولم تمنعني تلك النشاطات واللقاءات من أن أخصّص مواعيد أخلو فيها لنفسي كي أسجّل ما يخطر لي من أراء حول أمور الدنيا. ثم بدأت أنفتح على الفلسفة الوجودية ومن نافذتها عند سارتر أطللتُ على الفكر الماركسي وتولّعتُ بالحديث عن مسؤولية الإختيار فقلت لنفسي القلق رفيق طريقي لا الإطمئنان وهو حافز الإبداع، وإنه لا حرية دون عدالة إجتماعية، وإن حريتي لا تُلغي حرية الآخر، وإن ما يعاني منه الانسان هو العجز في علاقته بالمؤسسات والمجتمع والأحزاب فلا بدّ من الالتزام. وأحترتُ أين تبدأ عملية التغيير، حين لم أعد أكتفي بالتساؤل ما العمل؟ هل تبدأ بالذات أم المجتمع أم الفرد أم الثقافة أم كلها معاً وفي الوقت ذاته؟ وظننتُ لوهلة أنني إهتديتُ إلى ضرورة البدء بتغيير البنى الاجتماعية السائدة من خلال المشاركة في حركات إجتماعية وسياسية تسعى لاصلاح واقع الأمور في أسسها. قلتُ هذا يقتضي الثورة لا مجرد الإصلاحات الجزئية فخفت من نفسي على نفسي، وتابعتُ البحث دون تردّد.

وحين كنت أُكثر من الخوض في نقاشات مع نفسي أقول هذا لا يكفي، فأَلِفْتُ أيضاً الخوض في نقاشات حامية في الجلسات التي كنا نعقدها بانتظام بعد الاستماع لمحاضرات عامة كتلك التي كانت تعقد في دار الندوة اللبنانية لصاحبها ومديرها ميشال الأسمر، وكان صديقنا يوسف الحصني يدعونا أحياناً لمتابعة النقاش في منزله. وكان بشوشاً، ولكنه مع الوقت بدأ يتأثر بشارل مالك إلي أن التحق بقافلته الفكرية. لذلك كان يطيب لي في نقاشاتنا أن أستفزه فاتهمه أنه يتكلّم، كمعلمه مالك، عن الحرية بمنهج مطلق وإستبدادي ومن الأعالي. هذا ما قلته في جدلي مع يوسف الحصني في حضور صديقنا عادل أميوني ومشاركته الفعالة لردم الفجوة بيننا. وكان من الغريب ان خلافاتنا الفكرية والعقائدية لم تقلّل من صداقتنا ولقاءاتنا. وكانت تلك سنوات حافلة شهدتْ أحداثاً وتطورات شملت العالم العربي كله وتركت آثارها في حياتنا اليومية أفراداً وجماعات. وتصاعدت الثورة الجزائرية فتبادلنا في بيروت حكايات أبطالها كما نتبادل أخبار معيشتنا اليومية؟

ومما حفلت به تلك الأيام أن حكومة عبدالناصر أقرت دستوراً جديداً نص صريحاً على أن مصر «دولة عربية وان شعبها جزء من الأمة العربية» فتعمّقت شعبيته لدى البعض في لبنان مما أحدث تخوّفاً لدى البعض الاخر، وعرضت الولايات المتحدة في البدء تمويل مشروع بناء السد العالي في أسوان، غير أنها سحبت العرض مما أغضب عبد الناصر فأعلن في إحتفال شعبي حاشد أقيم في الاسكندرية تأميم شركة قناة السويس مما أدى للعدوان الثلاثي على مصر. هاجمت إسرائيل سينا وقصفت الطائرات البريطانية

والفرنسية وأساطيلها ميناء بور سعيد التي تحوّلت إلى رمز من رموز الصمود، فتحرّكت الجماهير في مختلف الأقطار العربية، وتمّ نسف محطات النفط العراقي الذي تمر أنابيبه في سورية.

وأوعزت أميركا في تلك الأجواء المضطربة تشكيل وزارة سامي الصلح في 20 تشرين الثاني 1956على أن يكون شارل مالك وزيراً للخارجية والتربية الذي سبق له أن أستعرض في نشاط خاص مساعدات أميركية في اطار النقطة الرابعة ودعا إلى منزله جمهرة من المفكرين ضمّتْ يوسف الخال وسعيد عقل وفؤاد افرام البستاني وادوار حنين، ورأى على هامش تلك الجلسة ان يستشير ضيوفه بمسألة حساسة. أخبرهم أن في موازنة وزارة التربية 25 ألف ليرة مخصصة للأدباء والفنانين وتقتضي الأصول المتبعة بتوزيعها خلال 24 ساعة وإلا إضطر لحذفها من الموازنة، وسألهم كيف يوزّع هذه القيمة على مستحقيها فتعدّدتْ الأراء وتشابكت الاقتراحات وتعالت الأصوات فانصرف كل من حيث أتى.

في خريف تلك السنة، على ما أظن، واظبتُ على الإستماع لسلسلة من المحاضرات ألقاها الدكتور مالك حول ما أسماه « The Eight Isms» ومنها الرأسمالية والشيوعية والنازية والإشتراكية والوجودية والقومية مسلّطاً عليها الضوء، كما قال مراراً، من موقع نظرية جديدة أطلق عليها في حضورنا ولأول مرة تسمية الحقيقيّة. أعلن ذلك في اللقاء الأول، وتوقف لبرهة دون أن ينظر إلى الحضور، ثم توجّه للنافذة وتطلّع إلى الخارج وعاد متباطئاً ليقول، «بكل تواضع، هذه هي المرة الأولى التي أعلن فيها تسمية فلسفتي الجديدة وأنتم أول من سمع بها. إنها يا أعزائي الحقيقيّة، وها أنتم تشهدون ولادة الحقيقيّة قبل غيركم، فأنتم إذن داية للحقيقيّة».

وشَهدتْ تلك السنة أقوى زلزال عرفته المنطقة خلال ربع قرن في الساعة الثامنة من مساء 16 آذار، وحدث على دفعتين متواليتين بين الأولى والثانية نحو عشرين دقيقة فشمل مناطق الشوف والمتن، وبلغ عدد ضحاياه 140 شخصاً، وعدد القرى المنكوبة 440، والبيوت المتضررة 33 الف (11 الف متهدم و22 الف متصدع). في مساء ذلك اليوم كنتُ بوصفي إستاذ في مدرسة برمانا مسؤولاً عن أحد مباني الطلبة الداخليين في المدرسة، وصدف أن كنت في باحة المبنى حين أحسست بالزلزال فاندفعتُ تلقائياً إلى الداخل أتنقل من غرفة إلى غرفة للتأكد أن جميع الطلبة خرجوا من المبنى وهم في آمان. ولم أشعر بالخوف إلا بعد أن أتممتُ مهمتي.

ولن أنسى أن طوفان نهر «بوعلي» في مدينة طرابلس حدث في قبل ذلك بسنة، وأن الرئيس كميل شمعون رفض قطع علاقات لبنان مع فرنسا وبريطانيا بسبب الهجوم الثلاثي على مصر فاستقال من الحكومة رئيسها عبدالله اليافي ووزير الدولة صائب سلام،، وأن حركة القوميين العرب عقدتْ مؤتمرها الأول في بيروت في آواخر عام 1956، وتبين أنها كانت حركة هرمية تنظيمياً تراتبياً تحكمها علاقات عمودية تخضع فيها القيادات الدنيا إلى القيادات العليا وفق مبدأ، «لا تيارات ولا أجنحة»، وعلى أساس قاعدة، «نفّذْ ثم ناقشْ». وكانت تحمي هذه البنية الهرمية مركزية متشدّدة لا تسمح للقيادات الدنيا ان تحاسب القيادات العليا، ويتدرّج فيها الهرم التنظيمي من الخلية، إلى الرابطة، إلى الشعبة، إلى قيادة الإقليم مما ذكّرني ببنية الحزب السوري القومي من المديرية، إلي المنفذية، والمجلس الأعلى، ومجلسيّ العمد والأمناء، والزعامة التيّ تحوّلت بعد موت سعادة إلى رئاسة تهيمن على القرار على أن يحق للعضو رفع رسالة إستفسارية أو إعتراضية إلى فوق، ويكون سعيداً إن تلقىّ جواباً. في تلك الأيام تساءلنا داخل الحزب ما هي الفلسفة «المدرحية»، فقيل لنا ان ننتظر قدوم هشام شرابي من واشنطن ذلك الصيف.

وإستمعنا لمحاضرة بعنوان «لبنان في واقعه ومرتجاه» القاها كمال جنبلاط في العاشر من كانون الأول 1956 في الندوة اللبنانية. توقعّنا منه غير ما سمعنا فقد بدا لنا من خلال تلك المحاضرة المكتوبة أنه اراد مسايرة كل من أهل النظام المحافظين وأهل الإصلاح ولم يحفل بأهل التمرد والتقدّميين. قال من ناحية إن «لبنان السياسي قائم على... التنوع الغريب العجيب... لبنان وُجد فعلاً ليكون بلد اللامركزية... ولم ينجح حكم ّفي لبنان سوى حكم اللامركزية... ويكاد يكون لبنان على حدّ تعبير الاستاذ جواد بولس «إتحاداً فيدرالياً للعائلات الروحية». أما «العروبة، فهي في مفهومنا، رابطة حضارية، أكثر مما هي قومية بالمعنى الصحيح... وهذه الحضارة تستند إلى مقوّمين أساسيين بارزين: الدين واللغة، وكذلك معالم البداوة ونصف البداوة المتبقية في العادات الاجتماعية وفي الاقتصاد والسياسة، والبداوة ونصف البداوة هي الغالبة على الشعوب العربية».

ومن ناحية أخرى، رأى أن للبنان أهدافاً أخيرة أساسية منها أنه أولاً «في واقعه مجهّز لكي يلعب دور العقلانية السليمة... لبنان وُجِد لكي يكون بلد العقل...أثينا هذه البقعة من الشرق ـ ولنترك لسوانا أن يلتهي أو يجازف بلعب دور سبارطة... فهو ليس دورنا في الواقع، إن نفوسنا تعبت... من تقليد دون كيشوت». ولبنان ثانياً «بلد التقدم والمبادرة الحرة». وهو ثالثاً «بلد التسامح الديني... والذي نرتجيه...

أن يكون لبنان بلد التسامح الديني الحقيقي، لا بلد التعايش الديني، أي بلد التعصب والحقد الديني الدفين المكبوت، كما يبدو أحياناً وللأسف». ورابعاً، إن «لبنان بلد المفارقات»، أي جمع التناقض لا القول بنظرة واحدة.

واستنتج بعضنا ان كمال بك كان يلبس في تلك الأيام عباءة الحالة المارونية. تلك كانت خيبة أمل للبعض ومصدر سعادة للبعض الآخر كما أذكر من النقاشات السياسية الحامية التي شاركتُ فيها في تلك الأيام تُذكَر ولا تعاد. رحّب البعض بما أعلن عنه جنبلاط، وظن البعض الآخر أنه لم يخرج من دائرة أهل النظام المغلقة حين تستفحل الأزمات. في تلك الأيام، تأزّمتْ الأوضاع بدءاً من قيام معسكر يتزعمه شمعون الذي قبل بمشروع ايزنهور للوقوف في وجه التيار الناصري ودعا شارل مالك إلى تضامن مسيحي اسلامي لمكافحة الشيوعية وقام بجولة دولية في هذا الشأن، وأقام الحزب السوري القومي معسكرات تدريب، وطالب كسروان لبكي بتحرير لبنان نهائياً من علاقاته بالعرب والعروبة لأن العرب منقسمون مشتّتون كما يظهر من مواقفهم من مشروع أيزنهور وانقسامهم إلى معسكرين متنافرين.

ومما ناقشانه في حلقاتنا أن مالك أقام علاقة وثيقة مع كورد ماير الذي كتبتْ عنه صحيفة أميركية بأنه عمل جاهداً وبتفكير استراتيجي على احتواء الشيوعية في أميركا وخارجها، وكان من نشاطاته قيادة فرع العمليات السرية والإحتيالات الوسخة التي كان بين مهماتها دعم جمعيات طلابية وعمالية وثقافية سرياً. وذكر عادل على ما أظنّ أن ماير عمل بعد الحرب العالمية الثانية مع هارولد ستاسن الذي عرّفه إلى شارل مالك واستدرجه في مجالات التعاون ضد الشيوعية. ومما أثار المخاوف في صفوفنا ما ذكر من أنه من مهمات كورد ماير إستنباط وسائل سرية للتسلّل إلى الاحزاب وإختراق وكالات الانباء والجمعيات الثقافية ليزرع أخباراً ملفّقة ومضلِّلة. وتعمّقت المخاوف حين وردت أخبار عن وصول ماير إلى الموقع الثاني في قيادة الخدمات السرية و«الإحتيالات الوسخة» في جميع انحاء العالم، وجرت أحاديث عن تقديم أموال لجماعات طلابية ومجلات أدبية وثقافية.

وعندما إتسعتْ دائرة انتشار هذا الخبر بشكل خاص، قال يوسف الحصني في الجلسة التي دعانا إليها أن مالك لم يكن يعي هذه الأمور، كغيره من بعض المثقفين العرب الذين استدرجوا للتعاون في تأسيس المنظمة العالمية لحرية الثقافة التي رعت ندوة في يوميّ الثالث والعشرين والرابع والعشرين من أيار/مايو 1956 وشارك فيها كريم عزقول بمحاضرة بعنوان «المفهومان الديمقراطي والشيوعي للحرية»، وكمال جنبلاط الذي تحدث عن «دور القومية في تقوية المجتمعات الحرة أو في تقويضها»، وغسان تويني الذي تناول «مواضيع الضعف الكامنة في المجتمعات الحرة»، وجوزف مغيزل الذي حلّل «واقع القومية ومستقبلها»، ونقولا زياده الذي عالج مسألة «العربي المعاصر كشخصية غامضة»، ونُشِرَتْ هذه المحاضرات التي دارت حول مشكلة الحرية في كتاب بعنوان «دراسات» وضع مقدمته بشاره غريّب وخاتمته ميخائيل نعيمة، وتبين بعد سنوات أن المنظمة العالمية لحرية الثقافة والمشروع بمجمله كان ممّولاً من قبل المخابرات الأميركية، السي آي إي.

وليس صدفة أن شمعون حاول في تلك الايام ضمّ لبنان إلى حلف بغداد الذي وقّعه العراق وتركيا، وقبل مشروع أيزنهور الذي حصل من الكونغرس على صلاحيات استخدام الجيش للدفاع عن بلدان الشرق الأوسط ضد أي عدوان، واعتماد 200 مليون دولار لمساعدة البلدان الحليفة في تنمية اقتصادها وتعزيز قواتها المسلحة. ومما زاد من تأزم العلاقات داخل لبنان أن رفضتْ مصر وسوريا مبدأ أيزنهور، في الوقت الذي أولته حكومة شمعون، بتنظير شبه فلسفي من قبل شارل مالك، إهتماماً ووافقت على التعاون في إطار المشروع.

أحدث كل ذلك فجوة كبرى بين عبد الناصر وشمعون الذي تعرّض لحملة عدائية مكثّفة من إذاعة صوت العرب في القاهرة وضعته في صف نوري السعيد والملك حسين المتهمين بخيانة مصالح الأمة العربية. ورداً على هذه التطورات انضم الزعماء المسلمون وبعض الزعماء الموارنة إلى صف المعارضة نهائياً. وتكرّر في الإعلام كما في المجالس الخاصة أن شمعون أخذ يمهّد لتجديد رئاسته حين عمد إلى تبديل قانون الانتخابات ورفع عدد النواب من 44 إلى 66 نائباً، وأن السي آي إي عملت على إسقاط النواب الذين استقالوا إحتجاجاً على مشروع أيزنهور. وتردّد أثناء الانتخابات أن المخبر الأميركي بيل إفلند أصبح يتردّد على قصر الرئاسة حاملاً حقيبة ملأى بالليرات اللبنانية يسلمّها شخصياً إلى الرئيس شمعون أثناء الانتخابات التي تمّت على مرحلتين في أيار - حزيران 1957 وحصلت أثناءها تجاوزات صارخة، ومنها تصويت الأموات لصالح شمعون خاصة في دير القمر، وإعلان سقوط كمال جنبلاط فعمّت الشوف حالة من الانفعال الشديد وظهر الرجال المسلحون في الساحات العامة.

وكان شمعون قد ألقى كلمة في دير القمر لمناسبة عيد سيدة التلة رفض فيها الإعلان عن قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا كما فعلت بقية الحكومات العربية مما أدى إلى بدء عزل لبنان عن العالم العربي وأحدث توتراً كبيراً داخل لبنان وأنقسم المجتمع بين مؤيدي القطيعة مع بريطانيا وفرنسا ورافضيها. ومما علق بذهني بوضوح كلي في تلك الأيام التظاهرات الطلابية وكان بعض الطلبة والاساتذة العرب في بريطانيا قد عادوا منها إلى الوطن إحتجاجاً ومنهم خليل حاوي ووليد الخالدي الذي ألقى خطاباً هاماً في قاعة إجتماعات الجامعة الأميركية في بيروت شنّ فيه هجوماً فكرياً على إسرائيل.

ثم تمّ إغتيال العقيد السابق في الجيش السوري وعميد الدفاع في الحزب السوري القومي غسان جديد في 19شباط، وحين جرى له تشييع ضخم قالت الصحف في اليوم التالي إن بيروت لم تشهد له مثيلاً في تاريخها الحديث. وجاء إغتياله، كما عرف الرفاق، كجزء من عملية مطاردة للقوميين لم تتوقّف منذ إغتيال المالكي قبل عامين شارك فيها ضباط المخابرات ومنهم سامي جمعة الذي كُلف بمهمة إعتقالهم فأسموه بالجلاد، وبعد عقود تنصّل جمعه من هذه الوصمة فكتب في مذكراته ان صديقاً له من القوميين السوريين أخذه في يوم من الأيام إلى بلدة نبع الصفا في لبنان للإستماع لمحاضرات حول الفكر السوري القومي فادعّى أنه أصبح على قاب قوسين من الإنتماء للحزب عندما وقع حادث إغتيال المالكي، وحكى قصصاً كيف أخلى سبيل بعض الإبرياء ممن تمّ إعتقالهم لمجرد إنتمائهم للحزب وذكر بين هؤلاء مَنْ عرفتُهم شخصياً مثل الدكتور جوزف صايغ وهو جارنا من قرية الكفرون، ورجا اليازجي الذي يزاملني في التعليم الثانوي وهو من مارمريتا.

أما أكثر ما صعقني من حكايات سامي جمعه أن عبد الحميد السراج طلب إليه تفتيش منزل زوجة أنطون سعادة فاقتحم المكان على رأس قوة من أعوانه وصادر بين ما صادر صندوق موزاييك توسّلت إليه إحدى بنات سعاده قائلة، «الله يخليك عمو هذا من رائحة أبي» ففتحه وما أن رأى ما بداخله حتى أصابته قشعريرة. وجد أن الصندوق المبطن بالحرير الأحمر كان يحتوي، حسب قوله، حبلاً وبقايا قميص وزوج جوارب وحفنة من الرمل ملطخة بالدماء الجافة. وزعم أنه حرص ألا يستولى على الصندوق ضابط آخر فحمله هو بنفسه إلى بيته حيث دخلت عليه المذيعة البارزة عبلة الخوري وأجهشت بالبكاء وهي تصيح متوسلة، «حرام عليكم. إن محتويات الصندوق هي من الأثار القليلة المتبقية من عملية إعدام أنطون سعاده، وقد جلبها الكاهن الذي تولّى تعريفه لتبقى لعائلته أثراً منه». وعندما هدأت عبلة التي قال جمعه في يومياته أنه كان يحترمها ويعتبرها شخصية مؤثِّرة في الرأي العام عدا أنها إبنة عم بطل الإستقلال فارس الخوري فوعد أن يسلّمها الصندوق عند الحدود لتنقله إلى بيروت.

ومرّت السنوات عقداً بعد عقد قبل أن يعترف ضابط الأمن سامي جمعة بهذه الأسرار وأضاف ان القوة الكبرى الحامية لإسرائيل، قاصداً أميركا، كانت ترى في الحزب السوري القومي عدواً ذات عقيدة إستشهادية فأرادت التخلص من المالكي والحزب السوري القومي معاً. وأشار تلميحاً إلى أن شخصية تحتل مركزاً مؤثراً في سورية على صلة قوية بأميركا كانت على علاقة بجورج عبد المسيح فقال له، «خلّصونا من المالكي فتصبحوا القوة السياسية والعسكرية الأولى في سورية، أما معركتكم بعد ذلك مع الحوراني وحزب البعث العربي الاشتراكي فستكون نزهة قصيرة». لم يذكر جمعه من كانت تلك الشخصية البارزة، ولكنه روى أن العميد شوكت شقير جاء إلى بيت آل مالكي للقيام بواجب العزاء وما أن وصل إلى منتصف البهو حتى إنتفض رياض المالكي بوجهه قائلاً بأعلى صوته، «هل تعرف من قتل أخي عدنان؟... أنت الذي قتلته يا حضرة العميد» فغادر شقير المنزل دون أن يقوم أحد من آل مالكي بوداعه. وقبل ذلك ذكر سامي جمعه أن الضابط السياسي في السفارة الأميركية بدمشق الكولونيل الميجر ميد وضع سيناريو مأساة أنطون سعاده وحزبه وطلب من حسني الزعيم تنفيذ البند الأول منه.

وتتابعتْ الأمور يوماً بعد يوم

وشهراً بعد شهر

وسنة بعد سنة

لم يغب أثناءها عن بالنا نحن الرفاق أنه بعد شهر وستة أيام من إعدام سعادة نفّذ اللواء سامي الحناوي إنقلاباً عسكرياً، وقامت قوة بقيادة المقدم أمين أبو عساف والنقيب فضل الله أبو منصور باعتقال حسني الزعيم وتم إعدامه مع محسن البرازي. وما أن لجأت قيادات الحزب إلى بيروت حتى بدأت تخطّط لقلب نظام الحكم في سورية بالتعاون مع أحزاب وقيادات وشخصيات تقليدية. كانت نواة المؤامرة جماعة من قادة الحزب بقيادة العقيد غسان شديد الذي سحر جميع من عرفوه بشخصيته المرحة الفذة، وكانت خيوط المؤامرة

تقود إلى السفارة العراقية في بيروت، والملحق العسكري العقيد مهدي السمرائي بالذات.

هكذا بدأنا نستشم منذ عام 1956 رائحة إستعدادات مكثفة في لبنان للقيام بانقلاب في سوريا بالتعاون مع كميل شمعون. وقيل أن مجموعة قيادية تسلّمت خمسة آلاف قطعة سلاح، الأمر الذي لم يكن من الممكن التأكد منه، ولكنني عرفتُ كغيري من الرفاق ان الحزب افتتح في صيف 1956 معسكرات للتدرّب على الرماية والاشتباك بالسلاح الأبيض. وربما كان في هذا الإطار السري أن درّبنا الرفيق عطاالله على إطلاق الرصاص في غابة للصنوبر في منطقة بيت مري، وطُلب مني كغيري أن إطلق النار على هدف رُبط إلى جذع شجرة. كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي جرّبتُ إطلاق النار فما أن خرطشتُ المسدس، كما قيل لي، حتي «رَوْكَبَ» فاعدته إلى المدرِّب مع الشكر والإعتذار بأنني أجيد إستعمال القلم لا السلاح.

وعندما أحاول أن أسترجع ما حدث في تلك الأيام السحيقة في القدم، أظن أن «روكبة» المسدس في يدي وأنا في عز الشباب، لم تكن صدفة. ربما خفتُ أن أصيب تلك الشجرة الجميلة. هل كان ذلك السبب الأهم؟ لا أدري تماماً. ولعلني تذكّرتُ في البرهة التي قبضتُ على المسدس أن صديقاً في الكفرون دعاني في بدايات فتوتي للقيام برحلة صيد وأعارني بندقيته مقترحاً أن أجرّب حظي وبراعتي فكان أن قتلت عصفوراً هوى من غصن مرتفع إلى الأرض ممرغاً بدمه. ما أعرفه جيداً أنني أصبحتُ أنفر من السلاح منذ ذلك الوقت.

وأتهمتْ الحكومة اللبنانية سورية بتهريب أسلحة تنقل عبر المسالك الجبلية الوعرة على ظهور البغال إلى دير العشائر بحيث يستلمها شبلي أغا العريان، وهو من أنصار جنبلاط، على أن توزّع في الشوف وبيروت حيث تسلّم بعضها صائب بك سلام وسائر زعماء المعارضة. واقنع غسان جديد في تلك الأجواء المشحونة أحد زعماء عشيرة الدنادشة بالاتصال بالمقدّم عبد الحميد السراج مبدياً إستعداده لاختطاف غسان وتسليمه إلى المخابرات السورية مقابل مكافأة بقيمة خمسين ألف ليرة لبنانية. وبعد أيام من الموافقة على هذا الأمر تلقّى السراج الإشارة فأرسل معتمداً من جماعته في الشعبة الثانية ومعه القيمة المتفق عليها إلى مطعم في بيروت للإلتقاء بالدندشي. وما أن وصل إلى المكان المتفق عليه حتى وجد نفسه محاطاً بمقاتلين من الحزب فاعتقلوه وسلّموه إلى غسان جديد.

وكان من مكائد عبد الحميد السراج أن أرسل عزت مصطفى شعث للتظاهر ببيع المكانس قرب مطابع الحزب في بيروت التي كان يتردّد عليها غسان جديد فما أن وصل غسان المطبعة في الساعة الثالثة بعد ظهر 19 شباط حتى أطلق عليه شعث النار فأصابه ب12 طلقة وهرب إلا أن مرافق غسان طارده وتمكّن من قتله فبكاه صديقه سعيد تقي الدين، وقد نمتْ بينهما رفقة طريق وصداقة تجاوزت الأخوة. إعتبر سعيد أن عنفوان غسان ينبع من ثقته العميقة برفاقه وإيمانه بقضية كبرى تساوي وجوده ومن ذهنه المتوقد الذي لا يحرجه سؤال، ورأى تجربته حدثاً تاريخياً لا ينتهي بمأتم وبكاء. ولكن سعيد بكا في سهرة متأخرة، واستثارت دموعه في زمن العنفوان دموع الحضور.

واضطر الحزب أن يوقف موعد محاولة الانقلاب في سورية بسبب الهجوم على قناة السويس خوفاً من ان يظنّ ان هناك علاقة بين الحدثين. وتردّد في اواسط الحزب إن سياسة مصر وسورية هي التي فرضت على الحزب تحالفات تتناقض مع منطلقاته. وحين حدث تململ ضمن الحزب، قالت القيادة: ماذا نفعل؟ هل تريدون أن يتوقّف الحزب عن الدفا ع المشروع عن نفسه؟ نحن مستهدفون يا رفاق.

وإثر سلسلة من المحاضرات في الندوة اللبنانية دعانا صديقنا يوسف الحصني الي منزله لمناقشة جوانب من ثقافة لبنان السياسية. بدأ بقوله إن تفهّم الواقع المؤلم الذي يتعرّض له لبنان يقتضي أن ننظر إلى الأمور في سياقها التاريخي، وأفضل مدخل لفهم حقيقة ما يجري أن نحللّ الثقافة السياسية اللبنانية وأن ندقّق بما قال به كل من ميشال شيحا وشارل مالك، ولذلك إختار أن يقدّم خلاصة لرؤية شيحا لشخصية لبنان ودوره الحضاري تمهيداً لفتح باب النقاش، وأقترح أن يتبرّع كل منا بتقديم خلاصات مشابهة في الجلسات المقبلة.

وهذا ما تمّ الاتفاق عليه لياقة بعد جدل قصير قدّم لنا خلاله مشروباً روحياً حرّرنا من مكبوتاتنا وأزال الحواجز بيننا. وما أن إسترخت أجسادنا، حتى بدأ يوسف بتقديم خلاصته على أن يأخذ النقاش مجاله الحيوي مهما طال السهر. أصلح موقع جلوسه على مقعد مريح، شرب رشفة من الوسكي ولخّص مشروع شيحا الفكري من خلال الحديث عن محاضراته في الندوة اللبنانية بين 1948 ـ 1954 بقوله، «عندما توفي شيحا فقدنا ذخراً وطنياً يوم كان لبنان يبحث...عن ضرورة استئناف دوره الحيوي في خدمة الحضارة...باعتبار ان مسرح لبنان لا يقتصر على رقعته الصغيرة بل يتجاوزها إلى الكون بأسره»، وأضاف «أن لبنان موسوم بميسم البحر المتوسط فبات

مستقبلنا رهناً بالتضامن المتوسّطي فكم يجب علينا، وعلى سوريا ومصر معنا، أن نزود عن شخصيّتنا المتوسطيّة في كنف الجامعة العربية».

هنا توقّف يوسف عن الكلام ليس ليفسح المجال للنقاش، بل ليستعيد أنفاسه ويتابع كلامه حول جوانب هامة إعتبرها على ما يبدو في صلب تفكير ميشال شيحا مستعيناً باعداد من مجلة الندوة اللبنانية التي انتزعها من تحت كأس الوسكي وراح يقرأ منها عناوين وعبارات منها أن اللبنانيين يتميّزون منذ البدء عن سائر المعمورة، ولبنان في ذلك حفيد الفينيقيين ووريثهم المباشر والشرعي، فمع أن فينيقيا تمتد من الكرمل إلى أرواد «إنما الذي أفضى باللبنانيّين إلى مجاراة أسلافهم الفينيقيّين إنما هو القحط الذي مُني به جبلهم. بينما نرى أن طيبةَ جبال العلويّين، في الشمال، قد عوّدت النصيريّين عيشاً متراخياً تراخي عيش الفلسطينيين في الجنوب» لم يعد بإمكان نادر أن يتحمّل مثل هذه التعميمات الضحلة فصرخ مقاطعاً: هذه مفاهيم مصطنعة ووهمية لتبرير الأمر الواقع القائم على إعتبارات طائفية وفي خدمة التجارة وتثبيت علاقة لبنان بالغرب. إن شيحا يستخدم في هذه الحالة مفاهيم جاهزة، وهو لا يعرف كما يبدو من كلامه ما هو واقع جبال العلويين التي أعرفها ونشأتُ فيها وأكرّر زياراتي إليها. من الخطأ القول ان العلويون إعتادوا التراخي وهم المعروفون بان لهم تاريخ طويل من النضال ضد الظلم، وإذا كان هناك أي تراخ بين الفلاحين في بعض الفترات التاريخية فيعود إلى النظام الإقطاعي الاستبدادي الذي سلبهم من أملاكهم وحقوقهم وحرياتهم. وإذا كان بيننا من يعرف فلسطين جيداً، فيستطيع أيضاً أن يظهر ضحالة هذه الإدعاءات.

وترتفع الأصوات بين إحتجاج وموافقة، فيرجوهم يوسف أن ينتظروا ريثما ينهي تلخيصه وسيفسح المجال لمختلف الأراء: يا جماعة، دقيقة من فضلكم، عندنا سهرة طويلة نناقش بقدر ما تريدون. لازم يكون واضح أن شيحا ليس قومياً أو حتى وطنياً بالمعنى الضيق لهذه المصطلحات التي نتعلّق بها كأنها منزلة من عند ربنا. شيحا يعتبر القومية مظهر جماعي من مظاهر حبّ الذات. يعني الأنانية. هذا تماماً معاكس لمفاهيم القوميين العرب والسوريين القوميين. يرون القومية تضحية بالذات من أجل الأمة والوطن. هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. شيحا يقدّم تميزات هامة. حب لبنان عنده ليس التمسك بالجذور بل الهجرة. لهذا السبب يعتبر ان أكثر اللبنانيّين موهبةً عيشهم بعيداً عن أرضهم، وهم ينشطون في الخارج ومع الخارج. هذا هو سرّ ازدهار لبنان، وهو في قلب الحضارة المتوسطيّة على اختلاف أشكالها.

سكت يوسف لبرهة يستجمع أفكاره، ولكنه أضاف تواً خوف أن تفلت الأمور من يده: لهذا، يا شباب، ليس صدفة أنه كُتب علينا ان نكون مُتعدّدي اللغات. ليس في وسعنا أن نعيش بلا اغتراب. الهجرة تحت كل سماء هي سرّ النهضة اللبنانية. نريد أن نحرّر سياستنا الإقتصادية من أية قيود. لنتركُ اللبناني يسافر على هواه فهو يَنشدُ المخاطرة والمغامرة والاغتراب. موارد لبنان ليست فيه. إنها في أقاصي المعمورة.

هنا إعترض عادل: أنت تفترض أننا لا نعرف أراء شيحا. خلص تلخيص. الرجل مفهوم لنا جميعاً. قرأنا محاضراته من عام 1948 حتى وفاته عام 1954، رحمه الله، ونفهم أنه أراد ان يردّ على أنطون سعادة في محاضراته العشر. شيحا مهووس بالتجارة وهو يمثّل الثقافة المركنتالية في حرفيتها، والحرية عنده في أساسها اقتصادية، ومركز إهتمامه ليس الانسان، بل التجارة.

وأضاف نادر قائلاً: أنا أوافق على ما قال عادل. ميشال شيحا رجل صريح إلى أقصى الحدود، وأنا أقدّر كلياً وبإعجاب وإحترام صراحته وأعرف كيف أتعامل معه دون مشكلة. ولكن ما لا يعترف به، وربما دون قصد، أنه يحارب العقائديين من موقع عقائدي مضاد. قال لنا بصراحته المعهودة أن في لبنان هناءة العيش، شرط ألا يأتي العقائديّون ودعاةُ الإصلاح فيفسدوا أخيراً هذه الهناءة. عبارة له تعرفونها جميعاً وكثيراً ما نردّدها كأنها كلام منزل. نسي هو وينسى الكثيرون من أتباعه والمعجبين به أنه هو أيضاً يحمل عقيدة. الرجل واضح لغيره أكثر مما هو واضح لنفسه، وبوضوح مشابه نقول له أنه ليس من هناءة في لبنان في ظل النظام القائم ولا بد من تغييره من نظام طائفي إلى نظام علماني يتساوى فيه جميع المواطنين دون تمييز. هنا جوهر الحرية الانسانية وهذه هي الديمقراطية بعينها.

أيضاً إستجمع نادر أفكاره وتابع كلامه كي لا ينقطع حبل تفكيره: يا إخوان، إنني أرى ان النظام السياسي الطائفي الذي يقوم على التمييز هو المشكلة، وهذا ما أخافه وأحاربه. في البلد قلق عميق ومخاوف مما قد يحدث. هناك مَنْ يصوّرون لنا أن تنّيناً يهاجمنا من الخارج. أنا أقول أن التنّين هو في داخلنا كما هو في الخارج، في صميم نفوسنا ونظامنا السياسي، في عصبياتنا الطائفية. من زمان حذّرنا بطرس البستاني وجبران وأمين الريحاني من ضيق أفق الطائفية. اللبنانيون بين أقل الناس تديناً وأكثرهم طائفية.

وسكت نادر، أغمض عينيه، وغرق في مقعده. وقالت ليلى: ليس لدي مشكلة مع التجارة، ولكنني أرفض تحويل لبنان إلى مرفأ ومطار يصدّر بشراً ويستورد سلعاً. اللبناني نفسه تحوّل إلى سلعة في ظل هذا النظام. ولكن من ناحية أخرى، أنا مسرورة أن ميشال شيحا إعتبر إسرائيل خطراً وعنصرية ورأى مستقبل لبنان، حيال اسرائيل، مستقبلاً حالك الجوانب. لم يكن في حقيقة الأمر مطمئناً لمصير البلد. أما المزيّف الأكبر فهو شارل مالك. يتحدث في الظاهر عن حقوق الانسان في الوقت الذي يقمع الحرية الثقافية حيث يتمكّن. تأمل بما حدث في دائرة الفلسفة التي كان يرئسها في الجامعة. تخلّص من كل إستاذ قد يخالفه الرأي.

وبشدة إعترض يوسف متهماً ليلى بأنها، كعدد كبير غيرها، لا تفهم شارل مالك على حقيقته، فأستغل نادر الفرصة ليقول أنه ليس لشارل مالك مؤلفات هامة كما يفترض الكثيرون. لديه خطب من موقع سياسي متحيّز للغرب، وهو صنيعة الغرب. هم الذين أعدّوه وبرمجوه وسوّقوه ليلعب دوراً في الحرب الباردة، وإنني أرى فيه خطراً على لبنان والمنطقة، وسيسبّب للبلد آلاماً مبرحة.

بهذا شعر يوسف أن الأمور تجاوزت الحدود المعقولة، فقال بغضب، «أعتقد أننا نظلم أهم فيلسوف عربي منذ إبن خلدون»، فقاطعه نادر، «قرأت كل ما تمكّنت من الإطلاع عليه من كتابات مالك وتتلمذت عليه لفصل كامل. أقول بكل إنصاف إنه يوظّف الفلسفة في خدمة سياسة الحرب الباردة وهو طائفي لا يفهم المنطقة. يفخر أنه قرأ هيدغر

وتتلمذ عليه، لكنني لا أرى أثراً لأيّ تحوّل إيجابي في فكره. وصحيح أنه تأثر بكركيغارد، إنما شكلياً فحسب وفي خدمة مفاهيمه الدينية».

وتوقّف نادر عن الكلام فتابع حين شعر أن يوسف يتململ غضباً في مقعده، «واضح أنك لا توافق على كلامي وأنا لا أريد أن أجرح عواطفك. هات فهّمنا ما هي إسهامات شارل مالك الفكرية»، فأقتنص يوسف الفرصة ليعطينا درساً في فلسفته مستعيناً بدفتر يومياته التي حدّثهم عنها وأعلن أنه سينشرها في كتاب في المستقبل ووضعه أمامه بين أقداح الوسكي: ان القيم الأخيرة في نظر مالك هي ثلاث: العقل، والحرية، والمحبة. منها تتفرع الفضائل الانسانية جميعاً. لبنان في مداه الحضاري وريث تقاليد العقل، والحرية، والمحبة. أنه الوريث الوحيد في آسيا كلها، ويتميز عن بقية البلدان العربية بانه لا يهدف إلى غير ما هو، وانما يهدف إلى ان يكون فعلاً ما هو. ان النظام الديمقراطي الذي ننعم نحن به في لبنان، هو النظام الأمثل لحياتنا ومستقبلنا. لبنان واقع خاص إذ يحضن القيم الحضارية المستمدة من المسيحية، والنهضة الفكرية والأدبية العربية في القرن التاسع عشر، هي نهضة لبنانية، والذين تصدوا للطائفية بروح علمية هم من المسيحيين، ومن بينهم حليم فياض الذي كتب مؤخراً إطروحة بغاية الروعة.

هنا ضحك نادر من أعماق قلبه وشاركه عادل الضحك، فاستغرب يوسف متسائلاً: ما المشكلة؟

وببرودة أجابه عادل بسؤال: يوسف، هل تعرف من هو حليم فياض؟

ـ بصراحة لا أعرفه شخصياً، ولكنني قرأت إطروحته وأعجبتني جداً. أنصح الجميع بقراءتها.

ـ لمعلوماتك يا عزيزي أن حليم فياض سوري قومي، وهو ليس مسيحياً كما تظن. لا أدري كيف استدليتَ على أنه مسيحي.

ـ من إسمه

أجاب يوسف فصحّح نادر: إنه درزي يا عزيزي وهو من أبناء النهضة التي تخلّيت عنها.

شعر يوسف بالحرج كما بدا واضحاً من تغيّر آلوان وجهه، ولم يرد نادر مزيداً من الاحراج فأضاف: قلت يا عزيزي أن النهضة الفكرية والأدبية العربية في القرن التاسع عشر، هي نهضة لبنانية، والذين تصدوا للطائفية بروح علمية هم من المسيحين. قد يكون ذلك صحيحاً إلى حدّ ما، ولا يجوز ان تنكر فكر عبد الرحمن الكواكبي التأسيسي. وفي الوقت الذي تنكره هو وغيره تنسى وتتجاهل أن المؤسسة المسيحية الطائفية رفضت معتقدات المفكرين المسيحيين من أمثال بطرس البستاني وشبلي شميل وفرح أنطون وجبران وأمين الريحاني وغيرهم. أنتَ وشارل مالك وميشال شيحا ليس تتمة لهؤلاء المفكرين المسيحيين. أنهم بدايات الفكر العلماني لا الفكر الطائفي.

وتابع يوسف متجاهلاً تلك التساؤلات مستعيناً بيومياته أيضاً: «المهم في الأمر أن لبنان، من حيث هو لبنان، لن يُغلب. ملكوته ليس من هذا العالم، وقوات الجحيم لن تقوى عليه، وانا ممن يقولون بكل فخر أن لبنان يحتضن شيئاً فريداً في الشرق، شيئاً مقدساً، شيئاً أزلياً خالداً».

ويقاطعه نادر «هذا الكلام لا يخدم لبنان لأنك تغمض عينيك عن مشكلاته»، فيرد يوسف، «كان لبنان في تاريخ العرب الحديث فاتحة كتبت حروفها بماء الذهب. لبنان وطن من أقدس الأوطان فيجب أن نضعه في قلوبنا ونحميه بجفون عيوننا. وإذا ما صُلِبَ في المستقبل

لن يكون ذلك بسبب ما يمثله بل على أيدي بعضنا وأيدي الطامعين به، وإذا ما مات لن يكون موته سوى موت الجسد لا موت الروح التي تحيا برجاء القيامة». ويجيب نادر، «هذا كلام متيفيزيقي لاهوتي لا علاقة له بالتاريخ والمجتمع».

ـ أنت لا تعرف تاريخ لبنان

ـ هذا هو تماماً اسلوب القمع الذي يستعمله مالك في صفوفه. تذكّر نحن ضيوف في منزلك.

وضحك يوسف بمرحه الذي نعهده فيه حين يواجه أزمة محرجة، ثم هدأ واسترجع وقاره ثم قال: نادر، يا عزيزي، لا يجوز الاستخفاف برجل مثل شارل مالك. إنه حياة زاخرة بالمعرفة والحركة والفعل، هو في آخر الأمر معلم لنا ورسول صادق جاء يهدينا سواء السبيل.

ـ رسول مَنْ؟ الله أم أميركا؟

ـ عدت للمزح !

ـ صحيح. لا بد من مقابلة المزح بمزح، والجد بجد. تتكلّم عنه كما لو كنت تلميذه، أنت تسيء إلى نفسك.

ـ مِنْ نِعَم الله عليّ انني تتلمذتُ على شارل مالك. أفتخر بأنني تتلمذتُ على أعظم قمة في تراثنا الفكري منذ ابن رشد ـ الموضوع بالنسبة لي ليست مسألة حب أو كره. أنني أرى فيه زيفاً. أقدّر إبن رشد وإبن خلدون قديماً، وأحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني والكواكبي وشبلي شميل وفرح أنطون وأمين الريحاني وجبران وطه حسين وأنطون سعادة حديثاً.

ـ هؤلاء يا نادر على راسي وعيني، إنما مالك يختلف عنهم جميعاً بأنه يهزّك في الأعماق فيجعلك تجدّد حياتك وتصبح إنساناً خلع إنسانه القديم ولبس إنسانه الجديد في ولادة ثانية من فوق.

ـ أنت يا عزيزي تتكلّم لغة دينية إنجيلية تبشيرية.

ـ وأنت يا نادر أية لغة تتكلم؟

ـ أنا طالب في علم الاجتماع، وأتجنّب التحدث بلغة المطلق. أطمح أن أتحدث بلغة ما هو نسبي وبدءاً من المجتمع والانسان. بداياتي هي الانسان والمجتمع وهما في حالة تغيّر دائم.

ـ المهم اليقين في نهاية المطاف.

ـ المهم عندي يا عزيزي يوسف هو التساؤل. أفهم الحياة على أنها سؤال، ومشكلتي مع مالك أنه يتكلم من فوق. لا يناقش بل يفرض رأيه فرضاً. إسمعْ. إنه رجل سلطوي مستبد حتى عندما يتكلم عن الحرية، بل خصوصاً حين يتكلّم عن الحرية.

ـ كويس لنأخذ مفهومه للحرية. في نظر مالك الحرية لا تعطى من انسان إلى انسان. انما تعطى من فوق للانسان، من الله، ولذلك لا يحق لغير الله ان يسلبه منها. ان الحرية هي أقدس الاشياء وبها يوجد كل شيء وبدونها لا يوجد شيء، والحقيقة مطلقة وموجودة، والانسان الفرد خير ما في الوجود.

ـ شارل مالك عرف إنطون سعاده شخصياً، وأنت تتلمذت بالسابق على أنطون سعادة وعملت معه جنباً إلي جنب، وكنتَ في ذلك الحين تشعر تجاه سعاده ما تشعر به تجاه مالك. إذا كانت الحرية لديك حقاً أقدس الأشياء، لماذا لم يحتج أي منكما على اعدام سعاده في محاكمة صورية إستغرقت ساعات قليلة بعد القبض عليه؟ أعدم دون محاكمة بعد أشهر من صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. لماذا صمت مالك؟ ولماذا صمتك أنت حتى الآن؟ كيف تفسّر لنا هذا الصمت؟

تعكّر وجه يوسف. هبط في مقعده كما لو أراد أن يهبط إلى قا ع نفسه ويحتمي بها، ثم قال بتردّد وعتب: تريد أن تحرجني يا نادر؟

ـ لم أقصد إحراجك. أردت حقاً أن أعرف لماذا. ثم لماذا تلجأ لمثل هذه العواطف الملتبسة؟

ـ كل ما في الأمر أنك تريد أن تحرجني لتسجّل هدفاً.

ـ أعتب على شارل مالك وعليك أنتَ بالذات لأنك لا تترك فرصة للتغني بالحرية والإفتخار بدوره في وضع الإعلان العالمي لحقوق الانسان الذي تمّ تبنيه في العاشر من كانون الا ول عام 1948. بعد سبعة أشهر بالذات سكت مالك كما سكت أنت عن إعدام سعادة.

ـ مالك يؤكّد على هوية لبنان في محيط يتنكّر لها، والحرية تطبع لبنان بطابعه المميز.

ـ تريد أن تسمع شيئاً عن مهازل مالك الأخيرة؟ عرفّه صديق له إلى شاب سوري فما أن ظن ان الشاب علوي المذهب كما ظننتَ أنت أن حليم فياض مسيحي حتى سأله دون مقدمات، «متى تنفصلوا عن سوريا؟».

ـ إنه يمزح. لا شك

ـ أو ربما يتمنى تفتيت البلد. لمصلحة من أراد التفتيت؟ ولماذا هذا الكره لسوريا، وهو البلد الذي ولدت فيه؟ أنت كنت تنظر لأنطون سعاده كما تنظر الآن لشارل مالك، وأختلفت معه حول هل يكون للحزب رؤية فلسفية أم يكون لكل عضو فلسفته الخاصة به ضمن الحزب. صحيح أن يكون الإنسان سيد نفسه، وأنا أومن أن أكون سيد نفسي فلا أمتثل دون إقتناع، ولكن ماذا نفعل حين نعمل من ضمن حركة سياسية؟ صحيح إن تعدّد الأصوات شرط أساسي، ولكن الإنسجام ضروري أيضاً كما في أية سيمفونية عظيمة.

ـ نادر، بلا خطابات. هل ترى في الحزب أي خطأ؟

ـ أرى أخطاء، نعم.

ـ مثلاً.

ـ للحزب أيضاً فكره المطلق في بعض الجوانب وأنا أقول بالنسبية. يُقال في الحزب عن الذي يخرج من صفوفه بأنه «سقط على جانب الطريق» وتجري مقاطعته. لا أوافق على ذلك. هذا خوف من حصول نقاش داخل الحزب. أفضّل عندما يخرج عضو من صفوف الحزب أن نعترف أننا خسرنا طاقة انسانية ونتساءل لماذا خرج وماذا يمكن ان نفعل لاستعادته والاستفادة من أرائه؟ من يخرج من الحزب لا يسقط على جانب الطريق، بل يسلك طريقاً أخرى، وهذا حق من حقوقه. دخل طوعاً وخرج طوعاً. هذا كل ما في الأمر.

ـ هذا تماماً ما حدث لي

ـ أنت طُردت من الحزب ولم تخرج

ـ كل خروج طرد، وكل طرد خروج

ـ صحيح، أتفق معك كلياً

ـ سيأتي وقت قد تخرج أنت فيه من الحزب

ـ قد يأتي، ولكنني لا أستطيع أن أتصوّر أنني يمكن أن أسلك طريقك. وأعترف أن هناك مشكلة حرية داخل الحزب.

هنا شعرتْ فيفيان بملل، فاعتذرت وخرجت بصحبة علي، وتدخل هاني في الحوار قائلاً: أميركا هي التي جلبت مالك وزيراً ليفرض حلولها، ليطبع البلد بطابعها الخاص، ولمقاومة التيار الناصري. أرادت أميركا وزيراً يلبس قناع الفيلسوف المنقذ. تريد الحقيقة؟ أنا لا أراه منقذاً. على العكس، أرى أنه سيسبّب للبنان مشاكل لن نتحرّر من آثارها لزمن طويل.

وضحك يوسف بإستخفاف قائلاً، «عبد الناصر إستنجد بالاتحاد السوفياتي، فلماذا لا يستنجد مالك بأميركا؟»، فرد هاني، «لا أظن أن مالك إستنجد باميركا. هي التي أعدّته لمثل هذه المهمات وعملت على تسويقه فاصبح فيلسوفاً دون أن يؤلف كتاباً فلسفياً واحداً. شئتَ أم أبيتَ سيفعل ما أرادوا له أن يفعل، وسيلعب دوره حتى النهاية. وهم الذين سيتخلّون عنه عندما يستهلكونه.

ـ سيكون دوره لمصلحة لبنان

ـ لا أظن. أشم رائحة خراب. سيتحوّل لبنان إلى ساحة حرب.

ـ أنت متشائم

ـ كيف تتصوّر مصير لبنان في المستقبل؟

ـ الإحتمالات عديدة، ولكنني مقتنع أن الإزدهار سيستمر إذا لم يتدخّل العقائديون.

ـ من حق العقائديين أن يتدخلوا. ثم هل تنكر أنك أنت عقائدي؟

وتدخل عادل قائلاً: يبدو لي أننا عدنا إلى تخوفات شيحا فارادنا أن ندير ظهرنا للبر ونواجه البحر. هناك الكثير ممن يفضّلون أن يديروا وجوههم وصدورهم لاستقبال شروق الشمس من وراء الجبال الشاهقة. تلك هي البداية. أما شيحا وحبشي ومالك فيخافون الشروق ويتأملون الغروب في محاولة يائسة لمطاردة الأفق. إن الغرب هو الذي فتّت الوطن الكبير إلى أوطان صغيرة ضعيفة لا تستطيع أن تكون سوى تابعة. نخترع هويات حضارية وهمية ونعيد تفسير التاريخ ونحمل أسماء جديدة لأ نفسنا. لا أفهم كيف تبدلّت الأسماء. بعد أن كان يحكمنا فخر الدين والأمير بشير، أصبح يحكمنا شارل وإميل وكميل، وها بيار وريمون يتنافسون على السلطة. أسماء خفيفة لا وزن لها كالريش تطير في الهواء. نبحث عن أية تسميات تجعلنا نبدو مختلفين ومتميّزين لنوهم أنفسنا أن لنا حضارة خاصة بنا دون الآخرين. نريد أن نرسّخ في الاذهان الاعتقاد الوهمي ان هناك «ثقافة لبنانية» متميزة ومناقضة لثقافة المنطقة بأكملها ومتقدّمة عليها.

وانتبه نادر أن الساعة تجاوزت منتصف الليل وان بعض الحضور أصابهم التعب في مقاعدهم فانفضّت الجلسة دون تحديد لموعد آخر وعلّق يوسف حصني ونحن في طريقنا إلى الخارج: العرب لا يأخذون شيئاً بجد. حتى الحرب التي هي مسألة موت أو حياة لا يأخذونها بجد. هكذا تضمحل الشعوب.

واكتفي نادر أن هزّ رأسه وغادر مع آخرين بانتظار جولة أخرى.

خطر لي، وأنا في فسحة واسعة بين النوم واليقظة، أن أقول لنفسي:

كانت الرواية حلماً أو كابوساً،

أريدها حلماً وكابوساً معاً.

وحلمتُ انني أبحث عن كنز في مكان ما داخل نفسي.

نقّبتُ عميقاً، وفجأة انفجر بي لغمٌ.

كان مطلع الخمسينات زمن الوعد،

فإذا هو قنبلة

والوطن حقل آلغام.

وكان ان رسخت هذه القناعة في ذهني بعد حوار مع صديقي عادل، فقال لي: في الواقع أننا نمارس عملية من خداع الذات. هذا ما نشأنا عليه في المجتمع.

وصمتنا كما لو إكتشفنا سراً. ولا بدّ أن عادل كان يفكّر بما أفكّر فقال أنه يخدع نفسه حين يظن أنه مستقبلي لا يهتم بالماضي والتاريخ، فأخذ يتكلّم بحميمية عن ماضيه بطلاقة: تفاجأنا بزيارة قام بها عميد الدفاع لمديريتنا عند الإعداد للانقلاب في سوريه وسأل الرفاق دون مقدمات تمهيدية: من منكم غير مستعد ان يموت؟

سيطر جو من الوجوم وطال الصمت فكرّر سؤاله دون أية إيضاحات، فما كان من عادل إلا أن رفع يده قائلاً: أنا لا أخاف الموت، ولكنني أقول بصراحة أنني غير مستعد أن أذهب إليه دون أن أعرف دواعيه وأسبابه ونتائجه. من حقي أن أعرف لماذا أضحي بنفسي.

بحزم طلب العميد منه ان يخرج من قاعة الاجتماع تواً، فغادر. وبعد أن إنفض الاجتماع قالت إحدى الرفيقات المتحمسات لعادل، «أنت جبان» وأكملتْ سيرها لا تنظر إلى الوراء. وهذا ما قاله له عدد من الرفاق الذين حضروا الجلسة، غير أن أحداً لم يزعزع ثقته بنفسه وبأنه كان شجاعاً في مواجهة عميد الدفاع في الحزب فأجابهم بعد أن هدأ الجو: واضح أن لي فهماً آخر للإنتماء الحزبي. لا أقبل الإمتثال الأعمى؟ تبلّغوا تعليمات القيادة وبلّغوا. أين حقي بالنقاش وهل المطلوب أن أتخلّي عن واجب التساؤل؟ هذا وضع لن أقبله، ولن يستمر.

ثم لا أدري كيف انتقل الحديث في جلستنا تلك من الكلام عن سلطوية قيادات الحزب إلى سلطوية الأب، فاعترف عادل أنه نشأ يخاف والده، وفي لحظة صدق وعفوية، وصفه بانه كسّار عظم، متجبِّر يحمل في نفسه مجموعة من التناقضات، منها أنه يميل للاستغلال من ناحية، ومساعدة الآخرين والغيرة والشهامة حتى في تعامله مع أعدائه من ناحية أخرى. كان يشعر أن الزمن ظَلَمَه، فاراد ان يحقّق نفسه من خلاله إبنائه. وكثيراً ما كان يفخر أمام معارفه أنه «علّم إبنه» فأخذ منه شهادته وبروزها ووضعها في صدر الدار ليثبت ذلك، ولكنه إشتهر أيضاً بالقسوة وهدّد يوماً ان يذبح إبنته لأنها إستلمت رسالة غرامية.

وكان بين أقسي ما إعترف به عادل في تلك الجلسة أنه كان في يوم من أيام الصيف يشتغل مع أبيه في بستان الليمون، وعندما إنحنى والده ليقطف رأس بندوره، تخوّف أن يكون للمعول الذي يحمله إرادة مستقلة عن إرادته هو، فماذا لو هوى بنفسه وبكل قوته على رأس أبيه؟ هذا ما لم ينسه عادل مما ضاعف من إحساسه بالذنب فهو يعرف جيداً زنه يحمل محبة عميقة لوالده ويعترف بالتضحيات التي قدّمها من أجله. وعندما درس عادل فرويد فيما بعد حاول أن يحلّل نفسه وكيف يمكن ان تكون خطرت له فكرة إستقلال إرادة المعول عن إرادته بقتل أبيه فرفض نظرية عقدة أوديب واقتنع بدلاً من ذلك أن السبب قد يعود إلى نفوره من النزعة الاستبدادية مما ولّد لديه رغبة بالتمرد على السلطة.

هنا توقّف عادل عن الكلام. كاد أن يبكي. ضبط نفسه واعترف بهدوء أنه توصّل إلي قناعة بأن والده مَحَقَ شخصيته خاصة بعد أن أخذ يقارن بين شخصيته وشخصية صديقه فوزي ويحلّل سرّ تولّعه واعجابه به. وبمرور الوقت، استنتج أن سبب تولّعه بصديقه هذا طيلة

ذلك الوقت يعود إلى أن فوزي كان يملك ما لا يملكه هو من مزايا الجرأة والمغامرة والارادة القوية المستقلة. نظر إليه على أنه شجاع لا يهاب المخاطر مهما كانت بينما إعتبر نفسه جباناً إن كان في مجابهة أبيه أو الصيد أو سرقة بساتين الجيران أو التعامل مع الفتيات. وإنتهى الأمر بمقتل صديقه فوزي بعد أن شاع عنه أنه عشق فتاة لم يكن يتردّد في التسلل إلى غرفتها بعد أن يلجأ أهلها للنوم. وبموته أعلنت صديقته الحداد عليه ونذرت نفسها أن تظل عزباء طيلة حياتها.

لم يسبق لي أن سمعتُ عادل يتكلّم عن اسراره بهذه الصراحة فذكّرتني تجربته برواية موبي دك التي أحببتُ فيها بين أكثر ما أحببتُ شخصية الرجل البدائي كويكيق الذي رتّب موته وحمل إلهه معه وجعل من جسده كتابه الذي طفا فوق الماء في قارب صغير حمله إلى العالم الأخر فأحسّ أن نهايته لا نهاية لها وأن الأمل هو آخر ما يموت في النفس البشرية.

وظلّ عادل صامتاً كأنه أفرغ كل ما في نفسه من إعترافات ولم يعد لديه ما يضيفه، أو ربما شعر أنه تجاوز حدوده ولن يقوى على مزيد من التنقيب داخل نفسه فيكتشف ما لا يريد أن يكتشف. يكفيه ما توصّل إليه من مجابهات مع نفسه وأبيه والآخرين. أما أنا فأحسستُ أن صديقي وعى سرّ علاقته بأبيه وتولّعه بصديقه فوزي فاصبح يمتلك الجرأة الكلية لمزيد من الاعترافات. وفعلاً، قال لي ان والده أصبح يقلق على مصيره ويخاف من الموت لإحساسه بنهاية سلطته على أفراد عائلته وأقربائه. ومهما بلغت توقّعاته من أولاده بعد أن تقدّم في العمر، إلا إنه لم يتمكّن إن يعترف بعجزه وأصرّ أنه ليس بحاجة إلى أحد، وأسف ضمنياً أنه ليس هناك مَنْ لا يحتاجون إلى نصائحه.

عند هذا الحد، وبعد صمت قصير، طرح عادل عليّ سؤالاً لم اتوقّعه: أعرف كيف يصبح الإنسان ضعيفاً وجباناً، ولكنني لا أفهم كيف يتحوّل إلى متعاون وخائن؟

ـ لماذا هذا السؤال؟

ـ كدتُ يوماً أن أصبح متعاوناً مع المخابرات. قبضوا علي وحقّق معي شخص معروف بشراسته. أصررت انني لستُ جباناً وأصر المحقّق على التهديد بالتعذيب النفسي والجسدي. وكدتُ أن أرضخ، إلا أن والدي حضر في الوقت المناسب ليتدخّل بإطلاق سراحي حاملاً من الزيت الفاخر هدايا لعدد من الوسطاء فلم أصدّق عندما اطلقوا سراحي. ولما أخذونني إلى مكتب المحقق قال لي، «لولا الزيتون، لفككت رأسك عن جسمك».

وفي طريق العودة من البحر، تابع عادل حديثه معي عن أيام زمان حين كان الاقطاعيون يملكون القرى والناس بما فيها وينامون مع بنات فلاحيهم وزوجاتهم فكانت لهم منهنّ أولاد وبنات، وأضاف تجاوباً مع تداعيات في نفسه أن من بين أكثر إيجابيات الحزب تجاوز الطائفية والتحرّر من الإنتماءات التقليدية. وبقينا في الحزب أم خرجنا منه، هذه رفقة تدوم إلى الأبد وهذا إنجاز كبير في مجتمع مصاب بالأحقاد والتمزق.

عند هذا الحدّ ذكّرتُ عادل ببيت من أغنية يعدّها زكي ناصيف، «العشب عنا يباس ودبلت الأزهار»، وفكّرتُ بقدوم فصل الخريف فقلتُ لنفسي إن الشمس اصبحت تتأخر في المغيب، ولكن مهما تأخرت فلا بدّ أنها ستشرق صباح اليوم التالي.

***

ادركتُ بحدسي أن رؤى فتاة محتشمة تعرف حدود اللياقات، وتثبّتُ من صحة انطباعي الأول هذا بعد أن تعرّفتُ إلى عائلتها كما تعرّفتْ هي أيضاً إلى عائلتي ونشأتْ صداقة بينها وبين أختى. تلك كانت رؤى التي رحلت مع أهلها إلى أميركا بعد مرور سنوات قليلة على تعارفنا، وهاجر معها شيء من نفسي.

كنا نتحدث في كتابات جبران ومخيلته المتحرِّرة من القيود كما لو كانت غيمة ركبت فرس الريح، ولغته التي تشبه لغة الماء فتنسال من نبع قلبه وتترك نفسها تتدفّق متخذة شكل الأودية العميقة والقمم الشاهقة. وقبل أن نجر أ على الكلام عن الحب، تساءلنا عن معنى المحبة عنده وبحثه وراء ما كان محجوباً عن الانظار ومجهولاً وصامتاً وسط ضجيج العالم. وحين تحدّثنا عن هجرتها المرتقبة إلى أميركا، ذكرتُ أن جبران هاجر صغيراً وبقي طيلة حياته يحلم بالعودة إلى وطنه، وكم خاف أن يكتب سطراً على الرمل عندما ينخفض المدّ ثم تأتي الأمواج لتبعثره كأحلامه في مختلف الاتجاهات.

قرأنا معاً مقالة جبران «مدينة الماضي» واستوقفنا حديثه عن «أديان أقامها اليقين ثمّ هدمها الشك»، والسفر من مدينة الماضي إلى

مدينة المستقبل. وسحرتنا القطعة التي كتبها حول يوم مولده وهو في الخامسة والعشرين من عمره منذ خطّته يد الزمن كلمة مبهمة ملتبسة في كتاب هذا العالم الغريب.

وشعرنا كما لو إكتشفنا لعبة طريفة مارسناها كطائر إكتشف سرّ الطيران لأول مرة، فقد توقّفنا ملياً عند مقالة «مات أهلي» واستعدنا ترتيب بعض أجزائها المبعثرة، وأعدنا صياغتها كما شئنا نحن في ذلك الوقت لا كما أراد هو في زمن آخر:

لو كنتُ مضطهداً بين قومي المضطهدين،

لكانتْ الأيّام أخفَّ وطأة على صدري.

لو شاركتُ أهلي بالأسى والشّدة

لشعرتُ بتلك التعزية التي تولد من رحم الموت...

ولكنني لستُ مع قومي المضطهدين،

السائرين في موكب الموت،

بل أنا ههنا وراء البحار السبعة

أعيش في ظلّ الطمأنينة وخمول السلامة.

لو كنت سنبلة من القمح،

وثمرة يانعة في بساتين بلادي

وطائراً في فضائها

ولكنني لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا ،

ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان

أو طائراً أضاع رفيقته.

هذه هي نكبتي الصامتة

نكبة بلادي الخرساء

ومأساةٌ بغير أناشيد وشهادة.

لو ثار قومي على حكّامهم الطغاة

وماتوا متمردين

لقلتُ إن الموت في سبيل الحرية

وفي ساحة القتال

لأشرف من الحياة في ظلال الإستسلام

ولكن لم يمت أهلي متمرّدين

فانقرضوا مستسلمين

وماتوا صامتين

جائعين في الأرض التي تدّر لبناً وعسلاً

مات أهلي وأهلكم أيها السوريون،

فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم يمت منهم

أنا غريب في هذا العالم

وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي

وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا

وتحملني إلى وطني.

كانت تلك بين أكثر أيام حياتي ولعاً بالكتابة، وسرني أن رؤى شاركتني هذا الولع. وأعجبتنا محاولة إعادة كتابة مقالة جبران فليس

من مبدع نخاف أن نعيد صياغته، ولكنني من ناحية أخرى بدأتُ أخاف أننا نتهرّب من مواجهة المشاعر التي تستيقظ في نفسي وربما في نفسها أيضاً. بهذا الإحساس لم يعجبني كثيراً ما كتبتُ لها في دفتر مذكراتها، إلا أنها أحبتْ تلك القطعة وقالت أنها أفضل ما كُتِبَ لها، وسرّتني سرورها بها. هذا يكفي، قلتُ لنفسي، وردّدتُ بصمت كي لا تسمعني: ما مصير دفترها وحقول الكلمات؟

وقبل الحديث عن المصير، أريد أن أخبركم عن لقاءاتنا الأولى. زرتُ ضيعتها بدعوة من قريب لها لحضور عرس، وكانت هي نجمة مضيئة في تلك السهرة الصاخبة. رقصنا الدبكة في الساحة الصغيرة على ألحان الطبل والزمر، فاستيقظتْ في نفسي نخوة الطفولة في الكفرون ودبكتُ، لاستجلب إنتباهها، دون إنقطاع مسلِّماً نفسي كلياً

لإيقاعات إلحان شرّشت في الجسد. وبجرأة إستغربتّها رؤى كما إستغربتُها أنا، إخترقتُ صف الدبكة لأفصل بينها وبين أخيها، ومسكتُ بيدها فابتسمتْ. تفنّنتُ، من أجلها، في رقصة تعلّمتها في الكفرون منذ بدايات الطفولة حتى أنها أصبحتْ جزءاً من مكوّنات جسدي يطيع أقانيمها وطقوسها كما تفعل أغصان الأشجار في علاقتها بالريح.

وخرجنا من حلقة الدبكة لنقف جانباً ونتكلّم. سألتني أين تعلّمت الدبكة فقلت في الكفرون. واستغربتُ أنها دُهشتْ لدى سماع الخبر فخطتْ قليلاً إلى الوراء ثم تقدّمتْ خطواتٍ نحوي. بل أقتربتْ مني حتى كدتُ أتراجع مرتبكاً. قالت: لن تصدّق. أنا زرت الكفرون.

ـ ما الذي أخذكِ للكفرون؟

ـ ذهبتُ مع أخي برفقة إبنة خالتي لزيارة أعمامها. خالتي تزوّجت في أميركا عبدالله كوزاك وأصله من الكفرون. هل تعرف العائلة؟

إجتاحتني المفاجأة وقلت: كيف لا أعرفها؟ أعرفها جيداً ولي فيها معارف وأصدقاء، خاصة بين أفراد عائلة كوزاك بالذات.

ـ العالم صغير جداً، وما أغرب الصدف!

ـ حقاً إنه صغير. أعجبتكِ الكفرون؟

ـ جداً. جميلة. ناعمة. مهذبة. أنيقة. أحببتها كثيراً كثييراً. اتمنى العودة إليها.

ـ ماذا أحببت فيها؟

ـ الينابيع، التلال، الأشجار، الرمان، الناس

ـ والشباب؟

ـ لم تكن هناك.

ضحكنا لسرعة بديهتها، وأسرعتْ نحو أخيها لتخبره أنني من الكفرون فأقبل معها نحوي وسررتُ أنني تعرّفتُ إليه وانه إطمئن إليّ.

تلك كانت بداية معرفتي بها، وسررتُ جداً بما أخبرتني من أنها ستنزل بعد أسابيع مع أمها وأخيها إلى بيروت من أجل متابعة دراستهما إلى أن يتمكّنوا من السفر إلى أميركا. وتفاجأتُ بفرح شديد ظهر بكل وضوح على وجهي وفي لهفتي أن مكان سكنهم سيكون في شارع غاندي المتفرع عن شارع الحمرا مقابل فندق بلازا، وذلك على ضربة حجر من مسكننا، فعبّرتُ عن سعادتي باللقاء، وبادلتني المجاملة، وظننتُ أنني رأيت طيفاً من الفرح يشع في وجهها الناعم وإبتسامة عذبة أدخلتني فردوساً لم أكن أحلم به.

تكرّرت اللقاءات في بيروت، وضاعف من سروري أن تعمّقتْ صداقةٌ بينها وبين أختي ندى، وبدأتُ بالدخول في نقاش حاد مع أخيها في الأمور السياسية فكنت أحشد لأنطون سعاده وللحزب السوري القومي الاجتماعي وكان هو يحشد لكمال جنبلاط والحزب التقدمي الاشتراكي باعتبار أن خاله، وهو طبيب، كان صديقاً للمحامي والنائب أنور الخطيب.

تعمّقتْ صداقتي برؤى خاصة بفعل ولعنا بالكتابة وكانت تريدني دائماً أن أقرأ فروض الإنشاء التي تقدّمها لاستاذ الأدب في مدرستها. وكدت يوماً أن أعترف لها بمشاعري تجاهها لكثرة ما فتنتني، ولكنني إمتنعتُ حالما خطرتْ لي تلك الفكرة لأنني لم أكن حقاً على إستعداد للدخول في علاقة دائمة. وكانت أمي قبل أيام تمازحني فقالت، «يا إبني، يسألني الناس متى أزوّجك. شو رأيك؟ أنا وإختك حبيّناها لرؤى». ودون تردّد قلت لها بين الجدّ واللهو، «أنتِ لا تزوّجينني. أنا أزوّج نفسي في الوقت المناسب. أحسن لك ولي ألا تفتحي هذا الموضوع».

وفي لحظات التأمل، كنتُ إستعيد في ذهني ما كتبتٌ لرؤى في دفتر مذكراتها من أن أمواج البحر ورائحة العطر وأيام الفرح والحزن تذكّرني بها، ووجدتني أفكّر هل الحب شهوة جنسية، أم دافع روحي، أم نزعة رومنطيقية تأتي من القلب لا العقل فنتقبّل باسمه الألم ونعلن للأفق أنه ليس من عاطفة أنبل من الحب. في تلك الأجواء ناجيتُ حبيبتي سراً، «امنحيني حبك كي تكون لنا السعادة الأبدية»،

ولكنني أدركت جيداً ومتعمداً أنني لستُ على إستعداد لتحمّل هذا الغموض الذي قد يسبّب خللاً في رؤيتي لما أريد أن أكون. ما زالت أمامي إنشغالات أخرى، وقبل أن أتمّمها لن أعلن حبي مهما كان ولن إطلق عصفوره من صدري في فضاء لا حدود له، وقبل أن يتعلّم أسرار التحليق.

بدلاً من الحب، خضتُ مع رؤى في نقاشات ربما فضحتْ أحياناً ما أردته أن يظلّ مستتراً. من هذا أنني حدّثتُها قبل رحيلها عن مشاريعي الكتابية، وسألتُها مرة: هل أصبح بامكان المرأة ان تعبّر صراحة عن رغباتها وممارساتها وتحكي قصص علاقتها؟

لم تجبني على تساؤلي، واستنتجتُ أنها عرفت مقاصدي، فوجدتُ نفسي ألجأ إلى وسائل أخرى، منها أن أشاركها أسرار مشاريعي القصصية. قلت أنني أفكّر بكتابة قصة مصارحة بين صديقتين. تتحدّث إحداهما عن تفاصيل مغامراتها في لعبة الحب مع شاب جميل، فتستنتج الثانية ان الشاب الذي تتكلّم عنه هو صديقها.

هنا سألتني رؤى سؤالاً لم أتوقّعه: ألا تعتقد أنه من الضروري للكاتب أن يعرف طبيعة المرأة قبل الكتابة عنها؟

وساد صمت بيننا لهول المفاجأة، ولكنني لم أكن أريدها أن تظن أنني إستأتُ من كلامها، فأجبتُها تواً: أشكرك. إنني حقاً أقدّر نصيحتك، وأعدك أن أفكر بالأمر وإعادة النظر للتأكد من صحة فرضياتي المسبقة. هذا لا يعني أنني لن أكتب القصة. أظن أن الكتابة هي الوسيلة الأفضل للتعلّم. أنا أكتب كي أتعلّم، كما أتعلّم كي أكتب. ومع أنني تفاجأت بسؤالكِ، إلى أنني أعدك أن افكر جدياً بهذه المسألة. في الواقع انني بدأتُ بالتفكير فيها منذ تعرّفتُ إليكِ.

- وماذا إستنتجتْ؟

- أموراً عديدة.

- مثلاً.

- طالما نتكلّم عن الرجل والمرأة، يقول الفرويديون ان النزعة الجنسية لدى الرجل هي في جوهرها عدائية وتسودها علاقات القوة، فمن مقاصده اللاواعية أنه يرغب في إخضا ع المرأة لسيطرته.

- وما سرّ النزعة الجنسية لدى المرأة حسب فرويد؟

- في الواقع أنني طرحت على نفسي هذا السؤال.

- وماذا كان جوابك؟

- لم أتوصّل بعد إلى جواب مقنع.

- ما زلتُ عند كلامي. لو كنتُ في مكانك، لفضلّتُ تأجيل كتابة قصتك.

هنا وجدتُ أن صوتي إزداد حدة عندما سمعتُ نفسي أعلّق على نصيحة رؤى: يبدو أنني لم أوضح نفسي كفاية، يا صديقتي. الكتابة بحد ذاتها بحث ومعرفة.

- لا يكفي.

- صحيح.

- المرأة تعرف جيداً، قبل فرويد، أن الرجل يستغل المرأة ويخضعها لمشيئته؟

- هذا معروف، ولكن هناك ما هو غير معروف وهو موضوع سجالي. وأتمنى ألا تسيئي فهمي فأنا لا أوافق على ما سأقول. صوّر البعض المرأة على أنها ترغب أن يقتحم الرجل عالمها وكثيراً ما تشكو النساء المتعلمات من ان المرأة العقلانية لا تجتذب الرجال. يُروي لنا كارل يونغ أسطورةً تقول أن صبية عقلانية حلمتْ أنها تقف في صف طويل من النساء، وعندما نظرتْ بعيداً إلى ما يحدث في الصف الأمامي، شاهدتْ ان هناك سيّافاً يقطع رؤوسهن. وعجبتْ أنها ظلّت مع هذا تقف في الصف بانتظار دورها، ولكنها أخيراً فهمتْ أن المقصود من الحكاية أنه يكون عليها أن تحرّر جسدها من عقلها إذا ما أرادت أن تكتشف المتعة الجنسية الطبيعية.

- ولكننا نعرف ماذا يحدث للمرأة في مجتمعنا حين تتحرّر المرأة من عقلها.

- تماماً، ولحسن الحظ، أن هناك من ناحية أخرى أساطير تخبرنا بأن المرأة هي التي تنقذ الرجل من ضلاله على عكس قصة آدم وحواء. تقول لنا أسطورة إن إمرأة عشقتْ وحشاً تعلّمتْ ان تحبه، وعندما عبّرتْ له عن حبها اختفى وظهر مكانه شابٌ جميل أخبرها ان جنية حوّلته إلى وحش، ولن يعود إلى حقيقته حتى يجد إمرأة تحبه. المرأة هي التي تعيد الإنسان إلى حقيقته.

وتذكر رؤى هنا أنها قرأت حكايات شعبية عربية منها إن إمرأة ذكية بارعة تحدّتْ الرجال فكانتْ تسأل الرجل الذي يتقدّم لخطبتها ان يجيب على أسئلتها الصعبة اذا كان يريد الحصول عليها.

أعجبني جوابها، وهذا ما أوحى لي أن أخبرتها حلماً كما ورد في إحدى أساطير الحب القديمة:

في يوم من الأيام

أبصر صيادٌ مستوحدٌ إمرأة جميلة تخرج من غابة كثيفة

على الجانب الآخر من النهر.

شاهدها منبهراً تلوّح له منشدة بصوتها الجميل الساحر:

تعال أيها الصياد المستوحد.

إعبر النهر إليّ. إنني بشوق إليك.

سأضّمك إلى صدري.

إعبر النهر إليّ. تعال. إنني بشوق إليك

لي عشٌّ ناعم في الغابة نلجأ إليه

تعال إليّ أيها الصياد المستوحد.

فما كان من الصياد المنبهر إلا أن نزع ثيابه وعبر النهر إليها حتى إذا ما وصل إلى الضفة الثانية، تحوّلتْ المرأ ة الجميلة الساحرة فجأة إلى عصفور وطارت عالياً وبعيداً في الأجواء الفسيحة.

ضحكتْ رؤى من كل قلبها لسما ع تلك الحكاية ولم تتمكّن من التوقّف عن الضحك رغم ما بدا عليّ من الانسحاب الصامت إلي عالمي الداخلي، ثم سألتني فجأة: ماذا تقرأ في هذه الأيام؟

أجبتها بانني أقرأ كتاباً بعنوان «حب دون خوف»، وعجبتُ لردّة فعلها إذ قالت دون تردّد أنها ترغب بقراءته حين أنتهي منه. وطبعاً وعدتها أن انتهي منه بأسرع ما أستطيع فقد بدأتُ أتخيّل، وأنا أتأمل وجهها مبهوراً، أن أبواب السماء إنفتحت أمامنا وسنقهر الخوف معاً، ولن يعد لنا بعد الآن سوى أن نمهّد للقاء سري إن لم تتحوّل إلى عصفور وتحلّق في الأعالي.

وكما لو كانتْ تشاركني تخيلاتي نفسها سألتني: ما الحب؟

قلتُ: إنه سمو روحي بالجسد.

ـ هذا شعر

أجابتْ دون أن يبدو عليها العجب فقلتُ لها: كلامي شعر وأنتِ قصيدة.

ـ ما أجمل هذا الكلام يا صديقي ! ماذا أقول أنا لك؟

ـ أنني رواية، مثلاً.

ـ أفضّل أن أقول أنكَ قصة قصيرة.ليس لديّ الوقت لأقرأ عملاً طويلاً في هذه الأيام.

وضحكتُ أنا هذه المرة من صميم قلبي، وشاركتني الضحك، فتابعتُ حديثي معها

عن مشاريعي القصصية رغم ما بدا لي من أن رؤى أخذتْ تحسّ أنني ألمح لعلاقتي بها. ولم أكن متأكداً هل ترتاح للبوح أم المصارحة؟ ومع هذا تابعتُ ما بدأتُه فقلتُ لها أن لديّ مشروع قصة أخرى خطرت لي أمس بعد أن تحدثنا عن المستقبل اتناول فيها تجربة غامضة بين شاب وشابة تجمعهما صداقة منذ زمن بعيد ويستلطفها كما تستلطفه ليس إلا. إهتم بها كصديقة وبادلتْه الإهتمام نفسه فكانا يلتقيان باستمرار ويتناقشان معاً حول مختلف القضايا العامة وشؤون الحياة اليومية. وتعمّد كلُ منهما ألا يتجاوز حدود الصداقة البريئة. وفجأة بدأ شاب آخر يُظهر إعجابه بها ودعاها لمرافقته إلى السينما وثم لحفلة راقصة. فقط عندئذ بدأ صديقها القديم يشعر بالغيرة وأخذ يلوم نفسه كيف لا يجرؤ على مصارحتها بمشاعره نحوها، وتساءل بينه وبين نفسه كيف أنه تغافل عنها إلى هذا الحدّ من الغباء وما إذا كانت هي أيضاً تتجنّب إقتحام عالم الحب المضطرب؟

وبفرح كاد أن يقترب من الغبطة، فهمتُ أننا نتكلّم على موجة واحدة فاستحال التلميح إلى مصارحة فسألتُها مغتبطاً: هل تريدين ان تعرفي كل شيء عني؟

ـ لا

وكان أن جمدتُ في مكاني مستغرباً ما سمعتُ منها، فأوضحتْ لي مقاصدها قائلة: لأنك عندئذ يا صديقي العزيز تريد أن تعرف كل شيء عني.

بأعجاب كبير هززتُ رأسي مترنحاً، ووضعتُ ذراعي حول كتفها فوضعتْ ذراعها حول كتفي، ورأينا أن نمضي إلى كورنيش البحر للتمشي ولمزيد من الكلام. مرّ وقت قبل أن نتابع حوارنا. جلسنا على صخرة تشرف على البحر. بدا عليها أنها تريد ان تقول لي شيئاً. حافظتْ على صمتها فخطر لي ربما أنها تنتظر مني مبادرة لتصارحني بحبها. ولم أكن مستعداً لتحمّل نتائج مصارحتها فسألتها بما تفكّر. تردّدتْ لبرهة ثم قالت: نادر، هناك شيء يجب أن أصارحك به وأتمنى أن تتقبّله بطيبة خاطر. أعرف أنك تحبني وأريدك أن تعرف أنني معجبة بك، ولكننا سنهاجر واريد ان اتابع دراستي، ويريدني أهلي أن اتزوّج طبيباً بين عائلتي وعائلته صداقة لزمن طويل. لا أريد أن أخرج عن إرادة أهلي، ولهذا السبب سبق لي أت تخلّيت عن صديق عزيز منذ زمن الطفولة. لا أعرف كيف أحلّ هذه المشكلة. إنصحني ماذا أفعل.

ضحكتُ من صميم قلبي، ثم استعدتُ فجأة جديتي وقلت: تطلبين نصيحتى من كل عقلك؟

ـ طبعاً. لمَ لا؟

ـ عندي إقتراح. تمردي.

ضحكتْ، وضحكتُ. شكرتها لصراحتها، وشكرتني لصراحتي. لم أجد ما أضيفه، ولم تجد ما تضيفه. ودون كلام عدنا من نزهتنا قبل الغروب وكانت الشمس على وشك أن تلجأ للنوم فوق سرير من الماء.

وتبادلنا رسائل متقطّعة بعد أن رحلتْ كألوان الأحلام الضائعة، وليس من الأكيد ما مصير دفتر ذكرياتها وحقول الكلمات، وساءني انني لم أتمكّن من ضبط عواطفي والتغلّب على رومنطيقية بدأتُ أسعى للتحرّر منها. ولمتُ نفسي خاصة أنني أكتب كصديق وبدافع الصداقة النبيلة لذاتها بدلاً من أن أترك مشاعر الحب تفيض تلقائياً ودون رقابة. وأكّدتُ لها في هذه المناسبة أن صداقتنا «ستظلّ نبراساً استضيء به في دروبي المظلمة».

وأقول لها في رسالة أخرى، «إنني حزين رغم ما أحقّق من إنجازات، ولا أعرف سبباً لهذا الحزن. أرى أوراقي تتساقط بعد عاصفة وألمس عري أغصاني. أكاد أضيع في ضباب عواطفي». ولم يقلّل من حزني وإنطوائي على ذاتي أنها بدأت تتوجّه لي ب«الصديق الحبيب» وأكّد تْ لي، «إنها مزية واحدة أعتقد اني اتحلّى بها، وهي حفظ المودة والصداقة، خصوصاً صداقتنا التي بنيناها على الصراحة والإخلاص». وغمرتني موجة من الحيرة.

مرّ زمنٌ على هجرة رؤى، وتضاءلت المراسلة بيننا شهراً بعد شهر فتساءلت ما مصير الحب وتركتُ لمخيلتي حريتها بالانطلاق حيث شاءتْ:

العين مرآة القلب،

والحب جرح يزعزع أسس العلاقات

غير أن للمسافات صداقة مع النسيان.

لم تعد عرائس البحر تخرج

للتشمُّس على شواطىء بيروت؟

أبحث في الأعماق عنها

غير أنها لا تتجلّى لي سوى في الأحلام

فلا أعرف كيف التعامل معها.

ما أن أقترب منها حتى تبتعد،

وما أن أبتعد عنها حتى تقترب مني،

وكلما حاولتُ تقبيلها

أدارتْ لي ظهرها وابتعدتْ

وأردتُ أن أكون عاشقاً،

فاحترتُ كيف يتمّ اللقاء

ومتى أعرف أسرارها

فأصرخ من الأعماق: أنتِ بحيرة أحلامي

أسلّمها جسدي الذي أَلِف الماء،

كما أَلِفتْ السماءُ الغيومَ المسافرة.

وأسمع الصدى يأتي منخفضاً من مكان بعيد:

هل الحب غاية بذاته

أم جسر لغرض آخر؟

عند هذا أعدتُ مخيلتي إلى قفصها وأحكمت إغلاق بابه وسلكت طريق العقل فنظرتُ إلى بيروت من موقع علاقة الحب والنفور معاً، وحدث لي مراراً، بعد تخرجي من الجامعة وإختياري العمل في التدريس والصحافة، أن بحثتُ تواً عن صديقة تملأ الفراغ الذي تركته رؤى في حياتي. ودون قصد أوتخطيط نشأ بسرعة تقاربٌ بيني وبين زميلة تشاركني الإهتمامات الثقافية وبعدما أظهرتْ إهتماماً بما أكتب، وأعجبني فيها مخلوقاتها الجميلة عندما دعتني لزيارة متحفها. تفاجأتُ بمنحوتات مذهلة بجمالها وتفرّدها عن كل ما عرفتُ من قبل مما شجعني أن أقدّم لها قصة قصيرة إنتهيتُ من كتابتها في ذلك الوقت، وسرّني أن نشرتها مجلة معروفة. هي أيضاً إنذهلتْ بقصتي فاستوحتْ منها منحوتة تمثّل روح ما كتبتُ. ثم استوحيتُ منها بدوري قصيدة أسميتها تمثالاً للحياة:

أصبح للطين آلامه الذاتية

وجلس مطمئناً على قاعدة عند الأفق

في ظلّ قمة عالية

تشرف على أودية عميقة.

نمتْ له عروقٌ فانحنى مسنداً رأسه إلى ركبتيه.

وفي وحدته كتب شعراً:

ضاعت جفوني المتعبةُ في دروبي

وسَرَى، داخل روحي، توقٌ للقمة

كما لو صنعتُ نفسي بنفسي دون تدّخل إلهي.

أُقيم علاقة جديدة بالكون والزمن

وأرتعشُ بدفء

فأنحني على ذاتي.

ضاق المكان الذي أنتمي إليه

وأضاع الزمنُ دربَه.

أريد ما لا أدري،

ولا أدري ما الدرب اليكِ

ويلبس مستقبلي ضبابَ غدٍ لا يأتي.

كنهر شتائي تتدفّق حياتي نحو مجهول بعيد

فأصرخ اليكِ بصمت أن تنكشف حجبُكِ.

أجمل ما فيكِ أنك سرُ

واليك أنشد شعري

ولعينيكِ صنعتُ من طين

ما يُشبه الحلم علّكِ تهتدي إلى خيمتي

في صحراء شاسعة.

وفاجأتني في اليوم الثاني أن جاءت إلى خيمتي وأهدتني تمثالاً قالت أنها إستوحته من قصيدتي. صُعقتُ. عانقتها، فقالت لي بإقتضاب أنها لم تكن تنتظر أن تنشأ بيننا بهذه السرعة عاطفة حبّ تعرف جيداً أن لا جدوى منه ولا ينتج عنه سوى عذاب أليم. لم أفهم، وساءني أنها تركتني مكتفية بمثل هذا الكلام الغامض. لجأت إلى غرفتي أضمد جرحي وأكتب لها قصيدة غاضبة عَنْوَنْتُها «غد من رمل» بدأتها بمقطع لم أعثر على مخرج من أجوائه:

ما ظننتُه بداية حب

وعطشاً في روحي

تفاجأتُ أنه غدٌ من رمل

وسلّمتها أياه يداً بيد، فحضرتْ في اليوم التالي لتقول لي باختصار: لنكن إصدقاء. هناك ما لا تعرفه عني. بصراحة وإختصار أقول لك إنني الإبنة الوحيدة لأهلي، وأبي يريدني أن اتزوج رجلاً من جماعتنا. إذا ظهر مني أنني أحببتك، أطلب المعذرة. أرجو أن تعتبرني صديقة.

عاهدتها أن أكون صديقاً، فقد لمتُ نفسي مرة أخرى لتسرعي وأدركتُ في تلك البرهة أنني أخطأت في الإستسلام لعواطف عابرة وعجبتُ لعدم خبرتي في التعامل مع المرأة ولمستُ ضعفاً في نفسي لم أكن اتوقّعه، خاصة وأنني بدأت بوضع اللوم عليها وإتهمتها بالضياع وإضاعة الفرص كما لو كنت غنيمة لا تُعوّض فضحكتُ من حالي حتى الإغشاء وعرفتُ أن ذلك يجب أن يكون السبب لعدم قدرتي على إكمال القصيدة التي بدأتها ثم سرعان ما تخليّت عنها. ولمتُ نفسي لتسرعي في البوح بمشاعري بدلاً من معاشرتها ودعوتها للسهر معاً علّ الحب ينشأ بذاته وينمو طبيعياً. هكذا دون تمهيد، وبغلاظة، أقحمتُ نفسي في عالمها. ليس من الغريب أنها تخوّفتْ، ولن يكون من المفيد أن أجمع أشلاء حبي المتناثر رملاً على شاطىء بعيد. وقرّرتُ أن اتجاهل ما حدث وأتصرّف كما لو خسرتُ معركة حملتْ بذور الفشل منذ البداية، ولم أكن متأكداً أنني أحببتها حقاً. وبل خطر لي أنني أحاول تجاوز الفراغ الذي أعاني منه بعد إنقطاع علاقتي بروى.

هذا ما واظبتُ عليه في الأيام التالية وتجنّبتُ الحديث معها إلى أن وجدت نفسي عند مساء يوم شاحب وجهاً لوجه أمامها في ممر ضيق يؤدي إلى قاعة الإجتماع. إبتسمتْ تلك الإبتسامة العذبة التي جذبتني إليها في بدايات تعارفنا، وسألتني بصراحة لم أتوقعها لماذا أتجنّبها وكيف أتخلّى عن الصداقة بهذه السهولة؟ لم أجد جواباً لسؤالها. إكتفيتُ بالإبتسام وأنا أفكّر ان لها إرتباطات لن تتخلّى عنها مهما كانت إغراءات الحب. ويجب أن تكون عرفتْ ما يجول في خاطري فطمأنتني أنها ليست حائطاً، ثم دعتني إلى موعد في محترفها فاستجبتُ متمنياً ان تكاشفني بمزيد من أسرار حياتها.

***

إنطلقتُ مساء إحد الأيام إلى موعد مع صديقي عادل الذي إتصل بي يدعوني إلى تناول العشاء معاً في مطعم على البحر لأن لديه ما يحدّثني عنه. هذا ما حدث، وفضّل عادل أن نجلس في زاوية منفردة، وبدا لي واضحاً أنه لا يقوى على الانتظار ليحدّثني عما جرى له. تبادر لي للوهلة الأولى أنني أعرف ما مشكلته التي لا تختلف كثيراً عن مشكلتي، وكان أبوه قد حضر من أميون ليفاتحه بموضوع هام. دون تردّد قال له والده أنه يريد أن يخطب له فتاة جمع أبوها ثروة طائلة في أفريقيا من تجارة المجوهرات. لم يَرِد عادل أمام هذا العرض السخي أن يترك أي مجال للأخذ والردّ، فقال لوالده جازماً أنه لا يرغب بالزواج قبل أن يكمل دراسته ويكون عند ذلك لكل حدثٍ حديثٌ. وأمام قراره الجازم، عاد والده إلى أميون خائباً وغاضباً يلعن الزمن الذي لم يعد للأب فيه أية سلطة على أولاده.

وصدف ان كان عادل قد صارح قبل أيام نجوى بحبه لها، فأخبرته أن أهلها سبق أن وافقوا على طلب يدها من قِبَل موظف كبير في الدولة ودعته لحفلة خطبتها في موعد قريب. ولكن ليس هذا ما حدّثني به كما توقّعتُ. ما أن جلسنا في الزاوية وطلبنا بطحة عرق ومازا مشكّلة حتى صارحني بأنني كنت مضطرباً أثناء إلقاء المحاضرة التي ألقيتها قبل أيام. قال أن الجميع لاحظوا ذلك، ولامني أنني أتحرش بفتاة محافظة ومهذبة تصلح للزواج أكثر مما تصلح للعشق والمغامرات. وزيادة في التوضيح الذي لم أكن بحاجة إليه، قال لي:

مشكلتك أنك تبحث عن معشوقة أبدية. هل تريد نصيحتى؟ فتّش عن فتاة لعوب تقضي معها وقتاً مثيراً. هذه هي نصيحتي إليك أيها الرجل العبيط.

أعجبني تحليله وأدركت مراميه ومداليلها بالنسبة لي وله فأجبته كما لو أنه ينصح نفسه بما ينصحني: شكراً على نصيحتك. أعتقد إنك على حق. كلانا في الهوى سوى.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك تنصح نفسك فيما تنصحني.

- لا يا رجل. أي إكتشاف هذا؟

هنا أخبرني عادل آخر ما سمع من نكات في محاولة لتجنّب الموضوع. قال إن سيدة قوية من إحدى عائلات رأس بيروت المعروفة دخلت دكان بقالة في شارع جاندارك وأخذت تقلّب الفاكهة لتختار أفضل ما تجد في أسفل السحارة. وطال تفتيشها فكانت كلما إختارت بعضها ووضعتها في الميزان، غيّرت رأيها وعادت تبحث عما هو أفضل مما ازعج صاحب المحل فقال لها كلاماً أذهلها: شو بدك تركبيني؟ تعي اركبيني.

ولم تصدّق السيدة المحترمة ما سمعتْ من دكنجي بسيط لن تسمح له ان يتكلّم معها بهذه اللغة السوقيّة البشعة فقالت بغضب: انا بدي اركبك يا بلا تهذيب؟ تركب قصبة، يا ابن الشرموطة.

وضحكنا عادل وأنا كثيراً لهذه النكتة فيما كنا نتوجّه إلى نادي الكيت كات الليلي في الزيتونه. دخلنا ظلمة ملوّنة بألوان داكنة وخففنا أن تنزلق أقدامنا ونحن نهبط سلماً ضيقاً إلى عالم سفليّ. استقبلتنا فيه بحفاوة فتاتان فاختار عادل واحدة وأخترتُ أنا الأخرى. شربنا الوسكي كأساً بعد آخر. خرجتا معنا إلى شقة قريبة. في الفراش أغمضتُ عيني وتخيّلتُ مرافقتي على أنها صديقتي الكلدانية التي تنحت تماثيل من طين، وكانت تقول لي آه، يا حصان، يا فحل، فوصلت إلى ذروة النشوة خلال دقائق قليلة. وبعد ان خرجنا إلى الشارع، شعرت بتقيوء داخلي، وأقسمتُ ألا أعود في حياتي إلى مثل هذه التجربة الكريهة.

وبقي عليّ أن أجد إمرأة تحرّرني من أزماتي وتغيّر مسلكي، وتمنيتُ ذلك لصديقي عادل أيضاً عندما خرجنا إلى الشارع ومشينا من الزيتونه إلى رأس بيروت لا نجد ما نقوله لبعضنا البعض.

8 ـ عشق في زمن الحرب، حرب في زمن العشق !

اقتربنا مما كنا نخشى الوصول إليه فقلت لنفسي، «يأتي في تاريخ الشعوب، عندما تشتد الأزمات وتتداخل، ألا يعرف الإنسان موقعه في خريطة الأشياء والكائنات وكيف يتعامل مع زمنه ومكانه». وها أنا لستُ متأكداً هل لجأتُ للحب هرباً من الحرب الأهلية التي بدأتْ تجتاح لبنان أم للإنشغال، هرباً من الحب، بمتابعة الأحداث بكل تفاصيلها مواظباً على الانخراط في نقاشات حادة مع نفسي وفي حلقات من مختلف الاتجاهات وتسجيل وقائعها في يومياتي. ومما زاد من تعقيدات حالة الهرب، الأمر الذي لم أكن أتمناه لنفسي، أنني بدأت أشعر بحيرة بين التمسّك بعقيدة حركة ثورية أنتمي إليها وبين قيم الإغتراب والتفرّد والقلق والإختيار التي تأثرتُ بها من خلال قراءاتي المتواصلة في أدبيات الفلسفة الوجودية. في تلك الأيام العصيبة وجدتُ نفسي ضائعاً في متاهات حب يكتنفه الغموض وقد يتسبّب بمأساة لي ولصَبَا التي لم يمضِ وقت طويل على إكتشافنا أننا ندعي الصداقة في محاولة متعمّدة للتنكّر للحب الذي بدأ ينشأ بيننا من تلقاء نفسه. ثم وجدتني أتساءل مؤخراً هل أحبها حقاً أم أحب الكتابة عن حبي لها؟ واستغربتُ مثل هذا التساؤل، فقد أحببتها وأحبتني حقاً.

بعد فترة وجيزة من إكتشافنا المتبادل ان ما بيننا لم يكن مجرد صداقة بل حباً حقيقياً، تفاجأتُ في تلك الأجواء أنني تجرأتُ على نشر مقالة في صحيفة «النهار» فضحتُ بها، من حيث لا أريد، أسراراً كنت أفضّل الإحتفاظ بها لنفسي على الأقل حرصاً على مشاعرها وتجنّباً لما قد يسبّب لها من إحراج، وهذا ما توقّفتُ عنده مرتبكاً حين قرأت تلك المقالة بعد نشرها مستغرباً أنني لم أقدّر مخاطر تحدي التقاليد بالنسبة إليها:

«بلادي شارع متعرّج ومصمّم أن يأخذني حيث شاء هو متجاهلاً ارادتي. ويكاد حبي أن يفقد طريقه ويتشتّتُ كالوهم في متاهات لا أعرف أين بدأت وأين تنتهي. في علاقتنا بالمجتمع نكاد أن نصبح كائنات بلا ارادة، مجرّدة من حقوقها في الإختيار والمشاركة في صنع مصيرها. حبيبتي، كما لو في سجن، لا يُسمح لها بتجاوز الحدود المرسومة لها مسبقاً منذ مئات السنين. بريئة هي كشجرة صفصاف. لو كان لي ان أحميها بضلوعي. أنا مثلها خائف إنما ليس على نفسي. أود لو نبتعد فنصبح طائرين نغرّد متى شئنا، نتجه أينما أردنا، ونحلّق في سموات لم نعرفها من قبل. آه لو يتسع الفضاء كحبنا ونحلم بغد آخر يستطيع فيه الانسان ان يكون حراً دون أن يلغي حرية الآخر ويؤمن أو لا يؤمن ليس إمتثالاً للقوى المسيطرة بل بدافع قناعاته. لا نستطيع ان نكون أنفسنا وأن نحلم معاً بأفق آخر. المؤسسات مستبدة تعطّل أحلامنا، وتبدّد الرياح دخان رسائل حب تحترق كأنما لم تجسّد حنين القلب في دروب صغيرة عند صدر الجبل تحت أغصان تصلّي لآلهة الشمس والأرض والريح والقمر. لتكن إنانه أو إزيس أو عشتار. قيل أنه كان هناك في قديم الزمان الغابر مَنْ تصوّروا السماء إلاهة يرفعها إله الريح على كفيه وكانت النجوم أولادها وبناتها، واعتبروا القمرَ أخاً للشمس. السراج ينطفىء فتعمّ ظلمة لا أعرف إلى متى تستمرّ.

أرى في عينيّ حبيبتي رعباً. الصخرة تلتصق بصدري، وتزداد التصاقاً بقدر ما أحاول إزاحتها فتكاد أن تصبح جزءاً من كياني ووجودي. هل لنا من بديل غير الهرب والاختباء؟ أصرّ أن أحلم وأعرف وأختار. لأمسح الخوف عن وجه حبيبتي، ولتمسح هي الخوف عن وجهي. هي غير ما تريد. وأنا غير ما أريد. كلانا ورقة خريفية سقطتْ في نهر متدفّق جرفها حيث شاء، وندعي اننا نجيد المقاومة».

تلك كانت رسالتي إلى صَبَا في صحيفة واسعة الإنتشار وتلاعبتُ باسمها كي تعني ريحاً هبّ من جهة الشرق. وما أن إنتهتْ من قراءتها حتى إتصلتْ بي هاتفياً تريد الإطمئنان على سلامتي وتتساءل ما الذي حدث كي أحاورها عبر الصحف بعد أن كنا لا نجرأ أن نعترف بحبنا لبعضنا البعض، فاتفقنا على الإلتقاء في مكان سريّ. وما أن انتهت المكالمة حتى بدأتُ أحاسب نفسي لهذه الهفوة رغم الحذر الشديد الذي التزمنا به واعتدناه في علاقتنا المضطربة. صحيح أنه زمن ضياع لم أختبره في السابق وبهذه القسوة. لقد حدث الضياع في مرحلة إنتقالية من حياتي، وفجأة حين بدأتُ أشعر بنوع من الطمأنينة أن حياتي أخذت ترتكز إلى قواعد متينة تؤمّن لي مستقبلاً باهراً. كيف حدثَ أنني ما كدتُ أطمئن إلى مصيري حتى إضطربتْ أجواء الوطن وتزعزعتْ أسس نظامه من أقصاه إلى أقصاه؟

في ذلك الوقت فضّلتُ أن أنتقل من مدرسة برمانا العالية للتدريس في الكلية الثانوية العامة أو الاستعدادية في بيروت قريباً من المكان الذي نشأتُ فيه مما سهّل عليَّ متابعة دراساتي العليا في الوقت ذاته فتكوّنتْ في ذهني ملامح صورة مضيئة للمستقبل الذي ينتظرني فاتحاً ذراعيه إلى أقصى بُعْديهما. قلت لنفسي أستطيع أن أجمع بين التعليم والدراسة والعمل الصحافي والكتابة فأحقّق معاً الإستقرار الماديّ والإبداع الأدبي والفكري في زمن إزدهار بيروت الثقافي. ولم أكن اتوقّع السقوط في الحب بتلك السرعة وبيروت نفسها تعاني من أزمات لم تكن تتوقّعها. هل الحب سقوط أم تحليق؟

شعرتُ بحدسي لمدة، وأصبحتُ في هذا الوقت أكثر قناعة، أن أحداثاً متفرقة تُنبىء بقدوم أزمات عامة تهدّد المجتمع، وبدتْ لي في الأفق المنظور عواصفُ تتكوّن واحدة بعد الأخرى، فتساءلتُ هل تنطفىء آمالك يا نادر أملاً بعد أمل مثل ضوء شمعة في الريح؟ ولأنني أحب التفاؤل وأنفر من التشاؤم، كبتُ تساؤلاتي بقدر ما أستطيع التنكر لما يجري حقاً في الواقع العام وفي حياتي العاطفية. في تلك الأيام أشارت «النهار» في 7/1/58 إلى صدور مجموعة قصصية بعنوان الصمت والمطر عن دار مجلة شعر، وانه من المتوقع ان تصدر رواية أنا أحيا لليلى البعلبكي، والمجموعة الشعرية البئر المهجورة ليوسف الخال، وأوراق في الريح لأدونيس فردّدتُ في تلك اللحظة مقطعاً منها:

إذا ضحكَ الموتُ في شفتيكَ

بكت، من حنينٍ إليكَ، الحياةُ.

يا الله، قُلْتُ، وتساءلتُ هل نتوقّع موتاً أم حياة وهل نضحك أم نبكي؟ وكان قد جرى حديثٌ في الدوائر التي أرتادها، وكثيراً ما عقدنا حلقات حلّلنا فيها الأوضاع وتبادلنا وجهات النظر وحرصتُ ان أسجّلها في يوميات لنفسي قبل غيري متسائلاً كيف نبني جسوراً بين بيروت الغربية والشرقية تعبرها قبائل لبنان الطائفية للتعارف المتبادل والعمل معاً لتجاوز خلافات مصطنعة كتلك الكيانات التي فرضتها فرنسا وبريطانيا. قلت لنفسي مِن المحزن أنه ما نكاد نبني جسوراً في النهار حتى تنهار في الليل تحت وطأة الأحداث المتتالية، وما أن يطلع الصباح حتى تنتشر الإشاعات المغرضة. ومما زاد من تعقيدات الأمور أن الشعب لم يكن يعرف سبب الإنهيارات ومَنْ وراءها وما الغرض منها. ما أعرفه جيداً على ما أظنّ إن هناك مَنْ يعمل دائباً على تهديم الجسور في ظلمة الليل كي لا يطلع صباحُ مشرقٌ على هذه الشعوب البائسة التي إعتادت أن تبالغ في كل ما تعتقد أو لا تعتقد.

وفي غياب معلومات دقيقة عما يحدث ولماذا، لم يكن الناس يُجمعون على أي رأي حول الأسباب كما لو أن الجسور تنهار تلقائياً على نفسها. إنما تردّد كلامُ بين الناس وفي الصحف أيضاً عن إن «حاميها حراميها» وأن المشكلة هي في بنية النظام نفسه وأسسه، ولكنه قيل أيضاً من قِبَل البعض الآخر أن هناك عدواً خارجياً يتدخّل في شؤون لبنان الداخلية حسداً وغيرة في سبيل تهديم ما تمّ بناؤه. وفي حديثي مع صديقي عادل أميوني حاولتُ أن أجمع بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية في تفسير تلك الأحداث الدامية، فكان جوابه أن مَنْ شيّدوا الجسور هم الذين كانوا يضعون قنابل موقوتة في أسسها بحيث يمكن أن تتفجّر باشارة لاسلكية من موقع بعيد.

وقاطعتُه مردّداً ما تذكّرته من حوار جرى بيني وبين صَبَا قبل أيام: عادل، يا صديقي، أن الجسر هنا مجاز. ما أن يتمّ بناؤه حتى تُقام مراسيمُ احتفالية من موسيقى وصلوات ودبكة يتقدمها رجال الدين والزعماء. هل شاهدتَ مطارنة يدبكون ويغنون على الدلعونا على الدلعونا، وبيروت كما نعرف جميعاً تعيش في مرحلة انتقالية. هي متحضّرة ومتخلّفة في آن معاً. تبالغ في الظن أنها متحضرة ولا تعي مدى تخلّفها وطبيعته. على الأغلب أنك لا تشاركني هذا الرأي. في رأيي أنها تفهم الحضارة بمعنى إستهلاك ثقافة مستوردة لا تشارك في إنتاجها، وليس هناك مَنْ هو أقدر من اللبنانيين على إستيراد المواد الإستهلاكية على حساب الإنتاج. هم تجار مهما كان عملهم. في مختلف المجالات يقتبسون مظاهر الحضارة، خاصة في فتح الدكاكين التجارية، في الأزياء، في اللغات التي يتكلمونها كالبلبل، في الغناء، في الشكليات، في المقتنيات المستوردة. تبدو بيروت عاصمة ثقافية بسبب أجواء الحرية إلا أنها، يا صديقي العزيز، متخلّفة ضحلة فارغة في نظرتها إلى القوانين، في القواعد التي تنطلق منها، في غياب المؤسسات، وفي ولاءاتها للأسر الحاكمة المتنافرة على حساب المجتمع ككل. متخلّفة في علاقتها بالبيئة الجميلة التي ينعم بها لبنان، وفي التعامل الشرس مع طيور السماء والبحر، وفي غياب المكتبات العامة ومراكز الابحاث والجامعات الوطنية. حتى الجامعات تمّ إستيرادها من الخارج لاستيعاب أبناء النخبة. أما أهل الحكم، يا عزيزي، فهم الذين يوهموننا أنهم معنيون ببناء الجسور. ليس في حياتنا غير الأوهام. لا تخدع نفسك يا صديقي عادل.

تضايق عادل من هذه الشكاوي المتواصلة التي أردّدها دون ملل، فذكّرتُه بأحداث مطلع عام 1958، وتحديداً في شباط بعد أن جرى

استفتاء في مصر وسوريا على دستور الوحدة بينهما فاعلن صوت العرب أن الموافقة عليه جاءتْ بأكثرية ساحقة وتمّت الوحدة المصرية ـ السورية ونشأت الجمهورية العربية المتحدة. وكان أن هبطت طائرة جمال عبد الناصر في مطار دمشق فالقى خطابه التاريخي، كما يُقال في الصحف وصوت العرب، بحضور شكري القوتلي أمام المجلس النيابي السوري. وبعد ما وقّعا اتفاقية الوحدة وتصافحا وتعانقا، إقترب القوتلي من عبد الناصر وهمس في إذنه، «الآن، وقد وقّعنا اتفاقية الوحدة، أريدك ان تعرف ماذا تسلّمت. تسلّمتَ شعباً نصفه من الساسة المحترفين.. وربعه من القادة والزعماء... والربع الباقي ـ لعلمك ـ رُسُلُ وأنبياء»... هكذا يتصوّرون. هنيئاً لك يا سيادة الرئيس».

هنا لفتُ نظر عادل، إمعاناً مني برشّ الملح فوق الجرح، بنشوء اتحاد عربي مضاد بين العراق والأردن جواباً على الوحدة المصرية ـ السورية. ولم أكن حقاً بحاجة لأن أذكّر صديقي كيف انشطر لبنان نصفين منذ اللحظات الأولى. نصف، كما هو متوقّع، إحتفل بالوحدة المصرية ـ السورية وزحف عشرات الآلاف من اللبنانيين إلى دمشق لملاقاة عبد الناصر يتقدّمهم صائب سلام وكمال جنبلاط وتردّدت شعارات لا للتجديد، ولا لحلف بغداد، ولا لمبدأ آيزنهور. أما النصف الآخر فعبّر، كما تعرف جيداً، عن مخاوفه من إنعكاسات الوحدة على الوضع داخل لبنان وفي طليعتهم شمعون ومالك حتى أن ميركا نفسها حذّرتهم من الاسترسال في المبالغة. بل إن شمعون بدأ يتخوّف من رغبة مصر بالتمدّد عربياً بعد أن طلب من أحد مستشاريه أن يقرأ كتاب فلسفة الثورة فتحالف مع العراق والأردن وزار السعودية لهذا الغرض واستنجد بأميركا وأقام علاقة وثيقة مع نوري السعيد. وحين تتالت الأحداث في تلك الأيام، طالب لبنان الأمم المتحدة بالتدخل. بل ذهب شارل مالك إلى واشنطن ليعلن وسط ما تعاني بيروت من تبادل القتل والدمار، أن «الحالة عظيمة، واتوقّع مفاجأة عظيمة وسارة لمصلحة لبنان»، فقلتُ ليوسف الحصني أنه طالما يرى للمشكلة على أنها مستوردة من الخارج، فليس من الغريب أن يستورد الحلّ من الخارج أيضاً وبهذه السهولة.

لم نعرف ما المفاجأة العظيمة التي قصدها مالك في كلامه وهل ستكون حقاً مفاجأة سارة لمصلحة لبنان؟ كل ما كان يحدث على الأرض ينبئنا بعكس ذلك. قبل أسابيع صرّح فوزي الحص أن «وجود شارل مالك في وزارة الخارجية هو العنصر المسؤول... هو الغلط بعينه لأنه يمثل... عنصر النكبة... يزيد في الهوة التي تباعد بين فريق وفريق من أصحاب وأبناء هذا الوطن». ونصح السفير اللبناني نديم دمشقية بعدم تبني مبدأ آيزنهور لأنه ليس للبنان مصلحة فيه، إلا أن الدكتور مالك دفعه لقبوله. وفي الوقت الذي قال عبد الناصر بأولوية الخطر الصهيوني قال شمعون، بتشجيع من مالك وهو الذي لم يكن بحاجة إلى تشجيع، بأولوية خطر الشيوعية فقامت في لبنان مرجعية أميركية ومرجعية مصرية وضاع البلد بين المرجعيتين المتناقضتين.

وبقدر ما إزدحمتْ الأحداث التاريخية، وجدتُ نفسي أكتب في يومياتي أنني إنشغل أكثر مما أريد بالتنبوء بمستقبل بيروت. لم أتقبل المعادلة الطائفية، ولم تظهر أية محاولة جادة بين القيادات السياسية لتجاوزها رغم التعهّد منذ الإستقلال بأنها ستكون موقتة. على العكس، ترسّختْ الطائفية في مختلف مجالات الحياة اللبنانية. مراراً، قلنا لأنفسنا ولغيرنا، أن جميع الطوائف ستظل مغلوبة على أمرها إلى ان نؤسس مجتمعاً علمانياً موحَّداً في تنوّعه لا تمييز فيه على أسس دينية أو أي أساس آخر. أما لماذا فشل لبنان في تطبيق هذه القناعات فيعود إلى أن هناك قيادات وجماعات وطبقات تقليدية تصرّ على امتيازاتها وتحاول بمختلف الطرق ان تعمل على تثبيت قواعد سيطرتها. ما لا تدركه أن الشعب لن يقبل الاستكانة إلى الأبد ولن يكون من الغريب أن يتحرّك حين تتوفّر له الظروف والقيادات المؤاتية. وإلى أن يتمّ ذلك سيظلّ اللبنانيون قبائل تتطاحن داخل دوائر إهتماماتها الصغيرة فسألتُ نفسي مراراً كما سألتُ صَبَا وعادل إلى متى يدوم هذا الحال وتتكرّر المآسي؟

لم يُثر السؤال مخيلة صبى فاكتفت بالإبتسام، وهزّ عادل رأسه الكبير إحتجاجاً عندما أخبرتهما بما كتبتُ في يومياتي فتابعتُ حديثي متجاهلاً عدم إهتمامهما: كانت هناك، من ناحية أخرى، دوائر مسيحية ادركت ان مركز القوة العالمي انتقل من الفرنسيين والإنكليز إلى الأميركيين، فانشأوا كتلة دستورية بغرض اقامة علاقة خاصة مع القوة الجديدة دون أن يتخلّوا عن إرتباطاتهم القديمة كمن يريد أن ينعم بهذه الحياة وبالإخرى، وكان بين المنظِّرين لهذه الكتلة في بداياتها الأولى ميشال شيحا وهنري فرعون واتسعت الحلقة دون أن تغلق لتشمل كميل شمعون. ثم كانت هناك، إضافة للعلمانيين، دوائر اعتبرت ان لبنان يعيش في عالمين ـ العالم العربي والعالم الغربي ـ وانه بالتالي يستطيع ان يلعب دور الوسيط لصالح لبنان والعرب معاً. ما لم تقدّره هذه الدوائر أن لبنان في وضعه ونظامه يفرض على اللبناني ان يكون منتمياً إلى طائفة ما أكثر مما هو لبناني أو سوري أوعربي أو متوسطيّ أو لنسمّه ما شئنا من

الأسماء والمسمّيات المتداولة كالهموم على القلب في زمن البؤس.

وبهذا بقي العلمانيون خارج الصورة. بل ما تصوّرتُه شخصياً عن إقتتال طائفي جاء معكوساً بين القيادات التقليدية، كما لو كان بينها إتفاقٌ سري رغم مظاهر الإختلاف، فقد أصابت نيران كليهما الحَكَم العلماني وأردته جريحاً يعاني دون علاج من مخاطر الموت. وهنا حضرتني عبارة تتردّد في أدبيات الثقافة السياسية من أن فرنسا، في تكوينها للبنان الكبير، قصدت عزله عن البلاد العربية، وفرّقت بين الطوائف، ووضعت له دستوراً فاسداً ومجلساً نيابياً هزيلاً. ما فعلته في لبنان تفعله الآن في الجزائر، وفعل الأنكليز أسوء منه في فلسطين والأردن والعراق والخليج. تركوا لنا إرثاً سيطاردنا إلى الأبد دون رحمة ولا نعرف هل ننتهي منه أو ينتهي منا في نهاية المطاف.

وبعد هذا الحديث من طرف واحد مع عادل، وكانت صَبَا قد حضرته لوقت قصير، خطر لي أن الأحداث تتوالى غيمة سوداء وراء غيمة سوداء، وقد تداخلتْ في حياتي القضايا العامة والخاصة فلم أكن أفصل بينها لشدة تلاحمها وتداعياتها منذ أن تخلّى كميل شمعون عن رفاقه في الجبهة الإشتراكية الوطنية التي جلبته إلى الحكم قبل ستة أعوام. غازل حلف بغداد الذي تمّ توقيعه عام 1955، ورفض كبقية الدول العربية مقاطعة بريطانيا وفرنسا بعد العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، وانضم في مطلع عام 1957 إلى مشروع أيزنهور لحماية المصالح الغربية في الشرق الأوسط وكان من بنوده بالاضافة إلى الجوانب السياسية والعسكرية تنفيذ برنامج عمران اقتصادي تموّله أميركا لوقف التغلغل الشيوعي كما يقولون، وزوّر إنتخابات عام 1957 ليُسقط مَنْ لم يسقطوا في السابق من أمثال كمال جنبلاط وصائب سلام وعبدالله اليافي وغيرهم ممن أسّسوا مع معروف سعد وأنور الخطيب «جبهة الاتحاد الوطني» التي دعت إلى تظاهرة كانت حصيلتها 5 قتلى و42 جريحاً و266 موقوفاً، وشارك الطلبة في تظاهرات غاضبة. ثم توالتْ أخبار قيام انتفاضة مسلّحة في طرابلس ضد كميل شمعون لاختياره حلف بغداد في محاولة لتطويق دولة الوحدة المصرية ـ السورية.

وجواباً على هذه التطورات التي لا أعرف لماذا أتابع سرد حكاياتها بكل تفاصيلها، ردّ شمعون على المعارضة متهماً سوريا بالمؤامرة ومنتهجاً سياسة تعزيز بنية النظام الطائفي فقيل أن وراء كل تلك التحولات رغبة من قبله بتجديد رئاسته، فهو ليس شرقياً أو غربياً بل شمعونياً منشغلاً بما أراده لنفسه قبل أي شيء آخر. في الأربعينات كان إستقلالياً، وفي الخمسيات تخلّى عن الذين أوصلوه للرئاسة فتحوّل من فتى العروبة إلى فتى سيدة التلة في دير القمر حيث بدأ يُكثر من إشعال الشموع والبخور. وبعد أن كان يرى الخطر متمثلاً بالصهيونية كما ورد في تصريحات سابقة أصبح يراه في الشيوعية ربما متأثراً بشارل مالك وبرغبة منه للحصول على تأييد أميركا بتجديد ولايته.

في تلك الأيام ردّد شارل مالك أن أيزنهور أكد على احترام سيادة لبنان والمحافظة على كيانه واستقلاله في حال تعرّضه للتهديد. وما قصده حقاً لم يكن تهديد إسرائيل بل تهديد الناصرية خاصة بعد ان تمّت الوحدة المصرية ـ السورية. مالك لم يكن من قبل سفير لبنان في واشنطن، كان سفير واشنطن إلى لبنان، وكان أن برز إسمه في المحافل الدولية بعد أن انشغل بمهمة محاربة الشيوعية، وهو الذي أفرزته الحرب الباردة وليس المعاناة الانسانية في بلده والمنطقة التي ينتمي إليها.

وبقدر ما نفرتُ من سلطوية شارل مالك المستترة بشعارات الحرية، إزددتُ تولّعاً بسعيد تقي الدين ككاتب وإنسان دون أن اتفق معه ببعض توجّهاته وممارساته السياسية. وجدته منسجماً مع نفسه في كتاباته وتصرفاته ولم يجمع ثروة بل ضحّى بما كان يملكه إلى حدّ الإستهتار. وبدا لي من خلال معرفتي به ان سلوكه لم يقلّ جمالاً عن كتاباته، وربما تفوّق عليها إنسانية ومرحاً وكرماً وسرعةَ خاطر. ولن أنسى الحملة الانتخابية التي تنافس فيها سعيد تقي الدين مع إميل بستاني لرئاسة نادي خرجيّ الجامعة الأميركية. في الوقت الذي كان ألخريجون يدلون بأصواتهم، أرسل إميل البستاني طيارات خاصة لاستقدام الناخبين من موظفي شركته الكيت كات في الكويت والخليج. وبانتظار النتائج، كان إميل وسعيد يلعبان معاً طاولة الزهر أمام النادي بحضور الصحافة. كنتُ حاضراً هناك وراقبتُ ما يجري بإعجاب، وقد استلفتَ نظري خاصة الاحترام المتبادل بينهما وروح المرح التي يجيدها كلُّ منهما. ومن دعباتهم أن حذّر إميل بستاني سعيد تقي الدين بأنه سيخسر الانتخابات بسبب أن له لوناً سياسياً، مشيراً بهذا إلى أنه ينتمي للحزب السوري القومي، فأجابه سعيد تواً، «أنا لي لون سياسي، أما أنت فلك رائحة».

تيقّنتُ في مطلع عام 1958 أن لبنان يقترب بسرعة فائقة من قيام حرب أهلية بسبب ما شاهدته وخبرته من تفتّت المجتمع طوائف وقبائل متناحرة حتى أنه لم يعد هناك من مركز تتمحور حوله حياة الناس والمجتمع. في هذه الاجواء المشحونة تعرّفتُ إلى عدد ممن

تشرّدوا من سوريا، منهم الضابط السابق في الجبش السوري معين عرنوق الذي أصبحتُ أخرج معه، هو بصحبة صديقته أميمة وأنا بصحبة صديقتي صَبَا. وفي إحدى اللقاءات قال كلاماً غامضاً جعلني أجزع أن الحرب قادمة وما أحسسته بحدسي بدأت أرى مؤشرات تثبت ظنوني. وما تخوّفتُ منه بدأت ألمح ظلالاً له في مخاوف عدد من الأصدقاء والصديقات.

ومما إستقّر في ذاكرتي وأحزنني ان الفجوة بين الحركات القومية إتسعت بدل ان تضيق، فوجدت من واجبي ان أدخل في نقاشات سياسية مع عدد من أصدقائي مثل سمير وهاني ورمزي من حركة القوميين العرب علّنا نتوصل إلى تركيز على أولويات تجمع بين الأحزاب والحركات الوطنية في سبيل العمل المشترك الذي تتطلبه التحديات التي تعصف بالعرب وتهدّد لبنان من الداخل. ولما عدنا إلي مسألة خلافات قديمة حول مفاهيم الهوية القومية وعلاقتها بالحضارات السابقة للفتوحات العربية والإسلامية، قلتُ المجتمع في حاضره مهدّد بأزمات كبرى مما يستدعي أن نعمل معاً لتحرير الحاضر من الماضي تمهيداً لصنع المستقبل. المشكلة في هذا الوقت العصيب يا إخوان ان نتغلّب على الأزمات التي تهدّدنا في الصميم. ليس هذا هو وقت الحديث عن الشعوبية والانعزالية واندثار الحضارات السابقة مهما كانت أهمية هذا الموضوع في تحديد هويتنا.

وأصرّ رمزي على «أن العرب هم أولى الأمم بإبداع الثقافة الانسانية العليا ويجب ان نكون دائماً على حذر من كل ما قد يؤدي للميعان والرخاوة في العصبية العربية، ومنها مقولة تفاعل الحضارات المتعدّدة في المنطقة»، فسألته: والعلمنة أين موضعها؟

ـ أفضّل عدم الخوض في هذه المسألة وإكتفي بالقول بقيام دولة قومية لا دولة دينية وبضرورة ضبط الوعظ الديني وتنظيمه وتوجيهه بحيث لا يشذ عن خطوط الفكرة القومية السليمة.

ـ والصراعات الطبقية، هل تفضّل عدم الخوض فيها؟

ـ أن مصلحة العرب في زمن الكفاح ضد الاستعمار الأجنبي تقتضي عدم المشاحنة حول المذاهب الاجتماعية والاقتصادية مما قد يوزّعهم صفوفاً وطبقات متطاحنة.

ـ ولكن بينكم من يقولون بضرورة التحليل الطبقي.

ـ صحيح، ولكننا إتفقنا على تاجيل هذه المسألة

ـ فهمتُ أن هذا تمّ بنصيحة من الدكتور قسطنطين زريق.

ـ أظن.

وسط هذه الأجواء المشحونة وجدتْ حركة القوميين العرب نفسها هي أيضاً تخوض معارك الحرب الأهلية بقيادة قوى تقليدية غير منضبطة، وهذا تماماً ما حدث للحزب السوري القومي إنما على الجانب المقابل مما خيّب أملي وحدّ من نشاطي السياسي فانصرفتُ للتركيز على النشاط الثقافي خارج هذا الصراع الطائفي مردداً أن لبنان يخدم الطائفية، ولا تخدم الطائفية لبنان. وفي أجواء اليأس هذه تابعتُ كتاباتي الأدبية ودراساتي العليا إلى جانب التدريس. بل إبتعدتُ عن الحزبية في بعض جوانبها وكرّرتُ القول لنفسي كما لغيري في جلساتنا العفوية أن الزلزال الذي حدث على دفعتين متواليتين في مناطق الشوف والمتن قبل سنتين ربما كان مؤشراً إلى اقتراب حدوث زلزال من نوع آخر سيُحدث تصدعاً كبيراً في أسس المجتمع وقواعده مما يكون له أثر بعيد المدى، ولن يكون بامكاننا استيعاب الضرر الكبير الذي سيلحق بالناس والمجتمع لزمن بعيد في المستقبل.

مرة أخرى، كنتُ بين من دعاهم الحزب للمشاركة في معسكرات التدريب إعداداً لمعركة تنتظرنا عند منعطف الطريق. وبحضور حشد من الشباب انتزع مني المدرِّب العدد الأول من مجلة شعر الذي صدر تلك السنة ورماه جانباً وسلّمني مسدساً. وكما في السابق قلت للمدرِّب والرفاق حوله إنني لم أستعمل السلاح في حياتي ولا أحب إستعماله فأجابني أن الأمة في خطر وعلينا جميعاً أن ندافع عنها. لم أقتنع ولكنني لم أعارض. أعدتُ إليه المسدس فأعاد لي المجلة كما لو يقول لي تستطيع أن تأخذ الحصان إلى الماء ولكنك لا تستطيع ان تجبره على الشرب. فَهِمَ مقاصدي وفهمتُ مقاصده فتعايشنا كلاً على هواه. إعتبرته عسكرياً، وإعتبرني إستاذاً وكاتباً، ورأينا أن الصراع قائم على مختلف الأصعدة وفي كافة المجالات، وهو صراع واحد بوسائل متنوعة. لم أقبل بعضَ وسائل العنف، ولم يكن هو مولعاً بالنشاط الثقافي، وقبلنا معاً أن الشعب هو مصدر الشرعية. إنها شرعية تنبثق من المجتمع ولا تُفرض عليه من الخارج أو من فوق.

تلك كانت بعض جوانب حيرتي وكثراً ما ردّدتُ أنني أتمسّك بفكرة ضرورة العمل من ضمن حركة ثورية من أجل تغيير الواقع، ولكنني

في الوقت ذاته، لا أقبل الطاعة العمياء والإمتثال دون قناعة ذاتية. إقتنعتُ أن أفكّر ثم أفعل. هذا تماماً ما تخوّفتْ منه على الأقل بعض القيادات الحزبية، وتلك كانت في أُسس الأزمات التي عانتْ منها مختلف الحركات الإجتماعية والسياسية، ولم يكن من الغريب أن تنشأ صراعات داخل كل حركة وفيما بينها، ولم نعرف كيف التعامل معها بالإصرار على ضرورة الكفاح من ضمنها إذا ما أردنا إحداث تغيير ثوري في صميم المجتمع ومؤسساته. تلك كانت أزمة الأزمات. وحين لا تعد حياتنا ترتكز إلى محور، كالغبار ستنثرنا الرياح العاتية المقبلة من كل إتجاه. تخاف القيادات الحزبية التفرّد وتفضّل الإمتثال حرصاً على الإجماع في الرأي، ويتمسّك أصحاب الفكر النقدي المبدعون بحرية الإختيار والمسؤولية مما يؤدي إلى تهميشهم حتى حين ينتمون. هل أنتمي حقاً، سألت نفسي؟

لم أتوصّل إلى جواب مقنع إلا أنني، على ما يبدو من سلوكي، فضّلتُ خيار التهمّش الحرّ على الإندماج الأعمى فتيقّنتُ من حق الصراع، وأن ظللتُ حائراً في تحديد دوري في الحياة العامة. ولوقت طويل، ربما حتى الآن، لم أنجح في حلّ تلك المعضلة رغم ضرورة التوفيق بينهما. لم أكن أرضى عن نفسي، كما لم تكن ترضى المؤسسة عني أيضاً. وعايشت التأزم على أنه مصدرللإبداع، على عكس رجا، صديقي وزميلي السابق في مدرسة برمانا، الذي كان يفضّل العمل من الداخل مهما كانت الأخطاء وينصحني برفع أفكاري إلى المسؤولين. وهذا تماماً ما ناقشني به استاذي منيرالذي عارض رأي الأكثرية في قيادة الحزب ولكنه تقيّد بما صدر عنها من قرارات مضحياً باستقلاليته الفكرية.

واستمرت علاقاتي مع رجا بعد إستقالتي من التعليم في برمانا وإنتقالي إلى بيروت حيث كنت أريد أن أكون أكثر مشاركة في الحياة الفكرية، وبعد ان تعاقدتُ للتدريس في الاستعدادية مما سهّل متابعة دراساتي العليا والحصول على شهادة الماجستير تمهيداً لتكملة دراستي التي لن تكتمل سوى في الخارج. وكانت رؤى عادت تراسلني وتكتب لي بين حين وآخر تحدثّني عن فرص متابعة دراساتي العليا في أميركا، وكان لها ولع خاص بجامعة ميشيغان في آن آربور. ولم يغب عن بالي أن أسجّل تلك التلميحات في يومياتي التي أواظب عليها بشكل طقوسي فسَكَنَتْني كما سَكَنْتُها، وتعايشنا معاً في أخوة وصداقة.

ومع هذا أهملت أن أسجّل أموراً عديدة بدا لي بمرور الأيام وتبدّل الأحوال أنها كانت ذات أهمية خاصة. فاتني مثلاً أن أذكر في يومياتي أن أهلي أنتقلوا إلى الشياح تجاوباً مع رغبات إختي ندى بعد أن اشترى زوجها قطعة أرض في الحدث حيث كان عليها أن تشرف علي بناء عمارة فيما يتابع هو عمله في السعودية أو الصحراء كما تقول أمي. وفاتني ما هو أهم من ذلك. رُزقتْ أختي ولداً جميلاً جمع شمل العائلة. وعلى صعيد آخر، لم أستغرب حركة الانتقال الشعبي من رأس بيروت إلى مناطق أخرى أقل كلفة كالشياح والمزرعة والدورة على الطرف الشرقي الآخر من بيروت.

ومهما كانت التحوّلات الاجتماعية، لم أكن أرغب بالعيش خارج رأس بيروت، وحتى بالتردّد إلى الشقة التي استأجرتها أمي وأختي وأخي في شارع مارون مسك وراء محطة الحمصي في الشياح فاتفقتُ مع مدرسة الإستعدادية على أن أكون إستاذاً داخلياً أسكن في مبنى أشرف فيه على شؤون الطلبة الذين يأتون من بلدان عربية مختلفة كما كان شأني في مدرسة برمانا من قبل. هناك تعرّفتُ إلى اساتذة داخليين من أمثالي، فتعمّقتْ صداقتي خاصة بجميل نمور ورفيق معلوف وفؤاد حداد ويعقوب نامق وأقمنا حلقة تتمحور حول ذاتها. وفي هذه الأثناء واصلتُ، خارج الحلقة، دراساتي العليا وكتاباتي في الصحف والمجلات وعلاقاتي مع أدونيس وأنسي الحاج ويوسف الخال وفؤاد رفقه ومحمد الماغوط وخليل حاوي. وكان بعض هؤلاء يتجنّب البعض الآخر لسبب من الأسباب التي لم تكن تهمّني كثيراً.

ومهما كانت المزاجيات والأجواء، استولى علينا في حلقاتنا الصغيرة إحساسٌ بأن ما نقف عليه ليس أرضاً صلبة كما لو إستولى علينا تيار لا نملك التحكم به، وبان الشعب ينجرف كسيل نحو هوة الإقتتال العبثي تحت راية عصبيات بالية فناقشنا في جلساتنا المتواصلة طبيعة المواجهة بين الوعي التقليدي والوعي الحداثي. وكاد أن يبدو لمختلف الأطراف أن لبنان لم يعد جسراً بين الشرق والغرب، وأن الميثاق الوطني ينهار على نفسه تحت أثقاله وتجاه هبوب رياح غير متوقعة. فتى العروبة شمعون أصبح زلة أميركا ووسيطاً لرجال الأعمال والشركات الإقتصادية الناشئة، وتخوّف منه حلفاؤه كما أعداؤه وحسبوا له ألف حساب.

لقد بدأ يغذّي مشاعر الخوف بين المسيحيين من أنهم أقلية مهدّدة في محيط إسلامي واسع. وبدا وكأن بعض الموارنة اليمينيين يدعون للتوجّه غرباً بحجة ان المسلمين في لبنان أخذوا بقدوم الناصرية يعاودون الحديث عن إحياء الوحدة العربية. واصرّ فؤاد شهاب على عدم اقحام الجيش في معارك خاسرة. وعلى غير ما كان متوقّعاً تقليدياً رفض البطريرك الماروني بولس معوشي سياسة عزل لبنان

عن العالم العربي وأعلن بوضوح لجميع من يهمّهم الأمر بمن فيهم شمعون نفسه، «نحن الموارنة نقطة في بحر المسلمين، فإما نعيش معهم بمحبة وسلام أو فلرنحل أو فلنفنَ».

أغضب هذا الكلام شمعون والكتائب وربما غالبية من الموارنة اللبنانيين بشكل عام، ولن أنسى حتى الآن بعد مرور زمن طويل كلاماً قاسياً تفوّهتْ به جارتنا أم مارون وعلى مسمعي وبحضوري لدى زيارة أهلي وبصوت مرتفع وسط شارع مارون مسك في الشياح، وكانت في ذلك الوقت قد نزعت اسنانها ولم تركّب وجبة مكانها. لم يكن ما تفوّهتْ به في شارع مارون مسك مسكاً، بل شتيمة من «كعب الدست»، على مسمع الجيران والمارة، «يا معوشي، إنت مش بطرك الموارنة، إنت شيخ الإسلام. أحسن لك تحلق دقنك وتشفلك شي شغله غير هالشغلة». ولم يحفل أحد بما قالته أم مارون، وإن ضحك بعض المارة، فقلت لها، «خالتي إم مارون، طولي بالك».

وقاطعتني قائلة بغضب، «طوّلنا بالنا كتير يا عين خالتك. شو طلع من تطويل البال. فيك تقلي شو طلع من تطويل البال يا إستاذ؟ اللي ما عاجبوا لبنان يرجع لمكه. أحسن لهم، وأحسن لنا. عاجبك شو سوريا عم تعمل معنا؟ محسودين من هالبلد. بعمرهم ما راح يتقدّموا».

هنا تدخّلتْ أمي في محاولة لترطيب الجو فقالت: معليش يا أم مارون. المصارين بالبطن بتتخانق مع بعضها.

ـ شو مصارين ما مصارين يا أم نادر. طلّعونا من دينا. الله يبلي الظالمين بالظالمين، ويطلّعنا من بيناتهم سالمين.

ـ الله يسمع منك.

في تلك البرهة أطل مارون من مدخل شقتهم غاضباً وأدخل أمه عنوة إلى البيت، وعاد يطلب مني أن نلعب دق طاوله. رحبّتُ بالفكرة قائلاً، «لنترك المشاكل للزهر. شو رأيك؟»

وأجاب، «الزهر بدو مهاره.»

«معك حق»، قلتُ.

وفيما نلعب الطاولة سألني عن رأيي بما يجري، فقلت له بعد تردّد ليس من مصلحة الموارنة أن يشعروا أنهم يعيشون في محيط عدائي. ما يجب التأكيد عليه أن لبنان وطن للحرية وجزء من المنطقة على عكس ما أراده البطريرك الياس الحويك والجنرال غورو بدعوتهما ل«إنشاء دولة لبنان الكبير ليكون وطناً مسيحياً يحميه الغرب ضمن هذا البحر الإسلامي الشاسع». البطرك المعوشي يعرف جيداً ما يخدم مصلحة شعبه.

ـ شوبدك من هالحكي. الرجل جبان ما عنده رُكَب.

ـ لا تغلط يا مارون.

ـ إنشا الله يكون معك حق ولما لمست تجاوباً منه، تجرّأت على مزيد من الإفصاح عن موقفي: ما قاله البطرك معوشي، على عكس مَنْ سبقوه، محاولة حكيمة لتجنّب مزيد من الاقتتال العبثي.

هنا إنفعل مارون وذكّرني بمطالب مؤتمر الهيئات الإسلامية الدائم باحصاء السكان ووضع قانون للجنسية وتغيير كتب التاريخ المقرّرة للمدارس والوحدة الاقتصادية مع سوريا. مثل هذه المطالب هي التي تجبرنا على الاستنجاد بالغرب وغير الغرب.

وأردته أن يعرف أنني مطلع على الموضوع فذكّرتُه بردّ بيار الجميل في جريدة العمل على هذه المطالب محذراً أن جماعته «مستعدة للتعاون مع الشيطان عند الاقتضاء» مما يتيح «للأجنبي أن يدخل من الأبواب والنوافذ، وأن يستتبع دخوله ما يألم له لبنان نفسه والبلدان العربية نفسها». وفي هذه الايام بالذات صرّح شمعون للقائم بأعمال السفارة الأميركية في بيروت بأن «لبنان سيقف كلياً إلى جانب الغرب في حال وقوع الحرب بينه وبين السوفيات» مشيراً إلى أن الموانئ اللبنانية ستكون مفتوحة للاسطول البحري السادس والمطار للطائرات الحربية الأميركية. لذلك لم يكن إختيار شارل مالك كوزير للخارجية عام 1956 صدفة فهو يدعم مبدأ آيزنهور لحماية مصالح الغرب واحتواء الناصرية ومقاومة الشيوعية. هذا تصرف غير حكيم في وقت يحتاج فيه لبنان لمزيد من التماسك لا الانقسام وإفتعال المشاكل.

وأرادني مارون ان أطلع على الجانب الآخرمن المشكلة فأوضح أن شمعون قدّم هذه التسهيلات ضمانة لاستقلال لبنان الذي تهدّده الناصرية. هذا هو سبب سوء علاقات لبنان بسوريا ومصر. من حق لبنان أن يتبع أية سياسة تؤمّن مصالحه.

ـ وإن أضرت بالمصالح العربية؟

ـ بصراحة، وإن أضرت حين تتهدّد سيادتنا
ـ ما يضرّ العرب يضر لبنان، وما يضرّ لبنان يضرّ العرب
ـ لا خيار لنا حين يهدّدوا سيادة لبنان
ـ وما رأيك يا أخي مارون أن شارل مالك يتبادل الرسائل مع ابا إيبان مندوب إسرائيل لدى الأمم المتحدة؟
ـ وأنت ما رأيك أن النائب اللبناني شبلي العريان يهرّب الأسلحة من سوريا للمعارضة في لبنان، ولجنبلاط بالذات؟ فكّرت إنك قومي، هيئتك صرت إشتراكي.
أضحكني مارون فوضعتُ كفي على ركبته وقلت: طيب كيف بتشوف احتفال فريق لبناني بقيام الوحدة بين سوريا ومصر، واحتفال فريق لبناني آخر بالوحدة بين العراق والأردن بعد أيام من قيام الجمهورية العربية المتحدة؟ هل يخيفك هذا الانقسام اللبناني؟
ـ طبعاً يخيفني. ولكن ماذا نستطيع أنت وأنا أن نفعل؟
ـ هناك بديل ثالث. أن نعمل على تغيير النظام.
ـ تحلم.
ـ كل تغيير يبدأ بحلم.
ـ مضى زمن الأحلام يا استاذ نادر. إلى متى تعيش في عالم الوهم. إنزل إلى الأرض من عليائك ولنقبل الواقع كما هو.
ـ تطلب منى الإستسلام لواقع بشع. هناك دائماً ما يمكن أن نفعله.
ـ الواقع أقوى منك ومني.
وتابعنا لعبة طاولة الزهر دون التمكّن من التغلّب على مشاعر التوتر. وكما لم يغب عن بالي ما يفعله شمعون في سبيل تجديد ولايته، كان مارون من جهة أخرى يعرف ان كمال جنبلاط يطمح لكسر الاحتكار الماروني لمنصب رئيس الجمهورية. وأصرّ مارون على أفكاره كما تمسّكتُ أنا بأفكاري، وإن اتفقنا على مخاطر إنقسام لبنان إلى معسكرين متعارضين في النصف الأول من عام 1958، ولم يبقَ سوى الرصاصة الأولى التي تشعل فتيل الحرب الأهلية.
دوت أربع رصاصات ليلة السابع/ الثامن من أيار عام 1958 استهدفتْ نسيب المتني الماروني الذي كان يعبّر في صحيفة «التلغراف» عن وجهة نظر المعارضة، وكثيراً ما كان يتعرّض للملاحقة والتهديدات بالقتل. وسبق أن تمّ الإعتداء عليه من قبل مجهولين، إلا أن ذلك لم يكن إلا ليزيد من صلابته. وما أن خرج من السجن قبل ذلك بقليل حيث أمضى عقوبة حبس بتهمة إهانة رئيس الدولة حتى استأنف إنتقاداته لسياسة شمعون وعهده ووجّه إليه دعوة للاستقالة من منصبه. ولم يكفّ عن الكلام حتى تربّص له القتلة في باب الدار المواجهة لمبنى جريدته وأطلقوا عليه النار عندما غادر مكتبه في ساعة متأخرة بعد نصف الليل ورموا جثته قرب سينما أوبرا.
وتواصلت مواجهات عنيفة بين قوى المعارضة وقوى الأمن الداخلي منذ التاسع من أيار عندما عقد أركان جبهة الاتحاد الوطني إجتماعاً قرروا فيه الدعوة إلى مظاهرات كبرى في المدن اللبنانية في 12 أيار. ولبّتْ جماهير غفيرة الدعوة فإنطلقت من منطقة البسطا ومنطقة المصيطبة حيث يقع منزل صائب سلام وطريق الجديدة والمزرعة مطالبة باستقالة شمعون وإلغاء حلف بغداد ومبدأ آيزنهور. وردّدتْ الصحف في اليوم التالي أن عدد القتلى بلغ 50 وتجاوز عدد الجرحى 220، فوضع الناس أيديهم على قلوبهم خوفاً من أن تكون تلك بداية الحرب الأهلية. وكعادتي قلت لنفسي: ليس صحيحاً ما أعلنته المعارضة بانها بداية إندلاع الثورة ولا ما قالت به الحكومة من أن الحرب هي إعتداء خارجي على لبنان. واضح أن الشعب كان منقسماً على ذاته لمصالح وخلافات داخلية.
ولم يكن من الغريب في نظري أن يجرى تصعيد في العنف. وقع إنفجار في ساحة الشهداء وفي حافلة كهربائية مكتظة بالركاب، وكانت هذه حادثة من بين حوادث كثيرة من العنف المجنون، فاستفقد الكثير من محاربي الحزب غسان جديد الذي ما أن بدأتْ حرب فلسطين عام 1948، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، حتى التحق بها وخاض غمارها كقائد لفوج من المحاربين وظل همّ فلسطين همّه الكبير معتبراً أن قوة إسرائيل تكمن في ضعف العرب. وكان من مفارقات الزمن أن إغتاله شاب فلسطيني في بيروت 19 شباط 1957 ولم يكن تجاوز السابعة والثلاثين من عمره وقد إزداد قناعة بقول أنطون سعاده، «كل أمة...إذا لم يكن لها ضمان من نفسها، من قوتها هي، فلا ضمان لها في الحياة على الإطلاق». هذا ما إقتنع به غسان جديد، فأي ظروف جعلته يحارب في خندق واحد مع شمعون وغيره ممن كانوا يبحثون عن ضمان خارجي؟ هذا ما سألت نفسي عنه عندما كنت أسير في موكب تشييعه الذي لم تشهد

بيروت له مثيلاً في ذاكرتي.

حقاً ليس هناك ما هو أقسى وقعاً في النفس من خيبات الأمل في زمن الأزمات. هذا ما بدا لي جلياً يوم إغتياله وفي هذه الحرب الأهلية التي أثبتتْ أن بعض قادة الحزب لم يختلفوا كثيراً عن أهل النظام. تحدثوا عن المناقب العليا والكفاح من أجل إحداث ثورة في المجتمع والثقافة، ثم وجدوا أنفسهم في خندق واحد مع أهل النظام واليمين المتطرف الذي كان جزءاً من عملية اغتيال انطون سعاده قبل أقل من عشر سنوات. ومهما كانت مبرراتهم، لم يكن من السهل التغلّب على خيبة أمل كبرى بأنه لم يعد بالإمكان الحديث عن النهضة والثورة والبناء وغيرها من المفاهيم التي أُفرغتْ من معانيها في ظل هذه المعركة الهزيلة. وتعمّقتْ حدة النقاشات ضمن صفوف القوميين حتى أن الرفيقة صَبَا التي استشهد أبوها وأمها في معارك سابقة دفاعاً عن الحزب إتهمتْ بحضور عمها قيادات الحزب بالتخلي عن مبادئه الثورية ودعت بكلام غامض إلى استعادة إنسانية الشهداء. قيل لها ولغيرها من أمثالها أن الحزب مستهدف وهو مضطر للدفاع عن نفسه، وذَكَّرَها أحد قادة الحزب البارزين بأن عبد الناصر هو الذي رفض الإجتماع بوفد من قبل الحزب عرض التفاوض معه في محاولة لتجنّب هذه الحرب الأهلية. وقيل لنا أيضاً من قبل قائد آخر أن مشاركة الحزب في الحرب الآهلية «تكتيك»، فاجابتْ صَبَا ان التكتيك تحوّل بمرور الوقت إلى استراتيجية ولم يعد من الممكن السكوت عن تسخير المبادىء لأغراض تتناقض معها، وذكّرت القيادة أنه لا بد من إعادة الحزب إلى قواعده السليمة.

أعجبتُ بموقفها وإن لم يكن من الواضح لي ماذا يمكن أن نفعل لتصحيح الوضع، خاصة وأنه لم يعد من الممكن متابعة تلك الانتقادات بتلك الحدة بعد ان فُرضت المعركة على الجميع وبدأ الحزب يتكبّد ضحايا لا تُعوّض باغتيال غسان جديد وحصول اعتداءات على قواعده في قرى لبنانية حدودية في عكار والبقاع مثل عدبل والنبي عثمان. كل ذلك ادى إلى تعمّق التحالف مع شمعون رغم الاختلاف في المواقف السياسية، وفرض على الحزب تحالفات تتناقض مع منطلقاته، وشنّت جبهة المقاومة الشعبية بقيادة صائب سلام حملة إعلاميه مضاده للحزب، وبل تمّ خطف بعض الرفاق. كذلك فشلت مرة ثانية محاولة يائسة من قبل بعض قيادات الحزب التي تحبّذ الدخول في مصالحة عن طريق جنبلاط فلم يعد من خيارات سوى الدفاع عن النفس. في هذه الأجواء حصلت معركة شملان بقيادة محمود نعمة ومعين عرنوق لمنع جنبلاط من احتلال المطار مقدمة للسيطرة على بيروت.

في تلك الأيام بالذات جدّدت لقاءاتي بشخصيات طريفة وأجريت معها مقابلات نشرتُها في الجريدة. زرتُ شاباً أصبح يوجّه الناس الي الطرق السالكة والآمنة بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية، وقبلتُ دعوة من قبل مطيع للالتقاء مع رجل بيروتي يحمل لقبين، لقب نابوليون ولقب عمر بن الخطاب لشدة إعجابه بهما. سألته «هل أنت نابوليون أم عمر بن الخطاب؟»، فاجاب: انا نابوليون وعمر بن الخطاب. شو المشكلة؟ ما في مشكلة.

ـ واحد مسيحي والتاني مسلم

ـ لا تغلط يا استاذ. تنيناتهم قبضيات ما بيخافوا الا الله

ـ الله بيخوّف؟

ـ كيف لكن؟ لشو الجنة ولشو جهنم؟ قال الله ما بيخوّف قال ! شو الدنيا لعب ولاد صغار؟

وبعد أن أجريتُ مقابلة معه، عرّفني مطيع برجل آخر أطلق عليه الناس لقب «أبو غبرة» لأنه كان صاحب دكان في رأس خندق الغميق. وكان دكانه خالياً كلياً من أية بضائع، ومع هذا واظب على الحضور إليه دون ان يقتني أية بضائع جديدة أو قديمة منتظراً قرار هدم المبنى والحصول على تعويضات يستحقها. وطال زمن الإنتظار دون ان يتم الهدم وأصبح الدكان مع الوقت عبارة عن طاولات فارغة يتراكم عليها الغبار، فراح الناس ينادونه «أبو غبره». وقيل أنه سيموت قبل ان يُهدم البناء ويحصل على التعويض. أما كيف كان يعيش، فتلك كانت محور مقابلتي معه على أنه رمز للكثيرين ممن يعايشون الغبار دون أن يدركوا.

في مطلع تلك السنة صدرتْ المجموعة القصصية «الصمتُ والمطر» فعدتُ لأعيش في أجوائها، ورواية ليلى بعلبكي «أنا أحيا»، وديوان «أوراق في الريح» لأدونيس فما زلتُ أحفظ حتى الآن قوله،

أحبّ حدودي وأكره أني أحبّ حدودي:

ألا صورة من جديدٍ تُصاغ لهذا الوجود؟

ولم يجبني حين أردت أن أناقشه بقوله:

عش ألَقاً وابتكرْ قصيدَةً وامضِ:
زِدْ سِعة الأرضِ.
وأصدر يوسف الخال ديوانه الشعري «البئر المهجورة» في ربيع 1958، وأهداني نسخة كما أهدى عادل «من أجل جهادنا المشترك في سبيل الشعر». سألته ما البئر ومن هو إبراهيم الذي يقول عنه؟:
عرفتُ إبراهيم، جاريَ العزيز، من
زمانٍ. عرفته بئراً يفيضُ ماؤها
وسائر البشرْ
تمر لا تشرب منها، لا ولا
ترمي بها، ترمي بها حجر
لم يجبني يوسف على سؤالي مفضّلاً قول أدونيس أن يظلّ الرمز غامضاً، غير أنه سرّ بتوجّهي إليه، «جميل أن تهتدي لعبادة البحر»:
نهتف يا، يا بحرنا الحبيب، يا
القريبُ كالجفون من عيوننا
نجيء وحدنا،
رفاقنا وراء تلكمُ الجبالِ آثروا
البقاء في سُباتهم ونحن نؤثر السفرْ
وأوضحت له أنا الذي يفضّل أيضاً غموض الرمز: يبدو أنك نسستَ أننا أنتَ وأنا وغيرنا كثيرون جئنا من وراء تلك الجبال ونحب السفر دون أن نقتلع من جذورنا، فلماذا تصنّف شعوباً بهذه الوضوح المختزل بين من يفضّلون السباة فيما نفضّل نحن السفر؟ من نحن؟ من هم؟
إكتفي بهزّ رأسه، ثم ردّدنا معاً:
مَنْ يُعيد الرجاءَ غيرُك يا بحرُ،
دعوناكَ فاستجبْ لدعانا
وعند هذا ذكّرته بمقطع من أوراق في الريح لأدونيس:
يدي، يدي غريبةٌ ووجهي مُسافرُ
والموتُ من رياحي
فذكّرني يوسف الذي ولد في عمار الحصن أن أدونيس ولد في قرية اسمها قصابين لا تبعد سوى خطوات عن البحر، وذكّرته ببدايات الينابيع في الكفرون.
أصبحت الشوير بين أهم مراكز تجمّع الرفاق والرفيقات فتمّ الإتفاق بيني وبين عادل وأديب وعماد أن نصطاف هناك. اقتنعنا بالمشروع دون تردّد وما مضت أيام قلائل حتى استأجرنا منزلاً في عين القسيس وسط بستان شجر التفاح من أم اسعد التي توفي زوجها وترك لها أولاداً تهتم بهم مما ذكّرني بأم نادر. وتحوّل كهفنا إلى مزار يُقبل إليه الرفاق والاصدقاء بالجملة، وحين أطلق أحدهم علينا لقب أهل الكهف انتشرت التسمية ليس بسبب عزلتنا فقط بل أيضاً للمزاح بأن رابعنا كلب دون الإتفاق عمّن يكون، وقد أصبح كل منا يظن أنه هو المقصود بالذات.
كان المكان ضيقاً، إلا إن البيت الضيق كان يتسع بوجود الأصدقاء والصديقات مهما كثر عددهم أو عددهنّ. وفي امسية وداعية لأديب قبل سفره إلى افريقيا، نام في ذلك المنزل الصغير حوالي 45 شخصاً حسب تقديره وفي محاولة لابراز مدى شعبيته. لا نعرف أين ناموا وكيف ومتى ومَنْ قربَ مَنْ. ما يذكره أديب من أحداث تلك السهرة أن نزيه أخذ في حالة من السكر تحية حزبية لصورة «ابو أسعد» المعلقة على الحائط ظناً منه أنه الزعيم وهتف «تحيا سوريا». ولم أكن أدري هل وقع ذلك حقاً أم أن هذه ليستْ سوى إحدى التقليعات التي يجيد أديب فنَّ إنتاجها وإخراجها في الوقت المناسب.

في هذا المكان الذي يشرف على وادي الجماجم ويواجه صنين زارنا محمد الماغوط حيث استوحي على ما أظن عنوان ديوانه «حزن في ضوء القمر»، وبدأتْ نضال الأشقر تولع بفنون المسرح، واعتبر أدونيس ان كل ما كتبه قبل تلك اللحظة قصائد أولى، ولم ينسَ أسعد رزوق أن يلقي علينا دروساً في الفلسفة في مرحلة من تطوره الفكري ولم يكن يعرف، على عكس صادق العظم، بعد على أية فلسفة يستقر، وبحث حليم بركات عن شخصيات لرواية يريد أن يكتبها، وأضاءت المكان إبتسامات سوسن التي تشبه إبتسامتها حقولَ الكفرون في الربيع، وقد احتضنتني كمياه نبع الشير. ويوماً بعد يوم حضر غيرهم أو غيرهن بينهن صَبَا التي حظيت باحترام واهتمام الجميع.

كانت طفلة عندما استشهد أبوها وأمها في معارك الحزب النضالية فعاشت في كنف عمّها وزوجته وما تزال بعد أن تجاوزتْ العشرين من عمرها. ولم يكن وجودها في الشوير صدفة وإن كان لأول مرة، فقد حضر عمها بحجة الإصطياف للقيام بمهمة سرية تبين لي أنها تتعلق بتدريب واعداد المقاتلين في صفوف الحزب. تعرفتُ إليها في مسبح الجامعة وتعمّقتْ لقاءاتنا يوماً بعد يوم وكثرت مشاويرنا ونقاشاتنا فشعرتُ بأنها بدأت تملأ في قلبي بعض الفراغ الذي تركته رؤى. وبل تفاجأت أنني بدأت أدرك أننا نخدع أنفسنا حين نظن أن ما يجمعنا هو مجرد صداقة أو رفقة طريق، وسخرتُ من محاولاتي الفاشلة إقناع نفسي ان ما هو بيننا لا يختلف عن علاقتي بعدد آخر من الصديقات وزميلات الدراسة الجامعية.

مرّتْ مدةٌ على تعارفنا، وتغيّرتْ طبيعة أحاديثنا بمرور الوقت مع أننا أصررنا، هي وأنا، أن نكتفي بالصداقة التي تجمعنا. صحيح أن رؤى كانت ما تزال تشغل مكاناً فسيحاً في قلبي إلا أنني عملياً لم التزم بها ولم تلتزم بي ولم نرتبط رسمياً بأية تعهدات متبادلة. ومهما بلغ حبي لرؤى فانه لم يكن السبب الوحيد لرغبتي بالإكتفاء بالصداقة مع صَبَا. أظن ان كلاً منا، هي وأنا، أدرك بحدسه أن هناك حدوداً تفصل بيننا وكان من الصعب تجاوزها.

مضت على صداقتنا أشهر، وعرفنا كيف نكتفي بالحديث حول اهتمامها بالتاريخ الإجتماعي وإختصاصي في علم الإجتماع وكثيراً ما تساءلنا لماذا إقتصر حقلها على الماضي وحقلي على الزمن الحاضر فاتفقنا على ضرورة التفاعل بينهما، وتجنّبنا التحدث عن التفاعل بيننا نحن. طبعاً، تكلّمنا أحياناً حول شؤوننا الخاصة وما نواجه من مشاكل شخصية. ومن قبل المزاح، كنت أقول لها أنني يجب أن أعرّفها إلى شاب ينتمي لطائفتها من بين أصدقائي، وكانت هي أيضاً تقول أنها ستعرّفني إلى فتاة من طائفتي من بين صديقاتها. وجذب إنتباهها أنني لم أكن متديناً، ولم تكن هي تمارس طقوس دينها أو تهتم حتى باثارة هذا الموضوع. وهذا ما كان يريده عمها مع أنه ملتزم بعلمانية الحزب وتأكيده على الإنتماء القومي، غير أنه لم يكن يريد إثارة أية حساسيات دينية في بيئته لمصلحة الحزب أكثر منه لمصالحه الخاصة.

لم أعرّفها بصديق من طائفتها، ولم تعرّفني بصديقة من طائفتي. كان ذلك مجرّد دعابة. كانت هي تعرف جيداً أنني لا أعني ما أقول، وكنتُ أنا أعرف جيداً أيضاً أنها لا تعني ما تقول. وتساءل كل منا بينه وبين نفسه لماذا خداع الذات دون التوصّل إلى جواب. عرفتْ أنني أميل إليها، وعرفتُ أنها تميل إليّ. بل نعرف أننا نعرف دون مصارحة. وبقدر ما نلتقي ونتحدّث عن مشاكلنا، أصبح كل منا يسخر من نفسه ويستغرب كل هذا الخوف من الحدود الحمر التي رسمها المجتمع بيننا. ومع هذا لم يعترف أحدنا بالحب الذي نما بيننا كما تنمو أزهار الربيع سوى في عزلته مع نفسه وحين تنام أجهزة الرقابة الذاتية.

ولم أكن أعرف في البداية أن الحب قد يكون مدخلاً لخطر يهدّد حياتي إلى أن بدأت تتضح لي تدريجياً معالم حياتها الغامضة. رأيتها مرات عديدة قبل أن نتبادل ما هو أكثر من إبتسامات خجولة. وبعد لقاءاتنا المتكررة، بدأنا نعترف أن ما نشعر به قد يكون حباً رومنطيقياً كالذي تحفل به الروايات والقصص. كنت أقول قد لا يمانع عمها ولكن بيئتها ستمانع، وأنا لا أريد زواجاً دينياً. وفي محاولة للتستر أننا معنيين بشؤوننا الخاصة، تكلّمنا عن الحدود التي تفصل بيننا. تزول حدود وتنشأ حدود بين طوائف بيروت. إضافة لبيروت السنة وبيروت الموارنة، هناك أيضاً بيروت الشيعة، وبيروت الروم الإرثوذكس أوالكاثوليك، وبيروت الدروز، الخ. وطبعاً هناك بيروت الفقراء وبيروت الأغنياء وبيروت الطبقات الوسطى وكان هذا أكثر ما يهمني وبالدرجة الأولى. كل ذلك مؤشر لغياب مركز تتمحور حوله حياة الناس. كل شيء ينفصل، ويتوزّع، ويندثر. ما هو مقبول أصبح ممنوعاً، وبعض ما هو ممنوع أصبح مقبولاً.

إختفى المنقذ عن الأنظار وليس من يدلّني إليه. قيل لي أنه مطارد. وألمح أحدهم إلى أنه سوري لجأ إلى لبنان، بينما أكد شخص آخر أنه لبناني من صميم جبل لبنان، وبل قيل أنه فلسطيني تتلمذ على أنطون سعاده نفسه. في تلك الأثناء أقنعتني صَبَا بالتخلي عن هذا

الهوس بمزيد من الإطلاع على جوانب حياته الغامضة.

تكهّنتُ كما تكهّنتُ. قالت أنه يعيش، حسب علمها، في العالم السفلي لا تعرف أين، وتفاجأتْ حين تردّد أنه ربما قتل أو مات فقلتُ لصديقي عادل: أما روحه، فكره، شجاعته، حبه ستظلّ كلّها معنا وسيعلن عنها في حينه. إن مات أو عاش فهو دائماً معنا. كلماته تنمو في حقولنا مثل حبات القمح. نسقيها بدموع السماء ودموعنا. حَمَلَ آهاتنا، أوجاعنا، طموحاتنا، أمالنا. جسّد أمانينا، تطلعاتنا. رفع روحنا إلى الأعالي ومصادر الضوء. أخرجنا من ظلمة تكتنف عقولنا. لاتُسيء فهمي. أنا لا أقول أنه لم يرتكب أخطاءً كبرى. صحيح أنه صرف وقتاً طويلاً في التخطيط وكان يستشير مَنْ رأى فيهم قدرة على الابداع والتحليل وإن قرّب إليه في الوقت ذاته مَنْ لم يكن لديهم غير مظاهر الولاء والطاعة والآمانة. إنه محلّل ومخطِّط من الدرجة الأولى، ولكنه كان أيضاً شاعراً في التعامل مع السياسة. ربما لم يكن يجيد الحسابات. كان وجهه يضيء ذكاءاً. رأى رؤىً. أحب نساءً. أخاف أننا حُرمنا منه، سُرق منا إلى الأبد. ربما ما يزال حياً يخطط لثورة أخرى قد تفشل كغيرها.

لا أستطيع تصديق خبر موته وهو في أوج نضوجه وعطائه. هذا وقته. شعلةُ ضوءٍ هو. شجاع. محب. شهم. انتحاري، بل استشهادي، متحرِّر من العصبيات. أحبَّ الأمة وحبّبها إلينا في ضياعها. رسم معالم مستقبلها في مخيلته. وضع روحه على كفه. وَهَبَ دمه لشعبه. لم يكن يعرف البغض، وإن خابت آماله بكثيرين. كان يحترم الأخارين. هناك فكرة لا يمكنني تقبّلها. عقلي يرفضها. إنه انتهى، إنني لن أراه بعد الآن. إنه ذهب إلى الأبد. إنه لن يعود إلينا. لم يكن يريد الموت. مليء بالحيوية. لا أدري ماذا كان يفعل لو علم حقاً أنه سيُقتل وحيداً مجرَّداً عن أعز الناس إليه. هل كان من الممكن أن يُقْدِم على خوض تلك المعارك لو عرف أنه سيتركنا لمصيرنا، سيخسرنا ونخسره. أتصوّر أنه كان يحرص على البقاء معنا. أنا أفعل أي شيئاً كي لا أخسره. لبنان خسره، سوريا كلها خسرته، العروبة خسرته. إذا كان قد مات حقاً، أرى ان الذين قتلوه وطاويط يحتمون في مغاورهم بظلمة الليل من نور النهار الساطع. يخافون الخروج إلى الضوء. الضوء يبهر أبصارهم. يغمضونها. هذا بلد لا يتحمّل مَنْ تحرروا من الطائفية. أنهم تجسيد لأمراض المجتمع، وهو تعبير عن أمنيات الناس الخفية في أعماق نفوسهم الحرة المتحرّرة. ربما كان مغامراً. لا أظن سوى أنه مات شامخاً كما عاش. جاء موته على مستوى طموحات الثائرين والثائرات في كل أمة. أتصوّر أن موته أقبل عاصفاً كالريح ومضيئاً كالبرق. اتصوّر أنه كان مستوحداً وسط جماهيره الغفيرة. حبي له أكبر من بغضي لأعدائه، وللذين قتلوه أو قد يقتلونه في أية لحظة.

لا أسمّي المعارك القائمة ثورة كما تدعي المعارضة بل حرباً أهلية. هذا ما توصّلتُ إليه بعد أن تابعت أخبار المعارك يومياً. في نهاية الاسبوع الأول منها، سيطرت المعارضة المدعومة من قبل حكومتي مصر وسوريا على قسم كبير من الأراضي اللبنانية، وخاصة في وادي البقاع وعكار والمناطق الساحلية شمال طرابلس. كان بين أهم مراكز القتال بيت صائب سلام في المصيطبة، وفي طرابلس جرت معارك بقيادة رشيد كرامي بين فصائل المعارضة والموالين في حي باب التبانة والقبة. وفي البقاع الشمالي، جرت إشتباكات بين جماعة صبري حماده ومقاتلي الحزب القومي، وجزعتُ مما يمكن أن يكون قد حصل في النبي عثمان للمقاتل الشجاع ديب الذي تعرّفتُ إليه في منزل أسد الأشقر في ديك المحدي.

ومهما إختلفت الأراء، إستمرت أخبار المعارك وفظائعها تلاحقنا دون رحمة ولم أنشغل عنها سوى بتسجيلها في يومياتي من زاويتي الخاصة. كتبتُ أنه جرت في 9 حزيران معركة في بلدة الفريديس التي لا أعرف موقعها تماماً، إلا أنه قيل أنها تحتل موقعاً استراتيجياً بين الباروك وعين زحلتا، بين قوات المعارضة وقوات الموالين بقيادة نعيم مغبغب، وكان لي صديق إسمه سعيد مغبغب في الجامعة فإتصلتُ به لأطمئن عليه وأعرف ما يجري له ولعائلته. وفي اليوم التالي استسلم أهالي الباروك مما شجّع مقاتلي القوات الشعبية الإستمرار في شن الهجوم في 12 حزيران على الفريديس وكان المطر يتساقط غزيراً فانسحبت قوات الموالين بعد أن تكبدت 60 قتيلاً. لم يكن ذلك رقماً في تفكيري بل موتاً إنسانياً مهما كانت الانتماءات.

كنت قد أنقذت صديقي نديم نعيمة من الغرق في مسبح الجامعة فاراد في تلك الأيام الحالكة أن ينقذ روحي من الضياع بدعوتي لزيارة عمه مخائيل نعيمه في بسكنتا. ولبّيتُ الدعوة بشغف. إستفضنا في أحاديث عفوية داخل كهف السكارى وتسلّقنا شيراً صخرياً يعلو أكثر من خمسين متراً فوق وادي الجماجم. تأملناه بشغف وصمت وأصغينا لأصوات طيور لم اسمعها من قبل. وقيل أن المكان يُسمّى أيضاً وادي العذارى فقلت داخل نفسي أنه مكان جميل للسكن المؤبد، رائع. وبعد أن إنفتح باب الحديث الممتع مع نعيمه حول العزلة والمواجهة وقد استغرق وقتاً طويلاً، كان لا بدّ من متابعة الزيارات في أوقات أخرى قد يسمح فيها لنفسه بمحاورة رمز من رموز

الجيل الجديد.

ولكوني في بسكنتا، قصدتُ صديقاً عزيزاً اسمه اميل معلوف في قرية كفرعقاب. هذا ما إكتشفته في رسالة كنت قد كتبتها لصَبَا بعد تلك السهرة، «الليلة التي قضيتها في كفرعقاب كانت عذبة حزينة معاً. سهرت طويلاً أراقب عبر وادي الجماجم بيتكم المرتفع كالظل في ضوء القمر. وتساءلت: تراها تفكر بي كما افكر بها أم هي نائمة تبصر أحلاماً جميلة؟ وضِعْتُ في متاهات الاسئلة فاقمتُ في أحلامي جسراً إليك».

وصدف ان إطلعت في يومياتي على أننا ذهبنا نحن أهل الكهف مع فريق من الاصدقاء بينهم عادل ودعد وسناء إلى مسابح شكا. حاولتُ ان أكون مرحاً كي أنسى ان حبيبتي لم تتمكّن أن تكون معنا. انفردتُ بنفسي، فجاءت سناء وجلست قربي وغنّت لي بصوت منخفض I love you with all my heart ، وسألتني لماذا لم تحضر صَبا؟ تجاهلت السؤال فقالتْ بصراحة وكما لو تستجوبني، «هل تحبها؟». أنكرتُ، وتألمت انني أنكرت، ولكنها لم تصدّق فقد لاحظتْ تردّداً في عينيّ. وعادت تغني وهي تبتسم. ثم قالت ان أميمة تركت معين فسألتها ما السبب فاكتفت بالقول ان اميمة فتاة ضعيفة لا تتحمّل الفراق.

واستدعى الكلام عن أميمة ومعين أن عدتُ في ذاكرتي إلى ما جرى في مطلع الصيف. مرة أخرى تناقلتْ وسائل الإعلام إعلان شمعون في 25 حزيران 1958 أنه سيطلب تدخلاً عسكرياً أجنبياً بموجب المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة، وقيل أنه جرتْ إتصالات مكثّفة مع السفارة الأميركية بهذا الشأن فقلتُ أن شارل مالك لم يعد لديه الوقت لقراءة أفلاطون. ويجب أن يكون كمال جنبلاط قد لمس خطراً فصمّم على الزحف إلى العاصمة وكانت شملان هدف الهجوم الأول. تردّد أن الخطة وضعها شوكت شقير الذي عيّنه جنبلاط قائداً لقواته التي زحفت في 30 حزيران باتجاه شملان واستولت في اليوم التالي على المرتفعات المحيطة بها لشلّ مقاومة مقاتلي الحزب القومي، فلم تفصلهم عن بيروت سوى عشر كيلومترات.

برز في معركة شملان التي أسماها سعيد تقي الدين «حمام الدم» إسم محمود نعمه الذي تحوّل في مخيّلة الحزب إلى بطل إسطوري بعد أن إشترك في محاولة انقلابية في دمشق عام 1957 وتم القبض عليه وسجن في المزة ولكنه تمكن من الفرار. وحيكت حول فراره قبل بدء محاكمته حكايات غريبة منها ما كتبه سعيد تقي الدين نفسه باسلوب مسرحي، وقيل أن فراره من سجن المزة شكّل محوراً هاماً في سيرته الخارقة، وجرى تداول حول فكرة نشر هذه القصة ضمن فيلم سينمائي، ورُوي أنه كان متفوقاً في حبك النكات مما جعله شديد الجاذبية لدى الجنس اللطيف ومتميزاً في علاقته بالمرأة، فلم يكن من الغريب تعدّد المرويات عن مساهمة النساء في حمايته وعملية تهريبه إلى بيروت.

بفخر كبير، تردّد في صحف الحزب أنه استطاع بدهائه أن يخترق حصون سجن المزة التي لم يحدث قبل ذلك التاريخ أن تمكّن سجينٌ من الإفلات منها لشدة الحراسة فيها وحولها. بل قيل بإعتزاز أن فراره «أسطورة إهتزتْ لها أعمدة الظلم والطغيان»، وأن قصته هذه مدهشة جداً، وأعجب ما فيها أنها «قصة بطولة خارقة قام بها بمفرده فأحدث ثقباً في باستيل المزة الرهيب». وروى البعض عن أنه كتب بخط يده وقائع الفرار التفصيلية، وأنه لجأ إلى منزل آنسة تدعى جورجيت كانت تربطه بها علاقة حب وكان ينوي الزواج منها فبقي في منزلها ثلاثة أيام قبل أن يغادر دمشق إلى بيروت. وروت صحيفة أخرى أنه لم يلجأ إلى منزل جورجيت بل إلى منزل إمرأة أخرى، لم أعد أذكر إسمها. وتساءلتُ يومها هل هو بطل ملحمي أم شخصية مقتبسة من قصة قصيرة كتبها سعيد تقي الدين؟

لم تكن حكاية وصوله إلى بيروت أقل غموضاً وتبجيلاً. من تلك الحكايات الشيّقة التي حيكتْ حوله ان المحامي والكاتب القومي مصطفى عبد الساتر استلم دعوة عاجلة من سعيد تقي الدين لموافاته إلى شتورا ليخبره أن رجال شبلي العريان قبضوا على محمود نعمة وهو في طريق دخوله إلى لبنان عن طريق دير العشائر فسلّموه إلى السلطة اللبنانية التي أوقفته في نظارة زحلة تحت إسم مستعار هو رزق الله عرنوق. وبتدخل المحامي عبد الساتر تمكّن سعيد تقي الدين من تلقّفه ونقله بحراسة مشدّدة إلى بيروت. غير أن خبراً آخر قال أن الذين قبضوا عليه ليس في واقع الأمر رجال شبلي العريان الذي عرف بتعاونه مع الحكومة السورية وكونه على علاقة وثيقة مع كمال جنبلاط، بل رجال النائب سليم الداوود الموالي للحكومة اللبنانية. المهم أنه أُطلق سراح محمود نعمه وظل متخفياً خشية مطاردة المخابرات السورية له بقيادة عبد الحميد سرّاج.

وهمّني جداً ما حدث لمحمود فقد سبق لي أن التقيتُ به لأول مرة صدفة بعد أن سمعتُ عنه الكثير فهو من قرية المشتى المجاورة للكفرون وقريب للقائد الشيوعي دانيال نعمه، وأسفتُ لذلك اللقاء بسبب ما حدث أثناءه مما جرّده في عيني من الهالة الأسطورية التي

حيكت حول شخصيته. حالما وصلتُ إلى منزل صديق لي في الشوير وجلستُ على شرفة مع جمهرة من ضيوفه وأهله، سمعنا شتائم مهينة وزمامير متلاحقة لشاحنة تحاول تجاوزسيارة صغيرة تمهّل سائقها عند منعطف ضيق لعدم تأكّده من الإتجاه الذي يريد أن يسلكه. وما أن أطلق سائق الشاحنة شتيمة مهينة حتى هبط شاب من السيارة الصغيرة يشهر مسدسه وكان أول ما فعله أن أفرغ عدداً من رصاصاته في عجلات الشاحنة، ثم تسلقها وانزل سائقها موجهاً المسدس إلى رأسه. إعترانا خوف عظيم فساد الصمت إلى أن قالت سهام يا جماعة إنه محمود فهبط صديقي صاحب المنزل إلى الشارع في محاولة لمنع وقوع جريمة. ونجح لحسن الحظ في تهدئة محمود وقاده إلى حيث كنا نجلس على الشرفة. وإستغربتُ مجيئه إلى منزل صديقي فلم أكن أعرف في تلك الأيام شيئاً عن علاقته بسهام كما إستغرب هو أيضاً وجودي هناك.

قضينا سهرة صاخبة معاً في ملهى الحاوي تبيّن لي من خلالها وجود علاقة حب رومنطيقية بين محمود والصبية الجميلة سهام واتضح لي سرّ تصرّفه في مواجهته مع سائق الشاحنة. قلتُ ربما لم يتحمّل شتائمه على مسمع حبيبته والسكوت عن الإهانة فحدثت تلك المواجهة التي كان من الممكن أن تنتهي بمأساة. عرفتُ عنه شدة إعتزازه برجولته، وأدركتُ من خلال تلك الواقعة التي شهدتها بعينيّ الإثنتين أنه مغامر متهوّر لا يهاب النتائج. وما أسمّيه تهوّراً، يسمّيه المعجبون به جرأة نادرة.

إحتفظتُ برأيي لنفسي، فقد رسختْ في الأذهان الصورة التي رسمتها لنا صحيفة صدى لبنان بعد أن نشرت خبراً عن «فرار ضابط كبير من المزة» في 11 كانون أول 1957، واعيد نشر الخبر في صحيفة لسان الحال لجبران حايك. وما ظننته تهوّراً ثبت للرفاق عكسه إثر فراره من السجن ـ هذه القصة التي ظلّت غامضة لي ـ وخاصة بعد الإنتصار البطولي الذي حقّقه في معركة شملان. أما تعاطفي معه فيعود لأسباب أخرى تتعلق بالنكبة التي أصابت عائلة أخيه نبيه نعمة الذي كنتُ أعرفه جيداً وأقدّر رصانته ومهارته في حلّ المشاكل المستعصية، ربما على عكس أخيه محمود الذي كان يميل للمجابهة والإستهتار بحياته هو قبل حياة غيره.

وقعتْ مأساة عائلة نبيه بعد فرار محمود نعمة من سجن المزة بأقل من شهر، أي في مطلع كانون الثاني 1958، عندما حصل فجأة انفجار في الشقة التي كان تسكنها عائلة نبيه في الأشرفية أودى بحياة ابنه نهاد البالغ السادسة من عمره، وشقيق زوجته شهدا الخوري، وصديق عضو في الحزب اسمه زخور الخال، وأُصيبتْ زوجته ناديا بالإغماء من شدة الرعب فنُقلتْ إلى المستشفى. وقيل أن الطفل كان مولعاً بخاله شهدا فترك فراشه في الليل لينام معه وكان من نتيجة ذلك الإنفجار أن تطايرت جدران تلك الغرفة وهوت جثث الثلاثة من الطابق الخامس إلى بستان مجاور. وكنت قد شاركتُ مع صَبَا في مسيرة المأتم التي انطلقت من منزل نبيه نعمة إلى المدفن عبر شوارع الاشرفية في صفوف نظامية أدهشت السكان الذين احتشدوا على جوانب الطرق.

أما محمود، وهو المقصود بالتفجير، فكان على ما يبدو أشطر من أن يسكن في منزل أخيه. وترسّخت صورته كبطل إسطوري بعد إنتصاره في معركة شملان على قوات جنبلاط التي إضطرتْ أن تنسحب بعد أن تكبّدت خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد. وجرى في أواسط الحزب منذ ذلك الوقت حديث لم ينقطع عن وقائع خارقة في قيادته لمعركة شملان صيف 1958 وهو في السابعة والعشرين من عمره.

أحببت جنبلاط كما أحببت سعيد تقي الدين وغسان جديد ومحمود نعمه، فاحترت مَنْ الذئب ومَنْ الحمل عندما قرأت قصة الذئب المسمى حرزا الذي رُوي عنه أنه لبس ذات يوم ثوب الحمل وتظاهر بالوداعة والبراءة، إلا ان الحملان إكتشفوا حقيقته عندما شاهدوا نابه الأزرق النافر من بين شدقيه. ليس من الغريب أن تتعارك الذئاب فيما بينها، كما ليس من النادر أن تتناطح الحملان. لكل فريق نابه الأزرق إن كان مِمَنْ يخوضون الحرب أو مِمَنْ يقفون على الحياد ومَنْ يفضّلون التعايش والتفاهم والأخذ والعطاء والإحترام المتبادل في مثل هذه الظروف. وحين تنشب المعارك تنتشر العدوى، ولن يكون من الغريب أن نشاهد أنياباً زرقاء تبرز من بين الأشداق الجائعة للقتل.

ومرّ وقت طويل قبل أن تكشف المخابرات أسماء بعض أصحاب الأنياب الزرقاء. قيل في وقت متأخر إن مخابرات عبد الحميد السراج وعدت برهان أدهم باعادته إلي الجيش السوري إذا ما أفشل مؤامرة تحاك ضد الحكم في سوريا وكان هو من المشاركين فيها مع السوريين القوميين والأتاسي والعجلاني وبدعم من بغداد. وقبل التعاون أعدّ برهان أدهم لحرب خفية شارك فيها الحمير والكلاب بعد أن إتصل السفير المصري في لبنان عبد الحميد غالب بالمقدم السراج وأبلغه ان القاهرة مستاءة جداً من أن شباباً من حزب الكتائب في زحله أطلقوا عدداً من الكلاب في الشوارع بعد أن علقّوا برقابها صوراً للرئيس جمال عبد الناصر. ورداً على هذه الإهانة، أرسل برهان أدهم حماراً ملغوماً داخل المدينة قرب بيت حزب الكتائب. وما أن أنجز هذه العملية بنجاح حتى أعيد للجيش السوري برتبة عقيد، وعُيّن

مسؤولاً عن إدارة مكتب شؤون لبنان في الشعبة الثانية.

واتسعت حملات الشتائم المتبادلة في الصحف اللبنانية وكان من أربابها الصحافي فؤاد حداد الذي كتب زاوية في جريدة العمل الكتائبية وقّعها بلقب «أبو الحن» بمناسبة إنتخاب شارل مالك لرئاسة الجمعية العمومية قال فيها ان المئة والسبعة والخمسين صوتاً التي حصل عليها شارل مالك في الأمم المتحدة هي بمثابة مئة وسبعة وخمسين بصقة في وجه جمال عبد الناصر. وكان أن تمّ خطف الصحافي فؤاد حداد فتردّد أنه نقل إلى دمشق ولكنه أعيد ّ إلى لبنان حيث تمّ قتله.

وحملتْ لي صَبَا عدداً من مجلة الآداب تلك السنة تحدّثت فيه عن إنعقاد مؤتمر الأدباء العرب في القاهرة تحت لواء القومية العربية القى فيه جمال عبد الناصر خطاباً قال فيه، «نحن في حاجة إلى الوحدة الفكرية... حتى تدعم القومية العربية، والتحرر الفكري ضروري لنا في هذا المجال، في الحرب الباردة التي تحارب بكل الأسلحة. والأدب والفكر سلاحان أساسيان في هذه الحرب». وربما جاء خطاب طه حسين رداً على هذه الدعوة إذ قال فيه أن الأدب العربي ليس أداة بل منشىء القومية العربية أولاً وهو الذي شارك في تكوينها وتقويتها بعد أن كوّنها القرآن، وأضاف ان الأدب يجب ان يكون حراً ليستطيع الأديب أن يؤدي دوره حقاً، «فالفنان الذي تفرض عليه القيود أو الذي يفرض على نفسه قيوداً ليست فنية ليس بالفنان... فمن حيث أنكم عرب، وللوطن العربي عليكم حقوق، فلا بدّ أن تفرض طبيعة الأشياء على أدبكم قيوداً لا سبيل أن تتخلصوا منها... ولا بدّ أن تؤدوا لأوطانكم حقوقاً عليكم، وأول حق يجب عليكم أن تؤدوه لوطنكم، وهو العروبة... ولا ينبغي لأديب أن يطلب حقه قبل أن يؤدي واجبه».

لم يكن موقف طه حسين واضحاً في تلك الخطبة وضوح سهيل إدريس الذي قال في مجلته الآداب في تلك الأيام العصيبة، «أصبحت ثورتنا اللبنانية النبيلة رمزاً للتحرر والخلاص».

ولم يكن الظلام عاماً، فقد جرت قبل إندلاع الحرب الآهلية في مطلع آذار تظاهرات طلابية وشعبية في لبنان إحتجاجاً على الحكم باعدام جميلة بوحيرد في الجزائر. وعندما حاول المتظاهرون المرور أمام القصر تصدّتْ لهم قوى الأمن. في هذا الوقت نشر نزار قباني قصيدة بعنوان «جميلة بوحيرد»، جاء فيها:

أجمل أُغنيةٍ في المغربْ

أطول نخلةْ

عرفتها واحاتُ المغربْ

وإزدحمت أخبار الأحداث فلم تجد صحيفة «النهار» أفضل من أن تذكر بتاريخ 12/10/58 ان حليم بركات شوهد ينزل كل صباح إلى الصرفد في الشوير يتأمل ويكتب، وقيل أنه يكتب قصة قصيرة بعنوان «حجر يغوص في البحيرة».

***

لم يكن إنقلاب 14 تموز في العراق حدثاً عادياً في وعينا، على الأقل بالنسبة لنا في لبنان. وأصابنا ذهول لهول ما وردنا من قصص عن سحل وشنق وارتكاب ما لا يمكن ذكره لبشاعته. إن صحّت الأخبار، قالت لي صَبَا، لا بدّ أن يكون العهد القادم أكثر سوءاً من العهد البائد. وهمّنا بالدرجة الأولى في لبنان أنه ما أن أطاح الإنقلاب العسكري بالاسرة المالكة ونظام نوري السعيد حتى استدعى شمعون إلى قصر الرئاسة فوراً السفير الأمريكي روبرت مكلنتوك وقدّم إليه طلب لبنان الرسمي بارسال مساعدات عسكرية أميركية بموجب المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة والاتفاقات بين البلدين في إطار مشروع أيزنهور. وفي اليوم التالي أنْزَلَ الأسطول السادس قرب ساحل الأوزاعي في بيروت قوة لا تقل عن 15 ألف جندي مع سائر المعدات العسكرية مما أثار غضب المعارضة اللبنانية التي طالبت باستقالة شمعون الذي استقدم القوات الأميركية وتحدّث مستهتراً بمشاعر الغضب عن «الزيارة الودية» التي قام بها الاسطول السادس.

تواً، وبوميض البرق، وقبل أن يدري اللبنانيون، توزّعتْ قوات الإنزال الأميركية على بساتين الزيتون حول مطار خلده الدولي وأخذت طائرات النقل الجوية العسكرية تهبّ من كل صوب الواحدة تلو الأخرى حاملة قوات ومعدات إضافية. ولم يكن من الغريب لدينا أن أثار إنزال القوات الأميركية أمواجاً من الغضب والاستنكار في صفوف المعارضة فقال جنبلاط أن شمعون أطلق آخر سهم في جعبته، إلا أن ما أطلقه لم يكن سهماً بل خدعة إنطلت عليه دون أن يدري كما سيرى فيما بعد، وأخذ المارينز يتجولون في حي الزيتونة بحرية تامة.

ومما ظلّ عالقاً في ذهني أن ديانا تقي الدين قالت لي أن والدها سعيد يعيش كما يشاء وسيموت كما يشاء. هالني كلامها رغم قناعتي أنه يغامر بنفسه قبل غيره. يسير في الخط الأمامي ساطعاً، ويقود لا يُقاد في الجبهة الأمامية. لم يقصد أن يعرّض نفسه للخطر، ولم يكن استشهادياً. كان يحب الحياة، ويثق أن لديه ما يقدّمه لها، ويتقدّم إلى حيث المعركة الحقيقية، ويرفض أن يكون هامشيّاً. كلُ من محمود نعمة وغسان جديد وسعيد تقي الدين أحبوا الحياة وأقبلوا عليها بزخم. وفي حبهم للحياة فهموا ان مهمتهم تعني التحرّر من مصالحهم الشخصية وان المهمات العظمي تفترض القدرة على التضحية حتي بأعز ما يملكون.

أعجبتني للوهلة الأولى مقالة سعيد تقي الدين باللغة الانكليزية بعنوان، «جسر تحت الماء»، فقد قرأتُ فيها أنه يهاجم وجود القوات الأميركية في لبنان وقلتُ في نفسي لعلها تباشير عودة الحزب إلى منطلقاته، ولكنني بعد أن أعدتُ قراءة المقالة وجدتني أتساءل هل من الممكن إعتبارها رمزاً لعلاقة خفية بين الحزب وأميركا. أراد ظاهرياً أن يبدو ضدّهم في تلك المقالة، أما ضمنياً فهو لا ينسى تحالفه مع حلفائهم. هناك حقاً جسر تحت الماء عبره الحزب إلى الشاطىء الآخر. وهناك نفق ربما لم يكن من المنتظر ان يعبره لولا الإحساس بانه مستهدف في صميم بقائه.

في تلك الأيام العصيبة، وكانت الحديدة ما تزال حامية، أرسل أيزنهور في 17 تموز نائب وكيل وزارة خارجيته روبرت مورفي إلى لبنان وكلّفه، كما أعلن، مهمة تقصيّ الحقائق والبحث في أفضل حل للأزمة، الأمر الذي إقتضى تخلي أميركا عن شمعون مما أحرج بشكل خاص شارل مالك وأغضبه جداً لأنه حالما وصل مورفي إلى بيروت لم يتوجّه إلى قصر الرئاسة كما هو متوقّع، بل إلى المصيطبة للتحدث مع صائب سلام وعبد الله اليافي وعدد من قادة المعارضة. كانت صدمة افقدت مالك وشمعون صوابهما، كما لو إكتشفت زوجةٌ زوجها ينام مع خادمتها في فراشها الناعم. وكما لو قصد أن يرشّ ملحاً على الجرح، عاد مورفي ليلتقي مع رشيد كرامي وجنبلاط والبطريرك معوشي وريمون إده وأميل البستاني وفؤاد شهاب الذي تمّ انتخابه في 31 تموز 1958بأكثرية 48 صوتاً في مقابل 7 أصوات أعطيت لريمون إده. هذا المجلس العقيم، لماذا دائماً ينتخب رئيس الجمهورية تقريباً بالإجما ع؟

أقيم حفل اداء القسم لفؤاد شهاب في وقته المحدّد. كانت السماء صافية والشمس مشرقة، ودوت في الأحياء الاسلامية طلقات التحية للرئيس الجديد، وردّت بيروت الشرقية بقرع الأجراس حزناً، وفي اليوم التالي وقّع شهاب مرسوم تعيين رشيد كرامي رئيساً للوزراء، وفي اليوم ذاته حدث في ساحة الشهداء نزاع بين مقاتلي الطرفين، واسفرت الاشتباكات عن مقتل 28 شخصاً وإصابة 53 بجروح، وانتقلت الإضطرابات إلى كسروان والمتن، ومنها إلى زحلة، وظهرت في الصحف أنباء عن خطف رهائن وتعذيبهم بوحشية.

وما كان من بيار الجميل إلا أن أعلن الاضراب في 22 أيلول وقامت المتاريس بين شطري بيروت الشرقية والغربية، وحدث تبادل النار. وزاد من حدة التوتر أن حذّر بيار المسلمين كما إعتاد بأن المسيحيين لن يناموا على ضيم. وفعلاً أرسل اتباعه للتظاهر في شوارع بيروت الشرقية وتصوّر بعضهم وهم يحملون السلاح وهم يهتفون، «عالقنطاري... عالقنطاري»، وأكدّ البعض الآخر أن سيدة عذراء حريصا سُمعت تقول، «الله يخليلنا شمعون» الذي كان قد أصرّ على البقاء في الحكم حتى نهاية ولايته في 23 أيلول 1958، وأخبرني يوسف الحصني أن شارل مالك غضب على الأميركان لأنه أوصى السفارة بتوظيف شاب مسيحي لمنصب في صوت أميركا غير أنهم فضلوا عليه شاباً مسلماً.

في هذا الوقت بالذات نشط قبضايات الأحياء الذين يصفقون للطالع ويبصقون على النازل، ويتقلّبون حسب منافعهم وأهوائهم فيكون صديق الأمس عدو اليوم، وعدو الأمس صديق اليوم. هؤلاء هم الذين تسابقتْ الزعامات السياسية على إرضائهم بمنحهم رخص حمل السلاح ولم يكن من مصالحهم أن تتوقّف المعارك. إنما تدريجياً بدأت الحياة في النصف الثاني من تشرين أول 1958 تعود لمجراها الطبيعي فرُفعتْ المتاريس من الشوارع، وتمّ تنظيف القمامة التي تكّدستْ خلال الأشهر الأخيرة، وألغي منع التجول جزئياً في البداية، ثم كلياً، وغادر آخر جندي أميركي، وعاد الناس إلى نزهاتهم المسائية على الكورنيش والاستمتاع بهواء البحر المنعش. وارتفع شعار «لا غالب ولا مغلوب»، و«لبنان واحد لا لبنانان»، هذه الشعارات التي تقبّلها الناس ليستأنفوا حياتهم كما اعتادوها. مَنْ مات مات، ومَنْ جرح جرح، وما تهدّم تهدّم. حدث كل ذلك لأسباب نجهلها ولا نريد أن نعرفها على حقيقتها أو حتى أن نفكّر بها. ولم يولد إنسان جديد من رماد لبنان، فما حدث طيلة ستة أشهر في عام 1958 لم يكن ثورة لينتهي بثورة تقيم نظاماً جديداً. وكان على شهرزاد أن تفكّر بحكاية أخرى كي تضمن سلامتها، وإنتقلنا من عهد إلى عهد آخر لا يقلّ تخلّفاً في بعض المجالات.

خسر شمعون المعركة، وشعر أتباعه إنه إنهزم فقال أحدهم أنه حتى أمس كان يصدّقُ ما يُقال عنه من أنه صياد ماهر إبن نمر

شمعون، وأنه يعرف أين تكثر الطرائد ومتى يصوّب بندقيته ومتى يطلق النار. لقد طاشت طلقاته هذه المرة في فضاء شاسع. وقال يوسف لشارل، «وقانا الله شر الايدولوجيات»، فردّ عليه، «إن فرادة لبنان أنه يحضن القيم الحضارية المستمدة من المسيحية... فلبنان من حيث هو لبنان لن يغلب. ملكوته ليس من هذا العالم، وقوات الجحيم لن تقوى عليه».

أما أنا الذي يُحبّ شهرزاد ويتعلّق بحبال حكاياتها متأرجحاً بين جزيرة وأخرى فإنشغلتُ ككثيرين من أمثالي بالتنبوء بمستقبل بيروت رافضاً معادلة لا غالب ولا مغلوب، ورددّتُ لنفسي أن كلاً منا مغلوب على أمره إلى ان نؤسس مجتمعاً موحَّداً في تنوعه لا تمييز فيه على أسس دينية أو أي أساس آخر. بدون ذلك لن يكون هناك ديمقراطية، وبل حرية، في لبنان الذي أزهقنا ميشال شيحا وشارل مالك بترداده‌ما أن الحرية هي معنى وجوده في محاولة للإبقاء عليه كما هو. وما كان لبنان ليبدو بلداً حراً لولا أننا نقارنه بالأنظمة السلطوية حوله، فالحرية والتمييز لا يتعايشان. ما نجده في واقع الأمر أن هناك دولة فوضوية في لبنان تقابلها دول سلطوية في بقية الدول العربية.

هنا تذكّرت أن صحيفة «النهار» سألتني في سلسلة من المقابلات أجرتها مع عدد من الكتاب الشباب ما رأيي «في أحداث لبنان الجارية؟ ما الأسباب وما الحل؟» فأجبتها باختصار قائلاً كما تمّ نشرها في 22 تموز 1958: «ما حدث كان تصرفاً غير مسؤول والناس جزء من فوضى الأحداث كما لو أصبح الإنسان عبداً للصدفة. لماذا الموت؟ إننا ضحية طغيان الصدفة والدولة والجماعة، وفي هذه الأجواء لا نمارس حريتنا ومسؤوليتنا. إننا نمارس التوحش والطغيان، وهناك خلل في علاقة الوسائل التي نستعملها بتحقيق الأهداف التي نسعى إليها. ولهذه الأحداث، وما ينتج عنها من مشكلات، جذورها في الواقع الاجتماعي النفسي. ليس في ثقافتنا حقاً من تسامح واحترام متبادل. كلٌّ منا يضع نفسه في خانة التحرّر والأخر في خانة الخيانة. أما الحلّ فمن نوعين. هناك الحلول الموقتة كالقول بإيقاف العنف والعودة إلى الدستور والمؤسسات. وهناك الحلول البعيدة المدى، مما يعني إعادة النظر في مفاهيمنا للواقع اللبناني...، فنعترف أنه ليس من ديمقراطية دون علمنة، وليس من حرية دون عدالة إجتماعية».

وتمنّيت لو قلتُ للنهار في ذلك الإستفتاء أن المجتمع مفسّخ فوق السطح وتحته، وبل في الأسس التي يرتكز إليها. وأخطر ما في الأمر أننا ما نزال نجهل أين نبدأ في معركة التحرّر والبناء.

انتهت الحرب الأهلية وبقي الخوف في النفوس على مستقبل يأتي متباطئاً كسلحفاة أضاعت طريقها. وأضعتُ طريقي أنا أيضاً حين قالت لي صَبَا أن عمها منعها من الالتقاء بي ووضع حرساً سرياً عليها وأن هناك مَنْ أخبره بلقاءاتنا العلنية والسرية فأوصتني أن أكون حذراً من أشخاص يراقبون تحركاتنا، وإتفقنا أن نخفّف من لقاءاتنا على أن نستعيض عنها بتبادل الرسائل ريثما نجد حلاً.

أبقيتُ حبي لها سراً حتى عن أغلب اصدقائي ومعارفي، واعتبرتُ أنه سيمر وقتٌ قبل ان أتمكّن من التصريح به. في الواقع أنه كان عليّ أن أصرّح به لنفسي، فهو ما زال حباً غامضاً لم أفهمه. حدث لي دون أن أخطّط له، وأقبل إليّ كما تشرق الشمس تلقائياً. وبل واجهتُ نفسي بأنني أحب فتاتين بشكل خاص. تعلّقتُ بصَبَا التي أصبح لها حضور مباشر في حياتي، وحلمتُ برؤى التي لم أعد متأكداً كيف تشعر تجاهي بعد مرور سنوات على غيابها. حين تحضر احداهما تغيب الأخرى، وحين تغيبان معاً، أضيع أنا واستغرب كم أتكلّم عن الضياع الذي لم أعد متأكداً هل استلهمتُه من واقع حياتي أم من قراءاتي في الفلسفة الوجودية. وعندما تحضران في فكري أتوزّع تائهاً بين الحضورين. لم يكن من صعوبة في حبي الأول. تجنّبتُ عذابات القلب بقدر المستطاع وانقطعت للدراسة كما ظللتُ على علاقة عشق مع البحر والكتابة. حين أقحمتُ نفسي في حياة رؤى لم تقل لي «لا» ربما حين كانت تريد أن تقول «لا» بسبب إرتباط سابق، ولم تقل «نعم» حين أرادتْ أن تقول «نعم». أما صَبَا فاردتُ أن أحميها حتى من حبي لمعرفتي بالمشاكل التي تعترضها، واتهمتُ نفسي بانني أحببتها بدافع الفراغ داخل نفسي. ولم يعجبني أنني تلقّيت جواباً على أول رسالة حب لها تسألني فيه لماذا كل هذا الكلام عن الضياع؟

أعترف أنها على حقّ. أحياناً لا أصدّق نفسي ماذا أقول أو أفعل. تلك خيبة أمل لن أتمكّن من التغلب عليها بسهولة مهما حاولتُ. وما أن أوبّخ نفسي حتى أكتشف مزيداً من أخطائي، وأتساءل صامتاً إلى متى أحجبها عن نفسي؟ ما يطاردني دون رحمة ان ظروفاً بالية تمنعني حتى من التكلم عنها بوضوح كي لا إسبّب لها ضرراً. وإستمريتُ مقتنعاً بحبي رغم صعوبات لم أعرف كيف أجد مخرجاً منها. إننا نجابه نظاماً وتقاليد بالية في أسس الواقع الإجتماعي. ومهما كان، إعتبرتُ الإستمرار في حبي لصَبَا تجربة في التعرض للخطر، أنا الذي آمنتُ فلسفياً بمجابهة المخاطر لا الهرب منها.

دون تخطيط نما الحب بيننا كزهرة برية بعد يوم ربيعيّ ممطر. منذ هاجرتْ رؤى لم أبحث جدياً عن فتاة تحلّ محلها. وفجأة ملأت صَبَا الفراغ في نفسي. حضرنا معاً في صيف 1958 فيلماً سينمائياً بعنوان Boy on a Dolphin . صبيٌّ وصبيةٌ يبحثان عن كنز في أعماق البحر. وأدركنا نحن أن الكنز الذي نبحث عنه أروع من الذهب فتشابكت أصابعنا وبحثنا عن جزيرة في أعماقنا غمرتها الامطار والرياح وظلّلتها الاشجار. كان ذاك حلماً جميلاً لم نرد اليقظه منه فتركناه يأخذنا حيث شاء في متاهات العالم ومهما كان الثمن الذي لا بدّ أن ندفعه عاجلاً أم آجلاً.

ثم حضرنا في إسبوع آخر فيلماً إسمه Carousel كما إكتشفتُ أيضاً من خلال يومياتي. كان الفيلم يدور حول قصة انسان ظل لزمن طويل يبحث عن السعادة. وكتبتُ بخطٍ كوفيٍّ أنيق ما قاله أحدهم في الفيلم، «عندما تمرّ في العاصفة ارفع رأسك عالياً». ولأيام ظللتُ أسمع في مكان سحيق داخل نفسي موسيقى تموجات الريح وإيقاعات المطر. وما زلتُ كلما أصغيتُ للموسيقى الكلاسيكية أتخيّل نفسي غيمة يعصف بها الريح فاستسلم له كما بدأنا نستسلم للحب يأخذنا حيث شاء وليكن ما يكون، ولم نترك مجالاً للتفكير بأن النتائج قد تُفْسد متعة الرحلة.

وفي لحظة غضب وجدت نفسي أحاول إغتيال تلك المتعة الإلهية فقبضتُ على عنق جسدي وقلتُ له، «لن أسمح لك ان تفرض عليّ رغباتك وأهوائك وغرائزك»، فانتفض جسدي محتجاً، «وأنا أيضاً لن أخضع لإرادتك بعد الآن. لن أقبل ان تفرض عليّ معتقداتك الهزيلة. رضختُ لإرادتك لزمن طويل. كفاك تجبّراً. حجبتَ عني ضوء الفرح. أغلقتَ الأبواب والنوافذ لأعيش في الظلمة. منذ الصغر وضعتني في زاوية وطلبتَ مني أن أدير وجهي للحائط. إلى متى القمع؟»

تفاجأتُ بهذا التمرد ويجب أن أكون قد إستجبت لعصيانه، فقد ذكّرتني يومياتي أننا حضرنا معاً فيلماً صوّر آثار اقدام في الرمال تمحوها الأمواج إعلاناً بإنتهاء حب عظيم، فحدّثتُ حبيبتي عن الإمرأة التي أحبها بيتهوفن وعن الأوضاع الاجتماعية التي لم تسمح له ان يتزوّجها فكتب لها من صميم المعاناة قطعة موسيقية رائعة، وفي ذلك لم يكن يقصد ان يقدّم فكرة مجرّدة، بل أراد ان يعبّر عن تجربة انسانية. وعلّقتْ صَبَا بقولها أن الحب كثيراً ما أبدع في خلق الانسان خلقاً جديداً.

ومع أننا تولّعنا بالسينما، إلا أن السباحة ظلت متعتنا الأولى. لم نترك مكاناً جميلاً على شواطىء لبنان لم نزره. قضينا أوقات ممتعة على شواطىء صور وطاردنا الموج كما طارَدَنا هو فنشأتْ بيننا وبينه علاقة وثيقة. وبحثنا عند شواطىء السعديات

والدامور عن مختبَات آمنة. قرأتْ لي مقاطع من رواية لدوستوفسكي عند صخور الروشة فكان علينا أن نغطس في الماء بين حين وآخر كي نخفّف من حرارة الجسد. وقضينا مرة يوماً كاملاً في مسبح «تامارا» في جونيه وقد أشرفتْ علينا من مكان مرتفع السيدة العذراء فانشغلتْ بنا عن لبنان تبارك حبنا بعد أن ذكّرتها كم رتلّتْ لها إبنة عمي بهية بصوتها الجميل، «يا أم الله يا حنونة»، ولم أخفْ أن تحاسبني على مواقفي من الدين. وفي عين التفاحة، قرب جبيل، سبحنا مراراً ولعبنا تحت الماء كما لو تحوّلنا إلى أسماك ملوّنة. يومها، في طريق عودتنا، كتبتُ في دفتر لا يفارقني:

أسمع أنينكِ آتياً من الأعماق،

وصراخاً تثيره الأشواق

الغريبة، المختبئة في أعماق مجهولة

داخل النفس وفي قاع الجسد.

عوالم رحبة تمتدّ بعيداً،

وتُولد في أعماقنا كما تُولد الغيوم.

افترقنا لمدة فحلّت رسائل الحب المتبادلة بيننا مكان لقاءاتنا. وحين لا أستلم رسالة منها في الأيام المحدّدة، كان نهاري يتحوّل إلى ليل حزين. لأشهر كاملة تبادلنا رسائل إسبوعية إلى أن جاء يوم أدركنا فيه إستحالة اللقاء فاتفقنا أن أعيد لها رسائلها وأن تعيد لي رسائلي. إحتفظتُ أنا برسائلي لها، وقالتْ هي أنها أحرقتْ رسائلها لي فاستحالتْ رماداً. وبعد زمن فتحتُ نوافذ رسائلي لأكتشف أنني كتبتُ لها:

أسمع صراخ حبك في دمي،

فلماذا لا أُصرّح به؟

وأحمّل رسائلي إليك الحنينَ والدفء،
الضياعَ والبحثَ،
والعطشَ.
الحب قادني إلى أغوار بعيدة
لأجمع لكِ باقات الألم والفرح،
وأيقظ البحث عن حبيبتي
غيمةً تحمل المطر والظلال
إلى حقولي.
أكتب أغنية لعينيك المليئتين بالأسرار.
أما أنا فـ«تانتلوس» آخر
حكمتْ عليه الآلهة ان يظلّ في عطش دائم
وهو وسط بركة ماء عذبة.
الماء حولي ولا أستطيع ان أشرب.
مأساة تانتلوس مأساتي أيضاً
يا صديقتي.
وكالعير في البادية عطشى
والماء فوق ظهورها محمول.

وفي يوم آخر كتبتُ لكِ، «صحيح أن الحب يكبر في الألم ويسمو حتى يكاد أن يحلّق في الأجواء الواسعة. به إزدهرتْ كتاباتي كما لو استحال فسحة للوحي والتأمل في ظواهر الأمور وبواطنها. وذكرتِ لي أنك لا تعتبرين نفسك أديبة مثلي وتطلبين ألا أتوقّع أن تكون رسائلك جميلة كرسائلي»، وتقولين أن عمك وضع حولك حرساً ولا تدرين كيف ترينني دون علم منهم فتسأليني، «أظن ان ذلك لن يحدث إلا حين أصبح قادرة على المواجهة فهل تنتظر؟ اذا رأيتَني في مكان عام فلنتجاهل بعضنا البعض، ولكننا سنتراسل دوماً، وسنبني عالماً جميلاً يُنسينا كل شيء. كن حذراً فأنت مراقب. هناك مَنْ ينقلون لعمي كل أخبار لقاءاتنا. وهذا ما يؤلمني لأنني أوقعتك في مشاكل كثيرة، لكننا سنتغلّب عليها. أليس كذلك؟ إنني مرهقة من كثرة المحاضرات التي سمعتُها، فلا أعرف كيف اتفاهم معه، وأنتظر يوماً أستطيع فيه أن أكون حرة. هل تتذكّر ما قالته المعلّمة في فيلم Peyton Place ؟ قالت إن من يريد الحصول على شيء عليه ان يناضل. لذلك قرّرتُ أن اناضل. إنما أحتاج إلى بعض الوقت».

وأجبتك، «انتظر كما تنتظر الليالي المظلمة القمرَ والشجرةُ العاريةُ الورقَ، والشاطئُ الموجَ... ننتظر معاً اطلالةً على الحياة. الاضطهاد لا يقضي على الحب. وها أنا أستمد قوتي من الكتابة».

في الخلق يبطل العناء،
وبه أجتاز جحيم الواقع.
انتظر كالليل مجيء النهار،
وأتوق أن أُبحر في عينيك
بحثاً عن أسرار
تبتعد كلما اقتربتُ منها.
ويا ليتني كنتُ خيمة
تحتمين بها من قسوة الشمس والريح.

لا يمرّ في حياتي شيء جميل دون أن أراك تحدقين بي من خلاله، كما عندما اسمع الموسيقى أو اكتب أو أقرأ أو أمارس السباحة في جزيرة نائية. وأحببتُ في رسالتك الأخيرة وصفك مشاعرك ونحن نسبح. أنا أيضاً دخلتُ هيكل الحب من خلال علاقتنا معاً بالبحر.

لا أنسى كيف غمرتُ جسدَك بالرمل، وغمرتِ جسدي بالماء، ثم إبتعدنا معاً إلى جزيرتنا المستوحدة. لن أنسى حين تمسكتُ بخصرك ونحن نهبط تحت الماء، ثم ارتفعنا. نهبط ونرتفع وأنتِ تضحكين منتشية. في تلك اللحظات صهر اللهبُ حبنَا بشكل الموج».

«عمك يقول لك بأن الأدباء يكتبون ما يتمنون، لا الحقيقة. ربما هو على حق في بعض الحالات ولكنه يقصد أنك مبهورة بكلماتي. ما أعرفه أنني كلماتي، وان كلماتي أنا.

كالماء تتدفق من ينابيعي،

وكغيمة تهطل أمطارها.

ثم إنك سألتني لماذا أشعر بالضياع؟ بصراحة أجيبك انني لا أدري. أحس كما لو ان أنهراً صاخبة تجرفني في طريقها إلى واد عميق مليء بالصخور. أحب أشكال تلك الصخور بقدر ما أكره الارتطام بها. ربما أنا ضائع لأن الأفق الذي أسعى إليه يظل بعيداً مهما بذلتُ من جهد، أو لأنني لا أعرف ما أُريد تماماً. ظننتُ ان الحب سينقذني من الضياع ويخفّف من آلامي فإذا به يفجّرها. أتصوّر نفسي زورقاً صغيراً تمزّق شراعه وتقاذفته الأمواج. أقول عن نفسي انني قيثارة بدون أوتار في هذه الأيام، ويؤلمني انك تتألمين، وأكره ان أسبّب لك كل هذه المتاعب ولا أريد أن أكون سبباً لوضعك في قفص وحرمانك من الحرية. لذلك أطلب منك ان ننسى وان تحذفينني من حياتك. أقول أنا لا ارفض ان تتعذبين من أجلي، وأرجوك ألا تغضبي عليّ. أطلب غفرانك، وسأجعل من ذكرياتنا الجميلة كنزاً ومنارة».

وأجابتني صَبَا برسالة أخجلتني. بتصميم وهدوء قالت لي، «أنا لن أنسى وانتَ أيضاً لن تنسى، فلماذا تحاول التفرقة بيننا؟ انك تعاقبني كما تعاقب نفسك لجرم لم نرتكبه». ودفنتُ في لقاء أخير رأسي في كفيّها مؤكداً لها ان مشاعري لن تتغيّر عندما التقينا سراً في منزل جميل يُشرف على البحر كما يطلّ عليه جبل صنين. في فسحة من الضوء وأجواء موسيقى الجسد فِضْنا فرحاً ومرحاً. لساعات عذبة لم يعد صدري كهفاً مظلماً. أصبح نبعاً في واد عميق. وحرّك الحب بحيرة وجودنا عندما تعاهدنا أن نكون معاً دوماً مهما ارتفعتْ الحواجز وبعدتْ المسافات وتراكمت المشاكل.

وسألتيني يوماً يا صديقتي، «هل تعتقد ان الجاهل أكثر سعادة من العاقل؟»، فاجبتُك «أكيد»، ثم عدّلتُ موقفي بعد تردّد، «ولكن ربما العاقل أكثر سعادة لأنه يدرك أنه غير سعيد».

وبكلام عابر إستعذبتُه قالت لي صَبَا أنها تحب ان تركب الترامواي في ساعات متأخرة من الليل إذ تبدو «وجوه الناس مستطيلة وعابسة»، فقلت لها «كم اتمنى ان أقفز فجأة فوق الأزمنة والأمكنة التي تفصلني عنك. أريد ان اختصر الزمن، وكلما ازدادتْ رغبتي في اختصاره كلما شعرتُ أنه يتطاول ويتباطأ. أريد ان أصرخ بكل ما في نفسي من لهفة للحياة» هنا ذكرتْ لي أنها حلمتْ قبل أيام أنها كسرت رجلها وانني كنت وحدي قربها في المستشفى، فادخلتُها عباءتي واعترفتُ لها أنني أسير في الشوارع والأزقة والدروب والمقاهي والمنعطفات أبحث بين الوجوه عن وجه واحد هو وجهك علّه يفاجئني.

أحنتْ رأسها متجنبة أن تلتقي نظراتنا وأجابتني بشيء من الحياء لم أتوقّعه في تلك البرهة، «أنتَ ضوء تفصلني عنه جدران كثيفة»، فأعانقها وأردّ على كلامها الجميل قائلاً:

إنني بحارٌ يصطاد اللؤلؤ في خليج بعيد

وانت صَدَفَةٌ في أعماق البحر.

أخاف أنني صخبٌ يقتحم عالمك الهادىء.

قلتِ لي: أذكّرك أنني أنا، لا أنتَ، كانت البادئة في حبنا.

- تخفّفين عني عبء المسؤولية.

- لا. لا. بتاتاً. لا أريدك أن تظن انك تقتحم عالمي وأن ما جرى بيننا كان بإختيارك لا بإختياري. ما أفعله أفعله بإرادتي وأتحمّل مسؤوليته.

- كل ما في الأمر أنني لا أريد أن أسبّب لكِ مصاعب، يا صديقتي.

- أسأتَ فهمي. أنتَ لا تسبّب لي متاعب. ما حدث كان بإختياري أيضاً.

- آسف لسوء الفهم. أنتِ الخبز الذي تتوق إليه روحي

ـ وأنتَ الشمس التي أنتظر شروقها

ـ لا أستطيع تحمّل الفراق

ـ أنتَ دائماً معي لا تفارقني

ـ أنتِ أروع ما في حياتي

ـ أنا أَم الكتابة؟

ـ أنتِ والكتابة.

ـ وإذا ما حدث تناقض بينهما؟

ـ لا تناقض بينكِ وبينها. أنتِ هي وهي أنتِ.انت والكتابة أروع ما في حياتي، وبدونكما آشعر انني بلا هدف، بلا معنى، وبلا مستقبل. بكما ومن أجلكما أحب البحر والموسيقى والقمم والجداول البعيدة.

ونصمت. ألمس يدها. تلمس يدي. أضمّها إلى صدري، تضّمني إلى صدرها. نصغي معاً لايقاعات الجسد كما لو أنها مطر غزير وعاصفة. تبدأ هادئة، تتصاعد تدريجياً، تعصف، نستسلم لتيارها الجارف يأخذنا حيث ومتى شاء. أقول، وأنا أستظل بشعرك، «عندما تصلني رسالتكِ أقرأها ولا أريدها ان تنتهي. ما أكاد ابدأ حتى التهمها بسرعة وأعود لأقرأها ثانية. وقبل أن انام اقرأها من جديد وأضمها إلى صدري ثم أضعها على الطاولة أمام عيني فأغفو وهي تحدق بي بحنان كأنها أم وأنا طفلها الصغير».

في مخبأنا نستمع إلى برنامج، «بيروت تقدّم مختارات من الموسيقى العالمية»، ثم نتحدث ونتعانق دون كلام. وما أن إفترقنا حتى كتبتْ لي رسالة إكتشفتُ أنني لم أعدها إليها تقول فيها، «نادر، يا شاعري وشمسي. ما أزال معكَ هناك في دفء صداقة وحب تولّدا من جاذبية تواصلنا. تسأل الأسئلة التي يجب أن تُسأل، والتي أسألها أنا نفسي أيضاً. إنما أهم من كل ذلك، أحببتُ الأجواء وإستدامة توحّدنا... أحلّق عالياً في هذه الأيام، شكراً لكَ. أنتَ أجمل ما حدث لي.. واتمني أن يكون هذا شعورك أيضاً يا شاعري، وشمسي الحبيبة» وحلّقتُ في تلك البرهة غيمةً فوق حديقتها.

9 ـ زمـن الدهـشـة: (1959 ـ 1962)

اضطربتُ حين بدأتْ سفينة حياتي تميل للاستقرار، خاصة وأنني كنتُ ما أزال مأخوذاً بمسألة العلاقة بين القلق والإبداع. وهذا ما دعاني لمتابعة سلسلة من النقاشات مع عدد من الأصدقاء والصديقات. ثم أنني حافظتُ على علاقتي بصَبَا رغم إحساسي باننا نسير باتجاه طريق مسدود، كما كتبتُ إلى كلٍ من رؤى وعادل أُخبرهما أننا مصابون بخيبة أمل كبرى، ومع هذا لن نستسلم لليأس والاستكانة. وتوصّلنا من خلال أحاديثنا ونقاشاتنا إلى قناعة أنه لم يولد إنسان جديد من رماد حرب 1958 على عكس ما كنا نتمنّى، بل ازداد تمسّكاً بعصبياته التقليدية. هذا ما ثبت لنا خاصة في مطلع عام 1959 الذي إستقبلتُه بكل حواسي مجتمعة فأسفتُ حتى الغضب أن الغالبية العظمى من الناس لا ترى في مرآة الحياة سوى الظلم الذي تتعرّض له هي دون غيرها. وأتساءل دون جدوى كيف تتمكّن كل جماعة أن تتجاهل الفظائع التي إرتكبتها هي بحق الأطراف الاخرى وتحمّلها مسؤولية كل ما حدث؟

وتوسّعت دائرة إهتماماتي فشجّعتُ طلبتي أن يشاركوا في نشاطات ثقافية، منها تقديم أعمال مسرحية دون إعتماد نصوص مكتوبة مسبقاً فعيّنتُ مرة لطالب من البحرين أن يتقمّص شخصية شمعون، ولطالب من زغرتا أن يتقمص شخصية جمال عبد الناصر، وتجري بينهما مناظرة حيوية. وأوضحتُ للطلبة ان لديهم الحرية التامة في التعبير عن مشاعرهم وآرائهم.

ناقشنا معاً في الصف العدد الأول من مجلة الآداب عام 1959 وقد تضمّن تقريراً عن مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في الكويت آواخر ديسمبر من تلك السنة. أبدتْ الآداب ملاحظتين من أن الصراع السياسي القائم بين الدول العربية تجلّى في مناقشات المؤتمر فانحدر إلى المهاترة والإستفزاز، وأن توصيات المؤتمر كانت حبراً على ورق ومنها دعوة الحكومات العربية إلى تشجيع التأليف البطولي، وتسمية شوارع المدن بأسماء الأبطال العرب، وإطلاق سراح الأدباء المعتقلين بسبب آرائهم السياسية. وذكرت الآداب أيضاً أن المؤتمر ناقش ما أسمته موضوعات الساعة، أي البطولة في الأدب العربي، وتم الاستشهاد بابيات لعنترة. وفي هذه المناسبة، ألقتْ نازك الملائكة قصيدة عن جميلة بوحيرد، وكتب أحدهم قصة بعنوان «العنزة والصاروخ». كذلك ألقى محمد مهدي الجواهري كلمةً وفد الجمهورية العراقية بدأها بسلام الله والعروبة والشعب، وذكر أن المسافة من البصرة إلى الكويت تستغرق تدخين سيجارة واحدة فقط، ونقل إلى المؤتمر تحية العراق والزعيم عبد الكريم قاسم.

في هذه الأجواء المضطربة جمعتُ بين اهتماماتي الخاصة والعامة، ولم يعد بامكاني الفصل بينهما. وفيما أسجّل يومياتي صباح يوم مضيء، إستلمتُ مكالمة هاتفية من صَبَا لتسألني: أين انت؟

أجبتُ: صراحةً، لا أعرف أين أنا.

وبشيء من الهزء والحزن معاً علّقتْ ضاحكة: لا أستغرب ما تقول. يبدو أننا عدنا لموضوع الضياع. إنما أتصل بك الآن لغرض آخر.

وتوقّفتْ عن الكلام لبرهة في محاولة فاشلة لاستعادة السيطرة على صوتها المضطرب. شعرتُ بالحرج، ومرّتْ برهةٌ قبل أن تستأنف كلامها المتقطّع مستغربة صمتي: الدروب كثيرة ومتعرجة وبعيدة ومجهولة المصير. أين أنا؟ أين أنتَ؟ أين نحن؟ ظلامٌ كل ما حولنا، فاي طريق نسلك يا عزيزي؟

وأجيبها متخوفاً مما قد يكون حصل لها هي المعرّضة لمختلف المخاطر: تذكرين أنكِ سألتني مراراً من قبل لماذا أنا ضائع؟

ـ أذكر جيداً، والسؤال ما يزال وارداً. لذلك أتصلتُ بك. هذا تماماً ما أريد الحديث حوله.

ـ ضائعون لأننا اخترنا أن نكون أحراراً. بدأنا بالشك وانتهينا بالضياع.

وإتفقنا أن نلتقي في مكان سريّ لمتابعة الحديث رغم تخوّفي أنني قد أسبّب لها مشاكل جديدة، وأتساءل لماذا لا أعترف بهذه الحقيقة وإلى متى أتعلّق بحبال الهوى وأُوهم نفسي أنني أُدخل الفرح إلى قلبها؟

وما أن إنتهت المكالمة حتى عدتُ لدفتر يومياتي أسجّل فيه ما يتداعى إلى ذهني فيما أحس ان صَبَا تشرف على ما أقول وتلاحق خطواتي أينما إتجهتُ:

من أجل أن تكون لنا أحلامنا الصغيرة،

نتعرّض لرياح عاصفة.

وعبثاً أحتمي بكِ، وبالكلمات

فتنمو امنياتي في مناخ الخوف،

وتطلع لي أغصان جديدة

أنا الذي لم أجد حتى الآن جواباً

على تساؤلٍ قديم.

لماذا أسبّب لكِ يا صديقتي أحزاناً؟

وكيف أنسى أنك تبحثين عن بهجة ضائعة منذ الطفولة

في تلك اللحظة عدتُ أستلم مكالمة هاتفية أخرى من صَبَا لتقول ضاحكة: نسيت سبب مكالمتي الأولى وتهنا في تشعبّات الحديث. إتصلتُ بكَ في الأساس لأقول أنني كنت أقرأ قصيدة لأدونيس أعجبتني جداً فتذكّرتك وأردتُ أن أتوقّف معك عند مقطع لا شك أنك تعرفه جيداً:

تعبتْ عيناه من الأيامْ

تعبتْ عيناه بلا أيامْ

هل يثقب جدران الأيامْ

يبحث عن يوم آخر

أهنا، أهنالك يومٌ آخر؟

قلتُ لها أنه شريك في الضياع والقلق، وإنما لا بدّ من يوم آخر في حياتنا فاكّدنا على موعد اللقاء في مكان سريّ، ثم عدتُ لأكتب رسالة إلى صديقي عادل أصف له مشاعري. قلتُ وكأنما أخاطب نفسي:

«تردّدتُ في الكتابة اليكَ في هذه الأجواء التي نعيشها. برحيلك نجوتَ بجلدك يا صديقي. آه، كم أحنُّ للسفر وأخاف، كما لو أنني شجرة، أن أُقتلع من جذوري وأتعرّى من أوراقي؟ انني، يا صديقي، حزين مثل أغصان عارية تواجه الريح بمفردها، ولسبب لا أفهمه من ناحية أخرى أستغرب إحساسي بانني سعيد في حزني وحزين في سعادتي. لم يعد لنا غير الأحلام. لقد ضجرتُ من العيش خارج نفسي في جو مسطّح من الأعمال الرتيبة الآلية، وأود ان أغوص في عالمي الداخلي:

لا أدري تماماً لماذا يجتاحني الحزن دون رأفة

في هذه اللحظات بالذات.

ربما ترحيباً بالمطر الذي يتساقط غزيراً في الخارج

لأول مرة هذه السنة.

أرى المطرَ رائعاً، وسط هذا العالم اليابس.

أسمع إيقاعه الإلهي فتجتاحني ذكرياتٌ كثيرة

تجتمع معاً مثل غيوم كثيفة

وتندفع كمثل الموج في يوم عاصف.

ثم أصغي لموسيقى المطرالذي أصبح رفيق تأملاتي، فليتني استطيع ان أرتّل له أناشيدي الدفينة، وأحرق بخوراً على مذبحه. ترى ما تزال تسكنني وثنية بعد كل هذا الزمن الطويل؟ ما أختبره ليس إيماناً، بل توقاً لأن تحملني مخيلتي إلى هياكل بعلبك، وتعبق في صدري رائحة البخور والدخان الذي يتصاعد نحو قمم الجبال البيضاء،

ترقص امرأة عارية للآلهة،

ربما لإله العواصف أو إله الخصب،

كما لو استحال جسدها دخاناً رمادياً

فترتفع أناشيد الكهنة والكاهنات،
وتقرع صنوج من صنع الجان في زمن العشق.

ماذا أكتب؟ لا أدري. كم أود دائماً ألا أدري ما اكتب. جميل ان تعبّر الكلمة عن العالم كما نراه في لاوعينا، في نشوة شاعرية حالمة متمرّدة صاخبة تُحرّرنا ـ ولو لبرهة عابرة ـ من معتقدات تعطّل قدرتنا على التفكير المستقل الذي نسعى إليه. وفي لمحة خاطفة يتراءى لنا العالم وقد تعرّى من طقوسه.

خلال أسابيع قليلة إستلمتُ ردّاً من عادل على رسالتي إليه قال فيه، «لا أكتب لك شعراً. أنا رجل عِلْم ولا أحبّ التلاعب بالكلمات. في رأسي موال أكاد أغنيه على رؤوس الأشهاد. ان هذا العالم يا عزيزي هو ابهج العوالم الممكنة. انتَ يا نادر لستَ سعيداً حيث أنتَ ورغم إنجازاتك الهامة، وأدونيس ليس سعيداً في بيروت رغم علاقته الحميمة بإلاهة الشعر، وربما أنا غير سعيد في شيكاغو، ذلك لأننا أخذنا على عاتقنا ان نفتّش عن مفاهيم جديدة للعالم. أما ما أريد أن أقول لك أنت ولأدونيس انني فرحٌ بهذا العالم، فرحٌ فرحٌ فرح"، ليس على سبيل النكاية، بل من أجل إعلان حقيقة لكما. ليست العلة في العالم أبداً، يا عزيزيّ. العالم هو ما نريده، والمالكو الارادة فقط يمكنهم ان يغيّروا العالم، والفرحون وحدهم يملكون الإرادة. انت تكتب قصصاً فيها عقد نفسية أكثر مما فيها من كلمات. العالم بخير يا عزيزيّ، ومن طبيعة الحضارة أن القوى المتفائلة تقهر المتشائمة. وأبْلَغُ ما في الحياة الفرح أيها التعساء. حضارة أميركا ليستْ لعبة، ليست سطحية كما كنتُ أظن قبل قدومي إليها. هي حضارة قائمة على شيء واحد إسمه العمل، والعمل قائم على شيء واحد إسمه التفاؤل. غصباً عن نفسي وعنك وعن أدونيس أريد أن اكذب على نفسي وأضحك وأضحك وأضحك إلى أن أصدّق انني فرحٌ بالفعل، وإلا السلام عليكم يا نادر، وأنت يا أدونيس. المستقبل ليس لنا أبداً، إن لم نفرح. المستقبل لغيرنا».

قلت لنفسي أن عادل، على عكس ما يظنّ، ما يزال هو نفسه كما كان قبل أن يغادر إلى أميركا. ومهما كان، واظبنا على تبادل الرسائل للتحرّر مما نحن فيه من واقع هزيل في إعتقادي شخصياً على الأقل. أرسلتُ له بعض ما جاء في يومياتي وما كتبته في عمود خاص في صحيفة أصبحتُ مسؤولاً فيها عن الصفحة الثقافية منذ مطلع هذه السنة الختامية في عهد الخمسينات. أخبرته عما أشير إليه في مقالة لي حول طرد عدد من الرفاق المثقفين خارج لبنان بضغط من الحكومة المصرية متسائلاً عن مصير التعهّد بعدم التدخل بشؤون البلد الداخلية، وأن في لبنان بدايات نقاش حول مشروع الزواج المدني، وأنه تمّ إفتتاح دار سينما جديدة في أول شارع بلس ملك خالد ادريس اطلق عليها اسم غرانادا، وعن نقاش حاد جرى بين مخائيل نعيمة ومجلة «العربي» التي تصدر في الكويت. إنتقد نعيمه الثقافة السياسية السائدة بقوله،

«أنه من التجني على الحقيقة أن نعزو كل ما في البيت العربي من خراب ومساوىء إلى الاستعمار بمفهومه الشائع... فالإستعمار أشكال وألوان. منها الاستعمار الخارجي وهو الذي يحاربه اليوم العرب وغير العرب. ومنها الاستعمار الداخلي وهو أقوى شكيمة... وجذوره العتية سحيقة الأغوار في الحياة العربية. وهذا النوع من الإستعمار لم يأتنا من الغرب ولا من الشرق. بل من صميم حياتنا... ولن تكون الغلبة للعرب في هذا الكفاح... حتى يستردّ كلُ عربي كرامتَه كإنسان فيصبح حكامه خدامه وتصبح جميع أجهزة الدولة مسخّرة لحاجاته المادية والروحية».

***

وكان أن ردّ تْ عليه مجلة «العربي» بقسوة وباسلوب إستهزائي فتقول متجنّبةً المسألة التي أثارها، «والحقيقة أن الإستاذ الجليل ميخائيل نعيمة يستطيع أن «يغربل» قصيدة نظمت في جمال الأرز، أو مقالاً كُتب عن التزلج على الجليد.... ونحن ما زلنا نؤكد ان جميع ويلاتنا ومصائبنا إنما منشؤها الإستعمار... ونحن نقول للإستاذ الكبير إن العروبة هي مسحة الرسول».

هذا ما شجّعني على إجراء مقابلة مع نعيمه في منزل إبن أخيه نديم في رأس بيروت، واستغربتُ أنه لم يأبه للتهجم عليه. قال لي أنه حوّل نظره إلى باطن الإنسان أكثر من خارجه، وانه من العار على الكاتب ان يعيش على فتات مَنْ سبقوه، وان أدباءنا يتعامون عن الجليل في ثقافتنا ويتهافتون حتى على تفاهات غيرنا، أما العلم الحديث فلم يحلّ شيئاً من معضلات الوجود كالخير والشر والحياة والموت والتفاوت بين حظوظ الناس والغاية من وجودنا.

وحين إستلمتُ رسالة من عادل بعد مدة قصيرة، تبيّن لي أنه تجاهل ما كتبته له في رسالتي الأخيرة إليه. قال، «أعبّر عن شعوري

بايجاز وصدق من تحت طبقة هذه الثرثرة ولن تكون اية كلمة أقولها مثل سواها»، وأخبرني أنه يفكّر بنا «أدونيس في إطار ديك المحدي، وانتَ في غياهب فرديّتك، ونديم في أعالي صنين»، وعن أنه هو يعاني من الوحدة في مدينة هي بين أكبر مدن العالم، ومع هذا «حريم ما حريم يوق». لستَ أنتَ الوحيد في وحدتك. لا تنسى انك أكبر « outsider» ولو كنت بين مليون زلمة. أنت المسافر وأنا المقيم، فإلى متى تحدّثنا عن قصة الهولندي الطائر الذي تتمنى ان تحطّ مراسي سفينته أخيراً على شواطىء بيروت. نادر، إستعد.. استقم.. سلا..م خذ ! استرح».

ومرّتْ أسابيع ّقبل أن يفاجئني بعدد من الرسائل المتتالية يوماً بعد يوم، فقلتُ لا بدّ أنه يعاني من الوحدة. أكدّ في إحداها أنه «من نِعَمِ الدنيا ان الانسان يمكنه أن يوزّع قلبه كما يوزّع رجل البريد الرسائل»، فقلت لنفسي أن عادل بدأ أخيراً يكتشف عالم حريم أميركا»، ولكنه عاد يشكو في رسالة لاحقة أنه كما قال، «رغم مرور ما يقرب الأربعة أشهر عليّ في هذه الديار ما زلت حبيس القشور لا علاقة لي بأهل البلاد.. إن حربي هي انتزاع هذه القشور وحتى هذه الساعة لم أفلح فلا أحد يهتم بغير القشور هنا».

قلت أن القشور التي يتكلّم عنها لعلّها أثواب النساء فلا يبدو أنه عرف الطريق إلي قلوبهن وتمكن من تعرية إحداهن كما كانت حواء قبل أن يعرفها ادم، ثم صعقني بقوله في الرسالة نفسها أنه يرفض ان يعرّف نفسه بانه عربي أو سوري معلّقاً أن هذه التعريفات، «لا تهمّني كثيراً. اعتقد أنه علينا أن نبدأ من الأساس، من الجوهر ـ انا فلان ـ صدف أن ولدت في مكان يدعى كذا. أحب هذا، أكره هذا، أريد أن أعمل كذا. أليس من السخافة أن أحبس نفسي بقمقم يدعى وطن أو عائلة أوطائفة أو أي شيء آخر؟... ما يهمني حقاً في الوقت الحاضر هو أنا، أن أحيا كما أحس وكما أريد. الانسان هو الجوهر ـ ليس الأمة ولا المجتمع».

وجواباً على رسالة إنتقدتُ فيها أراءه هذه كتب يعترف لي، «نادر، بعض الكلمات أولاً عن تحليلك الاجتماعي الصحيح عن الارتباط بين الانسان والمجتمع. قد لا أكون استطعتُ ان أعبّر عما أعني تماماً في رسالتي لك ويأتي كلامك ليساعدني على المحاولة مرة أخرى. ما قلته أنتَ صحيح جداً، فنحن باختصار شئنا أم أبينا نتاج مجتمع معين وماض معين. صحّ. وبهذا فنحن حين نولد يولد معنا شيء ربما يمكن تسميته باللغة العربية «دمغة»، وهو ما يُعرف بالإنكليزية بِ « label» . وصحٌ أيضاً انني قصدتُ ان أشدّد على قيمة الانسان فيما قلته سابقاً، أما موضوع إهتمامي الحقيقي فهو المستقبل. الذين يعتبرون الحاضر امتداداً للماضي يكونون في رأيي عرضة للضلال أكثر من الذين يعتبرونه تحضيراً للمستقبل. ما يهم أولاً وأخيراً يا نادر ان نحيا سعداء».

وضعتُ الرسالة جانباً وسألتُ نفسي إذا كانت السعادة هي القيمة النهائية، فأين يقع الحب في هذه المعادلة؟ أمس في 7 نيسان 1959 التقيت صَبَا خفية في مقهى سافوي يارد في شارع الحمراء. مرّ وقتٌ قبل أن نبدأ الكلام، وكان لنا الكثير الذي نرغب بقوله، فقدّمتْ لي دفتراً كتبتْ فيه ما تريدني أن أقرأه. إستغربتُ قولها أنها تستطيع أن تعبّر عن مشاعرها في الكتابة أكثر من الكلام وجهاً لوجه. وشعرتُ، وأنا جالس قربها في زاوية المقهى، برغبة قوية ان أضمّها بحنان إلى صدري، ولكنني بدلاً من ذلك قلت مازحاً، «لا أحبك يا حبيبتي»، وأجابتني دون تردّد، «وأنا أيضاً لا أحبك يا حبيبي».

ثم كان عناقٌ بين إبتسامتي وإبتسامتها فغمرتني نظرات عينيها، ولامستْ أصابعي شعرها فدخلنا معاً خيمة السعادة التي نصبناها في صحراء الشوق.

لم يطل اللقاء، للأسف الشديد، خوفاً من أن يرانا أحد معاً. إفترقنا حين كنا نريد أن نندمج فذهبتُ أنا غرباً وذهبتْ هي شرقاً على أن نجتمع في مكان أمين بعيداً عن الانظار. ويجب أن نكون قد أسرعنا الخطى لأننا وصلنا إلى المكان بعد لحظات قليلة. استمعنا، عُراةً كحواء وآدم قبل إختراع ورقة التين، إلى شوبان وتشايكوفسكي ونبضات قلبينا تجاوباً مع الموسيقى وايقاعات الجسد. غرقنا في متاهات النشوة. ورأيتُ حبها نبعاً وحياتي عطشاً فشربتُ منه دون أن أرتوي.

وأتذكر بعد هذا اللقاء الحميم، كما لو حدث الأمر في زمن قريب، أنه أقيم لصَبَا حفلة موسيقية. عجبتُ أنها تمالكت أعصابها كلياً في التحدث مع الحضور، وفي إدائها وهي تعزف الكنشرتو الأولى لشوبان. وسمعتُ في إيقاعاتها، ومن خلال أجواء الهدوء التي خلقتها وموقعي في زاوية القاعة، أصوات المطر. ومع أنني تضايقتُ من أنه لم يكن من الممكن أن أتكلّم معها بسبب حضور عمها الذي جلس في المقاعد الأمامية، أدركتُ أنها كانت تحسّ بوجودي دون أن تتطلع إليّ وهي تقدّم للكنشرتو. قالت لي أشياء خاصة لم ينتبه إليها الحضور، فقد ذكرتْ ان شوبان كان مسروراً جداً في إحدى حفلاته الموسيقية لأن حبيبته كانت قربه. إنني قربها، وإنها قربي، ونحن سعيدان، وليس من حاجة للكلام وإلغاء المسافات بيننا. وفيما نصغي للموسيقى، كنت اتخيلها في تموجاتها وقد أصبح شعرها

خيمة اتظلّل بها من حر الصيف وامطار الشتاء.

مضتْ دون أن يُتاح لي التعليق على عزفها الجميل، وتعمّدتُ أن أصافح عمها أمام الحضور كي أحرجه. تلك أيام أردتُ فيها لأسباب أجهلها أن أنساها فأنشغلتُ عن أزمة الحب بالكتابة وتابعتُ مراسلاتي مع عادل، وحرصتُ أن أضمّن رسائلي قصاصات من «وجهات نظر» التي بدأتُ أنشرها باسم مستعار في عمود صفحتي الثقافية. ضمّنتُ الرسالة مرة وجهة نظر كتبتُها حول التمسك بقيم الحرية مستفيداً من قول فولتير قبل قرنين «انا لا أوافق على ما تقول، ولكنني سادافع حتى الموت عن حقك في أن تقول ما تريد»، وأضفتُ، «كثيراً ما نتحدث عن الحرية في لبنان، وأتساءل في سري كيف نفهمها فأسمع صخباً فارغاً».

وبدا لي واضحاً أنني أردتُ من خلال ذلك الدخول في حديث متعمّد مع صَبَا عن خطورة الإستبداد الإجتماعي الذي يفوق الإستبداد السياسي مركّزاً على مؤسسات الدين والعائلة والطبقات المهيمنة على المجتمع. أخبرتُها في حديث عابر كما أخبرتُ عادل في احدى رسائلي إليه أنني قدّمتُ في ندوة ثقافية عامة عدداً من الخطباء قائلاً أن لدى سكان أميركا الأصليين الذين نسميهم خطأً بالهنود الحمر ـ وليس هذا ما يسمّون أنفسهم ـ تقليداً جميلاً في تجنّب الثرثرة، وهو أنهم إعتادوا أن يطلبوا من المتكلّم في الاجتماعات العامة ان يقف على رجلٍ واحدة حين يعرض وجهة نظره كي لا يطيل الكلام. في تلك الندوة العامة جرى نقاش محتدم حول المؤسسات السياسية والدينية فوقفتُ على رجل واحدة وقلت، «وجدتْ المؤسسات لخدمة الانسان ويُفترض أن يكون هو سيّدها لا هي سيّدته كما في واقع الحال، ولا بدّ أن ينشأ فكرٌ جديد بفعل التحولات الإجتماعية والتاريخية».

لا أدري من أين جاءتني الجرأة على قول هذا الكلام أنا المستضعف الذي لا يتمتّع بأية حماية من أي نوع. تراها جرأة الفتوة أم تهوّرها؟ ومهما كان، تابعتُ تلك الكتابات دون خوف. تكلّمتُ عن الضجر تعبيراً عن الرتابة في الحياة العامة فاستغرب أحد قادة الحزب الكبار كيف يمكن للمكافح أن يختبر مثل تلك المعاناة، وكان أن حذّرني شخصياً من قراءة أدبيات الفلسفة الوجودية التي تتناقض في رأيه مع منطلقات خطّ الفكر السوري. هنا قلت أن الفكر حركة وليس خطاً، وفي تاريخ سوريا الثقافي خطوط متعدّدة. وكان أخطر من ذلك ان عميداً للثقافة قرأ مسودة رواية أبحث عن ناشر لها وأعادها إليّ لاكتشف أنه إستبدل كلّ كلمة «إنسان» في النص بعبارة «قومي إجتماعي». صُعِقْتُ لا أصدق ما حدث، فانتشلتُ المسودة وخرجتُ من حضوره دون أن أتفوّه بكلمة واحدة.

عدتُ إلي قراءة أنطون سعاده في كتابه الصراع الفكري في الأدب السوري أبحث إن كان هناك أية جذور لهذا التفكير، وكتبتُ تحليلاً وعرضاً له. توقّفتُ عند قوله أن التجديد في الأدب يأتي نتيجة لحصول تجديد في الفكر والشعور ـ في الحياة والنظرة الجديدة إلى الحياة. هو نتيجة حصول ثورة روحية، مادية، إجتماعية سياسية تفتح آفاقاً جديدة للفكر لدى الكاتب لما لديه من قدرة ذاتية على الانفلات من الزمان والمكان. التجديد في الفن هو نتيجة حصول تجديد في الشعور والفكر على أساس نظرة للحياة والكون، ومن شروط الفن الإهتمام بالقضايا الأساسية الكبرى وبالاتصال بمجرى حياة المجتمع. وأوضح أن تحديده الأدب يكون، كما بتحديده للموسيقى، بإطلاقها من أي تحديد لاننا نستطيع ان نعرف الكثير من مزاياها ولكننا لا نتمكّن من حصرها لأن الفن هو لغة النفس الإنسانية، وليس غرض الفن أن يكون مرآة للجماعات.

رأى أن شكسبير وبيتهوفن ونيتشه وفاغنر تمكّنوا أن يصوّروا عصورهم ولكنهم سبقوها أيضاً، ولم يكن السبق باتجاه العودة إلى الماضي بل بالتقدم نحو المستقبل والمشاركة في صنعه. وبهذا يكون الأدب «أدب الحياة» الجديدة لا «أدب الكتب» القديمة. إن الأدب التجديدي هو الذي «يفهم حياتنا ويرافقها في تطورها». ومع أن الفن المتقدّم ليس غاية بحد ذاته إلا أن المبادىء خُلقتْ من أجل الحياة ولم تخلق الحياة من أجل المبادىء وإن إستندت إليها. إن الأدب منارة وليس مجرد واسطة وهو أدب قومي بقدر ما هو أدب عالمي إنساني. والفنون الراقية ليست إملائية، بل هي التي «تحمل النفس على تأملات فكرية وثورات روحية».

وفي رسالة مبطّنة لعميد الثقافة توقّفتُ في هذا التحليل عند مفهوم سارتر للأدب الملتزم فاشرتُ إلى قوله، «إن الأدب لكي يكون ملتزماً، لا بدّ له من أن يتنفّس هواء الحرية بملء رئتيه». وفي تلك الأيام بالذات كتبتُ «وجهة نظر» بعد أن شهدتُ في ربيع 1959 فيلماً سينمائياً رقصتْ فيه «مواره شيرر» قلتُ فيها مخاطباً أياها بعد أن تنفّستُ هواء الحرية بملء رئتيّ:

قدماك سنابل قمح،

والحب يفيض من عينيك كالينابيع.

أما الرقص فهو لغة الجسد

كما لغة الروح

هذا ما حدّثتُ به صديقي محمد الماغوط الذي أُحببتُ كتاباته الصحفية الساخرة وشعره الحزين فلم يتحرّك له ساكن، وكان يجلس قربي في مقهى مسعود فسألته ماذا يُشغل باله ذلك اليوم فاجاب لا شيء. وأنا أيضاً لا أدري ما كان يُشغل بالي ولماذا ذلك التساؤل حين كانت الرتابة سيدة حياتنا. أرفض الرتابة حولي. إنها رتابة في السياسة والمقاهي والشوارع والسينما وربما حتى في الصداقة.

ولعلني كنت أبحث عن سبب مباشر للغضب فوجدته وجهاً لوجه حين قرأتُ صدفة

في مجلة «الثقافة الجديدة» التي يصدرها شيوعيون في العراق ما كتبه الدكتور خالد الجادر عن انطباعاته حول الفن الصيني بعد قيامه بزيارة عابرة للصين بدعوة من الحزب. قال، «لقد زرنا كثيراً من المعارض. وكانت روائع الفن الصيني في التصوير تملأ عيوننا دائماً وكانت جدران الشوارع أكبر معرض للفن فهناك آلاف الصور التي تفخر بالانتاج الزراعي والصناعي، ومنها الذي ينادي بطرد الاستعمار من العراق».

قلتُ ليس الحزب القومي وحيداً باختزال ثورية مؤسسيه وما حدث لأنطون سعاده سبق أن حدث لكارل ماركس، ولكن هالني ما يكون مصير التغيير الذي يصعب تحقيقه خارج العمل من ضمن حركات إجتماعية وسياسية. ولم أصل إلى جواب مقنع. قفزت من بغداد إلي بيروت فكتبتُ «وجهة نظر» أخرى قلت فيها، «كثيراً ما قيل ان مبرّر وجود لبنان أنه بلد حريات، ففيه نستيطع ان نكتب ونقرأ ونقول ما نريد. وتزداد أهمية هذا المبرّر أنه ملجأ للهاربين من الدكتاتورية حولنا. ولكن يبدو ان القليل القليل منا يفهمون معنى هذه الحرية في صميمها وجوهرها ويقدّرون فضائلها ومعانيها العميقة. أنها بالنسبة للبعض تلاعب وتسويات على القانون نفسه. وانها بالنسبة للبعض الأخر مجال لفرض الرجعية الانانية أو التمتع بالفوضى. كذلك هي في مفهوم البعض استغلال ووساطات واستزلام في سبيل تحقيق المصالح الخاصة على حساب المجتمع والوطن. إذا كان هذا هو مفهومنا للحرية لا بد ان يأتي يوم نخسرها فيه إلى أمد طويل. وهنا المأساة التي تهدّد حياتنا. للحرية في هذا البلد أعداء كثيرون ليست الدكتاتورية المعلنة أخطرهم. ان أعداء الحرية الأول هم الذين يهيّئون المجال للدكتاتورية الثقافية والإجتماعية».

كان ذلك تعبيراً عن إحباطاتي في ذلك الوقت، وخطورته أنه ما يزال. هذا ما أعرفه جيداً وأعترف به علناً. وزاد منها أنني فشلت ربيع 1959 في محاولة لانشاء جمعية أدبية بالتعاون مع عدد من الأصدقاء والصديقات، فكتبت، «لم يعد هناك أدباء {يعملون معاً} في لبنان. لقد جرفتهم أوحال مفاهيم السياسة الضيقة فأصبح من المستحيل ان يتفاهموا. هذا ما أقلقني في المدة الأخيرة.... بعضهم رفض الفكرة كلياً منذ الوهلة الأولى. وفكّر بعضهم ثم أعلن حتميّة فشلها ككل مشروع. إذن يتعذر إنشاء جمعية أدبية في لبنان الحر؟ لماذا؟ خوفاً من التصادم؟... جرفتهم أوحال السياسة فكان أن تخلوا عن رسالتهم الاساسية رغم ما يردّدونه من أن رسالة الكاتب ان يكون صادقاً مع نفسه وغيره، حراً متمرداً ناقداً»

وفي محاولة مبطّنة للتوجّه إلى صَبَا ودعوتها للقاء بعد فراق طال أكثر من حدود الصبر والتحمّل، نشرتُ مقالة بعنوان «الربيع والملل»، قلت فيها أن «الربيع على الباب وغداً تطلّ الأزهار وتخضّر الأغصان والحقول. ترى تنبتُ الأزهار في قلوبنا وتخضّر أمانينا أم نظل نعيش في أجواء الملل والانتظار؟.... لا أقرأ سِيرَ الفنانين الكبار خوفاً من ان أرفض ما يتعارض في حياتي مع مقتضيات الكتابة. الربيع على الباب».

وبعد حين كتبتُ عن جبران مقالة قلت فيها أنه:

«رائد الحداثة فهو أول من رفض ان يرى الأدب شيئاً أخر غير الحياة... غير ما يعاني الانسان.. كان أول من ثار على أدب الكتب... مواضيعه كانت ثورة، وكذلك كان أسلوبه ولغته. رفض القيود والانماط المألوفة.. أنه فجر، وأحد أهم بدايات النهضة الأدبية الحديثة.. ولذلك نخصّص هذه الصفحة في 12/4/59 لمناسبة ذكرى وفاته الثامنة والعشرين. لقد رأى.. أن الحيرة هي بدء المعرفة».

ولبّت صَبَا توجّهي الخفي لترافقنا، أدونيس وأنا، في زيارة لقرية راشانا للتعرّف إلى منحوتات ميشال بصبوص، ولدى عودتنا كتبتُ بضوء محادثاتنا مقالة بعنوان «الفن والانسان» قلتُ فيها انني، «شعرت برهبة وفرح أمام ما أبدعته يدا ميشال بصبوص. أنه يخلق صورة جديدة للعالم فهو خالق. في تماثيله يتحقّق العالم من جديد. هذا ما شعرنا به ونحن في راشانا - القرية التي حوّلها ميشال بصبوص إلى هيكل للفن. قال يجب ان نعود إلى الطبيعة حيث نشعر بوجودنا، واكتفي بوصف تماثيله أن لا أسماء لها وبدون موضوعات. ولكنها ليست مجرد أشكال فنية فقد رأيتُ فيها تجربة، محاولة لإعادة خلق العالم من جديد. بل إنها حركة. عندما تنظر إلى

الأسد الأشوري، يقول 247 بصبوص، تحس أنه يتوثّب وهو في حالة هجوم. لذلك لا بدّ أن نعود إلي تراثنا، إلى ما قبل الكلاسيكية في الغرب، إلى منابع الحركة الحديثة التي أطلقها بيكاسو ، وعندما أعود للمنحوتات السومرية والبابلية أحس أنني قريب من واقعي المفقود. إنها عودة إلى الطبيعة والجذور».

وحين هدأ بصبوص، سألته متى ولد فاجاب مبتسماً دعني أرى. ومدّ يده إلى جيبه يبحث عن هويته. تطلّع إليها في مختلف أرجائها المهترئة ثم قال، «ولدت في أواخر عام 1921، وأنا أعزب ذكر». ضحكنا، ونسينا أن نعود إلى الأسئلة والأجوبة. حدّقتُ لوقت بتمثال إنتهى من صنعه لإمرأة أحبّتْ طائراً.

وبمناسبة «اسبوع السجين» حدّثتُ صَبَا عن المرأة التي أحبتْ طائراً جاء يستريح فوق أغصانها، فكتبتُ وجهة نظر قلت فيها، «السجون في العالم العربي مليئة بالمساجين السياسيّين. ولذلك يمكن القول اننا حتى الآن لم نفهم معنى الحرية... لن نحقّق إنسانيتنا قبل ان نطلق الحرية من الأسر فيعتبر الانسان أنه حقاً سيّد نفسه لا كفيفاً يحتاج إلى مستبّدٍ يقوده حيث شاء... بحجة أنه لا يرى».

انشغلتُ منذ بدايات الفتوة بالنشاطات الثقافية، إلا أنه أصابني مؤخراً ولعٌ بالنقاشات الفكرية فتساءلت هل أحاول ملءَ الفراغ الذي أحدثه غياب صَبَا في حياتي؟ جرى لي ذلك حين صدف أن إلتقيتها أثناء أمسية شعرية لسعيد عقل في قاعة الاجتماعات داخل الجامعة الأميركية في منتصف نيسان 59 وكانت غالبية الحضور من الفتيات فبدا المكان وكأنه حقل من الزهور لا يخلو من الأشواك. وما أن بدأ بالقاء قصائده حتى استولى على الحضور لروعة تفنّنه في القاء الشعر مما جعلني شخصياً أحس في تلك الأمسية كما لو أنني أبحر مع قدموس في عالم ضبابي رغم قناعتي بالانتقادات التي كان يوجّهها إليه شعراء الحداثة من أمثال خليل حاوي ويوسف الخال. وحين إنتهت الأمسية لم يكن الجو يسمح بأي تساؤلات حتى أنني فقدت جرأتي على التعبير عن رأيي. إحتفظت لنفسي بالشعور أنني لم ألمس حرارة وحيوية في صوره الشعرية المجردة وتعمدّه الطرافة والرنين اللغوي واللفظي لذاته، الأمر الذي يعود في تقديري إلى أنه يعيش خارج زمن القلق الوجودي مأخوذاً بالورود والزنبق والأرجوان والنجوم. وشعرت خاصة بنفور من صورة المرأة في شعره فهي لديه كائن عام مصنوع من رخام بارد لا خصوصية له ودون أبعاد أو حيوية فاستغربتُ في البداية ذلك الولع النسوي بشعره، إلا أنني أدركتُ بعد قليل من التأمل أننا نشأنا على ثقافة المجرّدات.

جذبتهن إليه صوره الشعرية البارعة رغم أنها مستمدة من ذهنية تجريدية مطلقة لم تختبر معاناة الانسان الحديث وتمزقاته وقلقه وحيرته. يتغزل بالمرأة على أنها رمز لوطن أزلي. إن لمفهومه الجمالي بريق ورنين وايقاع خارجي دون مضمون خاص. المرأة لديه زهرة ونجمة وقمر ككل زهرة ونجمة وقمر... ولأن معاناته نظرية لم اتوقّع منه جديداً وتجدداً في تلك الأمسية، فقد استمعتُ إليه قبل هذا مرات عديدة وعبثاً حاولتُ إعادة قراءته. ليس هو من النوع الذي يُقرأ. إنه من النوع الذي يُسمع. ولكن يجب أن أعترف أنه ممثل بديع في أدائه، وقد أجاد تلك الأمسية في هذا المجال فعبقتْ اجواء القاعة بالجمال والفرح، وإن هبط إلى أسفل في قصيدة عارض فيها قصيدة نزار قباني «اجيرة» مدعياً ضمنياً أنه، على خلاف نزار، أراد ان يمجّد المرأة ويرفع من كرامتها فكان أن جرّدها من خصوصياتها ولم يجرّدها من ثيابها. وكان من ابداعاته رنين الكلمات والأسماء.

ولأنني أرى نضال الاشقر مثالاً للحيوية والتفرّد، تفاجأت أنها إندفعت إلى المنصة وألبسته طوقاً من الياسمين ربما لتحميه من العري الذاتي. شعرت بخيبة فهي في رأيي تجسيد لما هوعكس المرأة في شعر سعيد عقل. طبعاً لم أظهر شيئاً من هذا الإستياء عندما التقيت نضال خارج القاعة. رحّبتُ بها ورحّبتْ بي، ثم سألتني عن صَبَا فتفاجأت أنها تعرف ما أعتبرته سراً لم يتجاوز دائرة صغيرة. تجاهلتُ سؤالها مكتفياً بالإيماء لها أنها ورثت الكثير من خصائل ابيها وأمها، وخاصة الحيوية والجرأة، وتوقّعتُ لها مستقبلاً بارزاً في عالم المسرح.

كانت تلك ملاحظات عابرة سجّلتها في يومياتي بعد أن افترقنا وعدتُ إلى المنزل دون رقابة على أنها تداعيات لما شاهدته من أحداث وما خطر لي من أفكار في ذلك اليوم على أن أعيد كتابتها في المستقبل. في هذه الحالة كما في السابق حاولت ان أكون صريحاً قبل اي شيء حتى ولو اضطررت ان اكتب ما لا يجوز ان يعرفه الأخر من خصوصيات حياتي. ولكن هناك مسألة الكتابة عن خصوصيات الآخرين فمِنْ حقهم ان يحتفظوا بأسرارهم لانفسهم وبأي حق اعلنها للعالم حتى ولو أدخلتُ عليها بعض التغييرات؟ لا أدري كيف التعامل مع هذه المسألة. أعترف إنها معضلة، ولكنني أتجاهلها باعتبار أن من ساواك بنفسه لم يظلمك. أترك يومياتي سراً إلى أن يتجاوزها الزمن. إنما ما قيمتها إذا تجاوزها الزمن يا عادل وصبى ونضال وأدونيس ورؤى وبهية وأمي وأختى ندى وأخي كمال

وأعمامي؟ أريدكم جميعاً أن تعرفوا أنني لا أقصد إفشاء أسرار قد تفضّلون الإحتفاظ بها لأنفسكم. أما حالياً فأنني اكتبها لنفسي فلأكتب ما شئتُ:

اجتمعتُ مساء الأحد في الثالث من الشهر الخامس عام 1959مع الدكتور كمال الحاج في مقهى حاوي قرب ساحة البرج، وكنتُ برفقة ادونيس واسعد رزوق. تخلّل أحاديثنا العابرة نقاش بمبادرة منه حول مفاهيم «القومية» و«الأمة» التي كانت في ذلك الوقت بين أكثر الموضوعات إثارة للجدل في محاولة لتحديد هويتنا الغامضة. قال كمال الحاج ان جوهر المفهومين مستمد من تفاعل اللغة الأم والأرض والكيان السياسي، وقدّم مثلاً حياً على ذلك بقوله ان منظِّر القومية اللبنانية ميشال شيحا كتب باللغة الفرنسية، فأصبح تابعاً للأمة الفرنسية رغم أنه عاش ومات في لبنان. ثم أوضح لنا، أنه من هنا أن أنطون سعاده رفض الدفاع عن نفسه باللغة الفرنسية امام المحكمة الفرنسية في بيروت عندما تم القبض عليه عام 1936وسجن بحجة تأليف حزب سري يقاوم الانتداب.

قلت له ان سلطة الانتداب الفرنسي كانت أرفق بنسانيته من سلطة الاستقلال، فخيّم جو حزين تجاوزناه بأننا حاولنا من ناحيتنا ان نعرّف الأمة بانها المجتمع الموحد الناتج عن التفاعل الانساني مع الأرض ـ الوطن لزمن تاريخي طويل الأمد، وأن القومية هي ولاء المواطن لأمة تحقّقت في كيان سياسي أم لم تتحقّق. ولمزيد من التوضيح، ركّزنا على شرح مقولات الترابط الصميمي بين الانسان والأرض وما ينتج عن ذلك من نشوء ثقافة تعدّدية روحية مادية بما فيها اللغة التي هي أكثر من مجرد وسيلة تواصل فهي تجسيد لثقافة المجتمع وروحه. وظل الحاج يصرّ، حين إفترقنا، على القول بان الحس القومي ينتفي عندما ينتفي الكيان السياسي، فقد أرادنا على ما يبدو أن نقبل بالأمر الواقع. أما في نظرنا فكان من الضروري أن يستمر النقاش على أمل أن يظلّ، كما نريده، عقلانياً ورحباً في تسامحه.

وبقي هناك ما أزعجني في واقع الأمر فقد تبادر لذهني أنه عندما تسيطر حركة سياسية يكثر مناصروها، وعندما تضعف يكثر منتقدوها مهما حملتْ من أبعاد فكرية ونفسية عميقة المدى. هنا تذكّرتُ ما عاهدتُ نفسي به منذ زمن بألا تكون لي أية مطامح سياسية كي اتمكن من المحافظة على استقلاليتي الفكرية وإهتماماتي الأدبية. مرة أخرى عاهدتُ نفسي ان أظل قادراً على التعبير عن أرائي بحرية مهما كانت النتائج. ومما عنته لي فكرة المحافظة على استقلاليتي الا يغريني العيش في ترف أو ان اصل إلى مناصب مغرية للحصول على مقتنيات تمكّنني من الإستغناء عنها مهما أعطاها المجتمع من أهمية. وعاهدتُ نفسي أن تظلّ الكتابة المستقلة أسمى الغايات التي أطمح إلى تحقيقها في حياتي، وأن أملك الشجاعة على التقليل من أهمية كل ما يتناقض معها من مطامح أخرى ومهما كانت طبيعة الإغراءات. لو كنتُ أسير المغريات لما إخترتُ الكتابة عشيقة وزوجة ورفيقة أبدية.

وحرصتُ في موسم النقاشات السياسية أن أكون أكثر تمسكاً بمبدأ حرية الفكر باعتباره بين أثمن القيم الانسانية، وبدونها يفقد الانسان كرامته، ولم أكن اتصوّر ان حكومة ما يمكن ان تُحدث نهضة كبرى في الحياة بينما تزدحم سجونها بمن يخالفها الرأي. وقد أكّدنا على ذلك في سهرة قضيتها نهار السبت في 25 نيسان 1959 مع أدونيس وجورج مصروعة ورجا يازجي في منزل إيلي حدّيد في جونية. سحرني المنزل بروعته وموقعه فوق شير يشرف على الخليج، ولم أعد اتمالك نفسي وسيطرتي على جسدي عندما خرجنا إلى الشرفة. فيما يتحدّث الضيوف بشؤون الساعة، أصغيتُ لأصوات الموج، وراقبتُ بشغف غيوماً قليلة تعكس أضواء حريصا والقمر. تذكّرت بهية فقلت لها في سري أن هذا المكان رائع حقاً. ولسبب لم أدركه شعرت بغربة ساحقة وسط كل ذلك الجمال الحافل ربما لأنني لم أعد أعرف كيف اتمتع بجمال الأشياء بدون أن تكون صَبَا معي وأكون معها، وربما أنني أكثرت من شرب الوسكي.

لم يكن الصمت دائماً حليفي ورفيقي في مختلف الأحوال. إجتمعتُ مساء يوم الأحد في العاشر من أيار، وهو لقاء بين نهايات الربيع وبدايات الصيف، بريني حبشي ونديم وعادل في منزل أدونيس. وفي سياق تحليل للواقع العربي دار حديث حول العقلية العربية السائدة في الوقت الحاضر. ذهب حبشي إلى أن المسيحية تركّز على شخص المسيح لا على الكلمة، ومن هنا القدرة على النمو والتجدّد. وعلى عكس هذا الاتجاه الذي يعتمد تحليل النصوص خارج المجتمع والتاريخ شدّدتُ على أهمية الإستعانة بالتحليل السوسيولوجي للدين، اسلامياً كان أو مسيحياً أو بوذياً أو يهوديا ً أو وثنيّاً، مما يرينا أنه لم يعد يشكّل منقذاً من أزمة التخلف. وكنت دائماً أريد ان أواجه شارل مالك وريني حبشه وغيرهما بان التغيير حدث في أوروبا بسبب الثورة الصناعية والعلمية وما رافقها من الثقافة التنويرية، ولم تتحقّق العلمانية إلا بعد صراع مرير ضد الكنيسة، فالدين يفتقر أو يغتني حين يفتقر أو يغتني المجتمع. إنني، على عكس الفكر السائد، أبدأ بالمجتمع وليس بالدين كي أفهم ظواهر الواقع وبواطنه الخفية. وقد ولد الله بصورة الانسان، لا الانسان

بصورة الله. ان الله في أذهاننا أب سلطوي.

وكنت في تلك الأيام أكثر إهتماماً بالخوض في تحليل النصوص الأدبية بدلاً من النصوص الدينية. وبل همّني بالدرجة الأولى كتابة الرواية والقصة، وصدف أن كنت أبحث عن إسم يليق بمجموعة منها كي أدفعها للنشر. قلتُ على الأغلب أن يأتي الإسم من تلقاء ذاته ويعلن عن نفسه بنفسه في وقت لا أتوقّعه. هذا ما تسلّحت به في نقاشاتي أثناء سهرة عامرة خصّصناها نهارالجمعة في 22 أيار 1959 للتحدث حول الشعر الحديث. قال نذير إن الحداثة الشعرية تتمثّل بانتاج عدد من الشعراء العرب المعاصرين الكبار» من أمثال ادونيس وخليل حاوي وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة، غير ان أدونيس قاطعه معترضاً بلباقة على تعبير «كبار» موضحاً أنه ليس هناك في جيلنا الآن شعراء كبار، وكل ما في الأمر أننا نجتاز مرحلة انتقالية في تطوّر الشعر الحديث، وليس الشعر الذي ننتجه سوى محاولات.

تجاوزتْ السهرة منتصف الليل. انسحب الحضور واحداً بعد الآخر. هدأ الجو. لم يبقَ عند أدونيس سوى عادل وصَبَا وأنا. مرّ وقت من الصمت. تحدّثنا لفترة وجيزة عند مدخل الشقة في وضع الحزب. اعتبرنا أنه يمرّ في مرحلة ضعف وفوضى، ولم يعد يجمعنا بالحزب سوى فكر انطون سعادة وشخصيته الكرزمائية، فأصبح من همومنا ان نستعيد انسانيته بتحريره من بيروقراطية الحزب.

لم أخرج من البيت في اليوم التالي متجنباً الخوض في نقاشات عابرة. تابعت بدلاً من ذلك قراءة كتاب ارنست همنوي، Accross the River and into the Trees ، وفكرت أثناء إستراحتي بأوضاع المساجين السياسيين في البلدان العربية، فقلت لنفسي ضاق العالم العربي بحرية الفكر وما المحاكمات السياسية سوى مسرح هزلي يعكس مدى العداء للحرية، وتساءلت هل يجوز ان يقف المفكر موقف اللامبالي تجاه هذا الوضع غير الانساني؟ يجب ان نقوم بحملة قوية في الصحف والمجلات والكتب ضد هذا الوضع مهما كلّف الأمر وبلغ الثمن الذي يجب ان ندفعه. لا استطيع ان اتصوّر كيف يمكن لانسان بريء ان يسجن عشرين سنة بسبب أرائه وانتماءاته السياسية. لا استطيع، ولا يجوز السكوت مهما كانت الأسباب. لا يجوز السكوت. كم حفل التاريخ البشري بالظلم؟

سكتنا عن هذا الموضوع في جلسة خميس مجلة شعر في 28 أيار، وكان أن ذكرتُ شخصياً انني اعتبر عدداً من القصائد العربية شعراً حديثاً، منها «البعث والرماد».

و«أرواد يا جزيرة الوهم» لأدونيس، و«انشودة المطر» و«النهر والموت» لبدر شاكر السياب، «والبئر المهجورة» ليوسف الخال، و«خصام» لنازك الملائكة، و«البحار والدرويش» لخليل حاوي، ثم أوضحت أن لكل شاعر من هؤلاء شخصيته ومزاجيته مما يعني أن الشعر الحديث ليس شيئاً واحداً. خليل بدأ حياته ينحت الحجارة، وهو انسان غاضب لم اشهد غضباً عاصفاً كغضبه. أما ادونيس فبدأ حياته فلاحاً وقد يكون لذلك علاقة ما في أنه شاعر تأملي انيق ناعم هادىء. لا يغضب. يتألم، ويحتضن آلامه منكفئاً عليها كما لو أنها أفراخه في عش تهدّده رياح عاصفة.

وكنت في تلك الأيام، حين أتعب من الكتابة والقراءة والنشاطات الثقافية، أذهب إلى البحر أو أتجوّل في الشوارع دون هدف. وأثناء تجوالي نهارالاثنين في 1 حزيران التقيت صدفة صديقاً من زمن الطفولة في الكفرون هو لطيف حداد. كان في ذلك الوقت ملازماً أول في البحرية السورية. أخبرني أنه جاء إلى بيروت ليُدْخِلَ أخته إلى مستشفى الجامعة الأميركية. وفهمتُ منه ان لا أمل في خلاصها وكان يبحث عن مكان ينام فيه. وفي تجوالنا معاً حدثّني عن سوريا ومصر حيث قضى ثلاث سنوات من التدريب. لم يكن يريد ان يتحدّث في أمور سياسية. ثم دعيته للعشاء مع صديقي فؤاد رفقة. إستعدنا ذكريات الكفرون: أصوات مياه الأنهر والسواقي في فصل الشتاء، التوغل في الغابة إلى صخرة الراعي، الجلوس على تينة الظهر فوق نجمة الصبح، حكايات الناس تبدأ دون أن تنتهي، مغامرات الطفولة في غزو جنائن الفاكهة قبل نضوجها، مداعبات البنات، علاقة الشيخ سليم بزوجته، ومغامرات الطفولة.

ثم أنني أضفتُ نشاطاً ثقافياً إلى لائحة نشاطاتي، فقد طلبتْ الإذاعة اللبنانية مني أن أقدّم برنامجاً أستضيف به الأدباء. ولهذا الغرض اجتمعت نهار الجمعة في 5 حزيران بالناقد الأدبي احسان عباس في مطعم فيصل. تحدثّنا حول الشعر، وهو صاحب نظرية خاصة في هذا المجال، فإعتبر التيارات التحديثية المتمثلة بمجلة شعر والرومنطيقية والرمزية تيارات متطرفة تحاول أن تجد مكاناً لها في الثقافة العربية. وحين ناقشته في كتابه حول عبد الوهاب البياتي، أجاب أنه اراد الكتابة عنه كمدخل للحديث عن الشعر العراقي الحديث. في تلك البرهة حضر منح الصلح وانضم إلينا. تخوّفت ان يتغير الحديث إلى موضوعات سياسية. ولكنني إكتشفت ان لمنح اهتماماً بالأدب أيضاً. ربما كان اهتماماً عابراً ولكن كان له أراء واضحة. ذكر أنه يفضل كتابات إبراهيم المازني ويحيى حقي وطه

حسين عل الكتابات الحديثة، فقال له احسان عباس ضاحكاً: انت رجعي يا منح بك.

وفي اليوم التالي، أي السبت في 6 حزيران، استمعنا إلى مداخلة في الشعر قدّمها يوسف الخال في الندوة اللبنانية. إستقبلها الحضور بالترحيب الحار. ولكنه ما أن ألح لأهمية الكتابة باللغة العامية حتى سبّب ازعاجاً. وقف واصف بارودي معترضاً وقدّم مداخلة طويلة قال فيها ان الكتاب الفرنسيين والكتاب الانكليز يتكلّمون بلغة ويكتبون بلغة أخرى فلماذا ننظر إلى التجربة العربية على أنها استثنائية. وانقسم الحضور بتبادل الاتهامات بالرجعية والحداثة المتطرفة. وتعليقاً على ذلك، قال خليل رامز سركيس بغضب مكبوت ان قرطاجة لم تُخِف روما، انما أخافتها البداوة وراءها، فأجاب ياسين عبد الرحيم ان التجديد يخيف البعض بصرف النظر عن إثارة موضوعات مبطنّة كموضوع البداوة والحضارة.

وعلى صعيد آخر، رافقتُ أدونيس مساء الجمعة في 26 حزيران في زيارة لأحد قيادات الحزب، هو المحامي عيسى سلامة الذي جاء حديثاً إلى لبنان سراً بعد ان أمضى مدة في أوربا وأميركا، وقد اصبحتْ لديه مجموعة من الكتب النادرة والآثار الفنية الرائعة. شربنا الوسكي حتى منتصف الليل فيما أخبرنا سلامة الكثير عن نشاط الحزب في المهجر وفاجأنا عند نهاية السهرة بقوله أنه يراهن برأسه على ان الحزب سيستلم الحكم في «احدى الكيانات السورية، وعلى الأكثر في عام 1961»، غير ان أدونيس ابدى تشاؤمه في طريق عودتنا، ولم أكن ادري مدى جديّة المراهنة. وقبل أن نفترق، أبديتُ له بعض المشاعر حول الغربة فقال لي أدونيس، «الغربة التي تشعر بها أتمناها لك. والمكان، أنّى كنا، ميت، والشيء الأساسيّ، كما تقول، الإحساس بهذا الموت».

هنا شعرتُ أنني لا أستطيع الإنصراف. أنتقلنا في حديثنا إلى الكلام عن غياب عادل، فقال، «وغداً قد تغيب أنتَ، وأبقى أنا في بيروت ـ هذه التميمة الشاحبة. ولكن مَنْ منا الغائب حقيقة؟». قلتُ، «كلنا غائبون، فحيث نكون يكون الغبار»، فقاطعني سائلاً، «هل نتلاءم مع الغبار؟ لا تتصلّب وكن ليناً رؤوفاً معه، وافتح له ذراعيك: إن الغبار هو رمزُنا الأبدي العاشق».

وأجبته، «هنا نحن منفصلون عن العالم ومبعدون». صمتُ لبرهة. أضفت وقد رأيته ينحنى على نفسه ٬ «إننا منفيون بارادتنا».

ـ لذلك لا يزال اليأس سيّد شعري

ـ أما أنتَ حين تبدع، تصبح سيّد اليأس

ـ أكاد أومن أن فوق الزمان قوة لا تُقهر: قوة الصداقة والحبّ

ـ وهما نبع الإبداع

ـ ومع هذا يبدو لي أحياناً أن الصمت لا يجدي ولا الكلام.

حلّ بنا التعب. إفترقنا على أن نلتقي. كنت في اليوم التالي على موعد مع صَبَا في مقهى سافوي يارد. وجدتها بانتظاري فتحدّثنا عن مستقبلنا لأننا قد نضطر أن نفترق في أي وقت. قالت ستكون سعيدة معي مهما واجهنا من صعاب، وان الملل لن يتسرّب إلى حياتنا لأننا سنتمكّن ان نخلق اجواء جديدة. قلت لها ان غرضي ان أجعلك تحبينني كما أحبك، فاعترضتْ على ما قلتُ، وقد سرّني أنها تملك شخصية مستقلة. هنا، وقد جلسنا في زاوية منفردة من المقهى، ذكرتُ لها ما قرأته عن عادات الحب والزواج في جزيرة ساموا، ومنها أنه من عادة العاشق في ذلك المجتمع أن يُطلي جلده بزيت جوز الهند عندما يتسلّل إلى بيت صديقته كي يتمكّن من الإفلاة من امها إذا ما ضبطته مع ابنتها، فمن تقاليد تلك الجزيرة أنه اذا ما قبضتّ الأم على عشيق إبنتها فيما يغازلها يصبح من واجبه ان يقترن بها. ولما قلتُ لصَبَا انني قد أُطلي نفسي بزيت جوز الهند كي لا يقبض عليّ عمك، أجابت أنها في هذه الحالة ستطلي نفسها ب«الغري» كي لا ننفصل ابداً، فقلتُ انني لا أحبّ رائحة الغري.

ودون إنفصال، حضرنا معاً بعد الظهر فيلماً بعنوان The Hanging tree . لم نفترق رغم الخوف من ان يرانا أحدُ معاً. سرنا جنباً إلى جنب ويداً بيد نحو باب ادريس حيث إشتريتُ لها زهرة من سوق الإفرنج، ومنها امتطينا سيارة سرفيس إلى شارع الحمراء حيث تمشينا دون وجل هي وأنا باتجاه منزلها وإفترقنا على أن نذهب معاً نهار الأحد إلى مسبح لونغ بيتش. تساءلنا هل نتعمّد الظهور معاً كي يتمّ القبض علينا أو أننا نخاطر تعبيراً عن رغبتنا بالإستقلال وحبنا للإندماج والإفتراق حين نشاء؟

ذهبنا نهار الأحد، كما إتفقنا، إلى مسبح لونغ بيتش. لم يكن لديها أكثر من ساعة نقضيها معاً. سبحنا إلى صخرة منفردة أسميناها جزيرة العشق. استعدنا زمن ولادة حبنا على شاطىء البحر عند عين التفاحة قرب مدينة جبيل كما يزغب ريش طائر الحوم في زمن العواصف. حسبتُ شخصياً ان الحب ملجأ من العواصف فإذا به هو نفسه عاصفة تضطرني في هذه الحالة للبحث في كيفية التعامل

معه. لم ينقذني الحب من الألم والإحساس بالفراغ والقلق، ولا نستطيع ان نلتقي حين نحتاج إلى بعضنا البعض. وكم كنا نحتاج إلى الإلتقاء والافتراق دون إنقطاع كما بين الموج والشاطىء أو العشب والماء؟

في علاقتي بصَبَا ورؤى قبلها، كانتْ تجربتي مع الحب في بعض جوانبها كما تجربتي مع الكلمة. بحثتُ عن خلاصي بالكلمة، فاذا هي مدخل إلى العاصفة. وسألتُ لما الخوف من العواصف؟ أليس العيش في العاصفة أفضل من ضجر السكينة في عالم رتيب؟ أي خلاص أبحث عنه، إذن؟ متى بدأتُ أنشغل بخلاصي الذاتي؟ هل اتخلّى عن قناعتي بان الخلاص الحقيقي هو خلاص المجتمع، ولعلّ الانسان المنشغل بخلاصه الفردي هو اتعس المخلوقات؟ ما اتعس اهؤلاء ! هذا ما كنت أقول به خاصة في نقاشي مع الباحثين عن خلاصهم الفردي بالدين وممارسة طقوسه لذاتها دون معرفة باصولها ومداليلها. ثم إكتشفتُ من خلال تجاربي المحدودة أن بعض العمل السياسي هو في واقع الأمر تديّنٌ من نوع ما. وإذا فشل الحب وفشلت الكلمة في انقاذي، فهل هناك من شيء أخر يمكن ان يشكل جسر خلاص؟ ربما. إنما ليست مهمتي البحث عن خلاصي، والعاصفةُ عالمٌ أستجير به من رغبتي بهدوء البال. القلق رفيق عمري في علاقتي بالكتابة والحب، وهذا ما يسبّب لي ألماً وفرحاً في آن معاً.

تلك كانت بعض تداعيات طاردتني بعد مغادرة صَبَا في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، ولم تغب عن بالي فيما أتابع اللعب مع البحر كما أتابع قرأة كتاب حول حياة بودلير إلى ساعة متأخرة عند الغروب، وعدتُ إلى البيت لأجد نفسي منشغلاً بتسجيل يومياتي. ولم أجد مخرجاً من معاناتي سوى بمتابعة قراءة كتاب «شجرة الثقافة» لرالف لينتون بينما كان أخي كمال يعزف الهارمونيكا وكانت أمي تقطّب بيجامتي وأختي تعدّ الشاي فيما تقرأ الجريدة وتحاول إسكات إبنها الذي واصل البكاء.

في صيف تلك السنة استلمت رسالة من رؤى لم أكن أتوقّعها. سألتني إن كنتُ أرغب بالسفر إلى أميركا للتعليم ومتابعة دراساتي العليا، فقد بلغها وجود مركز شاغر أعلنتْ عنه دائرة اللغة العربية وآدابها في جامعة ميشيغان. وتفاجأتُ بقولها أننا كنا في السابق ملجأً لبعضنا البعض وسألتني كيف يمكن ان انسى الماضي بهذه السهولة؟

أحسستُ برعشة تستيقظ في أعماقي فتساءلتُ هل حبها ما زال يرقد في أعماق لاوعيي؟ ترى لا شيء يزول؟ هل يصطدم حبٌ بحبٍ آخر؟

وبقسوة لمتُ نفسي لضعفها وأكدتُ، فيما أقف أمام المرآة مدققاً النظر بملامح وجهي، أن حبّ صَبَا أنساني كل ما قبله وكل ما بعده. هي التي منحتني من نفسها ووجودها أكثر من اية فتاة أخرى. وتذكّرتُ انني بعض تموجات البحر، وليس من الغريب أن تتمايل أغصان شجرة حياتي باتجاهات مختلفة عند هبوب الرياح من مختلف الاتجاهات.

ومما كان له أثر خاص في مجرى حياتي أننا كنا، صَبَا وأنا، قبل أيام نتغنّى بالسفر وبقصيدة حول السفر. قلتُ السفر رائع ولكن ليس بالمعني الذي تكلّم عنه ميشال شيحا فانا لا علاقة لي بالبنوك والمال والتجارة والشركات، ولا حتى بالمعنى الذي تكلّم به يوسف الخال مصراً على تميّزه عن بقية شعبه. حتى الآن تنقّلتُ في عالم ضيق بين الكفرون وبيروت ورأس المتن. اليس السفر ما كنتُ دائماً اتمناه بكل أحاسيسي؟ في أميركا استطيع ان أكمل دراساتي العليا وأحصل عل دكتوراة فأعود للوطن لانقطع للتدريس الجامعي والكتابة. أي عمل آخر أقوم به في بيروت، بما فيه الصحافة أو التدريس في المرحلة الثانوية سيكون على حساب الكتابة الابداعية. ولعل صَبَا تستطيع إقناع عمها بمتابعة دراستها في الخارج. وسمعتُ، كما لو أصغي لأمواج البحر، أصداء السفر تتجاوب في أعماقي.

قلت لنفسي هذه مادة روائية. لا شيء يحطّمني أو يشلّ حياتي طالما استطيع ان استوحي واكتب. لن اقاوم السقوط في التجارب. ان غوياتها أمواج بحر، وانا أجيد السباحة التي لا أذكر متى تعلّمتها فاصبحتْ إحدى هواياتي المفضّلة. وتصوّرتُ نفسي سمكاً ملوناً يعبر المحيطات ويكتشف الجزر النائية متناسياً الفواصل التي يصعب تجاوزها، وخاصة الحواجز الإجتماعية بيني وبين صبى، والتي قد نكون من ضحاياها قبل أن نتغلّب عليها. ولكن لا بدّ أن نتغلّب عليها. وليس من أمل بالتغلب عليها سوى بالمواجهة. كل تعاون خطوة نحو الإستسلام.

وبعد مزيد من التشاور، أصبحتْ صَبَا هي أيضاً تحلم بالسفر. أكتب رسالة إلى رؤى أعلمها أنني قدّمتُ طلباً لجامعة مشيغن. وصدفتُ في طريقي إلى مركز البريد لإيداع الرسالة فتاة اسمها نهاد قالت أنها تهتم بالتمثيل، وتحب دور الاغراء. تجاهلتُ الأمر فقد كان عليّ أن أنجز مهمتي وأعود إلى موعدي مع صَبَا. إنه يوم الخميس، وفي هذا اليوم من كل اسبوع التقي بها فأصبح جزءاً من برامج حياتنا، لذلك شعرت بفراغ وغضب حين لم تصل في الوقت المحدّد وطال غيابها. وما كدت أن أيأس واغادر حتى أقبلت مضطربة.

قالت أنها اضطرت للتأخر وسيكون عليها أن تعود إلى البيت حالاً، فلا تريد ان تفكّر بأي شيء سوى ان نكون معاً لوقت قصير.

***

تخلّيتُ عن الكتابة حين اتصلت بي صَبَا لتعلمني أنها تملك بطاقات لحضور مهرجان بعلبك مع صديقتها سناء برفقة جوزيف وسهام. وسررتُ أنني قبلتُ الدعوة دون تردّد. كان كل شيء رائعاً. أقدام راقصات البالية في بعلبك صنعتْ عجائب مثل أعمدتها. وفي طريق عودتنا، نامت سناء على كتفي وعانقت أصابع صَبَا أصابعي، وقالت لي سهام أنها ستخبرني قصة رائعة تستحق ان اكتبها. ولم يتحقّق الوعد حتى الآن، بعد كلّ هذا الزمن الطويل، أن استمعتُ فيه لقصتها المثيرة. ترى أرادت ان تخبرني تفاصيل قصتها مع محمود الذي اشتهر بانه بطل يقتحم المخاطر؟ نشأ قروياً وشرب مياه الينابيع العذبة وسبح في الأنهر وأكل الشنكليش والمتبّلة ونام تحت العرائش على السطح يراقب النجوم علّه يعرف شيئاً، مهما كان ضئيلاً، عن مصيره ومصير الأمة. أستطيع أن أكتب الكثير عن محمود. أما سهام التي لم أعد أراها منذ تلك الأزمنة البعيدة فتبدو لي امرأة رائعة ذكية فتذكّرتُ بيتاً من الشعر العربي وددتُ لو أُسمعها أياه لعلّي اطربها قليلاً هي التي ابتلت بالمصائب:

فلو كان النساء كمن ذكرنا

لفضلّت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب

ولا التذكير فخر للهلال

لم تكن تلك هي النزهة الممتعة الوحيدة التي شاركتُ فيها، وها أنا أستعيد أيضاً ذكريات نزهة جميلة من نوع آخر تجوّلتُ فيها بصحبة صديقي جبرا ابراهيم جبرا. ذهبنا للسينما معاً، جلسنا بعدها في مقهى الوليمز في البرج. راقبنا جموع الناس بشغف. تحدثنا عن القصة وعلاقة الوهم بالواقع. سرنا على الكورنيش نتمتع بنسيم البحر مروراً بالزيتونة والسان جورج وعجرم حيث أخذنا سيارة إلى الانكل سام لنلتقي بادونيس وعادل وتوفيق. وبحضورهم أخبرني جبرا أن نسخة مجموعتي القصصية التي وضع مقدمتها وكنت قد أرسلتُها إليه إلى بغداد جاءته عن أعجب الطرق فقال، «جاءني بها أخ زوجتي لميعة وهو أحد موظفي الداخلية في مطار بغداد وقال أنه وجد الكتاب مع الفرّاش، فأخذه منه وألقى نظرة عليه فتفاجأ أن النسخة مهداة إليّ من المؤلف وكان إسمي أنا وإسم لميعة فيها فقال باستغراب للفراش: من أين لك هذا الكتاب؟ قال والله وجدته صدفة. قلت أين وجدته؟ أجاب وجدته في باص النيرن التي تنقل الركاب والأمتعة بين بغداد ودمشق وبيروت.

«شلون؟» سألته، فاجاب، «على أحد المقاعد. أليس هذا عجيباً؟»».

وقصدته في الأيام التالية إلى سوق الغرب حيث اعتاد أن يصطاف هو وعائلته فحدّثني في معرض الكلام عن روايته «صراخ في ليل طويل» وعن استخدامه «الفلاش باك» وتيار الوعي والمنولوغ الداخلي والتحليل النفسي، وعن جيمس جويس وبلزاك ودستوفسكي ود.هـ. لورنس واولدس هكسلي ووليم فوكنر وارنست همنوي، وكيف نهل من ينابيعهم وتعمّق في فهم أسرار الهوية والزمن. واختلفت معه في قوله ان الزمن دائري في الحضارة العربية بينما هو أفقي في الحضارة الاغريقية معتبراً ان كل حضارة تشتمل على كل من المفهوم الدائري والمفهوم الأفقي في صراع ومواجهة بينهما إنطلاقاً من مواقع الانسان في البنية الاجتماعية. لذلك سرني أنه عدّل من موقفه وأوضح لي بانه تعلّم في كتابته للرواية من التراث الأوروبي ومن ألف ليلة وليلة التي أصبحتْ جزءاً من تراث الإنسانية، ومن هنا سرّ عالمية الأدب العربي وسعي السندباد البحري الدائب نحو إكتشاف طائر الرخ الذي يرفع الإنسان من أودية اليأس إلى ذرى التفاؤل.

ثم جرى لي أيضاً حدثٌ مثير. إستلمتُ يوم الاثنين في 21 أيلول رسالة من رؤى في وقت لم أكن اتوقّعها على الأقل بتلك السرعة، خاصة وانني لم أجبها بوضوح على أسئلة وردت في رسالتها السابقة. مرة أخرى تعرض عليّ فكرة السفر إلى الولايات المتحدة للعمل ومتابعة دروسي، وتذكّرني أن المنصب الذي أعلن عنه في الجامعة ما زال فارغاً. ثم تسألني إذا كنت نسيت أو تعبت؟

مرة أخرى شغلتني رسالتها أكثر مما كنت أتوقّع. قلتُ على الأغلب أنها لم تستلم رسالتي السابقة. وفي لهفتي استيقظ داخل نفسي شعورٌ غريب مما إضطرني أن أتساءل هل ما أزال أحب رؤى؟ لقد إعتدتُ في رسائلي الأخيرة إليها تجاهل علاقتنا السابقة وأكتب إليها كصديقة فحسب، وهذا ما إعتادته هي أيضاً في رسائلها إليّ كما لو تفاهمنا دون كلام أننا مجرد صديقين فحسب. أما رسائلها

الأخيرة فأعادتني، بعلم أو دون علم، إلى الأمس الذي يبدو أنه لم يندثر. وأستفسر بصوت منخفض كي لا يسمعني أحد كيف أوفّق حبين؟ واقصد بالحب هنا العشق. نعم العشق يا نادر.

وفعلاً وجدتني أكتب بعد يومين رسالتين، واحدة لصَبَا وواحدة لرؤى. عبّرت في رسالتي إلى صَبَا عن أشواقي وشكوت من غيابها الطويل كما أخبرتها انني استلمت رسالة جديدة من رؤى التي قلتُ لها في جوابي على رسالتها انني لم أنسَ ولم اتعب. ومن غريب الصدف انني ما أن استودعتُ البريد الرسالتين حتى تلقّيتُ بعد ظهر ذلك اليوم رسالة من صَبَا أدركت منها أنها متألمة جداً وهي بحاجة اليّ.

كانت دائماً صريحة، خاصة في تلك الرسالة التي حدثتني فيها عن كل ما يمرّ في نفسها من مشاعر وأفكار، الأمر الذي تمتنع معظم الفتيات عن إبدائه، ومنهن رؤى لا شك لديّ. أحسستُ حقاً بالذنب واعترفتُ أنني أواجه مشكلة مستعصية في علاقتي مع نفسي.

عدتُ أذكّر أن صَبَا أعطتني من ذاتها أكثر مما أعطتني أية فتاة في السابق. ولم يكن من الغريب أن يصخب حنين عارم إليها في أعماقي. وها قد بدأتْ، كما يبدو من رسالتها، تتجرأ على مواجهة عمها. ومن المفارقات أنها في الوقت الذي تعلن تحدّيها تقول لي أنها تودّ لو احتضنها بذراعي فتنام بين يديّ كطفلة، وانها تشعر بانها طفلة صغيرة وصغيرة جداً. طفلة؟ لماذا ترى نفسها طفلة؟ لا أجد جواباً.

يتفتّتُ قلبي أسىً فاتهم نفسي بأنني اغتال حاضري كي اصنع مستقبلي. ما الحكمة من ذلك؟ أليس من العدل أن أنسحب من واقع لم يعد يُطاق؟ أكتب في يومياتي، «أحبك صَبَا، وكدت ان أقول رؤى فكبتُ هذه الخاطرة التي فاجأتني. اجتاحتني من عالم سحيق في الداخل. اتذكّر فرويد، وثم اتعمّد ان انساه.

وذهبتُ إلى البحر. خضتُ الماءَ كما لو كان عشيقة فيما أفكر أن أكتب لصَبَا أسألها متى يتحقق الحلم؟ ومضت أيام قلائل حين إستلمت رسالة من رؤى كتبتها على الأغلب قبل إستلام جوابي على رسالتها السابقة. قالت: إنني وحيدة في غرفة نومي ليلة هذا الأحد. وفي ما أكتب إليك يحملني طائر إلى لبنان القديم الجميل، إلى الأيام والأمسيات الجميلة التي قضيناها معاً. وأتساءل هل تعود تلك الأيام؟ لست أدري ماذا أكتب لك الآن فيما استعيد ذاتي الماضية. أعود إلى الأمس وأفكّر بالزمن الذي مضى. كان درساً. وفي غرفتي الهادئة الآمنة وحيدة مستوحدة أفكّر بالأيام التي تمتّعنا بها معاً. ويبقى سؤال واحد في فكري: هل تعود تلك الأيام الجميلة؟

قلتُ فاضتْ ينابيعُ الحب، ولا بدّ أن السماء أمطرتْ كثيراً فوق حقول رؤى. عدت أقرأ الرسالة مرة ثانية. أعترف أنني وجدت نفسي في حيرة. انني أحب صبى ولا بدّ من التغلّب على الصعاب، ولكن ما يربطني برؤى ليس مجرد صداقة من نوع خاص كما أحاول عبثاً أن أقنع نفسي. لا أدري لماذا هذه الحيرة وأنا أتصرف كما لو كنت خارجاً على إرادتي. في هذا المناخ المضطرب كتبتُ رسالة إلى رؤى ما ان أعدتُ قرأتها حتى أعجبتني ورأيت ان احتفظ ببعض ما جاء بها على غير عادتي أنا الذي لم أكن في ذلك الوقت أملك نسخاً عن رسائلي السابقة. وهذا بعض ما جاء في رسالتي تلك أفشي سرّها لغيري كما أفشيته إلى نفسي دون أن أصدّق أو أعترف:

«... تريدين ان أطيل رسائلي وأخبرك كل شيء... كل ما يمر في فكري وصدري. لا استطيع ان أعرف كيف أعبّر عن هذا العالم الغني المضطرب كبحر شتائي على شواطىء لبنان... أشعر انني لن أجد ما أقول فأظل صفحة بيضاء تنتظر ان تمتلىء بالافكار والاحاسيس، أو سماء صافية تحفل بشوق غريب للغيوم الماطرة... كأنما لديّ الكثير مما أريد قوله، وكأنما ليس لديّ أي شيء أقوله.. أعرف كيف تشعرين، رؤى... ربما أعرف تماماً. انتِ في حيرة. اعتقد انني أفهمك.. هل تفهمينني؟

«... أعادتني رسالتك الأخيرة إلى الأمس الجميل، ودروبٍ تذهب خفية كالحلم إلى كروم العنب والى سهرات الصيف على السطوح في ليالٍ قمرية، وتلالٍ أطللنا من أقصى إرتفاعاتها على سهول البقا ع المتموجة في اخضرارها كأغنية جبلية طويلة الآهات.

«ومهما تغيّرت أراؤك وأرائي، ومهما كانت حدة النقاش، سوف نشعر باننا نزداد تفهماً كما تقولين.. ونزداد احتراماً ومحبة وصداقة. انني متأكد بانك مهما تغيّرتْ مواقفك فانك يا رؤى ستظلين المرأة الرائعة التي عرفتها.

«لم أجد حتى الآن إسماً للرواية التي أكتبها، وقد تكتمل قبل ان اجده. إنما كل شيء أصبح واضحاً أمام عينيّ: هيكل القصة وشخصياتها وأحداثها ومعانيها ورموزها والتجربة التي تنبع منها وتصبّ فيها. أخاف دائماً ان اتحدث عن كتاباتي وعما ترمي إليه في الخفاء. من الأسهل عليّ ان اكتبها من أن اتحدث عنها. ما أن أبدأ بالحديث عنها حتى اشعر أنها بدأت تفقد رونقها وجودتها كحياة نامية متوترة نابضة... أنها الرؤى التي هي أجمل بكثير من الكلام حولها. طبعاً ليست روايتي كجمالك، ولكن ما أقصده هو انني أفضّل

الاّ اتحدث عنها فاتركها تعبّر عن نفسها تلقائياً... للقارىء ان يفهمها كما شاء فلا تفرض نفسها عليه كما لا ترغب ان يفرض عليها تصوراته ويشوّه معانيها.

«ومع هذا أقول ان روايتي تهتم بموضوع متجدّد دائماً هو الحب... وحول موضوع أخر هو أيضاً متجدِّد حي.. أنه الموت.. الحب والموت تلك هي روايتي الجديدة التي لا أسم لها حتى الآن والى ان تولد. وربما تختار اسمها بنفسها وبإستقلال عني أنا الخالق المخلوق أو المخلوق الخالق. لا أدري. وما أقوله ليس سوى تساؤل لا جاوب عليه».

ندخل شهر كانون الأول فأكتب في يومياتي «أستحال عام 1959 عجوزاً يقترب من نهايته. كتب فايز صايغ في إفتتاحية العدد السادس من مجلة الاداب مقالة بعنوان «معركتنا مع الشيوعية» فاتهمها بانها تسعى «الى تقويض كيان الدولة التي تتجسّد فيها القومية العربية المتحرّرة»، وأضاف ان «منطلقنا غير منطلق الشيوعية. القومية تنبثق عن المحبة ـ محبة المواطن لأبناء أمته... وأما الشيوعية فمنطلقها هو الحقد». وصرفتُ النظر عن الموضوع إذ أصبح يبدو لي أنه مثلنا جميعاً يجهل أو يتجاهل مسألة التحليل الطبقي وقضايا الطبقات المظلومة المضطهدة. لسبب ما، حزيناً ومتشائماً كنتُ طيلة هذا النهار، ولكنني استدركتُ فركّزتُ تفكيري على كتابة الرواية كي أنسى.

قلت لنفسي انني مهما حقّقتُ من انجازات ستظلّ حياتي خاوية ما لم أصبح روائياً وكاتباً جيداً. سأعيش من أجل الكتابة وأوظف كل ما أختبره كمادة وموضوعات، وسأهتم بالشكل بقدر اهتمامي بالتجارب الانسانية. الشكل يجب ان ينبثق عن التجربة دون افتعال، ولكنه ليس أمراً ثانوياً في الكتابة. ولكل تجربة أو حدث شكل خارجي وشكل داخلي منظور وغير منظور. غايتي في الدرجة الأولى ان أركّز على الشكل الداخلي واللامنظور. ما اسعى إليه ليس مجرد المحسّنات اللفظية وإيقاعات الكلام. ليست تلك هي لغتي. ولن اكتفي بعقلانية تنظّم الأشياء وتلغي ما لا وظيفة له في عرفها، بل سأهتم أيضاً بالحالات النفسية اللاواعية المتحركة الدينامئية. الشكل ليس جامداً. ليس مربعات ومستطيلات ومكعبات أو خطوطاً مستقيمة، بل هو تموجات مضطربة وإنحناءات أفقية. يهمني العالم العقلاني والعالم اللاعقلاني كما ينعكس في الخرافات الشعبية والاساطير الكبرى. الاضطراب، القلق، التوتر، التوثّب، والتعبيرات الصارخة. اننا في هذا العصر نعيش تمزقاً حياتياً كيانياً في صميمنا، ويتجلى ذلك في بحثنا العلمي والفلسفي وفي التعبيرات الفنية الابداعية. أما الرواية فتاريخ أحداث حياتنا اليومية وإسطورة تربطنا بما غاب وما سيحضر. تبدأ من الداخل إلى الخارج، ومن الخارج إلى الداخل، وتتخذ شكلها بدءاً من ذاتها.

وللتحرّر من الأفكار والمشاعر التي كانت ما تزال تطاردني وأحاول أن أسجّلها في يومياتي تلقائياً، حضرتُ مساء اليوم فيلماً بعنوان Five Pennies يغني فيه لويس ارمسترونغ ويعزف في بوقه ألحانه ليس فقط كما يفكّر بل كما يشعر. يعزف كما يحسّ فيتوالد الصراخ من أعماقه في مجتمع عنصري غاضباً محتجاً متوتراً قلقاً وعذباً في آن واحد. أحب صوته الفريد المتميّز وموسيقاه المنبثقة تلقائياً من مكان عميق في داخله وتجارب شعبه الحافلة بالآلام. حقاً لقد عانى كثيراً. يسخر من الموسيقى الكلاسيكية، «من هو هايدن؟ من هو هايدن هذا؟». لا اتفق معه في سخريته. أحب الموسيقى الكلاسيكية كما أحب الجاز والأغاني الشعبية في تراثنا. أحب الموشحات والمقامات كما أحب إيقاعات الدبكة. لا أرى ان أياً منها يمكن ان يحلّ محلّ الأخر. أرمسترونغ ليس هايدن، ولكن هايدن ليس أرمسترونغ. ولكل منهما موقعه المتميّز في النفس الانسانية.

عاودني في اليوم التالي ما كدتُ أتحرّر منه أمس. شعرت انني حزين وضائع. اصرخ من أعماقي مستغيثاً دون ان أسمع جواباً، «الانسان المنفي انا، الضائع الغريب في عالم من صنع يديه». ولكن نجدة جاءتني في وقت لم أكن أتوقّعها. استلمتُ هدية جميلة جداً من صَبَا: ثلاثة تماثيل. تمثال لراقصة تبدو حزينة، وتمثال لرجل يبدو صارماً، وتمثال طريف لغزالة ناعمة تبحث ربما عن طعام تأكله أو عن غزال تحبه أو عن طفلة أضاعتها. واعجبتْ التماثيل أختي ندى فقالت رغم أنها تفضّل لي رؤى: صَبَا فنانة وتتذوّق الفن.

وخرجتُ إلى البحر فوجدته متموجاً في رقص ايقاعي مع الرياح. تتكوّن أمواج تندفع إلى الشاطىء شوقاً إلي رماله. لو يستطيع جسدي ان يتموج بحرية تجاوباً مع الرياح والأمطار ويندفع في الإتجاهات التي يشاؤها. هل من ملجأ أحتمي به غير البحر والحب؟ آه ! طبعاً هناك الكتابة.

ما أن مضى عقد الخمسينات باسرع ما تصوّرتُ ودخلنا في عقد آخر حتى وجدتني أواجه نفسي قائلاً، «تغيّر الوقت ولم تتغيّر أنت يا نادر كما لم يتغيّرالواقع سوى في جزئياته» فكتبتُ في يومياتي نهار السبت في 2 كانون الثاني عام 1960، «مرت أعياد الميلاد

ورأس السنة وانا قابع هنا كصدفة صغيرة في أعماق بحر ضائع. يمرّ الوقت فيما أركض دون حراك. يومي الحاضر كأمسي ولا أتوقّع تحوّلاً هاماً في حياتي غداً فأفكّر ان اكتب قصة بعنوان «الراكضون» المنشغلون بما لا يعلمون. يسلكون دروباً لا عودة عنها، وليس من وقت للتأمل في حياتهم وأوضاعهم. تندثر أفكارنا قبل ولادتها المبكرة ونعيش تحت هيمنة نظام مستبد. تلك هي حياتنا اليومية التي لا جديد فيها سوى وعينا لها وفقداننا الثقة بكل أشكال الانظمة المستبدة. ذلك هو وهم المستقبل الضائع. هل نخسر ما لم يأتِ؟».

وخطر لي أن أسمّي قصتي «المستقبل الضائع» بعد أن اطلعتُ على أراء شبلي الشميل حول الدين والعلم. رأى أن إصلاح المجتمع لا يكون بالدين، بل بالعلم الذي يحرّر الإنسان من الجهل والتعصب والرؤية الغيبية المهيمنة على العقول والنفوس، وبقدر ما ينتشر العلم تنهض المجتمعات وتتقدّم. سرّني جداً، على الأقل للوهلة الأولى، أن أسمع مثل هذا الكلام المتفائل لما عرفتُ من إساءة إستعمال الدين ومما نتج عنها من نكبات في تاريخ البشرية. ولكنني بعد التمعّن بما قال الشميل وجدتني أسأل ماذا يمنع الذين أساءوا إستعمال الدين من إساءة إستعمال العلم أيضاً؟ لقد بدأ يتضح لنا الآن ما لم يتضح للشميل في زمنه أن الحكومات والشركات العامة الكبرى ممعنة في تسخير العلم لمصلحتها ولن يكون للعلماء رأي في كيفية إستعمال مخترعاتهم. أصبحوا، ربما كما كانوا دائماً، يعملون في خدمة الشركات والجيوش على حساب الإنسان والطبيعة، وفي الوقت الذي تتمكّن الأمم أن تعيد بناء مجتمعاتها أكثر من أي وقت مضى، أصبح بإمكانها أيضاً أن تدمّر العالم والمخلوقات عمداً أو صدفة. ذلك هو شأن الطبقات المهيمنة على المجتمع. لا أثق بهذه الطبقات والأمم التي ليس هناك ما يحدّ من جشعها وغرورها وتهوّرها. إستعملت الدين وما تزال تستعمله كوسيلة للسيطرة والقمع، ولن يمضي وقت طويل قبل أن ندرك أن العلم إستحال هو أيضاً، للأسف الشديد، وسيلةً في أيدي الأقوياءللهيمنة على الضعفاء وموارد المجتمعات وحياة الناس.

ثم صدف أن قرأت في العدد الأول من مجلة الآداب لتلك السنة افتتاحية قال فيها سهيل إدريس أن الشعب العربي يعيش في تاريخه الحديث «حالة ثورية» لم يسبق له أن عاش مثلها عمقاً وزخماً، ولكنه يذكر من ناحية أخرى أنه تعرّض إلى التهديد بالقتل من قبل بعض الرجعيين الذين يزعمون أنهم يدافعون عن الإسلام، على أثر خطاب القاه في مهرجان أقامه حزب الكتائب في بيروت، ودعا فيه إلى الوحدة الوطنية على أساس الإيمان بالقومية العربية، والتفريق بين العروبة والإسلام. وكان أن إتصل بادريس عدد من الأدباء يدعمون موقفه. ولكنني لم أتفاءل لعلمي ان الرؤية الغيبية ما تزال تهيمن على العقول والنفوس. ولذلك لم يكن غريباً أن تعلن جمعية أصدقاء الكتاب في خريف عام 1960 عن جوائزها في مختلف المجالات، وتضيف «أما جائزة العلوم... فلم يتقدّم أحد لها».

وعندما قرأ عادل تعليقاتي على هذه الأمور قال لي أنني متشائم فاتهمتُه أنه متفائل، وحاول أن يقنعني أن التفاؤل إيجابي وضروري لتغيير الواقع فحاولت أن أقنعه أن الكثير من التفاؤل يقوم على الوهم وخداع الذات فهزّ رأسه ومضى. وسرني أن أخرج من تلك النقاشات العقيمة فأخذتُ أتساءل كيف أحّل معضلة علاقتي بصَبَا ورؤى بعد أن إكتشفتُ حلاً لمعضلة علاقة العلم بالدين والإنسان؟ واستلمتُ بعد أيام، وكنت ما أزال أبحث عن حلّ، رسالة من رؤى تقول فيها، «يبدو لي يا عزيزي نادر أنه بقدر ما يزداد سوء التفاهم بيننا بقدر ما تتقارب قلوبنا معاً. على الأقل هذا ما أشعر به شخصياً». قلتُ لا بدّ إنها تجيبني على رسالة كتبت لها فيها انني استلمت صورتها وأجريت مقارنة مع صورها السابقة التي أملكها. أقول أن الصورة الجديدة كيفما تطلّعتُ إليها أجدها تحدق اليّ، وعندما ابتسم لها أحس أنها تبتسم لي أيضاً.

وأخبرت صَبَا بما حدث، فروتْ لي ان أحد أصدقائي صرّح لها أنه يحبها، فما كان مني إلا أن قلتُ لها محاولاً تغطية إنفعالي، «أنني أنا الذي عرّفته اليك . ربما كل امرأة تحب ان تكون موضع تنافس بين عشاقها. ويبدو أنك تريدين أن تثيري غيرتي. هل تغارين من رؤى؟»

- أغار، ولكن الغيرة لا تزعجني كما تزعجك علي ما يبدو. لا يهمني أنني أغار.

- لا أفهم. كيف هذا؟

- ما تعنيه لي الغيرة أن هناك فتيات تحسدنني على حبيب جميل.

ضحكنا فقلتُ لها إن من طريف ما جرى لي فيما أفكر متى أخرج من الغموض وأتأكدّ من مشاعري الموزّعة أن إستلمتُ من عادل رسالة من شيكاغو عاد فيها إلى موضوع سبق لنا ان بدأنا التحدّث حوله فقال، «اعجبني جداً وصفك لي قضية عدم معرفة تلامذتك لما هو الحب، وأول ما خطر ببالي حين قرأت هذا ان أعلمك ان الأميركيين هنا أيضاً لا يعرفون معنى الحب. للهالسكسلله هو المرادف

للحب.... بعد ان تقضي ساعتين أو ثلاث في نشوة للهالسكس لله مع فتاة ما هنا، الكلمة الاخيرة الواجب ان تقال، Thank you, I enjoyed it ... وحين تقول لها عيناكِ جميلتان تخامر وجهها ابتسامة الهزء، ما تنتظره هو ان تقول لها عيناك سكسيتان، وكذلك شفتاك، وفسطانك وحتى حذائك. سكس. سكس. ذلك هو الحب هنا يا صديقي. وأيهما أفضل في رأيك: أن لا نعرف معنى الحب أو أن نفهمه على أنه مجرد علاقة جنسية؟»

بعد صمت طال أكثر مما أحببتُ أخذتُ أفكر بصَبَا في حضورها: معاً نتغلّب علي الكآبة، وحين نفترق يجرفنا تيارها إلى مكان سحيق، يقبض علينا من الداخل، ويستولي على حياتنا. اريد ان اتحمل مسؤولية حبي لها دون أن اتوقّع منها أن تتحمّل مسؤولية حبها لي. هل يحرّرنا الحب من قيود الوحشة أم هو الوحشة بذاتها حين نفترق؟ لا أدري. ما أعرفه انني وأياها ننتمي لحركة عقائدية تتطلّب من أعضائها الوضوح والتصميم والإلتزام، ولكننا معاً نعاني من الحيرة. أتوقّع منها أن نتساعد في الخروج من الحيرة. وهذا ما تتوقّعه هي مني أيضاً. ولا أنكر أنها تحاول مساعدتي في تفكيك نفسي من القيود كما أحاول أن أقنعها بالتمرد. لم أعد اوافق على تصرفات قادة الحزب كما لا يوافقون على تصرفاتي. ولكنني ما زلت معجباً بانطون سعاده الذي لم تنفصل انشغالاته السياسية عن انشغالاته الفكرية. إنما لا أخفي ما يتبادر إلى ذهني بين حين وآخر أنه ربما كان مفكراً رومنطيقياً أكثر منه سياسياً واقعياً.

طبعاً لم أكن أوافق على هذا الكلام كما لا أرفضه بتاتاً. واضح في كل ما قال وفعل أنه أراد ان يؤسس حركة تحقّق نهضة شاملة على أساس نظرة جديدة للحياة والانسان فالتزم بالعلاقة العضوية بين الفكر والحركة. لم يقبل الفكر لذاته كما لم يقبل ان تكون الحركة سياسية بمعناها التقليدي بل أرادها أن تستند إلى تنظير فكري حديث. الرجل مظلوم، وربما كان بعض تلاميذه الأمناء له بين أشد مَنْ ظلموه دون أن يعلموا. بسّطوه، اختزلوه، كرّروا أفكاره حتى كادت أن تفقد رونقها. حوّلوها إلى مقدّسات مطلقة فعطّلوا نموها. وبموته توقّف النقاش فيكون عليّ أن أنسحب أو أن أكافح من أجل إستعادته. هل من الممكن إستعادة النقاش من داخل النظام القائم؟ تلك هي المسألة.

في ذلك الوقت بالذات، دعاني مسؤول في الحزب للكلام معي عن مسألة عاجلة فلبّيتُ الدعوة وفي ظني أنه يريد تكليفي بمهمة ما أو إستشارتي بأمر هام. وما أن دخلت حتى بادرني بقوله دون ترحيب ومقدمات، «أريد أن أبلّغك أن قيادة الحزب تداولت لمدة بمسألة علاقتك بالرفيقة صَبَا، وقرّرت بعد نقاش مستفيض أن مصلحة الحزب تقتضي أن تضع حداً لهذه العلاقة»، فسألته مستغرباً، «كيف يمكن للقيادة أن تبحث بهذه المسألة وتتوصّل إلى قرار جازم دون الإطلاع على رأيي ورأي صَبَا لمعرفة حقيقة الأمر؟ ومن اعطاكم الحق بالتدخل بحياتي وحياتها الخاصة؟»

وصعقني جوابه مع أنه كان عليّ أن أتوقّع ذلك من قيادة منغلقة على نفسها. قال بحزم، «إستدعيتك لأبلّغك ما يجب عليك أن تفعل، لا لتخبرني ماذا كان علينا نحن أن نفعل. أريدك أن تضع حداً لهذه العلاقة. هذا أمر حزبي. مفهوم؟»

ـ وإذا لم أستجب؟

ـ لكل حادث حديث.

ـ تهدّدني؟

ـ أترك الأمر لذكائك

طبعاً، إستأتُ جداً انني انضممت لمدة سبع سنوات إلى حزب يبلّغني ماذا يجب أن أفعل ولا يهمه أن يسمع رأيي فلم أشعر باية رغبة في متابعة الحديث، إن قلتُ في حالة من الغضب: دخلتُ في حركة فكرية ولست مجنداً في جيشك.

انسحبتُ أكبتُ شعوراً بالإهانة لم أكن مستعداً له. ومضيتُ متباطئاً إلى مكتبة رأس بيروت حيث تنتظرني صَبَا. وما أن رأتني حتى خرجت تستفسر عما جرى. أخبرتها بما حدث، ومشينا معاً وقد لفّنا صمت قاتم لدقائق قبل أن نتمكّن من الكلام. قلتُ لها: مهما بلغت معرفتنا بالواقع تظل هناك فسحة للصدمة. لم أتوقّع كل هذا الغباء المستبد، وخاصة من هذا القائد بالذات. كان عليّ أن أدرك أي حضيض وصلنا إليه.

وبدا لها أنني أريد أن أُتْرَك، على الأقل لوقت قصير، لأضمّد جرحي بنفسي منفرداً فقالتْ قبل أن نفترق: تبدو خائفاً؟ هل هدّدوك؟

قلتُ: في كلامه تهديد مبطّن، لا شك، ولكنني لست خائفاً.

قالت: نحن على موعد

قلتُ: أتصل بك

وبدل أن أضع حداً لعلاقتي بصَبَا، وضعت حداً لعلاقتي بالحزب، فدعوتها لحضور فيلم سينمائي في اليوم التالي. وجدناه فيلماً رائعاً فهو، ككل عمل ابداعي رائع يدفعنا للتفكير والتأمل في حياتنا. فكّرنا معاً بمسألة العيش في ظلّ أنظمة سلطوية، وعبّرنا عن قناعتنا أن الحزب تحوّل من حركة إلى مؤسسة لها مصالحها ومتطلباتها الخاصة. ما رأيته كفاحاً ضمن حركة تساوي وجودنا تحوّل إلى حزب سلطوي، ولكنني لم أندم ولن تتوقّف إهتماماتي السياسية. بل تعمّقتْ واتسعت آفاقها بقدر ما تعلّقتُ بذكريات حميمة وصداقات عدد من الرفاق أحتفظ بها إلى النهاية. من ذلك أن جرى لقاء مع أدونيس وخالدة التي قالت، كما أذكر، متحدثة في سياق آخر، «إننا نستطيع أن نتحدث حتى الصباح بلا انقطاع عن الرمل والجفاف، عن الأسوار، عن سراب اسمه الحرية، عن خرافة اسمها الانسان، عن مومياء اسمها الدولة. لا قيمة للكتابة ما لم نوجّهها بحرارة إلى انسان معيّن وليس إلى جمهور لا يقرأ وإن قرأ ما نكتب يقرأنا كما يقرأ الاعلانات. أسفاً، ليس لنا أصدقاء عديدون، وأهلنا تابعون لعالم آخر نبذنا ونبذناه».

في تلك الجلسة العفوية ردّد أدونيس مقطعاً من قصيدة مهيار:

يضربُنا مهيار

يحرق فينا قشْرة الحياه

والصبرَ والملامح الوديعهْ

263

فاستسلمي للرُعب والفجيعه

يا أرضَنا يا زوجة الإله والطغاةْ

واستسلمي للنارْ

وأكمل أنه يعارك شيئاً في نفسه يجهل ما هو، وأخبرنا أنه ينام على وسادة واحدة مع اليأس، وطلب ألا نسأله عن الأشياء الجارية فهو عدو الأشياء.

وتعمّقت خيبتي بالأشياء عندما تلقّيتُ خبر موت ألبر كامو بحادث سيارة. ما هذا الموت العبثي؟ مات ولم أتمكّن أن اكتب عنه شيئاً أو عن الموت والحياة، وعن الصراع دون إنقطاع بين الحياة والموت فإما ان تكون الحياة عبثاً أو ان نعيشها حقاً من أجل نفسها. ومهما كان، إننا نعيش في عالم حافل بالحيوية. وكامو، من خلال ما إطلعتُ عليه بدءاً من قراءة رواية الغريب وكتاب المتمرد وانتهاءاً بالطاعون، هو بين افضل من عبّروا عن مشكلة الزمن ومعنى ان نعيش الحاضر والماضي والمستقبل دفعة واحدة ودون رسم حدود بينها. كل لحظة هي ماض وحاضر ومستقبل معاً. هذه مسألة يجب أن تهمني جداً ولا بدّ ان أحدّد موقفي منها. أبدأ من تحديد موقفي من الماضي. اشعر اليوم انني مجرد امكانية لحياة ستأتي لا أعرف متى. لا اعيش أيامي. امحى حاضري من وجودي. ايها المستقبل اقترب فإيماني بالحاضر لا يقّل أهمية عن إيماني بك. ولكن إلى متى اتخلّى عن حاضري باسم مستقبلي؟

ووجدتني أفكّر انني مجرد امكانية حياة فقلت: إمحي ايها الحاضر من وجودي، واقترب أيها المستقبل.

وحقاً إقترب المستقبل باسرع ما تصوّرتُ وكان وجهه مظلماً. خلال شهر، وتحديداً في الإسبوع الثالث من شهر شباط 1960 سمعتُ ان سعيد تقي الدين توفي في المهجر بعيداً عن الوطن. إنهالت دموعي، ولما حاولتُ ضبطها إزداد إنهيالها. بكيت بصمت. هل أبكيه أم أبكي نفسي؟ ليس هناك ما يمكن ان أقوله في حضور الدمع. كان فناناً رائعاً، وانساناً رائعاً، وساخراً، وبل ماساوياً. ترى عاش ومات حقاً كما شاء؟ أحببته أولاً من خلال قراءة مجموعته القصصية غابة الكافور وثم من خلال مسرحياته وقد مثّلت دوراً في مسرحيته المنبوذ التي عرضناها في قاعة الوست هول من الجامعة الأميركية. لم يحلّ سعيد تقي الدين مكان جبران في حياتي الأدبية، ولكنه أظهر لي الجانب الواقعي الآخر في الكتابة، فاخترت طريق القصة التي إنتهت بي إلى جادة الرواية. إنها طريقي وحديثي مع المكان والزمان وتفاعلي مع المجتمع والأمة.

وتداعت إلى ذهني، خاصة، صورٌ من سهرة معه قبل سفره عائداً إلى المهجر. خسر أمواله الطائلة التي عاد بها إلى الوطن فقد اعتاد ان يهبها دون حساب وعاش كما أراد أن يعيش في علاقته بها. في تلك السهرة بالذات قال سعيد تقي الدين ما أذكره جيداً: «يؤلمني ان أرحل، فانا أخاف ان أموت خارج بلدي». بل حدّد لنا نوع موته. أية غبطة إلهية هذه؟

موتك رائع كحياتك يا سعيد تقي الدين. وها أنا وحدي اسير في شارع موحش بعد منتصف الليل: ايتها المأساة يا حياتي. أيها الصراخ المتوالد من رحم الكبت منذ آلاف الأجيال. أريد ان اكتب. لا استطيع. أريد ان اتحدث عن سعيد تقي الدين. لا استطيع وليس من مستمع. أريد ان اصرخ. لا استطيع وليس من يصغي. اريد ان أفكر وأن أحزن بقدر ما تشاء نفسي. أيتها الوحشة يا حياتي. اشعر كما لو اسير في دهاليز سجن. كم اشتاق ان أقف على رأس جبل واتطلع إلى الأودية علّني ألمح نهراً يتدفّق، أو أهبط إلى اعماق الأودية واتطلع إلى رؤوس التلال فأدرك مدى التحديات التي تنتظرني. كم أود ان اسير مع الأنهر إلى نهاياتها في البحر، وأتسلق الجبال نحو قممها الشاهقة، قمة ما أن أصلها حتي تبرز في الأفق قممُ أخرى أكثر إرتفاعاً ورهبة وتحدياً ووعداً كما قال القائد.

وذكّرني موت سعيد بقصة كتبتها قبل ذلك الوقت بسنة ونصف السنة وكان عنوانها كما أفصحتْ عن نفسها دون تدخّل مني «حجر يغوص في البحيرة» مستوحاة مما شاهدته في احدى سهراتنا في ضهور الشوير قبل هجرته الأخيرة، وقد صمّمتُ ان ارسلها غداً للنشر مهداة إلى روح سعيد تقي الدين:

كتبتُ هذه القصة بعد سفر سعيد تقي الدين باسبوع. في سهرة عفوية تجلّت روحه في ذروة معانيها المتشابكة، الصافية، المتكبرة، المتواضعة، اليائسة بانفتاح ابدي على الحياة، العطشة رغم أنها نبع يتدفق. هذه القصة لا تقصد ان تكون سيرة واقعية بالمعنى التاريخي. أنها قصة فنية أوحى بها سعيد دون ان يدري، وهي لا تقصد ان تكون نبوءة فاصدقاء سعيد يعرفون ان أكثر ما كان يؤلمه قبل سفره ان يموت خارج بلده. ورغم أنه كان يتوقّع موته بالسكتة القلبيه في اي وقت، إلا أنه سافر، ربما دون أن يدري، ليتمّم ملحمة حياته الكفاحية المتوثبة النابضة الحية المتوترة. وأعترف أنني قبل ان ارسل هذه القصة إلى النشر كنت قد عرضتها على عدد قليل من أصدقائي. لقد أعجبتهم، كما قالوا لي، وتوقّفوا عند رموز سحرية تشير إلى البواطن والخفايا وللأراء التي لا يسمح المجتمع بالتعبير عنها بشكلها المباشر فاخذتْ تلقائياً شكل المجاز وتغلّفتْ بغموض ضبابيّ لم اخترق شفافيته.

وتداعت إلى ذهني في تلك اللحظة أقوال لسعيد أسماها رفات جناح فعدت إليها وتوقّفتُ عند بعضها بحضور موته، «أنفع علاج لتطهير الأخلاق هو أن يخلو الرجل نصف ساعة مع جثة ميت»، و«أفجع من الموت نصف الموت»، و«الفكرة، كدودة الحرير، متى إنتصرت ماتت»، و«الحقيقة أجمل ما تكون عارية». وضحكت حين تذكّرت أن أحد النقاد شبّه سعيد تقي الدين بمارك توين، فأجابه محتجاً بطريقته الخاصة، «في بلادنا عادة ذميمة... هي الإسراف في مدح الأجانب».

وقبل أن تستولي عليّ إغفاءة مساء يوم بارد إتصل بي أدونيس ليسأل، «كيف نفيه نحن حقّه؟ جاء دورك يا نادر لتكتب وتقيّم هذا الإنسان الكبير. ما هي إقتراحاتك عمّا يمكن أن نقوم به؟». قلتُ سأفكّر بالأمر حين أستيقظ من صدمة الكارثة، وذكّرته بقوله هو، «منذ يهدأ الانسان في مكان واحد...، تهدأ روحه»، فعلّقتُ أنه هو يخاف العيش في مكان واحد، أما أنا فأخاف ان اعيش في زمن واحد. ترى كيف أعيش أزمنة مختلفة؟ لقد تمكّن سعيد أن يعيش أمكنة وأزمنة مختلفة.

تلك هي حياتنا تتدحرج إلى أسفل فيما نتطلع إلى الأعالي. صحيح أن إنشودة المطر لبدر شاكر السياب صدرت ذلك العام، ولكنها كادت أن تضيع وسط أحداثٍ من كل شكل ولون. تحمّس أهل بيروت أنه أُنشيء مجمّع تجاري ضخم قرب باب ادريس انبثقت عنه سينما ستاركو، وأصبح كمال جنبلاط، الذي أسماه سعيد تقي الدين «قضيب زعرور»، وزيراً للتربية في وقت كان يعتقد ان لبنان تحوّل إلى إتحاد فدرالي للطوائف ولم يعد وطناً، فاحتج بيار الجميل ان توحيد مناهج التدريس تطاولٌ على مبدأ حرية التعليم. وفي تلك السنة تأسّست جامعة بيروت العربية، وباشرت بعثة الأب لوبريه عملها في لبنان فقدّمتْ تقريراً إلى الحكومة اللبنانية أظهرت فيه بالأرقام الدليل على التفاوت الشديد في توزيع الثروة اللبنانية. تبيّن منه ان نصف سكان لبنان هم من الفقراء المحروميين الذين تبلغ حصتهم من الناتج الوطني الإجمالي حوالي 18%، فيما تتجاوز حصة النصف الثاني المكوّن من ذوي الدخل المتوسط والأثرياء جداً 80%. فأي تأثير سيكون لمجمّع ستاركو على توزّع اللبنانيين إلى طبقات وشرائح إجتماعية وأية مواجهة ستحدث بين الفقر والثراء وكيف تكون علاقة هذه المواجهة بالمواجهات المستفحلة بين الطوائف والمذاهب؟ وفي هذا السياق ماذا أقول عن بدر شاكر السياب؟ وإلى متى تستمر ثقافة مجردات النجوم والورود والنرجس في لبنان؟ هل قال أحدهم شيئاً مما قاله الأب لوبريه؟ رجال الدين تزداد ضخامة أجسادهم بارتفاع رتبتهم. وهل كان المسيح يحمل صولجاناً، وينظر إلى انصاره على أنهم الرعية وهو الراعي؟ كل دين يحيلني إلى رعية اتحرّر منه توّاً.

وكادت الرسائل أن تحلّ محل لقاءاتنا. لذلك حين مرّ أسبوعان دون أن نلتقي تنازعتني مشاعر القلق والحزن فانسحبتُ إلى غرفتي واستمعت للسينفونية التاسعة لبيتهوفن فشمختْ نفسي بالفرح، ووجدتني أكتب في يومياتي تعابير إجتاحتني متتالية كامواج البحر

وقد سيطر عليّ خوف من أن تهرب مني قبل تدوينها:

وفي خضم أحداث كبرى

سألني صحفيّ ما مشكلة العربي في هذا العصر؟

أجبته: إنه مسلوب الارادة

ليس فقط في علاقته بالسلطة،

بل باهله ودينه واصدقائه وبنفسه.

تلك هي مشكلة العربي

في هذا الزمن المتداعي على نفسه.

قال هل أستطيع أن أنشر هذا الكلام؟

قلتُ إنشره فلن تجد من يقرأه.

نشره فجاء من أوصاني أن أكون حذراً.

أصبحنا نعتاش على تبادل الرسائل بدلاً من لقاءاتنا كل سبت أو خميس في مكان سري. لم تدم القطيعة طويلاً. دبّرنا لقاءات سرية حين تسنح الفرص فهناك أوقات لا بدّ للرقيب فيها من حاجة للنوم والإنشغال بشؤونه الخاصة، وقد يصبح الرقيب مراقباً هو أيضاً. ثم أندمجتُ شخصياً في نقاش شغلني عن نفسي بعد أن حصل أدونيس على الجنسية اللبنانية، وكنت شخصياً قد حصلت عليها قبل ذلك بسنتين. وفي هذه المناسبة كتب يوسف الخال في صحيفة النهار بتاريخ 6/10/1960 يقول ان «ادونيس شاعر لبناني مولود في احدى قرى جبال العلويين. تبنّانا وتبنّيناه منذ لفظه موطنه الأول وأصبح بدون وطن. ما من عربي ذي قيمة لا وطن له ولبنان موجود. بهذا لبنان لبنان. جغرافيته لا تعرف حدوداً في الأرض. حدودها في النور».

أزعجتني المبالغات وقلتُ يبدو أن يوسف لا يميّز بين الوطن والنظام القائم فالذي لفظ أدونيس ليس وطنه بل نظام عابر، وسألت هل يريد لبنان أن يستورد كلّ «عربي ذي قيمة» من بلده وما المقاييس التي يعتمدها بين من له قيمة ومن لا قيمة له؟ ولم يكن من اللائق الإشارة إلى قرى جبال العلويين بتلك اللغة التبسيطية، خصوصاً وان يوسف إبن المنطقة ومن المتوقّع منه أن يعرف مدى تعقيداتها وتوجهاتها، فكتبتُ رداً نشرته النهار في 11/10/1960 تحت عنوان مثير «أدونيس شاعر غير لبناني» (قدّرتُ أن أنسي الحاج هو الذي وضع هذا العنوان فهو سيد من يعرف كيف ينتقي مواضيع سجالية ويجتذب من خلال العنوان اهتمام القارىء. أنه سيد فنّ إثارة الجدل السجالي، هذا الأنسي، ولا أعرف من يتفوّق عليه في هذا المجال).

ومما حثني على الردّ أنني كنت أعرف جيداً أيضاً أن ادونيس قضى معظم فترة خدمته الاجبارية في السجن، اي سنة ونصف، ولم يخرج منهاراً بل أكثر قوة. وجاء إلى لبنان لوجود الحزب فيه وللمناخ العام فقد شعر ان النظام في سوريا كان يتجه نحو أيديولوجيا مغلقة. المشكلة في كلام يوسف أنه، من حيث لا يدري، كان يعتقد أن لبنان مشروع مكتمل وناجز إنطلاقاً من نظامه الطائفي الذي تتحكّم به العائلات التقليدية ويعيش كما قال أمين الريحاني داخل دائرته الصغرى بدلاً من دائرته الكبرى. لا بد للبنان أن يخجل من ان نظامه يسمح لعدد قليل من من أولاد الأسر الحاكمة أن تتوارث مناصب الدولة عن آبائها واجدادها جيلاً بعد جيل مسلّحة بألقاب الأمير والبك والافندي والشيخ.

ثم انني لا أعرف بلداً ديمقراطياً واحداً يعتمد نظاماً طائفياً.

ويجب ان يكون ردي على يوسف قد استجلب الانتظار فدعانا شارل مالك إلى منزله لمتابعة مناقشة الموضوع. إستمع مالك لتعليقاتنا مطوّلاً، ثم «فقعنا» من فوق خطاباً تحدّث فيه عن وجود فروقات حضارية في المنطقة أعاد جذورها إلى الإختلاف بين المسيحية والإسلام في النظر إلى حقوق الإنسان مشيراً إلى عدد من ضحايا الإضطهاد الفكري في التاريخ الإسلامي. هنا قاطعته مذكراً أياه بأحداث مماثلة إن لم تكن أكثرهولاً في التاريخ الأوروبي على يد محاكم التفتيش والحروب الدينية وسطوة الكنيسة وإضطهادها للعلماء، وذكّرته باضطهاد غاليليو وحتى الآن بعد ما يزيد على ثلاثة قرون لم تعتذر الكنيسة عن حرق شهيد حرية الرأي جيوردانو برونو حياً.

هنا أوقفني مالك عن متابعة كلامي قائلاً، «ماذا تعرف أنت عن تاريخ الكنيسة؟»، فأجبته أعرف ان القديس بولس قال جازماً منذ البدء، «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة». هنا عمّ صمت قطعه مالك أيضاً بكلام جازم حاسم أنهاه بقوله، «لا خلاص للبنان سوى

بالمسيحية». صعقني كلامه ولم أصدّق ما سمعت منه فقلت له منفعلاً، «غداً أتوجّه للمسلمين: يا إخوان لا خلاص لكم سوى بالمسيحية. أسألك يا معالي الوزير شارل مالك ماذا تتوقّع أن يكون الجواب؟». لا أذكر إن أجابني على تساؤلي فقد كان ذلك كافياً لإنفضاض الجلسة خوفاً من تدهور النقاش.

وقلت لنفسي قبل أن أستغرق في النوم تلك الليلة، «أنتَ يانادر ما همك بالأمر؟ مشاكلك الشخصية لا تستطيع حلّها فما الذي يجعلك تظن أنك تستطيع حلّ مشاكل الأمة؟ تواضع يا وَلَد». وأجبتني، «مشاكلي الشخصية لا تُحلّ قبل حلّ مشاكل الأمة، ولكنني أخاف أن أكون قد عكّرت أجواء الصداقة مع يوسف الذي أقدّر فيه الكثير من المزايا الأخرى، فهو بشوش مهما كانت الظروف، أما المشكلة فهي سلطوية مالك إنطلاقاً من منهجه الفكري المطلق». وهنا يجب أن يكون قد إنتهى النقاش بيني وبين نفسي وغرقتُ في نوم عميق لا أذكر شيئاً من أحلامه وكوابيسه. وعندما إستيقظتُ من النوم في اليوم التالي قدّمت لي أمي فنجاناً من القهوة ورسالة من رؤى وصلت أمس من أميركا. رشفت القهوة وكلمات الرسالة كلمة كلمة، وتوقّفتُ مندهشاً عند خبر هام. بشّرتني رؤى أنها ستحضر إلى بيروت لقضاء عطلة اعياد الميلاد ورأس السنة، وطلبت ان استقبلها في المطار. لم أصدّق الخبر، وتمنيتُ من كل قلبي أن تمرّ الأزمنة بسوعة.

أعترف أنني إستقبلتُ الخبر بفرح تدفّق من أعماق روحي وغمر جسدي من رأسي إلى أصابع قدميّ ولم أعد بحاجة أن أكمل شرب القهوة بعد أن إستيقظتْ جميع حواسي الخمسة أو الستة أو السبعة فلم أكن أدري كم عدد الحواس التي أملكها. وإستغربتُ كم كنت اتشوق إلى لقياها. قلت هل لجأتُ إلى صَبَا بعد ان هاجرتْ رؤى منذ ما يزيد على خمس سنوات، وهل ألجأ الآن إلى رؤى في زمن تأزم علاقتي بصَبَا؟ وأخاف على نفسي من نفسي. لماذا الخوف؟ لتحدثْ معركة في داخلي وليكن ما يكن ولينتصر مَنْ ينتصر ويفشل مَنْ يفشل.

وتنازعتني أهوائي كما لو كنتُ زورقاً صغيراً إجتاحته فجأة عاصفة وسط بحر شاسع الأطراف، وذكّرتُ نفسي أنني نجحتُ في محاولة الجمع بين علم الاجتماع والرواية.

وزاد من حيرتي ومحاسبة ذاتي أنني إستلمت بعد أسابيع رسالة من صديقي عادل سألني فيها لماذا هذا القلق الغريب في رسالتي الأخيرة إليه واستنتج أنني يجب أن أكون قد كتبتها في «ساعة سوداء»، مستغرباً ما حصل لي أنا الذي، كما يقول، «بنفسي وبطبيعتي مليء بالمحبة، وأنه بإمكاني بهذه المحبة ان أتحدّى أكبر واقع مهما عبثت به التفاهات والمصاعب». وختم رسالته بقوله، «رجائي يا نادر ان تتمالك زمام العقل.. أنتَ سيد نفسك يانادر»

نسيت ماذا كتبتُ له تماماً مما جعله يتخوّف عليّ إلى هذا الحد. ربما كان ذلك في مرحلة الحيرة بين صَبَا ورؤى التي ما أن قابلتها في مطار بيروت حتى تدّفقتْ في نفسي مشاعرُ قديمة ظننتُ أنها تلاشت كالبخار بعد غياب خمس سنوات وستة أشهر وإسبوعين. وما أن وقع نظري عليها حتى أدركتُ أن وجهها المضيء هو هو لم يتغيّر. كذلك كانت إبتسامتها وأناقتها ونعومتها. بل إزدادت رونقاً. إحتضنها. طوّقتها. إستضأتُ بنورها. إشتبكتْ أصابعي بأصابعها.

لم نفترق سوى لنلتقي ونقضي معاً وقتاً حافلاً بالغبطة. قمنا برحلات إلى الأرز وصنين وبعلبك وزحله والبقاع الغربي ودمشق وحلب والكفرون. ومرت الأيام موجةً بعد موجة ومثلها تلاشتْ في الرمل. وابدت صَبَا رغبتها بالتعرف إلى رؤى. رحّبتُ بالفكرة. إستغربتُ كيف تمكّنتُ انا وهي ان نتفق على إنهاء علاقتنا. تمّ ذلك بسهولة لم أكن اتوقّعها بتاتاً. غير أنه بلغني من أحد الاصدقاء قولها، «هدّدوه فخاف وهرب»، وأردتُ أن أستفهم هل يمكن آن يصدر عنها هذا الكلام المهين هي التي تعرف الحقائق بكل تعقيداتها. ويبدو أننا لم نكن في مزاج لتبادل الإستفهامات، فاكتفيتُ بالقول: لي رجاء ألا تحرقي رسائلك لي. وإذا أصررتِ على إحراقها فأرجوا أن تحتفظي لي ببعض رمادها.

وتفاجأت بعد أسابيع أن إستلمتُ رسالة من عادل جواباً على رسالة أخبرته فيها انني ساتزوج رؤى. قال في جوابه «كان لا بد لك من ان تختار فاخترت. انني أرضخ لقرارك كما أردت يا نادر. ان من أكبر مصائبنا نحن في بلادنا ـ نحن الشباب ـ هو تلكؤنا عن اتخاذ القرارات، وثم الضرب في متاهات الضيعان والتشاؤم. بالنسبة لي تبدو الحياة سهلة أمام الارادة الحديدية المصمِّمة، وهي ممتعة وجميلة رغم كل صعوباتها بين حين وآخر».

وبشوق تابعتُ قراءة جوابه مما أوحى لي أنه في الواقع لم يرضخ كلياً لقراري كما أردت في نهاية المطاف فقد ختم كلامه بسؤال سبّب لي بعض الإرتباك، «رؤى أعرفها واحترمها وهي فتاة جميلة ومهذبة وذكية ولكن أريد أن تصارحني إن أمكن. رؤى تقيم في

أميركا. أريد أن تخبرني فيما إذا كان هذا شعورياً أو لاشعورياً قد شجّعك على الزواج بها هرباً من البلاد؟.. وهل لي أن اسأل بسرعة عن صَبَا؟».

كَبَتُ أسفي. تساءلتُ كيف يمكن لصديقي الذي يعرفني منذ زمن بعيد أن تخطر له هذه الظنون؟ كتبت تواً جواباً ذكّرته بأن رؤى أول من أحببتُ، وان الزواج لم يكن ضرورياً للسفر. ثم أخبرته شيئاً لم يكن يعرفه، هو أنني تحدّثتُ في السابق مع صَبَا عن السفر فاكتشفتُ أنها هي أيضاً تحلم به وكان من الممكن أن نقوم به معاً تزوّجنا أم لم نتزوّج».

تمّ زواجنا ـ رؤى وانا، وأردناه زواجاً بسيطاً جداً. حضرت بهية من جدة فطلبنا أن تكون الإشبينة في عرس متواضع لم ندعو إليه ـ بسبب إصراري وإلحاحي ـ الصديقات والأصدقاء فاقتصر الحضورعلى أمي وخالة رؤى واختي وأخي وعدد قليل آخر من الأقرباء بينهم عمي كريم، وكنت أعرف جيداً كم تمنّت رؤى لو كان أهلها في أميركا معنا في تلك المناسبة السعيدة. تكلّلنا بالكرامة وتركنا المجد خارجاً للذين يحتاجون إليه.

وأوصلتنا بهية في موكب صغير إلى فندق في قرية بزمار حيث حرص سمير أن يقدّم لنا أفضل ما يمكن من أنواع الطعام. وبعد أيام عدنا إلى بيروت لنستعد للسفر في أقرب فرصة ممكنة، فزارنا الأهل وعدد من الأصدقاء والصديقات للتهنئة. وكان أفضل ما تلقيناه وما لا يمكن أن أنساه أبداً أن صديقي زكي ناصيف فاجأنا بقدومه لتهنئتنا. جاء يحمل عوده كما لو كان صديقته، وقال أنه ألّف أغنية جديدة أرادنا أن نكون أول مَنْ يسمعها. قلت هذا شرف عظيم وذكرى لن أنساها. أصغينا بصمت إبتهالي كما لو كنا في معبد. عزف على عوده لحناً جديداً، وغنّي من مكان عميق داخل نفسه، «يا عاشقة الورد».

يا عاشقة الورد

إن كنتُ على وعد

فحبيبك منتظر

يا عاشقة الورد

كانت تلك بين أجمل الهدايا التي تلقيتها في حياتي، وسررتُ أن رؤى أحبت الأغنية وزكي كما أحببته أنا.

***

هاجرنا لنستقر في آن أربور حيث أردت أن أكمل دراساتي العليا في جامعة ميشيغان للحصول على دكتوره في علم النفس الاجتماعي على أمل أن أصبح إستاذاً جامعياً واستفيد في كتابة الرواية من معرفتي بديناميائية العلاقات بين الفرد والجماعات والمجتمع، ووجدتْ رؤى عملاً في المكتبة الرئيسية للجامعة. صببتُ إهتمامي على الحب والقراءة والكتابة وشعرتُ أنني أسعد عريس في العالم.

وهمني بالدرجة الأولى في الأيام التالية التركيز على القراءة والكتابة والدراسة. قرأت كل ما وجدته في مكتبة الجامعة من مؤلفات هنري ميللر وما كُتِبَ عنه فقلتُ لنفسي كان يجب أن أقرأه قبل الزواج. ومن قبل المحافظة على الإتصال بالوطن وما تجري فيه من نشاطات ثقافية، تراسلتُ مع أدونيس وأنسي الحاج الذي إتفقتُ معه على أن أبعث إليه رسائل ينشرها في الصفحة الثقافية من النهار. وكانت تلك الرسائل رابطاً روحياً بالوطن، وبها صارعتُ وحشة الهجرة التي لم أكن أتوقّع قسوتها لكثرة ما كنت أحبّ السفر.

كتبت لأنسي مرة رسالة، وكنت ما أزال مشحوناً بتأزمات الماضي، جاءفيها، «نحن مهاجمون قبل كل شيء. نقتحم قلاع التقاليد كالرماح... ونفترض دائماً أننا قد نكون على خطأ. اننا في حوار أبدي مع انفسنا. نريد ان نلغي التعصب للعائلة والقبيلة والعشيرة والطائفة والدولة والحزب والجنس والعنصر..»، وأخبرته أنه «إذا ما قمنا بدراسة للجيل الأميركي الجديد قد نجد ان الطابع العام هو إنشغاله بأعماله... ويقول الكاتب نورمن ميللر ان النفس تحاول ان تتخلّص من صدمة أضاعت صوابها. النفس انزاحت عن قواعدها»، وبالهجرة شعرت بمرور الوقت أنني إنزحتُ عن قواعدي على الأغلب لأنني بدأت أشعر بالحنين وأحلم بالعودة لتدعيم صحتي النفسية. وإذا كان لي من إنتماء في تلك الأيام فهو المنفى.

وشاطرت أنسي أيضاً تداعيات منها أن «الكلمة قمحي وحصادي وبيدري»، وتساءلت «لماذا السنجاب أليف في أميركا، ولماذا يخاف من ظله في بلادنا؟»، وعدتُ إلى القول أن بين أهم إنشغالات «الكاتب العربي ان يلحّ في طلب حريته المسلوبة... لا نريد ان نذوب

في دولة أو حزب أو طائفة. ولماذا نكتب؟ بل لماذا يقرأ القارىء؟ هل الكتابة مثل ان نصغي للموسيقى؟ وهل يريد القارىء أن يعرف نفسه في القراءة؟ هل هي تجسيد لمعرفة الانسان لنفسه أو لبحثه عن نفسه؟ لنفتح نوافذنا على العالم ونعانق الإختلاف».

ثم وَرَدَنا في 28 أيلول 1961 خبر صاعق يقول أن سوريا خرجت من الوحدة مع مصر بعد أن وصل الاستياء من السراج ومخابراته إلى ذروته. وفي ذلك الوقت تماماً وردني خبر وفاة نبيه نعمة بالسكتة القلبية، ربما إحتفاءاً بالانفصال كما ظنّ أحدهم دون أن أقتنع، بينما حدّثني صديقٌ من حركة القوميين العرب ان الإنفصال كان كارثة قومية كبرى وأن جو الأسى العميق خيم على الشعب العربي. سألته هل يريد أن يعرف لماذا إنهارت الوحدة رغم مرور ثلاثة أعوام ونصف العام على قيامها؟ قال طبعاً وراح يعدد الأسباب: هناك أولاً الأعداء الخارجيون، وهناك ثانياً الأعداء الداخليون الذين جمعهم قاسم مشترك ومنهم الشيوعيون والقوميون السوريون والسياسيون الانتهازيون الذين أقصتهم السلطة عن المسرح السياسي. وهناك أخيراً الرجعية الانتهازية الإقتصادية التي لم يكن يعجبها الاتجاه الإشتراكي. ثم أن الوعي الشعبي كان ما يزال دون المستوى الذي تتطلبه حماية دولة الوحدة.

قلت له: هذه جملة من العوامل الداخلية والخارجية المتشابكة

ـ صحيح

ـ لماذا تستهين بها؟

ـ لا أستهين بها

ـ لم تذكر مسؤولية القيادة المصرية وإحتكار السلطة وبطش عبد الحميد السراج وإقصاء القيادات السورية بمن فيهم من عرضوا الوحدة على مصر.

وبعد حوار مع آخرين أيضاً كتبتُ رسالة إلى أنسي ـ نشرها في الصفة الثقافية من صحيفة النهار في تلك الأيام كبقية رسائلي إليه ـ قلت فيها، «اتصور ان انفصام الوحدة بين سورية ومصر قد أثار الكثير من التعليق. إنني شخصياً لا أطيق اي حكم يُعلي الدولة على الشعب فيقيّد الأفكار والجدل. الوحدة واسطة، وسيلة، لا غاية أخيرة أبعد من الانسان. هذه الوحدة تجاهلت الانسان لأنها تجاهلت حريته، لأنها حاولت ان تذيبه في الدولة، لأنها شدّدت الرقابة على الأفكار والمشاعر، لأنها ارادت ان تنزع المبادرة من الناس وتستأثر بها. من هذا المنظور نريد الوحدة على الأسس التالية: أولاً، اطلاق الحرية من الأسر، حرية القول والكتابة والمعتقد. ثانياً، نريد العودة إلى الحياة البرلمانية. ثالثاً، نريد ترسيخ الروح العلمية. رابعاً، نريد الانطلاق نحو المستقبل، لا نحو الأمس. خامساً، نريد ان نقيم مؤسساتنا على مرتكزات علمانية لا دينية. نطالب بحرية الزواج بين الطوائف المختلفة. سادساً، نطالب باحترام القوانين. سابعاً، لنشجع التعاون فننْهي عصر الغناء كلٌ على ليلاه. ثامناً، لنحترم أراء الأخرين. الوحدة لا بد منها في المستقبل على هذه الأسس والمرتكزات، وفشلها لا يعني سقوطها».

ثم حدث أن أخبرني عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي أنه بعد اسبوعين من إنفصال سوريا عن دولة الوحدة اتخذ قادة الحزب في جلسة سرية عقدت بدار أسد الأشقر في ديك المحدي قراراً بالتحضير لانقلاب عسكري في لبنان، وأطلعوا على خططهم كميل شمعون وسليمان العلي وجواد بولس وفؤاد لحود، فخطر في بالي أن الحزب مرة أخرى سيكون ضحية، وإذا كنتُ أنا ـ في آن أربور، ميشيغان ـ تمكّنت دون جهد من الإطلاع على ما جرى في تلك الجلسة السرية فلا بدّ أن يكون المكتب الثاني اللبناني إطلع عليه قبل غيره وبدأ يعدّ للحزب شركاً يسقط فيه بسهولة. ولم يكن من الغريب أن أدركت بحدسي وبمعرفتي بقيادات الحزب أن المؤامرة ستفشل وأن أعضاء الحزب الأبرياء هم الذين سيدفعون الثمن. ولم أدرك في ذلك الوقت أن بين من سيدفع الثمن محمود نعمه الذي يعيش هو وسهام في كليفلند، أوهايو، على بعد حوالي مئة ميل من آن آربور.

بل لم يخطر في بالي أن أخي كمال سيضطر إثر محاولة الانقلاب الفاشل ليلة رأس السنة 1961/1962 أن يحرق جميع أوراقي والكثير من كتبي، ومنها بعض يومياتي ودراستي اليتيمة عن سعيد تقي الدين التي لم أكن أحتفظ بنسخة إضافية عنها. وها أنا أحاول عبثاً استعادة ما تضمّنته بعض يومياتي المحترقة كما استرجع ذكريات بيروت من خلال دمارها، وأصبحتُ أرى وجهاً لوجه علاقة ما بين دمار بيروت ورماد أوراقي وكتبي هي وتعليقاتي على هوامشها. بعد كل هذا الزمن ما تزال تستيقظ في نفسي صور الدمار والحريق.

بعد أن تساءلنا مَنْ نحن، وجدتني في تجربتي الحزبية أسأل من أنا؟ أظن أنني كنت قد تحرّرتُ من أنانيتي إلى حد بعيد، وعدتُ أقول لنفسي أنه لا بدّ من العمل في حركات إجتماعية سياسية في سبيل تغيير الواقع. إنما لا بدّ أيضاً وفي الوقت ذاته من التمسك

باستقلاليتي الفكرية والأخلاقية. ماذا إريد وماذا أكون وما دوري؟ كيف أملك حريتي وأتحمّل مسؤولية تصرفي؟ كيف أبدع؟

ثم إن هناك أسئلة أخرى. في بحثي السابق عن جواب، قال لي القوميون بمختلف إتجاهاتهم وتفرعاتهم وأجنحتهم إننا أبناء وطن واحد ويجب أن نعمل معاً صغاراً وكباراً، أقوياء وضعفاء، فقراء وأغنياء، في جبهة واحدة متراصة. أما الماركسيون، وخاصة الحزبيين منهم، فكانوا يقولون يا عمال العالم إتحدوا. هل يتحد العمال الأميركيون مع عمال المجتمعات الضعيفة؟

هنا، لسبب ما، تذكّرتُ يوم إقترحتْ عليّ رؤى القيام بمشوار إلى ملتقى نهر الدامور والبحر، وفي اليوم التالي إلى وادي مغارة جعيتا حيث تتفجّر المياه من الصخور لتصبّ في أودية عميقة تزيد من الفجوات بين القمم الشامخة.

تفاجأت في تلك الأيام بما كتب لي عادل من شيكاغو يقول، «غريبة أمورنا وغريبة حياتنا، وغرباء نحن في هذا العالم. الهامشيون - هذا هو الاسم الجديد الذي طرق فكري - هم نحن، ولكن فئران العالم جائعون تنهش حتى الهوامش. ولم يبق لنا مخرج». ولا أدري ما حلّ بصديقي حتى يُنزل كل هذا العقاب بنفسه وبنا معاً؟ وأية عاصفة اجتاحته لتنهار قواعد دعوته للتفاؤل؟ من هم نحن الذين يتكلّم عنهم ومن فئران العالم الجائعون وما هي مصادر الآلام التي يتحدّث عنها في هذا الزمن التعس؟ وهل لصديقي عادل جواب حين أصبح، وهو العقلاني، يقول لي على غير عادته، «اسمع يا نادر جيداً، اسمع... ليس هناك حقيقة.. أكبر كذبة يمكن تصوّرها هي الحقيقة».

قلتُ لعلها برهة عابرة. وصدق ظني فقد كتب لي وأنا في آن أربور رسالة طويلة من شيكاغو يعلن خبراً ساراً. قال:

«اسمع يا نادر، عادل واقع بالغرام. انني أحب فتاة أميركية هي معلمة في فلادلفيا وقد جاءت أول هذا الصيف لتدرس في شيكاغو وتعرّفنا إلى بعضنا...وقد حدّثتها عنك كثيراً. الحب ليس من طرف واحد، ولكنه حب مختلف في عنفه من الطرفين...لم أعش في حياتي فترة من الحب بهذا العنف. دعني أصفها لك كما أراها: هي طويلة القامة، أطول مني، شقراء زرقاء العينين، نحيفة البدن. أخلاقها العامة: صادقة، مرحة، معتدلة الذكاء. حياتها الفكرية غير مزدهرة... غير ان لها منطقاً سليماً. أكثر ما يميّزها هي أنها اجتماعية ومَنْ يتعرّف إليها يحبها ويحترمها. مبدأها في الحياة ان كل انسان طيب حتى يثبت العكس...، واقعية في تصرفاتها وتفكيرها وطريقة حياتها. وهي من عائلة يظهر أنها متوسطة الحال وذات تربية جيدة. أكثر ما يعجبني فيها أنها ليست رومنطيقية في حبها، مع ثقتي الكلية أنها تحبني. لم تحب في حياتها سوى مرة واحدة من قبل. نظيفة الجسد ولا شك انك تعرف ما أعني. عمرها 24 سنة.

«تدرّجتْ علاقتنا ككل العلاقات من اعجاب إلى تحبّب إلى حب ثم إلى عنف في الحب. كنت أنا البادىء. بحثنا موضوع الزواج عدة مرات. ناقشتْ الموضوع هي بموضوعية وواقعية. الفروقات بين البلدين أكثر ما يزعجها. عبّرتْ عن موقفها بهذا الموضوع، وهي أنها قبل ان تعطي الجواب النهائي عليها ان تتأكد من أنها تتمكّن من ان تسعدني في بلادي. تريد ان تتأكد من ان حياتنا اذا اقترنت معاً سنكون مصدر سعادة لكلينا. حسب تعبيرها ان المشكلة ليست في شخصينا بل في الأوضاع والمستقبل. تعرف كل شيء عني وعن مشاكلي ووضعي ؛ كما أعرف كل شيء كما أخبرتني أياه. الاتفاق الأخير كان أن نمتحن مقدار حبنا لبعضنا البعض بالانفصال لفترة. ثم ستأتي هي إلى شيكاغو وإذا لم يكن من تغيّر ستكون الخطوة الثالثة أن تذهب هي إلى لبنان كزيارة في الصيف المقبل للتعرف على البلاد وعلى جوّي وعلى اصدقائي وأهلي والمحيط. ستكون زيارتها بدون أي خيوط بمعنى أنه إذا لم يتم الاتفاق تعود بكل طيبة خاطر ؛ وإذا تم الاتفاق يتم حتى النهاية. من جهتها أيضاً هناك مشاكل. هي كاثوليكية ؛ تؤمن بالكنيسة ولكنها من ناحية أخرى لا ترى تعارضاً بين ايمانها الديني وبين الربط بيني وبينها. أهلها أيضاً كما تشعر سيعارضون فكرة هجرتها إلى بلاد أخرى.

«العملية بمجملها تحت الامتحان... المهم في الموضوع انني أحبها. خوفي انني وأنا في هذه الحال لا أملك قواي العقلية والرؤيا المجردة... المشكلة الكبيرة هي المشكلة التي أشارت إليها وهي إذا كان عادل يستطيع أن يعيش في لبنان مع إمرأة أميركية ؛ موقفي في الوقت الحاضر هو انني اترك الأمور أن تأخذ مجراها... أريدك يا نادر ان تفكر معي. أنا بحاجة اليك لتقذفني باسئلتك ولتحرجني ولتهزّني إذا أردت. الزواج ليس لعبة. إريدك يا نادر ان تفكّر معي بالموضوع وأن تعطيني رأيك... اريد زوجتي في المستقبل أن تكون أختاً لاصدقائي... ولك انت حق اعطاء الرأي... كما ارجوك ان تتشارك بالرأي مع رؤى. أمر هام هو انني ارجوك بان لا يخرج هذا الموضوع مطلقاً من بينك وبين رؤى إلى أي شخص آخر... أرجوك. تعرف ما أعني».

عرفتُ مقاصده، فاحتفظت بالسر، وها أن بعد هذا الزمن الطويل أعلنه لكل من يرغب بقراءة روايتي هذه، طبعاً بعد أن اطلعتها عليها. لا أذكر أنني كتبت له في تلك الأيام لأقدم نصائحي. بدلاً من ذلك دعوته لقضاء نهاية الإسبوع معنا في آن أربر كي يتسنّى لنا مناقشة

الموضوع وجهاً لوجه. تمّت الزيارة. تحدّثنا مطولاً. عاد إلى مقرّه مطمئناً. ولدى وصوله إلى شيكاغو كتب لي رسالة يشكرني على حسن ضيافة وتفهمي لوضعه وزوّدني بعدد من الإيضاحات عن علاقته بصديقته:

«اتضح لي في طريق عودتي في القطار ان الدافع الأساسي لعلاقتنا كان من جهتي أنا لرغبتي في الحب لعلني أضيف طعماً جديداً لحياتي. في البدء كانت هي متردّدة واستغرق تردّدها حوالي الاسبوعين، ولكنها بعد ذلك غرقت معي في لعبة الحب. عندما كنت اكلّمها قبلاً كنت أفعل ذلك كمن يكلّم انساناً ذهنياً ـ كان العطاء هو لذتي الكبرى، وتقبّلها العطاء كان يضيف إلى هذه اللذة.. لكن المشكلة بدأت تبدو لي، وكنت أحاول ان اطمرها، وما استقام الميزان حتى أخذتُ أجد صعوبة في طمر المشكلة التي تتلخّص بانها هي في الواقع صعبة في العطاء. نعم تحبني وبمقدار كبير ولكن لا تعرف كيف تعبّر عن هذا بأكثر من القول أنها تحبني. الاتصال العميق الهادىء الثابت الباعث على الفرح الحقيقي لم يتوفّر من خلال علاقتنا. إذا رغبتُ منها ان تمشي على رجل واحدة، عليّ ان أعبّر لها عن رغبتي حتى تبادر بسرعة إلى العرج... أنها فتاة، كما يمكنك ان تستخلص، ذات حياة انيقة ؛ كل شيء مرتّب ومنسّق له موضعه. قضت حياتها في بيت اعطاها طمأنينة تامة، وفي ظل كنيسة اضافت لطمأنينة دينية... إذا كانت تحبني فلماذا لا تعطيني من روحها بالمقدار الذي أعطيها أنا... وهي تفسّر لي ذلك بان اهلها ربّوها منذ

الصغر على ان تكتم مشاعرها الخاصة».

لم أكن أعرف بماذا أنصحه كتابةً، فانشغل الهاتف بيني وبينه من آن آربور إلى شيكاغو والعكس، ولم أعد أذكر الكثير من تفاصيل أحاديثنا، واستغرب أنني لم أسجّل وقائعها في يومياتي. المهّم أن صديقي عادل غرق في لعبة الحب وكنت أسمع صوته يأتي إليّ مضطرباً من تحت الماء. ومع انني أجيد السباحة ونلت شهادة بانقاذ الغرقى لم انجح في إنقاذه. بل لم أحاول إنقاذه. على الأغلب أنني لم أكن أحبّ التدخّل في هذه الأمور لعدم معرفتي بالفتاة وقناعتي أنه يحب الفتاة من كل قلبه.

ثم كان أن إنصرفنا عن الحديث في موضوع الحب بعد أن بدأتْ تردنا أخبار فشل محاولة الإنقلاب في لبنان وما نتج عنها من مآسي. تذكّرتُ كلام عيسى سلامه. وزاد من إنشغالنا قدوم رفيق تمكّن من الهرب من قبضة الأمن. أخبرني أن محمود نعمة تلقى دعوة من الحزب قبل نهاية عام 1961بالعودة إلى بيروت للإشتراك بالمحاولة الانقلابية، وقد عاد حقاً في مطلع كانون الأول من تلك السنة بصحبة عروسه سهام التي أصّرت على

مرافقته، فعُيّن منذ وصوله مسؤولاً أول عن قيادة مجموعة كُلّفت بإعتقال رئيس الجمهورية فؤاد شهاب وكان المسؤول الثاني عبدالله الجبيلي، وهما كما تردّد من خيرة ضباط الحزب غير أنه حصل بينهما إختلاف في الرأي حول توقيت الهجوم ووجود ثغرات تبيّنتْ لهما في اللحظات الأخيرة. كذلك فشلت عملية تطويق وزارة الدفاع التي قادها فؤاد عوض. وكانت هناك خطة في حال الفشل، إلا أن خطة الفشل فشلت أيضاً، وتم القبض على محمود، فعُذِّب في ثكنة الأمير بشير حتى أصبح كتلة من اللحم والعظام، ثم قتل بعد شهر من قدومه إلى بيروت، وهو في السنة الواحدة والثلاثين من عمره، وسُميّ موته موتاً فاجعاً.

حدّثني مصطفى عزالدين عن أن حكومة فؤاد شهاب كانت تراقب قيادات الحزب الذي كان مشغولاً بترميم أوضاعه، وكان رئيس الحزب الدكتور عبدالله سعادة بطبيعته إقتحامياً. في هذا المناخ عرض فؤاد عوض وشوقي خيرالله مشروع الانقلاب وزرعوا الفكرة في رأسه فأوكل إلى الضابط الأول ان يأتي من صور ويحتل وزارة الدفاع، وللبعض خطف الرئيس شهاب واعتقال بعض الضباط واحتلال عدد من مؤسسات الدولة. لحظت الحكومة حركات غير عادية ودعا انطوان سعد بعض الضباط إلى وزارة الدفاع حيث وصل فؤاد عوض من صور ب 14 دبابة. حاول التفاوض، وفشل الانقلاب لأن شهاب لم يعتقل. ما حدث فعلاً أنه تمّ اعتقال القوميين بدلاً من ذلك. جمعوا حوالى أربعة آلاف منهم في المدينة الرياضية. قتل 18 منهم تحت التعذيب أثناء التحقيق في سكنة الأمير بشير. قُتِل محمود نعمة، وضعف علي الحاج حسن أثناء التحقيق معه فنقل كلاماً اتخذوه شهادة ضد الحزب، غير أنه ما لبث ان عوّض عن ضعفه. كان رائعاً في المحاكمة الثانية فقد ادرك أنهم سيقتلونه كما قتلوا محمود نعمة. بالنسبة لشوقي خيرالله، كسروا رجليه وأصبح يمشي على عكازات فوضعوه في «معتقلات، الحيوانات لا تعيش فيها».

هذا ما رواه لي مصطفى عز الدين الذي سجن سبع سنوات بعد محاولة الانقلاب مما زاد، حسب تعبيره، من إيمانه بانطون سعادة والحزب لانه تمكّن أن يجمع في صفوفه رفاقاً ورفيقات من جميع الطوائف فالغى الطائفية من نفوس اعضائه. وفي حديثه معي، كان مصطفى عز الدين صلباً وصادقاً، ولكنه كاد ان يبكي حين تكّلم عن زوجته شاهينة رحال المسيحية التي رأى فيها مثالاً للمرأة المناضلة.

وأذكر أيضاً أن أدونيس كتب لي قبل ذلك يقول، «إن مصيرك معنا ـ نحن هذا الجيل الذي يرحل في الملح والعاصفة، سيراً على أهدابه. كلمة واحدة تزيد من سعة الأرض، ذلك يكفينا. ولنترك لغيرنا ما تبقّى».

وسألت نفسي رغم أنني عشتُ المشكلة: هل نشكّل حركة؟ أليس ذلك هو المهمّ في أن يكون لنا مصيرنا الذي نريده لنا ولغيرنا؟

***

أصرخ في العراء،
بعيداً عن الأشياء
قريباً منها،
وجزءاً من أعماقها.
كصحراء أتلهّف لغيمة تحمل مطراً وظلالاً،
وما أكتبه أغنيةٌ لعينيكِ.
دخلتُ قفصك الذهبي لأكتشف أنه أفق
ورفق
فما الأسئلة والأجوبة
يا رفيقة
الطريق؟
جوابك سؤالٌ أتظلّل بفيئه.
وها قد صرتُ سؤالاً وأنتِ جوابه
وصوابه.
هل أقصّ عليك حكايات أعماقي المضطربة؟
أنتِ الريح التي تعصف بي،
وأنا شجرة صفصاف
وهتاف
عندما أبحر في عينيك بحثاً عن جزرك البعيدة
أكتشف أنها تبتعد كلما إقتربتُ منها.
متى أسرد عليك حكايات أسطورية
أنتِ يا سرّ أعمال روائية
لم تُكتب بعد؟
آه ياحبيبتي ما أجمل عصافيرحديقتك
التي تغرّد لي في يقظتي
وفي أحلام غفوتي.
وها قد عرفتُ جيداً أن حبي زورق،
وأنت الشرا ع والبحر والأفق.
الحياة دون حب شجرةٌ تعرّت من أوراقها
وسماءٌ فقدت نجومها،
وليس سوى الحلم ملجأ للذين تهدّمتْ بيوتهم.
وصرتُ معك حقلَ قمحٍ في بداياته.

لا حاضر لي في زمن غيابك،

والمستقبل أنتِ

فأسعى اليك كما النهر إلى البحر

وقفتُ مرة أنا والمطر تحت نافذتك.

أصرخ إليكِ من الأعماق:

تكلّمي يا حبيبتي

إن كلَّ كلمةٍ تقولينها يا رفيقتي

تفتح نافذة على المستقبل.

هذا ما كتبته لرؤى بعد أقل من شهرين من زواجنا. وفي حديث عابر أقول لعروسي أنني أقبلتُ على الزواج بكل كياني دون حساب ومداولات على عكس ما فعل صديقي عادل، وأضيف: كم أنا سعيد أنني تزوّجتك.

وقاطعتني معترضة: لم تكن أنتّ الذي تزوّجتني، أنا التي تزوّجتك. ويبقى أن أتصالح مع أقلامك وأوراقك وأن تتصالح معي.

غمرنا الضحك كموجة تدفّقتْ نحو الشاطىء، وأضفتُ الزواج إلى قائمة ما أحب: السباحة والكتابة والموسيقى، وتسلّق الجبال والصخور والاشجار، وإكتشاف أحواض الانهر. ثم رأيتُ علاقة حميمة بين الزواج وكل ما أحببت.

كل ذلك أقاليمُ وطقوسُ

في تدفّق حياتي نحو مستقبل غامض

ينتظرني بقدر ما أبحث عنه،

وأسعى إليه متضرّعاً من الأعماق

آه ايتها الآفاق

الجزء الثالث: خاتمة المطاف، وبدايات مطاف آخر: (اطلالة من شرفة القرن الواحد والعشرين)

10 ـ تقاسيم على أوتار الكلمات

أطللتُ من شرفة بداية القرن الواحد والعشرين على بيروت كما كانت في منتصف القرن الماضي فتذكّرتُ ما تذكّرتُ وفاتني ما فاتني. من بوابة الدمار عدتُ إلى حيث بدأتُ، وبطيئاً دخلتُ دهاليز حكايات زمن الفتوة والشباب. طفتُ في مختلف أرجاء حياتنا كي أستعيد تجاربي الخاصة والعامة مندمجتين. قادتني الطرق حيث شاءت، وتوالدتْ في نفسي مشاعر وأفكار متشابكة أظن انني إستوعبتُ بعضها ولم أستوعب بعضها الآخر. ثمّ أرادني عادل أن أرى الحقائق كما هي، وأردتُ أن أستمع لنبضات قلبي وأتلمّس عروق أشواقي دون تحفّظ. وها أنا أخرج على الطرف الآخر بعد أربعة عقود من الزمن لأجد نفسي تائهاً في زمن إعادة البناء الذي لا يقلّ تيهاً، وقد يمرّ وقت قبل أن أعرف أين موقعي تماماً في خارطة الأشياء والأحداث المربكة في نهاية قرن وبداية قرن آخر.

قبل أن إجتاحتني تلك المشاعر التقيت صديقي القديم جوزف نصر صدفة في شارع الحمراء عند مدخل صحيفة النهار. ولما لمستُ أنه حائر سألته، «تتذكّرني؟»، فاجابني،

«لا تسألني. اضاعت الوجوه أسماءها». تابعتُ سيري آسفاً وأنا أستعيد بكل وضوح ذكريات الذهاب في سيارته إلي بعلبك برفقة صَبَا وسهام، ولكنني مثله بدأت أشك ما هي أسماء الوجوه الأليفة وبموقعي منها ولم أعد متأكداً أين الحدود الفاصلة بين البداية والنهاية. في تلك الأيام استعدت ذكريات الفتوة والشباب من خلال الدمار الذي أصاب بيروت في الحرب الأهلية الثانية 1975 ـ 1990منذ الاستقلال، وأختتم الآن تجوالي من نافذة تطلّ على مستقبل أخاف أنه قد لا يقلّ هولاً وشراسة عما مضى، للأسف الشديد. ألمس شعوراً خفياً بين الناس أننا ما نزال مهدّدين في أسس وجودنا، ومطاردين من قبل قوى تتكلّم لغة الشرّ الضروري. بعد الدمار الذي أصاب العرب في فلسطين والعراق، أصبح المتفائل منا متشائماً، وأدْرَكَ مَنْ كان متشائماً في السابق ان الحالة التي وصلنا إليها أكثر فجيعة مما كان يتصوّر العقل السليم. وبعد أن نقّبتُ في كوارث الماضي مستعيناً خاصة بذاكرتي، إكتشفتُ في ضوء أحداث الحاضر أن ما كنتُ اعتبرته مهماً ربما لم يعد ذات أهمية، وكاد ما كان هامشياً أن يصبح مركزياً.

من هذا الموقع المضطرب وتنقّلي الدائم بين أميركا والوطن لما يقرب من نصف عمري، أشعر بين حين وآخر أن روحي تعبتْ من هذه الحضارة الغربية التي تريد أن تهيمن على العالم. درستُ في مدارسها منذ الابتدائية حتى الدكتوره. عاشرتُ شعوبها وقرأت كتبها ومجلاتها وصحفها وأصغيت لمواعظها وراقبتُ برامجها التلفزيونية ودرّستُ في جامعاتها الكبرى ووضعت كتباً حول المجتمع والثقافة العربية. من هذا الموقع المضني قلتُ لنفسي: إفعل يا نادر ما يقول لك قلبك، وإستمع لصوت عقلك. مارس النقد الذاتي. عاهد نفسك. تحدّث عما يشغل بالك ويحرّك ضميرك، وكنْ صريحاً، لبقاً، محباً، عادلاً، دقيقاً. قل رأيك ولا تخفْ.

هل نواجه مطاردينا الجبابرة الذين يسعون للهيمنة على العالم ويملون علينا دروساً في الديمقراطية بلغة استبدادية؟ واضح أن بعضنا يتربّص له الموت عند كل منعطف، وبيننا على الجانب الآخر مَنْ يتعاونون مع قوى الظلم خوفاً أولمصالح خاصة. ثم بيننا الذين قبلوا الإستسلام باسم التعقّل والإعتدال. أين أضع نفسي؟ لا أدري. ومهما كانت خياراتنا ومواقعنا، نتابع المسيرة لا نعرف إلى أين تقودنا تماماً في نهاية المطاف.

***

بعد أن قرأتُ رواية طائر الحوم لحليم بركات الذي تجمعني به الكثير من الخِصال، لجأت للنوم فحلمتُ انني عدتُ بعد اسبوع شتائي إلى سيارتي التي تركتها في العراء. وجدتها وحيدة في موقف واسع وكان الجو بارداً جداً. إقتربتُ منها ببطء متردّداً، فقد تبيّن لي ان مقدمتها تحوّلتْ إلى ما يشبه حصاناً كما في قصص ألف ليلة وليلة التي أزداد ولعاً بها. وسألتُ نفسي في الحلم الذي بدأ يتحوّل تدريجياً إلى كابوس كيف تركتُ الحصانَ في العراء لمدة اسبوع دون علف وماء وعناية؟ كان منكّس الرأس جائعاً عطشاً يرتجف من البرد فبكيتُ من شدّة حزني عليه وإحساسي العميق بالذنب فيما أتساءل هل الحصان أنا أم غيري؟ كيف تركتُ نفسي في العراء كل هذا الزمن الطويل؟

ومن غرائب الحياة أنني ما أن استيقظتُ، وأزحتُ الستارة، وفتحتُ نوافذي وأبوابي، وأطللتُ على الخارج والداخل، وشربتُ قهوتي فيما أتصفح جريدتي ـ حتى قالت لي رؤى، وهي تتفحّص كتفي، أنها هي أيضاً أبصرت حلماً مزعجاً. توقّفتْ عن الكلام وبدت عليها علامات الحيرة لهول ما حلمت فقالت بتردّد: أبصرتُ أنه وقع لك حادث سيارة يا حبيبي ورأيت كتفك ينزف دماً، وما أن لمسته حتى سقط أمامي. قلت يا إلهي إنها يده اليمنى. هذه هي اليد التي يكتب فيها. كيف يكتب من الآن فصاعداً؟

وإستيقظتُ مرعوبة. خرجتُ أتجوّل وحيداً في شوارع بيروت، وكان أن أدركت في تجوالي العشوائي أنني بلغتُ دون قصد تقاطع شارعيّ الحمراء والسادات حيث كان محلّ «أبو طالب» وقد إستحال موقفاً متواضعاً للسيارات رُفعتْ فوقه يافطة تقول، «العربي الأول، اللبناني الأول، والمقاوم الأول إميل لحود أملنا المستمر، تقدمة حسام الزين»، فقلتُ لنفسي ليس من الغريب إذن في هذه الحالة أن تعبر رؤى تقاطع شارعيّ الحمراء وجاندارك دون أن تدري، وهي من سكان المنطقة لسنوات عديدة، وظلّتْ تائهة إلى أن وجدتْ نفسها في محلة الصنوبرة التي لم تعد تنتبه لوجودها ككل شيء آخر في هذه الأيام الصعبة علينا جميعاً.

هكذا عدتُ نصف قرن إلى الوراء دون عناء وتخطيط. استيقظتْ ذاكرتي من رماد بيروت، وفاضتْ مخيلتي في أزمنة النكبات فجمعتُ تلقائياً حكايات حياتنا حكاية بعد حكاية لأنسج منها رسوماً لبيروت في منتصف القرن العشرين في زمن فتوتها هي أيضاً.

لا غرابة في الأمر، فقد عشت فتوتي في ظلّ فتوتها. ولا أقوى على متابعة أحداث العقود الأربعة الأخيرة رغم ما لديّ من أشياء كثيرة أريد أن أقولها عن الحرب الأهلية الثانية وقد عشتُ بعض جوانبها وأجريتُ دراسات ميدانية حول توجهات الشباب السياسية مباشرة قبل حدوثها في محاولة لاستكشاف المستقبل. وتوصّلت فعلاً من خلال دراسة التيارات السياسية بين الشباب إلى أن الحرب مقبلة لا محالة.

أكتفي بما أبصرته في زمن الصبى والشباب في خمسينات بيروت من موقعي المضطرب في نهاية القرن وفيما أتطلع نحو أفق المصير وأبحث عن آثار تنين قال يوسف الحصني وغيره أنه أحدث كل هذا الدمار في الحرب الأهلية الأولى والثانية منذ الاستقلال. ووسط الخراب العبثي رأيتُ كل ما رأيت وأنا أتأمل في مصيري ومصائر أمي وأختي وبهية وصَبَا ورؤى وعادل وأصدقائي وصديقاتي مجتمعة في عالم مهدّد في صميمه قبل أن يتكوّن له صميم ورؤية مستقبلية. وفي هذه الأثناء، بعد أن تركتُ ذكرياتي تستيقظ تلقائياً ودون رقابة، أجد نفسي إستعرض ما تبقّى من بيروت منذ إنتهاء الحرب الأهلية الأخيرة في أوائل التسعينات وكيف ستُولد مجدّداً من رماد الدمار.

إكتشفتُ في نهاية المطاف علاقة بين التنقيب داخل نفسي لأعرف أسرار حياتي والتنقيب في معاني دمار بيروت. بقدر ما نقبّتُ في دمارها بقدر ما فهمتُ نفسي، وبقدر ما نقبّتُ داخل نفسي لأعرف أسرار حياتي بقدر ما لمستُ معنى دمار الوطن وتبيّنتْ لي صورةُ غامضة لمستقبل يأتي بطيئاً ومتردّداً كما لو كان ولداً أضاع طريقه. ودون توقّع، ومن حيث لا أدري، تداعتْ في ذهني خواطر مثيرة سجّلتُها تواً خوف أن تتبدّد بسرعة قبل أن أدري من أين جاءت وإلى أين تمضي وما أهميتها.

لا أدري لماذا سردتُ قصصاً من حياتي وبهذه الصراحة والعفوية، خاصة وأننا نعيش في وقت تسوده حكمة الحذر والصمت والمسايرة باسم العقلانية والواقعية. وما أن سلكتُ هذه الطريق في سرد حكاياتي حتى إكتشفتُ أنني لست بحاجة لأن أخترع أحداثاً من صنع مخيلتي فليس أغرب من قصص المخيلة سوى قصص الواقع. وحين تستيقظ بيروت من رماد الذاكرة كما تشرق الشمس بعد يوم ماطر، ندرك أنها ما تزال غامضة لا نفهم كنهها. عقدنا حلقات لتدارس أسباب الخلافات والحروب لنكتشف أننا بقدر ما نتعرّف إلى نخبة البلد ـ حكامها، صحفييها، أصحاب دور النشر، اساتذتها، تجارها ـ بقدر ما تنمو خيبتنا من الداخل وتشوّه رؤيتنا. طبعاً ندرك جيداً أن اللبناني العادي يجيد لعبةً لا قواعد لها. علّموه الا يحب القواعد. قاعدته الأهم ان يكسر القواعد. حين يسألك عنها لا يعني أنه يريد التقيّد بها بل كيف يحتال عليها، ويضحك معجباً بشطارته وإنجازاته.

وتكرّرت إجتماعاتنا وسط الأزمات التي نعيشها في هذه الأيام، وبعد حوار طويل اتفقنا على تأليف لجنة تبحث في أسباب الدمار الذي لحق بالمدينة وأين تقع المسؤولية وما العمل. إجتمعنا لأيام في منزل مهجور ومعتم في محاولة لتحديد هويةالمسؤولين عن الدمار. ذهب البعض إلى أن هؤلاء أشبه ما يكون بالتنين كما جاء في الأساطير القديمة، وتوصّل فريق منهم إلى أن التنين يمثّل قوة خارجية بينما إعتبره فريق آخر قوة تنبع من الداخل.

وتم الإتفاق، على مضض، أن يُصار إلى تأليف لجنة للبحث في كيفية تعقّب التنين الذي لا بد أنه مختبئ في أحد الكهوف المتواجدة

بكثرة في وادي نهر بيروت من بداياته حتى مصبّه في البحر. وفعلاً، دخل فريق من خيرة أعضاء اللجنة كهفاً معزولاً داخل غابة كثيفة في الوادي مسلحين باحدث وسائل العنف بعد أن جاءتهم خبرية موثوق بها أنه تمّت مشاهدة شبح التنين غير أنه إختفى فجأة دون أثر. وتردّد أنهم لم يتركوا كهفاً لم يقتحموه في أوقات مختلفة في الليل والنهار. أرادوا اصطياده في وكره. وحين لم يجدوا أي أثر له، وكادوا أن يعودوا من حيث أتوا، لاحظ أحدهم فجأة شبحاً، فانطلقت النيران بكثافة في مختلف الإتجاهات. وساد صمت فاقتربوا بحذر من مكان ظهور الشبح بأمل أن يعثروا على جثته، ولكنه خاب أملهم بالتوصّل إلى جواب جازم، وإن حاول أحدهم إقناعهم بأن الشبح لم يكن في الواقع سوى ظلّهم هم على الحائط وقد بدا لهم أنه يشبه تنيناً فاطلقوا عليه نيراناً كثيفة أصابت عدداً من فريق البحث نفسه.

تناسوا الأمر لفترة وجيزة، ثمّ قرّروا فيما بعد أن يستأنفوا البحث عنه لكثرة ما تناولته وسائل الإعلام وإنتشار أخباره بين فئات غير قليلة من الشعب أصبحت تؤمن بوجوده وتستدل عليه من آثار الدمار الذي ينسبونه إليه. قال البعض أنه دائماً بيننا، وذكرتْ سيدة متقدّمة بالسن إنه يلبس قبعة الاخفاء فلا نراه، وفي هذه الحالة لا بد من مصادرة القبعة قبل التمكّن من العثور عليه. غير أن أحد أكثر المتحمسين لفكرة وجود تنين يعبث بأمن البلد ومصيره بدأ فجأة يعيد النظر، وفعلاً عقد مؤتمراً صحفياً، حضره محمد بعلبكي وملحم كرم، صرّح فيه أن هناك خدعة في الأمر، وهي أصعب الخِدَع قاطبة. قال إننا يا أخوان لا بد أن نعترف أمام أنفسنا أننا نمارس من حيث لا ندري عملية خداع الذات فمشكلتنا أننا نخترع تنيناً ننسب إليه ذنوبنا نحن، نحن بالذات. ما نعتبره خارج نفوسنا هو في صميم داخلنا، ونحن لا ندري. بل لا نريد أن ندري. إننا نُسْقِط ما في نفوسنا على الخارج. التنين هو نحن يا جماعة يا إخوان. فكّروا بالأمر جيداً.

هنا سألت سيدة: هناك عدو خارجي لا شك، وقد تسلّل إلى الداخل في غفلة عنا. الشعب بحاجة أن يعرف الحقيقة ويريد جواباً واضحاً على تساؤله. إنه التنين الشبح، وإذا كانت هناك من مشكلة يجب أن نعترف بها فهي أننا ضعفاء لا نقوى على المقاومة أو اننا نعيش في زمن لم يعد لدينا مارجرجس يخلّصنا من شروره ويريحنا من المصائب؟ مات مار جرجس وبقي التنين حياً.

وأجابها شاب مثقف بانفعال: يا سيدتي، في ظل الهيمنة الأميركية تحوّل العالم إلى غابة، وساد شعار يقول أفترسك قبل أن تفترسني. هذا تماماً ما يرمز إليه التنين. هو رمز الشراهة داخل النفس البشرية. أصحاب المصالح الكبرى يريدون ان يلتهموا الأبرياء لاشباع أطماعهم التي لا حدود لها. وليس غريباً ان تظهر اسطورة التنين في بيروت لكونها مجتمعاً تجارياً. وحين ظهر التنين كان لا بد للشعب من أن يلجأ إلى إختراع بطل غريب منقذ بعد أن فشل في إنقاذ نفسه من نفسه. بكل صراحة وبعد خبرة طويلة من خداع الذات والآخرين، أعترف أمامكم جميعاً بما توصّلتُ إليه بعد تفكير طويل. أرى بعد إنتشار اسطورة التنين بين جماهير غفيرة من اللبنانيين أننا أصبحنا في حاجة لأن ننقذ أنفسنا من أنفسنا. مشكلتنا يا إخواني وأخواتي اننا نحن جزء من المشكلة. نخدع أنفسنا دون أن ندري. نرفض الإعتراف بهذه الحقيقة، ونغضب حين يقال لنا أننا يجب أن نتحمّل المسؤولية بدلاً من الإصرار على اتهّام الغرباء فحسب.

هنا أضاف إستاذ متمرّس بالعلوم بصوت حازم: عندما نريد أن نحدّد المسؤولية، هل يكفي أن يلوم الإنسان نفسه ويحل مشكلته بنفسه؟ إننا نعيش في عالم تتداخل فيه شؤون الخارج والداخل بحيث لا يمكن الفصل بينهما. صحيح أم لا؟ متى نعترف أن لبعض أولاد الإسر الحاكمة تحالفات مع القوى الخارجية المهيمنة على العالم.

ويجيبه أحدهم منشرحَ الوجه: شكراً لوضع السؤال بهذه الصيغة. لا شك أن هناك تداخلاً بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية، فلا يمكن الفصل بينهما حقاً. إنما نحن المسؤولين في نهاية المطاف عن تغيير أوضاعنا، ولا فائدة من التنصل من المسؤولية. لنبدأ حيث يجب أن نبدأ، بأنفسنا وبواقعنا والنظام القائم، إخترعناه أم لم نخترعه بأنفسنا. وإن لم نفعل شيئاً فنحن التنين بذاته. هو الشراهة داخل الإنسان والنظام الذي يغذّي هذه الشراهة. قرأت مؤخراً كتاباً يقول أن التنين في الصين يعني تدفق المياه من كهف داخل ذاته فيصبح رمزاً لروح الأمة. أما عندنا وفي الغرب فالصورة على العكس من ذلك تماماً. ننظر إلى التنين على أنه يريد أن يحتفظ بكل شيء لنفسه. يريد فتاة عذراء لاشباع رغباته الجامحة. يأسرها في كهفه ويكدّس لها الذهب والجواهر. يريد كل شيء لنفسه لا لغيره. إنه تجسيد لجشعنا. آسف أن أكرّر إنه نحن. وقد اخترعوا لنا شعراء ومطربين، وشركات للعلاقات العامة تصوّر لنا الأمور على عكس ما هي عليه. ونحن نحبّ ان نصدّق ما يدغدغ غرائزنا.

يصمت. يخيّم على القاعة هدوء فيشعر شاب أنه يجب أن يشارك في الحديث فقال: حقاً كي يتمكّن المنقذ ان يتغلّب على التنين يجب ان يتغلّب قبل كل شيء على القوى الهدامة داخل نفسه. هذه قناعتي الشخصية، وهذا ما لم يتمكّن لبنان ان يتقبّله حتى الآن ولن يتقبّله

طالما هو يعتقد ان حروبه الداخلية هي حروب الآخرين على أرضه وليست هي أيضاً حروبه مع نفسه. هل يريد التغلّب على الظلام داخل نفسه؟ تلك هي المعركة الحقيقية، وهذا هو السبيل الذي لا بدّ أن نسلكه. نخاف ان نخوض هذه المعركة. لا نقوى على التساؤل. نتمسك بيقينياتنا على أنها مقدسة هبطت علينا من السماء.

جرى هرجٌ في القاعة وانقسم الحضور إلى جماعات تعارض بعضها البعض، وكادت المواجهات أن تتحوّل إلى عنف لو لم تُسدل الستارة وتنطفىء الأضواء فخرج الحضور ليجد كلُ منهم نفسه وحيداً مستوحداً.

وتجوّل عادل ونادر معاً باتجاه البحر. مرّ وقتٌ قبل أن ينطقا بكلمة. وفي الوقت المناسب قال عادل: عبثاً نعرف مَنْ القاتل ومَنْ الفارس المنقذ ومَنْ الضحية؟

وعلّق نادر: اقتنعتُ ان التنين تعبير للجشع داخل نفوسنا، وقبل أن نعترف بهذه الحقيقة لن نعرف سرّ الفارس الغريب الذي سينقذنا.

واجتمع فريق آخر بمعزل عن الاخرين تجنباً لتنافر الأصوات، وبعد مداولات اتفقوا أن يركّزوا على الحل الانسب باعتماد أربعة مبادىء أساسية هي إستقلال لبنان وسيادته، والتمسك بهوية لبنان العربية، والديموقراطية التي توازن بين الحرية والعدالة الاجتماعية، واستبدال النظام الطائفي بنظام علماني.

***

حين تعبتُ من التجوّل وسط دمار بيروت واستولى عليّ حزن عميق، عدتُ إلى كتب الأساطير لأكتشف أنه في قديم الزمان بنى أهل بيروت سوراً حولها خوفاً من التنين فأدركتُ أننا نتغلّب على الخوف من الموت حين نراه جزءاً من الحياة. وصدف أنني في تلك الأيام كنت أستعيد قراءة رواية موبي دك، فتداعى إلى ذهني أن كابتن إهاب كان أقرب ما يكون إلى التنين، وأن موبي دك كانت أقرب إلى الضحية فهي حوت أنثى حبلى تنتظر مولوداً في أي وقت. استفرد بها إهاب عندما أضاعتْ سربها، وإكتشف لدى تشريح جسدها رمحاً قديماً عايشته لزمن وكان يعيق تحرّكها، ويجب أن يكون أحد بحّارته قد أصابها بعينها اليسرى.

وتبينّ لي أننا كثيراً ما نرى الضحية معتدياً والمعتدي ضحيةً، وأن لكل مجتمع تنينه. تقول أسطورة أنه مثلث الرؤوس، فله رأس من الماء ورأس من الأرض ورأس من الهواء، وليس غريباً أن يقال أن لبنان هايدرا متعدد الرؤس وكلما قطعنا رأساً نبتت له رؤوس إخرى أكثر عدداً. وها قد أصبح للبنان ثلاثة رؤساء في الوقت الحاضر بدلاً من رئيس واحد فهناك رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء ورئيس مجلس النواب. وما هو أشد سوءاً أن كلاً منهم لا يعترف سوى بنفسه.

لم أفهم ما ظننتُ أنني فهمتهُ، فتابعتُ تجوالي في مختلف الأقاليم والحضارات. اطلعتُ على إسطورة تقول أنه تمّ إكتشاف هيكل عظميّ لحوت في يافا على شاطىء فلسطين، وعندما إستولى الرومان على يافا نقلوا العظام إلى إيطاليا كدليل على إنتصارهم. هكذا، من شواطىء يافا، إنطلقتْ أسطورة يونان والحوت لترمز إلى إنتقال الشمس من الغروب إلى الفجر. وفي بابل زُيّنتْ بوابة عشتار برسوم ثور وتنين له رأس أفعى وساقا أسد في المقدمة، وساقا طائر في المؤخرة، وذَنَبُ بشكل عقرب. وكان أن ذكرّتني تلك الرسوم في غفلة عني بالنحاة الشهير ديدلوس الذي تمكّن ان ينفخ الحياة في تماثيله حتى أنه اضطر أن يربطها بعضها إلى بعض كي لا تهرب منه. هربتْ منا أساطيرنا، يا جماعة، وأهم من هذا أننا لم نعد نعرف من الخالق ومن المخلوق. لم نعد نتحكّم بمخلوقاتنا. على العكس، مخلوقاتنا هي التي تتحكّم بنا.

واتخيل في نهاية المطاف أن تنيناً هبط في زمن العطش إلى قعر بئر وشرب كل ما فيه من ماء. وعندما أراد الصعود من البئر إكتشف أنه ليس بإمكانه الخروج من فوهته الضيقة لكثرة ما تضخّم جسده. ولأنه كان يعاني من حصر في البول ظلّ محتجزاً في البئر إلى أن وافاه الموت بعد إنتظار طويل وعذاب شديد.

إستغرب نادر إكتشافاته فكتب:

في قديم الزمان حضر فارس متجوّل غريب إلى مدينة بيروت

فتفاجأ ان بروجها وأسوارها كانت موشّحةُ بالسواد،

وبانت الطبيعة في حداد.

فهم أن التنين أحرق الحقول والمزارع

بعد ان تأخّر الناس بتقديم قرابينهم.
وطلب، إمعاناً بالعقاب،
ان تُقدّم له إبنة ملك بيروت.
ولم يكن لهم خيار سوى أن يستجيبوا.
فُتحتْ الأبواب، ومشت مواكب الناس بخطوات بطيئة
وجنائزية يرتدون ثيابهم السوداء.
تقدّمتهم الأميرة شاحبة الوجه
تلبس ثوب عرسها الناصع البياض.
مشوا بها إلى خارج أسوار بيروت
وربطوها إلى شجرة صنوبر باسقة،
ثم عادوا إلى بيوتهم كي لا يشهدوا إفتراسها.
في تلك اللحظة أقبل الفارس المتجوّل الغريب
إلى شجرة الصنوبر خارج أسوار بيروت.
قال للفتاة أنه جاء ليطلق سراحها،
فشكرته ولكنها رأتْ أنه من الأفضل أن يتركها لمصيرها
لأن موتها وحده يمكن أن ينقذ بيروت وشعبها من الهلاك.
قال لها أنه سيصرع التنين،
فحذّرته أن عدداً كبيراً من الفرسان الشجعان ماتوا من قبل.
إختبأ الفارس المتجوّل الغريب
إلى أن أقبل التنين.
وما كاد يقترب من الشجرة حتى إندفع
وطعنه برمحه السحري إلى أن قضى عليه.
وما أن أطلق سراح الفتاة حتى أقبلت جماهيرالناس من كل اتجاه
وجرت إحتفالات كبيرة.
ووسط تلك الإحتفالات التي إستمرت أياماً
تزوّج الفارس المتجوّل الغريب الأميرة،
على أن يصبح ملكاً بعد موت والدها.

هذه واحدة من أساطير الفارس الغريب والأميرة التي حرصتْ أن تلبس ثوب عرسها الأبيض مهما كانت الأحوال والمخاطر. ويُقال أن أصول الحكاية تعود إلى مدينة بابل ومنها

إنتشرتْ في أنحاء العالم فتنوّعتْ الأسماء والروايات، وليس من الغريب أن يعود التنين مرة أخرى ليهدّد المدينة ويفرض نفسه ملكاً عليها. ولزمن لم نشهد فارساً منقذاً حتى أصبحنا، إذا ما جاء مَنْ يدعّي هذا الدَوْر، ننكره ونساهم في اغتياله.

هكذا تكثر الحكايات وتمتد خيوط الحديث وتتشعّب. إنه زمن القتل الذاتي فتختلط الحقائق والأوهام، وتنمو للهايدرا رؤوسٌ جديدة. وقد لا يكون من الغريب أن نعود إلى عبادة التنين بدلاً من مواجهته إن لم يقبل يوماً ما فارسٌ مسلّح بعدةٍ سحرية لا مثيل لها فيتنافس الروائيون بسرد حكايات حياته، ويمجدّه الشعراء. وكي ينجح الفارس في مهمته، يكون عليه أن يتجنّب النظر إلى عينيّ التنين وإلا إنسحر وفقد قوته وجرأته.

وقد يُقال لنا من قبل قوى جبارة تسيطر على حياتنا: إن عرفتم الجواب على أحجية نطرحها عليكم، فستنعمون بالحرية، وإن لم تعرفوا يكون من واجبكم أن تخضعوا لمشيئة التنين والشروط التي يمليها عليكم.

أما أنا فأظن أن هناك أسئلة عديدة لا أجوبة عليها، ولا بدّ من البحث عن جواب لكل سؤال مهما كان غامضاً. أن اليقظة هي السرّ وراء كل سؤال مهما كان غامضاً. تلك هي الحكاية، وكل حكاية جيدة إسطورة تجسّد أحلامنا ومخاوفنا وكوابيسنا. هذا هو القلق بعينه.

لم أكن أدري هل أتكلّم مع نفسي أم مع صديقي عادل. ومهما كان لنتذكّر دائماً أن سرد الحكايات هو أقدم مهارة في تاريخ الإبداع البشري. روت لنا الكتب حكاية طرد آدم وحواء من الفردوس وأسطورة ولادة التنين وموته، فاكتشفنا أسرار تداخل الحقيقة والوهم. ولنفهم يا صديقي عادل أن التنين لا يهلك بسبب الجوع بل بسبب التخمة، وأنه يصطاد ويأكل في الخريف، ثم ينام في الشتاء، وفي الربيع يستيقظ ليستأنف الإصطياد. هنا أيضاً سرّ الفلاحة. ندفن الحبوب في الخريف لتولد في الربيع. لا غرابة، إذن، ان نربط في معتقداتنا بين الموت والولادة. ذلك هو الواقع وتلك هي الأسطورة، وسرّ العشق والتزاوج بينهما.

وفي البدايات الأولى كما في الحاضر وربما المستقبل، الصراع مع الذات والصراع مع الآخر وجهان لحقيقة واحدة يا عزيزي. والجحيم ليس هناك؛ إنه هنا. الفردوس ليس هناك؛ إنه هنا أيضاً. هل نتحرّر من الخوف ونتسلّح بالحب؟

هنا فقد عادل صبره فقال بغضب: كفاك ثرثرة يا نادر. إخرج من عالم كوابيسك وعدْ يا صديقي إلى الواقع واعترف بالحقائق كما هي لا كما تتوهّمها.

***

قمت بزيارة للكفرون مدفوعاً بأشواقي. أعانقها حين أصل إليها، احتضنها، أقبّلها، أطلب بركتها، اقصد ينابيعها، أصغي لأغانيها، أرقص إحتفالاً بها، أبتسم لها، أضحك معها، أسألها عن أسرارها وأحداثها الجديدة، أتسلق تلالها، أزور مار الياس والشيخ حسن واتسلّق جبل السيدة.

وأذهب بعد يوم ماطر مع عاصم، إبن جهاد صديق الطفولة، إلى وادي نبع الشير. خضنا في طرق ضيقة موحلة مروراً ببساتين تثير في نفسي إنفعالات تتحكّم بي بقدر ما أقاومها إلى أن وصلنا إلى غبّيط الصخرة حيث كانت بهية في مطلع الصبى تحب السباحة وتمارس فن الغواية بقصد أو دون قصد. أردت أن استعيد ذكريات قديمة ظلّت متوهجة في نفسي منذ الطفولة الباكرة. هذا ما أسميته غبّيط بهية، والحقول مجالها، والصخرة في ذهني هي صخرتها. أذكر، كما لو يحدث الأمر في هذه اللحظة، أنها كانت تصعد إلى أعاليها وتقفز دون تردّد إلى الماء الذي يحتضنها كما لو كان عاشقاً، وتظلّ تسبح لا تخرج إلى أن نترك، ولا نترك حتى تخرج مبلّلة بالماء. ورغم صغري، كنت أريد أن أحميها من الصبية وجميع المفتونين بجمالها وعذوبتها وتألقها وإبتساماتها المشرقة كبدر في سماء صافية. يا الله، كم كانت بهية جميلة عذبة مرحة محبة متوهّجة. تلك كانت الصورة التي حفرتها في ذاكرتي، ولم تتغيّر.

رأيتها الألق بعينه. وأكاد أن أغرق في ذكرياتي لولا أن عاصم ظلّ يحدثني عن المعارك التي يخوضها في الوقت الحاضر، وكلها تتعلّق بملكية الأرض والأشجار وسواقي المياه. وفيما يحدّثني عنها دون كلل، يقطف لي أكواز الرمان ويطعمني أياها بكرم يتجاوز كل حرصه على ممتلكاته التي حرثها والده بمتعة كما لوكانت فتاة تسبح عارية في الغبيط. وأكلتُ رماناً عني وعن بهية التي تضيء المكان بابتساماتها حتى في غيابها.

لم أتمكّن من ضبط عواطفي، فقد بلغني قبل أن أحضر إلى الكفرون خبرٌ مزعج عن أن بهية دخلت المستشفى. اندفعتُ لمعرفة حقيقة ما حدث لها بعد أن تقاعدتْ من عملها المتواصل في جدة لمدة أربعة عقود من الزمن وتحرّرتْ من مسؤولياتها المضنية حتى اشترت شقة متواضعة في منطقة الدورة في بيروت مجاورة لمساكن عدد من أقربائها ومعارفها. ليس هذا ما كانت تريده لنفسها فلم تكن تحب المكان كما كانت تود ان تحتفظ بمسافاتها الإجتماعية وتنعم باستقلاليتها لو كان وضعها يسمح بذلك. اصطحبتها مرة إلى الكفرون، وآسفتُ أنها أصبحت تتردّد منذ ذلك الوقت بزيارتها لاسباب عائلية: ملعب طفولتها وصباها الأول ومرقد أهلها.

ربما هذا من أسباب محاولات بهية المتواصلة الفاشلة للكفاح الشخصي وحيدة مستوحدة وللهرب اليائس دون جدوى من مواجهة مصادر مشكلاتها. وهي اليوم بالذات، وقد كبرت في العمر وهزل جسدها، تنعزل عن العالم كلياً. تقاعدت منذ سنتين فما أن مرّتْ أشهر قليلة حتى دخلت إلى شقتها في زحمة مباني الدورة ولم تعد تخرج إلى العالم بتاتاً. كانت قريبة من الناس جداً بفعل تقارب المباني وتلاحمها، وبعيدة عنهم بعد السماء عن الأرض. مرات عديدة حاولتُ دون جدوى اقناعها الخروج إلى العالم، إلى مطعم أو مقهى أو نادي أو معبد أو نزهة في الجبال، فكانت ترفض باصرار ولم أعد أعرف كيف أخفّف من آلامها. رأيت أنها دخلتْ شرنقتها وأغلقتْ على

نفسها المنافذ الأخيرة، وتخوّفتُ أن يأتي موتها في أي يوم. وبقدر ما أحببتُ زيارتها لم أكن أجد نفسي قادراً على الاستمرار عندها لأكثر من بضع دقائق. آلامها تسري في دمي كما غربة أمي، ولم اتقبّل هذا الوضع مهما حاولتُ تبريره بأنها حاكت حول نفسها شرنقة ترفض مغادرتها.

لعلني لم أكن أنتظر لها مثل هذه النهاية المؤلمة كالتي أصبحتْ تعاني منها في وقت كانت تأمل أن تبدأ حياة جديدة وتعوّض عن كل ما حرمتْ نفسها منه. وزاد من إحساسي بالمرارة أنها لا تصارحني بكل ما كانت تعاني منه في مكالماتنا الهاتفية وأثناء زياراتنا السنوية إلى لبنان لأسابيع محدودة. بدون توقّع مني، أصبحتُ أستصعب زيارتها بقدر ما أحرص عليها كلما جئت إلى بيروت حاملاً إليها هدية معتادة من أميركا تتوقّعها مني لا لأنها تحتاج إليها، بل لأنها تُوقظ في نفسها ذكريات قديمة حبيبة لقلبها. أستأجر تاكسي من راس بيروت إلى مستديرة الدورة المزدحمة بالسيارات المقبلة من كل إتجاه إلى كل إتجاه فاستغرب كيف تتجنّب الإصطدام، وأدخل أزقة ضيقة متشعبة يتراكم فيها الناس وتتقلّص المسافات.

أسير خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء كلما أردتُ زيارتها بتحريض من رؤى التي تنافسني تعلقاً بها فلم أعد أستطيع مواجهة ما حلّ بها. أردتُ أن أحتفظ بصورة بهائها في ذاكرتي فلا أقوى على الإعتراف بانهيارها. وما تراه بهية أمراً محتوماً لا خلاص منه سوى بالموت، أراه أنا وضعاً مزعجاً يمكن التغلّب عليه بشيء من الصبر والمداراة، ويراه سكان المنطقة واقعاً عادياً ألفوه كطلوع الشمس وغيابها، وكما الولادة والموت. يشكون كثيراً، لا شك، غير أنهم بحكم موارد حياتهم وقدراتهم المحدودة يعجزون عن تغيير أوضاعهم. وهكذا لم يروا في تدهور حياة بهية أمراً غير عادي، وهذا ما عمّق من إحساسي بهول الحالة التي وصلتْ إليها بعد زمن من التألق الذي إريد أن احتفظ به في ذاكرتي إلى النهاية. وأظن ذلك كان سرّ عودتي إلى الكفرون في ذلك الوقت مبكراً على غير عادتي.

على عكس جيرانها في أحياء منطقة الدورة، لم تألف بهية حياتها الجديدة بعد التقاعد، فما أن دخلت شقتها قبل الحادث، وتعرّفتْ إلى بعض أهل الحارة وحقيقة ما وصلت إليه، حتى بدأت تنسج شرنقة حول نفسها، كما لو أنها عادت إلى معمل الحرير الذي عملت به في طفولتها. عبثاً حاول أقرباؤها وصديقاتها إقناعها بالخروج من شقتها. قيل لي ربما تسمع منك وتقبل أن تستعيد علاقتها بالعالم، فذهبتُ إليها في ذلك الوقت برفقة رؤى في محاولة أخيرة وتحدّثنا مطوّلاً عن وضعها وأمور الدنيا، ثم دعيناها للغذاء معنا في مطعم تحبه كثيراً وكنا إعتدنا سابقاً الذهاب إليه معاً في مناسبات عديدة ولسبب أو دون سبب سوى أن نكون معاً في أجواء نحبها جميعاً. أصرّتْ على رفض الدعوة بقدر ما أصررْنا عليها. ولما فشلنا بإقناعها بمختلف الوسائل، قلتُ لنفسي ولرؤى عبثاً نحاول فقد تبيّن لي أنها حقاً، كدودة القز، دخلت شرنقتها وأحاطت نفسها بخيوطها حتى الموت على أمل الولادة الجديدة.

لم يكن لنا من خيار سوى أن نقبل بالأمر الواقع. وربما كنتُ آخر مَنْ رضخ لمشيئتها رغم قناعتي أن عزلتها لن تحميها من المصائب التي حلّت بها. استسلمتُ لواقع الحال خاصة عندما جذبتني المرضة التي تعتني بها جانباً، وشرحتْ لي أن بيهة لم تعد تملك السيطرة على جسدها وتوازنها، وفاجأتني بقولها أنها لم تعد تتحكّم بجسدها بل هو الذي يتحكّم بها ويفرض عليها ما تفعل وتقول. إستولى عليّ الصمت، ولوهلة لم أعرف كيف أتصرّف فأشرت إلى رؤى أن نغادر المكان، وإنحنيت أقبّل جبهة بهية ويدها مودّعاً على أن نزورها قريباً. أسرعتُ إلى الخارج قبل أن يجتاحني البكاء.

وفيما أعدّ نفسي بعد أيام للذهاب إلى موعد هامّ، إتصلت بي المرضة لتخبرني أن بهية وقعتْ في الحمام وكسرت كتفها وهم بانتظار الإسعاف لنقلها إلى مستشفى مار يوسف، فتركتُ كل شيء وخرجتُ كما أنا أبحث عن تكسي توصلني إلى الدورة حيث إكتشفتُ أن ذراعها إنفك عن مفصله عند الكتف وتدلّى كما لو إنقصف غصنٌ عن شجرته، فتصوّرتُ وأنا أنتظر في ممرات المستشفى أن الأطباء ربطوا ذراعها إلى كتفها كما لم يعد جزءاً منها سوى بقدر ما يسبّب لها من آلام وإزعاج.

وبعد خروجها من المستشفى، تكرّرتْ زياراتنا، وتفاجأتُ مرة أن سمعتها تتوجّه إلى الله: يا رب ماذا فعلتُ حتى تصيبني كل هذه النكبات؟ أتقبّلها منك، يا الله، على أنك تجرّب خائفيك. إلى متى وكم مرة تريد أن تجرّبني؟ عبدتك دون حدود. استدعي أسقفاً كل إسبوع ليصلي لي. تقيّدتُ بوصاياك. قدّمتْ لك قرابيني. اتخذت رؤيتك للعالم رؤية لي. ليس مَنْ أحببته وخفته أكثر منك، ولكنني بشرٌ كبقية الناس. لي نوازع وحدود كما لكل الأشياء والكائنات. وبعد كل ما إختبرت من آلام، أخاف أن رجاءي بد أ يتلاشى في نهاية عمري رغم إرادتي. وإذا كان لي ما أقوله لك الآن بصراحة لا أريد أن أخفيها عنك أنت العليم بكل شيء، فهو أنني لم أتعرّض في تعاملي مع البشر لقسوةٍ أقسى من قسوتك يا الله. إقتنعتُ أن كل ما يحدث يتمّ بمشيئتك. لماذا أنا؟ لماذا العذاب والتعذيب؟ لماذا يكون الموت بهذه

القسوة بدلاً من أن يكون سهلاً، وسعياً ممتعاً اليك، إلى فردوسك الأبدي؟ كيف يحدث لي كل هذا العذاب والظلم في العالم بإرادتك؟ لا بد من حكمة وراءها. ما هذه الحكمة؟ لا أفهمها. إفتح قلبك لنا كما نفتح قلوبنا اليك. الحب الإلهي هو نبع السعادة. ليس لديّ ما هو أثمن من محبتي لك. أشرب من ينابيع محبتك دون أن أرتوي. سامِحْني يا الله على ما أقول بصراحة. لا أقصد ما أقول. أعرف أنك رحوم غفور. سامحني، بشفاعةالعذراء، لضعفي بتحمّل مصائبي.

وما أن إقتربتُ منها على مهل وقبّلتُ جبهتها، حتى أخذتْ بالبكاء فبكيتُ معها رغماً عن إرادتي وبقدر ما حاولتُ أن أضبط عواطفي. أُقبّل يدها وجبهتها ووجنتيها قائلاً لها أن وجهها ما يزال جميلاً كالبدر فاعترضتْ على كلامي بمزيد من البكاء. أنهمرت دموعها، سالتْ متردّدة على وجهها. اتناول محرمة لأجفّفها. تحاول أن تأخذ المحرمة مني. أحتفظ بها. اقول لها: أريد أن أمسح وجهك. لم أفعل أي شيء من أجلك.

تستأنف البكاء، تهطل الدموع بغزارة أكثر من قبل. لا أستطيع أن أضبط نفسي. دموعي تنهمر بقدر ما أقاومها. تمسح دموعي فيما أمسح دموعها. تقول: لا تبكي عليّ. في داخلي سرّ لا أفهمه. مهما حدث ما أزال إمرأة سعيدة. صدّقني، ولا أريدك أن تعتل همي. لا بدّ من فَرَج قريب.

أقول: وجهك ما يزال بدراً مشرقاً.

تعترض على كلامي قائلة: يا دلي أنا. ولّى زمني يا نادر. أنظر كيف حفرتْ الدموع سواقياً في وجهي، فأي بدر تتكلّم عنه؟ ألا ترى مجاري السواقي في وجهي يا

حبيبي يا نادر؟

لم أجد ما أتفوّه به، فتصوّرتُ وجهها يذوب أمام عينيّ ويستحيل جزئاً من أودية الكفرون بأشجارها وينابيعها وأنهرها وصخورها حيث تجري فيها سواقي متقاطعة متشابكة كشرايين القلب. ضبطتُ أعصابي، وفكّرتُ أن بهية بدأت تغلق قلبها كما أغلقت شقتها على نفسها. كما أم نادر، أرادت أن تموت جوعاً بعد أن كبرت في العمر وتداعى كيانها فيئست من حياتها. أدركتْ في لاوعيها أنه لم يعد من معنى لوجودها. الكلام عن بهية، كما عن أم نادر، في نهاية العمر كلام عن الموت والحياة. وأكثر ما أتخوّف منه ان تنتهي حياة بهية كما انتهتْ حياة أمي فتتكرّر المأساة.

بعد سنتين من العناية المتواصلة، أي نهارالخميس في 19 آذار عام 1987 أخذنا امي بالطائرة إلى اختي ندى في توليدو أوهايو، وقد ظنّتْ أنها في طريقها إلى المشتى، وعدتُ أنا ورؤى الاحد في 22 آذار إلى واشنطن حيث إكتشفتُ أن زهور الوزال الصفراء بدأت تغمر جوانب حديقتنا، وفكّرتُ أن امي كانت تحبها كثيراً وتتعلّق بها علي أن لها مدلولات دينية، وامس قيل لي أنه يتمّ الاحتفال بعيد الأم في سوريا.

ثم كان أن إتصلتْ بي أختي ندى وقالت أنها متضايقة لان امي لم تعد تعرفها وتصر ان تتعامل معها كانني انا فتناديها «نادر» بدلاً من «ندى»، وتتوجّه إليها على انني انا فقالت مرة، «امتى بتخلص يا نادر من الكتابة وبتقعد حدي لنحكي. قم اشوي دجاج لنأكل ونحكي».

ماتت أم نادر ودفناها في توليدو أهايو بعيدة عن مدافن أهلها في مشتى الحلو ومدفن والدي في الكفرون. أسأل هل الغربة في الموت أقل قسوة من الغربة في الحياة؟ ما أعرفه جيداً أن أمي عاشت غريبة وماتت غريبة وما تزال. دفنت وحيدة منفية في مقبرة نائية من توليدو ـ أوهايو معرضة للعواصف الثلجية. ترقد في قبرها تحيط بها قبور دورسي ورالف كريغز إلى اليسار، وماري وهاري ميلر، وفرد موريسون وإستر، وهارولد ستيفنس ودوين فيلليبس وراءها. إنما كان يجاورها إلى اليمين أيضاً قبر إفلين ونقولا عسلي من قرية عيثا الفخار. تصوّرت أنها يجب ان تكون تعرّفتْ إليهما ولا بدّ أنها ذكرت لهما أن إبنها تزوّج فتاة من عيثا فنشأت علاقة قرابة بينها وبينهما. وأراح ذلك بعض العناء في نفسي. ثم أن هناك، ليس بعيداً من قبرها، قبر يُمنى زهيري. هذا تماماً ما كانت تقصد أم نادر حين كانت تقول في الأزمات، «الله لا يقطع».

زرت قبر بهية في جديدة المتن. لم يعجبني المكان بتاتاً. إزدحام. ضجيج. غبار. وضعوها في شبه صندوق حديدي ضيق، قيل أنه الصندوق الذي دفن به حفيد عمتها. المكان معتمم ومتراكم. ومع احترامي لقرارها، تمنّيتُ من كل قلبي لو دفنت تحت شجرات السنديان القديمة على تلة جميلة تشرف على أودية خضراء. ترى من أجل ذلك دخلتْ الشرنقة بحدسها قبل موتها علّها تولد بدءاً من نفسها.

كانت بهية، على ما يبدو، تفكّر بغير ما أفكّر. مرات عديدة قلتُ لها: لا بدّ ان نعمل على تغيير الواقع. تلك هي المهمة.

ـ «نغيّره؟»

تسأل بشيء من الاستهزاء، ثم تضيف: في حياتي كلها لم يتوقّع العالم مني سوى الإنسجام والرضوخ لإرادة أعلى مني ولا أستطيع أن أطالها. حصلتُ على بعض ما أريد بقدر ما أنسجمت مع واقعي. قبلته كما لو كان جلدي. كل ما أردته في الحياة ان أعيش من تعبي. لم أقبل صدقة. أردت أن أحتفظ بكرامتي. أحببت الناس. أحبوني. أفتخر بصديقاتي، وبالعائلات التي أعرفها. الدكتور خالد الشامي أصبح أبي وأخي. وأردت دائماً ان أكون إبنته وأخته. أحببت زوجته وابنته وأبناءه. إبنته إبنتي وحفيدته حفيدتي. بموت حفيدته، بدأتْ إنهياراتي. كان عمرها 18 سنة. ماتت تحت عملية تجميل للثدي. لا أفهم لماذا أرادت ان تكون أكثر جمالاً مما كانت عليه؟ العالم يفرض علينا أشياء كثيرة. العالم مستبد، وتوقعاته لا تحصى. مهما حقّق الانسان لا يكتفي. المهم ألا نعترف بالهزيمة.

أذكر ان بهية صمتت لبرهة، ثم قالت بصوت منخفض: حياتي مليئة بالفراغ.

ـ لا، حياتك مليئة بالمحبة.

في تلك البرهة أخبرتني أنها تتوقع أن يحضر الخوري كالعادة لتعترف له بخطاياها فسألتُها بمزيج من الضحك والجدية: لماذا تعترفين للخوري الغريب عنك ولا تعترفين لي أنا قريبك؟

وأجابتْ دون أن يغيب عنها جانب المزاح: الخوري ليس مهماً بذاته.

ـ وأنا ماذا أمثّل عندك؟

ـ أنتَ تمثل المحبة في نفسي.

هنا أخبرتني أنها زارت مرة ضريح القديس شربل، وكانت سعيدة أن راهباً أعطاها إيقونته فلبستها في عنقها. ومرّتْ الأيام وتفاجأتْ ان القديس شربل ظهر لها في الحلم وقال لها بصوت حازم، «أنتِ لستِ مؤمنة كفاية يا بهية. لذلك جئتُ لآخذ الإيقونة منك. أريد أن استعيد إيقونتي». وفعلاً، اختفت الإيقونة. لم تترك مكاناً لم تبحث فيه عنها. كانت وما تزال تريد أن تعرف سر إختفائها، ولماذا اتهمها القديس شربل بقلة الإيمان مع أنها إتخذتْ الله محوراً لحياتها. وسألتْ نفسها مراراً كيف تكون أكثر إيماناً؟

كنتُ حريصاً على إحترام مشاعرها الدينية التي لم تكن طقوسية في غالبيتها.

وهذا ما ذكرّني بأم نادر التي نادراً ما كانت تذهب إلى الكنيسة لانشغالها وتراكم أعمالها، فكانت تكتفي بترديد كلمات وصلوات مجتزأة. كل ما في الأمر أنها كانت تخاف الله وتحب العذراء وتحزن لآلام المسيح.

وعادتْ بهية في مناسبة أخرى تحدثني عن الدكتورخالد الذي رأته أباً وأخاً فذكرتْ أنه لم يكن يتوجّه إليها باسمها عارياً، بل ب«الست بهية». ليس هذا ما كنت أريد أن أسمع منها في تلك البرهة فانا أعرف جيداً أن تعلّقها به منقطع النظير. إنه قديس آخر في حياتها. ولو كان له إيقونة لوضعتها أيضاً في عنقها الذي ما يزال جميلاً. أعرف هذا جيداً. وأعرف أيضاً أنها ترتبط بعلاقة «أخوة ومحبة واحترام متبادل»، كما قالتْ لي مراراً، مع عائلة زميلها حسان قنديل الذي تعتبر أنه كان يمكن أن يكون ثرياً جداً لو لم يكن «آدمياً».

ولفت نظري في تلك الأيام أنها شديدة الإيمان بالمسيحية بينما كان أبطالها في واقع الحياة من المسلمين الذين عملتْ معهم فخطر لي بأن تدينها لم يقم على أي تحيز مع أو ضد أية جماعة دينية محدّدة، بل كان الصفاء التام بعينه. هذا ما شجّعني أن أسألها ما رأيها بما نشاهده في التلفزيون من إحتفالات تقديس رفقه في تلك الأيام، فتفاجأتُ أنها لم تكن راضية عنها وتبادر إلى ذهني أنها بدأتْ تعترف لي بما لم تعترف للخوري مع أنها في السابق كانت كلما فتحتُ نافذة على حياتها أغلقتها تواً.

ومن خلال إعترافاتها القليلة إتضح لي أكثر من أية مرة في السابق أنها كانت ما تزال تحلّ مشاكلها بتجنّبها واللجوء إلى عالمها الخاص والى العذراء ويسوع المسيح، ولم تكن تجروء على الإقتراب من الله والتوجه إليه إلا في حالات الشكوى. بل استنتجتُ أنها خَافَتْه كما كانت تخاف والدها في طفولتها. رأته سلطة فكبتتْ مشاعرها، ولكنها تساءلت مرة لماذا يريدني أن أخافه أكثر مما أحبه؟

ولم تغب عنها الجوانب الطائفية فيما شاهدت على التلفزيون من إحتفالات دينية.

كغيرها راقبتْ الإحتفالات بظاهرة القديسة رفقه منذ أعلن البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان قداستها في التاسع من حزيران عام 2001، وكان أن تحوّل الاحتفاء إلى «عرس» إختلطت فيها القداديس بمسيرات شعبية تحوّلت في الكثير من مظاهرها إلى «سهرية حتى الصباح» تخلّلتها حلقات الدبكة والطرب والغناء التي عقدت في باحة مار بطرس ـ الفاتيكان ونقلتها حية قناة التلفزيون

أل بي سي وتخلّلتها أغاني «راجع يتعمّر لبنان»، و«ع الندّا الندّا»، و«جيب المجوز يا عبود» إضافة إلى أغنيات شروقي وقرادي وترويد وحوريات من تأليف الأب يوحنا الخوند والأب يوحنا جحا والشاعر أسعد جوان. واستلفتَ نظرها بعض الأغاني التي انشدها المحتفلون، منها:

هيهات يا بو الزلف

نحن المسيحيّة

بنَينا بجرد السما

ضيعة مارونية

وعلى لحن:

على الماني ع الماني

بالصرح الفاتيكاني

رفقه بين القديسين

فخر الشعب اللبناني

وشملت السهرة التي إمتدت إلى ساعة متأخرة في الليل أغنيات على لحن العتابا والميجانا، وآه يا أسمر اللون، وعلى دلعونا، وقرادي ومنها:

بين عنايا وكفيفان

مزروعة جراس الوديان

تحت الصخرة في قديّس

وفوق التلة في صلبان

وهنا بدا على بهية نعاس شديد، فانصرفنا من حيث أتينا دون أن نجد ما نقوله لبعضنا البعض ولم يكن النوم مريحاً، وزاد من قلق الأيام التالية ما نشرته صحيفة النهار من قصائد شعبية، ومنها أبيات زجلية:

دقّوا جراس، دقّوا دفوف

حتى الأرزة حالا تشوف

تلاتـي مـن عنا رفقا

حرديني شـربل رفقا

حلّو بقلب الفادي ضيوف

وفي هذه المناسبة قال البطريرك مار نصرالله بطرس صفير، «أرى وجه شبه بين هذه القديسة ولبنان.... طريق لبنان هي طريقها، هذا البلد الذي يتعذّب من خمس وعشرين سنة»، كما ألقى أحد رجال الدين عظة قال فيها إن «حياة رفقا وما تحمّلته من آلام يشكّلان مثالاً لنا ودعوة إلى أن نتحمّل ما يصيبنا من محن. وهكذا عرف الشعب اللبناني في الأعوام الأخيرة محناً وآلاماً كثيرة لا يزال يعانيها ونسأل الله أن يعطينا الشجاعة والقوة كي نتحمّل بصبر وثقة الأوضاع الصعبة التي نعيش». ونبّه الاباتي جلخ بقوله،

«ما أحوجنا نحن اليوم إلى هذا الحضور الفعلي لله في حياتنا... المشكلة الكبرى في الحضارة العصرية، عيش الانسان بمعزل عن حضور الله...هذا هو مصدر الضياع والفراغ. ليكن لنا مثل الطوباوية رفقه دافعاً إلى إستحضار الله في حياتنا... وثمة عبرة نستمدها من سيرة رفقه البطولية، هي تحمّلها الأوضاع المبرحة. فقدتْ أمها صغيرة... ألمّ بها المرض، أصبحتْ عمياء وكسيحة، فصبرت على الألم طوال سبع عشرة سنة... وتحاول ان تشارك المسيح في آلامه لخلاص البشر... حتى أنها كانت تعتبر الألم هدية من السماء...»

وبعد إسبوع عاد البطريرك صفير ليقول بكلام أكثر تحديداً، «ان ما رافق تقديس الراهبة رفقه من صلوات ومسيرات وتضحيات وابتهالات هو ما حمل المسؤولين على اتخاذ ما اتخذوا من خطوات تتعلق بانسحاب الجيش السوري، ولو جزئياً، من بعض المواقع في لبنان»

واطلعتُ في الصحف ان رفقه الشبق الريس أرادت مشاركة المسيح في آلامه فاستجاب طلبها، وانها كانت دائماً فرحة بآلامها، وأن

والدتها ماتت عندما كانت لا تزال طفلة في السابعة من عمرها، وكان أبوها يعاني من الفقر والعوز. وهذا ما اضطرها وهي إبنة عشرة أعوام إلى الاستخدام في بيت أحد الاثرياء في دمشق طوال أربع سنوات. وعندما عادت إلى بيتها اكتشفت أن والدها قد تزوج إمرأة ثانية، فشق عليها أن ترى إمرأة ثانية تحلّ محل والدتها...وقد شهدت ما إختبره لبنان من محن وعذابات لا تحتمل».

استاءت بهية من تحميل الإحتفالات جوانب سياسية وطائفية غير لائقة كما جاء في إفتتاحية كتبها جبران تويني للنهار قال فيها، «ذات يوم أحد 10 حزيران 2001 شاهدنا زحفاً شعبياً لبنانياً إلى الفاتيكان... للمشاركة في أقدس وربما أهم احتفال بالنسبة إلى لبنان منذ زمن طويل...: ذلك هو إعلان قداسة رفقه.... وفي اليوم نفسه، يوم 10 حزيران 2001، شهدنا زحفاً رسمياً لبنانياً إلى القرداحة في سوريا...من كل مؤسسات الدولة من الرأس ونزولاً للمشاركة في احتفال ذكرى وفاة الرئيس الأسد... كان من المفروض ان يترأس وفد لبنان إلى الفاتيكان رئيس الجمهورية اللبنانية وأن يرافقه الرئيسان بري والحريري بالاضافة إلى المفتي قباني والمفتي قبلان، لأن اعلان قداسة رفقا هو تقديس لبنان.... اعلان رفقا أول قديسة في الشرق... هو بمثابة الحدث التاريخي الأهم ليس فقط للبنان، بل للشرق الأوسط باجمعه....».

لم أقبل ان يفرض معتقداته الدينية على غيره وقلتُ بحزن لما أحمل في قلبي من إحترام ومحبة للجد والأب، «ما أوسع الفجوة وأعمق الهوة بينه وبينهما وكم يسئ لاسم جبران الذي حذّرنا ويل الأمة كثرت فيها طوائفها وقلّ فيها دينها»، وقصدت البحر علّني أتحرّر من غضبي وأسفي.

لم أفلح فكتبت رسالة وداعية لبهية قلتُ فيها: أذكر طفولة التجوّل في البساتين والتجمّع عند الينابيع والسباحة في الأنهر النقية، والهبوط إلى أعماق الأودية، والصعود إلى قمم الجبال. إنها طفولة لا تعود ولكننا نحلم بها ونختزنها في قلوبنا. وأريد أن تظلّ أيامك الأخيرة فرحاً نقياً كالطفولة. أنتِ إمرأة مؤمنة تجاوزت تلك الفجوة الكبرى بين التدين والطائفية وتوظيف الدين في خدمة أغراض سياسية. آسف ان اجرّك لمواضيع لا تحبينها. كنتِ دائماً مصدر بهجة، ولن انسى ولعك بالعصفورة التي بنت عشها في سلة الأزهار امام منزلنا. أنتِ معنا في حضورك وغيابك».

اكتب لك يا اخي وليد اخلاصي في حلب لاخبرك انني قادم لزيارتك. قرأت أمس مقالة لكاتب شاب من حلب لم اسمع باسمه من قبل يقول فيها ان عدداً من الكتاب السوريين اسهموا في التأسيس للفن الروائي العربي، وقد نال الكثيرون حقهم من تقدير الخطاب النقدي، ولكن هناك عدد ممن تمّ تجاهلهم في حياتهم وبعد موتهم ومن هؤلاء صباح محي الدين الذي ولد في حلب سنة 1925، وتلقّى علومه الأولى لدى شيخ الكُتّاب، ثم انتقل للدراسة في مدرسة السريان الكاثوليك، وأنهي دراسة المرحلة الثانوية في معهد اللايك، واتقن الفرنسية والانكليزية والعبرية والتركية والاسبانية. وفي 1946 سافر إلى بيروت وانصرف للدراسة في الكلية اليسوعية ونال في عام 1955 شهادة الدكتوره في السربون بدرجة شرف عن اطروحته حول الشاعر أبولينير، وسافر إلى لندن حيث عمل مذيعاً في الاذاعة البريطانية ليغادرها إثر غضبته الشهيرة صبيحة العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956، حينما قال، «هنا لندن، والله أعلم». وفي تموز من سنة 1962 تعرّض بسيارته لحادث في الكويت، وغادر الحياة قبل ان يتجاوز السابع والثلاثين من العُمر.

فجأة استيقظ اسم صباح محي الدين ورسمه في ذاكرتي يوم كنت اتجوّل معه في شارعي جاندارك والحمراء. واذكر انك انت أيضاً حضرت إلى بيروت في تلك الأيام وتمّ تعارفنا. وللمفاجأة الأهم انني اكتشفت في ملفات حياتي القديمة انني نشرت مراجعة لرواية «خمر الشباب» لصديقنا صباح بتاريخ 24/6/1959 في جريدة البناء. قلت في مراجعتي هذه ان تلك الرواية ليست باكورة ما انتج سندباد الأدباء، فقد صدر له قبل ذلك مجموعة قصصية بعنوان «السمفونية الناقصة»، وأخرى بعنوان«بنت الجيران».

في رواية خمر الشباب يجد مهاجر عربي نفسه في عالم لندن الصاخب لا يسترعي نظره فيه غير المرأة والخمر والبارات إلى أن احب فتاة سويسرية ابلغها أنه سيعود استجابة لطلب أهله إلى بلاده ليتزوج ابنة عمه التي لا يحبها ولا تعجبه. وتذكّرني الرواية بعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، والحي اللاتيني لسهيل ادريس، وقنديل ام هاشم ليحي حقي، وقنايل اشبيلية لعبد السلام العجيلي.

مرة اخرى استغرب كيف نسيت صباح محي الدين، فقد كتبت في مجلة الوسط في 23/8/193 مقالة بعنوان «كيف تستيقظ بيروت من رماد الذاكرة؟» رويتُ فيها انني تعرّفت إلى شاعر لبناني شاب اسمه Haas H. Mroue يكتب بالانكليزية، وقد نشر مجموعته الآولى بعنوان Beirut seizures . ولكثرة ما اعجبتني المجموعة دعوته من ولاية كولورادو للحضور إلى واشنطن ليقدّم امسية شعرية في الف غاليري. وحدث لي أمر غريب. قال لي ان اسمه حسيب مروه وانه ورث اسم ابيه الذي توفي عند ولادته. عبثاً اتذكّر اسم والده.

ودّعتُ الشاعر الشاب وخرجت إلى الشارع. وبدأ مطر خفيف يتساقط فاستيقظ حسيبب مروه من تحت تراكمات النسيان. طبعاً اعرفه جيداً جداً. حضر كما لو رأيته أمس. تجسّد أمامي تماماً كما كنت اعرفه قبل ثلاثين سنة. كيف نسيته؟ أظن انني لم اقبل فجيعة موته في عز شبابه وحيويته، وادركت ان الموت لا يموت. ليس من وسيلة غير النسيان لابقاء الفجيعة خارج دائرة الوعي.

لي عتب عليك يا عزيزي كمال، فقد شعرتُ بأسف لدى انتهائي من قراءة كتابك الأخير أنك لستَ حقاً طائر على سنديانة. إنما قبل الخوض في هذه المسألة، أريد أن استرجع معك بعض ذكريات قديمة. وربما تغضب، إنما ليس هذا ما أسعى إليه. نعرف أن بعض المرويات قد تكون غامضة، وقد يكون الغموض أحد أسرار روعتها وبهائها وعمقها. إنما هناك مرويات تاريخية لا نعرف سرّ صمتها. يجب أن نعترف أننا نسكتُ عن ظلم كبير في تسجيل التاريخ البشري. هذا حقاً زمن رديء، وأسوأ ما فيه الصمت. العالم صامتٌ وهو يشهد إسرائيل تدمّر ما تبقّى من فلسطين بشراً أطفالاً رجالاً نساء، منازل، مؤسسات، أشجارَ زيتون، ثقافةً، جذوراً، إنتماءات، ذكريات، معابد، قبوراً. العالم لا يسمع، لا يرى، لا يلمس الجراح، لاتزعجه مشاهد الموت، لا يتذوّق مرارة المأساة، لا يحتج. وها هي أميركا بكل عظمتها وجبروتها تجتاح العراق بعد ما وضعته في قفص وفرضت عليه الحصار منذ ما يزيد على عقد من الزمن.

تقول في كتابك أنك راقبتَ في آب 1958 سفن الأسطول السادس الأميركية راسية في البحر عند شواطىء بيروت التي كانت ما تزال جميلة ونظيفة. ويبدو كما لو أنك لم تحفل بما قال لك صديقك عفيف تلحوق الذي كان يعمل في السفارة الأميركية من أنها تعامل الموظفين اللبنانيين كالخدم فيتساءل هل نعود إلى عهد الإنتداب. لم تتظاهر ضد الإسطول السادس. على العكس، عملتَ على تأسيس رابطة الطلاب اللبنانية، ومرّ عليك زمن طويل قبل أن تعترف أن الغرض منها كان منع المظاهرات في بيروت. إستاذ جامعي لمنع المظاهرات الطلابية؟ لم أسمع بهذا من قبل!

لقد وقفت في الكثير من مراحل حياتك إلى جانب الأقوياء والنظام القائم. لهذا يا عزيزي كمال أهملتَ كلياً شؤون الناس في كتابتك كمؤرّخ عن رأس بيروت. ربما تظن أنك قمتَ بواجبك تجاه القضية الفلسطينية بمصادقة عدد قليل من أفراد عائلات فلسطينية أرستقراطية. وربما تظن أنك أعطيت المسلمين حقهم بالإشارة إلي علاقتك بأفراد من عائلة سلام والصلح. وهناك أسماء كثيرة تعمّدتَ ألا تعترف بها في كتابك. أستغرب جداً أنك، أنتَ إبن رأس بيروت، تعمّدت عدم ذكر أنطون سعاده بتاتاً وتجاهلته كلياً في كتابك وبيتك لا يبعد عن بيته سوى أمتار معدودة، ولم تشر حتى بإشارة عابرة للحركة التي أطلقها. إن كان هناك في لبنان من شخصية تراجيدية بالمعنى اليوناني فهو أنطون سعادة يا صديقي. مصمم، مستقيم، جريء كالسهم، بريء كالينابيع، وحالم كعاشق. أقول لك بكل صراحة أنني لا أستطيع أن أقبل فكرة القول بأن لبنان بلد ديمقراطي ويُعدم فيه أنطون سعاده دون محاكمة تواً بعد أن تمّ القبض عليه، ودون إحتجاج شعبي أو رسمي. ولبنان ما يزال غير قادر على محاسبة نفسه حتى الوقت الحاضر بعد ما يزيد على نصف قرن وكان في الخامسة والأربعين من عمره. أنتَ لم تقل كلمة واحدة. وإذا كنتَ تستطيع ان تتجاهل مفكراً كان جاراً لك في الحي الذي تسكنه، فلا أستغرب حين يتهمك البعض بانك ممن زيّفوا تاريخ لبنان الحديث.

هنا، أريد ان أتوجّه اليك بِ يا صديقي، فقد انتقدتك أكثر مما عتبتُ عليك بحيث أصبحت أشعر بالذنب وأسوّغ بعض تصرّفك بإعتبار أنك نشأتَ على معتقداتك منذ طفولتك وأنتَ كغيرك إبن بيئتك. المهم أن أخبرك عن تجربة مزعجة إختبرتها مؤخراً. تعرّفتُ بعد أن أكملتُ دراستي إلى القاضي المعروف زهدي يكن وزوجته السيدة حبيبة الناشطة في حقول الإحسان بحكم صداقتي لإبنه وبناته وكنتُ أتردّد إلى منزلهم. قال لي مرة أنه يحترم آرائي لأنني منصف في نظرتي للإسلام والمسلمين. شكرته، وتعلّمتُ أن أصبح أكثر إنصافاً ورغبة في الدفاع عن قضاياه. ليس ما ذكرته عن زهدي يكن، رحمه الله، سوى مقدمة لما أريد أن أخبرك أياه.

صُدمتُ مؤخراً عندما قرأت أنه كان عضواً في لجنة العفو الدائمة هو والقضاة إميل تيان وجورج سيوفي وبدري المعوشي ورضا التامر حين تمّ الحكم على أنطون سعاده بالاعدام خلال أقل من 24 ساعة من القبض عليه. قيل أن السلطة استدعت اعضاء لجنة العفو ليلاً بسيارات عسكرية وعارض أكثر من قاض الإعدام غير أن زهدي يكن ترك الأمر لرئيس الجمهورية. لم أصدّق أن هذا الإنسان النقي تخلّى عن مهمته وحقه بإبداء رأيه، هوة ضعفه فحزنتُ لسقوطه ووددتُ لو انتشله لما عرفتُ عنه من انسانية، واكراماً لزوجته الست حبيبة ولاصديقنا ابنه محمد وصديقاتنا بناته هالا ومهى وندى التي تحمل اسسسم اختي.

على ما يبدو أنك لم تتنبّه إلى أن حرب 1958 بدأت باغتيال نسيب المتني، وحرب 1975 باغتيال معروف سعد، وفي الحالتين يقال أن شمعون كان مسؤولاً مباشرة أو لامباشرة. شمعون لم يكن يقبل أن يعلو عليه أحد، كما قال أحد أتباعه، وأراد أن يصنع مجداً لنفسه.

طبعاً أنت لست مسؤولاً عن تصرّف شمعون، ولكنك عملتَ على تأسيس رابطة الطلاب اللبنانيين وأصبحتَ موجِّهاً ومرشداً ومستشاراً لها حين كنت إستاذاً للتاريخ في الجامعة الأميركية. قلتَ في كتابك أن مهمّة الراطبة كانت إيقاف حركة القوميين العرب عند حدهم إذا ما تجرّأوا على المساس بكرامة لبنان، ووجّهتَ لهم هذه التهمة المضحكة لمجرّد ممارسة حقهم بالإضراب والمظاهرات ضد حلف بغداد فلجأتم إلى سياسة إيقافهم بالقوة إذا لزم الأمر. ولم تكن الرابطة تملك القوة باعترافك لقلة عددكم، فلجأتم بناء على نصيحتك إلى إفتعال مواجهة من أجل إفشال المظاهرات. هل تُمسّ كرامة لبنان بممارسة حق التظاهر أم بمنعها؟

تقول أن شباب الرابطة جرّبوا إفشال أول مظاهرة تم تنظيمها بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لقيام الجمهورية العربية المتحدة في 22 شباط 1959 بالهجوم عليها، وحسب قولك لم يكن عدد أعضاء الرابطة يمثّل أكثر «من عشر أو خمسة عشر شاباً يُعتمد عليهم عند الحاجة». أستغرب أنك كإستاذ جامعي كنت توافق، كما ذكرت في كتابك، على إستعمال العنف لتعطيل المظاهرات وعلى أنكم كنتم تستعينون بادارة الجامعة وعمّالها وموظفيه لتزويدكم بالأخبار عن كلّ ما كان يحدث بين الطلبة وكلّ ما يتوقّع حدوثه فاصبحتم كما تقول أنتَ بنفسك «منتهى الأخبار في الجامعة دون أن يُعرف عن دخائلكم شيء».

ولا أدري ما الذي إستنتجتَه مما رواه لك البطريرك الماروني بولس المعوشي حين قال لك عن الموارنة، «نحن شعب مُخّه يابس مثل صخور هذا الجبل، وما تاريخنا إلا قرون من معاندة الدهر». يبدو، للأسف الشديد، أنك إخترت في تلك الفترة أن تقف إلى جانب الرؤوس اليابسة. هناك مؤشرات أنك بدأتَ تُظهر بعض الليونة، وأرجو أن تتابع سيرك الحثيث بهذا الإتجاه. وهذا بالذات ما دفعني للتوّجه إليك علّك تزداد تحرراً.

وسرّني أنك طرّيت مخك قليلاً في السابق أيضاً بعد أن تجاوزتْ الرابطة الحدود في إستعمال العنف وفلتتْ من يدك فصرّحتَ أنه لم يعد لك من علاقة بها بعد أن قام شبابها «بهجوم مفاجيء على زملائهم الفلسطينيين إستخدموا فيه النقافات يرمون به «الكلل» الزجاجيّة» وبعد أن وجدتَ إنه لم يكن من مبرّر للتخطيط لهذا الهجوم مع «جهات نافذة داخل الجامعة وخارجها». من هي تلك الجهات النافذة؟ هل هي غير التي كنت تتعامل معها أنت وشمعون؟ إنك يا عزيزي بحاجة، مثلنا جميعاً، للشفافية. من هي هذه الجهات النافذة داخل الجامعة وخارجها؟

سألتَ يا كمال عام 1953 فارس داغر حين كان يستعد لخوض الانتخابات النيابية على لائحة الجبهة الإشتراكية التي ترأّسها كمال جنبلاط لماذا عارضتْ الجبهة شمعون وهي التي أوصلته إلى رئاسة الجمهورية، فأجابك ان شمعون ما كاد يصل إلى الرئاسة حتى تخلّى عن برنامجها الإصلاحيّ بعد أن أحاط به أصحاب المصالح الكبرى في خدمة مصالحهم على حساب الشعب. هذا هو التفكير السليم يا كمال، وهذا ما تتجاهله للأسف الشديد. تقول، وأنت رجل علم، انك سسرتَ لدى إغلاق إدارة الجامعة الأميركية جمعية العروة الوثقى نهائياً. يا صديقي كمال، ليس من كمال في الدنيا، وما نسعى إليه ليس الكمال بل مزيداً من الإبدا ع والحب والإنصاف.

***

«كم آسف أنني لم أكن قريبة منك يا أخي كي أتعلّم منك معنى التحرّر من أية إغراءات قد تُطفيء شعلة الإبدا ع في نفسك. يجب أن تكون قد أدركتَ منذ مطلع شبابك أن في داخل الكاتب شعلة متى إنطفأت إنطفأ إبداعه».

إجتاحتني كلمات أختي ندى هذه كموجة فجاهدت للإحتفاظ بتوازني. أستغربت بلاغة ما كتبت لي هي التي لم تكمل دراستها بعد المرحلة الإبتدائية ولم تمارس الكتابة.

كيف تمكّنت أن تعبّر عما كنتُ أود التعبير عنه بهذه اللغة؟

يبدو أن أكثر ما يحزنها بعد هذه الإقامة الطويلة في أميركا تفتّت العائلة. فشلتْ في حياتها الزوجية وتأسف أنها تحمّلت قسوته وحرصتْ على سمعة العائلة إلى أن ينضج أولادها ويتمكّنوا من إدارة شؤونهم، خاصة وأن مجدي كان يبكي ويطلب منها المغفرة بعد كل إساءة بحجة أنه لا يعرف ما يحدث له وأنه لم يكن يملك أعصابه ويتمني عليها ألا تعانده في مثل هذه الظروف تجنباً لاستفزازه.

طلقّته بمساعدة أولادها وتحريضهم. وحين حضرت أمام القاضي وشرحتْ قصتها سألها: لك حقوق وأنا إلى جانبك.

- لا أريد أي شيء سوى حقي بالطلاق

- مرة أخرى اقول: لك حقوق آخرى.

ـ أعرف هذا. لا أريد شيئاً. لا اريد سوى الطلاق لتستريح نفسي.

منحها القاضي حق الطلاق، فواصلتْ جهادها مليئة بالثقة بنفسها، وسهرتْ على راحة أولادها إلى أن تزوّجوا وأنجبوا أولاداً. ثم أصبحتْ تقلق أيضاً على أحفادها. ولا أستغرب أنها ما أن تقدّمت في العمر حتى أخذتْ تتعامل معي ـ أنا أخوها الأكبر منها عمراً ـ كما لو كنتُ إبنها، وفعلاً، زلّ لسانها أكثر من مرة فنادتني يا إبني بدلاً من يا أخي.

ومؤخراً، بدأتْ تنهار صحتها. لم تترك طبيباً إلا إستشارته، وبعد إجراء عدد من الفحوصات الطبية أظهر التشخيص أنها مصابة بما يُسمّى Temporal Arteritis عند صدغيها مما، كما قيل لها، قد يسبّب لها فقدان النظر، فأجروا لها عملية جراحية، كما كان عليها أن تأخذ دواء prednisone لمدة 3 إلى 6 أشهر، وهو كما فهمتْ دواء قوي ذات تأثيرات ومضاعفات منها إحتقان الماء في جسدها مما يزيد من وزنها ويضعف عظامها إلى درجة العطب، وقد ينشأ عن ذلك شعور بالتعب الشديد، والضعف، وإضطراب المعدة، والغثيان.

مسكينة أختي ندى. في هذا الوقت واظبتْ على الذهاب إلى العمل كي تنسى وجعها وقلقها على نفسها وغيرها. ثم أنها بدأت تضطرب لما يجري في فلسطين والعراق ولبنان وسوريا من أحداث مؤلمة متخوّفة من أن ينشط أولادها ضد السياسة الأميركية. وجواباً على هذا وعدها أحدهم أنه عندما تتحسّن حالتها سيأخذها معه للمظاهرات هي وحفيداتها تالا ويارا.

ضحكوا وكان لا بد أن تشاركهم الضحك فهي تعرف جيداً أنها لا تتحمّل دفشة، كما تقول عادة. وفي هذه المناسبة سمعتْ في التلفزيون تصريحاً لإسرائيلي قال فيه أنه غير مستعد للموت في سبيل إسرائيل، وهو يفضّل أن يهاجر حين يتطلّب الوطن موته فوطنه حيث يعيش لا حيث يموت. أفرحها ما سمعتْ علّ أولادها يتعظون هم أيضاً، ولكن أحدهم أجابها، «الفلسطينيون لا يملكون نفس الخيار. لا بدّ لهم من المواجهة كي يعيشوا أحراراً في وطنهم. إسرائيل غير مستعدة للسلم لأنها تريد الاستيلاء على الارض، ونحن لن نستسلم. ليته كان بالامكان أن نستعيد حقوقنا بالطرق السلمية. ترى من ينتصر في النهاية؟ يالله، شدّي حيلك للمظاهرات».

وتجاهلتْ كلامه، فقال، «العرب مقبلون على مصائب قاسية فيكون عليهم أن يصنعوا أولادهم من فولاذ». وتسأله بإستهزاء، «كيف يصنعون أولادهم من فولاذ وهم من ورق؟»

في هذه الأوقات العصيبة التي تتراكم فيها المصائب ويتألم الفقراء والأغنياء أكثر من غيرهم، جمعتُ لها في منزلنا أولادها وأحفادها في مناسبة الأعياد فلم تَعُدْ تعرف كيف تشكرني. غمرتْها السعادة وفرحتُ لسعادتها، غير أنني لحظتُ في الوقت ذاته أنها إزدادتْ ميلاً للسهر على راحة الجميع فأصبحت تهتم بشؤونهم كما لو كانت وصية على حياتهم. قلت لها بشيء من النفور: لماذا لا تهتمين بشؤونك وتتركين الآخرين يهتمون بشؤونهم؟

قالت: لا أستطيع. خلقني الله لغيري وليس لنفسي.

وأجبتُها بشيء من الحدة دون قصد لحرصي عليها: كل إنسان يهتم بشؤونه. خلص وجع راس. ما راح يسمعوا منك. ليش عم توجّعي راسك؟

وأجابتْني بهدوء وحزم: هذه هي التقاليد التي تربّيتْ عليها من صغري.

لم أجد ما أقول فضحكتُ، ثم لجأتُ للصمت وإن خطر لي أنها تقمّصتْ أمها كما أمها تقمّصتْ أمها من قبل جيلاً بعد جيل. عبثاً الكلام. لا فائدة منه سوى وجع الرأس. وقبّلتُ جبهة أختي ندى وصدغها حيث أُجريتْ لها العملية، وقبّلتْ هي خدي، فقلتُ ضمنياً: على الأقل لم تمانع أن أروي حكاياتها كأخي كمال الذي يصرّ على الاحتفاظ باسراره لنفسه.

ثم مرّت سنوات واظبتُ فيها على تقديم النصائح لاختي بالتخفيف من قلقها على أولادها باعتبار أنهم كبروا في العمر وأصبحوا يعرفون مصالحهم أكثر مما نعرفها نحن، وإن لم تعترف بنضوجهم وقد بلغ أكبرهم السابعة والأربعين من عمره فمتى تتركهم وشأنهم؟ لم تجبني على سؤالي. وكان أن اتصلتْ بي هاتفياً نهار الأحد في 27 حزيران عام 2004 لتخبرني أنها لم تتمكّن من الاتصال بابنها الأكبر في نابلس. كان قد ذهب قبل اسبوعين مع زوجته وطفلتيهما لزيارة أهلها هناك بعد فراق أربع سنوات. وبعد أيام على وصولهم إجتاحت القوات الإسرائيلية المدينة القديمة وفرضت منع التجوّل إلى ان تمكّنت من قتل سبعة من قادة الانتفاضة، فأعلن أهل نابلس الحداد العام ومشى الشعب في جنازة كبرى. وسمعتُ مراسل الجزيرة وليد العمري يقول ان الأسى يلفّ المدينة، وتحدث محافظ المدينة محمود علول عن أن الشهادة ولادة جديدة.

وكنت أراقب تقرير الجزيرة نفسه فاجتاحني أنا أيضاً شيء من قلق أختي.

***

تقاعدتُ من التدريس الجامعي باكراً قبل أن يداهمني العجز، وأصبح بامكاني أن أعود إلى الوطن في أي فصل من فصول السنة بعد أن كانت زياراتي تقتصر على مواسم الصيف بدءاً من بيروت تليها دمشق وحلب وقرية صغيرة إسمها كفرون. إخترتُ بدايات الخريف من العام الثاني في القرن الواحد والعشرين، وكنتُ اشعر بشوق للبلد، وأرغب بالإطلاع على أحواله عن كثب. لم أتوقّع بعد خروجه من حالة الشلل التي طال أمدها مهما بدا في الأفق من بصيص أمل من وقت إلى آخر. وكان من همومي إستكشاف عوالم الرواية الجديدة التي أكتبها فتسكنني وتعيد صياغتي فيما أعمل جاداً على اعادة صياغتها إنطلاقاً منها. وسرني بشكل خاص أن رؤى رافقتني في هذه الزيارة ربما في محاولة أخيرة للتوصّل إلى قرار بالعودة نهائياً إلى الوطن بعد إنقطاع بلغ ربع قرن من الهجرة المتواصلة في المنفى. وبذلك كون قد امضيت أكثر من نصف عمري مقتلعاً من الوطن الذي احبه بدءاً من آلام الشعب.

أشعر لدى عود تي إلى بيروت ان الانقطاع عنها استمر زمناً طويلاً أكثر مما توقّعتُ فلم تعد هي ما هي ولا أنا ما أنا. وهذا ما يجعلني استنتج محرجاً أمام نفسي ورؤى أن مشكلتي في علاقتي ببيروت هي الانقطاع الذي تتخلّله زيارات قصيرة عابرة كسحابة لا تمطر، خاصة وأن الكثير من أصدقائي تشتّتوا هم أيضاً في مختلف أصقاع العالم. أما رؤى فكانت تعرف تماماً أن ظروف العائلة كما ظروف البلد لا تشجّع على العودة، فتنبّهني بلطفها المعتاد أنني في هذه الحالة استجيب لنوازع القلب أكثر من أحكام العقل. واستغربتُ أن عادل وقف هذه المرة إلي جانبي وعارض رؤى قائلاً: إن حدس القلب قد يكون أكثر صدقاً من حسابات العقل.

تبادر لي أن تطوراً هاماً يجب أن يكون قد حدث في فكر عادل ولكنني لم أكن أرغب بمناقشة هذه المسألة في تلك اللحظة. كان همي العودة للتجوّل دون إنقطاع في الشوارع والأحياء والتحدث إلى الناس ومقابلة أهل الفكر وصانعي الأحداث والقرارات والدخول في نقاشات مع الأصدقاء والصديقات لمزيد من الإستطلاع لاعوّض على ما فاتني. اتمشى يومياً عند الصباح الباكر قبل شروق الشمس مع صديقي عادل على الكورنيش وأعرّض نفسي لهواء البحر بين الروشة وفندق سان جورج الذي ما يزال على حاله. وفي تجوالي الطقوسيّ كثيراً ما كنت أتفاجأ بمشاهدة أصدقاء انقطعتْ صلتي بهم لزمن بعيد.

وحين لا أكون على موعد، أترك خطواتي تقودني حيث شاءت في شوارع رأس بيروت وأزقتها. وكثيراً ما تجوّلنا في المساء مع الأصدقاء والصديقات في ساحتي البرج والنجمة فتردّدنا على مطاعم من كل لون وشكل، وخضنا أحاديث في موضوعات غير متوقّعة. إسترجع مع البعض احداث حرب لبنان الأهلية الأولى والثانية منذ الإستقلال فاكتشف أن هذا آخر ما يريدون الخوض فيه وتزداد قناعتي بأن هذه النزعة، من حيث ندري أو لا ندري، ستستمرّ وقتاً طويلاً قبل ان تختمر آثار هذه الحروب في نفوسنا فنتمكّن من الكتابة عنها مجردين من غضبنا على أنفسنا وعلى الأطراف المعنية الأخرى.

اذكر انني وجدت نفسي في المهجر بسبب الحرب الأخيرة، وبين الموضوعات التي بدأتُ أهتم بها نتيجة لذلك ما أسميته مثلث العلاقة بين المنفى والهوية والابداع.

وإذا كان الراوي لم يشهد الحقيقة، والحقيقة لا تُروى بسبب الحساسيات المتناقضة وتعقيداتها، فماذا يكون الغرض من سرد الحكايات التي تتوالد من حكايات أخرى وسط المزيد من الدمار؟ هل الحكاية بحد ذاتها هي المسألة؟ وهل أصبحتْ الرواية كالمدينة أو بالأحرى كبرج مدينةِ بابل يتكلّم سكانها جميعَ اللغات للتعبير عن تجاربهم وارائهم وأحاسيسهم دون رغبة بالتعارف والحوار في محاولة جادة للتفاهم وتجاوز التناقضات والخلافات؟

ولماذا لم نعد نعرف الحقائق بعد ان أصبح الناس ـ العاديون منهم وغير العاديين ـ يُجيدون الكلام دون مضمون بمختلف اللغات واللهجات والأساليب؟ وهل خَبِرَ لبنان حروباً ذاتية لأن شعبه شعوباً وقبائل وطوائف تتطاحن في نطاق ضيق وبحيث يكون الخيار الوحيد المتبقّي للمواطن هو ان يخوض معارك عبثية انتحارية أو ان يبحث عن منفى لروحه الضائعة؟ وربما ما كانت الحرب لتقع لو لم تقتنع كل قبيلة كل الاقتناع بما ترويه هي ولا تصدّق شيئاً مما ترويه القبائل الأخرى.

وكيف الخروج من مرض الطائفية؟ قال أبطال الاستقلال في الميثاق الوطني أنها نظام وقتي. ماتوا وبقى النظام الذي يحرم ثلاثة أرباع أطفال لبنان من أن يحلم احدهم بان يصبح رئيساً للجمهورية. ما حدث ان صديقي يوسف أصبح يقتنع تحت تأثير شارل مالك ان «واجب وجود لبنان ليس كجغرافيا لأنه يمكن أن يكبر ويصغر. ولكن كنطاق ضمان أخير للقيم المسيحية في الشرق وحفظها».

لم أعد أدري كيف أخوض في هذه المسائل الشائكة حتى مع صديقي عادل الذي أصابه اليأس من إحتمالات إحداث أية تغييرات

جوهرية في واقع الحال وأصبح يعتقد أن أفضل ما يفعله هو ألا يفعل شيئاً فينصرف لقضاء أوقات ممتعة مع الأصدقاء وافراد العائلة أو مراقبة التلفزيون إلى أن يستغرق في النوم. وقد أصبح ينام باكراً وينهض باكراً لمارسة رياضته اليومية بالتمشي على الكورنيش. وعندما أنجح في جره للدخول في نقاش ما، يعود إلى كنوز نظرياته ومفاهيمه القديمة فيحدثني ببلاغة ولغة جازمة عن أهمية العلم والتفكير العقلاني والتربية، ثم يعود للتأكيد على أهمية القلب. وإن تجاوبتُ معه يمتد الحديث إلى ما لا نهاية، وإن لم أتجاوب يلجأ للصمت والإنشغال بشؤون أخرى.

وأعود للتجوّل في شوارع رأس بيروت، وقد لفتتْ نظري تلك السنة إو قبلها كثرةُ اليافطات المعلّقة في الشوارع الرئيسية وغير الرئيسية. قرأتُ يافطات قديمة وحديثة في بيروت الغربية تقول، «دولة الرئيس الحص، صاحب الضمير.. صانع المصير.. وبطل التحرير»، «راح اللص واجا الحص»، «شعار الجيش: منا التحرير، ومنكم التعمير»، و«جهود رجال الأمن زرعت البسمة في الوجوه والنفوس» (تقدمة جمعية المشاريع الخيرية الاسلامية). وذكّرتني تلك اليافطة بشكل خاص بيافطات أخرى شاهدتها في بيروت الشرقية وفي الطريق بين انطلياس وبكفيا، منها «بكركي مرجعيتنا وصوت البطرك صوتنا»، و«لبنان والحرية تؤأمان». هل مات أحد التؤمين عند الولادة؟

وتوقّفتُ مرة مطولاً في شارع بلس عند طلعة مستشفى خالدي حيث كان منزل دمشقية القرميدي الجميل (قبل أن يهدم للأبد وتحلّ محله بناية حديثة) فقرأت يوماً على حائطه اعلاناً من قبل الدفاع المدني، الجبهة الموحدة لرأس بيروت، يقول «بتاريخ 18/10/85 سقط في هذا المكان ثلاثة عناصر من عناصر الدفاع المدني: فادي ميشال زريق، وباسم عبد الحميد القيسي، وهاني انطوان بيطار. سقطوا دفاعاً عن الانسان والمواطنية».

أُزيلتْ اليافطة كما المنزل القرميدي. وهذا ما ذكّرني أيضاً أن مطعم فيصل ـ في مواجهة المدخل الرئيسي للجامعة الأميركية المتوّج بعبارة «لتكن لهم حياة، وتكون حياة أفضل» ـ حلّ محلَّه مطعم ماكدونلد، فأسأل نفسي: عندما يحلّ ماكدونالد مكان فيصل مقابل مدخل الجامعة الأميركية، هل نسمّي ذلك تقدماً أم تأخراً وهل أصبحتْ لنا حقاً حياة أفضل؟

وكان لا بدّ من العودة إلى شارع السادات بدءاً من مخفر حبيش وانعطف إلى اليمين عند المفرق الأول قاصداً فيلا مدرسة جمعية نساء لبنان في شارع منصور جرداق. امشي خطوات قليلة. اتوقف امام ورشة عمل كبيرة حيث كانت مدرسة الروضة. تفاجأتُ أنهم هدموا الفيلا الجميلة التي كان يحيط بها سور الياسمين. اتأمل الدمار فيقترب مني عامل شاب لاحظ انني اراقب المكان فسألني، «مضيّع حدا؟». قلتُ لا، مضيع نفسي، ومضيتُ لشؤوني.

أين نحن الآن من الأمس البعيد؟ لقد بدأت بهية في نهاية القرن دخول شرنقة النهاية دون أمل بالولادة الجديدة. هذا ما حدث لأمي قبل ما يزيد على عقد من الزمن، وها هي بهية تسلك الطريق نفسها. قبض عليهما الموت بشبكته، وكالسمك صارعتا ثم استسلتما. وتعلّمتُ من تجاربهما القاسية أن أنفتح على اقسى التجارب كي أعيد صياغة نفسي بقدر ما استطعتُ. استوحيتُ ذلك من حدّاد الكفرون الذي كثيراً ما راقبته في طفولتي كيف كان يضع الحديد في النار قبل ان يصنع منه ما يريد. وترسّخ ذلك في ذهني في زمن الكهولة حين صادفتُ فناناً يُصهر الزجاج في النار، ثم ينفخ به إشكالاً فنية فريدة من نوعها. هل كان يمكن ان يحدث هذا التشكُّل الفنيّ دون التعرض للنار؟ وفي مختلف الأحوال يبقى سؤال لا مهربَ منه: كيف أصبحنا كوطن وأمة نعيش على هامش الوجود بعد أن كنا نحلم أن نقترب من مركزه؟

أستعيد مفاهيم التبعية والعولمة، وأبحثُ في العمق علّني أجد جواباً لماذا تحمل الحكومات الأميركية المتعاقبة كل هذا الإزدراء للعرب وكل هذا الاستهتار بحقوقهم؟ أميركا نفسها تسأل في هذه الأيام بعد الحادي عشر من سبتمر في العام الأول من القرن العشرين لماذا يكره العرب أميركا؟ إنقلبتْ الآية فهي تريد أن توجّه تهمة لا أن تبحث حقاً عن جواب صحيح. لم يخطر في بالها كم تحكّمتْ بمصير المنطقة وما سبّبتْ وما تزال تسبّب لها من مشاكل مستعصية. شنت حرباً إستباقية طاحنة على العراق في سبيل تغيير خارطة الشرق الأوسط. ولغرابة الصدف، كان أن وقع في يدي عدد من مجلة الآداب للشهر الأخير من عام 1957 نشر فيه نزار قباني قصيدة بعنوان «من شاعر سوري إلى مواطن أمريكي» كما لو كتبها في نهاية القرن مصوّراً ما يحدث الآن:

من بلدٍ في الشرق الأوسطْ
أسكنهُ.. يدعى سوريّهْ

يتسلّق خارطةَ الدنيا
كالنحلة.. كالعُشّ الأخضرْ
... من هذي الأرض أناديكا
وأنادي فيك الإنسانا
فأنا لا أكره إنسانا
وأنا لا أكره أمريكا
لكنّ رئيسكَ يحسبني
يحسبني هندياً من أوكلاهوما
ورئيسك في البيت الأبيضْ
ما زال يحاول تصويري
للدنيا باللون الأحمرْ.
إني إنسانٌ لا أكثرْ
يكره فلسفة الألوانِ
ويقول بحبّ الإنسانِ
للإنسانِ...

أسأل إذا كان هذا ما قاله نزار قباني عن آيزنهور في منتصف القرن العشرين، فماذا يمكن ان يقول عن جورج بوش الإبن بعد حوالي نصف قرن؟ وماذا يمكن أن يقول لي الرئيس الأميركي لو أنني ترجمتُ القصيدة وقدّمتها له على صحن من الفضة؟ ترى يعود للتساؤل لماذا يكرهنا العرب الذين يتساءلون بدورهم من زمن إلى متي تهيمن أميركا على حياتنا ولماذا تسبّب لنا المشاكل وتُلحق بنا كل هذه الآلام، أم أنه يطلب من مساعدته كاندليسا رايس أن تحتفظ بالصحن الفضي وترمي القصيدة في سلة مهملاتها؟

وأجتمعُ مع عثمان في شارع فردان بناءاً على طلبه لصياغة رسالة أراد أن يوجّهها إلى الرئيس الأمريكي السابق جمي كارتر يدعوه فيها باسم تجمعات مدنية وبترتيب مع الجهات المعنية إلى زيارة العراق ولبنان وسوريا وفلسطين ليطلع مباشرة على الأوضاع بحيث يتوصّل إلى صِيَغ سلمية لحل المشاكل العالقة لمصلحة المنطقة والنظام العالمي بأسره. نتفق على صيغة الرسالة على أن نرفقها بترجمة لقصيدة نزار ونخرج لنتجوّل في شارع فردان فيُدخلني عثمان من محلّ إلى محلّ ليُريني التقدُّم الكبير الذي حدث في الحي. يقول بلهجة متواضعة لم تخفِ ما وراءها من إفتخار وإعتزاز، فيما نشرف على قصر رئيس مجلس النواب، أن النخبة اللبنانية أصبحتْ تقصد شارع فردان وتعتبره واحتها الوحيدة بعد أن حلّ محلّ شارع الحمراء الذي أصبح يجتذب، حسب تعبيره «ما هبّ ودبّ» من الناس حتى أن صحيفة «النهار» قرّرت نقل مقرّها إلى موقع آخر في ساحة البرج.

وهناك في هذه الأيام بالذات مواسم إحتفاءات دينية لا تنقطع برفاة القديسة تريزا في صيف السنة الثانية من القرن الواحد والعشرين تماماً كما حدثت إحتفالات بالقديسة رفقه قبل سنة لأغراض سياسية. وكان لبعض وسائل الإعلام دورها. يوماً بعد يوم وصفتْ صحيفة النهار كيف جابوا رفاة القديسة تريزا لبنان قرية بعد قرية ومدينة إثر مدينة وحياً بعد حي.

وفي حيرة من هذه اللغة المبطّنة أسأل وليس من مجيب: هل هي التي «جابت القرى والمدن والأحياء» أم هناك من جاب بها لأغراض لا علاقة لها بالقداسة سوى مظهرياً بغية التحريض والتلاعب بعواطف المساكين من المؤمنين والمؤمنات؟ إخبرني يا صديقي مارون مَنْ وراء وَضْع البرنامج وما الغاية منه؟ ترى لا يعرف الناس حقيقة ما يجري أم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون؟ ما نعرفه ظاهرياً أن رهباناً حملوا زخائرها التي تزن 132 كيلوغرام وتنقّلوا بها من مكان إلى مكان لتجتذب الجماهير الجائعة، العطشة، العاطلة عن العمل. هكذا تمّ التطواف بها في جميع أرجاء لبنان. آلاف إندفعوا للتبرك بها وسط الزغاريد والأهازيج والغناء والإبتهالات والتراتيل والدعاءات والقداديس والصلوات والتصفيق. جابوا بها لبنان وكان بينهم كهنة ورهبان وراهبات. هم الذين تنقّلوا بها في بحر من المؤمنين والمؤمنات. قالوا أنها «وصفة سماوية وزهرة ربيعية».

وتكرّرتْ المشاهد عشرات المرات منذ وصلت زخائرها على متن طائرة الشرق الأوسط من باريس، فتعالت التراتيل والصلوات، «الرب

راعي لا يعوزني شيئاً»، و«يا تريز من علاك أمطري ورد السلام»، و«أنت كلمة من عند الله»، وقيل «إنها طريق الاتحاد بالله بتسليم الذات المطلق له تعالى.. ووعي المحدودية الذاتية لضعف الواقع الانساني المتبدّل والزائل... إنها طريق التشبّه بيسوع المسيح، والإنصياع لروحه القدوس... إنها صرخة قلب من قلب المحنة... وتأتينا تحية من السماء وعطية للمسيحيين وللمسلمين».

وكثيراً ما إختلطت التراتيل بزغاريد الطرب. في أجوائها تلى مطرانٌ صلاة قال فيها، «إجعلنا نوراً وخميرة في العالم... إجعل وطننا لبنان عائلة واحدة متماسكة...آن الأوان لشعب لبنان أن يغيّر مناخ الأزمات الخانقة التي يعيشها كل يوم... أمام هذه المعضلات القائمة، لم ينسَ الله شعبه. لم ولن ينسى لبنان الوطن الرسالة... ونسألها ان تستمد لنا من السيد المسيح الذي أحبّتْ إلى أقصى الحدود، أن يظلّ لبنان بلد الإنسان، بلد المحبة والحوار والعيش المشترك الأخوي، بلد الحرية المقدسة، وأن يستعيد أبناؤه كرامتهم السليبة وكرامة الوطن العزيز باسترجاع قرارهم الحر». وربما طلب مطران آخر ان يحفظ الله النظام الطائفي.

تكرّرتْ المشاهد والتعابير ذاتها في يوم من أيام آواخر تشرين الأول، فنشرت النهار عدداً من تقارير مراسليها عن أن «الطريق الساحلية تحوّلت مهرجان ورد»، وان آلافاً من أهل المتنين الشمالي والجنوبي «واكبوا تريز من ضبيّة إلى الحدث في عرس كبير... وألقوا الورود على موكبها حتى بدت الطريق الممتدة أمامه ووراءه بحراً من الأزهار الملونة». وقيل إن «فتاة خانها قلبها 4 أعوام أعادته إليها القديسة بحرارة التضرّع، وأن إمرأة تعاني من وجع في رقبتها، فما أن لمست النعش حتى شفيت». آه لو حملوا لها الميثاق الوطني وطلبوا متضرعين أن يتحوّل النظام الطائفي إلى نظام علماني يحرّر الدين سيطرة الدولة والسياسيين.

بدلاً من هذا ورد في النهار أيضاً أن عناصراً من قوى الأمن الداخلي حملتْ في الأشرفية ذخائر القديسة تريزا طوال زيارتها. وفي الدامور أعدت البلدية استقبالاً حاشداً من مدخل البلدة إلى كنيسة مار الياس المارونية، وغطّى السجاد الأحمر الطريق التي سلكها الموكب.. ووصف رئيس بلدية الدامور زيارة القديسة بأنها «حدثٌ تاريخي لأنها ستبارك العودة وتكريس العيش المشترك في منطقة الجبل وتمحو ماضياً أليماً في النفوس». وفي هذا الوقت بالذات توجّه أسقفٌ للناس بقوله، «الراعي يقول: أعرف خرافي، وخرافي تعرفني». أرفض أن يكون الكهنة الراعي،، والشعب الخراف.

وفي الختام سكتتْ شهرزاد عن الكلام فأرفق التلفزيون تغطية القداس بعرض صور من الأرشيف لشخصيات عديدة منها شمعون ومالك. ألم يكن من الأفضل لو اعترفتُ لكم يا أصدقائي وصديقاتي بأسرار حياتي في زمن المراهقة وبدايات النضوج والوعي كما تذكّرتُها بعد ما يزيد على أربعة عقود في تاريخ يزدحم بالأحداث الغامضة؟ كان من الممكن، مثلاً، أن أعترف لكم بأنني بعد أن قرأت حكايات من ألف ليلة وليلة، حلمتُ أنني لبستُ قبوعة الإخفاء في ليلة مظلمة ودخلتُ مقصورة شهرزاد بعد أن غرق شهرايار في نوم عميق فداعبتها وداعبتني حتى بدايات الفجر.

***

لم إعد أعرف أين منزلي. هل هو ما نملكه في واشنطن، أم ما لم نعد نملكه في بيروت والكفرون؟ تركتني رؤى في بيروت منذ أسابيع أواجه تساؤلاتي بمفردي وعادت هي إلى العائلة في واشنطن، المكان الوحيد الذي نملك فيه مقراً طالما إعتبرته عابراً. وطالت أيام الغياب بيننا وأنا ممعن بالبحث عن جواب لسؤال غامض. لا شيء يملأ الفراغ مهما كثرت أعمالي ولقاءاتي. هناك في نفسي دائماً جوع لشيء ما خارج دائرة حياتي. ومهما كان الغموض الذي يكتنفني، أجدني واثقاً كل الثقة من أنني اتوق إلى حبيبتي كالنهر إلى البحر.

وفي طريق عودتي أسأل ماذا عنت لي كفرون وبيروت وواشنطن؟ الكفرون لي هي لغة القلب وينابيع الحب، وتلال تعشق الأودية، وبشر يُجيدون في مواسم الربيع مزيجاً من لغتيّ العشب المطر، وفي مواسم أخرى لغة الشجر والأنهر. هي الناس قبل كل شيء، ثم تأتي البساتين والأنهر والسواقي والتلال ومعابر طيور الحوم. هي أيضاً تدخّل الناس بشؤون بعضهم البعض، والعداء بين الأقرباء، والخوف على ما تبقّى من حضارة القرية. ومهما كان، تظلّ عاصمتي الروحية والإبداعية. وأكتشف مرة أخرى في هذه الزيارة أن الموت هو الذي يجمع سكان القرية. توفيت زوجة قريب لي فحضر للتعزية كل مَنْ أردتُ أن أراه، وتألّمتُ أن أسمع بوفاة صديقي حيدر في عز شبابه. قبل سنة قضينا معاً وقتاً ممتعاً في الكفرون، وكان الموت آخر ما يمكن أن نفكّر به. مضى تاركاً الينابيع، والتلال، وعائلته الجميلة. إبنته رؤى التي إستوحيتُ إسمها في روايتي الجديدة كانت غائبة.

والشيء الهام الآخر في الكفرون عدا الموت هو الأعراس والولادة. تفاجأت أن ثلاث عائلات أسمت بناتها إنانا باسم رواية كتبتها عن

الكفرون. وكل زيارة لها تشمل أيضاً زيارة المشتى حيث الكثير من أقربائي من جانب أمي. كان إبن خالتي جريس، رئيس بلدية المشتى، كعادته متألقاً هو وعائلته الجميلة. وأصبح لي فيها صديقة اسمها يارا تعرّفت إليها عن طريق صديق فلسطيني من الجليل عبر الانترنت. أمها من المشتى وتربطني بها قرابة بعيدة. وتعني لي الكفرون أيضاً زيارة أصدقاء في صافيتا التي يرى أديب زوج جهينة أنها في حالة تورّم، كما حدّثني عن عائلته بقوله، «لست عائلياً. آل بشور جاءوا أصلاً من اليمن وعملوا وكلاء أرض عند آل شمسين الإقطاعيين. ومع الوقت حلوا مكانهم».

أما بيروت فهي جارة الجبال والبحر وصلة الوصل بينهما، وهدية البحر للجبال غيوماً على طبق من الأمواج، واقتحام القرية المدينة، وعناق آخوي بين القديم والحديث، التجار، وحوار الطرشان، ومحطة للسفر إلى مكان آخر خارج الوطن. أحب الشمس فيها وأذكر بين أكثر ما أذكر أن أمي كانت تخرج باكراً من غرفتها عند شروقها لتصلي لها، «يا الله، يا فتاح يا رزاق إفتح علينا أبواب نعمتك»، وتعلن «العين بصيرة، واليد قصيرة»، فاسأل نفسي هل في أعماق أمي آثارٌ من تقاليد عبادة الشمس التي تفرض نفسها على كل شيء وتحدّد بدايات الأيام ونهاياتها؟ لقد وعيتُ موخراً مدى حضور الشمس القوي الراسخ في حياة الناس.

بعد زمن من إحتجابها عني في أوروبا والولايات المتحدة، فرضتْ حضورها عليّ في الوطن العربي. تتسلّق قبة السماء متوهّجة ساطعة جبارة فتُلغي كل حضور آخر. تُلغي القمر والنجوم والظلال وتبدّد الغيوم. واتساءل بيني وبين نفسي هل هناك علاقة بين حضور الشمس الذي يُلغي كلَّ حضور آخر وظاهرة استبداد الحكام والآباء والأسياد من كل لون وشكل؟

وبعد ما يزيد على ربع قرن قضيته في واشنطن رسخ في ذهني أنها مهرجان ألوان في الخريف، وسيمفونية زهور في الربيع، ورطوبة حارة في الصيف يهرب منها الناس إلى حيث لا يعرفون. وبقدر ما أنفر من سياسات الحكومة، إنجذب لنهر البوتمك وشلالاته وصخوره ويطيب لي التمشي على درب القناة، وأقدّر الجامعات، وأنعم بهدوء منازلها، واقصد جبال شسننندوا كلما أردتُ أن أتحرّر من مسؤولياتي. إنما، على عكس باريس، ليس فيها شارع باسم مفكر أو مبدع على ما أظن. تحمل شوارعها أسماء رجال أعمال وسياسين ومحاربين وولايات أو أعداداً وأحرفاً مجرّدة. جفرسون ولينكولن على رأسي، وكلنتون إنتخبته وإن عتبتُ عليه بعد أن رأيت مونيكا صدفة في الوترغيت فقلت إنه بلا ذوق، وكندي بكيت عليه يوم إغتياله كما لو تمّ القضاء على حلم جميل وإن لم أكن أعرف جوانب سياسية أخرى من حياته. وتصدمني سياسة الهيمنة، ولا أفهم كيف أصبح رجلٌ غبيٌ سيداً للمدينة في هذه الأيام الهزيلة!

ولأننا نقيم في المنفى لم يكن من الغريب أن يصيبني ولع بالغربة، وما أن أعود إلى بيروت حتى أشعر بأزمة في علاقتي بها، وأقول ربما أحبها أكثر مما تحبني. تربطني صداقة عميقة ببحرها، وهي تعاديه. احب الطبيعة، وهي تهاجمها بشراسة. وتثق بنفسها لا شك، ولكنها منشغلة بتقاليد غيرها كما لوكانت لا تملك تراثاً قديماً. تنصرف لا للإبداع بل للإقتباس من الخارج، وتنشغل بالظواهر فيأتي إقتباسها ضحلاً، وتقيم علاقة جنسية مع المطاعم والأزياء.

ومما زاد من حيرتي أن حبيبتي قالت لي بعد مرور مدة على وجودنا في بيروت خلال السنة الأخيرة: بي شوق لبيتنا والعائلة.

أجبتها، «لم أشبع بعد من بيروت»، فغادرتْ على أن ألحق بها. وها قد طالت المدة، وإجتاحني الشوق إليها، فوجدت نفسي أقول وأنا أتأمل البحر من مسافة قصيرة، «فن الحب وحب الفن، هذا هو أنا، أو الأنا التي أريد. الفن شعلة في الداخل تنطفىء حين لا أحب. أفكّر أن رؤى زهرة رمان، ونبع يفيض، وغيمة تظلّل صحرائي.

أدرك كم إتسعت دوائر إنتماءاتي، ولكنني ما أن اشترينا قطعة ارض في جبل السيدة في الكفرون حتى نبتت لي جذور جديدة واستيقظ فجأة الشعر في نفسي من نوم عميق فكتبت في مفكرتي: لماذا الله غيمة لا تمطر؟ وفي غيابي ماذا احب ان يقال عني؟ اتمنى ان يقال ان مخيلتي عشيقتي، فانا اسرح معها حيث شاءت حابكاً اصابعي باصابعها، وأفقد لوهلة ولعي بالنظر إلى نفسي في المرآة، ولكنني نظرتُ فيها اليوم ما يكفي لأن ادرك ان عينيّ غارقتين في حنجرتيهما مما فسرّته على أنه موازنة في شخصيتي بين التطلع إلى الداخل والى الخارج معاً.

وفي زمن عشق المخيلة، إستعدتُ ذكريات علاقتي بحفيدة حين كانت دون الخامسة من عمرها على ما أعتقد.اخترعنا معاً لعبة جديدة من حيث لا ندري، وكانت هي التي بدأتها. قالت زينا صدفة: بدي حطك بالتلفزيون واحضرك.

قلت بعد أن غرقت بالضحك والافتنان بمخيلتها: بدي إعملك موسيقى واسمعك

قالت: أنا بدي إعملك زهرة وشمّك

أجبتْ: بدي لوّنك وعلّقك لوحة على الحيط.

أجابتْ: بدي حطك بالقلم واكتبك

قلتُ: بدي اعملك عصفور وطيّرك

قالتْ: بدي أعملك عقد وإلبسك

حملتُها محدقاً في وجهها وقلتُ: بدي اعملك كتاب وأقرأك

قلتُ ذلك بخيبة أمل مدركاً أن مخيلة زينا أغنى من مخيلتي. لم تدجّنها الثقافة السائدة بعد. وكما لو أرادتْ حفيدتنا أن تمعن في التغلب عليّ، تابعتْ الحوار معي: بدي اعملك شامة وحطك على وجهي. إنتَ شو بدك تعملني؟

- بدي إعملك شجرة وإقعد تحتها

- بدي اعملك عصفورة على شجرة

ويصيبني في الصميم حنين للعائلة فأجد نفسي أكبتُ بيروت بخيبة أمل معلناً أنها غير قادرة على تجاوز نفسها والأنظمة التي تتحكّم بها. تعجنها الأحداث المؤلمة وتخرج منها سليمة كما كانت أوربما أكثر تمسكاً بنظام حياتها السابق. أيهما بيروت؟ لا أدري. ولأنني لا أدري اشعر بالقلق وتضطرب في نفسي اسئلةٌ لا جواب عليها.

تقلّبتْ ظروف الحياة فقرّرتُ الرحيل مسلّحاً بأسهمي وأوتاري، ولم أتحرّر من جاذبية بيروت إلا بعد أن حلّقتْ بنا الطائرة فوق المحيط بين باريس وواشنطن. وكي أنسى همومي شربتُ نبيذاً إلى أن دخلتُ في مجال جاذبية حبيبتي رؤى وتأمّلتُ غيوماً بيضاء تسرح حرة بين زرقة البحر والسماء. وكما توقّعتُ، وجدتني أعزف لحبيبتي تقاسيم على أوتار الكلمات، وأكتب في يومياتي خواطر تُشْبِهُ حلماً أبصرتُه بين النوم واليقظة:

حَلَمْتُ بين النوم واليقظة أن سفينةً أبحرتْ بنا، أنتِ وأنا، فشعرتُ أنك مرساتي ومنارتي ومرفأي.

وحَدَثَ أن إحترتُ بين الشمس والماء

وسمعتُ من بعيدٍ، بعيدٍ جداً

وقعَ المطرِ في مكانٍ سحيقٍ من أعماقي

فلجأتُ اليكِ متسائلاً: كيف نما لروحكِ جسدُ يا حبيبتي،

وبأية قدرة فائقة استحال جسدي المتعبُ روحاً؟

***

كنتُ أَبْحثُ عن وردةِ العشقِ حين اكتشفتكِ

واستحال وجهكِ منارةَ سفينتي الضائعة

فما كان مني إلا أن قطفتُ وردةً من حديقة وجهكِ

ووضعتها في إناء روحي.

اتوق إليكِ كما النهر إلى البحر،

فسألتُك: كيف تحسّ المرأة حين تُحبّ؟

تجيبين: كما تخرج الشمس عن دائرتها

أقول: وتحسّ أنها تسكن خيمةً من الغيم.

وتسألينني: ماذا يحلّ بالمرأة حين تمطر الغيمة؟

أجيبكِ: يطلع لها جذورٌ في الأرض وتُصبح شجرةً.

***

وفي طريقي إليكِ يا حبيبتي

أرى الغيومَ فوق المحيط منحوتاتٍ في حديقةِ الفضاء:
غيمةٌ لها شكلُ صخرةٍ في وادي الكفرون،
أو شجرة تحار أغصانها هل تسمو إلى السماء
أم تهبط إلى النبع؟
أن تكونَ حورةً أم صفصافة؟
وأشهد غيمةً إمرأةً عارية مستوحدة
صدرها حقل رمان في تشرين.
أتأمل غيوماً بيضاء من كل شكل وحجم وكثافة.
بدتْ غيمةٌ كما لو كانتْ حمامةً.
وتُشبه أخرى عاشقاً وعاشقة يرقصان
وقد انتشيا بموسيقى الأمواج
الغيم غطاؤنا والمطر صديقنا،
والحب أنتِ وأنا
فأدرك أننا لم نُصنع لنفترق
ولن أرتوي من ينبوعك.
أُلامس أوتارك فاعشق ألحانك،
يا رفيقة الريحِ والمطرِ في زمن الجفاف.
بوابة سمائي أنتِ،
وثوبك غيومٌ بيضاء فوق بحيرة زرقاء
فأقرأ الغيمَ بنَهَمٍ.
وتُحرّك الموسيقى رياحَ الوقت
فتحملني الغيوم على راحتيها
إليكِ يا شجرةَ عمري.
في ظلّ أغصانك أُصغي إلى حوار
بين غيوم بيضاء وبحيرة زرقاء
فتصنع كلُ غيمةٍ شكلَها
بدءاً من علاقتها بالريح.
تندمج زرقةُ البحرِ بزرقةِ السماء،
فلا أرى حدوداً تفصل بينهما.
فسحةٌ زرقاء، ومسافاتٌ شاسعة من غيوم بيضاء
لا بداية لها ولا نهاية
غيومٌ تتخذ شكلَ الريح
وليس من غيمة تُشبه أخرى
أنتِ الأزرق وأنا الأبيض يا حبيبتي،
بل أنتِ الأبيض وأنا الأزرق
يلتف الأزرقُ حول الأبيض كغصن دالية
وينامان معاً في سرير الموج

يرتدي الأبيض ثوباً أزرق،
يرتدي الأزرق ثوباً أبيض
الأبيض يلبس قبعة زرقاء
الأزرق ينام في سرير أبيض
حبيبتي غيمةٌ وأنا الريح،
أنا مطرٌ وهي بحيرةٌ.
السماءُ بحيرةٌ وأنتِ أسماكها الملوّنة،
وأنا شواطئها.
لماذا المسافة بيننا، يا حبيبتي، طويلةٌ
والوقتُ يمرّ بطيئاً؟
نسيجٌ من الأبيض والأزرق
خيوطه أنتِ وأنا
أنتِ دافئة كالشمس عند الغروب،
وكالبدر في أوج استدارته في سماء صافية.
أبيض يتلاشى في الأزرق
وأزرق يتلاشى في الأبيض.
أنتِ شاطئي وأنا بحرك
أنا شاطئك، أما بحري فهو أنتِ.
بعد غياب طويل
تحملني الريح اليكِ مطراً
يا بحيرتي الجميلة.
أنتِ بحيرةٌ زرقاء
وأنا غيمةٌ بيضاء تمتطي فرسَ الريح.
إنتِ غيمةٌ وأنا بحيرةٌ
يا غيمتي الجميلة

***

إختصر الشعرُ المسافات والوقتَ بيننا، فكان أن وصلتُ واشنطن في يوم عاصف ماطر بعد غياب طويل في بيروت حيث أصغيتُ لحوار بين البحر والشمس، ولم أزل مأخوذاً بالعزف على أوتار الكلمات حين رأيت وجه رؤى فأشرقتْ شمسُ حياتي.

وما ان مضتْ أيامُ قليلة حتى حلمتْ رؤى أننا شيّدنا منزلاً في السماء لم نتمكّن من الصعود إليه فهبطنا إلى البحر وتعرّضنا لأمواجه الصاخبة. فقط في تلك البرهة العابرة بدأنا نتكلم عن موعد لنا مع بيروت. هل كان ذلك رغبةً بالبحر والشمس أم شوقاً للصداقة؟

ولا بدّ أن يأتي يومٌ ينتشلني فيه الوطن من حيرتي.

إلى حياة: زهرة رمان، ونبع يفيض، وغيمة تظلّل صحرائي

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

عرفت جيداً أن بيروت ليست المدينة التي تنام باكراً مع العصافير، وأن ليلها أجمل ما تعد به سكانها وعشاقها في مختلف الفصول. غير أني نسيت، وأنا أتجول وسط دمار ساحة البرج، ما حفظتُ من تبجيل لبيروت حين استرجعنا تفاصيل حياتنا فيها... وحين واجهت الدمار العبثي إثر الحرب الأهلية الثانية، انهارت داخل نفسي الأساطير التي حيكت حول لبنان فاقتنعت بأنه كان يقوم على أسس واهية لم تصمد عندما عصفت به، وببيروت، رياح الأزمات العاتية.

... وها قد مضى ربع قرن وما زالت آثار الحرب المجنونة تلك تتفاعل فتعيش مع ناس وأزمنة وذاكرة هذا الوطن وهذه المدينة المنذورة لتعيد بعثها بعد كل حرب، وبعد كل موت...

قيل في الكتاب

«كتابة حليم الحارة إنسانية ومعدية، حيث تضع القارئ الذي يستبد به الحنين... وسط دفء عالم ألف وحكايات بيروتية عتيقة... أناساً وجيراناً وعادات وعلاقات وشوارع وحارات أكل الزمن من كل ذلك الكثير». جريدة الغد

نبذة عن المؤلف

حليم بركات عالم اجتماع وأستاذ جامعي سوري، ولد عام 1933. حائز دكتوراه في علم النفس الاجتماعي من جامعة ميتشيغن في الولايات المتحدة، عمل محاضراً في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي جامعة تكساس، وعمل باحثاً في جامعة هارفرد ترجمت بعض مؤلّفاته إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية واليابانية.

كتب أخرى للمؤلف

«غربة الكاتب العربي»